الخلفاء الراشدون

الأئمة القادة والحكام الربانيون

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
طبعة مزيدة ومنقحة
١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
٢٦١٥ / ٥ / ٢٠١٩

دار عمار للنشر والتوزيع
عمان- ساحة الجامع الحسيني- سوق البتراء- عمارة الحجيري
تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧- ص.ب ٩٢١٦٩١- عمان ١١١٩٢- الأردن
e.mail: dar_ammar@hotmail.com

الخلفاء الراشدون

الأئمة القادة والحكام الربانيون

أبو بكر | عمر | عثمان | علي

الشيخ

نافع بن خالد العلواني

عُني به

عصام فارس الحرستاني

دار عمار

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الخلفاء الراشدون

الصديق – عبد الله بن عثمان (أبي قحافة) بن كعب التيمي القرشي .

الفاروق – عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى العدوي القرشي .

ذو النورين – عثمان بن عفان بن أبي العاص الأموي القرشي.

أبو تراب – علي بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي.

إني أحبُّ أبا حفص وشيعتـــه   كما أُحبُّ عتيقاً صـــاحبَ الغار
وقد رضيت علياً قدوةً علمــاً   وما رضيت بقتل الشيخ في الدار
كل الصحابة ساداتي ومعتقدي   فهـــل عَليَّ بذاك القول من عار

أبو بكر الصديق

رضي الله عنه

المقدمة

الحمد لله، الحمدلله الذي أحكم ما فطر وبنى، وقرب من خلقه لعلمه ورحمته ودنا، ورضي الشكر من بريته لعظيم نعمه ثمنا، سبحانه يغفر الخطايا لمن أساء وخبى، ويجزل العطايا لمن كان محسنا.

والصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله أفضل من تردد بين جمع ومنى، وعلى صاحبه الصديق المقصود بقوله تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ ﴿٤٠﴾﴾[(١)] وسلم تسليماً كثيراً أما بعد.

الملاحِظ لِسِيَرِ الأمم الغربية، يجد أنها أمم تُجِلُّ عظماءها وتكتب آثارهم وتاريخهم، وتسمو بهم إلى ذروة التعظيم، وتسير على مسلكهم، وتسلك في إحياء أسمائهم شتى الطرق كما قال الطنطاوي في مقدمة كتابه عن (الصديق) فتنشئ المعاهد على ذكراهم وتفتح المدارس بأسمائهم، فينشأ الشباب عندهم وقد ألمَّ بِسِير العظماء من قومه، واستقر في نفسه لطول ما سمع من الثناء عليهم بالحق وبالباطل أنهم عظماءُ الدنيا حتى وصل بهم ذلك إلى الغرور القومي.

أما الشاب منا، فإنه ينشأ نشأة يكاد يجهل معها عظماء أمته، لا يدري عن أخبارهم شيئاً، لماذا؟

لأن أخبارهم متفرقة في بطون الكتب القديمة، وقد غرس المستغربون الذين تربوا في أحضان الشرق والغرب على احتقار هذه الكتب، والانصراف عنها، ثم لقنوه تعظيمَ كتبهم الجديدة، والإقبالَ عليها، والإيمان بكل ما فيها فصار الشاب العربي لا يرى العَظَمَةَ والخيرَ إلا ما يأتيه من هناك، وأن الجهل والشر كله هو ما يأتي من هنا.

يقول أحد المربين المسلمين: **أفهَموا شبابنا أن تاريخ نابليون ولويس الرابع عشر هو تاريخ الإنسان الراقي المهذب، وأن تاريخ الصديق والفاروق وعظماء المسلمين هو تاريخ البُداة المتأخرين المتوحشين، فقرأ شبابنا عن تاريخ نابليون ولويس الرابع عشر كلما كُتب وعرفوا عنهما كل صغيرة وكبيرة.. وهم – أي شبابنا – لا يعرفون بعد شيئاً عن سيرة القعقاع بن عمرو، ولا عن سعد بن أبي وقاص.**

---

(١) التوبة: ٤٠.

حياة الصديق هي الصفحة الأولى من التاريخ الإسلامي

إخوتي الكرام، قال علماؤنا: عندما نتكلم عن أصحاب النبي ﷺ، وعمن تبعهم بإحسان، إنما نتكلم عن حياة أمة حملت مصباح النور حين عمَّ الدنيا الظلام. وأرشدت العالم التائه في عباب الجهل إلى شاطئ العلم والمعرفة، كانت هذه الأمة صاحبة الفضل على كل إنسان، لأنها حضارة أساسها التوحيد والفضيلة، وكانت قد سبقتها الحضارة اليونانية التي كان أساسها الشرك والرذيلة.

تاريخ هذه الأمة برعيلها الأول هو تاريخ الكمال الإنساني على وجه الأرض، تاريخ المعجزة التي ظهرت في بطن مكة على يد رجل واحد هو محمد رسول الله ﷺ، فلم تلبث حتى عمت مكة، ثم امتدت فشملت الجزيرة، ثم امتدت حتى بلغت أقصى الأرض؛ فكانت أكبر من الأرض، فامتدت في الزمان، وستبلى الأرض، ويفنى الزمان، والمعجزة باقية كما قال الطنطاوي عليه رحمة الله وفق قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)﴾[(١)]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾[(٢)].

أبو بكر هو الصفحة الأولى من هذا التاريخ الإسلامي الذي ظهر سره في هذه الأمة البادية المتفرقة، فجعل منها أمة لم يكن ولن يكون لها نظير، امتزجت روح الإسلام بأرواح المسلمين، وغلبت عليها، واستأصلت منها الطمع والحسد، والغش والكذب، وأنشأت من أصحابها قوماً هم خلاصة البشر، قوماً يغضبون لله ويرضون لله، وينطقون لله، ويصمتون لله، قد ماتت في نفوسهم الأهواء المحرمة، وبادت منها الشهوات المنحرفة، ولم يبقَ عندهم إلا دين يهدي، وعقل يستهدي؛ كما قال - مؤلف كتاب الصديق - قوم كان دليلهم الدين، وقانونهم هدي سيد المرسلين.

قوم يُنصبُ لهم أميرهم قاضياً، فيمكث سنة لا يختصم إليه اثنان، الأمير:أبوبكر والقاضي:عمر، والمكان: المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

---

(١) الرحمن: ٧.

(٢) الحجر: ٩.

وهذا مثال على أن في تاريخنا المثل الكامل لكل فضيلة، فالعجب من شبابنا يتباهون بمحاكم سويسرا، وأن الذين يرتادونها قلة، ويرون أن هذا النور، وهذا الرقي، ولكنهم ــ أي شبابنا ــ يجهلون أن المدينة المنورة سبقت ذلك بقرون، وسبقت جنيف في هذا؛ وفي غيره، ولكن شبابنا بتاريخهم جاهلون، وبدينهم زاهدون. (سنة يمكث عمر قاضياً للصديق فلا يختصم إليه اثنان ولماذا يختصمون؟!!).

قال العلماء: لم يكونوا ليختصموا وبين أيديهم القرآن وكل واحد يعرف ماله، فلا يطلب أكثر منه، وكل واحد يعرف ما يجب عليه فلا يُقصِّر بالقيام به، ويحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، ويسعى ليسلم الناس من لسانه ويده، وإذا ظُلم نصروه، وإذا ظَلَم رَدَعوه، وإذا مرض أخوهم المسلم عادوه، وإذا افتقر أعانوه، وإذا أحسن شكروه، ديدنهم النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ففيمَ يختصمون؟!!

قال العلماء: يبدو سر الإسلام جلياً في هذه الأمة البدوية، لا جامعة تجمعها ولا دين يهذب نفوسها، ولا حكومة تدبر أمورها، اللهم إلا حكومة في العراق تخضع لملوك فارس، وحكومة في الشام تخدم ملوك الروم. وإذا بها بهذا الإسلام تنهض نهضة الأسد تحمل في يمناها المنهج الرباني على يد أصحاب النبي ﷺ لتنير للشعوب طريق المجد في الدنيا والسعادة في الأخرى، وفي يسراها السيف ترد المعاندين والمضلين إلى طريق الهدى والرشاد.

هنا يظهر سر الإسلام كما قال علماؤنا؛ حيث حوّل ضعف هذه الأمة الجاهلية إلى قوة لا تعدلها قوة، وحوّل هذه التفرقة إلى أخوة في الإيمان، وتمسك بالفضائل، وحوّل الحمية الجاهلية إلى تواضع وطاعة لله ورسوله، ووقوف عند حدوده، وإذا بدويٌ من بني وهيب هو (سعد بن أبي وقاص) تمتزج روحه بتعاليم الإسلام، ويكون قائداً من أعظم قواد الدنيا يدُكُ صرح الظلم الكبير في فارس، ويغرس في معركة (القادسية) مكان الجبروت الفارسي بذور الحضارة الإسلامية التي أزهرت حتى أظلت الدنيا.

وإذا بدوي آخر غليظ من بني (عدي) وهو(عمر بن الخطاب) الذي امتزجت روحه بروح الإسلام يكون بهذا الدين من عظماء الدنيا، وأحلام التاريخ في السياسة والعلم، وفنون الإدارة والعدل. ويسوس وحده الجزيرة العربية وسورية والعراق ومصر وأفريقية كما قال الطنطاوي، ثم لا يعرف التاريخ أعدل ولا أفضل منه حاشا رسول الله ﷺ والصديق الذي نتكلم

فيه في موضوعنا هذا، حيث كان هذا التاجر المكي يكون بالإسلام وتعاليم الإسلام، وروح الإسلام أعظم علماء الدنيا بعد رسل الله وأنبيائه.

هنا تكمن أعجوبة التاريخ، وهذا هو الفتح الأعظم كما قال علماؤنا نعم: إن الفتح الإسلامي هو الفتح الأعظم في التاريخ حيث لا فتح مثله وإن كان الفاتحون قبلهم قد فتحوا البلاد الواسعة بسيوفهم، وأخضعوها بجندهم وسطوتهم، فإن المسلمين فتحوا القلوب بعدلهم، والعقول بعلمهم، فكانوا دعاة الإيمان وبناة الحضارة والعمران.

لقد فتحنا ثلاثة أرباع العالم، ولم نعمد إلى الحرب إلا عندما يختار أعداؤنا ذلك. ثم لا نخون، ولا نغدر، ولا نقتل رسولاً ولا نمثل، ولا نهدم منزلاً، ولا نقاتل عُزلاً، ولا نَمَسُ عابداً متبتلاً (هذه وصية الصديق لأسامة ابن زيد وجيشه) حيث تحرك إلى منطقة البلقاء (شرقي الأردن) ومنطقة الدارون (قلعة جنوبي غزة) فأين هذا من فتوح أوروبا الاستعمارية؟!

فتحنا البلاد فتركنا أهلها أحراراً في دينهم ومعابدهم، أحراراً في نظمهم، أحراراً في أموالهم وأولادهم.

ملكنا بالعدل قلوب الناس، حتى صار أهل البلاد يستصرخون المسلمين على حكوماتهم، ويبذلون لهم العون على ملوكهم لا كرهاً لأوطانهم وحكامهم، ولكن حُباً بالعدل، وشوقاً إلى العلم والحضارة.

يروي البلاذري في كتابه(١): أنه لما جمع هرقل جموعه لمعركة (اليرموك) لقتال المسلمين فيها ردَّ المسلمون على أهل حمصَ ما كانوا أخذوا منهم من أموال الخراج وقالوا لأهل حمص من النصارى: قد شُغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم، فأنتم على أمركم. فقال أهل حمص: لَوِلايتُكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم، ولَنَدفعن جنود هرقل عن المدينة مع عاملكم، فأغلقوا الأبواب وحرسوها. وهكذا كان في الأندلس وغيرها.

ويروي المؤرخون: أنه لما فُتحت (الحيرة) أهدى أهلها هدية إلى الصديق مختارين، وقبلها وعدها من الجزية عدلاً وتعففاً، وخشيته أن يظلم أهل ذمته، أو أن يكلفهم فوق ما اتفق عليه ويفتح غيرُ المسلمين البلاد، فيمتصون دمائهم امتصاصاً، وتمتد أيديهم إلى كل خيراتها، ولا

---

(١) فتوح البلدان.

يتركون لأهل البلاد إلا الفتات. فشتان بين فتوح وفتوح:

ملكنـــا فكـــان العـــدل منـــا ســـجيةً   فلـــما ملكـــتم ســـال بالـــدم أبطـــحُ
وحلّلّـــتم قتـــل الأســـارى وطالمـــا   غـــدونا عـــلى الأسرى نمـــن ونـــصفح
فحـــسبكم هـــذا التفـــاوت بيننـــا   فكـــل إنـــاء بالـــذي فيـــه ينـــضح

قال المؤرخون والعلماء: ولم يكن ظهور هذا الإسلام وعظمته في نفوس القادة والخلفاء والأمراء والفتوح فقط، بل عمَّ المسلمين جميعاً في الصدر الأول الذي الصديق أول صفحة من صفحاته بعد رسول الله ﷺ بل ظهر أثر هذا الدين في الصغار والكبار، والنساء والرجال، والعجائز والأطفال.

هذا أبو بكر يقسم مالاً بين النساء من المسلمات، ويبعث إلى عجوز من بني النجار بنصيبها من هذا المال مع زيد بن ثابت فتقول العجوز لزيد: ما هذا؟ فيقول: مال قسمه أبو بكر بين النساء. فتقول العجوز: أترشونني عن ديني؟! فيقول: لا. فتقول: (والله لا آخذ منه شيئاً). كما ذكر ابن سعد في طبقاته إنها لم تسلم رهبة ولا رغبة، ولكنها أسلمت لله، فهي لا تريد أن يدخل المال بينها وبين ربها كما قال مؤلف كتاب (الصديق).

وانتبه ياعبد الله إلى أثر الإسلام في الخلافات السياسية عند الرعيل الأول. يجتمع الأنصار يوم وفاة النبي ﷺ في سقيفة بني ساعدة، وهم يرون أن لهم الحق الكبير في الحكم بعد رسول الله ﷺ فيأتي عمر ومعه رجلان من المهاجرين، فتكلم عمر كلمة أبصرت الفئة الأولى فيها ضياء الحق، وتراجعت عما عزمت عليه من كونهم أحق لخلافة رسول الله ﷺ من المهاجرين، قال عمر للأنصار يوم السقيفة: ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قدم أبا بكر للصلاة؟ قالوا: بلى. قال عمر: فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم على من قدمه رسول الله ﷺ.

يقول الطنطاوي بعد ذكر هذه الواقعة التاريخية: «فأين هذه من منازعات الأحزاب على الحكم في القرن العشرين»، والآن نحن في القرن الواحد والعشرين وما أجمل كلمة قالها (الأستاذ جيز) أحد جهابذة الحقوق العامة الفرنسية في مقال له سنة (١٩٢٧) في العدد الثاني من مجلة الحقوق العامة والعلم السياسي يقول: «إن أوروبا لم تنجُ من الاستبداد في الحكم يوماً واحداً ولم يحقق النظام البرلماني شيئاً من أمانيها الديمقراطية، ومبادئها البراقة التي تخدع بها الأطفال الكبار

من الشرقيين ثم يقول: إن استبداد لويس الرابع عشر هو استبداد روبسبير وهو هو استبداد هتلر». ويقول الشيخ علي معلقاً على الكلام ــ جيزــ: «ومقاله هذا صفعة قوية لأنصار هذا النظام، أي: الديمقراطي».

أما نظام الحكم في الإسلام: فهو النظام الذي لا يجعل من الخليفة «أمير المؤمنين» أكثر من منفذ للمنهج الذي أراده الله للبشر حتى يُسعَدوا، منهج لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وكان الأولون من هذه الأمة، والذي كان الصديقُ هو الصفحة الأولى منهم يفهمون هذا النظام أدقَّ فهمٍ وأحسَنَهُ. وكان العامل أو الوالي منهم يعلم أنه إنما يُسأل عن عمله بين يدي الله وحده، وأن عمله إنما يقوم به لمصلحة المسلمين لا لرضا أمير المؤمنين أو غيره في الدولة، وقد يبالغون في ذلك كما ذكر العلماء.

فهذا «معاذ بن أيمن» يقدم المدينة بعد وفاة الرسول ﷺ فيقول له أبو بكر: ادفع حسابك. فيقول معاذ: (أحِسابان؟! حسابٌ من الله، وحساب منكم! والله لا ألِيَ لكم عملاً أبداً. كما ذكر صاحب كتاب (عيون الأخبار).

وهذا عثمان بن عفان يطلب من خازنه مالاً فيأباه عليه. فيقول عثمان له: «إنما أنت خازن لنا إذا أعطيناك فخذ، وإن سكتنا عنك فاسكت». فيقول الخازن لأمير المؤمنين: «ما أنا لك بخازن، ولا لأهل بيتك إنما أنا خازن للمسلمين». ثم يجيء يوم الجمعة، وأمير المؤمنين عثمان يخطب على المنبر فيقف الخازن ويقول: «يا أيها الناس زعم عثمان أني خازن له ولأهل بيته، وإنما كنت خازناً للمسلمين، وهذه مفاتيح بيت مالكم» ويرمي بها.

وهذا (المقداد بن الأسود) فارس رسول الله ﷺ حدث أبو راشد الحبراني قال: التقيت مع المقداد بن الأسود فارس رسول الله ﷺ جالساً على تابوتٍ من توابيت الصيارفة بحمص. قد أفضل عنها من عِظَمِهِ يريد الغزوَ. قتال الروم. فقلت له: لقد أعْذَرَ الله إليك، فقال: أتت علينا سورة (البحوث) في قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ (١) أي: انفروا خفَّت عليكم الحركة أو ثقلت، نشيطين وغير نشيطين وقد ورد عن أنس أن أبا طلحة قرأ سورة براءة فأتى على هذه الآية ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا

(١) التوبة: ٤١.

وَثِقَالًا﴾. فقال لأولاده: أي بني جهزوني، فقال بنوه: يرحمك الله!! لقد غزوت مع النبي ﷺ حتى مات ومع أبي بكرٍ حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنكَ. قال: جهزوني. فغزا في البحر فمات في البحر ولم يجدوا جزيرة يدفنونه بها إلا بعد سبعة أيام فدفنوه فيها، ولم يتغير رضي الله عنه.

وخرج سعيد بن المسيب إلى الجهاد وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل له: إنك عليلٌ. فقال: استنفرَ الله الخفيف والثقيل فإنْ لم يمكنني الحرب كثَّرتُ سواد المسلمين وحفظت المتاع.

وهذا ابن أم مكتوم الأعمى واسمه (عمرو) قال يوم أُحد: أنا رجل أعمى فسلِّموا لي اللواءَ، فإذا انهزم حاملُ اللواء انهزم الجيش، وأنا لا أرى من يهجم عليَّ بسيفه فما أبرحُ. ولكن مصعب بن عمير أصَرَّ على حمل اللواء فحمله.

ويروي الحارث بن سويد قال: كان المقداد بن الأسود في سرية فحصرهم العدو فعزم الأمير على الجندي ألا يحشر أحد دابته ـ ألا يرسلها إلى المرعى ـ فحشر رجل من المسلمين دابته لم تَبْلغهُ أوامر الأمير، فضربه الأمير، فرجع الرجل وهو يقول: ما رأيت كما لقيت اليوم قط، فرآه المقداد فقال له: ما شأنك؟ فذكر له القصة؛ فتقلد المقداد السيف وانطلق مع الرجل إلى الأمير فقال له: أَقِدْهُ من نفسك. قال: فأقاده، فعفا الرجل، فرجع المقداد وهو يقول: «لأموْتَنَّ والإسلام عزيز».

هذه نماذج ذكرناها من أصحاب رسول الله ﷺ وهم أطهر ثُلةٍ عرفتها الأرض بعد الأنبياء والرسل ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴿١١٠﴾﴾ (١) ولا عجب فالذي وصفهم وعَدَّدَ مناقبهم ليس حديثاً يُفترى وإنما هو قرآنٌ وسنة، اسمع معي إلى قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ (٢).

فقوله تعالى: (والسابقون) قال العلماء: هم الذين صَلوا إلى القبلتين وسبقوا إلى الإيمان والهجرة والجهاد وأفضلهم الخلفاء الأربعة، ثم الستة الباقون من المبشرين بالجنة وهم: طلحة،

---

(١) آل عمران: ١١٠.

(٢) التوبة: ١٠٠.

الزبير، سعد، سعيد بن زيد، عبد الرحمن بن عوف، أبو عبيدة، ثم أهل بدر، ثم أصحاب أُحد، ثم أهل بيعة الرضوان في الحديبية وأفضلهم أبو بكر على الإطلاق وفي ذلك يقول حسان شاعر الرسول ﷺ كما روى ابن عباس جواباً للشعبي عمن أسلم أولاً:

إذا تـذكرتَ شـجواً مـن أخـي ثقـةٍ	فـاذكر أخـاكَ أبـا بكـرٍ بـما فعـلا
خـير البريـة أتقاهـا وأعـدلها	بعـد النبـي وأوفاهـا بـما حمـلا
والثـاني التـالي المحمـودُ مَـشهده	وأولُ النـاس مـنهم صَـدَّقَ الرُّسُـلا
وثـاني اثنـين في الغـارِ المنيـف وقـد	طـاف العـدو بهـم إذ صـعَّد الجـبلا

ويروي صاحب (الرياض النضرة): أن النبي ﷺ لما سمع هذه الأبيات ضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: (صدقتَ يا حسان هو كما قلت) والسابقون من الأنصار: وهم أصحاب بيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية.

والتابعون: وهم الذين صحبوا الصحابة. وقد عدّد القرآن مناقبهم في آيات كثيرة من كتابه. اسمع معي إلى قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾ (١).

قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ وهو جملةٌ مؤلفة من مبتدأ وخبر، وهو إخبار من الله أنَّ محمداً ﷺ رسولهُ حقاً، وهو وصفٌ مشتملٌ على كل جميلٍ وهذا من تكريم الله له ﷺ والعناية به، وذِكْر مناقبه المتقدمة.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ ثنى بالثناء على أصحاب النبي، رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، أي على أصحابه جميعاً، حيث صاحبوا النبي ﷺ مصاحبةً كاملة بالطاعة والتأييد.

ثم وصفهم بقوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ فقوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾، أي أشداء في قتالهم وإظهار العداوة لهم. وهذا وصف مدح ـ كما قال ابن عاشور ـ في تفسيره؛ لأن

---

(١) الفتح: ٢٩.

أصحاب النبي ﷺ كانوا هم فئة الحق ونشر الإسلام، فلا يليق بهم إلا إظهار الغضبِ لله، والحبُّ في الله، والبغض في الله من الإيمان. وأصحابه رضي الله عنهم أقوى المؤمنين إيماناً بسبب إشراق أنوار النبوة في قلوبهم. وأما كونُهم ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ فذلك من رسوخ الأخوة الإسلامية في نفوسهم. قال الشاعر:

حليمٌ إذا ما الحلمُ زيّن أهله ... على أنه عند العدو مهيبُ

قال المفسرون: وفي الجمع بين هاتين الصفتين المتضادتين الشدة والرحمة، إيماءٌ إلى أصالةِ آرائهم ورجاحة عقولهم. قال الحسن البصري: «وبلغ من تشددهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون أن تلتصق ثيابهم بثيابهم، ومن أبدانهم أن تَمَسَّ أبدانهم، وبلغ من تراحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمناً إلا صافحه وعانقه. لكن المعانقة لا تكون إلا للقدوم من سفر». وقوله تعالى: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ ٢٩﴾ أي: يا أيها المخاطب إذا أردت أن تراهم وتبصرهم فستراهم حريصين على كثرة الأعمال الصالحة، وخصَّ الصلاة لأنها خير الأعمال فهم مواظبون على الصلواتِ المفروضة منها والنافلة طلباً لرضا الله سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾. قال العلماء: السّيما: العلامة، ولها ثلاثة مظاهر.

١. يَبُوسةٌ في الجبهة غير متعمدةٍ، تحدث من كثرة الاحتكاك في الأرض عند السجود فلا حرج لمن جعل له ذلك إذا لم يتعمد فعله رياءً.

٢. أثرٌ نفسيٌ وخشوعٌ وتواضعٌ كما قال مجاهد، ونفى مجاهدٌ أن يكون اليبوسة في الجبهة، ولذلك لما قال منصور لمجاهد: ما أرى السيما إلا هذا الأثر في الوجه فقال مجاهد: ربما كان بين عيني من هو أقسى قلباً من فرعون.

٣. نورٌ يوم القيامة يعلو وجوههم، يشهد له قوله تعالى: ﴿نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ ٨﴾[١].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ﴾ يشير القرآن إلى أن هذه الصفات موجودة في التوراة قبل تحريفها، نعوتُ محمد ﷺ ونعوتُ أصحابه، وهي إلى الآن يوجد فيها بعض الإشارات، ولكن

---

(١) التحريم: ٤٠.

اليهود يتأولونها هروباً من الحق حتى لا يُلزَموا به، ومن ذلك: ما ورد في التوراة من البشارة بمجيء محمدٍ ﷺ، ووصفٍ لأصحابه، وذلك في الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية من قول موسى عليه السلام: (**جاء الرب من سينا، وأشرق لهم من ساعير وتلألأ من جبل فاران واستعلن من فاران فأحب الشعب جميع قديسيه، وهم جالسون عند قدميك يتقبلون من أقوالك**). **فجبل فاران**: فاران، كلمة عبرية معربة، وهي من أسماء مكة وقد ذكرت في التوراة. وجاء في التوراة كما في (معجم البلدان). **جاء الله من سيناء**: أي كلم الله موسى من هناك **وأشرق من ساعير**: أي من جبال فلسطين، وهو إنزاله الإنجيل على عيسى عليه السلام. **وتلألأ من جبال فاران**: أي أنزل القرآن على محمد ﷺ وفاران جبال مكة. إذا كان هذا وصف محمد وأصحابه في التوراة، فما هو وصفهم في الإنجيل؟

والجواب في قوله تعالى بعدها: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ﴾ الإنجيل كتاب عيسى، من قولهم نجل الشيء: إذا أظهره، وسُمي الإنجيل إنجيلاً، لأنه أظهر الدين بعدما عفا رسمه.

﴿أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾: يقال: أشطأ الزرعُ إذا فرَّخ وأخرج فروعاً. وقوله: ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي قوى الشطْءُ ــ الفرع ــ أصل الزرع بالتفافه عليه، وتكاثفه، وهو من الموازرةِ بمعنى المعاونة.

ثم قال: ﴿فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾. قوله: ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾، أي صار غليظاً بعدما كان دقيقاً، مثل قولهم: استحجر الطين، فالسين تدل على التحول.

وقوله: (فاستوى على سوقه): أي استقام على قصبته، واستغلظ واستوى، المقصود الزرع. وقوله: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ﴾ هذا الزرع يعجب زارعيه الذين زرعوه ويسرهم بقوته وكثافته وحسن مظهره، وطول قامته.

قال المفسرون: وهنا تم المثل، وهو مثلٌ ضربه الله لأصحاب رسول الله ﷺ ولحالة بدء الإسلام؛ لأن النبي ﷺ قام وحده، ثم قوّاه الله بأصحابه الذين آمنوا معه، كما يقوي الطاقة الأولى من الزرع ما يَحتفُّ ويحيط بها مما يتولد منها حتى يعجبَ الزراع، ثم تأتي الجملة التعليلية: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ﴾ أي وهب الله لأصحاب النبي ذلك الكمال ليغيظ بهم

الكفار من مشركي مكة وكفار العرب.

قال قتادة: مكتوب في الإنجيل، سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع، يخرج منهم قومٌ يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر. قال أبو عروة الزبيري: كنا عند الإمام مالك بن أنس فذكروا عنده رجلاً ينتقص أصحاب الرسول ﷺ فقرأ مالك هذه الآية: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ إلى أن وصل إلى قوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ فقال مالك: «من أصبح من الناس في قلبه غيظٌ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية».

قال صاحب كتاب (الفتنة): والآيات في فضائلهم كثيرة وجليلة، وقد زكّاهم رسول الله ﷺ في أحاديث كثيرة، ومواطن متعددة جليلة فمن ذلك قوله ﷺ كما في البخاري عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم...» قال النووي: اتفق العلماء على أن خير القرون قرونه ﷺ والمراد أصحابه.

وقال الحسن البصري: وهو تابعيٌّ جليلٌ مُجمَعٌ على جلالته وإمامته وزهده: لقد أدركنا أقواماً ـ أي الصحابة ـ أهل القرن الأول، كنا في جنبهم لصوصاً. وقال: ذهبت المعارف، وبقيت المناكير، ومن بقي من المسلمين اليوم فهو مغمومٌ، وكان كثيراً ما يردد هذا البيت:

ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميتُ الأحياء

وقال ربيع بن خُثَيْمٍ: لو رآنا أصحاب محمدٍ ﷺ لقالوا: إن هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب. وروى الطبري في (تهذيب الآثار): عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا ويح لبيد حيث يقول:

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم ... وبقيتُ في خلف كجلد الأجرب

قالت عائشة: فكيف لو أدرك لبيدٌ زماننا هذا؟ قال عروة: رحم الله عائشة، فكيف لو أدركتْ زماننا هذا. ثم قال الزهريُّ: رحم الله عروة، فكيف لو أدرك زماننا هذا... ثم صار الرواة بعد ذلك كلما ذكروا هذا القول، قالوا: كيف لو أدرك فلانٌ زماننا، ثم قال مؤلف كتاب (الفتنة بين الصحابة)[1]: «رحم الله هؤلاء جميعاً، فكيف لو أدركوا زماننا ورأوا أقوامنا»؟!!

---

(١) الشيخُ محمد حسان.

قال العلماء: «وكان أصحابهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أماناً للأمة حال حياتهم، وأنهم أفضل ممن بعدهم».

ففي صحيح مسلم من حديث أبي بردة قال: «صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ، ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء. قال: فجلسنا، فخرج علينا، فقال: ما زلتم ههنا؟ قلنا: يا رسول الله، صلينا معك المغرب، ثم قلنا نجلسُ حتى نصلي معك العشاء. قال ﷺ: أحسنتم، أو أصبتم. قال: فرفع ﷺ رأسه إلى السماء. وكان كثيراً ما يرفع رأسه إلى السماء؛ فقال ﷺ: «النجوم أَمَنَةٌ للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماءَ ما تُوعَدُ. وأنا أمنةٌ لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يوعدون. وأصحابي أمنةٌ لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون».

وقوله ﷺ: النجوم أمنةٌ للسماء، فإذا ذهبت النجوم... يعني يوم القيامة يلحق النجومَ الانفطارُ والتغيير والتناثر.. وهذا تمثيل لما بعده في قوله ﷺ: وأنا أمنةٌ لأصحابي.. يريد ﷺ، الفتن، وارتداد مَن ارتد من جهلة الناس والأعراب بعده وهو ما أنذر به ﷺ بقوله: «لا ترجعوا بعدي كفاراً»(١).

وقوله ﷺ: «وأصحابي أمنةٌ لأمتي، فإذا ذهب أصحابي» يريد ﷺ: من ظهور البدع والفتن، والتخالف، وضرب المدينة.

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي على الناس زمانٌ يغزو فِئامٌ من الناس، فيقال لهم: فيكم من رأى رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم، فيُفتح لهم. ثم يغزو فئام من الناس، فيقال لهم: فيكم من رأى مَنْ صَحِبَ رسولَ الله ﷺ؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم، ثم يغزو فئامٌ من الناس، فيقال لهم: هل فيكم من رأى مَن صحبَ مَن صحبَ رسولَ الله ﷺ؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم» هؤلاء هم أصحاب رسول الله ﷺ. مفخرةٌ التاريخ الذي صفحته الأولى بعد الأنبياء والرسل: أبوبكر الصديق.

فاحذر يا عبدالله أن تتعرض لهم بسوء ففي الصحيح أنه ﷺ قال: «اللهَ اللهَ في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فَبِحُبِّي أَحبَّهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه».

فتعالوا معي إلى ما قاله فيه المؤرخون.

---

(١) كما في البخاري.

قال الأصفهاني(١) وقد ذكره الحافظ الذهبي في كتاب «تذكرة الحفاظ» أن كتاب «الحلية» بيع في حياة المؤلف في نيسابور بأربع مائة دينار ذهباً. فماذا قال هذا الكتاب في الصديق: قال: أبو بكر الصديق، السابق إلى التصديق، الملقب بالعتيق، المؤيد من الله بالتوفيق، صاحب النبي ﷺ في الحضر والأسفار، ورفيقه الشفيق في جميع الأطوار، وضجيعه بعد الموت في الروضة المحفوفة بالأنوار، المخصوصُ في الذكر الحكيم بمفخرٍ فاق به كافة الأخيار، وعامة الأبرار، وبقي له شرفه على كرور الأعصار، ولم يَسْمُ إلى ذروته هِممُ أولي الأيدي والأبصار، حيث يقول عالم الأسرار فيه، ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ ﴿٤٠﴾﴾(٢). إلى غير ذلك من الآيات والآثار، التي غدت كالشمس في رابعة النهار ففضلَ كلَّ فاضل، وفاق كل من جادل وناضل. ونزل فيه: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾(٣)

قال القاسمي في تفسيره: ولا شك أن الصديق له الحظ الأوفر من هذه الآية، فإنه سيد مَنْ عملَ بها من سائر أمم الأنبياء، فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله عز وجل. فتعالوا للحديث عنه.

اسمه، ولقبه، وكنيته:

جمهور النسابين على أن اسمه (عبدالله) سماه به النبي ﷺ حين أسلم، وكان اسمه من قبل (عبد الكعبة) كما ذكر المحب الطبري في كتابه(٤).

أما لقبه: لُقِّبَ أبو بكر بألقاب عديدة، كلها تدل على علو مكانته وشرف منزلته.

قال المؤرخون: **الأول منها (الصديق)**، عُرف به منذ الجاهلية؛ لأنه كانت قريش فوضت إليه أمر الأشناق (الديات)، فكان إذا تحمل الديات أمضت قريش حمالته وقامت معه، وإذا تحملها غيره خذلوه ولم يصدقوه (كما روى المحب الطبري في الرياض النضرة) ذلك أن الشرف انتهى قبل ظهور الإسلام في الجزيرة إلى عشرة رهطٍ من عشرة أبطنٍ. فالعباس بن عبد المطلب،

---

(١) صاحب حلية الأولياء وطبقات الأصفياء المتوفى ٤٣٠ هـ.

(٢) التوبة: ٤٠.

(٣) الحديد: ١٠.

(٤) الرياض النضرة في مناقب العشرة. والمحب اسمه أحمد توفي سنة ٦٩٤ هـ.

من بني هاشم، كانت له سقاية الحجيج، وبقيت له في الإسلام، وأبو سفيان من بني أمية، وكانت عنده راية قريش واسمها العقاب. والحارث بن عامر من بني نوفل، وكانت له الرِّفادة، وهي الأموال المرصودة للمنقطع من الحجاج، تُخرجها قريش. وعثمان بن طلحة من بني عبد الدار، وكانت إليه السدانة والحجابة للكعبة، وقد بقيت في ذريته إلى اليوم. ويزيد بن زمعة من بني أسد، وكانت له المشورة، لا تجتمع قريش على أمر إلا بعد مشاورته، وأبو بكر الصديق من بني تيم، وكانت له الأشناق وهي الديات وكان مصدقاً. وخالد بن الوليد وهو من بني مخزوم، وكانت له القبة[1] والأعِنَّة. وعمر بن الخطاب، وهو من بني عُديّ، وكانت إليه السفارة في الجاهلية. وصفوان بن أمية من بني جمح، وكانت إليه الأزلام[2]، والحارث بن قيس من بني سهم، وكانت له الحكومة، وأموال آلهتهم (بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب).

ودعي في الإسلام (الصديق) أبو بكر، قيل له نُبِّئَ صاحبك، قال: صدق. قالوا: ونزل عليه جبريل، قال: صدق. قالوا: وأخبرنا أنه أُسريَ به، قال: صدق. قالوا: وذكر لنا أنه عُرج به، قال: صدق. فقيل له: أنت الصديق حياً وميتاً.

وروى صاحب (الرياض النضرة) أن النبي ﷺ قال لجبريل ليلة الإسراء: إن قومي لا يصدقونني، فقال له جبريل: يصدقك أبو بكر وهو الصديق، وعُرف منذ ليلة الإسراء بهذا اللقب وأخرج الطبراني في الأوسط موصولاً (ويشمل المرفوع إلى النبي، والموقوف على الصحابي). وأخرج الحاكم عن النزال بن سبرة قال: قلنا لعلي: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن أبي بكر، قال: (ذاك امرؤٌ سماه الله الصديق على لسان جبريل، وعلى لسان محمد ﷺ وكان خليفة رسول الله ﷺ على الصلاة، رضيه لديننا، فرضيناه لدنيانا) إسناده جيد.

وروى السيوطي في (تاريخ الخلفاء): عن أبي يحيى، والصواب: عن أبي تحيى، حكيم بن سعد (بتاء مكسورة) وبتصغير حكيم إلى حُكيم. قال: لا أحصي كم سمعت علياً يقول على المنبر، إن الله عز وجل سمى أبا بكر على لسان نبيه ﷺ صديقاً، وكان علي يحلف بالله، إن الله أنزل اسم أبي بكر من السماء «الصديق». السيوطي في «تاريخ الخلفاء».

---

(١) ما يجمع لتجهز الجيوش.

(٢) وهي أقداحٌ يستقسمون بها.

قال أبو محجن الثقفي[1]:

وسُــميتَ صــديقاً وكــل مهــاجر   ســواك يــسمى باســمه غــير منكــر
ســعيتَ إلى الإســلام والله شــاهد   وكنــت جليــساً في العــريش المــشهر

وروى المبرِّد في «كامله»: قال: قال: الصلتان العبدي في كلمة له:

(فملَّتُنا أننا المسلمون.. على دِينِ صديقنا والنبي). والصلتان العبدي هو (قثم بن خبيئة) كان معاصراً لجرير والفرزدق وحكم بينهما وقال ابن قيس الرقيات: وهو شاعر قريشي اسمه عبد الله، وتغزّل بثلاثةِ نسوةٍ بنفس الاسم وتوفي سنه ٨٥ هـ. (نحن منا النبي أحمد والصديق منا التقيُّ والحكماءُ). وقال النابغة الجعدي يمدح ابن الزبير:

حكيــتَ لنــا الــصدِّيقَ حــين وليتنــا   وعــثمان والفــاروق فارتــاح معــدم

واسمه: حسان بن قيس الجعدي شاعر صحابي كان ممن هجر الخمر ونهى عنها قبل الإسلام، وهجر الأوثان، وشهد صفين مع علي، ومات في أصبهان سنه ٥٠ هـ وكان من المعمرين.

وللأصمعي واسمه عبد الملك بن قريب الباهلي، راوية العرب وأعجوبة في الحفظ توفي سنة ٢١٦ هـ قال:

ولكنــي أحــبُّ بكــل قلبــي   وأعلــم أن ذاك مــن الــصواب
رســول الله والــصديق حبــا   بــه أرجــو غــداً حُــسن الثــواب

وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري والترمذي وأحمد وغيرهم: عن أنس بن مالك الأنصاري خادم رسول الله ﷺ خدمه عشر سنين وروى ـ (١٢٨٦) ـ حديثاً وهو آخر من مات من الصحابة في البصرة مات سنه ٩٠ هـ وعمره تجاوز المائة، قال: إن النبي ﷺ صعد أُحداً، فتبعه أبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم، فضربه النبي ﷺ برجله وقال: (اثبت أحد، فما عليك

---

(١) هو عمر بن حبيب أحد الأبطال والشجعان الكرماء في الجاهلية والإسلام، كان له بلاء عظيم في معركة القادسية.

إلا نبي وصديق وشهيدان). وقال علي في كلمة رثى بها الصديق: وأسماك الله في كتابه صديقاً، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (١). يريد محمداً ويريدك. ذكره النويري في كتابه «نهاية الأرب».

ولقبه الثاني (عتيق). وقد ظن بعض المحدثين أن هذا اسمه، والصحيح ما ذكره ابن عساكر والمؤرخ والنووي محيي الدين أحد كبار أئمة الشافعية توفي في رجب سنه ٦٧٦ هـ والسيوطي أن عتيقاً (هو من ألقاب أبي بكر). ويؤكد هذا حديث عبدالله بن الزبير: كان اسم أبي بكر (عبدالله بن عثمان) فقال له النبي ﷺ: «أنت عتيقُ الله من النار فسمى عتيقاً».

وفي حديث عائشة قالت: دخل أبو بكر على رسول الله ﷺ، فقال له الرسول ﷺ: (أبشر فأنت عتيق الله من النار)، فمن يومئذٍ سمي عتيقاً.

وقد ذكر المؤرخون أسباباً أخرى لهذا اللقب: منها أنه سمي بذلك لجمال وجهه، مأخوذ من العتاقة أي الجمال يؤيد هذا ما رواه ابن قتيبة (في كتابه «المعارف»). وهو المعروف (الدينوري وهو بغدادي تولى القضاء في دينور فنسب إليها ٢٧٦هـ). وقال أبو نعيم الكوفي (اسمه الفضيل بن دكين) الأحول، له كتاب (الحلية) مات سنة ٢١٩هـ. سمي عتيقاً (من العِتق) من عتق الشيء؛ إذا قدمَ وصار قديماً فالصديق عتيق، لأنه قديم في الخير.

والعرب تقول: (عتيق) لكل شيء بلغ الغاية في الجودة، والخيار من كل شيء، وقال موسى بن طلحة: العتيق مأخوذ من (العتق) وذلك أن أمه لم يكن يعيش لها ولد، فلما ولدته استقبلت به القبلة وقالت:اللهم هذا عتيقك من الموت فهبه لي فعاش وسمي(عتيقاً).

قال المحب الطبري: ولا تعارض بين هذه الاقوال كلها؛ لأنه من الممكن أن يكون سمي به من قبل ثم أقرَّ عليه في الإسلام.

واللقب الثالث لأبي بكر (الصاحب). أجمع أهل العلم على أن المراد بقوله تعالى في الآية: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴿٤٠﴾ ﴾ (٢) على أن المقصود بصاحبه (صاحبه) هو أبو

---

(١) الزمر: ٣٣.

(٢) التوبة: ٤٠.

بكر الصديق، وخرَّجَ الترمذي من حديث ابن عمر أن النبي ﷺ قال لأبي بكر:(أنت صاحبي في الغار، وصاحبي على الحوض). قال الصفوري في كتابه «المحاسن المجتمعة في الخلفاء الأربعة» أثبت الله الصحبه لأبي بكر بقوله سبحانه: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ﴾ فمن أنكرها فقد كفر، لأنه أنكر نصاً جلياً، كما في شرح «المشكاة». قال صاحب كتاب (الإصابة): (ولم يشاركه فى هذه المنقبة غيره).

لقبه الرابع (الأتقى). قال المشركون: لما اشترى أبو بكر بلالاً، وكان بلال عبداً لأمية بن خلف ـ فلما أسلم بلال صار سيده أمية يعذبه، فاشتراه الصديق بخمس أواق ذهباً، وكان بلال كلما اشتد عذابه قال: أحد أحد وكان ورقة بن نوفل يمر ببلال وهو يعذب ويقول أحد أحد، فيقول ورقة: أحد، أحد، ثم يقول: والله يا بلال أحد أحد، ثم يقبل ورقة على أمية بن خلف فيقول له: (أحلفُ بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حنانا) أي لأزورنَّ قبره كما تُزار قبور الصالحين الذين قتلوا في سبيل الله، فيكون ذلك عار عليكم وسبَّةٌ لكم عند الناس، وكان ورقة على دين عيسى عليه السلام.

قال العلماء: لما اشترى أبو بكر بلالاً وأعتقه، قال بلال: يا أبا بكر إنْ كنتَ اشتريتني لنفسك فأمسكني، وإن كنت إنما اشتريتني لله عز وجل، فدعني وعمل الله عز وجل، قال: فأعتقه وأعتق معه ستة رقاب على الإسلام، قبل أن يهاجر. ولذلك كان عمر يقول: (أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا (يعني بلال).

وممن أعتقهم الصديق: زنيرة الرومية؛ كانت أمة لعمر بن الخطاب وأسلمت قبل إسلام عمر، فكان يضربها حتى أصيب بصرها، فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى، فقالت وهي لا تبصر: والله ما هو كذلك، وما يدري اللاتُ والعُزَّى من يعبدهما وربي قادر على أن يرد عليَّ بصري. قال المؤرخون: (فرد الله عليها بصرها صبيحة تلك الليلة، فقالت قريش: هذا من سحر محمد). فاشتراها الصديق وأعتقها. وكانت قريش تقول: لو كان خيراً ما سبقتنا إليه زنيرة، فأنزل الله عز وجل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۝١١﴾[1]. وعن عروة بن الزبير قال: قال عظماء قريش: لو كان ما جاء به محمد خيراً ما

---

(١) الأحقاف: ١١.

سبقتنا إليه زنيرة، قال الالوسي: ولعلهم لم يريدوا زنيرة بخصوصها، بل من شابهها أيضاً من المستضعفين مثل: بلال، وعمار، وسمية، وزنيرة، وعبدالله بن مسعود، الذين سبقوا إلى الإسلام وعُذِّبوا فاشتراهم الصديق وأعتقهم واشترى الصديق النهدية وابنتها، فقد كانتا لامرأة مشركة من بني عبد الدار، فمر بهما أبو بكر وقد بعثتهما سيدتهما إلى طحين لها مر وهي تقول لهما: والله لا أعتقكما أبداً. فسمع قولها، فقال لها: حلٌّ يا أم فلان، أي تَحَلَّلي من يمينك واستثني فيها فقالت: حِلٌّ، أنت أفسدتهما فأعتقهما، قال الصديق: فبكم هما؟ قالت: بكذا وكذا، وقال: قد أخذتهما وهما حرتان، أرجعا إليها طحينها قالتا: أونُفرغُ منه يا أبا بكر ثم نرده؟ قال: ذلك إن شئتما.

ومر الصديق مرة بجارية من بني مؤمل (وهم حي من بني عدي بن كعب) وكانت مسلمة وكان يتولى تعذيبها عمر بن الخطاب حتى تترك الإسلام فيضربها حتى إذا ملَّ قال: (أعتذر إليك إني لم أتركك إلا مللاً!! فتقول: فعل الله بك، فاشتراها الصديق وأعتقها). ويقول له والدهُ يوماً: يا بني إني أراك تعتق رقاباً ضعافاً، فلو أعتقت رجالاً أقوياء ينفعونك كان أجدى من شراء الضَّعَفَة!! فقال الصديق: يا أبت إني إنما أريد ما أريد لله عز وجل، فأنزل الله عز وجل في ذلك قرآناً يُتلى إلى يوم لقاء الله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ (١).

ويروي ابن الزبير قال على المنبر:(قيل للصديق: لو كنت تشتري من العبيد وتعتق من يمنع ظهرك، قال: منع ظهري أريد)، ونزلت هذه الآيات وقوله ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ أي التقي، كالأشقى بمعنى الشقي، والعرب تستعمل هذا كقول الشاعر طرفة:

تمنـــى رجـــالٌ أن أمـــوت وإن أَمُـــتْ فتلـــك ســـبيلٌ لـــست فيهـــا بأوحـــدِ

(أي بواحد أو بوحيد) ـ أكبر بمعنى كبير ـ أهون بمعنى هين.

﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾ أي ينفق ماله في وجوه البر والحسنات، طالبا أن يطهر نفسه من دنس البخل، ووسخ الإمساك.

وقوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾﴾ أي: وأبو بكر بإنفاقه المال لا يريد إلا طهارة

---

(١) الليل.

النفس، خالصاً لوجه الله، إذ ليس ما ينفقه بسبب أن عليه فضلاً لأحد من الناس، أو يداً، أو معروفاً يكافئه عليه، لا، وإنما ينفق يريد رضاء الله تعالى لا غيره ولذلك قال تعالى بعدها: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾، وما دام ينفق ابتغاء وجه الله فقط، قال الله: فسوف نكافئه ونعطيه عطاء يرضى به في دار السلام، وهذا قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ وهذا وعد كريم بنيل جميع ما يبتغيه على أكمل الوجوه وأجملها، كما قال البروسوي، إذ به يتحقق الرضى.

قال بعض أهل العلم: وقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ أي يرضى الله عنه ويرضى هو بما له في الآخرة من الكرامة. وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ (١). والراضية: التي رضيت بما أُعطته من كرامة، وهو كناية عن إعطائها كل ما تطمح إليه. والمرضية: أي مرضياً عنها، والمقصود هنا زيادة الثناء، وهو كناية في إفاضة الإنعام من الراضي (وهو الله) عن (المَرضِيِّ) بحيث يزيده الراضي عنه من العطايا والهبات فوق ما رضي به هو.

وقد ورد عن زيد بن حارثة وأبي صالح أن هذه الآيات وهذه البشائر تُقال للنفس عند الموت. وروى الطبري عن سعيد بن جبير قال: قرأ رجل عند رسول الله ﷺ ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾. فقال أبو بكر: ما أحسن هذا!! فقال النبي ﷺ: «أما إن المَلَك سيقولها لك عند الموت».

وقال البروسوي: عند قوله تعالى ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ قال: ولم ينزل مثل هذا الوعد إلا للنبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ (٢) وللصدِّيق في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ هنا سؤال في قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾، ولم يقل: ولسوف يَرضى ولسوف أُعطيك. والجواب: أن هذه السورة من أولها إلى آخرها كلام جبريل معه ﷺ؛ لأن النبي ﷺ كان شديد الاشتياق إليه وإلى كلامه، فأراد الله تعالى أن يكون جبريل هو المخاطَب له بهذه البشارات.

---

(١) الفجر.

(٢) الضحى.

أما لقبه الخامس فهو: (الأوّاه): وهو لقب يدل على الخوف والخشية من الله تعالى، ولذلك وصف صاحب كتاب (حدائق ذات بهجة) الصديق بقوله: (أسيفٌ بكى من التنزيل، ودمعت عيناه من خوف الجليل، ووجلَ ليوم الرحيل). قال إبراهيم النخعي: كان أبو بكر يقال له الأواه لرأفته ورحمته.

أما كنيته: فأبو بكر، والبكر هو الفتي من الإبل، والعرب تسمي بهذا الاسم فسمت بكراً، وهو أب لقبيلة عظيمة.

وأما نسبه: فهو عبدالله بن أبي قحافة، وأبو قحافة والد الصديق واسمه عثمان بن عامر، والقحافة: كل شيء قحفته من صحن فأخذته كله.

وأمه: (أم الخير): سلمى بنت صخر، كنيتها أم الخير وأسلمت مبكراً. ويلتقي نسب الصديق مع نسب النبي ﷺ عند مرة بن كعب وهو الجد السادس. أسلمت قديماً في دار (الأرقم بن أبي الأرقم)، والأرقم صحابي جليل شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وتوفي بالمدينة سنة ٥٥ هـ. هذه الدار، زارها الرحالة الأندلسي ابن جبير (محمد بن أحمد الأندلسي) سنة ٥٨٠ هـ. وقال عنها: كانت هذه الدار منشأ الإسلام بإزاء الصفا.

اجتمع المسلمون مرة في دار الأرقم وكانوا تسعة وثلاثين رجلاً وألح الصديق على رسول الله ﷺ بالظهور، والصديق هو أول من دعا إلى الظهور قبل عمر بن الخطاب، وقبل إسلام عمر، وإن كان الناس يظنون أن عمر هو أول من دعا للظهور، وذلك لما اشتهر من سيرة عمر وخفي من سيرة الصديق. ألح الصديق على الرسول ﷺ بالخروج والظهور فظهروا وتفرق المسلمون في المسجد وقام أبو بكر خطيباً ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله ورسوله. وثار المشركون عليه وعلى المسلمين في نواحي المسجد، وضربوهم ضرباً شديداً وتقدم (عتبة بن ربيعة) من الصديق وضربه بنعلين حتى لم يعد يعرف أنفه من وجهه، وحَمل بنو تيم أبا بكر في ثوب لا يشكُّون فى موته حتى كلمهم آخر النهار، فكان أول ما قاله: ما فعلَ رسولُ الله..؟ ولامه بنو تيم، ثم قالوا لأمه أم الخير، انظري أن تطعميه شيئاً أو تسقيه.. فلما خلا البيت ليلاً من الناس جعل الصديق يقول: ما فعلَ رسولُ الله..؟ قالت أمه: والله لا علم لي بحاله. قال الصديق: فاذهبي إلى (أم جميل بنت الخطاب) أخت عمر بن الخطاب، زوجها (سعيد بن زيد) أحد العشرة المبشرين بالجنة، فاسأليها عنه، وتخرج أم الخير ليلاً إلى أم جميل، وتأتي أم جميل إلى الصديق، فلما

رأته قالت: إني لأرجو أن ينتقم الله لك، إن قوماً نالوا منك لأهل فسق، فقال الصديق: ما فعل رسول الله؟ قالت: أمك تسمع! قال الصديق: لاعين عليك منها. فقالت أم جميل عندها: إنه سالم صالح، قال الصديق: أنى هو؟ قالت أم جميل: في دار الأرقم، فقال: إن لله عليَّ أَليَّةً ألا أذوقَ طعاماً ولا شراباً حتى أراه.. فسار متكئاً على شخصين حتى دخل على رسول الله ﷺ، فانكبَّ عليه وقبله ورقَّ له الرسول رقة شديده. فقال الصديق: بأبي أنت وأمي ليس بي إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمي بَرَّةٌ بوالديها وأنت مبارك، فادعها إلى الله، وادعُ الله لها، عسى أن يستنقذها بك من النار، فدعا لها رسول الله ﷺ فأسلمت.

ويعلق صاحب كتاب أبو بكر فيقول: رحم الله الصديق لم ينس في هذا البلاء أن يدعو إلى دين الله ويُخلِّص أمه من الكفر وقد أثابه الله خيراً فاجتمع له أبوان مسلمان، وخرج من بيته أربعة بعضهم أبناءُ بعضٍ لكل منهم صحبة أبوه وهو، وولده، وولد ولده. ولم يكن ذلك لغيره من الصحابة أجمعين.

خبره وحالته قبل الإسلام، ورصيده الخلقي في الجاهلية:

كان الصديق في المجتمع الجاهلي شريفاً من أشراف قريش، وكانوا يستعينون به في النوائب، وله بمكه ضيافات متميزة. وكان معروفاً بأمور عند العرب وعند قريش، فمن ذلك:

- **علمه بالأنساب وأخبار العرب**: قال صاحب كتاب (الإصابة):

كان الصديق أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما فيها من خير أو شر، ولذلك ورد في صحيح مسلم من حديث عائشة أن رسول الله ﷺ قال: (إن أبا بكر أعلم قريش بأنسابهم) هذا الحديث قاله رسول الله ﷺ حين استأذن شاعر النبي ﷺ (حسان بن ثابت) من الرسول أن يسمح له في هجاء المشركين لإسكاتهم، والردِّ عليهم لكفِّ أذاهم لأنهم كانوا يؤذون المسلمين بالشتم والهجاء، والمسلمون مأمورون ألا يبتدئوا المشركين بالسب، حتى لا يتعرضوا لله عز وجل، قال تعالى الأنعام ١٠٨: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ ١٠٨﴾. فنحن مأمورون أن ننزه ألسنتنا عن الفحش مخافة هذا الأمر، إلا أن تدعو الضرورة لكف أذاهم، وإسكاتهم وهذا ما حصل، فقد أرسل النبي ﷺ إلى ابن رواحة، وإلى كعب بن

مالك وأمرهم بهجاء المشركين، ولكن الرسول لم يرض عن هجائهما، فأرسل إلى حسان بن ثابت، فلما دخل حسان على رسول الله ﷺ قال حسان: (قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه - بلسانه - ثم أدلع حسان لسانه فجعل يحركه. فقال: «والذي بعثك بالحق لأفرينهم بلساني فري الأدم» ـ أي لأقطعنهم قطع الجلد ـ فقال رسول الله ﷺ: (لا تَعجلْ، فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها، وإن لي فيهم نسباً، حتى يلخص لك نسبي). فذهب حسان إلى الصديق، ثم رجع فقال: «يا رسول الله، قد لخص لي نسبك، والذي بعثك بالحق، لأَسلَّنَّك منهم كما تُسلُّ الشعرة من العجين»، وفي رواية (من الخمير)؛ لأنه ألين من الفطير. قالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: «إن روح القدس لا يزال يؤيدك، ما نافحتَ عن الله ورسوله». وكان من بعض شعر حسان قوله:

ألا أَبلـــغْ أبـــا ســـفيان عنـــي	مُغلغلـــة فقـــد بـــرح الخفـــاء
هجـــوتَ محمـــداً فأجبـــتُ عنـــه	وعنـــد الله في ذاك الجـــزاء
هجـــوت محمـــداً بـــراً تقيـــاً	رســـول الله شـــيمته الوفـــاء
فـــإن أبي ووالـــده وعِـــرضي	لعـــرض محمـــد منكم وقـــاء
بـــأن ســـيوفنا تركتـــك عبـــداً	وعبـــد الـــدار ســـادتها الإمـــاء
أَتهجـــوهُ ولـــستَ لـــه بكـــفءٍ	فـــشرُّكما لخـــيركما الفِـــداء
أمـــن يهجـــو رســـول الله منكم	ويمدحـــه وينـــصره ســـواء
لـــساني صـــارمٌ لا عيـــب فيـــه	وبحـــري لا تكـــدّره الـــدلاءّ

أي لا يستوي من هجاه منكم ومن مدحه منا، فكيف تهجوه وتجعل نفسك نظيراً له يا أبا سفيان؟! وقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هجاهم حسان فشفى واستشفى».

وكان تاجراً صاحب خلق وإحسان: قال المؤرخون (المحب الطبري): كان في جاهليته تاجراً، دخل بصرى من أرض الشام وكان خِدناً لرسول الله ﷺ وصفياً له في الجاهلية ـ كما ذكر المسعودي في مروج الذهب، والطبري في تاريخه: «أنه رافق النبي ﷺ حين ذهب ﷺ مع عمه إلى الشام واجتمع ببحيرا الراهب». وكان ينفق ماله بسخاء وكرم، وارتحل بين البلدان في التجارة

وكان رأس ماله أربعين ألف درهم. كان رجال قريش يألفونه لعلمه وحسن مجالسته وكرمه، كما كانوا يستشيرونه ويحبونه، ولما جاء الإسلام دخل فيه أكملَ دخول، وآثره على سواه، كما يقول الطنطاوي.

صحبته لرسول الله ﷺ قبل الإسلام: قال المحب الطبري كان الصديق خدناً للنبي ﷺ وصفياً له في الجاهلية وكان النبي ﷺ في بدء الوحي إذا برز سمع من يناديه: يا محمد!! فإذا سمع الصوت انطلق هارباً، فأسرَّ ذلك إلى الصديق وكان ندياً له في الجاهلية. (المحب الطبري عن أم سلمة) ذكرها الطنطاوي ولما قص النبي ﷺ على خديجة أنه ﷺ كان إذا خلا وحده سمع نداءً، ثم قال لها: «وقد والله خشيت يا خديجة». فقالت: معاذ الله، ما كان الله ليفعل بك، فوالله إنك لتؤدي الأمانة وتصل الرحم، وتصدق الحديث. فلما دخل أبو بكر، ذكرت خديجة له قول رسول الله ﷺ وقالت: يا عتيق اذهب مع محمد ﷺ إلى ورقة.. وكانت داره في مكة في بني جمح، مع أن أبا بكر تميمي، ولكنه كان يقيم في حي الجمحيين.

لم يشرب خمراً. قالت عائشة: حرم أبو بكر الخمر في الجاهلية فلم يشربها في جاهلية ولا إسلام، وذلك أنه مرَّ برجل سكران يضع يده في العذرة، ثم يُدنيها من فِيه فإذا وجد ريحها ابتعد عنها، فقال الصديق: «إن هذا لا يدري ما يصنع»، فحرمه الصديق عن نفسه[1]. ثم إن الصديق سُئل: هل شربت الخمر في الجاهلية؟ فقال:أعوذ بالله، فقيل له: ولم؟ قال: «كنت أصون عرضي، وأحفظ مروءتي، فإن من شرب الخمر كان مضيعا فى عرضه ومروءته»، قال: فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «صدق أبو بكر صدق أبو بكر».

يقول الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله في كتابه عن الصديق: «فأنت ترى كيف توصل الصديق، بصفاء طبعه، إلى ضرر الخمر فحرمها على نفسه، وكيف أن أوامر الإسلام ونواهيه لا تخالف العقل السليم، والذوق القويم، فإذا كان أبو بكر قد حرمها على نفسه ولم ينزل بها وحي، والناس في جاهلية، فكيف يُحِلّها اليوم لأنفسهم بعض المسلمين وبين أيديهم كتاب الله تعالى وقد تم الدين، وبان الحق». وما أجمل قول القائل:

---

(١) في تاريخ الخلفاء للسيوطي.

أهـلُ الخمـور مـن الـرحمن قـد بَعُـدُوا وفي العـذاب عـلى الخـسران قـد وَرَدُوا
بـشربهم مـن إلـه العـرش قـد بعـدوا وفي الـصدور مـن الـشيطان قـد وقعـوا
دَعِ المدامـــةَ لا تـــسلك طريقتهـــا فأهلهـــا لنعـــيم الـــرب قـــد جحـــدوا
وقـد تَوعَّـدهم رب الـسماء عـلى شرب الخمـور بنـارٍ حجرهـا يَقِـدُ
غـداً تـرى أهـل شرب الخمـر كلهـم بـدار وَيْـلٍ عـلى النـيران قـد وردوا

فيا من ابتلي بهذه القاذورات، أَسرعْ بتوبةٍ قبل فوات الأوان. وجميلٌ قولُ القائل:

لا يـشرب الخمـر إلا فـاجرٌ بَطِـرٌ قـد خـالف الله والقـرآن والرسـلا
بـئس الـشراب وبـئس الـشاربون لهـا لا يـسلكون إلى دنيـاهم سـبلا
هـي الـدليل إلى دار الجحـيم غـداً بـئس الـدليل ولا يرجـى لهـم حِـولا
إلا بتـوبٍ عـسى الـرحمن يقبلـه فَتُـبْ مـن الـذنب لا تيـأس وإن ثقـلا

ولم يسجد لصنم قط: يروي صاحب كتاب (أنباء نجباء الأبناء)[١]، كما ذكر الطنطاوي، أن الصديق حَدَّث في مجمع من أصحاب رسول الله ﷺ قال: ما سجدتُ لصنم قط، وذلك لأني لما ناهزت الحلم، أخذني أبو قحافة بيدي فانطلق إلى (مُخْدَعٍ) فيه الأصنام، فقال لي: هذه آلهتك الشُمَّ العوالي»، وخَلَّاني وذهب، فدنوت من الصنم فقلت: «إني جائع فأطعمني، فلم يجبني، فقلت: إني عارٍ فاكسني، فلم يُجبني، فألقيت عليه صخرة فخرّ لوجهه». وقد علَّقَ المؤرخ رفيق العظم في كتابه[٢] على حياة الصديق في الجاهلية فقال: اللهم إن امرأً نشأ بين الأوثان، حيث لا دينُ زاجر، ولا شرع للنفوس قائد، وهذا مكانه من الفضيلة، واستمساكه بعُرى العفة والمروءة لجديرٌ أن يتلقى الإسلام بملء الفؤاد، ويكون أول مؤمن بهادي العباد.

قال أهل العلم، ويضاف إلى هذه الفضائل:

مروءته النادرة: يروي مؤلف كتاب (كنز العمال) أن الزبير بن بكار الذي ينتهي نسبه إلى عبدالله بن الزبير له كتاب (النسب) توفي ٢٥٦ هـ: أن رجلاً دعا أبا بكر إلى حاجة له في الجاهلية، وطلب من الصديق أن يسير في طريق غير التي يمر منها، فقال الصديق: أين تذهب هذه

(١) ابن ظفر.

(٢) أشهر مشاهير الإسلام.

الطريق!! فقال الرجل: إن فيها أناساً نستحي منهم أن نمر عليهم، فقال أبو بكر: تدعوني إلى طريق تستحي منها؟ ما أنا بالذي أصاحبك. هذه الأخلاق التي أجمع عليها كتاب السِّير، ودفعت صاحب كتاب (الخليفة الأول) إلى القول: «لله در الصديق، فقد كان يحمل رصيداً ضخماً من القيم الرفيعة، والأخلاق الحميدة في المجتمع القرشي الجاهلي قبل الإسلام. وقد شهد له أهل مكة بتقدمه على غيره في عالم الأخلاق والقيم، ولهذا لما خرج من مكة ليهاجر، قال له ابن الدُّغُنَّة: مثلك لا يَخْرُجُ ولا يُخرج يا أبا بكر».

وقال ابن تيمية في كتابه[1]: «ولم يُعلَمْ أن أحداً من قريش عاب أبا بكر بعيب، ولا نقصه، ولا استرذله كما كانوا يفعلون بضعفاء المؤمنين، ولم يكن له عيب عندهم إلا إيمانه بالله ورسوله.

إسلامه:

كان الصديق حريصاً على الاتصال بمن كان موحداً في الجاهلية، وكان أول سماعه بالدين ما حدّث هو عن نفسه قال: كنت جالساً بفناء الكعبة (ومعه زيد بن عمرو بن نفيل)، وزيد هذا كان على دين إبراهيم، لا يذبح للأصنام، ولا يأكل الميتة ولا الدم، مات قبل البعثة بخمس سنين، وكان يُنكر عمل الجاهلية، ويقول: والذي نفسي بيده ما بقي على دين إبراهيم غيري، (أي على التوحيد). وذكر صاحب كتاب (هذا الحبيب يا محب): أن ابن زيد بن عمرو بن نفيل واسمه (سعيد)، وعمر بن الخطاب قالا لرسول الله ﷺ: أنستغفر لزيد بن عمرو بن نفيل؟ فقال ﷺ: (نعم فإنه يُبعث أمة وحده). ومن شعره الذي خرج به الدالّ على توحيد الله:

أربًّـــاً واحـــداً أم ألـــفَ رب ... أدَيـــنُ إذا تقـــسَّمت الأمـــور
عزلـــت الـــلات والعـــزى جميعـــا ... كـــذلك يفعـــل الجلـــد الـــصبورُ
فـــلا العُـــزَّى أديـــن ولا ابنتيهـــا ... ولا صـــنمي بنـــي عمـــرو أزور
ولا هُـــبَلاً أديـــن وكـــان ربّـــاً ... لنـــا في الـــدهر إذ حِلمـــي يـــسير

وكان الصديق جالساً مع زيد هذا، فمر به (أمية بن أبي الصلت) الثقفي (شاعر جاهلي حكيم من أهل الطائف، نبذ عبادة الأوثان، وحرم الخمر على نفسه، وكان مطلعاً على الكتب القديمة، ولبس المسوح، فلما جاء الإسلام حسد رسول الله ﷺ فلم يسلم ومات سنة ٥ هـ. فقال

---

(١) منهاج السنة النبوية.

له زيد: كيف أصبحتَ يا باغي الخير؟ فقال أمية: بخير قال: هل وجدت؟ قال: لا، ولم آل من طلبٍ. فقال:

كـــــل ديــــن يــــوم القيامــــة إلا　　مـــا قـــضى الله والحنيفـــة بـــور

أما إن هذا الذي ينتظر منا أو منكم أو من أهل فلسطين. قال أبو بكر: ولم أكن سمعت قبل ذلك بنبي يبعث أو ينتظر، فخرجت أريد ورقة بن نوفل، وكان كثير النظر في السماء، كثير همهمة الصدر، فاستوقفته، ثم قصصت عليه الحديث فقال: نعم ياابن أخي، ولكن أبى العلماء وأهل الكتاب إلا أن هذا النبي المنتظر من أوسط العرب نسباً، ولي علم بالنسب، وقومك يا أبا بكر أوسط العرب نسباً. قلت: يا عم!! وما يقول النبي؟ قال: يقول ما قيل له، إلا أنه لا ظلم ولا تظالم. وورقة هذا قرشي، اعتزل الأوثان قبل الإسلام، وامتنع عن أكل ذبائحها، وقرأ كتب الأديان، أدرك أوائل عصر النبوة ولم يدرك الدعوة. قال الصديق: (فلما بعث رسول الله ﷺ آمنت به وصدقته). تاريخ الخلفاء للسيوطي.

قال المؤرخون: وكان الصديق يسمع لقول أمية بن أبي الصلت أحياناً كقوله:

ألا نبــــي لنــــا منــــا فيخبرنــــا　　مــــا بعــــد غايتنــــا مــــن رأس مجرانــــا
إني أعـــوذ بمـــن حـــج الحجـــيجُ لـــه　　والرافعـــــون لـــــدين الله أركانـــــا

قال المؤرخون: لقد عايش أبو بكر هذه الفترة ببصيرة نافذة، وفكر متألق، وتأمُّل رزين ملأ عليه أقطار نفسه، ـ كما قال صاحب كتاب الخليفة الأول، وكان يحب أن يسمع ما يقوله الحكماء من الشعراء عن النبوات والدين كما في شعر أمية السابق، وكما في كلام قس بن ساعدة الأيادي، فقد روى صاحب كتاب ـ (مواقف الصديق مع النبي ﷺ بمكة): أن النبي ﷺ سأل أصحابه يوماً، وفيهم أبو بكر قائلاً: من يحفظ منكم كلام قس بن ساعدة في سوق عكاظ؟ سكت الصحابة، ونطق الصديق قائلاً: إني أحفظه يا رسول الله، كنت حاضراً يومها في سوق عكاظ، ومن فوق جمله الأورق وقف قس يقول: أيها الناس: اسمعوا وعوا، وإذا وعيتم فانتفعوا، إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لقبرا، مِهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور، وبحار لن تفور، ليل داج، وسماء ذات أبراج!! أقسم قس قسماً حقاً، إن لله ديناً هو أرضى إليه من دينكم الذي أنتم عليه. مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون، أرضوا فأقاموا أم

حُبسوا فناموا؟!

في الـــذاهبين الأولـــين مـــن القـــرون لنـــا بـــصائر
لا يرجـــع المـــاضي ولا يبقـــى مـــن البـــاقين غـــابر
لمـــا رأيـــت مـــوارداً للمـــوت لـــيس لهـــا مـــصادر
ورأيـــت قـــومي نحوهـــا تمـــضي الأكـــابر والأصـــاغر
أيقنـــتُ أني لا محالـــةَ حيـــث صـــار القـــوم صـــائر

بهذا الوعي، وهذا الاهتمام، وهذه الذاكرة العجيبة، أعاد الصديق ما سمعه من قس بن ساعده على رسول الله ﷺ بعد سنين.

كان أبو بكر صديقاً للنبي ﷺ، وخِدناً له، فلما بعث رسول الله ﷺ انطلق رجال من قريش إلى أبي بكر، فقالوا: يا أبا بكر: إن صاحبك كذا، وكذا، قال: وما شأنه؟؟ قالوا: هو ذلك في المسجد يدعو إلى عبادة إله واحد، ويزعم أنه نبي!! قال الصديق: وقال ذلك؟

قالوا: نعم. فأقبل الصديق إلى النبي ﷺ فطرق عليه الباب فاستخرجه، فلما ظهر قال له: يا أبا القاسم!! ما الذي بلغني عنك؟ قال النبي ﷺ: وما بلغك؟ قال الصديق: بلغني أنك تدعو إلى التوحيد، وأنك رسول الله، قال النبي ﷺ: نعم يا أبا بكر (إن ربي جعلني بشيراً ونذيراً، وجعلني دعوة إبراهيم، وأرسلني إلى الناس جميعاً)، قال الصديق: والله ما جرّبت عليك كذباً، وإنك لَخَلِقٌ بالرسالة لِعِظم أمانتك، وصلتك لرحمك، وحسن فعالك، مدّ يدك فإني مبايعك. ولذلك ورد في سيرة ابن هشام أن النبي ﷺ قال: «ما دعوتُ أحداً إلى الإسلام إلا كانت منه عنده كبوة ونظر وتردد إلا ما كان من أبي بكر ما عَكَمَ ـ تلبَّثَ ـ عنه حين ذكرته له وما تردد فيه». وذكر ابن سعد، أن رجلاً قال لبلال: من سبق؟ قال بلال: محمد، قال الرجل: من صلى[1]؟ قال: أبو بكر، قال الرجل: إنما أعني في الخيل، فقال بلال: وأنا إنما أعني في الخير.

وفى صحيح مسلم: أن عمرو بن عبسة أتى النبي ﷺ بمكة، فقال: من معك في هذا الأمر؟ فقال النبي ﷺ: (حر وعبد)، وليس معه إلا أبو بكر وبلال. وكان علي رضي الله عنه إذا ذكر عنده الصديق يقول: (السَّبَّاقُ)، والذي نفسي بيده ما استبقنا إلى خير قط، إلا سبقنا إليه أبو بكر.

---

(١) المصلي: هو من يأتي ثانياً في الخيل، والأول المجلي، والثالث المسلي، والعاشر الفسكل.

وذكر النووي في «التهذيب»، أن الثعلبي أو الثعالبي[1] ادَّعى الإجماع على أن أبا بكر أول الناس إسلاماً. والصحيح الذي عليه أهل التحقيق، ما قاله المحب الطبري، حيث جمع بين الروايات جمعاً جميلاً. قال: إن أول من أسلم مطلقاً خديجة بنت خويلد. وأول ذكر أسلم علي بن أبي طالب، وهو صبي لم يبلغ، وكان مستخفياً بإسلامه. وأول رجل عربي بالغ أسلم وأظهر إسلامه أبو بكر. وأول من أسلم من الموالي زيد بن حارثة (بن شرحبيل الكلبي حِبُّ رسول الله ﷺ ومولاه، شهد بدراً وقتل بمؤتة أميراً سنة ثمان هـ، وهو الذي ذُكرَ باسمه في القرآن الكريم). وهذا الكلام متفق عليه ولا خلاف فيه، وعليه يحمل قول علي رضي الله عنه (السباق) وأن أبا بكر هو أول من أسلم من الرجال البالغين.

قال السيوطي: وأول من ذكر هذا الجمع بين الروايات، (الإمام أبو حنيفة)[2]. ويروي صاحب (الرياض النضرة)، قال: جاء رجل إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين، كيف سبق المهاجرون والأنصار إلى بيعة أبي بكر، وأنت أسبقُ منه سابقة؟ فقال علي: سبقني أبو بكر إلى أربع لم أُوْتَهُنَّ، ولم أعتض منهن بشيء، سبقني إلى إفشاء الإسلام، وقِدَمِ الهجرة، ومصاحبة النبي ﷺ في الغار، وإقام الصلاة. وأنا يومئذ بالشِّعب، يُظهر أبو بكر الإسلام وأخفيه، وتحقرني قريش وتستوفيه. والله لو أن أبا بكر زال عن مزيّته، ما بلغ الدين العيرين ـ الجانبين ـ ولكان الناس كَرَعَةً ككرعةِ طالوت، ـ أي لولا أبو بكر لخالف الناس الدين كما خالفه كرعةُ طالوت بالشرب من النهر الذي نُهوا عن الشرب منه ـ ويلك إن الله ذم الناس ومدح أبا بكر، فقال: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴿٤٠﴾﴾[3] فرحمة الله على أبي بكر. وجميل قول القائل:

---

(١) وهو رأس فى اللغة والتفسير، متين الديانة، كان زاهداَ، توفي في ٤٢٧ هـ.

(٢) النعمان بن ثابت، طلبه الوالى ابن هبيرة للقضاء فامتنع، وطلبه المنصور للقضاء فحلف أبو حنيفة ألا يفعل فحبسه المنصور ثم أطلقه وتوفي ٥٠ هـ في بغداد.

(٣) التوبة: ٤٠.

أنـــا مــــولاي إمـــامٌ ضـــحكت	مــــن ثنايــــا فـــضله آيُ الزمــــر
صـــدق المرســـلَ إيمانـــاً بـــه	ولحـــا في الله مـــن كــــان كفـــر
ثـــم بالغـــار لــــه منقبـــة	خـــصه الله بهـــا دون البـــشر
ثـــانيَ اثنـــين وقـــول المـــصطفى	معنـــا الله فـــلا تُبْـــدِ الحـــذر

وسئل محمد بن الحنفية، وهو محمد بن علي بن أبي طالب، أمه خوله بنت جعفر الحنفية نسب إليها. قال إبراهيم بن الجنيد: لا نعلم أحداً أسند عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أكثر ولا أوضح مما أسند ابنه محمد توفي ١٠ هـ. أكان أبو بكر أول الناس إسلاماً؟ قال: لا، قيل: فبأي شيء علا وسبق حتى ما يُذكَرُ معه غيره؟ قال: بأنه أسلم يوم أسلم وكان خيرهم إسلاماً ولم يزل على ذلك حتى توفاه الله تعالى.

قال صاحب «البداية والنهاية»: أسلم أبو بكر، وبإسلامه عمّ السرور قلب النبي ﷺ حيث تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أسلم أبو بكر، فانطلق الرسول ﷺ من عنده، وما بين الأخشبين أحدٌ أكثر سروراً منه ﷺ بإسلام أبي بكر.

قال المؤرخون: لما أسلم أبو بكر أظهر إسلامه، ودعا إلى الله، وكان رجال قريش يأتونه ويألفونه، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به ممن يأتي إليه من قومه، ويجلس معه.

قال ابن إسحاق: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وعلي والصديق وزيد بن حارثة وهم الذين سبقوا إلى الإسلام. وتقول عائشة: لما أسلم أبو بكر، راح بعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد فأسلموا.

وعثمان: هو ثالث الخلفاء الراشدين، ومن العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الرجال الذين اعتز بهم الإسلام، جهز نصف جيش العسرة من ماله، وفتحت أيام خلافته أرمينية، والقوقاز، وخراسان، وكرمان، سجستان، وأفريقية، وقبرص، أتم جمع القرآن، ووسع الحرمين، توفي شهيداً صبيحة عيد الأضحى سنه ٣٥هـ.

والزبير ابن العوام: ابن عمة النبي ﷺ صفية بنت عبد المطلب، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأول من سلَّ سيفه في سبيل الله، وكان طويلاً جداً، قتله ابن جرموز غيلةً يوم الجمل سنة ٣٦هـ.

وعبد الرحمن بن عوف الزهري: أحد العشرة المبشرين، شهد بدراً، والمشاهد كلها، وكان كريماً وغنياً، تصدق بقافلة فيها سبع مائة بعير تحمل الحنطة والدقيق والطعام، وأوصى بألف فرس، وخمسين ألف دينار ذهباً في سبيل الله، توفي سنه ٣٢ هـ.

وسعد بن أبي وقاص: الزهري، فاتح العراق، وأول من رمى بسهم في سبيل الله، شهد بدراً، وبنى الكوفة، وله في الصحيحين ٢٧١ حديثاً، ومات في العقيق قرب المدينة سنة ٥٥ هـ وحمل إليها.

وطلحة بن عبيد الله: كان يسمى طلحة الجود، أحد العشرة المبشرين بالجنة، شهد أحداً، وثبت مع رسول الله ﷺ وبايعه على الموت، وشهد الخندق وسائر المشاهد، وقتل يوم الجمل سنة ٣٦ هـ، وهو بجانب عائشة، وله في الصحيحين ثمانية وثلاثون حديثاً. ثم تقول عائشة: ثم جاء الغد بعثمان بن مظعون وأبي عبيدة، وأبي سلمة والأرقم فأسلموا.

عثمان بن مظعون: الجمحي، وكان من حكماء العرب في الجاهلية، وأخو النبي ﷺ رضاعاً، يحرم الخمر، هاجر إلى الحبشة مرتين، وشهد بدراً، ولما مات قبَّله النبي ﷺ ميتاً، وحتى رُئيت دموعه ﷺ، تسيل على خد عثمان.

وأبو عبيدة، عامر بن الجراح: الفهري القرشي، القائد الفاتح الأمير فتح الشام، وهو من العشرة المبشرين، شهد المواقع كلها مع رسول الله ﷺ، وتوفي بطاعون عمواس ـ بلد قرب القدس ـ على ستة أميال من الرملة، وهو أول طاعون في الإسلام، وكان عمره ثمانية وخمسون عاماً، ودفن في غور بيسان، وانقرض عقبه.

والآن ننقل لكم حديثاً عن واحد من هؤلاء الذين أسلموا على يد الصديق: والمحدث هو عثمان بن عفان ينقل لنا قصة إسلامه فيقول: كنت بفناء الكعبة، فقيل: إن محمداً زَوَّج ابنته رقية (عتبة بن أبي لهب). قال عثمان: فدخلتني حسرة على ألا أكون سبقتُ إليها، فانصرفت إلى منزلي، فوجدت خالتي (سعدى بنت كريز)، وهي صحابية عبشمية (من بني عبد شمس)، فأخبرتني أن الله أرسل محمداً، وحثتني على اتباعه. قال عثمان: وكان لي مجلس من الصديق، فأصبته في هذا المجلس وحده، فسألني (حيث رآني متفكراً) عن تفكيري، فأخبرته بما سمعت من خالتي سعدى بنت كريز، فحثني الصديق على اتباع الإسلام، وبينما الصديق يحثني على الدخول في الإسلام، فما

كان أسرع من أن مرَّ النبي ﷺ، ومعه علي يحمل له ثوباً، فقام أبو بكر فسارَّ النبي ﷺ، قال عثمان: فقعد النبي ﷺ ثم أقبل علي فقال ﷺ: (أَجبِ الله إلى جنته، فإني رسولُ الله إليك وإلى جميع خلقه)، قال عثمان: فوالله ما تمالكت نفسي حين سمعته أن أسلمت ثم لم ألبث أن تزوجت رقية.

وخبر رقية كما ذكره المؤرخون: وهو أن قريشاً مشت إلى عتبة بن أبي لهب، وطلبوا منه أن يطلق رقية بنت رسول الله ﷺ (وكان قد عقد عليها ولم يدخل بها)، ونحن نزوجك أي امرأة من قريش تريد، قال: إن زوجتموني ابنة أبان بن سعيد بن العاص او ابنة سعيد بن العاص فارقت ابنة محمد، قال: فزوجوه ابنة سعيد بن العاص وفارقها، ولم يكن عدو الله دخل بها كما يقول الطبري، فأخرجها الله من يده كرامة لها، وهوناً له فخلف عليها عثمان رضي الله عنه.

أما إسلام طلحة: فخلاصته أن قريشاً لما أسلم الصديق قالت: أي قريش: قَيِّضُوا لأبي بكر رجلاً يأخذه، فقيضوا له طلحة بن عبيد الله، فأتاه وهو في القوم، فقال طلحة للصديق: يا أبا بكر قُمْ إليَّ. قال الصديق: إلام تدعوني؟ قال طلحة: أدعوك إلى عبادة اللات والعزى. قال الصديق: من اللات والعزى؟ قال طلحة: بنات الله!! قال الصديق: فمن أمهم؟ فسكت طلحة، ثم التفت لأصحابه من المشركين وقال لهم: أجيبوا صاحبكم فسكتوا. فقال طلحة عندها لأبي بكر: قم يا أبا بكر فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فأخذ أبو بكر بيده، فأتى به رسول الله ﷺ فأسلم كما في «عيون الأخبار».

أما إسلام خالد بن سعيد بن العاص: فكان إسلامه أنه رأى في نومه أنه واقف على شفير جهنم، وذكر سَعَتها.. ورأى كأن أباه العاص يدفعه فيها، ورأى رسول الله ﷺ آخذٌ بحِقويه حتى لا يقع فيها، فقام من نومه فزعاً وقال: أحلف بالله إن هذه لرؤيا حق. فذهب فلقي الصديق أبا بكر، فذكر له ذلك، فقال له أبو بكر: أريد بك خيراً، هذا رسول الله ﷺ فاتبعه، والإسلام يحجزك أن تدخل النار، وأبوك واقع فيها، فلقي النبي وهو بأجياد ـ مكان قريب من الصفا ـ فقال خالد للنبي ﷺ: يا محمد، إلام تدعو؟ قال ﷺ: إلى الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وتخلع ما أنت فيه، فأسلم. وكان أبو بكر قد ابتنى بفناء داره مسجداً، يصلي فيه ويقرأ القرآن، فيجتمع عليه الناس ويستمعون إلى قراءته وصلاته وبكائه، فكان ذلك سبباً في إسلام كثيرين وذلك مشهور عنه. وقد علق (الشيخ علي الطنطاوي) على نشاط الصديق بالدعوة إلى الله تعالى فقال: رحم الله الصديق، فهذا مما امتاز به منذ دخل الإيمان قلبه وأُشربتهُ روحه فانطلق

يدعو إليه، وبدأ بأصحابه الأدنين فلبوا دعوته، فكان منهم هؤلاء الرجال العظام الذين أصبحوا بالإسلام منارات أبطالاً، فرحمهم الله جميعاً. ويذكر المسعودي في كتابه «مروج الذهب» شعراً لبعضهم جاء فيه:

فيا سائلي عن خيار العباد	صادفتَ ذا العلم والخِبرة
خيار العباد جميعاً قريش	وخير قريش ذوو الهجرة
وخير ذوي الهجرة السابقون	ثمانية وحدهم نصرة
علي وعثمان والزبير	وطلحة واثنان من زهرة
وشيخان قد جاورا أحمداً	وجاور قبراهما قبره

يقول أهل العلم: إن هذه الصفات الحميدة، والأخلاق الفاضلة، لا بد منها للدعاة، وإلا أصبحت دعوتهم صرخة في واد أو نفخة في رماد، وسيرة الصديق نبراس للدعاة يتأسون به في دعوتهم للأفراد.

مواقفه قبل الهجرة إلى المدينة: وهي كثيرة ومنها:

دفاعه عن رسول الله ﷺ وشجاعته: ورد عن علي رضي الله عنه قال: لما كان بعد وفاة أبي (أبو طالب) بثلاثة أيام، اجتمعت قريش تريد قتل النبي ﷺ، فلم يعنه يومئذ إلا أبو بكر، ولأبي بكر يومئذ ضفيرتان، فأقبل يجادل هذا ويدفع هذا ويقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۝٢٨﴾ [1]، ثم يقول: والله إنه لرسول الله، وقد تقطعت في ذلك اليوم إحدى ضفيرتي أبي بكر.

وذكر صاحب كتاب (الخليفة الأول)، أن علياً رضي الله عنه قام خطيباً وقال: يا أيها الناس من أشجع الناس؟ فقالوا: أنت يا أمير المؤمنين، فقال: أما إني ما بارزني أحد إلا انتصفت منه، ولكن أشجع الناس أبو بكر، ثم قال علي: إنا جعلنا لرسول الله ﷺ عريشاً فقلنا: من يكون مع رسول الله ﷺ لئلا يهوي عليه أحد المشركين؟ يقول علي: فوالله ما دنا منه أحد إلا أبو بكر شاهراً بالسيف على رأس رسول الله ﷺ، فهذا أشجع الناس. قال علي: ولقد رأيت رسول الله ﷺ وأخذته قريش، فهذا يحادُّهُ وهذا يُتلتِلهُ ويقولون: أنتَ جعلتَ الآلهة إلهاً واحداً؟ فوالله ما دنا منه

---

(١) غافر: ٢٨.

أحد إلا أبو بكر، يضرب هذا، ويجاهد هذا، ويتلتل هذا، وهو يقول: ويلكم ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، ثم رفع عليٌ بردةً كانت عليه فبكى حتى اخضلَّت لحيته، ثم قال: أنشدكم بالله أمؤمن آل فرعون خير أم هذا؟ يعني الصديق فسكت القوم، فقال علي: فوالله لساعة من أبي بكر خير من ملء الأرض من مؤمن آل فرعون، ذاك رجل يكتم إيمانه، وهذاـ أي الصديق ـ رجل أعلن إيمانه وبذل لله نفسه ودمه.

وذكر شبيه هذا ابن السمان في كتاب «الموافقة». وفي كتاب «الرياض النضرة»: أنه قيل لأسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ما أشدَّ ما رأيت المشركين بلغوا من رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان المشركون قعوداً في المسجد الحرام، فتذاكروا رسول الله ﷺ وما يقول في آلهتهم، فبينما هم كذلك، إذ دخل رسول الله ﷺ المسجد، فقاموا إليه، وكانوا إذا سألوه عن شيء صدقهم، فقالوا: ألست تقول في آلهتنا كذا وكذا؟ قال ﷺ: بلى، قالت أسماء: فتشبثوا به ﷺ بأجمعهم، فأتى الصريخ أبا بكر أن أدرك صاحبك، فقال: ويلكم ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴿٢٨﴾﴾. فلهوا عن رسول الله ﷺ، وأقبلوا على أبي بكر يضربونه، قالت: فرجع إلينا لا يَمَسُّ شيئاً من غدائِرِه إلا جاء معه!! وهو يقول: (تباركتَ يا ذا الجلال والإكرام).

وفي سيرة ابن هشام، قال: قال عمرو بن العاص: اجتمعت قريش في الحجر وأنا معهم أسمع ما يقولون، فقال بعضهم لبعض: ما رأينا مثل ما بلغ هذا الرجل منا قطُّ، وما أدخلَ رجلٌ على قوم مثل ما أدخل علينا، فرَّق جماعتنا، وشتت أمرنا، وعاب ديننا، وسبَّ آباءنا، وسفَّه أحلامنا، فلا ندري على ماذا ندعه؟ قال: فبينما هم كذلك يتحدثون إذ أقبل رسول الله ﷺ حتى أتى الركن، ثم مر به طائفاً فغمزوه ببعض الكلام فعرفتها والله في وجهه، ثم مر بهم في الطواف الثالث فغمزوه بمثلها، فقال ﷺ: يا معشر قريش لقد جئتكم بالذبح، فأطرق والله القوم حتى ما فيهم رجل إلا كأنما كان على رأسه طيرٌ وقع، حتى إن أشدَّهم فيه وصباً ليتلقاه بأحسن ما يجد من الكلام حتى إنه ليقول له: (يا أبا القاسم ما كنت جهولاً) وعند الزرقاني أن الذي قال للنبي ﷺ هذه العبارة يلاطفه هو (أبو جهل) فقال ﷺ (أنت منهم). قال عمرو بن العاص: فانصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا، حتى إذا كان الغد جلسوا مجلسهم، ـ في الحجر ـ ذاك فذكروا النبي ﷺ، وقالوا: هممتم به وذكرتم ما صنع بكم حتى إذا استقبلكم بما تكرهون تركتموه. فبينما هم على ذلك إذ طلع رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا؟ قال

ﷺ: نعم، قال: فلقد رأيت رجلاً أهوى إليه فأخذ بمجامع ردائه، ودخل أبو بكر بينهم وبينه وهو يقول: ويلكم ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴿٢٨﴾﴾، ثم انصرفوا عنه ﷺ، ورجع أبو بكر وقد صدعوا فرق رأسه مما جذبوه بلحيته وكان رجلاً كثير الشعر.

وذكر المحب الطبري أن أسماء بنت أبي بكر الصديق قالت: لما نزلت سورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾[1]، وأبو لهب هو: - عبد العزى بن عبد المطلب ـ عم النبي ﷺ وكان من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ وأكثرهم أذى له حتى أنه كان يطرح العذرة والنتن على باب النبي ﷺ إذ كان مجاوراً له، وكان النبي ﷺ إذا وجد ذلك قال: (أي جوار هذا يا بني عبدالمطلب). ومر حمزة مرةً بأبي لهب وهو يطرح العذرة على باب النبي ﷺ فأخذها وطرحها على رأس أبي لهب. وكانت امرأة أبي لهب ـ العوراء أم جميل ـ مثله في العداوة لرسول الله ﷺ، فلما نزلت سورة ـ المسد ـ تُلقِّبها (بحمالة الحطب)، وتحمل لها البشرى بهلاكها وهلاك زوجها في الدنيا، والخلود في النار في الآخرة، أتت ولها وَلْوَلَةٌ كما تقول أسماء بنت الصديق، وبيدها فهر ـ حجر ـ على قدر الكف إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد ومعه أبو بكر فقال الصديق لما رآها: يا رسول الله أقبلت وإني أخاف أن تراك، فقال ﷺ: (إنها لن تراني)، وقرأ قرآناً فاعتصم به، كما قال عز وجل: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾[2]، فوقفت أم جميل على الصديق ولم تر النبي ﷺ وهو بجانبه فقالت: يا ابن أبي قحافة أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجوني والله لو وجدته لضربته بهذا الفهر، أما والله اني لشاعرة ثم قالت:

مذَمَّماً أبينا ودينه قلينا وأمره عصينا

ثم وَلَّتْ وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها. وكان النبي ﷺ يقول: ألا تعجبون مما صرف الله عني من أذى قريش؟ يهجون مذَمَّماً وأنا محمد. وكانت قريش تسميه مذمماً ثم تسبُّهُ فلا ينال من السباب شيئاً.

قال المؤرخون: وأخذ الله جل جلاله أبا لهب بمكة إذ أصابه بمرض خبيث يقال له (مرض العدسة) فمات شر ميتةٍ حتى إنهم لم يقدروا على تغسيله فصبوا عليه الماء من بعيد من

---

(١) المسد: ١.

(٢) الإسراء: ٤٥.

شدة الرائحة النتنة التي تفوح من جسمه الذي تهرَّى بصورة لم يعرف لها نظير. وفي أبي لهب وفي امرأته نزلت سورة المسد: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [(١)] أي هلكت يداه، وهلك كله، وقد حصل ذلك فهلك، كقول الشاعر:

جـــــزاني جـــــزاه الله شر جزائـــــه　　　جــزاء الكــلاب العاويــات وقــد فعــل

يريد ذلك قراءة ابن مسعود في ـ وتب ـ قال (وقد تبَّ)، أي هلك، وما دام حديثنا عن الصديق في مكة قبل الهجرة، **فلا بد من الإشارة إلى أمرين:**

أولاً: حادثة جرت له مع ـ أبي بن خلف الجمحي ـ، وملخصها أن الروم وفارس حصل بينهما قتال في أدنى الأرض، وأدنى الأرض ـ يوم أذرِعاتٍ ـ بها التقوا. وأذرعات بلد في أطراف الشام مجاورة أرض البلقاء وعمان، وإليها نسب الخمر، والمشهور اليوم أنها هي درعا من أرض حوران وقد ذكرتها العرب في أشعارها لأنها كانت من بلاد العرب في الإسلام وقبله، كانت المعركة بين الفرس والروم في أذرعات فانهزم الروم، فبلغ ذلك النبي ﷺ وأصحابه وهم بمكة فشقَّ عليهم ذلك، وكان النبي ﷺ يكره أن ينتصر المجوس على أهل الكتاب من الروم، وفرح كفار مكة وشمتوا فلقوا أصحاب النبي ﷺ فقالوا: إنكم أهل كتاب، والنصارى أهل كتاب، ونحن أميون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم، فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ [(٢)]. فخرج أبو بكر الصديق إلى كفار مكة فقال: أفرحتم بنصر إخوانكم على إخواننا؟ فلا تفرحوا ولا يقرّن الله أعينكم، والله ليظهرن الروم على فارس، أخبرنا بذلك نبينا. فقام إليه أبي بن خلف الجمحي، فقال: كذبت يا أبا فصيل. فقال له أبو بكر: أنت أكذبُ ياعدوّ الله!! فقال أبي: أنا حِبُكَ ـ أي أراهنك ـ، عشر قلائص مني وعشر قلائص منك، فإن ظهرت الروم على فارس غرمت، وإن ظهرت فارس غرمت إلى ثلاث سنين، ثم جاء أبو بكر إلى النبي ﷺ فأخبره، فقال ﷺ (ما هذا

---

(١) المسد.

(٢) الروم.

ذكرت)، إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزايده في الخطر، ومادَّهُ في الأجل، فخرج أبو بكر فلقي أبياً، فقال للصديق: لعلك ندمت؟ قال: لا، تعال أزايدك في الخطر وأمادك في الأجل، فاجعلها مائة قلوصٍ إلى تسع سنين، قال أبي: قد فعلت.

قال المؤرخون: وخاف أبي بن خلف أن يخرج أبو بكر من مكة فلازمه، وقال: إني أخاف أن تخرج من مكة فأمِّنْ لي ضامناً كفيلاً، فجاء ـ عبد الرحمن بن أبي بكر ـ وكان عندها مشركاً باقياً بمكة ـ فكفل والده الصديق، فلما أراد أبي بن خلف أن يخرج إلى أُحد أتاه عبد الرحمن بن أبي بكر ولزمه وقال: والله لا أدعك تخرج حتى تعطيني كفيلاً، فأعطاه أبي ثم خرج إلى أحد ثم رجع إلى مكة جريحاً ومات بها من جرح جرحه النبي ﷺ، وظهرت الروم على فارس على رأس سبع سنين من المراهنة فقبض الصديق المال من ورثته وجاء به إلى النبي ﷺ وذلك قبل تحريم القمار، فقال له النبي ﷺ (تَصدَّقْ به)، كما ذكر الخازن في تفسيره.

والأمر الثاني: الذي نشير إليه عن الصديق قبل الهجرة إلى المدينة: خروجه إلى أرض الحبشة: وروى البخاري عن عائشة قالت: لما ابتلي المسلمون، خرج أبو بكر يريد الهجرة إلى الحبشة، حتى إذا بلغ ـ برك الغماد ـ وهي بلد فوق مكة بخمس ليال مما يلي البحر (والبرك حجارة خشنة يصعب السير فيها)، لقيه ابن الدغنة وهو اسم أمه، وهو من قبيلة القارة وسيدها واسمه ـ ربيعة ابن فهيم ـ ويضرب بهم المثل في الرمي. قال الشاعر: قد أنصف القارة من رماها، فقال للصديق: إن مثلك يا أبا بكر لا يَخرج ولا يُخرج.. تحمل الكَلَّ، وتُقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جارٌ، ارجع واعبد ربك في بلدك. فرجع الصديق مع ابن الدغنة، ووقف ابن الدغنة على أشراف قريش وقال لهم: إن أبا بكر لا يُخرج مثله ولا يَخرج، فلم تكذب قريش جوار ابن الدغنة، ولكن قالوا له: مر أبا بكر فليعبد ربه في داره وليُصلِّ بها، وليقرأ ما شاء، ولا يستعلن علينا فإنا نخشى أن يفتن أبناءنا ونساءنا، فرضي الصديق لفترة بذلك، ثم بنى مسجداً بفناء داره، وصار يرفع صوته بالقرآن فيعجب قراءته أبناء المشركين وينظرون إليه، فكلم المشركون ابن الدغنة بذلك، وكلم ابن الدغنة الصديق بعدم رفع الصوت بالقرآن أو تردَّ عليَّ جواري، فقال الصديق: أرد عليك جوارك، وأرضى بجوار الله، والنبي ﷺ بمكة.

هجرة الصديق رضى الله تعالى عنه إلى المدينة:

قال المؤرخون: بعد هجرة بعض أصحاب النبي إلى الحبشة قال النبي ﷺ للمسلمين كما ورد في البخاري: (قد رأيتُ دار هجرتكم ذات نخلٍ بين لابتين) (وهما الحرَّتان)، والحرة أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار.

قال العلماء: فهاجر من هاجر من مكة إلى المدينة، ورجع عامة من كان هاجر إلى الحبشة إلى المدينة. ثم أمر النبي ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة، وذلك بعد أن تمت بيعة العقبة الثانية للنبي ﷺ سراً من قبل الأنصار في مكة على نصرته ﷺ بعدها قال النبي ﷺ لأصحابه في مكة: (إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها)، فخرجوا أرسالاً ـ أي جماعة بعد جماعة ـ وأقام النبي ﷺ ينتظر أن يؤذن له، ولم يتخلف من أصحابه ﷺ إلا من حُبِسَ أو فُتن، وتخلف علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فيقول له ﷺ: (لا تَعجلُ لعل الله يجعل لك صاحباً)، كما في سيرة ابن هشام. وفي رواية أخرى قال النبي ﷺ: (لا تعجل فإني أرجو من الله أن يُؤذَن لي). قال أبو بكر: وترجو ذلك بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ قال ﷺ: نعم، فحبس أبو بكر نفسه لصحبة رسول الله ﷺ، وعلف ناقتين كانتا عنده وَرَقَ السَّمُر أربعة أشهر. كما ورد في البخاري. ثم جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: (من يهاجر معي)؟ قال جبريل: (أبو بكر الصديق)، وروى ذلك ابن السَّمان في كتابه «الموافقة» عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والآن تعالوا إلى قصة تحرك النبي ﷺ نحو الهجرة:

قالت عائشة: كان النبي ﷺ لا يخطئ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار إما بكرةً وإما عشيةً حتى إذا كان اليوم الذي أُذن فيه لرسول الله ﷺ بالهجرة والخروج من مكة من بين ظهراني قومه أتانا في نحْر الظهيرة ـ أي في شدتها ـ (ونَحرُ النهار أوله). وساعةً كان لا يأتينا بها، فقال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ مقبل متقنِّع في ساعة لم يكن يأتينا بها، فقال أبو بكر: فدىً له أبي وأمي، ما جاء برسول الله في هذا الوقت إلا أمر حدث. وجاء رسول الله ﷺ فدخل فقال لأبي بكر: أَخرِج مَنْ عِندك، فقال الصديق بعد أن أجلس النبي ﷺ على سريره، إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله، وكان الصديق قد عقد للنبي ﷺ قبل الهجرة بثلاث سنين، فقال النبي ﷺ: قد أُذنَ لي بالخروج، فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يارسول الله؟ قال ﷺ: نعم.

قالت عائشة: والله ما شعرت ـ أي علمت ـ قبل ذلك بأن أحداً يبكي من الفرح، حتى رأيت أبا بكر يبكي حين أذن له الرسول ﷺ بصحبته، فقال أبو بكر: بأبي أنت يا رسول الله، فخذ إحدى راحلتي هاتين ـ البخاري ـ وقدم له أفضلها، واسمها ـ الجدعاء ـ كما ذكر الزرقاني، وقال للنبي ﷺ: اركب فداك أبي وأمي، فقال ﷺ: لا أركب راحلة ليست لي، قال الصديق فهي لك يا رسول الله، قال ﷺ: لا، ولكن بالثمن الذي ابتعتها به، قال الصديق: ابتعتها بكذا وكذا، قال ﷺ: قد أخذتها بذلك. قال صاحب «الروض الأنف»: وكان النبي ﷺ يتصرف في مال أبي بكر، وإنما امتنع من أخذها بغير ثمن لتكون هجرته ﷺ إلى الله بنفسه وماله رغبة منه ﷺ في استكمال فضل الهجرة.

قال أهل العلم: فلما أجمع على الخروج أتى أبو بكر فخرج من خَوْخةٍ له في ظهر بيته ـ والخوخة باب صغير ـ ولم يعلم أحد بخروجه ﷺ إلا علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أخبره النبي ﷺ بخروجه، وأمره أن يتخلف بمكة حتى يؤدي الودائع التي كانت عنده ﷺ إلى الناس. ولم يكن عند أحد شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده ﷺ لما يعلم من أمانته وصدقه، ويعلق الشيخ على الطنطاوي رحمه الله تعالى على هذه العبارة ـ ولم يكن عند أحد شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده ﷺ لما يعلم من أمانته ـ فيقول الطنطاوي في ـ كتابه «أبو بكر الصديق» ـ وهذا ما لم يُسمع بمثله، كانوا يستودعونه نفائس أموالهم على كل ما كان بينه وبينهم، فهل في الدنيا ثقة أكثر من هذه الثقة؟

قال العلماء: خرج النبي ﷺ ثم وقف على الحَزْوَرَةِ ـ والحزورة: الرابية والجمع حَزاوِر ـ (وهي سوق مكة وقد دخلت في المسجد الحرام لما زيد فيه). وقف على الحزورة ونظر إلى البيت وقال، كما ورد عند أحمد والترمذي: (إنك لأَحبُّ أرض الله إلي، وإنك لأحب أرض الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت). وكان الصديق قد دفع لابنته أسماء دراهم وقال: ابتاعي بها لحماً وخبزاً فإن رسول الله ﷺ يعجبه اللحم، ثم إن المشركين خرجوا يحاولون اقتفاء أثر الرسول ﷺ، وتتبعوا آثار أقدام النبي ﷺ حتى أتوا منزل الصديق وأسماء تعالج اللحم، فأخرجت المصباح ليغلب رائحته الإدام، فسألوها: أين أبوك؟ فقالت: إني مشغولة بعمل ولا أدري أين أبي، فرفع أبو جهل يده ـ عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي، كان سيداً من سادات قريش وأشدهم عداوة للإسلام وقتل يوم بدر ـ وكان فاحشاً بذيئاً خبيثاً، قالت: فلطم خدي لطمة طرح منها قرطي، ثم انصرفوا فمكثنا ثلاث ليال ما ندري أين وجهة رسول الله ﷺ، حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة يتغنى بأبيات من الشعر، وإن الناس ليتبعونه يسمعون صوته وما يرونه حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول:

جـزى الله ربَّ النـاس خـير جزائـه — رفيقـين حـلَّا خيمتـي أم معبـد
همـا نـزلا بـالبر ثـم تروَّحـا — وقـد فـاز مـن أمسى رفيـق محمـد
لـيهنَ بنـي كعـب مكـان فتـاتهم — ومقعـدها للمـؤمنين بمرصـد

وقد ذكر الزرقاني في «شرح المواهب»، أن حسان بن ثابت أجاب شاعر الجن بعد ذلك بقوله:

لقـد خـاب قـوم غـاب عـنهم نبيهم — وقُـدّس مـن يـسري إليـه ويفتـدي
ترحَّـلَ عـن قـوم فـضلَّت عقـولهم — وحـلَّ عـلى قـوم بنـور مُجـدّد
هـداهم بـه بعـد الـضلالة ربهـم — وأرشـدهم مـن يتبـع الحـقَّ يرشـد
وهـل يـستوي ضُـلّال قـوم تَـسفَّهوا — عمـىً وهـداةٌ يهتـدون بمهتـدِي
وقـد نزلـت منـه عـلى أهـل يثـرب — ركـاب هـدىً حلـت علـيهم بأسـعد
نبـي يـرى مـا لا يـرى النـاس حولـه — ويتلـو كتـاب الله في كـل مـشهد
وان قـال في يـوم مقالـة غائـب — فتـصديقها في اليـوم أو في ضُـحى الغـد
ليهنـأ أبـا بكـر سـعادة جَـدِّهِ — بـصحبة مـن يُـسعد الله يَـسعد

قال أهل السِّير: وخرج مع النبي وأبي بكر مولى للصديق وهو عامر بن فهيرة، ودليل استأجره النبي ﷺ وهو ـ عبدالله بن الأريقط ـ هادٍ خِرّيتٌ (أي دليل حاذق) على دين قريش، وواعده النبي ﷺ غار ثور وهو جبل بمكة صار الآن وسط حي كبير من أحياء مكة الجديدة، واعده ﷺ بعد ثلاثٍ وأَمَّناه على راحلتيهما.

حديث سراقة:

يقول الصديق: ثم ارتحلنا.. فأحيينا ليلتنا حتى قائم الظهيرة، رميت بصري حتى أرى ظلًا نأوي إليه فإذا أنا بصخرة فانتهيت إليها فإذا بقية ظلها فسويته ثم فرشت للنبي ﷺ ثم قلت: اضطجع يا رسول الله، فاضطجع، ثم ذهبت هل أرى من الطلب أحداً، فإذا أنا براعي غنم يسوق غنمه إلى الصخرة يريد منها مثل الذي نريد ـ يعني الظل ـ فسألته فقلت: لمن أنت يا غلام؟ قال: لفلان رجل من قريش فعرفته، فقلت: هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم قلت: هل أنت حالب لي؟ قال: نعم، فأمرته فاعتقل شاة من غنمه، وأمرته أن ينفض عنها من الغبار، ثم أمرته أن

ينفض كفيه هكذا (وضرب الصديق إحدى يديه على الأخرى) فحلب لي كُثْبَةً (قليلاً) من لبن ومعي رسول الله ﷺ إداوةٌ ـ إناء صغير من الجلد ـ على فمها خرقة فصببت على اللبن حتى برد أسفله فانتهيت إلى رسول الله ﷺ فوافيته وقد استيقظ، فقلت: اشرب يا رسول الله، فشرب فقلت: قد آن الرحيل يا رسول الله. فارتحلنا والقوم يطلبوننا فلم يدركنا أحد منهم غير سراقة بن مالك بن جعشم الكناني على فرس له ـ يكنى أبا سفيان مات سنة ٢٤ هـ في أول خلافة عثمان ـ فقلت: هذا الطلب قد لحقنا يارسول الله وبكيت، فقال ﷺ: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ ۝٤٠﴾[1] فلما دنا منا وكان بيننا وبينه قدر رمحين أو ثلاثة قلت: هذا الطلب يا رسول الله وبكيت، فقال النبي ﷺ: ما يبكيك؟ قلت: ما والله على نفسي أبكي، ولكن أبكي عليك. فدعا عليه رسول الله ﷺ فقال: (اللهم اكْفِناهُ بما شئت) فساخت فرسه في الأرض إلى بطنها فوثب عنها ثم قال!! قد علمت أن هذا عملك، فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه فوالله لأعمِّينَّ على من ورائي من الطلب وهذه كنانتي فخذ منها سهماً فإنك ستمر على إبلي وغنمي في مكان كذا فخذ منها حاجتك فقال ﷺ: (لا حاجة لي في إبلك ودعا له رسول الله ﷺ) فانطلق راجعاً إلى أصحابه.

والآن لنستمع إلى رواية سراقة نفسه كما ذكرها ابن هشام في السيرة:

لما خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن ردّه عليهم، فبينما أنا جالس في نادي قومي إذ أقبل رجل منا حتى وقف علينا فقال: والله لقد رأيتُ ركبةً ثلاثة مروا علي آنفاً وإني لأراهم محمداً وأصحابه، فأومأت إليه أن اسكت ثم قلت: إنما هم بنو فلان يتبعون ضالة لهم، قال: لعله! ثم سكت، فمكثت قليلاً ثم قمت فدخلت بيتي، ثم أمرت بفرسي فقيد لي إلى بطن الوادي، وأمرت بسلاحي فأُخرج لي من دبر حجرتي، ثم أخذت أقداحي التي أَستقسمُ بها ثم انطلقت فلبست درعي ثم استقسمت بالأقداح فخرج السهم الذي أكره: ـ لا يضره ـ. قال: وكنت أرجو أن أرد محمداً على قريش فآخذ مائة الناقة، قال: فركبت على أثره فبينما فرسي يشتد بي عثر بي فسقطت عنه، فقلت: ماهذا؟ ثم أخرجت أقداحي فاستقسمت بها فخرج السهم الذي أكره:. لا يضره ـ فأبيت إلا أن أتبعه فركبت في أثره فلما بدا لي القوم ورأيتهم عثر بي فرسي فذهبت يداه في الأرض وسقطت عنه، ثم انتزع يديه من الأرض وتبعهما

---

(١) التوبة: ٤٠.

دخان كالإعصار، فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع مني وأنه ظاهر، فناديت القوم فقلت: أنا سراقة بن جعشم انظروني أكلمكم فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: وما تبتغي منا؟ فقال ذلك أبو بكر، قلت: تكتب لي كتاباً يكون لى آية بيني وبينك، قال ﷺ: اكتب له يا أبا بكر، فكتب لي كتاباً في رقعة أو خرقة ثم ألقاها إليَّ فأخذته فجعلته في كنانتي.

ثم رجعت فسكت فلم أذكر شيئاً مما كان حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله ﷺ وفرغ من حنين والطائف سنة ٨ هـ خرجت ومعي الكتاب لألقاه ﷺ: فلقيته (بالجعرّانة) أو بالجُعرانَة. فدخلت في كتيبة من خيل الأنصار فجعلوا يقرعونني بالرماح ويقولون: إليك إليك ماذا تريد، فرفعت يدي بالكتاب ثم قلت: يا رسول الله هذا كتابك لي، أنا سراقة بن جعشم. فقال ﷺ: (يومُ وفاءٍ وبِرّ، ادْنُه، فدنوت منه، فأسلمت ثم تذكرت شيئاً أسأل رسول الله ﷺ عنه فما أذكره إلا أني قلت: يا رسول الله الضالة من الإبل تغشى حياضي وقد ملأتها لإبلي، هل لي من أجر في أن أسقيها؟ قال ﷺ: نعم في كل كبد حرّى أجر)، ثم رجعت إلى قومي فسقت إلى رسول الله صدقتي.

ويروي الزرقاني في مواهبه وغيره فيقول: ولما بلغ أبا جهل ما حصل لسراقة حين لحق رسول الله في الهجرة وأن سراقة كتم الأمر، لام أبو جهل سراقة وعتب عليه لترك محمد ومن معه.

فما كان من سراقة إلا أن قال:

أبا حكم واللات لو كنتَ شاهداً ... لأمر جوادي إذ تَسيخُ قوائمه
عجبت ولم تشكك بأن محمداً ... نبي وبرهان فمن ذا يكاتمه

وقد ورد في «أسد الغابة» (لابن الأثير) كما ذكر الطنطاوي بيتان آخران هما:

عليكَ بكفِّ القوم عنه فإنني ... أرى أمره يوماً ستبدو معالمه
بأمرٍ يَودُّ الناسُ فيه بأسرهم ... بأن جميع الناس طرّاً تُسالمه

قال المؤرخون: وواصل الركب الميمون سيره يتقدمه الدليل حتى وصل بهم إلى قباء أو قبا ديار بني عمرو بن عوف وذلك يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلةً خلت من ربيع الأول. وكان النبي

ﷺ على بعير وأبو بكر على بعير وعامر بن فهيرة على بعير، فكان ﷺ يثقل على البعير فيتحول عنه إلى بعير أبي بكر ويتحول أبو بكر إلى بعير عامر بن فهيرة، ويتحول عامر إلى بعير رسول الله ﷺ، فيثقل بعير أبي بكر حين يركبه رسول الله ﷺ.

قال أهل العلم: ثم استقبلتهما هدية من الشام من طلحة بن عبيد الله إلى أبي بكر فيها ثياب بيض من ثياب الشام فلبساها فدخلا المدينة في ثياب بيض كما روى ابن سعد. وكان النبي ﷺ لا يُعرف وكان أبو بكر معروفاً فكان الرجل يلقى أبا بكر فيسأله من هذا الذي بين يديك؟ فيقول الصدِّيق: يهديني السبيل، فيحسب السائل أنه دليل على الطريق، وإنما عنى الصديق أنه ﷺ يهديه سبيل الخير، ونزل الركب على كلثوم بن الهدم أخي بني عمرو بن عوف، وكان عزباً فينزل عليه الأعزاب من أصحاب رسول الله المهاجرين حتى قيل لبيته بيت العزاب.

قال المؤرخون: وجلس النبي عليه الصلاة والسلام صامتاً، فقام أبو بكر للناس، فطفقَ مَنْ جاء من الأنصار ممن لم يرَ رسول الله ﷺ يحيي أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه فعرفه الناس عند ذلك وأقام الصديق بالسُّنح ـ وهو محل في المدينة في جهة العالية أي من جهة نجد وكل ذلك صار داخل المدينة الآن ـ. وكان بين منزل النبي ﷺ ومنزل الصديق ميل واحد كما ذكر صاحب «معجم البلدان».

أقام النبي ﷺ في بني عوف (الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس) وهذه هي الرواية الأشهر.

وقام النبي ﷺ في قباء فبنى أول مسجد في الإسلام وصلى فيه النبي ﷺ بأصحابه ظاهراً جماعة ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴿١٠٨﴾﴾ (١)، ثم خرج من قباء يوم الجمعة صباحاً فأدركته الجمعة بديار بني سالم بن عوف فصلاها بمسجدهم وخطبهم ﷺ في مسجدهم ببطن وادي (رانوناء)، وهو المسجد المسمى مسجد غبيب فسمي مسجدَ الجمعة لأنها أول جمعة صُلِّيتْ في الإسلام وخطبتها أول خطبة جمعة في الإسلام وهو مسجد صغير مبني بحجارة نصف قامة وهو على يمين السالك إلى مسجد قباء. ثم خرج النبي ﷺ بعد صلاة الجمعة متوجها إلى المدينة.

---

(١) التوبة: ١٠٨.

وروى أنس: أن النبي ﷺ أقبل إلى المدينة وهو مُردِفٌ أبا بكر، فكان عليه الصلاة والسلام كلما مرَّ على دار من دور الأنصار يدعونه إلى المقام عندهم: (يا رسول الله هلم إلى القوة والمنعة فيقول: «خَلُّوا سبيلها ـ يعني الناقة فإنها مأمورة ـ» وقد أرخى زمامها وما يحركها، وهي تنظر يميناً وشمالاً حتى أتت دار بني مالك بن النجار فبركت على باب المسجد).

قال العلماء: ويظهر من سرد هذه الوقائع، مدى الحب العميق الذي سيطر على قلب الصديق لرسول الله ﷺ، يظهر ذلك في بكاء الصديق من الفرح عندما بشره النبي ﷺ أنه سيهاجر معه، وإن قمة الفرح البشري أن ينقلب الفرح إلى بكاء كما قيل.

ورد الكتابُ من الحبيب بأنه ... سيزورني فاستعبرتْ أجفاني
غلب السرور عليَّ حتى إنني ... من فرط ما قد سَرَّني أبكاني
يا عين صار الدمع عندك عادة ... تبكين من فرح ومن أحزان

وهكذا كان كل أصحاب النبي ﷺ لما فيه من صفات الحاكم الرشيد، والوالد الحاني والناس سيحبُّون كل زعيم يسلك مسلك رسول الله ﷺ كما قال الشاعر الليبي المهدوي:

فإذا أحب الله باطنَ عبده ... ظهرت عليه مواهب الفتاح
وإذا صفت لله نية مصلح ... مال العباد عليه بالأرواح

فرضي الله عنك يا أبا بكر.

قال المؤرخون: ولحق علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الركب الميمون بعد أن أدى الودائع للناس ووصل قباء بعد ثلاثة أيام من وصول الحبيب ﷺ وقد تفطَّرت قدماه لأنه هاجر ماشياً، ولما دعاه رسول الله ليراه قيل: لا يقدر على المشي، فأتاه ﷺ واعتنقه وبكى رحمة له، وتفل في كفيه ومسح بهما رجلي علي فشفي في الحال ولم يشك من قدمية حتى مات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (قصته مع سهل بن حنيف).

الأحداث بعد الهجرة وأخبار الصديق:

قال أنس: استقبلهما ـ يعني النبي والصديق ـ زهاء خمسمائة من الأنصار، حتى انتهوا إليهما فقالت الأنصار: انطلقا آمنين مطاعين. فأقبل رسول الله وصاحبه بين أظهرهم، فخرج أهل

المدينة حتى إن العواتق ـ الشابات ـ لَفوقَ البيوت يتراءين يقلن: أيهم هو؟ أيهم هو؟ قال أنس: ولقد رأيته يوم دخل علينا ـ المدينة ـ ويوم قُبض فما رأينا منظراً شبيهاً بهما. قال ابن عائشة(١): قال: لما قدم النبي المدينة جعل الصبيان والنساء والولائد ـ الإماء والشابات ـ يقولون:

طلـــــع البـــــدرُ علينــــا ... مــــن ثنيــــات الـــــوداع
وجــــب الـــشكر علينـــا ... مـــــا دعـــــا لله داع
أيهـــا المبعــــوثُ فينــــا ... جئـــت بـــالأمر المطـــاع
جئـــت شرَّفـــت المدينـــة ... مرحبــــاً يــــا خـــير داع

وهكذا كانت الهجرة التي هي فاتحة تاريخ جليل لم يُكتبْ مثله، كما يقول الطنطاوي عليه رحمة الله. كان هذا الغار النقطة الفاصلة في التاريخ بين عهد مظلم تحتضر فيه الحضارة وعهد زاهر سعيد ولدت فيه حضارة جديدة أضاءت للعالم كله طريق الفلاح، وعلمت قادة أوروبا وثقفت عقولهم.

والآن: ماذا بعد الوصول إلى المدينة؟

ذكر أهل التاريخ: لما وصل المهاجرون إلى المدينة وهي أوبأ أرض الله ـ أي فيها مرض ـ أصاب الصحابة بلاء وسقم. قالت عائشة: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وهي أوبأ أرض الله أصاب أصحابه ﷺ سقم ووباء، وصرف الله ذلك عن نبيه ﷺ، وأصابت الحمى أبا بكرٍ وبلالاً وعامر ابن فهيرة. قالت: فاستأذنت رسول الله ﷺ في عيادتهم (وذلك قبل أن يُضرب الحجاب علينا) فأذن لي. فدخلت عليهم وهم في بيت واحد فقلت لأبي: كيف تَجِدُكَ؟ فقال:

كـــل امـــرئٍ مُـــصْبح في أهلـــه ... والمـــوت أدنـــى مـــن شراك نعلـــه

وهذا الشعر لحنظلة بن سيّار قاله يوم معركة ذي قار. قالت عائشة: فقلت: والله ما يدري أبي ما يقول. قالت: ثم دنوت من عامر، فقلت: كيف تجدك يا عامر؟ فقال:

---

(١) اسمه عبيد الله بن محمد البصري المعروف بابن عائشة لأنه من ولد عائشة بنت طلحة، كانت من سادات البصرة غير مدافع، صدوقاً عالماً بأنساب العرب وكان كريماً فصيحاً أنفق على إخوانه أربعمائة ألف دينار.

لقـــد وجـــدت المـــوت قبـــل ذوقـــه إن الجبـــان حتفـــه مـــن فوقـــه
كـــل امـــرئٍ مجاهـــد بطوقـــه[1] كـــالثور يحمـــي جلـــده بروحـــه

فقلت: والله ما يدري عامر ما يقول. قالت: وكان بلالٌ إذا أقلعت عنه الحمى اضطجع في فناء المنزل ورفع عقيرته وقال:

ألا ليـــت شـــعري هـــل أبيـــتن ليلـــة بـــوادٍ وحـــولي إذْخـــر وجليـــل
وهـــل أردَنْ يومـــاً ميـــاه مجنـــةٍ وهـــل يبـــدون لي شـــامة وطفيـــل

الوادي: واد بمكة. الإذْخر: حشيش مكة طيب الرائحة، والجليل: نبت صفيف يشبه الثمام تسدُّ به الشقوق، مجنة: مكان على بعد أميال من مكة كان به في الجاهلية سوق مشهورة، شامة وطفيل: جبلان مشرفان على سواق مجنة. قالت عائشة: فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته فقلت: إنهم ليهذون وما يعقلون من شدة الحمى فقال ﷺ: (اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصححها، وبارك لنا في صاعها ومدها وأنقل حمّاها فأجعلها بالجحفة). والجحفة: كانت قرية كبيرة على بعد ثلاثة مراحل من مكة في طريق المدينة وكانت ميقاتاً للحجاج، ثم ذهبت فصارت رابغ وهي الميقات.

قال في «شرح المواهب»: فاستجاب الله له، حتى كانت المدينة أحب إليه من مكة كما قال السيوطي، وأضحى من يقيم بها يجد من تربتها وبساتينها رائحة طيبة لا تكاد توجد في غيرها.

يقول الإمام السهيلي: الفقيه المحدث صاحب «الروض الأنف» المتوفى سنة ٥٨١ هـ في مراكش، وهذا ـ أي الذي ذكروه في أشعارهم ـ من حب الوطن والحنين إليه، فقد جاء في حديث أُصَيْل الغفاري أنه قدم من مكة فسألته عائشة: كيف ترى مكة يا أصيل؟ قال: تركتها حين ابيضت أباطحها، وأحجن ثمامها ـ بدا ورقه ـ وأغدق إذخرها ـ أزهر ـ وأمشر سلمها ـ أي خرج ورقه ـ فاغرورقت عينا رسول الله ﷺ، وقال: لا تشوقنا يا أُصيل.

بناء المسجد:

قال أنس: ثم أمر النبي ببناء المسجد، فأرسل إلى ملأٍ من بني النجار، فقال: يا بني النجار:

---

(١) بطوقه: أي بطاقته.

ثامنوني بحائطكم ـ ببستانكم ـ هذا. قالوا: لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله فأبى ذلك واشتراه النبي ﷺ بعشرة دنانير أداها من مال الصِّدِّيق. قال أنس: وجعلوا ينقلون الصخر وهم يرتجزون والنبي ﷺ معهم ينقل اللبن ويقول:

اللهـــم لا خـــيرَ إلا خـــيرُ الآخـــرة   فانـــصر الأنـــصار والمهـــاجرة

واندفع الأصحاب يعملون في بناء المسجد وبخاصة لما رأوا رسول الله ﷺ يتقدمهم حتى قال قائلهم:

لـــئن قعـــدنا والنبـــي يعمـــل   لـــذاك منـــا العمـــل المـــضَلَّل

وربما تمثل الرسول بقول ابن رواحة حين حمل اللبن مع أصحابه:

هـــذا الحمـــل لا حمـــال خيـــبر   هـــذا أبـــرُّ ربنـــا وأطهـــر

قال الزهري: ولم يبلغنا أنه ﷺ تمثل بشعرٍ تام غير هذا –وهو محمد الزهري المدني عالم الحجاز والشام جامع للعلوم، ما استودع قلبه شيئاً إلا حفظه، وكان من أسمى الناس توفي سنة ٧٢هـ.

أبو بكر في المدينة:

قال المؤرخون: وفي السنة الأولى من الهجرة بعث النبي ﷺ إلى بناته وزوجته ـ سودة بنت زمعة ـ، تزوج بها بعد موت خديجة وكانت كبيرة فوهبت يومها لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. بعث لبناته وزوجته ـ زيد بن حارثة وأبا رافع ـ مولى رسول الله ﷺ وكان قبطياً أسلم يوم بدر، فحملاهن من مكة إلى المدينة. أما أهل أبي بكر فإن عبدالله بن أريقط الدليل في الهجرة للركب الميمون لما رجع إلى مكه أخبر عبدالله بن أبي بكر بمكان أبيه ـ أبي بكر ـ فخرج عبدالله بن أبي بكر بعيال أبيه إليه، وكان معهم طلحة بن عبيد الله، ومعهم أم رومان، وهي أم عائشة حتى قدموا المدينة.

موقعة يوم بدر:

قال المؤرخون: شهد الصديق المشاهد كلها مع رسول الله، وسنذكر بعض ما تعلق بأبي بكر خاصة في بعض المواقع مبتدئين مواقفه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بيوم بدر.

قال أهل العلم: لما خرج رسول الله ﷺ للتصدي لقافلة قريش التجارية الآتية من الشام

ووصل إلى واد اسمه ـ ذفران ـ وهو قريب من المدينة، ولم يخرج ﷺ لقتالٍ، أتاه الخبر أن قريشاً خرجت من مكة بجيش كبير لحماية القافلة، فاستشار النبي ﷺ الناس وأخبرهم عن قريش، فتكلم أبو بكر فأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو (حالفَ أبوه كندة فكان يقال له الكندي وتبنى الأسود بن عبد يغوث الزهري المقداد، فقيل له: المقداد بن الأسود، فلما أبطل الإسلام التبني رجع إلى اسم أبيه، المقداد بن عمرو وغلب عليه الأسود)، وزوَّجه النبي ﷺ ابنة عمه ـ ضباعة بنت الزبير بن عبدالمطلب ـ، وتكلم المقداد هذا فقال ماعلمتموه في السيرة حين قال للنبي ﷺ: يارسول الله! امض لما أمرك الله فنحن معك، والله لا نقول كما قال بنو إسرائيل لموسى ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ۝٢٤﴾[1] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكم مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. ـ وبرك الغماد، وسعفات هجر كناية تقال فيما تباعد ـ وأنتم تعلمون من السيرة أن النبي ﷺ بُني له عريش من جريد النخل كما أشار ـ سعد بن معاذ ـ وجلس فيه ﷺ يدعو ربه.

وقد أشار الطنطاوي عليه رحمة الله إلى أن بقاء النبي ﷺ في العريش كان للإشراف على المعركة، ولحكمة تقتضيها القيادة العامة، والمصلحة الدعوية، والنبي ﷺ أشجع الناس قاطبة. فكان إذا حمي الوطيس احتمى الصحابة به ﷺ ولما كانت النازلة يوم حنين، وتفرق من تفرق أقدم ﷺ وغشي المشركين وهو يقول: (أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب). فما رُئِيَ أشدّ منه، ولما كان مرة فزعٌ في المدينة، وانطلق الناس نحو الصريخ وإذا النبي ﷺ قد استطلع الخبر وعاد وقال: يا أيها الناس لن تُراعوا، وكان على فرس عُرْيٍ وبيده السيف ﷺ. فَتقَدُّمُ النبي ﷺ في بدر مع الناس، لن يكون إلا كرجل واحد، أما إذا ابتعد وراقب المعركة، وأبدى الرأي فهو الجيش كله:

الـرأي قبـل شـجاعة الـشجعان	هـو أول وهـي المحـل الثـاني
فـإذا همـا اجتمعـا لـنفس حـرة	بلغـت مـن العليـاء كـل مكـان

وأخرج الشيخان عن عمر: قال: لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى المشركين وهم ألف

---

(١) المائدة: ٢٤.

وأصحابه ﷺ ثلاثمائة وسبعة عشر رجلاً، فاستقبل القبلة ثم مد يديه، فجعل يهتف بربه: أنجز لي ما وعدتني، فما زال يهتف بربه ماداً يديه، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبوبكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، فقال: حسبك يا رسول الله، كفاك مناشدتك ربك، وإنه سينجز لك ما وعدك، فخرج ﷺ وهو يثبت في الدرع وهو يقول: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾ (١). وأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ (٢).

يقول العلماء: كان إنزال الملائكة بشرى بالنصر ولتطمئن القلوب لا للنصرة؛ لأن النصر من الله ولذلك قال بعدها: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ .

لقد خاض أجدادنا عشرة آلاف معركة مظفرة وكانوا في معظمها أقل من عدوهم عدداً وعدة، ولكنهم كانوا أشد صبراً وإيماناً. وقد ورد عن علي يوماً وكان في جماعة من الناس أنه قال: من أشجع الناس؟ قالوا: أنت يا أمير المؤمنين، قال: أما إني ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه، ولكن أشجع الناس أبو بكر، لما كان يوم بدر جعلنا للنبي ﷺ عريشاً وقلنا: من يكون مع النبي ﷺ لئلا يصل إليه أحد من المشركين؟ فوالله ما تقدم أحد إلا أبو بكر شاهراً السيف يحمي رسول الله ﷺ. قال ابن إسحاق: ثم خفق رسول الله ﷺ خفقة وهو في العريش ثم انتبه، فقال: أبشر يا أبابكر، أتاك النصر، هذا جبريل معتجر بعمامةٍ صفراء، آخذ بعنان فرسه بين السماء والأرض، ثم نزل إلى الأرض، وتغيب عني ساعة، ثم طلع يقول: (أتاكم النصر). قائلاً: إن الله قد أمكنكم من هؤلاء فماذا تقولون فيهم؟ ثم كانت الهزيمة للمشركين، فقتل منهم سبعون رجلاً، وأُسر سبعون رجلاً فشاور النبي ﷺ أبا بكر وعمر وعلي، فقال أبو بكر: يا نبي الله! هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، فإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذنا منهم قوة، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداَ، فقال ﷺ: ما ترى يابن الخطاب؟ قال عمر: لا والله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تُمكِّنني من فلان فأضرب عنقه، وتمكن حمزة من أخ له فيضرب عنقه، وتمكن

---

(١) القمر.

(٢) الأنفال.

علياً من عقيل فيضرب عنقه، حتى يعلم الناس أنه ليس في قلوبنا هوادة للكفار، هؤلاء صناديدهم وقادتهم.

وقال عبدالله بن رواحة ـ الأنصاري الخزرجي الشاعر المشهور كان عظيم القدر في الجاهلية والإسلام، أحد الأمراء في مؤتة وبها استشهد سنة سبع للهجرة ـ قال: يا رسول الله! انظر وادياً كثير الحطب فأدخلهم فيه، ثم أضرمه عليهم ناراً. فقال العباس: قطعتك رحمٌ! فسكت رسول الله ﷺ فلم يُجب أحداً منهم. فقال ناس: يأخذ بقول الصديق، وقال ناس: يأخذ برأي عمر، وقال آخرون: يأخذ برأي ابن رواحة.

قال أهل العلم: ثم خرج رسول الله ﷺ فقال: إن الله ليُلين قلوب رجال فيه، حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه، حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم، قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ (١). ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ (٢). وإن مثلك ياعمر مثل نوح، قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ (٣). ومثلك كمثل موسى، قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ (٤).

قال عمر: فهوى رسول الله ﷺ ما قاله أبوبكر، ولم يهو ما قلت فأخذ منهم الفداء، فلما كان الغد، غدوت على رسول الله ﷺ وهو قاعد وأبو بكر، وإذا هما يبكيان، قلت: يا رسول الله! أخبرني ماذا يبكيك؟ فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد تباكيت لبكائكما، فقال ﷺ: لقد عرض عليَّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة ـ لشجرة قريبة ـ وأنزل الله تعالى قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًاۚ وَاتَّقُوا اللَّهَۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ (٥).

---

(١) إبراهيم.

(٢) المائدة.

(٣) نوح.

(٤) يونس.

(٥) الأنفال.

وخلاصة المعنى: أن اتخاذ الأسرى من المشركين، وأخذ الفدية غير وارد منهم قبل أن يبالغ في قتال المشركين وأسرهم بل وفي قتل الأسارى لأن الدولة الإسلامية كانت في أول نشأتها فلابد من استئصال الأعداء، ولهذا سمح لهم بعد أن قويت شوكة المسلمين سمح لولي الأمر بالفداء أو المن، قال تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴿٤﴾﴾ (1). من هنا عاتبهم الله تعالى على أخذ المسلمين الفدية قبل أن تقوى شوكة الدولة الإسلامية ثم لا يسلم. ولذلك قال تعالى لهم: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي بأخذكم الفداء والله يريد لكم ثواب الآخرة بقهركم المشركين ونصر دين الله ولذلك قال: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾.

قال المحققون: والعتاب واللوم إنما كان متوجهاً بسبب من أشار على النبي ﷺ بأخذ الفدية، وجاء ذكر النبي في الآيات حين لم ينه عنه أثناء المعركة وقد رآهم يأسرون وهو في العريش، ولكن بغتَ الأمر ونزول النصر شغلا النبي عن التنبيه على ذلك، ولذلك بكى ﷺ هو وأبو بكر حين نزلت الآيات ثم كان العفو منه سبحانه بقوله: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ والكتاب الذي سبق: هو ألا يعذب قوماً ولا يحاسبهم إلا بعد نزول التشريع الذي يُرَيّثُ المقدمات والنتائج. وهو ـ أي الكتاب السابق ـ مغفرة الله لأهل بدر. وهو ـ أي الكتاب السابق ـ هو ما مضى من علم الله سبحانه في اللوح المحفوظ من حِلِّ الغنائم والأسر لهذه الأمة. وهو ـ أي الكتاب السابق ـ ألا يعذبهم ومحمد ﷺ فيهم ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴿٣٣﴾﴾(2).

قال المؤرخون: وكان عبدالرحمن ابن أبي بكر يوم بدر مع المشركين، فلما أسلم قال لأبيه الصديق: لقد أهدفت لي ـ أي أشرفت كالهدف ـ يوم بدر فَضِفْتُ عنك ـ أي عدلت وملت ـ ولم أقتلك، فقال الصديق: لكنك لو أهدفت لي لم أضف عنك.

قال العلماء: وقد صدق الصديق فإن الله تعالى يقول: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ

(1) محمد: ٤.

(2) الأنفال.

﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (١).

قال المحققون: وعبد الرحمن بن أبي بكر حين مال عن أبيه كان صادقاً مع نفسه لأنه قارن بين صنم وبين أبيه. والصديق كان منطقياً وصادقاً مع نفسه لأنه قارن بين رضوان الله وولده، ففضل دينه ودعوته إرضاء لربه.

من هنا كان كثير من الصحابة قد قتلوا آباءهم وإخوانهم في سبيل الله ولم يُحكِّموا عواطفهم؛ لأن حكم العاطفة في موضع العقل جريمة في نظر الواجب وهنا تظهر معجزة الإسلام ـ كما قال العلماء ـ في تربية هذه النفوس التي أصبح هواها تبعاً لما جاء به رسول الله ﷺ، فلا طمع إلا في حلال، ولا خوف إلا من حرام، ولا يشغل المؤمن شيء عن الله ورسوله وجهادٍ في سبيله.

الصديق في أُحد:

كان يوم أحد يوماً صعباً، ودرساً ثقيلاً على المسلمين جميعاً، فقد تبعثر الصحابة في أرجاء الميدان، وشاع أن رسول الله ﷺ قد قتل، والميدان فسيح وكلٌّ مشغول بنفسه، فقام الصديق وكان أول من وصل إلى رسول الله ﷺ فوقف بجانبه، ثم اجتمع إليهما أبوعبيدة، وعلي، وطلحة والزبير وعمر والحارث بن الصِّمةِ، وأبو دجانة، وسعد بن أبي وقاص وغيرهم في محاولة لجمع شملهم والدفاع عن دينهم.

ورأى أنس بن النضر رجالاً من المهاجرين والأنصار وقد ألقوا بأيديهم، فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله ﷺ، قال أنس: فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ! ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل، وذكر البخاري أنه قد طعن ببضع وثمانين طعنة ما بين ضربة سيف، وطعنة برمح، ورمية بسهم، فما عرف حتى عرفته أخته بشامة له وببنانه. وأول من عرف رسول الله ﷺ بعد ذلك: كعب بن مالك، وهو من شعراء الرسول ﷺ مات بالشام سنة ٥٠ هـ وهو ابن سبع وسبعين. قال كعب: عرفت عينيه ﷺ تزهران تحت المغفر فناديت بأعلى صوتي يا معشر المسلمين، أبشروا فهذا رسول الله ﷺ فأشار إليَّ رسول الله ﷺ أن أنصت فلما عرف المسلمون رسول الله ﷺ نهضوا ونهض نحو الشِّعبِ ومعه الرهط الذين ثبتوا

---

(١) المجادلة.

ولم ينهزموا، فلما أُسند رسول الله ﷺ في الشعب أدركه أبيُّ بن خلف الجمحي وهو يقول: لا نجوتُ إن نجوتَ! فقال القوم الذين حول رسول الله ﷺ: يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا؟ قال ﷺ: دعوه!. فلما دنا تناول رسول الله الحربة من (الحارث بن الصمة) فانتفض بها انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشعراء ـ وهو ذباب صغير لاذع ـ عن ظهر البعير، ثم استقبله ﷺ فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ ـ يعني سقط منها عن فرسه مراراً ـ. وكان أبيّ هذا يلقى رسول الله ﷺ بمكة فيقول: يا محمد، إن عندي العوذ ـ فرسه ـ أعلفه كل يوم فرقاً ـ وهو مكيال ـ من ذرة أقتلك عليه، فيقول رسول الله ﷺ: بل أنا أقتلك إن شاء الله تعالى (والفرق مكيال يسع ستة عشر غرمداً). ورجع أبيُّ إلى قريش، وقد خدشه النبي ﷺ في عنقه خدشاً غير كبير، فاحتقن الدم قال: قتلني والله محمد، قالوا: ذهب والله فؤادك، والله إن بك من بأس. قال: إنه قد قال لي بمكة: أنا أقتلك، فوالله لو بصق علي لقتلني فمات عدو الله بسَرِفٍ ـ مكان قريب من مكة ـ عند رجوع قريش، ولم ينقل أن النبي ﷺ قتل أحداً غيره ـ ومن شعر حسان في أبيٍّ هذا:

ألا مَـــــن مُبلـــــغ عنـــــي أبيـــــا	لقـــــد ألقيـــــت في ســـــحق الســـــعير
تمنـــــى بالـــــضلالة مـــــن بعيـــــد	وتقـــــسم إن قـــــدرت مـــــع النـــــذور
تُمنِّيـــــك الأمـــــاني مـــــن بعيـــــد	وقـــــول الكفـــــر يرجـــــع في غـــــرور
فقـــــد لاقتـــــك طعنـــــة ذي حفـــــاظ	كـــــريم البيـــــت لـــــيس بـــــذي فجـــــور
لـــــه فـــــضل عـــــلى الأحيـــــاء طـــــرا	إذا نابـــــت ملـــــمات الأمـــــور

وتتضح مكانة الصديق في هذه الغزوة من موقف وقفه أبو سفيان. ذلك أن أبا سفيان أشرف على النبي ﷺ وعلى أصحابه الملتفين حوله بالشعب فقال: أفي القوم محمد ﷺ؟ فقال ﷺ: لا تجيبوه (مرتين) ثم قال أبو سفيان: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ (ثلاثاً)، فقال ﷺ: لا تجيبوه، ثم قال أبو سفيان: أفي القوم ابن الخطاب؟ (ثلاثاً)، فقال ﷺ: لا تجيبوه، ثم التفت أبو سفيان إلى أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا، لو كانوا في الأحياء لأجابوا، فلم يملك عمر بن الخطاب نفسه أن قال: كذبت يا عدو الله، فقد أبقى لك الله ما يخزيك، فقال أبو سفيان: اعْلُ هُبَل. صنم في جوف الكعبة.، فقال ﷺ: أجيبوه، قالوا: ماذا نقول؟ قال ﷺ: قولوا؛ الله أعلى وأجلُّ. قال أبوسفيان: لنا العزَّى ولا عزَّى لكم ـ والعزى سمرة لغطفان يعبدونها وكانت بوادٍ من نخلة الشامية ـ أو صنم على طريق الطائف. فقال ﷺ: أجيبوه، قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا الله مولانا

ولا مولى لكم. قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر والحرب سجال، أما إنكم ستجدون في القوم مُثَلاً لم آمر بها ولم تسؤني.

وتروي كتب التاريخ أن عمر لما أجاب أبا سفيان قال له أبوسفيان: هلمَّ ياعمر، فقال رسول الله ﷺ: ائته فانظر ما شأنه؟ فجاء فقال أبو سفيان: أنشدك الله ياعمر، أقتلنا محمداً؟ قال عمر: اللهم لا، وإنه يسمع كلامك الآن، فقال أبوسفيان: أنت أصدق عندي من ابن قميئة وأبرُّ، (لأن ابن قميئة قال لهم: إني قتلت محمداً). وابن قميئة هذا اسمه: عبدالله الليثي، وهو الذي رمى محمداً ﷺ فشجَّ وجهه فظن أنه قتله وقال حين رمى النبي ﷺ (خذها وأنا ابن قميئة)، فقال ﷺ وهو يمسح الدم عن وجهه الكريم: مالك أقمأك الله، فسلط الله عليه تيسَ جبلٍ فلم يزل ينطحه حتى قطَّعه قطعةً قطعة كما في فتح الباري.

وكان الصديق إذا ذكر أُحداً قال: ذاك يومٌ كلُّه لطلحة، ثم يقول: كنت أول من فاءَ يوم أحد فرأيت رجلاً يقاتل في سبيل الله دونه، قال الصديق: قلت: كن طلحة بن عبيد الله.

قال ابن إسحاق: وبينما رسول الله في الشعب مع الأصحاب إذ علت عاليةٌ من قريش الجبل، فقال النبي ﷺ: اللهم إنه لا ينبغي لهم أن يَعْلُونا، فقام عمر مع رهط من المهاجرين وقاتلهم حتى أحبطوهم عن الجبل، ونهض رسول الله ﷺ إلى صخرة من الجبل ليعلوها، وقد كان ﷺ بدَّنَ وظاهر بين درعين فلم يستطع النهوض إلى الصخرة، فنهض به طلحة بعد أن جلس تحته حتى استوى على الصخرة، فقال ﷺ عندها: (أوجَبَ طلحة) حين صنع برسول الله ﷺ ما صنع، أي وجبت له الجنة بما فعله. يقول الصديق: لما قمت إلى النبي ﷺ كان بيني وبين المشركين ـ لم أعرفه ـ لا أعرفه، وأنا أقرب إلى رسول الله ﷺ منه، وهو يخطف المشي خطفاً لا أخطفه فإذا هو أبوعبيدة عامر بن الجراح، فانتهينا إلى رسول الله ﷺ وقد كسرت رباعيته، وشُج وجهه، وقد دخل في وجنتيه حلقتان من حلق المغفر، فقال ﷺ: عليكما صاحبكما يريد ﷺ طلحة وقد نزف، قال الصديق: فلم نلتفت إليه أي إلى طلحة وذهبت لأنزع من وجهه، فقال أبو عبيدة: أقسم عليك بحقي لما تركتني، فتركته، فكره تناولها فيؤذي رسول الله ﷺ فأرزم عليها بفيه فاستخرج إحدى الحلقتين، ووقعت ثنيته (عض) الأخرى مع الحلقة، فكان أبو عبيدة من أحسن الناس هَتَماً. فأصلحنا من شأن رسول الله ﷺ ثم أتينا طلحة في بعض تلك الحفار فإذا به بضع وسبعون طعنة ورمية وضربة. وإذا قد قطعت إصبعه فأصلحنا من شأنهم رضي الله عنهم أجمعين.

قال المؤرخون: كانت وقعة أحد بما فيها من مصيبة يوم السبت المنصف من شوال سنة ٣هـ. وفي صباح الأحد يفاجأ المسلمون بمؤذن رسول الله ﷺ يؤذن بالخروج لملاحقة أبي سفيان، وشرط رسول الله ﷺ شرطاً ألا يخرج معنا إلا من حضر معركة أحد يوم أمس ولم يسمح رسول الله لرجل لم يحضر معركة أحد أن يكون معهم إلا لجابر بن عبدالله بن عمر بن حرام حيث أوصاه أبوه عبدالله أن يبقى عند أخواته السبع واستشهد والده في أحد. خرج رسول الله ﷺ في سبعين من المسلمين فيهم أبوبكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وغيرهم حتى بلغوا (حمراء الأسد) وهي موقع على ثمانية أميال من المدينة وبقي فيها أربعة أيام الأحد والإثنين والثلاثاء والأربعاء، وهرب أبو سفيان بمن معه وأنزل الله عز وجل ثناء على الذين استجابوا للرسول رغم جراحاتهم. ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾[1]. وقد قالت عائشة لعبد الله بن الزبير: (يا ابن أختي أما والله إن أباك وجدّك ـ الزبير وأبا بكر ـ لمن شملتهم هذه الآية).

حديث الإفك:

قال العلماء: حادث الإفك كلَّف أطهر النفوس في تاريخ البشرية كلها آلاماً لا تطاق.

وكلف الأمة الإسلامية كلها تجربة من أشق التجارب في تاريخها الطويل. وعلَّق قلب رسول الله ﷺ وقلب زوجته الصديقة عائشة التي يحبها، وقلب الصديق أبيها، وقلب زوج أمها، وقلب صفوان بن المعطل الذي شهد له رسول الله ﷺ أنه لم يعرف عليه إلا خيراً، علَّق قلب هؤلاء جميعاً شهراً كاملاً بحال من الشك والقلق والألم الذي لا يطاق.

إنه حادثةُ قذفٍ تناول بيت النبوة الطاهر الكريم، وعِرضَ رسول الله ﷺ أكرم إنسان على الله، وعِرض صِدِّيقه الصديق أبي بكر أكرم إنسان على رسول الله ﷺ، وعِرض رجل صحابي جليل شهد له الرسول ﷺ بكل خير. ذلك هو حديث الإفك الذي تطاول إلى ذلك المرتقى السّامي كما يقول صاحب الظلال. وفي هذا جاء قوله تعالى في سورة النور: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ

---

(١) آل عمران.

﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١١﴾[1].

وحادث الإفك: حديث اختلقه المنافقون وراج عند أهل النفاق وعلى بعض السذج من المسلمين، وكان ذلك بعد أن فُرض الحجاب على النساء المؤمنات ـ كان فرض الحجاب سنة ٥ هـ صباح عرس زينب بنت جحش الذي تولى الله عقد نكاحها ثمرة طاعتها لله ورسوله ـ، وعند عودته ﷺ من غزوة بني المصطلق سنة ستٍ على الأرجح، وتسمى غزوة ـ المريسيع ـ وهو اسم ماء لخزاعة التقى عنده الجيشان.

قال الخضري في كتابه «نور اليقين»: وخرج مع النبي ﷺ ناسٌ من المنافقين لم يخرجوا قط في غزوة مثلها يرجون أن يصيبوا من عَرَضِ الدنيا.

وإليك أخي الكريم القصة من أوثق المصادر وأدقها.

قال العلماء: وما دام الله قد سمى هذه الحادثة في حق أم المؤمنين إفكاً فلا بد أن المنافقين قد قلبوا الحقائق. قالت عائشة البريئة المرأة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه ﷺ، فأيتهن خرج سهمها خرجت معه. فلما كانت غزوة بني المصطلق: ـ والمصطلق لقب واسمه جذيمة من خزاعة ـ أقرع بين نسائه كما كان يفعل، فخرج سهمي عليهن فخرج بي رسول الله ﷺ، قلت: وكان النساء إذ ذاك إنما يأكلن العُلَقَ ـ القليل من الطعام ـ لم يَهْبِجْهُنَّ اللحم فيثقلنَ. قالت: وكنت إذا رحل بعيري جلست في هودجي ثم يأتي القوم الذين يَرْحَلون هودجي في بعيري ويحملوني، فيأخذون بأسفل الهودج فيرفعونه فيضعونه على ظهر البعير، فيشدونه بحباله، ثم يأخذون برأس البعير فينطلقون به.

قالت: فلما فرغ رسول الله ﷺ من سفره ذلك وجَّه قافلاً حتى إذا كان قريباً من المدينة ـ لم يبق بينهم وبين المدينة الا مرحلة ـ نزل منزلاً فبات فيه بعض الليل، ثم أذَّن في الناس بالرحيل ـ آخر الليل ـ فخرجتُ لبعض حاجتي، وفي عنقي عقد لي فيه جَزْعُ ظَفَارٍ ـ

قال المؤرخون: ظفار: مسكن ملوك حِمْير في اليمن ينسب إليها الجزع الظفاري، وهو نوع من الخرز اليماني فيه بياض وسواد تشبه به الأعين ـ فلما فرغت انسلَّ من عنقي ولا أدري، فلما رجعت إلى الرَّحل جعلت ألتمسه في عنقي فلم أجده، ولقد أخذ الناس في الرحيل.

---

(١) النور.

قالت: فرجعت عَودي على بدئي إلى المكان الذي ذهبت إليه فالتمسته حتى وجدته، وجاء بعدي القوم الذين يَرْحَلون لي البعير وقد فرغوا من رحْلته، احتملوا الهودج فشدُّوه على البعير ولم يشكوا أني فيه ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به، ورجعت إلى العسكر وما فيه داعٍ ولا مجيب، فقد انطلق الناس، فتلففت بجلبابي ثم اضطجعت في مكاني الذي ذهبت إليه وعرفت أن لو قد افتقدوني قد رجعوا إلي.

قالت: فوالله إني لمضطجعة إذ مر بي صفوان بن المعطل السلمي(١)، وكان النبي ﷺ قد أوكل إليه ساقَّةَ الجيش ـ وهم جماعة يمشون وراء الجيش بعيداً عنه حتى إذا ضاع شيء من المتاع أو تأخر أحد من الجيش يأخذونه ويوصلونه إلى المعسكر.

قال ابن عاشور: ركب صفوان المسؤول عن مؤخرة الجيش بعد أن اطمأن أنه لا عدو يتبع المسلمين ركب ليلحق الجيش فلما بلغ الموضع الذي كان به الجيش بَصُرَ بسواد إنسان أقبل فعرف أنه عائشة وقد كان رآها قبل أن يفرض الحجاب، فاسترجع ـ أي قال: إنا لله وإنا إليه راجعون ـ أظعينة رسول الله ﷺ؟ وأنا متلففة في ثيابي لم أتكلم بكلمة، ثم قرَّبَ البعير واستأخر عني. قالت: فركبت وجاء فأخذ برأس البعير فانطلق بي سريعاً يطلب الناس، حتى لحقنا الناس في نحر الظهيرة. وكان عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين في الجيش فقال: والله ما نجت منه وما نجا منها، فراج قوله على حسان بن ثابت ومِسطَح بن أثاثة وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش زوج الرسول ﷺ أم المؤمنين حملتها الغيرة لأختها ضرة عائشة وأشاع المنافقون هذه المقالة، وهم اتباع عبدالله بن أبي سلول.

تقول عائشة: لما قال أهل الإفك فيَّ ما قالوا ارتَعَجَ ـ قلق ـ العسكرُ ووالله ما أعلم بشيء من ذلك، ثم وصلنا المدينة، فلم أمكث أن اشتكيتُ شكوى شديدة ـ أي مرضت مرضاً شديداً ـ ولا يبلغني من ذلك، وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ، وإلى أبوي ولا يذكران لي من ذلك قليلاً ولا كثيراً، إلا أني قد أنكرت من رسول الله ﷺ بعض لطفه بي. كنت إذا اشتكيت لطف بي ورحمني، فلم يفعل في مرضي هذا ما كان يفعل بي من اللطف، فأنكرت ذلك منه وكان إذا دخل علي وأمي تمرضني قال: كيف تيكم ـ شأنكم؟ لا يزيد عن ذلك حتى وجدت في نفسي، مما رأيت

(١) شهد المشاهد وفتح دمشق ومات شهيداً رضي الله عنه ١٩ هـ.

من جفائه عني، فقلت يارسول الله: لو أذنت لي فانتقلت إلى أمي فمرَّضتني، قال ﷺ: لا عليك! فانتقلت إلى أمي، ولا أعلم بشيء مما كان حتى نقهت أي خف مرضي بعد بضع وعشرين ليلة، وكنا قوماً عرباً لا نتخذ في بيوتنا هذه الكُنُف التي تتخذها الأعاجم، نعافها ونكرهها، إنما كنا نخرج في فسح المدينة، كان النساء يخرجن كل ليلة في حوائجهن، فخرجت ليلة لبعض حاجتي ومعي أم مسطح ـ اسمه عوف ومسطح لقبه وأمه سلمى ـ وأم سلمى كانت خالة الصديق ـ فوالله إنها لتمشي إذ عثرت في مرطها ـ كساء من صوف أو خز ـ فقالت: تَعِسَ مسطح، قالت عائشة: بئس لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدراً. قالت أمه: أَوَمَا بلغكِ الخبرُ يا بنت أبي بكر؟!! قلت: وما الخبر؟ فأخبرتني بالذي كان من قول أهل الإفك، قلت: وقد كان هذا؟ قالت: أم مسطح نعم والله لقد كان! قلت: فوالله ما قدرت أن أقضي حاجتي، ورجعت فما زلت أبكي حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدي، وقلت لأمي: يغفر الله لك، تحدث الناس بما تحدثوا به، وبلغك ما بلغك، ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً؟ قالت: أي بنية! هَوِّني ـ خففي ـ عليك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها، لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها.

قالت: ثم قام رسول الله ﷺ في الناس يخطبهم ـ ولا أعلم بذلك ـ ثم قال: يا أيها الناس! ما بال رجال يؤذونني في أهلي، ويقولون عليهم غير الحق، ووالله ما علمت منهن إلا خيراً، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً، وما يدخل بيتاً من بيوتي، إلا وهو معي، يقصد ﷺ (صفوان بن المعطل).

قالت: وكان كبر ذلك عند عبدالله بن أبي بن سلول في رجال من الخزرج مع الذي قال مسطح، وحمنة بنت جحش، وهي أخت زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ فأما زينب فعصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيراً، وأما حمنة فأشاعت ما أشاعت تضارني لأختها زينب فشقيت بذلك. فلما قال الرسول ﷺ هذه المقالة قام ـ أسيد بن حضير ـ الأنصاري الأوسي: يارسول الله! إن كانوا من الأوس نَكْفِيكَهم، وإن يكونوا من إخواننا الخزرج فَمُرْنا بأمرك إنهم لأهلٌ أن تضرب أعناقهم فقام ـ سعد بن عبادة ـ، وكان قبل ذلك يرى رجلاً صالحاً ولكن احتملته ـ أغضبته ـ الحمية، فقال: كذبت لعمر الله!! لا تضرب أعناقهم، أما والله ما قلتَ هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج، ولو كانوا من قومك ما قلت هذه.

وفعلاً كان عبدالله بن أبي بن سلول رأس المنافقين من الخزرج. بل هو من أشراف الخزرج، وسلول أمه وكانت الخزرج قد اجتمعت عليه ليتوجوه ويسندوا أمرهم إليه، فلما جاء الإسلام أخذته العزة فأضمر النفاق حسداً وبغياً وكان رأس المنافقين، ومات سنة ٩ هـ عند منصرف الناس من تبوك، وصلى عليه الرسول ﷺ فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (١). فما صلى بعد ذلك رسول الله ﷺ على منافق وما قام على قبره، وتثاور الناس حتى كاد يحصل شرٌّ، ونزل رسول الله ﷺ فدخل علينا ثم دعا رسول الله ﷺ علياً وأسامة بن زيد ـ أمَّره رسول الله ﷺ على جيش عظيم وعمره عشرون سنة واعتزل الفتن وسكن المزة، ثم نزل إلى المدينة وتوفي ٥٤ هـ ـ فاستشارهما ﷺ أما أسامة فقال: يارسول الله والله مانعلم على أهلك إلا خيراً وهذا الكذب والباطل. وأما علي فقال: يا رسول الله النساء كثير، وإنك لقادر على أن تستخلف، وسَلِ الجاريةَ فإنها تَصْدُقك. فدعا رسول الله الجارية ـ بربرة ـ، وقام علي فقسا عليها وقال: أصدقي رسولَ الله ﷺ، فتقول الجارية: والله ما أعلم إلا خيراً، وما كنت أعيب على عائشة إلا أني أعجن العجين فآمرها أن تحفظه فتنام عنه فتأتي الشاة فتأكله.

قالت عائشة: ثم دخل علي رسول الله ﷺ وعندي أبواي وامرأة من الأنصار وأنا أبكي وهي تبكي معي فجلس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا عائشة: إنه قد كان ما بلغك من قول الناس فاتقي الله، وإن كنت قارفت سوءاً مما يقول الناس فتوبي إلى الله يقبل التوبة عن عباده. قالت: والله ماهو إلا أن قال ذلك فقلص دمعي حتى ما أحس منه شيئاً وانتظرت أبوي أن يجيبا رسول الله ﷺ فلم يتكلما. قالت: وايم الله لأنا كنت أحقر نفسي وأصغر شأناً من أن ينزل الله فيَّ قرآناً يقرأ به في المساجد ويصلى به، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في نومه شيئاً يُكذِّبُ الله به عني لما يعلم من براءتي أو يخبر خبراً، فأما قرآن ينزل فيّ فوالله لنفسي كانت أحقر عندي من ذلك. فلما لم أر أبوي يتكلمان قلت: ألا تجيبان رسول الله ﷺ؟ فقالا: والله ما ندري بماذا نجيبه.

---

(١) التوبة.

وقد ذكر بعض الرواة أن أبا بكر قال عندها: والله مافعلنا هذا بالجاهلية أفنفعله بعد أن مَنَّ الله علينا بالإسلام.

قالت عائشة: وايم الله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام. قالت: فلما استعْجَما عليَّ استعبرت فبكيت ثم قلت: والله لئن أقررت بما يقول الناس والله يعلم أني منه بريئة لأقولنَّ ما لم يكن. ولئن أنا أنكرت ما تقول لا تصدقونني.

قالت: ثم التمست اسم يعقوب فما أذكره فقلت: ولكني أقول كما قال أبو يوسف ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١٨﴾. قالت: فوالله ما برح رسول الله ﷺ مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه فسُجي بثوبه ووضعت وسادة من أدَم ـ جلد ـ تحت رأسه، فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت فوالله ما فزعت ولا باليت، قد عرفت أني بريئة وأن الله غير ظالمي. وأما أبواي: فو الذي نفس عائشة بيده ماسُرِّيَ عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقاً أن يأتي من الله تحقيق ما قاله الناس.

قالت: ثم سُرِّيَ عن الرسول ﷺ فجلس وإنه ليتحدر مثل الجمان ـ اللؤلؤ ـ في يوم شاتٍ، فجعل يمسح العرق عن جبينه ويقول: «أبشري يا عائشة فقد أنزل الله براءتك»، قالت: فقلت: بحمد الله ولا أحمد إلا الله، فقال ﷺ: قد عرفت الحق لأهله ـ حين قالت لي أمي: قومي إلى رسول الله ـ.

ثم خرج رسول الله ﷺ إلى الناس فخطبهم، وتلا عليهم ما أنزل الله عز وجل من القرآن فيَّ، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١١﴾ (1).

والآن نقف عند هذه الآية قليلاً. فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾، قال العلماء: في لفظ المجيء ﴿جَآءُو﴾: إشاره واضحة إلى أنهم أظهروه من عند أنفسهم من غير أن يكون له أصل، أي قصدوا واهتموا، وقوله ﴿بِٱلْإِفْكِ﴾: والإفك: اسم يدل على كذب لا شبهة فيه.

---

(1) النور.

فهو بهتان يفجأ الناس، وهو مأخوذ ومشتقٌ من ـ الأفْكِ ـ، تقول: أَفكَ الشيء، إذا قلبه، لذلك يسمى الزور إفكاً، لأن فيه صرفاً عن الحق، وإخفاءً للواقع، من هنا، سميت قرى قوم لوط الأربع (سدوم، عمورة، وآدمه، صبوييم) بالمؤتفكات، ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ (1) ﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ﴿٩﴾﴾ (2)، أي المنقلبات، قال تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ (3).

ولنقف قليلاً عند هذا المعنى والقلب.

قال العلماء: لكل حدثٍ ثلاث نسبٍ: نسبة ذهنية، ونسبة كلامية، ونسبة خارجية.

فعندما أقول مثلاً: زيد كريم، هذه القضية ذهنية، فإن نطقتَ بها، فهي نسبة كلامية. وهل هناك شخص اسمه زيد، وهل هو كريم، فهذه نسبة خارجية، فإن وافقت النسبة الكلامية النسبة الخارجية، فالكلام صدق، وإن خالفت النسبة الكلامية النسبة الخارجية فالكلام كذب. وقد يكون الكذب ـ كما قال العلماء ـ مُتعمَّداً، فهو الإفك، وإن كان غير متعمد ـ كأن يخبره شخص عن زيد أنه كريم وهو غير ذلك ـ فالخبر كذب، لكن المخبر ليس كاذباً. وقوله تعالى: ﴿عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡ﴾: أي الجماعة من الثلاثة إلى العشرة، عن ابن عباس. وفي مصحف حفصة (عصبة أربعة منكم)، أي من المؤمنين. عبدالله بن أبي بن سلول، وهو منافق، ولكن قد حُكمَ له بالإيمان ظاهراً. وحمنةُ بنت جحش، ومسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، ومن المؤرخين من برأ حسان بن ثابت ـ وهو خلاف ما في صحيح البخاري.

والتحقيق في أمر حسان ما ذكره الألوسي عليه رحمة الله حيث قال: والظاهر أن حسان لم يتكلم بالإفك عن صميم قلب، وإنما نقل ما قال ابن أبيٍّ عليه لعنة الله تعالى. ويؤيد هذا القول، وهذا التحقيق أنه اعتذر مما نسب إليه في شأن عائشة رَضِوَاللَّهُعَنهَا حيث قال:

---

(1) النجم.

(2) الحاقة.

(3) الحجر.

حَصَانٌ[(١)] رزانٌ[(٢)] ما تَزَنُّ بريبةٍ ... وتصبح غَرثى من لحوم الغوافل[(٨)]
حليلةُ خير الناس ديناً ومنصباً ... نَبيِّ الهدى ذي المكرُمات الفواضِل
عقيلة[(٣)] حي من لؤي بن غالب ... كِرام المساعي[(٩)] مجدهم غير زائلِ
مهذبةٌ[(٤)] قد طيّب الله خَيمها[(٥)] ... وطهرها من كل سوءٍ وباطل
فإن كنتُ قد قلتُ الذي قد زعمتم ... فلا رفعت سوطي إلي أناملي[(١٠)]
فكيف وودّي ما حَييتُ ونُصرتي ... لآل رسول الله زين المحافل[(١١)]
له رُتَبٌ[(٦)] عالٍ على الناس كلهم ... تقاصر عنه سَورةُ[(١٢)] المتطاول
فإنّ الذي قد قيل ليس بلائط[(٧)] ... ولكنه قول امرئٍ بي ماحل[(١٣)]

قال الألوسي: وكانت عائشة بعد ذلك تكرمه وتذكره بخير، ولا تسمح لأحد أن يتكلم فيه، وكانت تقول: لا تؤذوا حساناً فإنه كان ينصر رسول الله ﷺ بلسانه. وأخرج ابن جرير عن طريق الشعبي أن عائشة قالت: ما سمعت بشيء أحسن من شعر حسان، وما تمثَّلْتُ به إلا رجوت له الجنة، قوله لأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

---

(١) عفيفة.
(٢) لا تغادر بيتها.
(٣) الكريمة.
(٤) صافية ومخلصة.
(٥) طبعها وأصلها.
(٦) مجد وشرف.
(٧) ليس بلاصق، تقول: هذا لا يليط بفلان أي لا يلصق به.
(٨) لا تنال عرض أحد ولا تستغيب أحدا.
(٩) جمع مسعاة، وهو ما يسعى فيه الانسان من طلب المكارم.
(١٠) أراد الدعاء على نفسه بالشلل إن قال ما نسب إليه.
(١١) جمع محفل وهو مكان اجتماع الناس.
(١٢) الوثبة.
(١٣) النمام الواشي بالكذب.

هجـــوتَ محمـــداً وأجبـــتُ عنـــه		وعنــــــد الله في ذاك الجـــــــزاء
فــــإن أبي ووالـــــدتي وعِـــــرضي		لعــــرض محمـــد مـــنكم وقـــاء
أتـــشتمه ولـــست لـــه بكـــفءٍ		فـــشرُّكما لخـــيركما الفـــداء
لـــساني صـــارم لا عيـــب فيـــه		وبحـــــري لا تُكـــدِّره الـــدلاء

وقوله ـ عصبة ـ تحقير لهم ولقولهم كما قال صاحب «التحرير والتنوير»[1]: أي لا يعبأ بقولهم في جانب تزكية جميع الأمة. ووصف العصبة بكونهم ـ منكم ـ يدل على أنهم من المسلمين، وفي ذلك تعريض بهم وإشارة بأنهم حادوا عن خُلُقِ الإسلام حين آذوا المسلمين بهذا الإفك. ثم قال عز وجل: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴿١١﴾﴾ وحقيقة الخير: هو ما زاد نفعه على ضرّه. وحقيقة الشرّ: هو ما زاد ضره على نفعه. وأن خيراً لا شرَّ فيه هو الجنة. وشراً لا خير فيه هو جهنم، ولهذا صار البلاء النازل على الأولياء خيراً؛ لأن ضرره من الألم قليل في الدنيا، وخيره ـ وهو الثواب ـ كثير في الآخرة؛ فَنبَّهَ الله عائشة ومن ماثلها ممن ناله همٌّ من هذا الحديث أنه ما أصابهم من شرٌّ، بل هو خير، لرجحان جانب الخير والثواب فيه.

قال **ابن عاشور**: والله أثبت أن حديث الإفك خير لهم حيث جاء بـ (بل) للإضراب وإبطال أن يحسبوه شراً فقال: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾، بل أثبت أنه خيرٌ لهم فقال: ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ لأن فيه منافع كثيرة؛ إذ يتميز به المؤمنون الخُلَّص من المنافقين، وتشرع بسببه أحكام تردع أهل الفساد عن فسادهم، وتتبين منه براءة فضلائهم، ويزداد المنافقون غيظاً ويصبحون مذمومين. وتظهر فيه معجزات بنزول هذه الآيات بالإنباء بالغيب.

قال الشعراوي: وأصبحت هذه الحادثة خيراً؛ لأنها نوع من التأييد لرسول الله ﷺ ولدعوته، فالحق سبحانه يؤيد رسوله بالأشياء المسرَّة ليقطع أمل أعدائه في الانتصار عليه. لقد دلسوا ومكروا وكادوا، وائتمروا ليلة الهجرة فلم يفلحوا، وسحروه ووضعوا السحر في بئر ذروان فذهب عليٌّ وأحضره بإشارة جبريل للنبي ﷺ كما في البخاري ومسلم، وهنا ـ في حادثة الإفك ـ عجزوا عن تشويه صورته ﷺ والنيل من سمعته، وكأن الله يقول لأعدائه ﷺ: اقطعوا أملكم فلن تنالوا من محمد ﷺ أبداً، من هنا كانت الحادثة خيراً للمؤمنين. وهكذا يسارع القرآن

---

(١) الطاهر بن عاشور.

الكريم بتطمين المسلمين من عاقبة هذا الكيد. ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أما الذين خاضوا بالإفك فلكل واحد منهم نصيب من تلك الفرية والخطيئة.

قال تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ (١١)﴾ أي على قدر الخوض يكون العذاب، لأن منهم من تكلم، ومنهم من نقل، ومنهم من سكت ولم ينكر.

ثم يقول الله تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾

قال العلماء: العرب عادة يستخدمون فعل (كَسَبَ) الثلاثي المجرد في فعل الخير ويستعملون الفعل (اكتسب) المزيد على الثلاثي الدال على الافتعال والاكتساب في الشر، لماذا؟ قالوا: لأن فعل الخير يتمشى مع الفطرة الانسانية المبرمجة على الخير أصلاً، وينسجم مع ذرّاتها وتكوينها، فالذي يُقْدم على عمل الخير لا يقاوم ملكات نفسه، فأنت إذا نظرت إلى زوجتك او ابنتك تكون طبيعياً مطمئناً؛ لأن ملكات نفسك تكون موافقة لك لا تعارضك في هذا الفعل، ولكن عندما ينظر الرجل إلى غير محارمه، إلى من لا يحل له، تجده يختلس النظرة ويسرقها، ويحاول سترها، ويرقب هل يراه أحد؟ وقد يرتبك ويتغير لونه، لماذا؟ لأنه ارتكب عملاً غير طبيعي، ارتكب عملاً مفتعلاً لا حقَّ له فيه فتعارضك ملكات نفسك، وذرات تكوينك. (وكذلك الفرق بين المشتري والسارق). فالأمر الطبيعي تستجيب له النفس تلقائياً، أما الشرُّ والخطأ فيحتاج إلى افتعال، كذلك عَبَّرَ عن المكر والكيد في الآية بـ (اكتسب)، فقال: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾.

وضرب العلماء مثلاً آخر فقالوا: لو أن إنساناً فتح ثلاجته أو ثلاجة أبيه فأكل شيئاً، فإنه يأكل مطمئناً كأمرٍ طبيعي، ولكن ـ بالله عليكم ـ لو دخل بيتاً ليسرق منه شيئاً أو بستاناً ليسرق منه فاكهة، فهل حاله كحال من يأكل من بيته..؟ لا، إنه يريد أن يستر نفسه؛ لأنه يفعل شراً، وصاحب الشر هو الذي يفتعل. يكتسب. وهذا الأمر يلاحظ حتى في الحيوانات، ألا نرى الهرة إن وضعتَ لها قطعة لحم فإنها تجلس بجوارك وتأكلها، وإن أخذتها منك خطفاً أو سرقة تفر بها هاربة وتأكلها بعيداً عنك، ففعل الشر هو الذي يحتاج إلى مجهود. إذن: في ذاتية الإنسان وفي تكوينه، وحتى في الحيوان، ما يعرف به الخطأ والصواب، وإن شئت فقل: الخير والشر.

من هنا نلاحظ أن قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا

ﭐكۡتَسَبَتۡۗ ٢٨٦﴾ [1]، فقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ﴾: فـ (لها) تفيد الملكية والاختصاص، أي تفيد وتكسبُ النفس ثواباً. أما قوله: ﴿وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ ، فعليها تفيد الوزر والعقوبة، ونلاحظ: أن (لها) جاءت مع كسبت دائماً، وأن كل (عليها) جاءت مع (اكتسبت) إلا في آية واحدة في سورة البقرة: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١﴾ [2]. هنا جاءت كسب بمعنى اكتسب التي هي للشر، لماذا؟

قال العلماء: والمصيبة الكبرى أن يتعود أهل الشر على الشر فيتعوَّدوا عليه بلا افتعال فيسهل عليهم فعله، لأن صاحبه يصير إلى بلادة الحسِّ والإيمان، وتكون الشرور بالنسبة إليه سهلةً؛ لأنه تعود عليها كثيرا لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ تحيط به الخطيئة من كل ناحية ولم يعد هناك منفذ، فهو لا يفتعل لأنه استقرت فيه ملكةُ الشر. فاللص في البداية من عمله في اللصوصية يخاف ويترقب ويضطرب ولكن عندما تصبح اللصوصية مهنة فيحتمل أدوات اللصوصية ويتجلد حسه ففي المرحلة الأولى من الشر يكون صاحب فعل الشر فيه بعض الحياء، وهذا دليل خير، لكن عندما يكون الشر لهم حرفة بالتعوُّد، وصار ملكة في نفوسهم فهنا المصيبة ويغلق عليه باب التوبة. فالذي ألِفَ الخمر أو الميسر قد يقول فرحاً: كانت ليلة ممتعة، أما الذي يقع في الخطأ أول مرة ثم صحا فؤاده وندم فيقول: (كانت ليلة سوداء ليتها لم تحصل) ويؤنب نفسه لأنه ارتكب خطأً. ففعل الشر هو الذي يحتاج إلى المجهود فإذا انتقلت المسألة بالإنسان من اكتسبت إلى كسبت فهذه هي الطامة الكبرى.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾ أي الذي تولى معظم الذنب من الذين جاؤوا بالإفك له عذاب عظيم. وهو عبدالله بن أُبَيٍّ بن سلول وقد تضافرت الروايات على ذلك، لأنه منافق وليس من المسلمين. وقد ورد في صحيح البخاري (أنه عبدالله بن أبي عليه اللعنة).

قال الآلوسي عند تفسيره لهذه الآية: ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾ ، قال كان عبدالله بن أبي بن سلول لعنه الله تعالى، يجمع الناس عنده ويذكر لهم ما يذكر من الإفك وهو أول

---

(١) البقرة.

(٢) البقرة.

من اخترعه وأشاعه لإمعانه في عداوة رسول الله ﷺ، ثم قال الالوسي: وعذابه في الآخرة بعد جعله في الدرك الأسفل من النار لا يقدر قدره إلا الله عز وجل. وأما في الدنيا، فَوسمهُ بميسم الذل وإظهار نفاقه على رؤوس الأشهاد.

قال ابن عاشور: والوعيد بأن له عذاباً عظيماً في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يقتضي أنه عبدالله بن أبي بن سلول، وفيه إنباء بأنه يموت على الكفر فيعذب العذاب الأليم في الآخرة وهو عذاب الدرك الأسفل من النار.

قال العلماء: ولقصة الإفك ذيول، من ذلك: أن أبا بكر الصديق كان ينفق على مسطح بن أثاثة المطَّلبي حيث كان ابن خالة أبي بكر الصديق وكان من فقراء المهاجرين، فلما تبين أنه ممن خاض في حديث الإفك، أقسم أبو بكر أن لا ينفق عليه ولما تاب مسطح، وتاب الله عليه لم يزل الصديق واجداً في نفسه على مسطح، فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور].

﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾. قال ابن عباس: إن جماعة من المؤمنين قطعوا منافعهم عمن خاض في الإفك، وقالوا: (والله لا نصل مَنْ تكلم في الكذب).فأنزل الله عز وجل الاية، والمراد بقوله ﴿أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ﴾ الصديق ابتداء.

قال المفسرون ولما قرأ رسول الله ﷺ على الصديق هذه الآية، ووصل إلى قوله تعالى ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قال أبوبكر: بلى أحبُّ أن يغفر الله لي، ورجع إلى مسطح وأهله ما كان ينفق عليهم.

قال ابن عطية في تفسيره: (وكَفَّرَ أبو بكر عن يمينه) روته عائشة. وتقول بعض الروايات: أن مسطح (كما روى ابن أبي حاتم عن مقاتل) أقبل على أبي بكر معتذراً فقال: جعلني الله فداك، والله الذي أنزل على محمد ما قذفتها وما تكلمت بشيء مما قيل لها أي خال، فقال أبو بكر: ولكنك تبسمت عند سماعك الخبر...فقال مسطح: لعله يكون قد كان بعض ذلك، قالوا: فأعاد الصديق له النفقة مضاعفةً وقوله: ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ﴾ العفو عن الأفعال والصفح عن الأقوال (الطبراني).

قال العلماء: ولا يليق بذي الفضل أن يعامل الناس بالعدل فيقابل الإساءة بالإساءة ولكن ينبغي لذي الفضل معاملة من أساء إليه بالفضل والسعة وهكذا كان الصديق.

والله عز وجل أعطانا مثلاً، هل يقطع عطاءه عن الكافرين؟ لا، كلا نحو هؤلاء وهؤلاء محظور، فالله أعطانا مثلا في ذاته عز وجل يعطي المؤمن والكافر، وهكذا كانت براءة الصديقة، قال العلماء: (الله برأ أربعاً في أربع؛ برأ مريم بكلام عيسى، وموسى بالحجر، ويوسف، وشهد شاهد من أهلها، والصديقة بسورة النور).

بعض مواقف الصديق التاريخية قبل وفاة النبي ﷺ:

ومن ذلك موقفه رضي الله عنه من صلح الحديبة.

في الحديبية: هذا الموقف في الحديبية يدلّنا على شدة محبة الصديق للنبي ﷺ، وهو من شواهد هذه المحبة.

قال أهل العلم: من شواهد المحبة، الاتفاق الواقع بين المحب والمحبوب، ولاسيما إذا كانت المحبة محبة مناسبة ومشاكلة، فكثيراً ما يمرض المحب بمرض محبوبه، وقد يتحرك بحركته ولا يشعر أحدهما بالآخر، وقد يتكلم المحبوب بكلام فيتكلم المحب به، بل بذات الكلام، اتفاقاً ولا يعلم بماذا تكلم محبوبه. وهذا ما وقع للصديق في يوم صلح الحديبية.

قال المؤرخون: كانت معاهدة الحديبية بين النبي ﷺ وبين المشركين سنة ٦ هـ وكانت من أجلّ وأنبل جوانب منهج الرسالة المحمدية التي عقدها ﷺ مع ما كان في ظاهر هذه المعاهدة من شروط تعطي عدوَّ المسلمين كل شيء يتصور في مصلحتهم، ويثقل كاهل المسلمين بهذه الشروط التي لم يثبت بشدَّتها ولم يتقبلها كما رضيها النبي ﷺ إلا أرسخ المؤمنين قدماً في ساحة الإيمان؛ أبو بكر الصديق رضي الله عنه. وإليكم هذه الشروط باختصار، حتى نفهم ما جرى بعد المعاهدة وبعد توقيع هذه الشروط بين الطرفين:

الشرط الأول: وضع الحرب بين الفريقين عشر سنين يَكفُّ بعضهم عن بعض.

الشرط الثاني: من أتى رسول الله من قريش بغير إذن وليّه رده عليهم.

الشرط الثالث: من أتى قريشاً ممن مع رسول الله ﷺ لم يردوه عليه.

الشرط الرابع: أن بين الفريقين عَيْبَةً مكفوفة. ـ أي صدراً نقياً من الخداع، مطوياً على الوفاء والأمانة ـ.

الشرط الخامس: أنْ لا إسلالَ ولا إغلال، أي لا سلّ للسيوف ولا غدر.

الشرط السادس: من أحب أن يدخل في عقد محمد ﷺ دخل فيه، ومن أحبَّ أن يدخل في عهد قريش وعقدهم دخل فيه.

الشرط السابع: أن يرجع محمد ﷺ عامه هذا، أي سنة ٦ هـ من ذي القعدة عن زيارته للبيت، وكان ﷺ قد خرج للعمرة وساق هو وأصحابه الهدي وكان قرابة سبعين بعيراً، وفي سوق الهدي إشارة منه ﷺ إلى أنه لا يريد حرباً وإنما الاعتمار فقط وكان عدد المسلمين ألفاً وأربع مائة رجل نزلوا بأقصى الحديبية على ثَمدٍ قليل الماء يَتَرَبَّضُهُ الناس تربضاً بأمر رسول الله ﷺ حيث قال لهم ـ انزلوا ـ: يتربّضون: يتبلَّغون منه بلغة.

قيل: يارسول الله، ما بالوادي ماء يُنزل عليه، فأخرج ﷺ سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل به في قليبٍ من تلك القُلُب فغرسه في جوفه فجاش بالرّواء حتى ضربَ الناس عنه بِعَطَنٍ[(١)] أي نزلوا حوله يسقون ويشربون ويتوضؤون كأنهم حول بئر ماء.

قال ابن إسحاق: وحدثني بعض أهل العلم عن رجال من ـ أَسْلَمَ ـ، اسم قبيلة، أن الذي نزل في القليب بسهم رسول الله ﷺ رجل من هذه القبيلة ـ أسلَم ـ اسمه (ناجية بن جندب) وهو سائق بُدْنِ رسول الله ﷺ، ولشعراء هذه القبيلة أبيات من الشعر قالها ناجية بن جندب أنه هو الذي نزل بالسّهم لرسول الله ﷺ إلى أسفل البئر وأن جارية من الأنصار أقبلت بدلوها وناجية في القليب يَميحُ للناس فقالت:

يا أيها المائح دلوي دونكا ... إني رأيت الناس يمدحونكا

يثنون خيراً ويمجدونكا

قال ابن إسحق: فردَّ ناجية وهو في القليب يميح للناس.

---

(١) مبرك الإبل.

قـــد علمـــت جاريـــة يمانيـــة | أني أنـــا المـــائح[٢] واســـمي ناجيـــة
وطعنـــةٍ ذات رشـــاسٍ واهيـــة[١] | طعنتُهـــا عنـــد صـــدور العاديـــة[٣]

قال المؤرخون: وقامت سفارات متعددة ورسل بين الطرفين، أراد المشركون أن يعرفوا لماذا جاء النبي ﷺ بجيشه إلى مكة، ثم عرفوا أن النبي ﷺ لم يقصد حرباً وإنما جاء معتمراً. وكان السفير الثالث من قريش هو: عروة بن مسعود الثقفي، أتى عروة وجلس بين يدي النبي ﷺ ثم قال له: يا محمد: أجمعت أوشاب الناس ـ الأخلاط ـ ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضَّها ـ لتكسرها ـ بهم، أي جئت لتدخل مكة بالقوة إهانة لأهلها، إنها قريش يا محمد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وايم الله لكأني بهولاء قد انكشفوا عنك غداً ـ أي ينهزمون ويتركونك لعدوك..

فقال أبو بكر الصديق وكان جالساً خلف رسول الله ﷺ: امصُصْ بظر اللات، أنحن ننكشف عنه؟ فقال عروة بن مسعود للنبي ﷺ: من هذا يا محمد؟ فقال ﷺ؟ هذا ابن أبي قحافة، قال عروة: أما والذي نفسي بيده لولا يدٌ كانت لك عندي لكافأتك بها. ـ أي لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك، ولكن هذه بها ـ. وجعل عروة يكلم النبي ﷺ وكلما تكلم أخذ بلحية النبي ﷺ، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ بالسيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بن مسعود بيده إلى لحية رسول الله ﷺ ضرب يده بنصل السيف وقال لعروة: آخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل إليك، فإنه ما ينبغي لمشرك أن يمسه. فقال عروة: ما أَفظَّكَ وأغلظك، من هذا؟ قالوا: وقد تبسم النبي ﷺ ـ هذا المغيرة بن شعبة ابن أخيك ـ. قال عروة للمغيرة: أي غَدُر ـ وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس ـ.

ما معنى هذه العبارة؟ المقصود بها أن المغيرة بن شعبة قبل أن يسلم كان بينه وبين حيٍ من ثقيف خصومة وهم من بني مالك فقتل منهم ثلاثة عشر رجلاً، فقام أهل القتلى للأخذ بالثأر

---

(١) طعنة واسعة الشق.

(٢) المائح هو الرجل الذي يكون في أسفل البئر يملأ الدلاء للقوم. والماتح: هو الرجل الذي يكون في أعلى البئر ينزع الدلاء المملوءة.

(٣) من العَدْوِ وهو السير السريع.

وقامت عشيرة المغيرة بالدفاع عنه، ثم تصالح الحيان ودفع الدية عن القتلى عروة بن مسعود. ثم جاء المغيرة إلى رسول الله ﷺ فأسلم ومعه السلب والمال الذي أخذه ممن قتلهم، فقال ﷺ: (أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء).

قال المؤرخون: ثم اتفق الطرفان على الصلح، وكان ممثل قريش لكتابة الاتفاق ـ سهيل بن عمرو ـ، وتمت كتابة الوثيقة بالشروط السابقة التي ذكرناها ولكن عند البدء بالكتابة، وثب عمر بن الخطاب وكلم رسول الله ﷺ وهاهو عمر يحدثنا عن هذا الحديث.

قال عمر: قلت: يا رسول الله «ألست نبي الله حقاً؟ قال ﷺ: (بلى)، قلت: ألسنا على الحق؟ أليس عدونا على الباطل؟ قال ﷺ: (بلى)، قلت: فلم نعطي الدنيّة في ديننا إذاً؟ فقال ﷺ: (إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري)، قلت: أولست تحدثنا أنّا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال ﷺ: (بلى، فأخبرتك أنّا نأتيه العام؟) قلت: لا، قال ﷺ: (فإنك آتيه ومطوف به)، قال عمر: فأتيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى، قلت ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال الصديق: بلى، قلت: فلم نعطيه الدنية في ديننا إذاً؟ قال الصديق: إنه رسول الله، وهو ناصره وليس يعصيه، فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق، قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال الصديق: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا، قال الصديق: فإنك آتيه ومطوف به.

قال ابن القيم[1]: انظر كيف أجاب الصديق عمر مثل جواب رسول الله ﷺ حرفاً بحرف من غير تواطؤ، ولا تشاعر، بل موافقة محب لمحبوب ﷺ، وهكذا ورد في صحيح البخاري.

قال المؤرخون: وكان أشدُّ الشروط وأقساها فيما يظهر للناس شرطَيها الثاني والثالث اللذين قضيا بردّ من أتى من قريش إلى رسول الله ﷺ مسلماً رَدَّه عليهم، ومن أتى قريشاً من المسلمين لم يرده إلى رسول الله ﷺ. هذان الشرطان مع رفض رئيس قريش المفاوض ـ سهيل بن عمرو ـ أن يكتب في وثيقة المصالحة (بسم الله الرحمن الرحيم، ومحمد رسول الله ﷺ). هذه الفقرات هي التي أدخلت الهم والغم على المسلمين وعلى رأسهم عمر بن الخطاب، وأسيد بن

---

(١) في روضة المحبين.

حضير، وسعد بن عبادة وغيرهم. ولكنّ رسول الله ﷺ قبل ذلك وعاهد القوم لِما كان ينظر إليه من وراء سترِ الغيب وقال ﷺ لأصحابه: (مَن ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاء منهم إلينا فسيجعلُ الله له فرجاً ومخرجاً).

قال صاحب كتاب «محمد رسول الله»: وقد عجَّل الله امتحان المسلمين في تحقيق الوفاء بهذين الشرطين الصارمين ليُمحِّصهم، ويُعِدَّهم إعداداً كاملاً لحمل أمانة الإسلام، ويُظهر لأعداء الإسلام فضل الإسلام في احترام الوفاء بالعهود والمواثيق.

قال أهل العلم: وكان ذلك الابتلاء قبل التوقيع على الوثيقة، وقبل جفاف مدادها، بل وفي مرحلة التفاوض وإذا برجل يدخل وهو يرسفُ في قيوده ثم رمى بنفسه بين أظهر المسلمين. أتعرفون من هذا الرجل؟ إنه أبو جندل بن سهيل بن عمرو سفير المشركين في التفاوض مع النبي ﷺ، ونائبها في توقيع الوثيقة، جاء هارباً من المشركين وهو في قيده. ولم يكد يراه أبوه سهيل حتى قام وضرب وجهه، وأخذ بتلابيبه ثم التفت سهيل والد أبي جندل إلى رسول الله ﷺ وقال: هذا يا محمد أول ما أُقاضيكَ عليه أن ترده عليّ، فقال ﷺ: (أنَّا لم نقض الكتاب بعد)، فقال سهيل: لقد تمت القضية بيني وبينك قبل أن يجيء هذا، فقال ﷺ: (صدقت). وطلب النبي ﷺ من سهيل بن عمرو أن يترك له ولده استثناء من هذا الشرط، فأبى سهيل أشد الإباء وقال: لا بد من الشرط فوالله إذاً لن أصالحك على شيء أبداً. ولما أدرك أبو جندل أنه متروك لأبيه يردُّه إلى المشركين نادى في المسلمين يثير فيهم الحمية وأريحية الإيمان! أي معشر المسلمين: أُرد إلى المشركين بعد أن جئت مسلماً؟ ألا ترون ما لقيت؟ ـ وكان قد عُذِّبَ في سبيل الله كثيراً ـ، والتفت النبي ﷺ إلى أبي جندل وخاطبه قائلاً: (يا أبا جندل اصبر واحتسب فإنا لا نغدُر، وإن الله جاعل لك فرجاً ومخرجاً، وإنا قد عقدنا مع القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك عهد الله، وإنا لا نغدر بهم).

بهذه الكلمات النبوية المشرقة، دلالةٌ على مقدار تمسك النبي ﷺ بالوفاء بالعهد مهما كانت نتيجته وعواقبه فيما يظهر للناس، وهكذا كانت عواقب صلح الحديبية فتحاً ونزل فيها قوله تعالى في سورة الفتح ـ عند رجوعه في الطريق إلى المدينة ـ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ [١].

---

(١) الفتح.

قال العلماء: وقد تحدث الصديق فيما بعد عن هذا الفتح العظيم الذي تمّ في الحديبية فقال: ما كان فتح أعظم في الإسلام من فتح الحديبية، ولكن الناس يومئذ قَصُرَ رأيهم عمّا كان بين محمد ﷺ وربه سبحانه، والعباد يعجلون والله لا يعجل لعجلة العباد.. لقد نظرت إلى سهيل بن عمرو في حجة الوداع قائماً عند المنحر يقرِّبُ إلى رسول الله ﷺ بدنةً ورسول الله ﷺ ينحرها بيده، ودعا الحلاق فحلق رأسه، وأنظر إلى سهيل بن عمر يلتقط من شعر رسول الله ﷺ وأراه يضعه على عينيه، وأذكر إباءَهُ ان يُقرَّ يوم الحديبية بأن يكتب(بسم الله الرحمن الرحيم)، ويأبى أن يكتب: محمد رسول الله ﷺ فحمدتُ الله الذي هداه للإسلام.

ويقول صاحب كتاب «تاريخ الخلفاء» لليسوطي: (لقد كان الصديق أَسَدَّ الصحابة رأياً، وأكملهم عقلاً). وهنا نحب أن نشير إلى أمرين اثنين يتعلقان بصلح الحديبية، لقد رأينا شدة عمر ومراجعته لرسول الله ﷺ في شروط الصلح، ونذكر هنا الموقف النفسي الشديد الذي أصاب المسلمين، وقد صور عمر هذا الجو النفسي أدق تصوير حيث قال: (ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ).

يقول الصادق عرجون معلقاً على هذه العبارة في كتابه «محمد رسول الله»: إن قول عمر يصور أدق تصوير ما دخل على المسلمين من الغمّ والحيرة بيدَ أن الموقف كان أقسى مما تصوره الكلمات، فقد كان فوق طاقة الاحتمال البشري، لم يَثْبُتْ له بعد رسول الله ﷺ الذي كان على علم من ربه، وكُشف له حُجبُ الأسرار عن عواقبه غير الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وثبات الصديق انفرد به في مضايق هذا الموقف إنما كان بقدر رسوخه في الإيمان رسوخاً مستمداً من آفاق شمس النبوة. ولهذا ذهب إليه عمر يلتمس من يقينه وإيمانه ثلج التثبيت لأن أبا بكر سيد الراسخين بعد رسول الله ﷺ.

وبعد ظهور منافع صلح الحديبية، ونزول سورة الفتح في هذا، قال عمر: ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعتُ يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيرا.

قال صاحب كتاب «هذا الحبيب يا محب»: إنما تاب عمر من كلام قاله ـ وهو حقٌّ ـ لأن الكلام أخذ صيغة المعارضة للنبي ﷺ في قضية عامة. ولعمر موقف آخر في قصة ـ أبي جندل بن سهيل بن عمرو ـ، وذلك حين قرر المسلمون رده إلى المشركين، وقال ﷺ: سيجعل الله

لك فرجاً ومخرجاً.

قال ابن هشام في سيرته النبوية: وَثَبَ عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ويقول له: اصبر أبا جندل، فإنهم هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، قال: ويدْني عمر قائم السيف من أبي جندل، قال عمر: قربت له قائم السيف، رَجَوْتُ أن يأخذه فيضرب به أباه، ولكن الرجل ضَنَّ بأبيه، ونُفِّذت القضية. وجعل الله لأبي جندل الأسير ومن معه فرجاً كما قال لهم رسول الله ﷺ وكما ذكر أهل السيرة. وذلك أن النبي ﷺ لما رجع إلى المدينة أتاه رجل اسمه ـ عتبه بن أسيد بن جاوية ـ (أبو بصير)، وكان ممن حبس بمكة لأنه أسلم، فأرسل المشركون في طلبه رجلين، فقالوا: يا محمد العهد الذي جعلت لنا، فقال رسول الله ﷺ، لكم ذلك. ثم قال ﷺ لأبي بصير حين قال له أبو بصير: أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني، فقال ﷺ له: (انطلق إلى قومك فإن الله سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً)، فانطلق معهما. وفي الطريق استطاع أبو بصير بحيلة أن يقتل أحد المشركين وفر الآخر إلى رسول الله ﷺ فلما رآه رسول الله ﷺ قال: (إن هذا الرجل قد رأى فزعاً)، ثم قص الرجل المشرك على الرسول ﷺ ما حصل. ثم جاء أبو بصير إلى الرسول وقال له: يا نبي الله قد والله أوفى الله ذمتك، قد رَدَدْتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم، فقال ﷺ: (ويل أمه مِسْعَرُ حرب لو كان له أحد). ثم خرج أبو بصير حتى لا يحرج النبي ﷺ تجاه قريش حتى نزل ـ العيص ـ على ساحل البحر إلى الشام، وهو طريق قوافل قريش وبلغ المسلمين المحبوسين في مكة ذلك فصاروا يهربون إلى أبي بصير، ومنهم أبو جندل، وألفوا جماعة قاربت السبعين رجلاً، وأخذوا بمهاجمة قوافل قريش، فما كان من قريش إلا أن كتبوا للرسول ﷺ يطلبون إليه، ويسألونه الرحمة إلا آواهم وردهم إليه، فردهم الرسول إلى المدينة وآواهم، وهذا من الفرج الذي بشرهم به رسول الله ﷺ.

مشاهد من مشاهد الصديق ومواقفه رضي الله عنه:

أولاً: في غروة خيبر: في السنة السابعة للهجرة كانت غزوة خيبر وذلك في شهر محرم.

قال المؤرخون: كانت خيبر مركز تجمع كبير لتجمع عصابات الشر اليهودية ولهذا تعين غزوها، وكان ذلك في أول المحرم سنة ٧ هـ؛ ضرب رسول الله ﷺ حصاراً على خيبر، فكان أول قائد أرسله أبا بكر الصديق، فقاتل اليهود قتالاً شديداً وقد جهد.

وقد روى البيهقي من حديث عبدالله بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ ربما أخذته الشقيقة ـ صداع يعرض للإنسان في مقدم الرأس أو أحد جانبيه ـ فلبث اليوم واليومين لا يخرج، فلما نزل خيبر أخذته الشقيقة فلم يخرج إلى الناس، وإن أبا بكر أخذ راية رسول الله ﷺ (وكانت بيضاء) كما ذكر ابن هشام – إلى بعض حصون خيبر ولم يكن فتح، ثم كان الفتح على يد علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وكان أرمد ولم يكن موجوداً فأرسل إليه رسول الله ﷺ فجاء على بعير وأناخ قريباً من خباء رسول الله ﷺ، وقد عصب عينيه بشقة بُردٍ قطري فقال له ﷺ: مالك؟ قال: رمدت عيني بعد، فقال ﷺ: ادْنُ مني، فدنا، فتفل في عينيه، فما وجعهما حتى مضى لسبيله، ثم أعطاه الراية، فنهض بها وعليه حلة أرجوان حمراء، وكان الفتح على يديه. وقف على حصن، فاطلع إليه يهودي فقال: من أنت؟ قال: علي، قال اليهودي: علوتم وما أنزل على موسى. وقسم رسول الله الغنائم، فكان نصيب الصديق مائة وسقٍ من طعام.

قال المؤرخون: وقد أشار بعض أصحاب النبي ﷺ بقطع النخيل حتى يثخن في اليهود ورضي النبي بذلك، فأسرع المسلمون في قطعه، ثم ذهب الصديق إلى النبي ﷺ وأشار عليه بوقف القطع لما في ذلك من الخسارة للمسلمين سواء فُتحت خيبر عُنوة أو صلحاً، فقبل النبي ﷺ مشورة الصديق ونادى في المسلمين بالكف عن قطع النخيل فرفعوا أيديهم. «المغازي» للواقدي، ثم كان النصر والفتح على يد علي، وكان شعار المسلمين يومها (يا منصور أَمِتْ أمت).

ثانياً: في سرية ذات السلاسل: كانت في السنة الثامنة من الهجرة في شهر جمادى الآخرة، وجه رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل من بلاد قضاعة، بينها وبين المدينة عشرة أيام، حتى وصل إلى ماء جذام، المسمى (ماء السلاسل)، ومعه ثلاث مائة مقاتل، ولما وصل عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل خاف من كثرة العدو فكتب إلى رسول الله ﷺ يستمده فبعث إليه رسول الله ﷺ أبا عبيدة (عامر بن الجراح) في جماعة من المهاجرين فيهم أبوبكر وعمر، وسراة أصحابه ﷺ من الأنصار كذلك في مائتين، فصار المجموع خمس مائة مقاتل. مشى هذا العدد من الجيش بقيادة عمرو بن العاص حتى وصلوا جبل طيّء، فقال عمرو بن العاص: انظروا إلى رجل دليل بالطريق، فقالوا: ما نعرفه إلا رافعَ بن عمرو، فقد كان ربيلاً في الجاهلية ـ

قاطع طريق يغزو وحده ـ.

قال رافع: فلما قضينا غزاتنا، وانتهيت إلى المكان الذي خرجنا منه تَوسَّمتُ أبا بكر ـ تفرست فيه الخير ـ وكان له عباءةً فَدَكيّة ـ وهي قرية من خيبر بينها وبين المدينة ست ليال ـ، فإذا ركب خلَّها عليه بخلال ـ أي جمع بين طرفيها بخلال من عود أو حديد ـ فإذا نزل بسطها، فأتيته فقلت: يا صاحب الخلال: إني توسمتك من بين أصحابك، فَأْتِني بشيء إذا حفظته كنتُ مثلكم ولا تطول عليَّ فأنسى.

فقال الصديق: تحفظ أصابعك الخمس؟ قلت: نعم، قال الصديق: تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، عبده ورسوله، وتقيم الصلوات الخمس، وتؤتي زكاة مالك إن كان لك مال، وتحج البيت، وتصوم رمضان، هل حفظت؟ قال رافع: قلت: نعم.

قال الصديق: وأخرى لا تأَمَّرَنَّ على اثنين، قلت: وهل تكون الإمرة إلا فيكم أهل المدر ـ سكان البيوت المبنية ـ؟! فقال الصديق: يوشك أن تفشو ـ الإمارة ـ حتى تبلغك ومن هو دونك، إن الله عز وجل لما بعث نبيه ﷺ دخل الناس في الإسلام، فمنهم من دخل لله فهداه الله، ومنهم من أكرهه السيف، فكلهم عوادُ الله وجيران الله، وخفارةُ الله ـ أي الذمة والعهد والأمان ـ، إن الرجل إذا كان أميراً، فتظالم الناس بينهم فلم يأخذ لبعضهم من بعض انتقم الله منه، إن الرجل منكم لتؤخذ شاة جاره فيظل ناتئ عضلته ـ منتفخ غضبان ـ غضباً لجاره، والله من وراء جاره. فانتبه ـ يا عبد الله ـ إلى هذه الوصية الموجزة التي تصلح لكل زمان، وإلى هذه النصيحة التي خرجت من فم رجل تربى على يد رسول الله ﷺ. تلمس فيها كما قال صاحب كتاب (الخليفة الاول):

١. أهمية العبادات بعد العقيدة، صلاة، صوم.

٢. عدم طلب الإمارة (ولا تكونن أميراً) تماماً كما قال النبي ﷺ لأبي ذر: «يا أبا ذر، إنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها» صحيح مسلم باب الامارة. وجاء في رواية: (وإنه من يك أميراً فإنه أطولُ الناس حساباً، وأغلظهم عذاباً، ومن لا يكن أميراً فإنه من أيسر الناس حساباً وأهونهم عذاباً).

٣. تلمس في الوصية تحريم الظلم، وبخاصة ظلم الأولياء الصالحين، فهم جيران الله، وهم عواد الله، والله أحق أن يغضب لجيرانه.

٤. كان الأمراء في عهده خيار الأمة، ثم أشار إلى فُشُوِّها وانتشارها حتى ينالها من ليس لها بأهل.

٥. قال المؤرخون: وفي هذه الغزوة موقف للصديق تلمس فيه قوة نفس الصديق رضي الله عنه وقدرته على بناء الرجال واحترامهم:

فقد روى عبدالله بن بريده قال: بعث رسول الله ﷺ (عمرو بن العاص) في سرية ذات السلاسل وفيهم أبوبكر وعمر، فلما انتهوا إلى مكان الحرب، أمرهم الأمير أن لا ينوِّروا ناراً، فتضايق عمر بن الخطاب، وهَمَّ أن يكلم عمرو بن العاص، فنهاه الصديق وقال له: (إن الرسول ﷺ لم يستعمله عليك إلا لعلمه بالحرب فهدأ عمر وسكت). رواه الحاكم في المستدرك، وهو صحيح الإسناد.

ثالثاً: فتح مكة: سنة ثمان للهجرة.

قال المؤرخون: كان من بنود اتفاقية الحديبية أن من أراد الدخول في عقد رسول الله من القبائل دخل، ومن أراد الدخول في عقد قريش دخل. وأسرعت قبائل خزاعة فدخلت في عقد النبي ﷺ وعهده. وأسرعت قبائل بكر فدخلت في عقد قريش وعهدها.وشاء الله عز وجل أن رجلاً من خزاعة سمع رجلاً من بكر ينشد شعراً في هجاء النبي ﷺ فضربه الخزاعي فشجه، فهاج الشرُّ بينهم، فثارت بكر على خزاعة وكبسوهم ليلاً عند ماء يقال له ـ الوتير ـ وهو قريب من مكة، وأعانت قريش قبيلة بكر بالسلاح والدواب، وقالت قريش: الوقت ليل، ومحمد لا يرانا، فأعينوا بكراً، فأعانوهم حقداً على رسول الله ﷺ، وقاتل بعض أهل مكة مع بكرٍ سراً. تضايقت خزاعة، وانحازوا عند القتال إلى الحرم لائذةً به، وكانوا قد أسلموا ولكن بكراً لم تحترم الحرم وقتلت من خزاعة في الحرم، وبهذا تكون قريش قد نقضت العهد المتفق عليه في الحديبية. وخرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله ﷺ في المدينة وقام عليه وأنشد، وكان النبي بالمسجد بين ظهراني الناس فقال:

اللهــــــم إني ناشــــــد محمـــــــدا | حلـــــفَ أبينــــا وأبيــــه الأتلـــــدا[1]
قـــــد كنـــــتم وُلْـــــداً وكنـــــا والـــــدا | ثُمَّـــــتَ أســـــلمنا فلـــــم ننـــــزع يـــــدا
فانـــــصر هـــــداك الله نـــــصراً أعتـــــدا | وادعُ عبـــــاد الله يـــــأتوا مـــــددا
فـــــيهم رســـــول الله قـــــد تجـــــردا | إن ســـــيم خـــــسفاً وجهـــــه تَربَّـــــدا
في فيلـــــق كـــــالبحر يجـــــري مُزبـــــدا | إن قريـــــشاً أخلفـــــوك الموعـــــدا
ونقـــــضوا ميثاقـــــك المؤكـــــدا | وجعلـــــوا لي في كـــــداء رصـــــدا
وزعمـــــوا أن لـــــست أدعـــــو أحـــــدا | وهـــــم أذل وأقـــــل عـــــددا
هـــــم بَيَّتونـــــا بـــــالوتير هُجَّـــــدا | وقتَّلونـــــا رُكعـــــاً وسُـــــجدا

قال ابن إسحاق: فقال رسول الله ﷺ: «نُصرت يا عمرو بن سالم»، ثم عرض لرسول الله ﷺ عنان من السماء فقال ﷺ: «إن هذه السحابة لتستَهلُّ بنصر بني كعب».

قال المؤرخون: ثم خرج وفد آخر من خزاعة إلى النبي ﷺ بالمدينة على رأسهم (بديل بن ورقاء) فأخبروه بما أصابهم من قريش، ثم انصرفوا راجعين، فقال النبي ﷺ للناس: «كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشُدَّ العقد ويزيد في المُدَّةِ».

وعند عودة (بديل بن ورقاء) إلى مكة لقي (أبا سفيان بن حرب) بعسفان قد بعثته قريش إلى النبي ﷺ ليشدَّ العقد ويزيد في المدة وقد ندموا على ما صنعوا بخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ. فلما رأى أبو سفيان بديل بن ورقاء قال: من أين أقبلت يا بديل؟ (وقد شك أنه جاء من عند رسول الله ﷺ) فقال بديل: تَسيَّرتُ في خزاعة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي، قال: أوجئت محمداً؟ قال بديل: لا، فلما راح بديل إلى مكة قال أبو سفيان: لئن كان جاء بديل المدينة لقد علف بها النوى، فأتى مبرك راحلة بديل، فأخذ من بعرها ففتَّه، فرأى فيه النوى فقال: (أحلف بالله لقد جاء بديل محمدا).

وخرج أبو سفيان إلى المدينة للقاء رسول الله ﷺ، ودخل على ابنته (أم حبيبة زوج رسول الله ﷺ)، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال أبو سفيان: يا بنيه، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبتِ به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت

(١) حلف قديم بين خزاعة وعبد المطلب.

رجل مشرك نجس فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ فقال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شرٌّ، ثم خرج إلى رسول الله ﷺ يكلمه وكان النبي ﷺ قد تجهز للخروج إلى مكة وكتم الخبر، ودعا أن يعمي على قريش، وجاء أبو سفيان وقال: يا محمد: اشدد العقد وزد في المدّة. فقال النبي ﷺ: (ولذلك قَدِمتَ، هل كان من حدث قبلكم؟) فقال أبو سفيان: معاذ الله نحن على عهدنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغير ولا نبدل، ثم خرج يقصد مقابلة بعض الأصحاب.

يروي صاحب كتاب (الخليفة الأول): أن أبا سفيان دخل على الصديق يطلب معونته في تجديد العقد وزيادة مدة العهد، فقال أبو بكر: جواري في جوار رسول الله ﷺ؟. والله لو وجدت الذر تقاتلكم لأَعنتُها عليكم، ثم لم يرد عليه ثم دخل على عمر، فقال كلمة مشابهة لقول الصديق (والله لو لم أجد إلا الذرَّ لجاهدتكم به)، وكذلك رد علي رضي الله عنه ، ورد فاطمة رضي الله عنها .

ثم قام الصديق فدخل على ابنته عائشة رضي الله عنها وهي تغربل حنطة وقد خرج ﷺ للمسجد وقد أمرها النبي بأن تخفي الخبر.

قال لها الصديق: يا بنية لم تصنعين هذا الطعام؟ فسكتت، فقال الصديق: أيريد رسول الله أن يغزو؟ فصمتت، فقال الصديق: لعله يريد بني الأصفر ـ أي الروم ـ؟ فصمتت، فقال الصديق: لعله يريد أهل نجد، فصمتت، فقال الصديق: لعله يريد قريشاً، فصمتت، فدخل على رسول الله ﷺ وقال له: يارسول الله أتريد أن تخرج مخرجاً؟ قال: نعم، قال: لعلك تريد بني الأصفر؟ قال ﷺ لا، قال الصديق: أتريد أهل نجد؟ قال ﷺ: لا.

قال الصديق: فلعلك تريد قريشاً؟ قال ﷺ: نعم، قال الصديق: يا رسول الله أليس بينك وبينهم مدةٌ؟ قال ﷺ: «ألم يبلغك ما صنعوا ببني كعب» يعني بخزاعة أحلافه؟ وهنا قال الواقدي: سلّم الصديق للنبي وجهز نفسه ليكون مع القائد في هذه المهمة الكبرى، وخرج المهاجرون والأنصار لم يتخلف أحد بعد أن أخبرهم ﷺ.

قال المؤرخون: ودخل النبي ﷺ مكة عام الفتح، وكان بجانبه الصديق أبوبكر، وجاءت نسوة قريش يوم الفتح يضربن بخمرهن وجوه الخيل ليرددنها، فتبسم النبي ﷺ إلى أبي بكر وقال له: «يا أبا بكر كيف قال حسان بن ثابت»؟ فأنشد أبوبكر:

عَــــدِمنا خيلنـــــا إن لم تروهــــــا تثـــــير النقـــــع موعـــــدها كـــــداء
ينــــازعن الأعنــــة مــــصغيات علــــى أكتافهــــا الأســــل الظّــــماء
تظــــل جيادنــــــا متمطّـــــراتٍ يلطمهـــــــن بـــــــالخمر النــــساء
فإمــــا تعرضــــوا عنــــا اعتمرنــــا وكــــان الفـــــتح وانكــــشف الغطــــاء
وإلا فاصـــــبروا لجـــــلاد يـــــوم يعـــــين الله فيــــــه مـــــن يــــشاء
وجبريــــلٌ رســـــولُ الله فينــــا وروح القـــدس لـــيس لـــه كِفـــاء
وقـــال الله قـــد أرســـلتُ عبـــداً يقـــول الحـــق إن نقـــع الـــبلاء
شـــهدت بـــه فقومـــوا صـــدقوه فقلـــــتم لا نقــــــوم ولا نـــــشاء
ألا ابلـــغ أبـــا ســـفيان عنـــي مُغلغلـــــةً[1] فقــــد بـــــرح الخفـــــاء

وقد روي هذا البيت في ديوان حسان بغير هذه الرواية حيث قال:

ألا ابلـــغ أبـــا ســـفيان عنـــي فأنــت موجــوف[2] نَخِــبٌ هــواء
بـــأن ســـيوفنا تركتـــك عبـــداً وعبـــد الـــدار ســـادتها الإمـــاء

ثم كان الفتح ولم تحملْ مجابهةً مع المشركين إلا في منطقة اسمها الليط أسفل مكة، حيث كان بعض أعيان قريش من المشركين قد جمعوا لصد رسول الله ﷺ عن مكة، ووقفوا في مكان اسمه (الخندمة) ليقاتلوا وكان فيهم رجل من أعيانهم اسمه (حِماسُ بن قيس) كان قد أعد سلاحاً قبل دخول النبي ﷺ مكة، ويصلح منه، فقالت له زوجته، لماذا تعد ما أرى؟ قال: لمحمد وأصحابه، فقالت: والله ما أراه يقوم لمحمد وأصحابه شيء، قال لها زوجها حِماس: إني لأرجو أن أُخدِمَكِ بعضهم، ثم أنشد:

إن يقبلـــوا اليـــوم فـــما لي علـــة هـــذا ســـلاح كامـــل وألَّـــة[3]
وذو غراريـــــن سريع السلة[4]

---

(١) رساله تنتقل من بلد إلى بلد.

(٢) جبان.

(٣) حربة عريضة النصل

(٤) يعني سيفاً له حدان.

ثم حضر حماس هذا المعركة في الخندمة مع المشركين وهم (صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو...)، ولكن كانت هزيمتهم على يد خالد سريعة وكان حِماس ممن انهزم حتى دخل بيته، ثم قال لامرأته: أغلقي علي بابي، قالت له: فأين ما كنت تقول، أين الخادم؟ فقال:

إنك لو شهدت يوم الخندمة	إذ فرَّ صفوان وفرَّ عكرمة
وأبو يزيد قائم كالمؤتمة	واستقبلتهم بالسيوف المسلمة
يقطعن كل ساعد وجمجمة	ضرباً فلا يسمع إلا غمغمة
لهم نهيتُ[1] خلفنا وهمهمة	لم تنطقي في اللوم أدنى كلمة

وفي قصة المشرك (حماس بن قيس) الذي كان يعد سلاحه لقتال محمد وأصحابه، وينظر كل يوم في المرآة واعداً زوجته بخادم من كبار أصحاب محمد، ثم رأينا مصيره. ـ وهذه المقارنة بين جند الله وجند الجاهلية ـ والقصة هذه تذكرنا بحرب سنة / ١٩٦٧/ بما كان يجري على ألسنة مذيعين من دولة عربية كبرى، أننا سنحتفل، وستغني مغنية مشهورة في تل أبيب بعد ساعات، في عهد زعيم عربي كان ملء السمع والبصر، تهتف له الملايين، ثم كان كأمسِ الدابر، وتغنى الشعراء بهزيمتنا لا بنصرنا (رمل سيناء.. كبرياء الصحراء).

رابعاً: يوم حنين: سنة ثمان للهجرة.

قال المؤرخون: بعد تسعة عشر يوماً من دخول النبي ﷺ مكة، وفي يوم السبت السادس من شهر شوال سنة ٨ هـ تحرك النبي ﷺ إلى غزوة حنين.

قال صاحب كتاب (الرحيق المختوم)[2]: «فوجئت القبائل العربية المجاورة لمكة والتي لا زالت على وثنيتها بما فتح الله لرسوله، وكان من أشد هذه القبائل تعززاً بتراث الجاهلية وتمسكاً بأعرافها وعاداتها، مع كونها من كبريات القبائل وأكثرها عدداً وعُدداً (قبيلة هوازن)». وقد ذكر الواقدي في «مغازيه»: أن هوازن أقامت سنة تجمع الجموع من قبائل العرب حولها لحرب رسول

(١) نوع من صياح الأسد.

(٢) المباركفوري.

الله ﷺ، فلما فاجأها انتصاره ﷺ في مكة زاد غيظها وحنقها.

قال المؤرخون: ثم انضمت إلى هوازن قبيلة ثقيف، وثقيف وإن كانت أقل من هوازن عدداً ومالاً، لكنها كانت أشد منها عناداً وفجوراً وصلابة في الكفر والوثنية كما قال الصادق عرجون[1]. اجتمعت هوازن وثقيف وجشم وقبائل كثيرة تحت قيادة مالك بن عوف النصري من هوازن، وقرر مالك السير لقتال رسول الله ﷺ».

قال المؤرخون: لما سار مالك بن عوف النصري لحرب المسلمين ساق مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، ومشى حتى نزل (أوطاس) وهو وادٍ في ديار هوازن بالقرب من وادي حنين، وكان في الناس مع مالك شيخ كبير ليس له إلا رأيه ومعرفته بالحروب، مع تجربته في القتال هو: (دريد بن الصمة). وكانت هوازن لما اجتمعت على قتال المصطفى طلبت منه الرئاسة عليها، فقال لهم دريد: «وما ذاك؟ وقد عمي بصري، وما أَستمسكُ على ظهر الفرس ولكن أخرج معكم لأشير عليكم». وكان يُحمل في شجارٍ له ـ وهو يشبه الهودج ولكنه مكشوف الأعلى ـ. فلما وصلوا إلى أوطاس الذي هو قريب من حنين وقفوا فيه، فلما نزلوا قال دريد بن الصِّمة: بأي وادٍ أنتم؟ قالوا: بأوطاس، قال: نِعمَ مجال الخيل، لا حَزْنٌ ضَرِسٌ،.لا مرتفعٌ حجارته محدَّدَةٌ، ولا سَهْلٌ دَهِسٌ ـ ولا لين كثير التراب.، مالي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير، ويعار الشاء ـ صوتها ـ قالوا: ساقَ (مالك بن عوف) مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، قال دريد: أين مالك؟ فحضر مالك بن عوف فقال له دريد: إنك أصبحت رئيس قومك، وإنك تريد أن تقاتل رجلاً كريماً، قد أوطأ العرب، وخافته العجم، وإن يومك هذا كائن له ما بعده من الأيام، ما حملكَ على ماصنعتَ؟ ـ يعني سوق الأموال والأهل ـ. قال مالك: سقت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم ليقاتل كل رجل منهم عن أهله وماله وولده.

قال المؤرخون: وكان (مالك بن عوف) شاباً غريراً لم يبلغ الثلاثين من عمره لم يعرف من تجارب الحروب شيئاً، دفعته حماسة الشباب وكثرة حشود قومه إلى هذا الغرور.

قال المؤرخون: لما سمع (دريد بن الصِّمة) جواب مالك انقض عليه ـ أي زجره كما يزجر

---

(١) في كتابه (محمد رسول الله).

الدابة ـ وقال له: «راعي ضأنٍ والله، وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضِحْتَ في أهلك ومالك. يا مالك: ارفعهم إلى مُتَمَنَّع بلادهم، وعُليا قومهم، ثم الق الصُّباء على متون الخيل؛ فإن كانت لك لحق بك من ورائك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك». قال مالك: «لا والله، لا أفعل ذلك، إنك قد كبرت وكبر عقلك، والله لَتُطيعنَّني يا معشر هوازن أو لأتكئنَّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهري»، وكره أن يكون لدريد بن الصمة فيها ذِكْر، أو رأي، فقال القوم: أطعناك، فقال دريد بن الصمة: هذا يوم لم أشهده، ولم يفتني.

ياليتني فيهـــا جَذَع   أَخُبُّ فيها وأضعْ(١)

أقود وطفاء(٢) الزَّمَعْ   كأنهـــا شاةٌ صَدَعْ

قال أهل السِّير: خرج رسول الله ﷺ من مكة في اثني عشر ألفاً من المسلمين، عشرة آلاف ممن كانوا معه في فتح مكة، وألفان من أهل مكة ممن أسلموا يوم الفتح وهم حديثو عهدٍ بالإسلام.

قال الواقدي: لما كان ثلث الليل عمد (مالك بن عوف) قائد هوازن إلى أصحابه فعبأهم في وادي حنين، وهو وادٍ حطوط ـ أي منحدر ـ ذو شعاب ومضايق أجوف ـ أي متسع ـ، وجعلهم كمائن في منحدرات الوادي وشِعابه ومضايقه، وقال لهم مالك: اذا رأيتموهم . للمسلمين ـ فشدوا عليهم شَدَّةَ رجل واحد.

قال المباركفوري: انتهى الجيش الإسلامي إلى حنين ليلة الثلاثاء لعشر خلون من شوال ٨ هـ، وكان مالك بن عوف قائد هوازن قد سبقهم إلى وادي حنين، وكمن الكمائن من أول الليل، وعند السحر عبأ رسول الله ﷺ جيشه وعقد الألوية والرايات، وبدؤوا ينحدرون في عماية الصبح ولا يدرون بوجود الكمائن في المضايق، وبينما هم ينحطون انهالت عليهم النبال من كل جانب، وشدت عليهم هوازن شدة رجل واحد، فانكشف الناس ـ أي انفضوا وانهزموا ـ وانحاز رسول الله ﷺ إلى جهة اليمين ثم قال: (أيها الناس هلموا إلي، أنا رسول الله أنا محمد بن

---

(١) نوعان من السير.

(٢) فرس طويلة الشعر قوية كأنها وَعْل.

عبد الله). وتخلخلت الصفوف.

ولكن من كان سبب خلخلة صفوف المسلمين؟

والجواب: هم الطلقاء الذين أسرعوا بالهزيمة إلى مكة يخبرون أهلها بأن محمداً قد قتل وتفرق أصحابه وأظهروا الشماتة، حيث قال (جبل بن الحنبل) أخو صفوان بن أمية لأمه: ألا (بَطلَ السِّحرُ). وقال (شيبة بن عثمان بن أبي طلحة) اليوم أُدركُ ثأري أقتلُ محمداً وكان أبوه قتل يوم أحد. قال: «لما قلت هذه الكلمة، أقبل شيء حتى غشي فؤادي، فعلمت أنه ممنوع مني، فالتفت إلي ﷺ وعرف ما أردت فمسح صدري وذهب الشك».

قال ابن إسحق: لما رأى من كان معه ﷺ من جفاة أهل مكة ما وقع، وتكلم رجال بما في أنفسهم (فقال أبوسفيان بن حرب)، وكان إسلامه بعد مَدخولاً: (لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وإن الأزلام لمعه في كنانته). قال جابر بن عبدالله: لما انطلق الناس منهزمين، بقي مع النبي ﷺ نفر من المهاجرين والأنصار، وأهل بيته ﷺ، وكان أبو بكر وعمر وعلي والعباس عم النبي ﷺ على رأس من ثبت، وكذلك أسامة بن زيد. عندها قال النبي ﷺ لعمه العباس ـ كما في «صحيح مسلم» (اصرخ، يا معشر الأنصار، يا أصحاب السمرة..) قال: فأجابوا: لبيك، لبيك بعد أن سمعوا من مسافات بعيدة فأقبلوا سراعاً كأنهم الإبل إذا حَنَّتْ إلى أولادها، وهم يقولون: لبيك، لبيك، حتى أن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع انحدر عنه، وتركه، وأخذ درعه يقذفها في عنقه وأخذ سيفه وترسه يَؤُمُّ الصوت، وازدحموا على رسول الله ﷺ ازدحاماً شديداً حتى كأنه ﷺ في حُرَجَةٍ. أي مضيق. قال العباس: فلرماح الأنصار كانت أخوف عندي على رسول الله ﷺ من رماح الكفار لشدة ما أحاط الأنصار برسول الله ﷺ وهم يقاتلون عنه، ويمحون ما كان من هفوتهم حين تولوا أول الأمر، ثم أمرهم النبي ﷺ أن يَصدقوا الحملة على المشركين، فقاتلوهم قتالاً شديداً جعل رسول الله ﷺ يشرف عليهم مسروراً بشجاعتهم وثباتهم وقال جملة من أفصح الكلام لم تُسمع من أحد قبله ﷺ وهي «الآن حَمِيَ الوطيس». فكانت: (كرَّة صارمة بعد فرة عابرة) كما قال الصادق عرجون. ثم استقبل النبي ﷺ القوم وقاتلهم وهو يقول: (أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب).

قال المؤرخون: لما استقبل النبي ﷺ بوجهه المشركين لقتالهم قال لبغلته (الدُّلدل): (أُلْبدِي

دلدل)، قالوا: فوضعت بطنها على الأرض حتى أخذ النبي ﷺ حفنة من تراب فرمى بها في وجوه المشركين وهو يقول: (شاهت الوجوه)، فهزمهم الله هزيمة منكرة.

قال صاحب كتاب:(هذا الحبيب يا محب): فما رجع الناس ممن فروا بعيداً إلا والأسارى في الحبال عند رسول الله ﷺ وعندها قامت امرأة مسلمة وقد سُرَّت بهذا المنظر فقالت منشدة:

غلبت خيلُ الله خيلَ اللات   وخيله أحقُّ بالثبات

قال صاحب كتاب (أبو بكر الصديق): وفي هذه المعركة سنَّتْ امرأة مسلمة قاعدة من قواعد الحرب. قال عبدالله بن أبي بكر: فالتفت رسول الله ﷺ ـ أثناء المعركة ـ فرأى (أم سليم بن ملحان)، هي أم أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ، اشتهرت بكنيتها (أم سليم) واسمها سهلةُ وهي من عقلاء النساء كانت مع زوجها (أبي طلحة) هو أنصاري خزرجي اسمه زيد بن سهل وهو القائل:

أنا أبو طلحة واسمي زيدُ   وكُلُّ يوم في سلاحي صيدُ

حازمةً وسطها ببُردٍ لها وإنها لحامل، ومعها جمل أبي طلحة وقد خشيتُ أن يُعِزُّها الجمل ـ أي يغلبها ـ فأدنت رأسه منها فأدخلت يدها في خزامته مع الخطام (الخزامة: حلقة تصنع من شعر وتجعل في أنف البعير)، فقال رسول الله ﷺ لها: أم سليم؟ قالت: نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله: اقتلْ هؤلاء الذين ينهزمون عنك، كما تقتل هؤلاء الذين يقاتلونك، فإنهم لذلك أهلٌ، فقال رسول الله ﷺ: (أو يكفي الله يا أم سليم؟) ومعها خنجر في يدها!! فقال لها أبو طلحة: ما هذا معك يا أم سليم؟ قالت: خنجر، أخذته معي، إن دنا مني أحد من المشركين بعجتُه به، فقال أبو طلحة: ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أم سليم الرميصاء؟ ـ وهي كلمة تَحَبُّب ـ

لقد سنت أم سليم قاعدة من قواعد الحرب (حين جعلت يُقتل مَنْ ينهزم) الطنطاوي. والآن ينبغي أن نشير إلى أمر حصل في هذه الغزوة يدلنا على مكانة الصديق، ذلك ما أشار إليه المؤرخون بقولهم:

(فتوى للصديق بين يدي رسول الله ﷺ يوم حنين):

قال أبو قتادة: رأيت يوم حنين رجلين يقتتلان مسلماً وكافراً، وإذا رجل مشرك يختل من وراء المسلم يريد أن يعين المشرك على قتل المسلم، فأتيته فضربت يده فقطعتها واعتنقني بيده

الأخرى فوالله ما أرسلني حتى وجدت الدم فكاد يقتلني لولا أن الدم نزفه فسقط فضربته، وأشغلني عنه القتال فلم أسلبه ومرّ به رجل من أهل مكة فسلبه فلما وضعت الحرب أوزارها، وفرغنا من القوم قال رسول الله ﷺ: (من قتل قتيلاً فله سلبه). يقول أبو قتادة: فقلت: يا رسول الله، والله لقد قتلت قتيلاً فشغلني عن سلبه القتال فلم أدر من سلبه؟ فقال رجل من أهل مكة: صدق يا رسول الله، وسلب ذلك القتيل عندي فأرضه عني من سلبه فقال أبو بكر في حضرة النبي ﷺ: لا والله لا يعطيه أُصَيْبِغٌ من قريش ـ أي رجل ضعيف ـ والأصيبع: نوع من الطيور ضعيف هزيل ـ. ويدع أسدا من أُسد الله يقاتل عن الله ورسوله تقاسمه سلبه اردد عليه سلب قتيله. فقال رسول الله ﷺ: (صدق اردد عليه). قال أبو قتاده: فأخذته منه فبعته فاشتريت به مخرفاً ـ بستاناً ـ فكان أول مال تملكته في الإسلام.

قال صاحب «الرياض النضرة في مناقب العشرة»: إن مبادرة الصديق في الفتوى والقَسَم على ذلك، وردع ذلك المكي الذي يريد أن ياخذ حقاً ليس له، كل ذلك في حضرة رسول الله ﷺ، ثم يصدقه رسول الله ﷺ فيقول: (صدق اردد عليه)، ويحكم النبي ﷺ بقولِ ـ الصديق ـ لا شك أن ذلك خصوصية شرفٍ لم تكن لأحد غيره.

ويقول صاحب كتاب: (التاريخ الإسلامي للحميدي): في موقف الصديق دلالة على حرصه على إحقاق الحق والدفاع عنه، ودليل على تقديره لرابطة الأخوة الإيمانية وأن منزلتها رفيعة.

في غزوة الطائف:

قال المؤرخون: هذه الغزوة في الواقع والحقيقة امتداد لغزوة حنين، لأن معظم المنهزمين من هوازن وثقيف دخلوا الطائف مع قائدهم المخذول (مالك بن عوف النصري) وتحصنوا بها، فسار إليهم رسول الله ﷺ بعد فراغه من حنين، وجمع ﷺ الغنائم التي غنمها من هوازن بالجعرانة، في نفس الشهر من شوال سنه ٨ هـ وأحاط ﷺ بحصن الطائف، وحين ذلك قال كعب بن مالك: شاعر الرسول ﷺ

قـضينا مـن تهامـة كـل ريـبٍ وخيـبر ثـم أجمعنـا الـسيوفا
نُخَبِّرهـا ولـو نطقـت لقالـت قـواطعهن دوسـاً أوثقيفـاً
وأنَّـا قـد أتينـاهم بزحـف يحيط بـسور حـصنهم صـفوفا
رئيـسهم النبـي وكـان صـلبا نقـي القلـب مـصطبراً عزوفـا
رشـيد الأمـر ذا حكـم وعلـم وحلـم لم يكـن نِزقـاً خفيفـا
نطيـع نبينـا ونطيـع ربـاً هـو الـرحمن كـان بنـا رؤوفـا

حاصر النبي ﷺ الطائف قرابة عشرين يوماً، وقيل أربعين كما في مسلم.

يقول ابن هشام في سيرته: وقد بلغني أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر الصديق أثناء حصاره ﷺ لثقيف في الطائف: (يا أبا بكر، إني رأيت أني أُهديت لي قعبة ـ قدح ـ مملوءةٌ زبداً، فنقرها ديك فهراق ما فيها). فقال أبو بكر: ما أظن أن تدرك منهم يومك ما تريد. فقال ﷺ: (وأنا لا أرى ذلك). واستشهد في حصار الطائف من المسلمين اثنا عشر رجلاً خمسة من الأنصار، وسبعة من قريش فيهم (عبدالله بن أبي بكر)، واسمع معي إلى قصة استشهاد عبدالله بن أبي بكر وموقف رائع للصديق في هذه القصة يدلك على إيمان فذّ ليس له نظير عند الناس حاشا الأنبياء.

روى القاسم بن محمد كما ذكر محمد أحمد عاشور في كتابه[1] قال: «رُمي عبدالله بن أبي بكر بسهم يوم الطائف فجرح، فحُمِل إلى المدينة، ثم انتقض عليه جرحه بعد وفاة رسول الله ﷺ بأربعين ليلة فمات، وقدم وفد ثقيف على الصديق، وكان قد احتفظ بالسهم الذي قتل ولده، فأخرج السهم إلى الوفد، فقال: هل يعرف هذا السهم منكم أحد؟ فقال: (سعيد بن عبيد من بني عجلان) هذا سهم أنا بريته ورشته، وعقبته وأنا رميت به. فقال الصديق: فإن هذا السهم الذي قُتل به عبدالله ولدي فالحمد لله الذي أكرمه بيدك، ولم يُهْنِكَ بيده، فإنه أوسع لكما».

وفد ثقيف على رسول الله وإسلامهم:

قال أهل السيرة: لما انصرف رسول الله ﷺعن الطائف ومعه أصحابه وأسرعوا السير إلى المدينة، لحقهم فى الطريق (عروة بن مسعود) الثقفي، أحد كبار قومه، وكان رئيس وفد المشركين

---

(١) خطب الصديق.

في مفاوضة النبي في الحديبية وله يد طيبة في تقرير الصلح مع النبي ﷺ، وكان يُشَبَّهُ في صورته بالمسيح. لَحَقَ النبيَّ وأدركه قبل أن يصل إلى المدينة فأسلم وطلب من النبي ﷺ أن يرجع إلى قومه أن يدعوهم إلى الإسلام، فقال له رسول الله ﷺ: «إنهم قاتلوك» لِمَا علم ﷺ من تقلُّبهم ونخوتهم فقال عروة للنبي ﷺ: يا رسول الله! أنا أحب إليهم من أبكارهم وكان كذلك فيهم محبباً مطاعاً. فخرج يدعو قومه إلى الإسلام ورجا أن لا يخالفوه لمكانته عندهم. فلما أشرف لهم على علية (غرفة له). وقد دعاهم إلى الإسلام. وأظهر لهم أنه أسلم رموه بالنبل من كل وجه، فقتلوه. فقال له بعض أحبائه: ماترى في دمك؟ أي ممن نثأر لك، فقال لهم عروة حتى يصرفهم عن مقصدهم: كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إلي، فليس فيَّ إلا مافي الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحلوا عنكم، فادفنوني معهم. وقد قال فيه رسول الله ﷺ لما بلغه استشهاده: (إن مثله في قومه كمثل صاحب يس في قومه، دعا قومه إلى الله فقتلوه).

قال المؤرخون: بعد مقتل (عروة بن مسعود) أقامت ثقيف أشهراً لا تتقدم ولا تتأخر، ورأوا مسارعة الناس للدخول في الإسلام، وصاروا في عزلة، وعلموا أن ما نصحهم به (خالد بن الوليد) حين أرسله رسول الله ﷺ بألف من المسلمين لحصار الحصن، وكانوا قد تحصنوا فيه وجمعوا من المؤونة ما يكفيهم لأكثر من سنة. دنا خالد من الحصن وأحاط به لعله يجد منفذاً ينفذ منه فلم يعثر على منفذ، فكلمهم خالد من أسفل الحصن ونادى فيهم: ينزل إليَّ أحدكم أكلمه وهو آمن حتى يرجع إليكم، أو اجعلوا لي مثل ذلك وأدخل إليكم أعلمكم، فقالوا له: لا ينزل إليك منا أحد، ولا تصل إلينا، ونفخ الشيطان في معاطسهم نفخة الكِبر والفجور فقالوا: إن صاحبكم ـ أي محمداً ﷺ ـ لم يلق قوماً يحسنون القتال غيرنا. قال خالد: ـ وقد أراد أن يكسر عُنجهيتهم ـ اسمعوا مني: نزل رسول الله ﷺ بأهل الحصون والقوة بيثرب وخيبر وبعث رجلاً واحداً إلى فدك فنزلوا على حكمه، وأنا أحذركم مثلما نزل بقريظة، وفتح مكة، وأوطأ هوازن في جموعها، وأنتم في حصن واحدٍ في ناحيةٍ من الأرض، لو ترككم رسول الله ﷺ لقتلكم مَنْ حولكم ممن أسلم، فقالوا عناداً وكفراً: لا نفارق ديننا فتركهم خالد ورجع إلى كتيبته.

قال صاحب كتاب (محمد رسول الله): تذكرت ثقيف بعد أشهر ما قال لهم خالد، وعلموا أنه حقٌّ مشاهدٌ، فهم محصورون في حصن واحد، لو تركهم رسول الله ﷺ لقتلهم من أسلم حولهم، وشعروا بالعزلة، وعقدوا مؤتمراً لزعمائهم وقال بعضهم لبعض: ألا ترون؟ إنه لا يأمن

لكم سربٌ، ولا يخرج منكم أحدٌ إلا اقتطع به، فقرروا إرسال وفد منهم إلى النبي ﷺ ليعلنوا إسلامهم فأرسلوا وفداً برئاسة (عبد ياليل بن عمرو)، فلما اقترب الوفد من المدينة النبوية ونزلوا مكانا يقال له (قناة)،أو(وادي قناة) أحد أودية المدينة الثلاثة فيه زراعة وحرث ومال، لقيهم (المغيرة بن شعبة)، وهو ثقفي من جماعة (عروة بن مسعود) وكان للمغيرة موقف شديد منه حين مَسَّ لحية النبي ﷺ حين كتابة عقد صلح الحديبية. كان المغيرة في ذلك المكان حين وصل وفد ثقيف يرعى في نوبة له ركاب أصحاب رسول الله ﷺ، وكانت رعيتها نُوَباً على أصحابه، تحقيقاً للمساواة بين أصحابه ﷺ.

قال المؤرخون: فرح المغيرة بن شعبة بقدوم وفد قومه من ثقيف للإسلام فرحاً شديداً وترك الركاب التي يرعاها وضَبَرَ- أي وثب وقفز - ليبشر رسول الله ﷺ بقدومهم عليه، فلقيه أبوبكر الصديق قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ فأخبره عن وفد ثقيف، وأنهم أتوا إلى رسول الله يريدون البيعة والإسلام.

يقول صاحب كتاب (محمد رسول الله): وكان الصديقُ أعلمَ الناس بما يُدخلُ السرور على رسول الله ﷺ فقال للمغيرة: أقسمت عليك بالله لا تسبقني إلى رسول الله حتى أكون أنا الذي أحدثه، لعلمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بشدة رغبته ﷺ في قدوم وفد ثقيف مسلمين، فأراد الصديق أن يكون هو الذي يبشر النبي ﷺ قبل كل أحد ليدخل عليه السرور بقدومهم، ففعل المغيرة وحقق رغبة الصديق وأقبل أبوبكر على رسول الله ﷺ فأخبره بقدوم وفد ثقيف، وأنهم قدموا مسلمين، ورجع المغيرة إلى قومه مرحباً بهم معلماً لهم كيف يحيون رسول الله ﷺ، ولكنهم تمسكوا بتحية الجاهلية، وطلبوا مطالب رُفضتْ من جهة رسول الله ﷺ، (كطلبهم عدم هدم صنمهم اللات إلا بعد ثلاث سنين ثم تنازلوا إلى شهر فأبى ﷺ ولو ساعة من نهار وكان غايتهم من ذلك تُماشي غضبَ عوامهم ونسائهم).

ولكنهم بعد أن أسلموا وبايعوا رسول الله ﷺ بدأت بشاشة الإيمان تخالط قلوبهم، ورأوا ما عليه أصحاب رسول الله ﷺ من العمل والعبادة وسمعوا القرآن والحكمة ينشرها النبي ﷺ وأصحابه إيماناً وعلماً وأدباً وتشريعاً وتربية، حرصوا على التفقه في الدين، وكان من أشدهم حرصاً على العلم والعمل، شابٌّ هو أحدثهم سناً هو عثمان بن أبي العاص. ولما أراد النبي ﷺ أن يؤمر عليهم أحدهم، أشار الصديق على رسول الله ﷺ بهذا الشاب، وقال أبوبكر: «يا رسول الله

إني رأيت هذا الغلام من أحرصهم على التفقه في الإسلام، وتعلم القرآن». وفعلاً فقد كان هذا الفتى عثمان بن أبي العاص، كلما نام قومه بالهاجرة ـ نصف النهار عند اشتداد الحر ـ أتى إلى رسول الله ﷺ فسأله في الدين واستقرأه القرآن حتى فقه في الدين وعلم، وكان إذا وجد رسول الله ﷺ نائماً قصد إلى أبي بكر وكان يكتم ذلك عن أصحابه، فأعجب ذلك رسول الله ﷺ وعجب منه وأحبه، كما ذكر الذهبي في كتابه «تاريخ الإسلام».

مشاهد الصديق في غزوة تبوك:

كانت غزوة تبوك في رجب سنه ٩هـ، وسميت بذلك تسمية لها باسم عين ماء هناك، وهي تسمى كذلك بغزوة العسرة كما عند البخاري أخذ من قوله تعالى في مدح الذين نهضوا مع رسول الله ﷺ سراعاً لهذه الغزوة مطيعين سامعين، وهم يعلمون مافيها من شدائد، وذلك قوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴿١١٧﴾ ﴾ (١).

خرج رسول الله ﷺ بجيش عظيم بعد أن انتهت المتاعب الداخلية ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وتوضح الحق واندحر الباطل، إلا أنه ظهر عدو خارجي تعرض للمسلمين ـ وهم الروم أكبر قوة عسكرية على ظهر الأرض يومها ـ وذلك بقتلهم سفيرَ رسول الله ﷺ (الحارث بن عمير الأزدي) حين كان يحمل رسالة رسول الله ﷺ إلى عظيم بصرى. خرج رسول الله بثلاثين ألفا من المقاتلين لقتال الروم بالشام، وعندما تجمع المسلمون عند ثنية الوداع بقيادة رسول الله ﷺ، اختار الأمراء والقادة، وعقد الألوية والرايات لهم، فأعطى لواءه الأعظم لأبي بكر. وقد ظهرت للصديق مواقف ومشاهد في هذة الغزوة، منها:

- **أولاً**: موقفه من وفاة الصحابي عبدالله ذي البجادين: قال عبدالله بن مسعود: قمت في جوف الليل وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، قال: فرأيت شعلة من نار من ناحية المعسكر، قال: فاتبعتها أنظر إليها، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وإذا عبدالله ذو البجادين المزني قد مات، وإذا هم حفروا له، ورسول الله في حضرته وأبوبكر وعمر يدليانه إليه، وهو ﷺ يقول: (أَدْنِيا إليَّ أخاكما)، فدلياه إليه ﷺ، فلما هيأه بشقه قال ﷺ: (اللهم إني أمسيت راضياً عنه فارضَ عنه)، قال الراوي وهو عبدالله بن مسعود: (ياليتني كنت صاحب الحفرة)، وكان الصديق إذا

---

(١) التوبة: ١١٧.

أدخل الميت اللحد قال: (بسم الله وعلى ملة رسول الله ﷺ وباليقين وبالبعث بعد الموت).

- **ثانياً**: ومنها طلبه رضي الله عنه من النبي ﷺ الدعاء للمسلمين في هذه الغزوة: روى ابن حبان، في كتاب الجهاد، باب غزوة تبوك قال: قال عمر بن الخطاب: خرجنا إلى تبوك في قنطٍ شديد، فنزلنا منزلاً وأصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعتصر فرثه فيشربه ثم يجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله قد عودك في الدعاء خيراً، فادع الله، فقال النبي ﷺ: «أتحب ذلك؟» قال الصديق: نعم، فرفع ﷺ يديه فلم يردهما حتى قالت السماء ـ أي تهيأت لإنزال مائها ـ فأظلت ـ أي أنزلت مطراً خفيفاً ـ ثم سكبت فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فما جاوزت المعسكر.

وهنا لا بد أن نشير إلى أمر ذكره المؤرخون وأصحاب السيرة، وهو نظرة على (غزوات النبي ﷺ) وهذه النظرة وإن لم يكن لها صلة بمشاهد ومواقف الصديق، إلا أنها تلقي ضوءاً كاشفاً يظهر لنا الفارق الكبير بين حروبه ﷺ وبين حروب غيره.

قال المؤرخون: وبغزوة تبوك التي كانت في رجب سنة تسع للهجرة النبوية الشريفة انتهت الغزوات النبوية التي بلغ عددها سبعاً وعشرين غزوة كما قال صاحب كتاب (زاد المعاد لابن القيم). وعند اللواء الركن (محمود شيث خطاب) أنها ثمان وعشرون غزوة، وأن السرايا والبعوث كانت ستين، كما ذكر صاحب كتاب ـ رحمة للعالمين[1] ـ ولم يكن في كل هذه البعوث والسرايا قتال.

قال الندوي في كتابه «السيرة النبوية»: والعجيب أنه في جميع هذه السرايا والغزوات التي بعثها النبي ﷺ قد أُريقَ أقل دم عرف في تاريخ الحروب والغزوات، فلم تتجاوز القتلى كلها (١٠١٨ ألفاً وثمانية عشر قتيلاً) من الفريقين، وكانت هذه الغزوات والسرايا حاقنة لدماء لا يعلم عددها إلا الله. عاصمة لنفوسٍ وأعراض لا يحصيها إحصاء. باسطةً الأمن في أرجاء الجزيرة حتى استطاعت الظعينة ـ المرأة تظعن مع الزوج حيثما ظعن ـ أن ترتحل من الحيرة ـ بلد بالعراق خربت ـ حتى تطوف بالكعبة، والمراة من القادسية على بعيرها حتى تزور البيت لا تخاف بعدما كانت الجزيرة شبكة دقيقة من حروب وغارات، وتراث من قتال وثارات، لا تمشي فيها

---

(١) القاضي محمد سليمان المنصور فوزي.

قوافل الحكومات الكبيرة إلا بخفارة ساهرة.

يقول أبو الحسن الندوي في كتابه «السيرة النبوية»: كانت حروبه ﷺ مؤسسة على أصلين قرآنيين حكيمين:

- الأول: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۝١٩١﴾ (1).
- الثاني: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٧٩﴾ (2).

لأن العقوبات في الإسلام إنما شرعت لتمنع، ولم تشرع لتقع فالقصاص من القاتل عبرة لغيره، وحماية لسائر أفراد المجتمع فحروبه ﷺ كانت خاضعة لآداب خلقية، وتعليمات رحيمة جعلتها أشبه بعملية تأديب منها بعملية تعذيب. ـ لا تغدروا ولا تَغِلُّوا ـ.

قارن ـ يا عبدالله ـ بين قتلى حروب النبي ﷺ (١٠١٨ قتيلاً)، وبين الحروب العالمية الأولى والثانية. في الأولى كان العدد ستة ملايين وأربعمائة ألف وفي الثانية بين (٣٥) خمسة وثلاثين مليون وستين مليوناً كما في دائرة المعارف البريطانية، ج ١٩، صفحة ١٠١٣، حلقة (١٩٧٤) والمحقق في هذه الدائرة يشك في عدد القتلى في الحرب الأولى بكونه أكثر من ذلك لأن الفرنسيين والإنجليز لم يدخلوا أعداد القتلى ممن جندوهم من المستعمرات وبخاصة الهند، كما لم يذكروا الجرحى والمفقودين، كما ذكر كتاب (رحمة للعالمين)(3) مع كون هاتين الحربين ـ كما يعلم الجميع ـ لم تخدم مصلحة إنسانية ولم تستفد منها البشرية لا في قليل ولا كثير.

انظروا ـ إخوتي الكرام ـ إلى مدى نجاح الرسول في تحقيق المصالح مع قلة الخسائر(١٠١٨) وانظروا إلى محاكم التفتيش في القرون الوسطى والتي بلغت الخسائر البشرية فيها إلى(اثني عشر مليوناً) كما ذكر (جان بورد) في كتابه عن محمد ﷺ كانوا نصارى قتلوا بأيد نصرانية. وفي إسبانيا قتل (٣٤٠ الفاً)، اثنان وثلاثون ألفا منهم قتلوا حرقاً وهم أحياء.(4) من هنا ندرك ـ كما قال أهل العلم ـ أن السيف لم يأت عندنا ليفرض عقيدة، وإنما جاء ليحمي الاختيار

---

(١) البقرة: ١٩١.

(٢) البقرة.

(٣) القاضي محمد سليمان المنصور فوزي.

(٤) (رحمة للعالمين) القاضي محمد سليمان المنصور فوزي صفحة ٤٦٩ – ٤٧٥.

في النفس الإيمانية، فبدلا من أن يُترك الناس مقهورين على اعتناق عقيدة خاطئة، ترى المسلمين يرفعون السيف في وجه الظالم لعباد الله وعباد الله لهم أن يختاروا عقيدتهم.

الصديق أمير الحج سنة ٩ هـ:

قال المؤرخون: بعدما رجع رسول الله ﷺ من تبوك، أقام في المدينة بقية شهر رمضان وشوال وذا القعدة، ثم بعث أبا بكر أميراً على الحج من سنة تسع ليقيم للمسلمين حجهم، وفرض الحج سنة تسع، وقبلها كان الحج يختلط فيه المسلمون والمشركون.

خرج الصديق من المدينة ومعه ثلاثمائة يؤدون فريضة الحج وبعث النبي ﷺ مع الصديق عشرين بدنة، وساق أبو بكر خمس بدنات(١). وقد روى جابر بن عبدالله قال: أقبلنا مع أبي بكر حتى إذا كنا بالعرج ثوَّبَ أبوبكر بالصبح ـ أي دعا إليه ـ فلما استوى للتكبير سمع الرغوة خلف ظهره فوقف عن التكبير وقال: هذه رغوة ناقة النبي ﷺ الجدعاء، بدا لرسول الله ﷺ فلعله أن يكون رسول الله ﷺ فنصلي معه. فإذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه عليها، فقال الصديق رضي الله عنه: أمير أم رسول؟ فقال علي: لا، بل رسول أرسلني رسول الله ﷺ ببراءة أقرؤها على الناس في مواقف الحج.

وقد وقع عند ابن هشام في سيرته، أن الصديق قال لعلي: أمير أو مأمور؟ قال: بل مأمور، قال جابر: قدمنا مكة، فلما كان قبل التروية بيوم قام أبو بكر فخطب الناس فحدثهم عن مناسكهم، حتى إذا فرغ قام علي فقرأ على الناس براءه حتى ختمها، ثم خرجنا معه حتى إذا كان يوم عرفة قام الصديق فخطب الناس فعلمهم مناسكهم حتى إذا فرغ قام علي فقرأ على الناس سورة براءة حتى ختمها، ثم كان يوم النحر فأفضنا، فلما رجع أبوبكر خطب الناس فحدثهم عن إفاضتهم وعن نحرهم وعن مناسكهم، فلما فرغ قام علي فقرأ على الناس براءة حتى ختمها، فلما كان يوم النفر الأول قام أبوبكر فخطب الناس فحدثهم كيف ينفرون وكيف يرمون يعلمهم مناسكهم، فلما فرغ قام علي فقرأ على الناس براءة حتى ختمها.

قال العلماء: (وحكمة تكرير هذا الأمر أربع مرات بسبب أن الجميع لم يحضروا خطبة عرفة وتنبيهاً على الاعتناء بهذا الأمر ولذلك كرره).

---

(١) وهي ما يهدى لمكة من الإبل والبقر، وتطلق البدنة على الذكر والأنثى.

وفي صحيح السيرة النبوية: كان الصديق يعرف الناس مناسكهم في وقوفهم بعرفة. وفي إفاضتهم، ونحرهم، ونفرهم، ورميهم للجمرات. وعلي يخلفه في كل موقف من هذه المواقف فيقرأ على الناس صدر سورة براءة، ثم ينادي بالناس بهذه الأمور الأربعة التي أمره النبي بتبليغها. لا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته. ولا يحج بعد العام مشرك. وقد أمر الصديق أباهريرة في رهط من الصحابة بمساعدة علي رضي الله عنه في إتمام مهمته.

وهنا نحب أن نشير إلى قضيه اتخذها أهل الأهواء حجة للقول: إن علياً أحق بالخلافة من الصديق، لأن النبي كلفه بتبليغ صدر سورة براءة.. وبناءً على ذلك فهو أحقُّ بالخلافة من الصديق.

والجواب:

- **أولاً**: كيف غفلوا عن قول الصديق لعلي لما التقيا أمير أم مأمور؟ وماذا كان جواب علي.
- **ثانياً**: كان من عادة العرب إذا كان بينهم وبين غيرهم عقود وعهود وأرادوا إنهاء هذه العهود ونقضها أن يتولى إلغاء هذه العهود سيد القبيلة، أو رجل من رهطه، ولما كان هذا العرف لا يخالف الشرع تدارك النبي الأمر وأرسل علياً للتبليغ.

قال ابن حزم: وما حصل في حجة الصديق كان من أعظم فضائله؛ لأنه كان خطيب الناس في هذا الجمع العظيم والناس ينصتون لخطبته، يصلون خلفه، وعلي رضي الله عنه من جملتهم.

قال أبو شهبة صاحب كتاب السيرة النبوية: لقد كانت حجة الصديق هذه توطئة للحجة الكبرى وهي حجة الوداع، حيث أعلن الصديق أن عهد الأصنام قد انقضى، وبدأت قبائل العرب ترسل وفودها إلى رسول الله ﷺ معلنة إسلامها ودخولها في التوحيد.

في حجة الوداع: سنة ١٠ هـ

خرج ﷺ من المدينة يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة بعد صلاة الظهر. روى الامام أحمد بسنده إلى عبدالله بن الزبير عن أبيه عن أسماء بنت الصديق قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ حجاجاً حتى وصلنا (العرج)، نزل رسول الله ﷺ، فجلست عائشة جنب النبي ﷺ،

وجلس الصديق ينتظر زاملة له كان قد سلمها لغلام له، وانتظر الصديق الغلام، وطلع الغلام وليس معه بعيره!! فقال الصديق: أين بعيرك؟ فقال الغلام: أضللته البارحة! فقال الصديق: بعير واحد تُضِلُّه!! فطفق يضربه ورسول الله ﷺ يبتسم ويقول: (انظروا إلى هذا المُحْرِم وماذا يصنع)!! وكان ذلك في حجة الوداع.

صلاة الصديق بالناس:

(وفي هذه الحجة أشار النبي ﷺ إلى قرب أجله فقال عند وقوفه عند جمرة العقبة: (خذوا عني مناسككم فقد لا أحج بعد عامي هذا).

روى سهل بن سعد بن مالك من مشاهير الصحابة وهو آخر من مات من الصحابة بالمدينة سنه ٩١ هـ قال: كان قتال بين بني عمرو بن عوف، وهم بطن كبير من الأوس، كانت منازلهم بقباء، فبلغ النبي ﷺ ذلك فأتاهم بعد الظهر ليصلح بينهم، فقال لبلال: يابلال! إن حضرت الصلاة ولم آتِ فَمُرْ أبا بكر فليصل بالناس.

فلما حضرت الصلاة للعصر أقام بلال الصلاة ثم أمر أبابكر فتقدم بهم، وجاء رسول الله ﷺ بعدما دخل أبو بكر في الصلاة، فلما رأوه صفَّحوا أي صفّقوا وجاء رسول الله ﷺ يشق الناس حتى قام خلف أبي بكر. وكان الصديق إذا دخل في الصلاة لم يلتفت فلما رأى التصفيق لا يمسك عنه التفت فرأى النبي ﷺ خلفه، فأومأ إليه النبي ﷺ بيده أن أَمْضِه، فقام أبو بكر هُنية، فحمد الله على ذلك، ثم مشى القهقرى، فتقدم رسول الله ﷺ فصلى بالناس، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته قال: (يا أبابكر ما منعك إذ أومأت إليك أن لا تكون مضيت)؟

فقال أبو بكر: لم يكن لابن أبي قحافة أن يؤم رسول الله ﷺ وقال للناس: إذا نابكم في صلاتكم شيء فليسبح الرجال وليصفق النساء.

صلاة الصديق بالناس في مرض رسول الله ﷺ:

قال الندوي في سيرته: ابتدات شكوى النبي ﷺ في آخر شهر صفر سنة ١١ هـ إحدى عشرة هجرية وكان ذلك يوم الإثنين، خرج إلى بقيع الفرقد ـ مقبرة أهل المدينة ـ من جوف الليل، وذلك بعد حجة الوداع سنة ١٠ هـ وصلَّى على قتلى أحد بعد ثمان سنين كأنه يودع الأموات، ثم ودع الأحياء حين صعد المنبر فقال: (إني بين أيديكم فرط) ـ أي أتقدمكم كما يتقدم

مرتاد الماء أمام القوم ليهيئ لهم الدلاء والأرشية ـ (وأنا عليكم شهيد، وإن موعدكم الحوض، وإني لأنظر إليه من مقامي هذا وإني قد أُعطيتُ مفاتيح خزائن الأرض، وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها فتهلكوا كما هلك مَنْ قبلكم).

قال المؤرخون: ولما اشتد به ﷺ المرض، فقال: (أَصلَّى الناس)؟ قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله!! فقال ﷺ: ضعوا لي المخضب[1] ـ ففعلوا، فاغتسل ثم ذهب لينوء ـ لينهض بجهد ـ فأغمي عليه، ثم أفاق، فقال ﷺ أصلى الناس؟ قالوا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله!! والناس عكوف في المسجد ينتظرون رسول الله ﷺ لصلاة العشاء، فأرسل رسول الله ﷺ إلى الصديق بأن يصلي بالناس، وكان الصديق رجلاً رقيقاً، فقال لعمر: يا عمر صلّ بالناس فقال عمر: لا أنت أحق مني، فصلى بهم الصديق تلك الأيام.

قال الندوي في سيرته: ثم إن رسول الله ﷺ وجد خفة فخرج بين رجلين، أحدهما العباس، والآخر علي بن أبي طالب لصلاة الظهر، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر فأومأ إليه ألا يتأخر، وأمرهما فأجلساه إلى جنبه، فجعل أبو بكر يصلي قائماً، وهو يأتم بصلاة النبي ﷺ، والناس يأتمون بصلاة الصديق، ورسول الله ﷺ قاعد.

وعن أم الفضل بنت الحارث قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب (بالمرسلات عرفاً)، ثم ما صلى لنا بعدها حتى قبضه الله.

خطبة الوداع وفهم الصديق لمغزاها:

كانت آخر خطبة خطبها النبي ﷺ وهو جالس على المنبر عاصباً رأسه وذلك في صلاة الظهر، يوم الخميس قبل وفاته ﷺ بخمسة أيام، وكل ما ذكر في فضل الصديق كانت قطعاً من خطبة الوداع هذه. قال ﷺ فيها: (إن عبداً من عباد الله خيَّره الله بين الدنيا وبين ماعنده فاختار ما عند الله)، وفهم الصديق معنى هذه الكلمة، وعرف أن رسول الله ﷺ يعني نفسه فبكى وقال: نفديك بأنفسنا وأبنائنا، فقال ﷺ: «على رِسْلكَ يا أبابكر! لا تبك إنه ليس أحد من الناس أمنَّ عليَّ في نفسه وماله من أبي بكر، ولو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر، ولكن خلة الإسلام أفضل». وقال ﷺ: «سدوا عني كل خوخة في المسجد غير خوخة أبي بكر».

---

(١) أجانة تغسل فيها الثياب ـ.

قال أهل العلم: والخليل: من لا يتسع قلبه لسواه ومنه قول القائل:

قـد تخللـتَ مَـسلك الـروح منـي وبـــذا سُـــمِّيَ الخليـــلُ خلـــيلا

وقد ورد عن أنس قال: أن أبابكر كان يصلي بالناس في وجع النبي الذي توفي فيه، حتى إذا كان يوم الإثنين في الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة للهجرة، وهم صفوف في الصلاة فكشف النبي ستر الحجرة، ينظر إلينا وهو قائم كأنَّ وجهه ورقة مصحف ثم تبسم ﷺ يضحك.

قال القسطلاني: (يضحك ﷺ فرحاً باجتماعهم على الصلاة واتفاق كلمتهم، وإقامة شريعتهم). قال أنس: فهممنا أن نفتتن (أي أن نخرج من الصلاة) من الفرح برؤية النبي ﷺ، وينكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصفَّ، وظن أن النبي ﷺ خارج إلى الصلاة، فأشار النبي ﷺ إلينا أن أتموا صلاتكم، وأرخى الستر، فتوفي ﷺ من يومه.

ذهاب الصديق إلى السُّنح: لما خرج ﷺ يوم الإثنين وأبوبكر يصلى بالناس، فلما أحس برسول الله نكص عن مُصَلّاه، فدفع رسول الله ﷺ في ظهره، وقال: (صلِّ بالناس) ـ وكانت صلاة الصبح ـ وجلس ﷺ إلى جنبه، فصلى قاعداً عن يمين الصديق، فلما فرغ من الصلاة أقبل على الناس ـ وظن الناس أن النبي ﷺ قد أفاق ـ ووعظهم فقال ﷺ: «أيها الناس، سُعِّرت النار، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، وإني والله ما تمسكون علي بشيء، إني لم أحلَّ إلا ما أَحلَّ القرآن، ولم أحرم إلا ما حرّم القرآن»، قال: فلما فرغ ﷺ من كلامه قال له أبو بكر: يا نبي الله، إني أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما نحب، واليوم يوم بنت خارجة ـ زوجته وكانت بالسنح، ـ السنح إحدى أحياء المدينة، فيها منزل الصديق حين تزوج مليكة بنت خارجة، بينها وبين بيت النبي ﷺ ميل واحد ـ أفآتيها؟ فقال ﷺ: نعم، فذهب إلى السنح، فكانت وفاته ﷺ في ضحوة ذلك اليوم.

موقف الصديق يوم قبض رسول الله ﷺ:

قال ابن رجب «في لطائف المعارف»: ولما توفي رسول الله ﷺ اضطرب المسلمون، فمنهم من دُهِشَ، ومنهم من أُقعدَ فلم يستطع القيام، ومنهم من اعتقل لسانه فلم يطق الكلام، ومنهم من أنكر موته بالكلية. وكان ذلك يوم الإثنين في الثاني عشر من ربيع الأول سنة ١١ هـ.

وقال القاضي أبو بكر بن العربي: كان موت النبي ﷺ قاصمة الظهر، ومصيبة العمر، فأما عليٌّ فاستخفى في بيت فاطمة، وأما عثمان فسكت، وأما عمر فأهجر. وورد عن أبي هريرة: قال: لما توفي رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب فقال: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفي، وأنه والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران حين غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات، والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ قد مات. قال عمر هذه المقالة حين دخل على رسول الله ﷺ ومعه المغيرة في لحظة الوفاة، وقال المغيرة لعمر: يا عمر مات رسول الله ﷺ. فقال عمر: كذبت، بل أنت رجلٌ تَحوسُك ـ تنوي ـ فتنةٌ فإن رسول الله ﷺ لم يمت، ولا يموت حتى يفني الله المنافقين.

قال البخاري وغيره وأهل التاريخ: وأقبل الصديق على فرسه من مسكنه بالسنح حتى نزل، فدخل المسجد، فلم يتكلم الناس، ثم دخل على عائشة فقصد رسول الله ﷺ وهو مغطى بثوب حيرةٍ، فكشف عن وجهه فنظر إليه فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون مات رسول الله ﷺ.

وذكر ابن كثير في تاريخه «البداية والنهاية»: أن الصديق أتى النبي ﷺ من قِبل رأسه فحدر فاه فقبل جبهته ثم قال: وانبياه، ثم رفع رأسه فحدر فاه وَقَبَّلَ جبهته ثم قال: واصفياه، ثم رفع رأسه وحدر فاه وقبل جبهته ثم قال: واخليلاه، مات رسول الله ﷺ ثم قال: بأبي أنت وأمي، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن يصيبك بعدها موتة أبداً، ثم رد الثوب على وجه رسول الله ﷺ وخرج إلى المسجد وعمر يكلم الناس ويخطب فيهم، فقال الصديق له: على رسلك يا عمر فأنصت. فأبى عمر إلا أن يتكلم، فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر، فقال الصديق بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أيها الناس. إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾[1].

قال أبو هريرة: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذٍ.

---

(١) آل عمران: ١٤٤.

قال: وأخذها الناس عن أبي بكر. فإنما هي في أفواههم، قال أبو هريرة: قال عمر: فوالله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقِرتُ ـ أي دُهشتُ وتحيرت ـ حتى وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات.

قال سالم بن عبيد الأشجعي: من أهل الصُّفة، سكن الكوفة: لما نظر الصديق إلى النبي ﷺ ونظر إلى نفسه حتى استبان أنه توفي فقال الصديق: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾. قالوا: يا صاحب رسول الله! أتوفي النبي ﷺ؟ قال: نعم فعلموا أنه كان كما قال. قالوا: هل يُصلى عليه؟ قال الصديق: نعم، يجيءُ نفرٌ منكم فيكبرون فيدعون ويذهبون حتى يفرغ الناس، فعلموا أنه كما قال. قالوا: يا صاحب رسول الله أين يُدفن؟ قال الصديق: حيث قبض الله روحه، فإنه لم يقبضه إلا في موقع طيب، فعرفوا أنه كما قال.

قال الطنطاوي في كتابه «أبو بكر الصديق»: «لقد طاشت الأحلام لهول المصاب، وروعت الرَّزِية، وحُق لها أن تطيش، لقد كان رسول الله ﷺ بين أظهرهم يأمرهم وينهاهم، فقبضه الله إليه، وانقطع الوحي فلا ينزل أبداً، وفقدوا رسول الله ﷺ فلا يلقونه إلى يوم القيامة. فارتجت المدينة، وزلزلت قلوب الصحابة، ودخل على الناس أمرٌ ما دخل عليهم مثله قط، فقال عمر مقالته، وصار الناس لا يدرون ما يفعلون، حتى جاء الله بأبي بكر، فكان برداً وسلاماً على القلوب، وكان هدىً للأفئدة، لم يذهب الحزن بلبّه، ولم تُنْسِه المصيبة على شدتها ما عرف من الحق، فقام في الصحابة ذلك المقام العظيم، وتلا عليهم كلام الله، فعادوا إلى أنفسهم، فعلموا أن ما قاله أبو بكر هو الحق، وعلموا أن أبا بكرٍ أعلم الناس، وأسماهم نفساً، وأربطهم جأشاً، وأنفذهم بصيرة، فدفنوا رسول الله ﷺ واحتسبوا مصيبتهم عند الله، والله خيرٌ وأبقى وإلى الله ترجع الأمور».

قال ابن عباس: والله إني لأمشي مع عمر في خلافته في حاجة له، وفي يده الدرة وما معه غيري، وهو يحدث نفسه ويضرب وَحْشِيَّ قدمه بدرته إذ التفت إلي فقال: يا ابن عباس! هل تدري ما حملني على مقالتي التي قلت حين توفي رسول الله ﷺ؟ قلت: لا أدري يا أمير المؤمنين، أنت أعلم. قال: فإنه والله إن كان الذي حملني على ذلك إلا أني كنت أقرأ هذه الآية: ﴿ وَكَذَٰلِكَ

﴿جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴿١٤٣﴾﴾[1] فوالله إنْ كنتُ لأظن أن رسول الله ﷺ سيبقى في أمته حتى يشهد عليها بآخر أعمالها، فذلك الذي حملني على أن قلت ما قلت.

في سقيفة بني ساعدة:

قال المؤرخون: لما علم الصحابة بوفاة رسول الله ﷺ، اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة في اليوم نفسه الذي توفي فيه رسول الله ﷺ والتفوا حول (سعد بن عبادة) سيد الخزرج وقالوا: نولّي هذا الأمر بعد محمد ﷺ سعد بن عبادة، فأخرجوا سعداً وهو مريض.

وجاء المهاجرون، والأنصار مجتمعون، قال عمر: وكان بينهم رجل مُزمَّل، وكان هو (سعد ابن عبادة) وكان وَجِعاً فما جلسنا قليلاً حتى قام خطيب الأنصار فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد: فنحن أنصار الله، وكتيبة الإسلام، وأنتم ـ يا معشر المهاجرين ـ رهط منا، وقد دَّفت إلينا دافة من قومكم ـ الجماعة القليلة من أهل البادية ـ يريدون أن يختزلونا من أصلنا، ويحتضنوا هذا الأمر ـ الخلافة ـ من دوننا، وقد كان رسول الله ﷺ إذا استعمل رجل منكم قرن معه رجلاً منا، فأرى أن يلي الأمر رجلان، أحدهما منكم والآخر منا. قال عمر: فلما قضى خطيب الأنصار مقالته، أردت أن أتكلم، وكنت قد أعددت في نفسي مقالة أعجبتني أريد أن أتكلم بها بين يدي أبي بكر، فلما أردت أن أتكلم قال أبوبكر لي ـ لعمر ـ على رِسْلك، أي على مهلك، فكرهت أن أغضبه، فَسَكَتُّ، ولقد كان أحلم مني وأوقر، فتكلم أبو بكر، فوالله ماترك من كلمة أعجبتني فيما أعددت في نفسي إلا قال في بداهته مثلها أو أفضل حتى سكت، ولم يترك شيئاً أنزل في الأنصار أو ذكره رسول الله ﷺ إلا ذكره، وكان مما قال الصديق: «ما ذكرتكم ـ يا معشر الانصار ـ فيكم من خير فأنتم له أهل، وقد علمتم أن رسول الله ﷺ قال: لو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الانصار. ولكن العرب لا تعرف هذا الأمر ـ الخلافة ـ إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب داراً وأنساباً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم» ـ فأخذ بيدي ويد أبي عبيدة ـ وكان أبو بكر جالساً بيننا، قال عمر: فوالله ما كرهت من مقالته غيره، ولئن أُقدَّم فتضرب عنقي لا يكون في ذلك إثم أحبُّ إلي من أن أتأمر

---

(١) البقرة: ١٤٣.

على قوم فيهم أبو بكر «هكذا ذكر البخاري هذه العبارات لعمر».

واسمع - أخي الكريم - ماذا كان جواب الأنصار حين قال لهم عمر بعد كلام الصديق، قال لهم عمر: «يا معشر الأنصار، تعلمون أن رسول الله ﷺ قد أمر أبا بكر أن يؤم الناس، فأيكم تَطيبُ نفسه أن يتقدم أبا بكر رضي الله عنه»؟ فقالت الأنصار: «نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر» هكذا ورد (في مسند أحمد، وصححه المحقق أحمد شاكر رحمه الله تعالى).

قال المؤرخون: فلما قضى أبو بكر مقالته قالت الأنصار: «والله ما نحسدكم على خير ساقه الله إليكم، ولا أحد من خلق الله تعالى أحب إلينا، ولا أرضى عندنا منكم، ولكن نشفق مما بعد اليوم. فاجعلوا اليوم رجلاً منكم، فإذا هلك اخترنا رجلاً منا ـ الأنصار» ـ فقال عمر: «لا ينبغي هذا الأمر ولا يصلح إلا لرجل من قريش، ولن ترضى العرب إلا به». فقام الحباب بن المنذر السلمي[1]، قام فقال: «يا معشر الأنصار املكوا عليكم أمركم فإن الناس في ظلكم، فقد أبى هؤلاء منا أمير ومنهم أمير». فقام أبو عبيدة وقال: «يا معشر الأنصار! إنكم أول من نصر وآزر، فلا تكونوا أول من بدل وغير»، فقام بشير بن سعد[2]، قام فخاطب قومه الأنصار: «يا معشر الأنصار! إنا والله لإن كنا أولي فضيلة في جهاد المشركين، وسابقة في هذا الدين ما أردنا به إلا رضى ربنا، وطاعة نبينا، والكدح لأنفسنا، فما ينبغي أن نستطيل على الناس بذلك، ولا نبتغي به من الدنيا عرضاً فإن الله وليُّ المِنَّة علينا بذلك، ألا إن محمداً من قريش، وقومه أحق به وأولى، ولا يراني الله أنازعهم في هذا الأمر أبداً فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم». ثم قام زيد بن ثابت الانصاري فقال: «إن رسول الله من المهاجرين، وإن الإمام إنما يكون منهم ونحن أنصاره كما كنا أنصار رسول الله ﷺ». فقام أبوبكر فقال: «جزاكم الله من حيّ خيراً، وثبت قائلكم»، ثم قام عمر وأسيد بن حضير، وبشير بن سعد يستبقون ليبايعوا الصديق، ووثب أهل السقيفة يبتدرون البيعة، ثم بايع العامة في اليوم الثاني.

---

(١) شهد بدراً مع رسول الله ﷺ وكان ابن ثلاثن وثلاثين، وكان يُقال له ذو الرأي، لأنه أشار على الرسول برأيين فقبل منه، ومات في خلافة عمر.

(٢) الأنصاري الخزرجي، شهد العقبة وبدراً وأحداً، والمشاهد كلها، واستعمله النبي واليا على المدينة في عمرة القضاء، وكان كاتباً في الجاهلية، استشهد مع خالد بن الوليد سنه ١٢ هـ ـ اثنتي عشرة ـ في معركة عين التمر.

هنا لا بد من الإشارة: أن بعض أهل الأهواء جعلوا من (سعد بن عبادة) منافساً للمهاجرين، وقالوا: إنه كان لا يصلي مع الصديق. وهذا باطل فقد ثبت أن سعداً بايع الصديق في يوم السقيفة حيث قال أبوبكر بعد أن ذكر مناقب الأنصار قال لسعد، يا سعد لقد علمت أنه ﷺ قال وأنت قاعد: قريش ولاة هذا الأمر، فَبرُّ الناس يتبع لبرهم، وفاجرهم يتبع لفاجرهم، فقال سعد: صدقت أنتم الأمراء ونحن الوزراء، ثم قام فبايع.

قال المؤرخ المحب الطبري [(١)]: هذه الكلمة قطعت قول كل ذي هوى من الحاقدين على أهل السنة، قال رحمه الله عن بيعة الصديق بالخلافة: قال: «ثم إنهم بايعوا جميعاً، فمنهم من أسرع في بيعته، ومنهم من تأخر حيناً، وعلى الجملة فلا خلاف بين طوائف المسلمين أن أبابكر توفي يوم توفي ولا مخالفَ عليه من أهل الإسلام».

وسنتكلم عمن تأخر حيناً.

بيعة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يروي ابن السمان [(٢)]: أنه لما بويع الصديق بالخلافة دخل أبو سفيان على علي والعباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقال: ياعلي! وأنت يا عباس! ما بال هذا الأمر في أَذلِّ قبيلة ـ أي أقل القبائل عدداً ـ من قريش؟ والله لو شئت لأملأنها عليه خيلا ورجلا، وأخذنَّها عليه من أقطارها، فقال له علي: لا والله ما أريد أن تملأها عليه خيلاً ولا رجلاً، ولولا أنا رأيناه ـ أي الصديق ـ أهلاً لذلك ما خلّيناه وإياها. يا أبا سفيان: إن المؤمنين قوم نَصَحَةٌ بعضهم لبعض، وإن المنافقين قوم غششةٌ بعضهم لبعض، متخاونون وإن قربت ديارهم وأبدانهم.

بيعة علي للصديق:

وقد روى ابن خزيمة [(٣)]عن (أبي سعيد الخدري): بيعة علي فقال: لما بايع المهاجرون والأنصار أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، صعد المنبر فنظر في وجوه القوم فلم ير الزبير، فدعا به فجاء، فقال له:

(١) صاحب كتاب الرياض النضرة

(٢) صاحب كتاب الموافقة.

(٣) التعريف بابن خزيمة: (هو الحافظ الكبير إمام الأئمة في عصره بخراسان محمد بن إسحق بن خزيمة السلمي النيسابوري ولد سنة ٢٢٣ هـ، عني بالحديث من حداثته، ثم أكثر وجَوَّد وصنف وانتهت إليه الإمامة والحفظ في عصره بخراسان وكان يقول: ما كتبت سوادا في بياض إلا وأنا أعرفه، قال الحاكم: ومصنفاته تزيد على مائة وأربعين كتابا سوى المسائل)

أي ابن عمة رسول الله وحواريه، أردتَ أن تشقَّ عصا المسلمين؟ فقال الزبير: لا تثريب يا خليفة رسول الله، فقام فبايعه، ثم نظر الصديق في وجوه القوم فلم ير علياً، فدعي به فجاء فقال له: أي ابن عم رسول الله ﷺ، وختنه على ابنته (أي زوج ابنته) أردت أن تشق عصا المسلمين؟ فقال علي: لا تثريب ياخليفة رسول الله، فقام فبايعه. قال الحافظ ابن عساكر بعد أن روى مثل هذه الرواية: وهذا أصح ما قيل في بيعة الزبير وعلي لأبي بكر رضي الله عنهم جميعاً.

قال ابن خزيمة: جاءني (مسلم بن الحجاج) بن مسلم القشيري ـ من بني قشير، قبيلة عربية معروفة ـ النيسابوري إمام أهل الحديث (وله الصحيح المسمى صحيح مسلم) وسألني عن هذا الحديث فكتبته له في رقعة وقرأته عليه، فقال: (هذا الحديث يسوي بدنة، بل هذا يسوي بدرة)، أي عشرة آلاف درهم.

وقد روى (عبد الملك الجويني) سبب عدم وجود علي يوم السقيفة فقال: أما إمامة أبي بكر فقد ثبتت بإجماع الصحابة، فإنهم أطبقوا على بذل الطاعة والانقياد له. ثم قال: وما تخرَّص به الروافض من إبداء علي شراساً ـ شدة معاملة ـ وشماساً ـ أي صعوبة في الخلق ـ في عقد البيعة له كذبٌ صريح، نعم لم يكن موجوداً في السقيفة، وكان مستخلياً بنفسه قد أنهكه الحزن على رسول الله ﷺ، ثم دخل فيما دخل فيه الناس وبايع أبابكر على ملأ من الأشهاد.

وقد ذكر صاحب كتاب «الرياض النضرة»، ناقلاً عن ابن سيرين: أن علياً بين سبب غيابه عن يوم السقيفة حين نظر الصديق في وجوه القوم فلم ير علياً فجاء به وقال له: يا ابن عم رسول الله ما أبطأ بك عني؟ أكرهتَ إمارتي؟ فقال علي: لا والله ما كرهت إمارتك، ولكني آليت ـ حلفت ـ أن لا أرتدي ردائي، إلا إلى صلاة ـ الجماعة ـ حتى أجمع القرآن ثم قال للصديق موعدك للبيعة العشية، فلما صلى الصديق ـ من الزوال إلى الغروب ـ الظهر أقبل على الناس، ثم عذر علياً ببعض ما اعتذر به، ثم قام علي فعظَّمَ من حق أبي بكر، وكان من كلامه في الصديق رضي الله عنهما: إنا لنرى أبا بكر أحق الناس بها، إنه لصاحب الغار، وإنا لنعرف شرفه وخيره، ولقد أمره رسول الله ﷺ بالصلاة بالناس ورسول الله ﷺ حي، ثم قام فبايعه، فأقبل الناس على علي وقالوا: أصبت وأحسنت، وكان يشهد مع الصديق الصلوات ولما خرج الصديق إلى (ذي القصة) ليودع أسامة بن زيد في الجيش الذي جهزه النبي ﷺ لقتال الروم في (البلقاء) ـ الأردن ـ وهي الداروم ـ قلعة جنوبي غزة، كان علي يقود راحلة الصديق.

من كلام علي في الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

ما رواه ابن عساكر في «تاريخه» أن علياً قال: لقد صنع رسول الله ﷺ بأبي بكر أمراً ما صنعه بي، يوم جاء المشركون ليقتلوا رسول الله ﷺ خرج رسول الله وخرج بأبي بكر معه، فلم يأمن على نفسه أحداً غيره حتى دخل الغار. وسئل علي مرة عن الصديق فقال: جعل الله أبا بكر وعمر حُجَّةً على مَنْ بعدهما إلى يوم القيامة، فسبقا والله سبقاً بعيداً وأتعبا من بعدهما إتعاباً شديداً.

ومن كلام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على المنبر: سبق رسول الله ﷺ، وصلَّى أبو بكر ـ المصلي الذي يأتي بعد السابق ـ وثلَّث عمر، ثم خبطتْنا فتنةٌ. وقال رجل يوماً لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا خير الناس، فقال علي: قدموه، ثم قال للرجل: هل رأيت رسول الله ﷺ؟ قال الرجل: لا، قال علي: هل رأيت أبا بكر؟ قال الرجل: لا، قال: هل رأيت عمر؟ قال: لا، قال علي: لو أخبرتني أنك رأيت رسول الله ﷺ لضربت عنقك ولو أخبرتني أنك رأيت الصديق وعمر لأوجعتك ضرباً.

قال المؤرخون: وقد جدد علي البيعة مرة أخرى بعد وفاة فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من أجل حديث «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، وما تركنا صدقة» وذلك أن فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ وهي بنت رسول الله، وكانت أحب الناس إليه، وهي سيدة نساء العالمين، ـ ما عدا مريم ـ تزوجها علي بعد معركة أحد، وانقطع نسل رسول الله ﷺ إلا منها، وكانت أول أهله ﷺ لحوقاً به، توفيت في رمضان سنة إحدى عشرة للهجرة فكان عمرها تسعاً وعشرين سنه على الراجح، وقيل ثلاثين.

جاءت فاطمة والعباس إلى الصديق يطلبان ميراثهما من رسول الله ﷺ يطلبان أرضه (من فدك) قرية بينها وبين المدينة يومان، ويطلبان سهمه ﷺ من خيبر، ناحيةٍ على بعد ثمانية بُرُدٍ من المدينة على طريق الشام ـ والبريد إثنا عشر ميلاً ـ فكان جواب الصديق لهما: أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (نحن معاشر الأنبياء لا نورث وما تركنا فهو صدقة). وإني والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله ﷺ يصنعه إلا صنعته فغضبت فاطمة ولم تكلمه ثم إن فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تراجعت عن طلبها حين قال لها الصديق: والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليَّ أن أصل من قرابتي، وإني والله لا أغير شيئاً من صدقات النبي ﷺ التي كانت عليها في عهد النبي ﷺ، ولأعملن فيها بما عمل فيها رسول الله ﷺ.

وقد ذكر أحد مؤرخي الروافض، أن فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تراجعت عن طلبها ورضيت بقول الصديق حين قال لها: إن لك ما لأبيكِ، كان رسول الله ﷺ يأخذ من فَدَكَ قوتكم ويقسم الباقي، ويحمل منه في سبيل الله، ولكِ على الله أن أصنع بها كما كان يصنع ﷺ، قال: فرضيت بذلك وأخذت العهد على الصديق بذلك. هذا المؤرخ المنصف هو من الرافضة، ولكنه قال كلمة حق واسمه ـ كمال الدين بن ميثم بن علي بن ميثم البحراني، عاش في القرن السابع ـ قال هذه الكلمة في شرح كتاب «نهج البلاغة»، وهو من شروحه.

يقول المؤرخ (إحسان إلهي ظهير):

«إن قضية (فدك) لم تكن بالمسألة الكبيرة، ولكن أعداء أمة محمد ﷺ كبَّروها وفَخَّموها من أجل مقاصدهم الخبيثة، أرادوا بتكبيرها إثبات وبث التفرقة وإيجاد الخلاف بين أصحاب النبي ﷺ خاصة وبين بيت النبوة. وأرادوا إيجاد الفرقة بين المسلمين عامة، ليكون أهل البيت في جانب، والمهاجرون والأنصار وبقية الأمة في جانب».

ثم قال المؤرخ إحسان: «ثم إن الروافض لم يعجبهم أن ترضى فاطمة بتلك السهولة، فسوَّدُوا الصحف والكتب بالطعن والشتم على أصحاب النبي ﷺ علماً بأن (أهل القضية) لم يتكلموا بقليل ولا بكثير، بل واعترف المنصفون منهم كابن الميثم، والدنبلي، وابن أبي الحديد، والمؤرخ المعاصر ـ فيض الإسلام علي نقي ـ قالوا: إن الصديق كان يأخذ غلَّة فَدَكْ فيدفع لأهل بيت النبي ﷺ منها ما يكفيهم، ويقسم الباقي، وكان عمر كذلك، ثم كان عثمان كذلك، ثم كان علي كذلك».

كيف كان احترام أهل البيت للصديق، ولأصحابه ﷺ:

كان ابن عباس يقول وهو يذكر الصديق: رحم الله أبا بكر، كان والله للفقراء رحيماً، وللقرآن تالياً، وعن المنكر ناهياً، وبدينه عارفاً، ومن الله خائفاً، وبالليل قائماً، وبالنهار صائماً، فاق أصحابه ورعاً وكفافاً، وسادهم زهداً وعفافاً. وكان الحسن بن علي يقول وينسبه إلى النبي ﷺ: (إن أبا بكر مني بمنزلة السمع).

وقد ورد عن الإمام الرابع عندهم وهو (علي بن الحسن بن علي) أنه جاء إليه نفر من العراق فتكلموا في أبي بكر وعمر وعثمان، فلما فرغوا قال لهم: أنتم المهاجرون الأولون الذين

أخرجوا من ديارهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً؟ قالوا: لا، قال: فأنتم الذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم؟ قالوا: لا، قال: أما أنتم فقد تبرأتم أن تكونوا من أحد هذين الفريقين، وأنا أشهد أنكم لستم من الذين قال الله فيهم ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.[1] اخرجوا عني فعل الله بكم.

وأما الإمام الخامس (ابن زين العابدين محمد بن علي بن الحسين الملقب بالباقر) فقد قال حين سأله رجل اسمه (عروة بن عبدالله) عن حلية السيف؟ فقال الباقر: لا بأس به، فقد حلّى الصديق سيفه. قال الرجل للباقر: وتقول الصديق؟. قال: فوثب الباقر واستقبل القبلة، فقال: نعم الصديق، فمن لم يقل له الصديق فلا صدَّق اللهُ له قولاً في الدنيا والآخرة.

هنا سؤال يطرح: هل خلافة الصديق التي أجمع عليها المسلمون كانت بالنصِّ (على ذلك من رسول الله ﷺ). أم بالاختيار؟

قال الحسن البصري وبعض المحدثين: ثبتت خلافة الصديق بالنص الخفيّ والإشارة، وقال بعضهم: ثبتت بالنص الجليّ، واستدلوا على إثباتها بالنص، ما ورد في البخاري عن جبير بن مطعم وهو من علماء قريش وسادتهم خبير بالأنساب كانوا يتحاكمون إليه قال: أتت امرأة إلى النبي ﷺ، فأمرها أن ترجع إليه، قالت: أرأيتَ إن جئتُ فلم أجدك؟ (كأنها تريد الموت). قال ﷺ (فأتي أبا بكر) قالوا: وهذا نص على إمامته.

وروى أهل السنن من حديث حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ (اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر).

وفي الصحيحين من حديث عائشة قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ في اليوم الذي بدئ فيه المرض فقال: (ادعي لي أباكِ وأخاكِ حتى أكتب لأبي بكر كتاباً). ثم قال ﷺ (يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر).

وفي الصحيحين في حديث أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (بينما أنا نائم رأيتني على قليب ـ بئر ـ عليها دلو فنزعت منها ـ أي استخرجت من الماء ـ ما شاء الله، ثم أخذها

---

(١) الحشر.

ابن أبي قحافة فنزع منها ذَنوباً ـ دلواً ممتلئاً ـ أو ذنوبين، وفي نزعه ضعف والله يغفر له ـ إشارة إلى أنه لا يعيش طويلاً ـ ثم استحالت غرباً ـ أي دلواً عظيمة ـ فأخذها ابن الخطاب فلم أر عبقرياً ـ العبقري السيد، وكان عظيم نفسه ـ من الناس يفري فَرْيَهُ ـ أي يعمل عمله ـ حتى ضرب الناس بعطنٍ ـ أي أقاموا بعد الري.

وفي سنن أبي داوود [1] روى أبو داوود من حديث الأشعث، كان معدوداً من أهل الصدق ثقةً مأموناً ثبْتاً فقيهاً متقناً من أصحاب الحسن البصري. عن أبي بكرة اسمه نفيع بن الحارث، كان من فضلاء الصحابة، ولقب بأبي بكرة ـ لأنه حين حاصر النبي ﷺ الطائف تدلى إلى النبي ﷺ ببكرة فاشتهر بأبي بكرة، مات سنة ٥٠هـ. قال أبو بكرة: إن النبي ﷺ قال ذات يوم: من رأى منكم رؤيا؟ فقال رجل: أنا رأيت فيرانا أنزل من السماء فَوُزِنْتَ أنت وأبو بكر فرجحت أنت بأبي بكر، ثم وزن عمر وأبو بكر فرجح أبو بكر، ثم وزن عمر وعثمان فرجح عمر، ثم رفع. قال أبو بكرة: فرأيت الكراهية في وجه رسول الله ﷺ فقال: (خلافة ثم يؤتي الله الملك من يشاء).

يقول الطنطاوي في كتابه «أبو بكر الصديق»، فبين رسول الله ﷺ أن ولاية هؤلاء خلافة نبوة، ثم بعد ذلك ملكٌ، وليس فيه ذكر علي رضي الله عنه؛ لأنه لم يجتمع الناس على خلافته لم ينتظم فيه خلافة النبوة ولا الملك.

وروى أبو داوود في حديث جابر أن رسول الله ﷺ قال: (رأى الليلة رجل صالح أن أبا بكرٍ نيط (عُلّق) برسول الله ﷺ ونيط عمر بأبي بكر، ونيط عثمان بعمر)، قال جابر: فلما قمنا من عند رسول الله ﷺ قلنا: أما الرجل الصالح فرسول الله وأما المنوط بعضهم لبعض فهم ولاة هذا الأمر الذي بعث الله به نبيه ﷺ.

وروى أبو داوود من حديث سمرة بن جندب (كان ممن غزا مع رسول الله ﷺ) أن رجلاً قال: يا رسول الله، رأيت كأن دلواً دلي من السماء فجاء أبو بكر فأخذ بعراقيها (وهما خشبتان تجعلان على فم الدلو لربطه) فانشطت (نزعت منه) فانتضح عليه منها شيء.

---

(١) اسمه سليمان ابن الأشعث، إمام في الحديث، بل إمام زمانه ولد سنة ٢٠٢ هـ وتوفي ٢٧٥ هـ، صاحب كتاب السنن أحد الكتب الستة المشهورة في الحديث، انتخبه من خمسمائة ألف حديث. قال ابن الأعرابي: لو أن رجلاً لم يكن عنده من العلم إلا المصحف، ثم هذا الكتاب ـ سنن أبي دوود ـ لم يحتج إلى شيء من العلم بتّة.

قال ابن تيمية: والتحقيق أن النبي ﷺ دلَّ المسلمين على استخلاف أبي بكر، وأرشدهم إليه بأمور متعددة من أقواله وأفعاله ﷺ وأخبرهم بخلافته أخبار رضى بذلك حامدٍ له. وفهم المسلمون ذلك.

ثم قال ابن تيمية: فخلافة الصديق دلت النصوص الصحيحة على صحتها وثبوتها ورضا الله ورسوله عنها، وانعقدت بمبايعة المسلمين له، واختيارهم إياه اختياراً استندوا فيه إلى ما علموه من تفضيل الله ورسوله فصارت ثابتة بالنص والإجماع جميعاً، وكان هذا أبلغ من مجرد العهد؛ لأن طريق ثبوتها بهذا الشكل أبلغ من ثبوتها بالعهد وحده؛ لأن المسلمين اختاروه من غير عهد ودلت النصوص على صوابهم فيما فعلوه. يأبى الله المسلمون إلا أبا بكر.

مناقب الصديق:

وقبل الحديث عن مناقب الصديق رضي الله عنه ، أنقل جملة قالها الإمام النووي الشافعي في كتابه «تهذيب الأسماء واللغات» مناقب الصديق لا يمكن استقصاؤها، ولا الإحاطة بعشر معاشرها.

وقال صاحب «الحلية» عندما أراد أن يتكلم عن أبي بكر قال: أبو بكر الصديق، السابق إلى التصديق، الملقب بالعتيق، المؤيد من الله بالتوفيق. صاحب النبي ﷺ في الحضر والأسفار، ورفيقه الشفيق في جميع الأطوار وضجيعه بعد الموت في الروضة المحفوفة بالأنوار. المخصوص في الذكر الحكيم بمفخر فاق به كافة الأخيار، وعامة الأبرار، وبقي له شرفه على كرور الأعصار، حيث يقول عالم الأسرار سبحانه وتعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ ﴿٤٠﴾﴾ (1). فضَلَ كلَّ من فاضل، وفاق كل من جادل وناضل، ونزل فيه: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ ﴿١٠﴾﴾ (2) والآن نتكلم عن شيء من مناقبه وفضائله رضي الله عنه، وسنبدأ:

بما نزل فيه وبسببه من القرآن الكريم: وسنبدأ بآية التوبة (٤٠)، ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ ﴿٤٠﴾﴾.

---

(١) التوبة: ٤٠.

(٢) الحديد: ٤٠

قال أهل العلم: أجمع علماء السيرة والتفسير على أنه لم يكن مع رسول الله ﷺ في الغار إلا الصديق.

وقال الحسن البصري: لقد عاتب الله أهل الأرض جميعاً بهذه الآية إلا الصديق، وسمع الصديق مرة رجلاً يتلو هذه الآية فبكى وقال: أنا والله صاحبه، ولا خلاف أن المراد بأحد الإثنين أبو بكر.

وقال ابن عساكر: بلغت الآثار حد التواتر في أن هذه الآية نزلت في الصديق، وانتبه إلى تكرار (إذ) ثلاث مرات (نصره زمن الإخراج ونصره زمن الغار وزمن قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾). وفي قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ ﴿٤٠﴾﴾ أي أنزلها على أبي بكر لأن السكينة لم تفارق النبي ﷺ كما ورد عن ابن عباس. ولما أعتق الصديق بلالاً، قال المشركون: ما أعتقه إلا ليد ـ نعمة، احسان ـ كانت لبلال عنده، فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ وفُهم من الآيات: أن أعلى الإعطاء فضيلة ما كان لرضى الله وأوسطه ما يكون لعوضٍ أخروي، وأدناه ما كان لغرض دنيوي مباح، وأما العطاء الخسيس فهو ما يكون لرياء أو سمعة، وأما الأخسُّ فما كان لغرض غير مباح.

وورد عن عروة بن الزبير ـ ابن أخت عائشة (أسماء) ـ: أن أباكِ الزبير وجدكِ الصديق من الذين أنزل الله فيهم قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾[1]. ذلك أن أبا سفيان بعد معركة أحد. ندم على عدم استئصاله للمسلمين، وقرر العودة فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فانتدب أصحابه للخروج فاستجابوا رغم ما بهم من جراحات، ومنهم أبو بكر وعمر والزبير. وكانوا سبعين رجلاً حتى بلغوا حمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة فهرب أبو سفيان.

ومن مناقبه:

أنه أول من يدخل الجنة من الأمة: فقد روى الحاكم، واسمه محمد النيسابوري ألف كتابه «المستدرك على الصحيح» أخذ العلم عن ألفي شيخ ورجل وسافر توفي سنة ٤٠٥ هـ. روى عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (أتاني جبريل فأخذ بيدي فأراني باب الجنة الذي يدخل منه

---

(١) آل عمران.

أمتي) فقال الصديق: وودت أني كنت معك حتى أنظر إليه. قال ﷺ: (أما إنك يا أبا بكر أول من يدخل الجنة من أمتي).

وورد عنه ﷺ أنه قال في وصف طير الجنة. (إن طير الجنة كأمثال البخت نزعاً من شجر الجنة)، فقال أبو بكر: إن هذه الطير ناعمة. فقال ﷺ: (أكلها أنعم منها ـ ثلاثاً ـ وإني لأرجو أن تكون ممن يأكلها).

ومن مناقبه: أنه يدعى من أبواب الجنة كلها: وذلك أن النبي ﷺ لما ذكر أبواب الجنة، باب الصلاة، والجهاد، والصوم، والصدقه قال أبو بكر: يا رسول الله! هل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال ﷺ: (نعم وأرجو أن تكون منهم). وهو من خير الناس: فقد روى الطبراني في معجمه الكبير عن سلمة بن الأكوع أنه ﷺ قال: (أبو بكر خير الناس إلا أن يكون نبي). ولما كان بعض الصحابة من المهاجرين والأنصار جالسين عند باب النبي ﷺ يتذاكرون الفضائل، فخرج رسول الله ﷺ وقد ارتفعت أصواتهم في النقاش فقال ﷺ (فيمَ أنتم؟) قلنا: نتذاكر الفضائل. قال ﷺ: (فلا تقدموا على أبي بكر أحداً فإنه أفضلكم في الدنيا والآخرة)، كما ذكر صاحب كتاب ـ الرياض النضرة ـ.

ومن مناقبه سبقه إلى كل أعمال البر: كان عمر يقول: ما سبقت أبا بكر إلى خير قط إلا سبقني إليه. وكان علي يقول إذا ذكر عنده الصديق، هو السباق، والذي نفسي بيده، ما استبقنا إلى خير قط إلا سبقنا إليه أبو بكر.

وفي صحيح مسلم، ومسند أحمد من حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال: «من أصبح منكم صائماً؟» قال أبو بكر: أنا، قال ﷺ: «من تَبعَ اليوم منكم جنازة؟» قال أبو بكر: أنا، قال ﷺ: «فمن أطعم منكم اليوم مسكيناً؟» قال أبو بكر: أنا، قال ﷺ: «فمن عاد منكم اليوم مريضاً؟» قال أبو بكر:أنا فقال ﷺ: «ما اجتمعن في امرئٍ إلا دخل الجنة».

أما مكانته عند رسول الله ﷺ فكبيرة جداً:

فقد أخرج الطبراني وأحمد من حديث ربيعة الأسلمي قال: كنت أخدم النبي ﷺ فأعطاني أرضاً، وأعطى الصديق أرضاً، وجاءت الدنيا فاختلفنا في نخلة. فكان بيننا كلام، فقال لي الصديق كلمة كرهتها، وندم الصديق، فقال لي: يا ربيعة ردَّ علي مثلها حتى يكون قصاصاً؛

فقلت: لا أفعل، فقال: لتقولنَّ أو لأستعدينَّ عليك رسول الله ﷺ، فقلت: وما أنا بفاعل، فانطلق إلى النبي ﷺ فتبعته وحدي حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه، فرفع إلي رسول الله ﷺ رأسه، فقال: «يا ربيعة ما لك وللصديق؟» فقلت يا رسول الله، كان كذا وكذا. فأبيت أن أقتصَّ منه، فقال ﷺ: «أجل، فلا ترد عليه، ولكن قل: غفر الله لك يا أبا بكر»، فقلت غفر الله لك يا أبا بكر، فولى أبو بكر وهو يبكي.

والصديق صاحب رسول الله وأرحم أمة محمد بأمته: فقد ورد عن ابن عمر: أن النبي ﷺ قال للصديق:(أنت صاحبي في الغار، وصاحبي على الحوض) الترمذي عن ابن عمر.

قال صاحب كتاب «المحاسن المجتمعة في الخلفاء الأربعة»: أثبت الله الصحبة لأبي بكر بقوله ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ ﴿٤٠﴾﴾ فمن أنكرها فقد كفر.

وقال في «شرح المشكاة»: أجمع المفسرون على أن المراد بالآية الصديق، وقالوا: من أنكر صحبته فقد كفر لأنه أنكر النصَّ الجليَّ، بخلاف غيره من الصحابة. وقال ﷺ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر». وهو أفضل هذه الأمة.

فقد روى المؤرخون أنه وفد ناسٌ من أهل البصرة، وناسٌ من أهل الكوفة على عمر بن الخطاب، فلما نزلوا المدينة تحدث القوم بينهم إلى أن جاء ذكر أبي بكر وعمر، ففضل بعضهم أبا بكر على عمر، وفضل بعض القوم عمر على الصديق، فجاء عمر ومعه درته، فأقبل على الذين فضلوه على أبي بكر، فجل يضربهم بالدرة حتى ما يتقي أحدهم إلا برجله. وكان بين الناس الجارود بن المعلّى، وهو من قبيلة عبد قيس كان نصرانياً فأسلم سنة عشر للهجرة، وفرح النبي بإسلامه وإسلام قومه عبد قيس وكان سيدهم، فأكرمه النبي ﷺ وقربه، وكان صلباً في دينه، استشهد في أرض فارس سنة ٢١ هـ، فلما رأى الجارود عمر يضرب الناس، قال له: أفق أفق يا أمير المؤمنين، وكان الجارود ممن فضل الصديق على عمر أثناء المناقشة. فإن الله عز وجل، لم يكن ليرانا تفضيلك على الصديق أبو بكر أفضل منك في كذا، وأبوبكر أفضل منك في كذا، قال: فسُرِيَ عن عمر ثم انصرف. فلما كان العشيُّ صعد عمر المنبر فقال: ألا إن أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، فمن قال غير هذا بعد مقامي هذا فهو مفتر، عليه ما على المفتري.

وقد نقل ابن قتيبة في كتابه «عيون الأخبار» ونسبه إلى شاعر النبي حسان بن ثابت في النبي ﷺ وصاحبيه:

ثلاثـــــــة بـــــــرزوا بـــــسَبْقهم نـــــضَّرهم ربهـــم إذا نُـــشروا
عاشـــوا بـــلا فرقـــة حيـــاتهم واجتمعـــوا في المـــات إذ قـــبروا
فلـــيس مـــن مـــسلم لـــه بـــصرٌ ينكـــر مـــن فـــضلهم إذا ذكـــروا

ويروي ابن سعد في «طبقاته»: أن النبي ﷺ لما آخى بين أصحابه آخى بين أبي بكر وعمر، فأقبلا يوماً، أحدهما آخذ بيد صاحبه، وقال النبي ﷺ: (من سَّره أن ينظر إلى سيّدي كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين فلينظر إلى هذين المقبلين).

والآن ننظر ما كان رأي علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالصديق: روى صاحب كتاب «تهذيب ابن عساكر» أن علياً قال: لقد صنع رسول الله ﷺ بأبي بكرٍ أمراً ما صنعه بي، يوم جاء المشركون يقتلون رسول الله ﷺ خرج ﷺ وخرج بأبي بكرٍ معه، فلم يأمن على نفسه أحداً غيره، حتى دخل الغار. وسُئل عليٌّ يوماً عن أبي بكر وعمر، فقال للسائل: على الخبير سقطتَ، كانا والله إمامَيْن، هاديَيْن مَهديَّيْن، راشدين مرشدين، مصلحين منجحين، خرجا من الدنيا خميصين. أي أنهما عفيفان عن أموال الناس. ثم قال علي: جعل الله أبا بكر وعمر حجة على من بعدهما إلى يوم القيامة، فسبقا والله سبقاً بعيداً، وأتعبا من بعدهما إتعابا شديداً. وقال علي مرة على المنبر: سبق رسول الله ﷺ، وصلى أبوبكر، وثلث عمر، ثم خبطتنا فتنة.

ويروي الزمخشري في «المختصر» ـ كما ذكر الطنطاوي عليه رحمة الله تعالى ـ:أن علياً كان يقضي ذات يوم في الكوفة، إذ قال رجل: يا خير الناس انظر في أمري، فوالله ما رأيت أحداً هو خيرٌ منك. فقال علي: قدموه، فقُدم فقال له علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هل رأيت رسول الله ﷺ؟ قال الرجل: لا، قال علي: هل رأيت أبا بكر وعمر؟ قال: لا، قال علي: لو أخبرتني أنك رأيت رسول الله ﷺ لضربتُ عنقك، ولو أخبرتني أنك رأيت أبا بكر وعمر لأوجعتك ضرباً.

قال العلماء ومن مناقبه: اختصاصه بالفتوى بين يدي رسول الله ﷺ: يروي صاحب «الرياض النضرة»، أن الذين كانوا يفتون في عهد رسول الله ﷺ أربعة عشر من الصحابة، أما الفتوى أمام النبي ﷺ وبحضرتهِ فلم تكن لأحد غير أبي بكر.

وقد روى الشيخان في حديث أبي قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: (من قتل قتيلاً له عليه بيّنةٌ فله سَلَبُهُ)، وكنت قتلت رجلاً من المشركين فقمت وقلت: من يشهد لي؟ ثم جلست فعادها

النبي ﷺ فقمت فقلت: من يشهد لي؟ ثم جلست، فعادها النبي ﷺ الثالثة، فقال رجلٌ: صَدَقَ يا رسول الله سلبه عندي فأرضِهِ عني. فقال الصديق: لا هاالله إذاً (أي لا والله حين إذٍ) لا أعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله يعطيك سلبه. فقال ﷺ: (صَدَقَ فأعطه). فقال أبو قتادة: فبعت الدرعة فابتعت به ـ مخرفاً ـ أي بستاناً في بني سلمة ـ وهم بطن من الأنصار ـ فإنه لأول مالٍ تأثلته ـ أي أصبته ـ في الإسلام.

ومن مناقبه: اختصاصه بالشورى بل وبتعبير الرؤى بين يديه ﷺ: ففي قصة الحديبية عندما عزم النبيﷺ على العمرة، وجاءت الأخبار أن المشركين جمعوا الجموع لصده ﷺ عن البيت، فقالﷺ: «أشيروا عليَّ أيها الناس»، فقال الصديق: يا رسول الله، خرجت قاصداً لهذا البيت لا تريد قتال أحد، فتوجه له، فمن صدَّنا قاتلناه، فقال ﷺ: «امضوا على اسم الله عز وجل».

أما في التعبير وفي الصحيحين أن رجلاً أتى النبيﷺ وقال: يا رسول الله رأيت في المنام ظلة تنطف عسلاً وسمناً والناس يتكففون منها، فالمقل والمستكثر، ثم رأيت سبباً وأهلاً من السماء أخذت به فعلوت، ثم أخذ به بعدك آخر فعلا، ثم أخذ به آخر فانقطع، ثم وصل له فعلاً، فقال الصديق: دعني أعبرها يا رسول الله فقالﷺ: عبرها، قال: الظلة الإسلام، والسمن والعسل القرآن وحلاوته ولينه، والسبب فهو الحق الذي جئت به، فقالﷺ: (أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً)، قال: أقسمت عليك لتخبرني، قال: لا تقسم.

وفي الختام سئل ابن عباس أي رجل كان أبوبكر؟ قال: كان خيراً كله على حدّة فيه.

عمر بن الخطاب

رضي الله عنه

المقدمة

نحن ندرس سيرة الصحابة ومناقبهم ليكونوا قدوة لنا، لأن الصحابة الأجلة، هم البدور الأدلّةُ، وهم مقتدانا في الدين بعد الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، فعلينا الاقتداء بهم، والتوقير لهم، والاستمساك بهديهم، كما قال صاحب كتاب «صفحات من صبر العلماء».

قال ابن مسعود رضي الله عنه:

مَنْ كان متأسياً منكم، فليتأسَّ بأصحاب النبي ﷺ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً، قوم اختارهم الله لصحبة رسوله ﷺ، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الهدي المستقيم.

قال الطنطاويان في كتاب «أخبار عمر»:

قال صاحب كتاب «أخبار عمر» لعلي الطنطاوي وأخيه ناجي الطنطاوي رحمهما الله تعالى، (وينبغي أن نترحم على من نستفيد منهم علماً، كما قال الإمام التميمي: يقبح بكم أن تستفيدوا منا ولا تترحموا علينا.

قال الطنطاوي: لقد قرأت سير آلاف العظماء من المسلمين وغير المسلمين، فوجدت فيهم من هو عظيم بفكره، ومن هو عظيم ببيانه، ومن هو عظيم بخلقه، ومن هو عظيم بآثاره.

ووجدت عمر بن الخطاب قد جمع العَظمةَ من أطرافها، فكان: عظيم الفكر، والأثر، والخُلق، والبيان.

فإذا أحصيت عظماء العلماء والفقهاء، ألفيتَ عمر في الطليعة فلو لم يكن له إلا فقهه لكان به عظيماً.

وإن عددت الخطباء والبلغاء، كان اسم عمر من أوائل الأسماء، وإذا ذكرت عباقرة المشرعين، أو نوابغ القادة، وجدت عمر عظيماً في كل طائفة.

وهو فوق ذلك عظيم في أخلاقه، عظيم في نفسه.

وقال فيه صاحب «الحلية»: ثاني القوم عمر الفاروق، ذو المقام الثابت المأنوق، أعلن الله به دعوة الصادق المصدوق، السكينةُ تنطق على لسانه، والحق يُجري الحكمة عن بيانه، كان للحق مائلا، وبالحق صائلاً، وللأثقال حاملاً، ولم يُخْفِ دون الله طائلاً.

عمر في الجاهلية:

قال صاحب كتاب (أخبار عمر): عاش عمر خمساً وستين سنة، أمضى قرابة نصفها في ظلام الخمول، كان فيه نكرة مجهولاً، لا اسم له ولا مجد، ونصفها الآخر في نور العظمة، كان فيها علمَ الأعلام، وأعظم العظماء، وكانت نقطة التحول هي اللحظة التي قال فيها عمر: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

عندها ولد عمر حقاً وبدأت حياته في التاريخ.

أمضى عمر في الجاهلية ثلاثين سنة (لأنه ولد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة) لا يُعرف عنه فيها إلا أنه عمر بن الخطاب بن نفيل من بني عدي، وأسرة بني عدي إحدى أسر قريش العشر التي اتصل شرفها في الجاهلية والإسلام ولكن ليس لبني عدي من الوجاهة ما لأسرةِ بني هاشم ولا بني أمية، ولا بني مخزوم التي كانت أم عمر بن الخطاب منهم واسمها (حنتمة بنت هاشم بن المغيرة المخزومي).

لم يكن والده – الخطاب – من وجوه قريش، ولا من أصحاب التقدم، ولا من أصحاب الرياسة، بل كان رجلاً فظاً غليظاً يكلف ولده عمر برعي إبله، فكان كما قال عمر: يُتعبني إذا علمتُ ويضربني إذا قصرت.

كما لم يعرف عمر فيها ألوان الترف ولا مظاهر الثروة.

قال صاحب كتاب (سيرة الفاروق): تركت هذه المعاملةُ القاسية من أبيه أثراً سيئاً في نفس عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فظل يذكرها طيلة حياته، ولنسمع إلى حديث (لعبد الرحمن بن حاطب) حيث يقول: كنت مع عمر بن الخطاب بـ(ضَنْجان)، وهو جبل على مسافة من مكة (٢٥) كم فقال عمر: كنت أرعى للخطاب بهذا المكان، فكان فظاً غليظاً، فكنت أرعى أحياناً، وأحتطب أحياناً.

ولما كانت هذه الفترة قاسية عليه، فقد استمر يذكرها، ويذكر فضلَ الله عليه بعد ذلك.

يحدثنا (سعيد بن المسيب) عليه رحمة الله، أن عمر بن الخطاب لما حج ورأى (ضنجان)

قال: (لا إله إلا الله العلي العظيم المُعطي ما شاء لمن شاء، كنتُ أرعى إبل الخطاب في هذا الوادي، في مَدْرعة صوف، وكان فظاً يتعبني إذا عملت، ويضربني إذا قصرت، وقد أمسيت ليس بيني وبين الله أحد، ثم تمثل بقول القائل:

لا شيء مما تَرى تبقـــى بشاشتُـه ... يبقـــى الإله ويُردى المال والولد

لم تُغْنِ عن هرمز يومــــاً خزائنه ... والخُلدَ قد حاولت عادٌ فما خلدوا

ولا سليمانَ إذ تجري الريــــاحُ به ... والإنـــــسُ والجن فيما بينها بُرُدُ

أين الملوك التي كانت نواهلهـــا ... من كـــــل أَوْبٍ إليها راكبٌ يَفِدُ

حوضٌ هنالك مورودٌ بلا كــذب ... لابد مـــــن وِرْدِهِ يوماً كما وَرَدُوا

والمؤرخون يذكرون أن عمر لم يكن يرعى لأبيه وحده، بل كان يرعى لخالاتٍ له من بني مخزوم، ولقد ذكر هو عن نفسه ذلك عندما كان أميراً للمؤمنين.

وحين شعر أنه أُعجبَ بنفسه.. فأراد أن يُميتَ هذا الإعجاب في النفس، فوقف بين المسلمين يوماً ونادى بالصلاة جامعة فلما اجتمع الناس.. صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على نبيه قال: أيها الناس، لقد رأيْتني أرعى على خالات لى من بني مخزوم، فيقبضنَ لي قبضة من التمر أو الزبيب، فأظل يومي وأيُّ يوم؟.ثم نزل. فقال له عبدالرحمن بن عوف: مازِدتَ أنْ قَمَّأتَ نفسك – أي عِبْتَبها –، فقال ﵁: ويحك يا ابن عوف!!! إني خلوتُ فحدَّثتني نفسي، أنت أمير المؤمنين فمن ذا أفضلُ منك؟!! فأردتُ أن أُعرِّفها نفسَها، وفي رواية: فأردت أن أطأطئ منها.

قال المؤرخون: كان في الجاهلية موكلاً بالسفارة لقريش، فكانوا إذا وقعت حرب بينهم وبين غيرهم بعثوه سفيراً، للمفاوضة عنهم، وإن نافرهم منافر، أو فاخرهم مفاخر، رضوا به منافراً ومفاخراً... المنافرة – ذكر الأحساب –.

لكن هذا المنصب – أي السفارة لقريش – ليست إلا اسماً، كما قال الطنطاوي في كتابه عن عمر ﵁، ويُعلِّلُ ذلك فيقول عليه رحمة الله تعالى: وإذا عرفنا أن قريشاً لم تكن قَبيلَ حرب

وقتال، ولم يكن لها حروب مع غيرها إلا في الندرة، وأنه لا يكاد يجرؤ على مفاخرتها أحد من العرب، عرفنا أن السفارة منصب ليس له كبير وزن.

قال المؤرخون: ثم اشتغل بالتجارة قبل إسلامه وربح منها فسافر إلى الشام صيفاً وإلى اليمن شتاء.

وكان متفانياً في الدفاع عن كل ما أَلِفَتْهُ قريش من عادات وعبادات ولذلك قاوم عمر الإسلام أول الدعوة، لأنه خاف أن يهزَّ هذا الدين الجديد النظام المكي الذي يجعل لمكة مكاناً خاصاً عند العرب لوجود البيت الذي يُحَجُّ إليه، وبوجود هذا البيت فيها صار لمكة ثروتها الروحية والمادية، فوجود البيت سبب لازدهارها وغِنى سُراتِها، ولهذا قاوم سراةُ مكة هذا الدين، وبطشوا بالمستضعفين ذلك لأن من طبع عمر أنه إذا ذهب مذهباً أوغلَ فيه، وإذا أيد فكرةً بذل في ذلك جهده كله، وهذا دأب المخلصين في كل زمان ومكان كما قال صاحب كتاب «أخبار عمر».

قال أهل العلم: لم يكن يُصدِّقُ أحد أن عمر يُسلم، ولكن الله استجاب فيه دعوة نبيه المصطفى ﷺ، إذ سأل الله أن يُعزَّ الإسلام بأحبِّ الرجلين إليه، بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب.

فقد روى الترمذي أنه ﷺ دعا فقال: «اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك: بأبي جهل بن هشام، أو بعمر بن الخطاب»، فكان من فضل الله على عمر أن كان أحبَّ الرجلين إلى الله.

والله سبحانه إذا أراد أمراً هيأ أسبابه فكان دعاء النبي ﷺ السبب الأول والأهم، والبخاري لَمَّح في (صحيحه) إلى سبب ثانٍ لإسلام عمر، وملخص هذا السبب، أن عمر بن الخطاب كان جالساً في الناس في مسجد رسول الله ﷺ إذ مرَّ رجل جميل من العرب داخلاً المسجد يريد عمر بن الخطاب؛ فلما نظر إليه عمر قال: إن هذا الرجل لعلى شِرْكِه ما فارقه بعد، أو لقد كان كاهناً في الجاهلية، فجاء الرجل فسلم على عمر ثم جلس؛ فقال له عمر: هل أسلمت؟ قال الرجل: نعم يا أمير المؤمنين، قال عمر: فهل كنت كاهناً في الجاهلية؟ فغضب الرجل – وهو الصحابي الجليل سواد بن قارب – وقال: ما رأيت كاليوم استقبل به رجل مسلم، قد جاء الله بالإسلام، فما لنا ولذكر الجاهلية، قال عمر: أَعزمُ عليك – أي أُلزمك – إلا ما أخبرتني، اللهم

غفراً قد كنا في جاهلية شرّ من هذا، نعبد الأصنام حتى أكرمنا الله برسوله.

قال سواد: نعم والله يا أمير المؤمنين، لقد كنت كاهناً في الجاهلية.

قال عمر: فما أعجب ما جاءتك به جنيتك؟ أوصاحبك؟

قال سواد: جاءتني قبل الإسلام بشهر أو شَيْعِه – أي أقل من شهر – أعرف فيها الفزع فقالت لي: وكنتُ بين النائم واليقظان – في رواية محمد بن كعب – قم يا سواد بن قارب، واسمع مقالتي، واعقلها، فقد بُعثَ نبيٌّ من بني هاشم (ألم تر الجن وإبلاسها، ويأسها من بعد إنكاسها، ولحوقها بالقلاص وأحلاسها).

الإبلاس: اليأس من شيء فقدته فهي تفتش عنه. والإنكاس: الانقلاب عن الشيء أي يئست من استراق السمع بعد أن فقدته، وغلبت وقهرت، وقوله: ولحوقها بالقلاص... إشارة إلى السبق للإسلام، لورود شعر في هذا المعنى من الجني:

عجبتُ للجـــــن وتَطلابها وشـــــدها العيس بأقتابها

تهوي إلى مكة تبغي الهـــدى ما صـــــادقُ الجن كَكَذَّابِها

فارحل إلى الصفوة من هاشم ليـــــس المقاديم كأذنابها

قال عمر (لسواد بن قارب): صدقت، وهنا شاهد القصة.

فقد كنت مرة نائماً عند آلهتهم، إذ جاء رجل بعجل فذبح، فصرخ به صارخ لم أسمع صارخا قط أشدّ صوتاً منه يقول: يا جليح – يا وقح –، أمر نجيح، رجل فصيح، يقول لا إله إلا الله، قال عمر: فوثبت مع من معي من القوم فما نشبنا أن قيل: هذا نبي.

قال أهل السير: ويذكر سواد بن قارب لعمر كيف أن رِئْيهُ كرر عليه المقالة وهو بين النائم واليقظان يُعلِمُه ببعث رسول من لؤي بن غالب وأنشد:

أتاني نَجِيِّي بعـــــد هَدْءٍ ورقدةٍ ولم يــــك فيما تلوت بكاذب

ثلاث ليال قولـــــه كل ليلة أتاك رسول من لؤي بن غالب

ولما بعث ﷺ أسرع سواد فأسلم وقص عليه قصة رئيه وأنشد:

فأشهـد أن الله لا ربَّ غيـره وأنـــــك مأمون على كل غائب

وإنك أدنى المرسليــن وسيلة | إلى الله يا ابـنَ الأكرمين الأطايب
فَمُرْنا بما يأتيك من وحي ربنـا | وإن كان فيما قلت شيبُ الذوائب
وكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعة | بمغــنٍ فتيلاً عن سواد بن قارب

وقص سواد القصة على عمر.

قال الراوي: فالتزمه عمر وقال: كنت أشتهي أن أسمع هذا الحديث منك، فهل يأتيك رئيك اليوم؟ قال:

أما منذ قرأتُ القرآن فلا، ونعم العِوضُ كتاب الله عز وجل.

قال المؤرخون: كان عمر من شدته على من آمن، لا يخطر ببال أحدهم أن يسلم هذا الفَظُّ.

تروي زوج عامر بن ربيعة، وهي أم عبد الله بنت حنتمة قالت: لما كنا نرتحل إلى الحبشة، أقبل عمر حتى وقف عليَّ، وكنا نلقى منه البلاء والأذى والغِلظة علينا، فقال لي: إنه الانطلاق يا أم عبدالله؟ قلت: نعم، والله لنخرجن في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا فرجاً، فقال عمر: صحبتكم السلامة أو صحبكم الله. ورأيت منه رقةً لم أرها قطُّ، فلما جاء زوجها عامر، وكان خرج لبعض حاجاته ذكرت له رقة عمر، فقال عامر: كأنك طمعتِ في إسلام عمر؟ قلت: نعم فقال: إنه لا يُسلِمُ حتى يسلم حمار الخطاب.

ويرى المؤرخون: أن هذه أول شعاعةٍ من نور الإيمان لامست نفسه - أخبار عمر - حين رأى نساء قريش يرحلن إلى بلد غريب - الحبشة - فرق قلبه، وعاتبه ضميره، فأسمعهن تلك الكلمة الطيبة التي ليس بالعادة صدورها منه.

وهناك: إشعاعة أخرى، تشير إلى وقوع الإسلام في قلبه، يرويها عمر ذاته، وقد وردت في مسند أحمد، وفي كتب تراجم أصحاب النبي ﷺ، قال عمر: خرجت أتعرَّضُ لرسول الله ﷺ قبل أن أسلم فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقمت خلفه، فاستفتح سورة (الحاقة) فجعلت أعجب من تأليف القرآن، فقلت: هذا والله شاعر كما قالت قريش، فقرأ ﷺ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١﴾[1]، قال عمر: قلت كاهن، قال: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن

(١) الحاقة: ٤٠-٤١.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾(١) فوقع الإسلام في قلبي.

لكن هذه المرحلة – كما قال أهل العلم والكاتبون في شخصية عمر – كانت رحلة تردُّدٍ، حيث لازال دين قومه متمكِّناً من نفسه، فلم تلبث هذه الشعاعة أن اختفت، وعاد إلى أشدَّ مما كان عليه قبلها، بل لقد عزم على قتل محمد ﷺ كما روى أهل التاريخ، حين اجتمعت قريش وتشاورت في شأن النبي ﷺ فقالوا: من منكم يقتل محمداً؟ فقال عمر: أنا لها، فقالوا: أنت لها يا عمر، فخرج في الهاجرة – نصف النهار عند اشتداد الحر – في يوم شديد الحرّ، متوشحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه فيهم الصديق وعلي وحمزة وغيرهم، قيل له إنهم مجتمعون في بيت عند الصفا في دار الأرقم، وفي الطريق التقى عمر بنعيم بن عبدالله النخَّام، وهو من قبيلة عمر من بني عدي، وكان قد أسلم، فقال لعمر: أين تريد يا عمر؟

قال: أريد هذا الصابئ الذي فرَّق أمر قريش وسفَّه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها، فأقتله.

قال له نعيم: لبئس الممشى مشيتَ ياعمر، ولقد والله غَرَّتْك نفسك من نفسك، ففرَّطت وأردت هلكة بني عديّ، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟ فتحاورا حتى علت أصواتهما، فقال عمر: إني لأظنك قد صَبَوتَ، ولو أعلم ذلك لبدأت بك، فلما رأى نُعيم أن عمر غير مُنْتهٍ قال له: إني أخبرك أن أهلك وأهل ختنك قد أسلموا أفلا ترجع إليهم فتقيم أمرهم؟ قال عمر: وأيُّ أهل بيتي؟ قال: خَتَنك وابنُ عمك سعيد بن زيد، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما وتابعا محمداً ﷺ على دينه، فعليك بهما، وقد تركوك وما أنت عليه من ضلالتك.

قال أهل العلم: فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه وعندهما خباب ابن الأرتِّ ومعه صحيفة فيها سورة(طـه)، وكان خباب مُعلِّم هؤلاء الثلاثة سراً – فاطمة وزوجها سعيد، ونعيم ابن عبدالله النحام – في الفترة السرية في دار الأرقم.

فلما وصل عمر وسمعوا حسَّه هرب خباب في مخدع لهم – وهو البيت الصغير يكون في

---

(١) الحاقة: ٤٢-٤٧.

البيت الكبير – وأخذت فاطمة الصحيفة وجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا من البيت قراءة خباب، فلما دخل قال: ما هذه الهَيْنمة؟ - أي صوت كلام لم أفهمه – قالا له: ما سمعت شيئاً، قال: بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه، فقال له ختنه: أرأيت يا عمر إذا كان الحق في غير دينك؟ فوثب عمر على ختنه سعيد متواثباً، وكان عمر قوياً شديداً، فضرب بسعيد الأرض ووطئه وطأً ثم جلس على صدره، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها فضربها فشجها، عندما قالت له أخته: نعم لقد أسلمنا، وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك!! يا عدو الله أتضربني على أن أُوحِّدَ الله! لقد أسلمنا على رغم أنفك.

فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع، وقام عن صدر ختنه ثم قال: أعطوني هذه الصحيفة التي كنتم تقرؤونها آنفاً، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد ﷺ، وكان عمر قارئاً، فلما قال ذلك، قالت أخته: إنا نخشاك عليها، قال: لا تخافي، وحلف لها بآلهته وأعطاها المواثيق ليرُدَّنها إذا انتهى من قراءتها، فلما قال ذلك، طمعت في إسلامه.

فقالت له: يا أخي إنك نجس على شركك، وإنه لا يمسها إلا الطاهر. فقام عمر، فاغتسل، فأعطته الصحيفة وكان فيها – طه -، وسورٌ أخرى فرأى فيها (بسم الله الرحمن الرحيم)، فلما مر بالرحمن الرحيم ذُعِرَ، فألقى الصحيفة من يده، ثم رجع إلى نفسه فأخذها فإذا فيها: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾[1]: فجعل كلما مر باسم من أسماء الله ذعر.

قال أهل العلم: وكان في الصحيفة سورة – طه – أيضاً و- ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾[2] -.

قالوا: لما قرأ: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾.

قالوا: فعظمت في صدره، فقال: من هذا فرت قريش؟ ثم قرأ، فلما وصل إلى قوله تعالى:

---

(١) الحديد: ١-٣.

(٢) التكوير: ١.

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ قال: أينبغي لمن يقول هذا الكلام أن لا يُعبدَ معه غيره.

فلما سمع خباب هذا الكلام خرج من مخبئه وقال لعمر: يا عمر، أبشر فإني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإنه سمعته أمس – يوم الاثنين – وهو يقول: اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك، بأبي جهل بن هشام، أو بعمر بن الخطاب، فالله الله يا عمر، عندها قال عمر: فدلني يا خباب على مكان رسول الله حتى أسلم، فلما عرفوا منه الصدق قالوا: هو في بيت عند الصفا مع نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، فنظر من خلال الباب فرآه متوشحاً بالسيف.

فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو خائف، فقال: يارسول الله! هذا عمر بن الخطاب متوشحاً سيفه، وكان النبي ﷺ في الداخل يُوحَى إليه، فلم يجترئ أحد على فتح الباب لما يعلمون من شدة عمر على رسول الله ﷺ، وكان حمزة وطلحة قرب الباب، فلما رأى خوف الأصحاب على رسول الله ﷺ قال: افتحوا له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن جاء يريد شراً قلناه بسيفه. ففتحوا له وأخذ حمزة ورجل آخر بعضديه حتى أدخلاه على رسول الله ﷺ فقال ﷺ: أرسلوه، فأرسلوه، فنهض ﷺ فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل سيفه، فنتره نترة، فما تمالك عمر أن وقع على ركبتيه، وقد ارتعد من هيبة المصطفى ﷺ، وقال له النبي ﷺ: ما جاء بك ياابن الخطاب؟ ما أنت بمنتهٍ ياعمر حتى ينزل الله بك قارعة (ما أنزل بالوليد بن المغيرة).

قال عمر: يارسول الله! جئتك لأومن بالله ورسوله، وبما جاء به من عند الله.

قال أهل العلم: فكبَّر رسول الله ﷺ تكبيرةً عرف منها من في البيت من أصحاب النبي ﷺ أن عمر قد أسلم وكبر المسلمون تكبيرة واحدة سُمعت في طرق مكة.

وقد روى: يونس ابن إسحق، أن عمر حين أسلم قال:

الحمد لله ذي المنِّ الذي وجبت ... له علينا أيادٍ مالها غِيَرُ
وقد بدأنا فكذَّبنا فقال لنا ... صدقَ الحديث نبيٌّ عنده الخبرُ

وقد ظلمتُ ابنة الخطاب ثم هدى ... ربي عشيته قالوا: قد صبا عُمرُ
وقد ندمتُ على ما كان من ذللٍ ... بظلمها حين تتلى عندها السوَرُ
لما دعتْ ربَّها ذا العرش جاهدة ... والدمع في عينها عجلان يبتدرُ
أيقنتُ أن الذي تدعوه خالقُها ... وأن أحمد فينا اليوم مشتهر
نبيٌّ صدق أتى بالحق من ثقةٍ ... وافي الأمانة مافي عوده خورُ

إعلان إسلامه:

قال صاحب كتاب «أخبار عمر» لما أسلم عمر أسلم بإخلاص، وعمل لتأكيد الإسلام بمثل الإندفاع الذي كان يعمل به لمحاربته.

فقال للنبي ﷺ: يا رسول الله، ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال ﷺ: بلى، والذي نفسي بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم. قال عمر: ففيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق لتخرجنَّ.

قال الطنطاوي في كتابه «أخبار عمر»: وكان الرسول على ما يبدو قد رأى أن الأوان قد حان لإعلان الدعوة بعد سريتها، فأذن ﷺ بالإعلان وخرج في صفَّين من المسلمين عمر في أحدهما، وحمزة في الآخر، ولهم كديد – الغبار الناعم إذا ثار أثناء مشي جماعة عليه – ككديد الطحين، حتى دخل المسجد، فنظرت قريش إلى عمر وإلى حمزة، فأصابتهم كآبة لم تصبهم قط، وسمى رسول الله ﷺ عمر يومئذ الفاروق كما ذكر صاحب «الحلية».

وقد روى البخاري عن ابن مسعود قال: ما زلنا أعزةً منذ أسلم عمر. وقال ابن مسعود: كان إسلام عمر فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت إمارته رحمةً؛ لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتلهم حتى تركونا فصلينا.

قال صاحب أخبار عمر: لما أظهر عمر إسلامه أتى النبيَّ ﷺ وقال له: ما يحبسك بأبي أنت وأمي فوالله مابقي مجلس كنت أجلس فيه بالكفر إلا أظهرتُ فيه الإيمان غير هائبٍ ولا خائفٍ... لا نعبد سراً بعد اليوم.

فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤ ﴾[1].

قال ابن عباس: نزلت لما أسلم عمر، وهي أول آية نزلت في تسمية الصحابة مؤمنين، وكان عمره سبعاً وعشرين سنة.

قال صهيب بن سنان: لما أسلم عمر جلسنا حول البيت حلقاً، وطفنا وانتصفنا ممن غلظ علينا، وكان إسلام عمر في السنة السادسة من البعثة، بعد إسلام حمزة بثلاثة أيام في شهر ذي الحجة، وكان عدد المسلمين يومئذ تسعة وثلاثون.

قال عمر: لقد رأيتني وما أسلم مع رسول الله ﷺ إلا تسعة وثلاثون رجلاً فكملتهم أربعين، فأظهر الله دينه وأعز الإسلام.

وروى البخاري عن عبدالله بن مسعود قال: مازلنا أعزة منذ أسلم عمر، وصدق في عمر وعزته بالإيمان قولُ صاحب النونية – القحطاني – حين قال:

أعني به الفاروق فرّق عنــوةً   بالسيف بين الكفر والإيمان

هو أظهرَ الإسلام بعد خفائه   ومحا الظـلام وباح بالكتمان

هجرة عمر:

قال ابن مسعود: كان إسلام عمر فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وأمارته رحمة، فإلى هجرته يروي علي بن أبي طالب هجرة عمر فيقول: ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا متخفياً إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما هَمَّ بالهجرة، تقلد سيفه وتَنكَّبَ قوسه، وانتضى في يده أسهماً، واختصر عنزته – وهي عصا صغيرة في أسفلها زج كحديدة الرمح ووضعها على خصره – ومضى قبل الكعبة، والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعاً متمكناً، ثم أتى المقام فصلى متمكناً، ثم وقف على الحِلَقِ واحدةً واحدة...

فقال لهم: شاهت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن يُثكل أمه، أو يوتم ولده، أو يرمل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي، قال علي: فما تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين علَّمهم وأرشدهم ثم مضى لوجهه.

---

(١) الأنفال: ٦٤.

والآن إلى ذكر هجرته: قال الطنطاوي نقلاً عن «سيرة ابن هشام»:

لما عزم عمر على الهجرة، أخبر صديقيه: عياش ابن أبي ربيعة وهشام ابن العاص، واتفقوا على الصحبة في الهجرة على أن يكون لقاؤهم في – منازل بني غفار – على بعد عشرة أميال من مكة فمن تخلف عن الموعد تركوه ورحلوا، وصل عمر وعياش إلى المكان المتفق عليه وحبس هشام ابن العاص في مكة وفتن في دينه..

سار عمر وعياش حتى وصلا قُباء في طرف المدينة فنزلا على رفاعة بن عبد المنذر، فلحقهما – أبو جهل وأخوه الحارث – فقالا لعياش ابن أبي ربيعة: إن أمك نذرت ألا يُظِلَّها سقف، ولا يمسَّ رأسها دهنٌ حتى تراك، فاستشار عياش عمر ابن الخطاب، فقال لعمر: والله ما أرادا إلا ردَّك عن دينك، فاحذرهما ولا تذهب، فوالله لو آذى أمك القمل لادَّهنت وامتشطت، ولو اشتدَّ عليها حر مكة لاستظلت، قال عياش: فإن لي بمكة مالاً لعلّي آخذه فيكون قوةً للمسلمين، وأكون قد بررت بقسم أمي، قال عمر: إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما، فأبى إلا أن يخرج معهما، عندها قلت له: أما إذ قد فعلت ما فعلت، فخذ ناقتي هذه، فإنها ناقةٌ نجيبةٌ ذلول فالزم ظهرها، إن رابك من القوم ريبٌ فانجُ عليها، وسار عياش معهم، فلما كانوا – بضجنّان – على طريق مكة قال أبو جهل: والله يا أخي لقد استغلظت بعيري هذا أفلا تعقبني على ناقتك؟ قال عياش: بلى، فأناخ الناقة وأناخ التجول عليها، فلما استووا في الأرض أوثقاه رباطاً، حتى أدخلاه به مكة، وفتن فافتتن، والتفت أبو جهل إلى أهل مكة وخاطبهم فقال: (هكذا يا أهل مكة فافعلوا بسفهائكم). ثم حبسوه.

قال عمر: كنا نقول ما الله بقابلٍ ممن افتتن صرفاً ولا عدلاً، ولا توبةً، قومٌ عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاءٍ أصابهم، هكذا كنا نقول، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل الله تعالى فيهم – في الذين فتنوا – وفي قولنا وقولهم لأنفسهم أنه لن يُقبل منا صرف ولا عدل ولا توبة، أنزل قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا

﴿...تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾[1].

قال عمر: فكتبتها بيدي في صحيفة، وبعثت بها إلى هشام بن العاص وقد نزلت في مكة فلم يسمعها عمر هناك، إنما سمعها بعد أن هاجر؛ لأنه هاجر قبل النبي ﷺ.

يقول هشام: فلما وصلتني الورقة من عمر جعلت أقرؤها، وكنت – بذي طوى – وادٍ من أودية مكة، أقرؤها، وأُصعِّدُ فيها بصري وأصوّبُ ولا أفهمها، حتى قلت: اللهم فهّمنيها، فألقى الله في قلبي أنها إنما نزلت فينا، وفيما كنا نقول في أنفسنا، وفيما يقال فينا.

وانتبه يا عبدالله إلى قوله تعالى: ﴿أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

والإسراف نوعان، نوع يعود عليك بالشر والضرر لذلك قال تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾، أما الثاني فهو الإسراف الذي يعود عليك بالخير، فهو إسراف لك لا عليك كما قال أهل العلم، وضربوا على ذلك مثالاً فقالوا: المؤمن الذي يدفع زكاة ماله عشرةً بالمائة بدلا من اثنين ونصف بالمائة فهذا ادخر الباقي لأخرته.

وهنا نريد أن نبين إلى أمر هام وهو: أن الإسراف تعريفه: تجاوز الحدّ، والحدّ هو ماشرعه الله لعباده، فاصلاً بين الحلِّ والحرمة، وحدود الله إما أن ترد بعد شيء منهي عنه فيقول سبحانه: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴿١٨٧﴾﴾[2] أي لا تقرب هذا المنهي عنه؛ لأن قربك من الشيء يغريك به، وكما ورد في الحديث «من حام حول الحمى يوشك أن يواقعه» البخاري.

أما إن كان الحدّ بعد أمر فمعناه احذر أن تتجاوزه لذلك يقول الله تعالى في الأوامر: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴿١٨٧﴾﴾ أي آخر غايتكم إلى هنا.

قال أهل العلم: وما زال عمر يفكر في رفيقيه ويرجو خلاصهما من الكفر والأسر فكتب البشارة بيده إلى هاشم بن العاص.

وقد ورد عن البخاري: عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ كان يدعو لعياش بن أبي ربيعة وغيره في قنوت صلاة العتمة يقول: اللهم أنْجِ عياش، اللهم أَنْجِ المستضعفين من المؤمنين.

---

(١) الزمر: ٥٣-٥٥.

(٢) البقرة: ١٨٧.

قال أبو هريرة: وأصبح ذات يوم فلم يدعُ لهم، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال ﷺ: (أو ما تراهم قد قدموا؟).

وكان أول من نجا من الأسر بدعاء النبي ﷺ: الوليد بن الوليد بن المغيرة ثم كلفه الرسول ﷺ أن يعود متخفياً إلى مكة ويحتال في خلاص عياش وغيره..

ذهب الوليد بن الوليد، واستدل على المكان الذي حبس فيه عياش.. وكان محبوساً في بيت لا سقف له، فلما أمسى تَسوَّرَ البيت ثم أخذ مروة ووضعها تحت القيد، ثم ضرب القيد بسيفه فقطعه، ثم حمل عياش على بعيره وساق به حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة.

ويعلق الصادق عرجون على هذه القصة فيقول: وهكذا كان الإخاء الإيماني يفرض على أهله التعاون والمساواة في سبيل عقيدتهم، وافتداء دينهم بأرواحهم.

والآن ننتقل إلى صحبته للنبي ﷺ:

قال أهل العلم: كان عمر في صحبته للنبي ﷺ مثال التلميذ الجريء القويّ المطيع، ولما كان النبي ﷺ مأموراً بمشاورة أصحابه فكان عمر يمثل جانب الصرامة في إقامة الحق عندما يشاوره رسول الله ﷺ.

قال الطنطاويان: وكان عمر قد أحسَّ من رسول الله ﷺ ارتياحاً إلى سماع رأيه فكان يعرض رأيه كلما رأى في عرضه رضا الله ومنفعة المسلمين، وكثيراً ما اقترح رضي الله عنه أموراً، فنزل الوحي بها، كما كان قد بلغ الغاية في الإخلاص لرسول الله ﷺ وكان يؤثر رغبة رسول الله ﷺ ورضاه على هوى نفسه، حتى إنه فرح بإسلام العباس عم النبي ﷺ يوم أسلم أكثر من فرحه بإسلام أبيه لو أسلم، لأن إسلام العباس كان أحب لرسول الله من إسلام الخطاب.

واسمع معي أخي الكريم إلى بعض مواقفه التي تدلك على إخلاصه وتفانيه في نصرة دينه.

يروي ابن هشام في سيرته نقاشاً حصل بين عمر وسعيد بن العاص وقد التقيا يوماً.

قال عمر لسعيد وقد شعر منه جفاءً وذلك بعد معركة بدر: إني أراك كأن في نفسك شيئاً، أراك تظن أني قتلت أباك في بدر، إني لو قتلته لم أعتذر إليك من قتله، ولكني قتلت خاليَ العاص بن هشام بن المغيرة، وأما أبوك فقد مررت به وهو يبحث بحث الثور بِرَوْقه – أي بقرنه –

فحِدتُ عنه، وقصد له ابن عمه عليٌ فقتله.

وله موقفٌ آخر مع رسول الله يوم بدر: قال عمر لرسول الله ﷺ وكان قد وقع سهيل بن عمر أسيراً بيد المسلمين، وكان من خطباء المشركين يحرض على حرب النبي ﷺ.

فقال عمر: يا رسول الله، دعني أنتزع ثنيتيه ويدلع لسانه، فلا يقومَ عليك خطيباً في موطنِ أبداً.

فقال ﷺ: لا أُمثِّلُ به فيمثِّل الله بي وإن كنت نبياً، إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمُّه.

قال ابن هشام: فلما توفي رسول الله ﷺ: هَمَّ أهل مكة بالرجوع عن الإسلام.. حتى خاف منهم – عتاب بن أسيد – وكان والياً لرسول الله ﷺ على مكة فتوارى حتى ينجلي موقفهم، فقام سهيل بن عمرو فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر وفاة رسول الله ﷺ ثم قال: إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة، فمن رابنا ضربنا عنقه، فتراجع الناس وكفوا عما هَمُّوا به، وظهر عتاب، فكان هذا هو المقام الذي أراده ﷺ.

موقفٌ له أيده الوحي الكريم وهو:

موقفه من أسرى بدر: يروي الطبري والسهيلي في «الروض الأنف»، ونقل عنهما صاحب كتاب – أخبار عمر – أن عمر قال: لما كان يوم بدر وهزم الله المشركين فقُتل منهم سبعون وأُسِرَ سبعون استشار النبي ﷺ أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً، فقال لي رسول الله ﷺ ماترى يا ابن الخطاب؟ قلت: أرى أن تمكنّي من فلان – أحد قرابة عمر – فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل بن أبي طالب الهاشمي أسلم يوم الفتح وتوفي أيام خلافة يزيد – فيضرب عنقه –، وتمكن حمزة من أخ له – أي العباس – فيضرب عنقه حتى يَعلم اللهُ، وفي رواية – حتى يُعلَمَ – أنه ليس في قلوبنا هوادة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم، فلم يهوَ رسول الله ﷺ ما قلت، وإنما هوي ما قاله الصديق، وكان الصديق قد قال النبي ﷺ حين استشاره.

يا نبي الله: هؤلاء بنو العم والعشرة والإخوان، فإني أرى أن نأخذ منهم الجزية، فيكون ما أخذنا منهم قوةً، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضداً، فهوي ﷺ ما رآه الصديق.

ثم سكت رسول الله بعد استشارتهم فلم يجبهم، ثم دخل فقال ناس: يأخذ بقول الصديق، وقال آخرون: يأخذ بقول عمر، ثم خرج عليهم ﷺ فقال: «إن الله عز وجل لَيُلينُ

قلوب رجال فيه حتى تكون ألينَ من اللبن، وإن الله ليشدّدُ قلوب رجال فيه، حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾(١) ، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى، قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾(٢).

ومثلك يا عمر مثل نوح قال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾(٣) ، ومثلك كمثل موسى قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾(٤)، قال عمر: فلما كان الغد غدوت إلى النبي ﷺ فإذا هو قاعد وأبو بكر وهما يبكيان فقلت: أخبرني يارسول الله ما يبكيك وصاحبك؟ فإن وجدت بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما.

فقال النبي ﷺ: للذي عرض عليّ أصحابك من الفداء، ولقد عرض عليّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة، وأنزل الله عز وجل قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾(٥) ، ثم أنزل ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴿٤﴾﴾(٦).

عندها قال رسول الله ﷺ في صحة موقف عمر: (إن كاد ليمسنا في خلاف ابن الخطاب عذاب عظيم، ولو نزل العذاب ما أفلت إلا عمر)، وفي رواية – إلا سعد ابن معاذ –؛ لأنه قال للنبي ﷺ: (يا نبي الله كان الإثخان في القتل أحب إليّ من استبقاء الرجال).

قال ابن جرير وابن المنذر وغيرهما، أن ابن عباس قال في هذه الآيات: قال الله تعالى ذلك يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل، فلما كثروا واشتدَّ سلطانهم أنزل الله بيان حكم الأسرى قوله ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴿٤﴾﴾ حيث جعل الخيار للنبي ﷺ: إن شاؤوا قتلوهم، أو استعبدوهم، أو

---

(١) إبراهيم: ٣٦.

(٢) المائدة: ١١٨.

(٣) نوح: ٢٦.

(٤) يونس: ٨٨.

(٥) الأنفال: ٦٧-٦٨.

(٦) محمد: ٤.

فادوهم، أو بالعتق وإطلاقهم من الأسر.

ومن مواقفه المشهورة في حياة النبي ﷺ وصحبته له: قصته مع عمير بن مَهْب.

قال ابن إسحاق: جلس عميربن مهب الجمحي مع صفوان بن أمية بعد مصاب المشركين في بدر في الحجر، وكان عمير هذا شيطاناً من شياطين قريش، ومن من كان يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابه بمكة.

كان عمير له ذِكْر في قومه يعرفونه بالدهاء والتعقل المشوب بالتشيطن كما قال الصادق عرجون، وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر.

جلس عمير مع صفوان في الحِجْر وذكرا مقتل قادتهم في بدر، وذكرا أصحاب القليب، فقال صفوان بن أمية: والله مافي العيش بعدهم خير، فقال عمير: صدقت، والله لولا دين عليّ لا أجد قضاءه، وعيال أخشى عليهم الضيقة بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي قبلهم علّةً: ابني وهيب أسيرٌ عندهم.

قال المؤرخون: فاغتنمها صفوان وقال لعمير: عليّ دَينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا، فقال عمير: فاكتم شأني وشأنك، قال صفوان: أفعل، وتكفل صفوان بتجهيز عمير، وأمر له بسيفٍ بالغ في صقله وشحذه، وأشبعه سماً زعافاً، ونهض عمير نهضة المكظوم المورّط ـ كما يقول الصادق عرجون في كتابه «محمد رسول الله» وهو يودع صفوان متثاقلاً يَعِدُه ويُمنّيه، وما يَعدُه إلا الغرور، وانطلق عمير إلى المدينة حتى إذا وصلها أناخ بباب المسجد، واعتقل بعيره وتوشح سيفه وهمّ بالدخول على رسول الله ﷺ، فرآه الألمعيُّ القويُّ الأمين عمر بن الخطاب، وكان قد جلس إلى نفر من الأنصار يتحدثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله به وما أراهم من عدوّهم، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد، ففزعَ عمر إذ رأى شيطان قريش عمير بن وهب يهمُّ بدخول المسجد، وسيفٌ في عنقه، فقال: هذا الكلب، عدوُّ الله، عمير بن وهب، والله ما جاء إلا لشرٍّ، وهو الذي حرّش بيننا وحزرَنا للقوم يوم بدر.

ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: يا نبيَّ الله، هذا عدوُّ الله عمير بن وهب، قد دخل المسجد متقلداً سيفه وهو الغادر الفاجر يا رسول الله، لا تأمنه على شيء، فقال النبي ﷺ: أدخله

عليّ، فخرج عمر، فأمر أصحابه: أن ادخلوا على رسول الله ﷺ، واحترسوا من عمير، وأقبل عمر على عمير، وأخذ بحمالة سيفه في عنقه، ولبَّبَهُ بها، ودخل به على رسول الله ﷺ وسيفه في رقبته، فلما رآه رسول الله ﷺ وعمر آخذٌ بحمالة سيفه في عنقه قال ﷺ: أرسله ياعمر، ادنُ يا عمير! فدنا، وقال: أنعموا صباحاً ـ وكانت هذه تحية أهل الجاهلية بينهم ـ فقال رسول الله ﷺ: قد أكرمنا الله بتحيةٍ خيرٌ من تحيتك يا عمير، بالسلام، تحية أهل الجنة، فقال عمير: أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد، ثم قال ﷺ: فما جاء بك ياعمير؟ قال عمير: جئت لهذا الأسير الذي بين أيديكم ـ يعني ولده وهب ـ فأحسنوا فيه.

قال ﷺ: فما بال السيف في عنقك؟ قال: قبَّحها الله من سيوف! وهل أغنت عنا شيئاً؟ قال ﷺ: اصدقني ما أقدمك؟ قال عمير: ما جئت إلا لذلك! قال ﷺ: (بل قعدتَ مع صفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلتَ: لولا دين عليَّ وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك، على أن تقتلني له، والله حائلٌ بيني وبين ذلك). قال عمير: وقد تنزلتْ قطرات غيث الهداية من سماء الإيمان، فانقلب في لحظةٍ من شيطانٍ مريد إلى مؤمنٍ رحيم، فقال وهو بين يدي رسول الله ﷺ: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذّبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما آتاك به إلا الله فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق، فقال ﷺ: اجلس يا عمير نؤانسك. وفي روايةٍ نواسيك.

قال الصادق عرجون: ولكلٍ من الروايتين احتمال صحيح، فالأولى نؤانسك من الأنس والمؤانسة بعد الوحشة والمواحشة، وقد أصيب عمير بما أذهله عن نفسه واستوحش، فأراد النبي ﷺ أن يتلطف به بعد إسلامه ليزيل وحشته ويريه أثر الإخاء الإيماني بين المؤمنين، وهذا من مكارم الأخلاق التي يضعها منهج الرسالة في طلائع آدابه وتشريعاته.

أما الرواية الثانية: نواسيك، فهي من المواساة، وهي البذل والعطاء والمعاونة، وعمير كان في أشدّ الحاجة إلى المعونة والإحسان المادي والمعنوي بعد الذي تحمُّله في سفرته وما نزل به فيها من المفاجآت.

ثم التفت رسول الله ﷺ إلى أصحابه وقال لهم: علموا أخاكم القرآن.

قال أهل العلم: في هذه الجملة الموجزة منهج رسالة الإسلام وعمير صار أخاً للمؤمنين جميعاً، والإخاء الإيماني أساسه القرآن وربط هذا الإخاء الإيماني بتعليم القرآن ربطٌ للمؤمنين عامة بشريعة الدستور الأعظم (القرآن)، ثم أمر النبي ﷺ بإطلاق أسيره فقال: وأطلقوا له أسيره دون فداء، وهنا استقرت مشاعر عمير وهدأت نفسه، وذاق حلاوة الإيمان.

قال عرجون: ونظر عمير إلى ماضيه في ميزان حاضره، فرأى أنه في أشد الحاجة إلى غسل رجس هذا الماضي ليكفر عن نفسه أسوأ ما عمل في ظل الوثنية السابقة. فقال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، إني كنت جاهداً ما استطعت في إطفاء نور الله، والحمد لله الذي هداني من الهِلكة، فائذن لي يا رسول الله، فألحق بقريش، فأدعوهم إلى الله لعلَّ الله أن يهديهم ويستنقذهم من الهلكة. فأذن له رسول الله ﷺ فلحق بمكة، وكان صفوان بن أمية لا يزال يتكعكع في ظلمات الكفر، متطلعاً لأخبار عمير فيما اتفقا عليه، وفيما شرطه لعمير، وكان صفوان يقول لقريش – دون أن يكشف لهم هذا الاتفاق على قتل محمد ﷺ – أبشروا بفتح ينسيكم وقعة بدر، وجعل يسأل كل قادم من المدينة، هل حدث فيها حدثٌ؟ حتى قدم عليه رجل يعرفه فأخبره أن عميراً أسلم!! وقدم عمير على مكة فدعا قريشاً إلى الإسلام، وأوذي في ذلك، وأسلم على يده خلق كثير ومر عمير بصفوان مرة وهو في الحجر، فقال له عمير: أنت سيد من ساداتنا، أرأيت الذي كنا عليه من عبادة حجر والذبح له، أهذا دين؟ فأعرض عنه صفوان ولم يكلمه.

وجاء يوم فتح مكة، وهرب صفوان مع من هرب، وإلى هربه من المعركة أشار أحد المشركين في شعر له، ويذكر ابن هشام في سيرته سبب هذا الشعر الذي قاله «حماس بن قيس» فيقول: كان صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما قد جمعوا أُناساً لقتال خالد بن الوليد عند دخوله مكة على قيادة المسلمين وكان حماس هذا مع صفوان وعكرمة، فدخل بيته وأعد سلاحه، فقالت له زوجته: لماذا تُعِدُّ ما أرى؟ قال: لقتال محمد وأصحابه، قالت: والله ما أرى أن يقوم لمحمد وأصحابه شيء، قال لها زوجها حِماس: والله إني لأرجو أن أخدمك بعضهم، ثم قال:

إنْ يُقبلوا اليوم فمالي علّة هذا سلاح كامل وألّه[1]

وذو غرارين سريع السلة[1]

---

(١) الألّه: الحربة.

ثم كان اللقاء بجيش خالد، فانهزم المشركون أمامه، وكان صفوان بن أمية، وحماس بن قيس من جملة المنهزمين، ودخل حماس بيته منهزماً وقال لامرأته: أغلقي علي بابي، قالت: فأينما كنت تقول؟ فقال:

إنك لو شهدتي يـــوم الخندمة إذ فرَّ صفـــوان وفر عكرمة

وأبو يزيد قائـــم كالمؤتمـــة واستقبلتهم بالسيوف المسلمة

يقطعن كل ساعد وجمجمـــة ضرباً فلا يسمع إلا غمغمـــة(٢)

لهم نهيت خلفنا وهمهمـــــة - لم تنطقي باللوم أدنى كلمـة(٣)

قال المؤرخون: وهرب صفوان من مكة قاصداً جدة ليركب البحر إلى اليمن وهنا يدخل (عمير بن وهب) على رسول الله ﷺ ويقول له: يا نبي الله، إن صفوان بن أمية سيد قومه، وقد خرج هارباً منك ليقذف نفسه في البحر، فأمنه صلى الله عليك، قال ﷺ: هو آمن، قال عمير: يا رسول الله، فأعطني آية يعرف بها أمانك، فأعطاه ﷺ عمامته التي دخل بها مكة، فخرج عمير بعمامة رسول الله ﷺ حتى أدركه، وهو يريد أن يركب البحر، فقال عمير له: يا صفوان: فداك أبي وأمي، الله الله في نفسك أن تهلكها، فهذا أمان من رسول الله ﷺ قد جئتك به؛ قال صفوان: ويحك! اغرب عني لا تكلمني.

قال عمير: أي صفوان، فداك أبي وأمي، أفضل الناس، وأبرُّ الناس، وأحلم الناس، وخير الناس، ابن عمك، عِزُّه عزك، وشرفه شرفك، وملكه ملكك؛ قال صفوان: إني أخافه على نفسي، قال عمير: هو أحلم من ذاك وأكرم، فرجع صفوان معه، حتى وقف به على رسول الله ﷺ فقال: إن هذا يزعم أنك قد أمنتني، قال ﷺ (صدق) قال: فاجعلني بالخيار شهرين. قال ﷺ: أنت بالخيار فيه أربعة أشهر، وكانت زوجته أسلمت قبله ثم أسلم رضي الله عنه وحسن إسلامه، واستعار من ﷺ درعاً يوم حنين والآن، نذكر موقفاً له يوم فتح مكة، قال أهل السيرة: حين قصد النبي ﷺ مكة يوم الفتح نزل (بمر الظهران) مع جيشه الضخم، خاف العباس على أهل مكة.. فركب بغلة

---

(١) ذو غرارين: ذو حَدَّين.

(٢) الغمغمة: صوت الأبطال.

(٣) الهمهمة: صوت الأسد.

النبي ﷺ وقال: اخرج لعلي أرى حطاباً يدخل مكة فيخبرهم بمكان رسول الله حتى يأتوا إليه ويستأمنوه، فسمع صوت أبي سفيان مع نفر من المشركين خرجوا يتحسسون الأخبار. فرأوا نيران المسلمين تملأ الرحب...

فقال بعضهم: نيران خزاعة، قال أبو سفيان خزاعة أذل من ذلك، ففاجأهم العباس وقال: إنه رسول الله ﷺ فقال: أبو سفيان ما واءك يا أبا الفضل؟ قال: اركب معي أستأمن لك رسول الله ﷺ فركب فمر على نار عمر.. فرأه.. ثم سبقه العباس إلى خيمة رسول الله ﷺ وقال العباس: قد أجرته، فقال ﷺ: أما آن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟ قال بلى بأبي انت وأمي.. ثم قال أبو سفيان كيف أصنع بالعزى؟ وكان عمر وراء القبة يسمع، فقال تَخْرأ عليه.

وفي إسناد متصل ﷺ خرج إلى الحرم فرأه أبوسفيان قال في نفسه: ليت شعري بأي شيء غلبتني؟ فدنا منه ﷺ وضرب بين كتفيه وقال: بالله غلبتك يا أبا سفيان فقال: أشهد أنك رسول الله.

نتابع بعض مواقف عمر في حياة النبي ﷺ وصحبته له:

كان عمر من أكثر الصحابة جرأةً، فكثيراً ما كان يسأل رسول الله ﷺ عن أمور يريد أن يدرك حكمها، وكان يبدي رأيه واجتهاده بكل وضوح ومن شدة فهمه وحرصه نزل القرآن الكريم في مواقف كثيرة يوافق رأيه ومن ذلك:

١-ما رواه علي رضي الله عنه قال:

انطلق عمر إلى اليهود فقال لهم: إني أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى، هل تجدون وصف محمد ﷺ في كتابكم؟ قالوا: نعم، قال عمر: فما يمنعكم من اتباعه؟ قالوا: إن الله لم يبعث رسولاً إلا كان له من الملائكة كفيل، وإن جبريل هو الذي يكفل محمداً وهو الذي يأتيه، وجبريل عدونا من الملائكة، وميكائيل سلمنا، فلو كان هو الذي يأتيه اتبعناه. قال عمر: فإني أشهد أنه ما كان ميكائيل ليعادي سلمَ جبريل، وما كان جبريل ليسالم عدوَّ ميكائيل.

قال علي: فمرّ نبي الله فقالوا – أي اليهود – هذا صاحبك يا ابن الخطاب. فقام إليه عمر وقد أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ

فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾[١].

وقد روى أهل العلم هذه القصة بأكملها، قالوا: يروى عن سيدنا عمر بن الخطاب أنه كان له أرض في أعلى المدينة... وكان حين يذهب إلى أرضه هذه يمر على مدراس اليهود، ويجلس إليهم – رغبة منه في الازدياد من العلم الوارد في التوراة في وصفه ﷺ – وظن اليهود أن مجلس عمر معهم دليل على حبه لهم...

فقالوا له مرة (إننا نحبك ونحترمك ونطمع فيك... ففهم عمر مرادهم فقال: والله ما جالستكم حباً فيكم... ولكني أحببت أن أزداد تصوراً لرسول الله ﷺ وأعلم مافي كتبكم عنه... فقالوا له: ومن يخبر محمداً بأخبارنا وأسرارنا؟ فقال عمر: إنه جبريل.. قالوا: هو عدونا... فقال عمر: كيف منزلته من الله؟ قالوا:إنه يجلس عن يمين الله، وميكائيل عن يسار الله... فقال عمر: مادام الأمر كما قلتم فليس أحدهما عدواً للآخر، لأنهما عند الله بمنزلة واحدة... فمن كان عدواً لأحدهما فهو عدو لله.. فلن تشفع لكم عداوتكم لجبريل ومحبتكم لميكائيل لأن منزلتهما عند الله عالية، ثم قال لهم عمر: أنتم أشد كفراً من الحمير... ثم ذهب إلى رسول الله ﷺ فلم يكن رسول الله ﷺ يراه حتى قال ﷺ له: (وافق ربك يا عمر..) وتنزل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ فقال عمر: يا رسول الله.. إني بعد ذلك في إيماني لأصلبُ من الجبل.

قال الشعراوي: إن عداوتهم لجبريل تؤكد ماديتهم... فهم يقيسون الأمر على البشر، إن الذي يجلس عن يمين السيد، ومن يجلس عن يساره يتنافسان على المنزلة عنده... هذا في دنيا البشر.. أما عند الملائكة فلا شيء من هذا لأن الله اسمه الحق، وما ينزل به جبريل حق، وما ينزل به ميكائيل حق... والحق لا يخصم الحق، وعداوتهم لجبريل عداوة للحق، ولذلك قال لهم عمر: أنتم أشد كفراً من الحمير..

٢ – أما الموقف الثاني في موافقة عمر للقرآن الكريم، وفي ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴿١٢٥﴾﴾[٢] قال النسفي في هذه الآية: أن النبي ﷺ

---

(١) البقرة: ٩٧-٩٨.

(٢) البقرة: ١٢٥.

أخذ بيد عمر فقال ﷺ: (هذا مقام إبراهيم) فقال عمر: أفلا نتخذه مصلى؟ فقال عليه الصلاة والسلام، (لم أومر بذلك)، فلم تغب الشمس حتى نزلت الآية ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، وقوله: (مثابةً) مرجعاً للحجاج والعمار يتفرقون عنه ثم يثوبون إليه، وقد أخبر النبي ﷺ أن موسى حج البيت وهوداً حج من قبل، وكذا سائر الأنبياء والمرسلين – وقوله (مصلى) أي قلنا لمن حج البيت، أو اعتمر اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، فكان معه سنة من طاف بالبيت أن يصلي خلف المقام ركعتين، ومقام إبراهيم هو الحجر الذي قام عليه إبراهيم ليصعد عليه لإتمام بناء البيت.

والبيت: اسم غالبٌ للكعبة، كما يقال: النجم للثريا. وهذا البيت كلما ازداد المؤمن له زيارة، ازداد له اشتياقاً، فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد، تشتاق إليه الأرواح ولو ترددت إليه كل عام استجابة من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ۝٣٧﴾[1] ونصها: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝٣٧﴾. وصدق في هذا البيت قول القائل:

محاسنه هيولى كل حُسْنٍ ومغناطيسُ أفئدة الرجال

لذلك كان عمر يأمر من يحج ويُنهي مناسكه أن يتحرك إلى بلده، لأن الناس فيه ينسون همومهم.. وأمور دنياهم كما يقول الشعراوي: أتحدى أن أحداً يذكر الدنيا هناك.

لا يَرجعُ الطرفُ عنها حين يعبرها حتى يعود إليها الطرفُ مشتاقا

قال العلماء: ومن موافقاته للقرآن، سورة النور ٥٨

٣ – موافقته في الاستئذان: ذلك أن النبي ﷺ بعث غلاماً من الأنصار يقال له – مدلج – يدعوه له فوجده نائماً وقت الظهيرة فدق الباب ودخل فاستيقظ عمر فانكشف منه شيء لا يحب ولا يصح أن يراه عليه أحد، فقال عندها عمر: وددت أن الله نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا أن لا يدخلوا علينا في هذه الساعة إلا بإذن، ثم انطلق إلى رسول الله ﷺ فوجد الآية الثامنة والخمسين من سورة النور قد نزلت في هذا الغرض نفسه، فخرَّ ساجداً شكراً لله تعالى، فأما الآية فهي قوله

---

(١) إبراهيم: ٢٧.

تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ ﴿٥٨﴾ ﴾(١).

هنا وقفة تربوية صغيرة نشير إليها، قد يقول قائل: كيف أمر الله تعالى بالاستئذان لهم، مع أنهم غير مكلفين؟ والجواب: أن هذا الأمر في الحقيقة للكبار أن يعلموا الصغار، كما في الحديث الشريف «مروا أولادكم للصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر» فالتكليف للكبار أن يعلموا الصغار.

قال أهل العلم: الله سبحانه سمى هذه الأوقات الثلاثة عورةً ﴿ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ ﴾، والعورة: أصل معناها الخلل والنقص، ثم أطلقت على ما يكره انكشافه والنظر إليه، والله لا يريد أن يراك أحد على شيء تكرهه، والعرب تقول لمن به خلل في عينه – أعور –، ويقولون لكل كلمة قبيحة: – عوراء –، وللكلمة الحسناء – عيناء –، يقول الشاعر:

وعوراء جاءت من أخ فردَدْتُها ... بســـالمةِ العينين طالبةً عُذْرا

أي لم أردَّ القبيحةَ بمثلها.

٤ – ننتقل إلى موافقته في تحريم الخمر:

نقل الطنطاويان في كتابهما «أخبار عمر» عن أبي ميسرة قال: كان عمر حريصاً على تحريم الخمر، فكان يقول: اللهم بيِّنْ لنا في الخمر فإنها تذهب المال والعقل، فنزل قوله تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ ﴿٢١٩﴾ ﴾(٢) فدعا رسول الله ﷺ عمر فتلاها عليه، فقال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، وكان بعد نزول قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾(٣) فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب فتلاها عليه، فقال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت آية المائدة: ٩١ وهي قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ

---

(١) النور: ٥٨.

(٢) البقرة: ٢١٩.

(٣) النساء: ٤٣ .

﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾[1] ، فدعا رسول الله ﷺ عمر فتلاها عليه فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ قال عمر: انتهينا يا رب.

وهكذا فهم عمر من الاستفهام الإنكاري أن الخمر حرمت؛ لأن هذا الاستفهام أقوى وأقطع في التحريم من النهي العادي.

قال أنس بن مالك: حرمت الخمر ولم يكن للعرب عيشٌ أعجب منها، وما حرم عليهم شيء أشدَّ عليهم من الخمر.

قال ابن عاشور: كان الخمر قوام أود حياتهم، وقصارى لذاتهم، ومسرة زمانهم، وملهى أوقاتهم، تلمس ذلك في قول طرفة:

ولولا ثلاثٌ هُنَّ من عيشة الفتى ... وجَدِّكَ لم أحفلْ متى قام عُوَّدي

فمنهن سبقُ العاذلات بشربـــة ... كُميـت متى ما تُعلَّ بالماء تُزبدِ

فلا جَرمَ أنْ جاء الإسلام بتحريمها بطريقة التدريج، وكان تحريمها في المدينة بعد غزوة الأحزاب سنة أربع أو خمس على الخلاف.

وسُميت الخمر خمراً من قولهم: خمَرَه خمراً، إذا ستره، للمبالغة في تضييعها للعقول وسترها، ولأنها تُركت حتى أدركتْ، ومنه يقال: اختمر العجين.

ومن شدة تعلقهم بها كثرت أسماؤها: وهي صفات لها في الحقيقة، مثل: الشَّمول: لأنها تشمل القوم بريحها، الرحيق: صفوة الخمر التي لا غش فيها، الخندريس: القديمة منها، الحُميَّا: الشديدة منها، العُقار: عاقرت الدنَّ، الراح: لأن شاربها يرتاح لها، أو يستطيب ريحها، أو يجد بها رَوْحاً، وقد جمع ابن الرومي معاني الراح بقوله:

والله ما أدري لأيـــــــة علةٍ ... يَدْعونها في الرّاحِ باسم الرّاحِ

أَلريحها، أم رَوْحها تحت الحشا ... أم لارتيـــاح نديمها المرتاح

القهوة: هي التي تُقهي صاحبها، أي: تذهب بشهوة طعامه.

السُّلاف: التي تَحلَّب عصيرها من غير عصر، الكُمَيْتُ: اختلاط الحمرة بالسّواد، القرقف:

---

(١) المائدة: ٩٠-٩١.

لبرودتها، وكان معظم شراب العرب من فضيخ التمر وهو البُسْر ما بين البلح والرطب، - طلع، خلال، بسر، رطب، تمر -.

أما أشربة أهل المدينة يوم التحريم فكانت خمسة غير عصير العنب وهي من: - التمر والزبيب والعسل والذرة والشعير -؛ لأن شراب العنب كان قليلاً لندرة وجوده، وكان شراب العنب يجلب إلى الحجاز ونجد من اليمن والطائف والشام.

قال عمر بن كلثوم:

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تُبقي خمـــــور الأندرينا

- الأندرين بلد من بلاد الشام

٥ – موافقته في الحجاب:

ففي البخاري، قال عمر: قلت يا رسول الله لو أمرتَ نساءك أن يحتجبن فإنه يكلمهن البرُّ والفاجر فنزلت آية الحجاب، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ﴿٥٣﴾﴾(١).

وعن ابن مسعود: قال: أمر عمر نساء النبي ﷺ أن يحتجبن، فقالت له زينب: وإنك علينا يا ابن الخطاب والوحي ينزل في بيوتنا؟ فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ ﴿٥٣﴾﴾(٢).

قال السعدي في تفسيره: أما أدب المسلمين مع النبي ﷺ في خطاب زوجاته لطلب فتيا، أو سؤال حاجة، فإما أن يحتاج إلى ذلك، أو لا يحتاج إليه، فإن لم يحتج إليه فلا حاجة إليه، والأدب تركه، وإن احتيج إليه، فإنهن يسألن – من وراء حجاب – أي سترٍ يستر عن النظر لعدم الحاجة إليه، ثم انتبه إلى دقيق قوله سبحانه وتعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ﴾ أطهر، قال ابن عاشور: فقلوب الفريقين طاهرة بالتقوى، وحرمة النبي ﷺ، ولكن لما كانت التقوى لا تصل بهم إلى درجة العصمة أراد الله أن يزيدهم من الحفظ الإلهي لطرد الخواطر الشيطانية، فإن للناس أوهاماً وظنوناً سوأى كما في الإفك فكان شرع الحجاب لأمهات المؤمنين قاطعاً لكل تقوُّلٍ. لأنه

(١) الأحزاب: ٥٣.

(٢) الأحزاب: ٥٣.

ما من رجل ينظر إلى امرأة جميلة إلا ويترك ذلك في نفسه أثراً. ولهذا نحن مأمورون بغض الطرف... ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴿٥٣﴾﴾[1].

موافقته في ترك الصلاة على المنافقين:

وخلاصة هذا الموقف؛ أن – عبدالله بن أبي بن سلول –، الذي كان زعيم المنافقين في المدينة، لما نزل به مرض الموت طلب ولده – الحباب – (وهذا اسمه الأول) طلب من رسول الله ﷺ أن يعطيه قميصه ليكفن به والده فقال له ﷺ: ما اسمك؟ قال الولد: الحباب، فقال ﷺ الحباب اسم الشيطان وسماه النبي عبدالله وقال له: أنت عبدالله بن عبدالله. فأعطاه رسول الله القميص، وقال لولده عبدالله: إذا فرغتم فآذنوني، وكان ولده قد طلب من النبي ﷺ أن يصلي عليه وأن يستغفر له، فقال ﷺ اذا فرغتم فآذنوني، وعند الطبري وفي «مصنف عبدالرزاق» حديثٌ مرسلٌ عن قتادة، أورده ابن حجر في الفتح وقال فيه: «هذا مرسل مع ثقة رجاله» أن النبي ﷺ وقف بجوار عبدالله بن أبي بن سلول وقال له: أهلكك حب يهود «لأن ابن أبي كان يعاون اليهود ويجاملهم، ونفاقه في الإسلام كان مجاملة لليهود، وكان يظهر أمام اليهود الكفر، ويظهر أمام المسلمين الإيمان، فلما قال له رسول الله ﷺ «أهلكَكَ حبُّ يهود» قال: يا رسول الله إنما بعثت إليك لتستغفر لي، لا لتؤنبني فلما قام رسول الله ﷺ بالصلاة عليه وثب عمر ووقف بين الرسول ﷺ وبين القبلة وقال يا رسول الله، أليس الله قد نهاك أن تصلي على المنافقين، يا رسول الله أتصلي على إبن أبي، وقد قال يوم كذا وكذا.. يعدد للنبي ﷺ مواقفه الخبيثة، فتبسم النبي ﷺ وقال لعمر: آخر عني يا عمر، فلما أكثرت عليه قال ﷺ: إني خيرني ربي فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾[2].

قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم إنصرف فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من سورة التوبة (براءة) وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ

(١) الأحزاب: ٥٣.

(٢) التوبة: ٨٠.

﴿أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾[1].

وهكذا قال عمر: فعجبتُ من جرأتي على رسول الله ﷺ والله ورسوله أعلم فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان، فما صلى بعدها رسول الله ﷺ على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله.

قال البروسوي في تفسيره: ونزول الوحي وفق قول عمر في مواقف كثرة يدلُّ على منقبة عظيمة من مناقب عمر، منها هذه الآية، وهو منصبٌ عالٍ ودرجةٌ رفيعة له في الدين ولذلك قال ﷺ في حقه: «إنه كان فيما مضى قبلكم من الأمم مُحَدَّثون، فإنه إن كان في أمتي هذه فإنه عمر بن الخطاب».

والرسول بقوله هذا يشير لفضل عمر، وقد قيل في فضائل عمر:

له فضائلُ لا تخفى على أحـــد   إلا علـــى أحدٍ لا يعرف القمر

هنا يبرز سؤال: كيف يعطي رسول الله ﷺ قميصه ليكفن فيه زعيم المنافقين وكيف صلى عليه واستغفر له؟

الجواب: قال أهل العلم: إن النبي ﷺ صلى قبل نزول النهي عن الصلاة على المنافقين فلما نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴿٨٤﴾﴾، لم يُصلِّ.

وأما الاستغفار فقد خيَّره الله فيه بقوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾.

فالنبي ﷺ يعلم أن الله لن يغفر للمنافقين، وإنما قام بالاستغفار لعبدالله بن أبي بن سلول لأمرين:

الأول: لإرضاء ولده، الحباب والذي سماه رسول الله ﷺ عبدالله، الذي طلب من رسول الله ﷺ ذلك وقال: يا رسول الله إن لم تأتِهِ لم نزلْ نُعَيَّر به..

ثم إن عبدالله بن أبي له بعض المواقف الدنيوية التي يُحمد عليها، فأراد النبي ﷺ أن يكافئه عليها هنا، حيث لا حَظَّ له في الآخرة، فصلى عليه مجاملةً مع علمه ﷺ أن ذلك لا ينفعه، وهذه

---

(١) التوبة: ٨٤-٨٥.

المواقف ذكرها المؤرخون، منها: أن العباس عم النبي ﷺ لما أسره المسلمون يوم بدر، ولم يجدوا له قميصاً يساوي قدَّه وطوله وكان العباس رجلاً طويلاً، كساه عبدالله بن أبي قميصه، فدفع النبي ﷺ قميصه إلى أبي لما مات ردّاً لجميله لا إعزازاً وإكراماً له.

كما أن عبدالله بن أبي بن سلول له موقف في قضية صلح الحديبية حين ذهب المسلمون لأداء العمرة وصدهم المشركون عن البيت الحرام وانتهى الأمر بعقد صلح الحديبية، وكان المشركون يعلمون أن في نفس عبدالله بن أبي شيئاً من رسول الله ﷺ لأن هجرته ﷺ إلى المدينة منعت ابن أبي من أن يتوج ملكاً.

وكان اليهود يعلمون نفاق عبدالله بن أبي فأرادوا تعميق الخلاف بينهما فقالوا للنبي ﷺ: لا نسمح ذلك يا محمد ولا لأصحابك دخول مكة هذا العام، ولكن نسمح لعبدالله بن أبي ومن معه بدخول مكة وأداء العمرة فرفض عبدالله بن أبي وقال: إن لي في رسول الله ﷺ أسوة حسنة لا أريد أن أذهب للعمرة إلا إذا ذهب محمد ﷺ وهذا موقف يذكر له، كما أن في الاستغفار له تأليفاً لقلب المنافقين، حيث ذكر البروسوي في تفسيره، أن ألفاً من المنافقين تابوا ورجعوا عن النفاق وعلماء السيرة يذكرون أنه ﷺ قال: «يخفف العذاب عن أبي لهب يوم الاثنين» لماذا؟

لأنه ﷺ لما ولد يوم الاثنين سُرَّ أبولهب بميلاد الرسول وأعتق الجارية التي بشرته مع أنه نزل فيه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾[(١)].

قال العلماء: ومن مواقف عمر في حياة النبي ﷺ.

موقفه من صلح الحديبية:

قال المؤرخون: لما جرى الصلح يوم الحديبية بين المشركين ورسول الله ﷺ، ولم يبق إلا الكتابة، جاء عمر فأتى رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال ﷺ: بلى، قال: أليس قتلانا في الجنة، وقتلاهم في النار؟ قال ﷺ: بلى، قال عمر: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ أنرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ قال ﷺ: ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيعني الله أبداً.

فانطلق عمر إلى أبي بكر، فقال له مثلما قال للنبي ﷺ، فقال الصديق: إنه رسول الله ولن

---

(١) المسد: ١.

يضيعه الله أبداً.

ثم نزلت سورة الفتح، فقرأها رسول الله على عمر إلى آخرها، فقال عمر: يا رسول الله! أو فتح هو؟ قال ﷺ: نعم. قال عمر: فما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق مخافة كلامي هذا الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيراً.

قال ابن القيم: هذه الرواية وقعت في صحيح البخاري، وذكر بعض أهل المغازي: أن عمر رضي الله عنه أتى أبا بكر أولاً فقال له ذلك، ثم أتى رسولَ الله ﷺ بعده، فقال له مثل ما قال ابو بكر.

قال السهيلي: وهذه الرواية هي الأولى بل وهي المحفوظة، فإنه لا يُظَنُّ بعمر أن يقول له رسول الله ﷺ قولاً فلا يرضى به، حتى يأتي أبا بكر بعد ذلك.

موقف آخر لعمر يدل على مكانة هذا الدين في قلبه، وهذا الموقف هو:

موقف عمر من أبي جندل بن سهيل بن عمرو:

قال ابن هشام في السيرة: بينما النبي ﷺ يكتب كتاب المعاهدة في صلح الحديبية هو وسهيل بن عمر، وكان من شروط المعاهدة؛ أن من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه ردَّه عليهم، ولاعكس.. إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسُف في الحديد قد انفلت من المشركين وأتى إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه أبوه سهيل فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه، ثم قال للنبي ﷺ: يا محمد: قد لجّت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، قال ﷺ: صدقت، فجعل أبوه ينتره بتلابيبه ويجره ليرده إلى قريش، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين! أأردُّ إلى المشركين يفتنونني في ديني؟!! فزاد قوله في هَمِّ الناس فوق ما بهم ودخل ﷺ فقال ﷺ: يا أبا جندل، على الناس أمر عظيم. اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم «هنا أتى دور عمر فوثب عمر بن الخطاب ومشى إلى جنب أبي جندل ويقول له: اصبر أبا جندل، فإنما هم المشركون وإنما دم أحدهم دم كلب».

قال الرواة: وكان عمر يدني قائم السيف منه – من أبي جندل – يقول عمر: رجوت أن ياخذ السيف فيضرب به أباه، فضن الرجل بأبيه، ونفذت القضية.

ونختم الكلام عن عمر في عهده ﷺ بموقفه من (اعتزال النبي ﷺ لنسائه شهراً).

قال عمر: كان لي جار من الأنصار نسكن في عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول على النبي ﷺ، فينزل يوماً وأنزل يوماً، ويأتيني بخبر الوحي وآتيه بمثل ذلك، وكنا نتحدث أن تغزونا غسان. فنزل صاحبي يوم نوبته، ثم أتاني عشيّاً وضرب بابي ضرباً وقال: أثم هو؟ ففزعت فخرجت إليه فقال: حدث أمر عظيم. قلت: ماهو؟ أجاءت غسان؟ قال: لا، بل أعظم منه، فقلت: ما تقول! طلق رسول الله ﷺ نساءه؟ فقلت: قد خابت حفصة وخسرت، كنت أخشى أن هذا سيكون... حتى إذا صليت الفجر شددت عليَّ ثيابي، فدخل رسول الله ﷺ مشربةً -غرفة صغيرة – فاعتزل بها. فدخلت على حفصة فإذا هي تبكي! قلت: ما يبكيك أطلقكن رسول الله ﷺ؟ قالت: لا أدري، هو ذا في المشربةِ، قال عمر: فدخلت فإذا أنا (برباح) غلام رسول الله ﷺ قاعداً على أسكُفَّة المشربة، فناديت: يارباح استأذن لي على رسول الله ﷺ فدخل الغلام ثم خرج إليّ فقال: ذكرتك له ﷺ فصمت.

فانطلقت حتى أتيت المنبر فجلست مع الرهط الذين عند المنبر يبكي بعضهم، ثم غلبني ما أجد، فأتيت الغلام، فقلت: استأذن لعمر، ورفعت صوتي، فدخل ثم خرج، فقال: ذكرتك فصمت، فوليت مدبراً، فإذا الغلام يدعوني، قال: إدخل فقد أذن لك. فدخلت فسلمت فإذا هو قبلي على (رُمال) وهو سرير نُسج وجهه بسعفٍ عليه حصير قد أثَّر في جنبه، وتحت رأسه وسادة من أدمٍ حشوها ليف. فقلت: يا رسول الله أطلقت نساءك؟ فرفع رسول الله ﷺ رأسه إليَّ وقال: لا، فقلت: الله أكبر، ثم قمت وقلت: يا رسول الله، كنا – معشر قريش – نغلب النساء، فقدمنا المدينة فوجدنا قوماً تغلبهم نسائهم فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم.. فتبسم رسول الله ﷺ، ولم أزل أحدثه حتى انحسر الغضب عن وجهه الشريف وكشرَ – أي أبدى أسنانه ﷺ – وكان من أحسن الناس ثغراً، فجلست حين رأيته تبسم فرفعت بصري في البيت، فوالله ما رأيت شيئاً يرد البصر إلا أُهباً، أو أهبةً ثلاثةً – وهي الجلود – وإلا قبضة من شعير نحو الصاع، وقرظٌ مصبورٌ في ناحية الغرفة، وإذا أفيقٌ معلقٌ – جلد لم يدبغ بعد –؛ فابتدرت عيناي فقال: ما يبكيك يا ابن الخطاب؟ فقلت: ومالي لا أبكي، وهذا الحصير أثَّر في جنبك، وذلك كسرى وقيصر في الأنهار والثمار، وأنت رسول الله وصفوته؟ ثم قلت: ادع الله أن يوسع على أمتك! فاستوى ﷺ جالساً، وقال: أفي شك أنت يا ابن الخطاب! أولئك قوم عُجِّلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا، فقلت:

استغفر لي يارسول الله.

ثم استأذنه عمر أن يخبر الناس أنه ﷺ لم يطلق نسائه ونزلت الآية: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ ﴿٨٣﴾ ﴾(١).

فكنت أنا الذي استنبطت ذلك الأمر وأنزل الله سبحانه آية التخيير: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٨﴾ ﴾(٢).

مكانته من رسول الله ﷺ:

فقد روى الشيخان، وابن حيان من حديث عمرو بن العاص قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أحب إليك؟ قال ﷺ: عائشة. قلت يا رسول الله، من الرجال؟ قال ﷺ؟ أبوها، قلت: ثم من؟ قال ﷺ: ثم عمر بن الخطاب، ثم عدَّ ﷺ رجالاً.

بشارته بالجنة:

ففي مسند أحمد والترمذي، قال سعيد بن زيد: قال رسول الله ﷺ: أبوبكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعلي في الجنة، وعثمان في الجنة إلى آخر العشرة.

وفي مسند أحمد من حديث جابر قال: كنا مع رسول الله ﷺ عند امرأة من الأنصار صنعت له ﷺ طعاماً فقال النبي ﷺ: يدخل عليكم رجل من أهل الجنة، فدخل أبو بكر فهنَّيناهُ، ثم قال ﷺ: يدخل عليكم رجل من أهل الجنة، فدخل عمر بن الخطاب فهنيناه، ثم قال ﷺ: يدخل عليكم رجل من أهل الجنة، فرأيت النبي ﷺ يدخل رأسه تحت الرداء فيقول: اللهم إن شئت جعلته علياً، فدخل عليٌ فهنَّيناه.

وفي مسند أحمد، من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: أرحم أمتي بأمتي أبو بكر وأشدهم في دين الله عمر.

وعند الترمذي من حديث أبي هريره قال: قال رسول الله ﷺ: نِعْمَ الرجل أبوبكر، نعم

---

(١) النساء: ٨٣.

(٢) الأحزاب: ٢٨.

الرجل عمر، نعم الرجل أبو عبيدة، نعم الرجل أسيد بن حضير، نعم الرجل ثابت بن قيس بن شماس، نعم الرجل معاذ بن جبل، نعم الرجل معاذ بن عمرو بن الجموح.

من كرامته على الله ورسوله، أن الله أكرمه بالشهادة.

ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن الرسول ﷺ كان على حِراء هو وأبوبكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير، فتحركت الصخرة فقال ﷺ: اهدأ، وفي رواية: اسكن حراء فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد.

وفي البخاري من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ صعد أُحد هو وأبوبكر وعثمان وعمر، فرجف بهم، فقال ﷺ: اثبت أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان.

ولمكانته كان قصره في الجنة متميزاً، ففي الصحيحين ومسند أحمد من حديث أبي هريرة قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ قال: بينما أنا نائم رأيتني في الجنة، فإذا امرأة تتوضأ، إلى جانب قصر، فقلت لمن هذا القصر؟ فقالوا لعمر، فذكرتُ غِيرته فوليت مدبراً، فبكى عمر وقال: أعليكَ أغارُ يا رسول الله؟

وفي الصحيحين أنه ﷺ قال: رأيتني دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصاء – الرمص في عينها – امرأة أبي طلحة، وسمعت خشفةً فقلت من هذا؟ فقال: هذا بلال ورأيت قصراً بفنائه جارية، فقلت: لمن هذا؟ فقالوا: لعمر، فأردت أن أدخله فأنظر إليه فذكرت غيرتك، فقال عمر: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أعليك أغار؟!!

ويعلق صاحب كتاب «سيرة الفاروق» على هذين الحديثين فيقول: هذان الحديثان اشتملا على فضيلةٍ ظاهرة لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب حيث أخبر النبي ﷺ برؤيته قصراً في الجنة للفاروق، وهذا يدل على منزلته عند الله تعالى.

ومن مكانته: أن الله جعل الحق على لسانه وقلبه؛ ففي مسند أحمد، ومسند أبي داوود وغيرهما من حديث ابن عمر وأبي هريرة قالا: قال رسول الله ﷺ إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه كما أن السكينة تنطق على لسانه، ففي «الحلية»، و«تاريخ الخلفاء»، و«الرياض النضرة»، عن علي رضي الله عنه قال: كنا نرى ونحن متوافرون – أصحاب محمد ﷺ – أن السكينة تنطق على لسان عمر بن الخطاب.

ومن فضائله خوف الشيطان منه:

ففي البخاري من حديث سعد بن أبي وقاص قال: استأذن عمر على رسول الله ﷺ وعنده نساء من قريش يُكلِّمنه ويستكثرنه، عاليةً أصواتهن، فلما استأذن عمر قمن يبتدرن الحجاب، فأذن له رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ يضحك، فقال عمر: أضحكَ الله سِنَّكَ يا رسول الله،- ليس دعاء بكثرة الضحك وإنما المراد به السرور - قال ﷺ: عجبتُ من هؤلاء اللاتي كن عندي، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب، قال عمر: فأنت يا رسولَ الله كنت أحق أن يهبن، ثم قال عمر: أي عَدوَّات أنفسهن، أَتهبْنَنِي ولا تَهبنَ رسول الله ﷺ؟ قلن: نعم، أنت أفظ وأغلظ من رسول الله، قال رسول الله ﷺ: إيه يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك.

قال أهل العلم: النسوة بعض أزواجه ﷺ.

وعند الترمذي وغيره، عن بريدة، أن النبي ﷺ قَدِمَ من بعض مغازيه، فأتته جارية سوداء فقالت: يارسول الله إني نذرت إنْ رَدَّكَ الله سالماً أن أضرب بين يديك بالدف وأتغنى، فقال لها ﷺ: إن كنت نذرت فاضربي وإلا فلا، فجعلت تضرب والنبي ﷺ جالس، فدخل الصديق وهي تضرب، ثم دخل عليٌّ وهي تضرب، ثم دخل عثمان وهي تضرب، ثم دخل عمر فألقت الدف تحت إستها ثم قعدت عليه فقال النبي ﷺ: إن الشيطان ليخافُ منك يا عمر، إني كنت جالساً وهي تضرب بالدف، ثم دخل أبوبكر وهي تضرب، ثم دخل علي وهي تضرب، ثم دخل عثمان وهي تضرب، فلما دخلت أنت يا عمر ألقت الدف.

ومن فضائله رجحانُهُ بالأمة:

ففي مسند أحمد من حديث أبي أمامة الباهلي، أن رسول الله ﷺ قال: دخلت الجنة فسمعت خشفة أي حِسّاً وحركة بين يدي فقلت: ما هذا؟ قال: - أي الملك - بلال، فمضيت فإذا أكثر أهل الجنة فقراء المهاجرين وذراري المسلمين، ولم أر أقل من الأغنياء والنساء، قيل لي: أما الأغنياء فهم ههنا بالباب ويمعصون - التواء في عصب الرجل -، وأما النساء فأَلْهاهنَّ الأحمران الذهبُ والحرير، قال: ثم خرجنا من أحد أبواب الجنة الثمانية، فلما كنت عند الباب أُتيت بكفة فَوضِعتُ فيها، ووضعت أمتي في كفة فرجحت بها، ثم أُتي بالصديق فوضع في كفة،

وجيء بجميع أمتي فرجح أبوبكر، وجيء بعمر فوضع في كفة وجيء بجمبع أمتي فوضعوا فرجح عمر.

قول رسول الله ﷺ عن دينه:

ففي الصحيحين، ومسند أحمد، والدارمي وغيرهم من حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: بينما أنا نائم، رأيت الناس يعرضون عليّ وعليهم قُمُصٌ منها ما يبلغ الثدي، ومنها ما دون ذلك، وعرض عليّ عمر بن الخطاب وعليه قميص يجره، قالوا: فما أَوَّلْتَ ذلك يا رسول الله؟ قال ﷺ: الدين.

وأما عن علمه:

فيكفي ما رود في الصحيحين من حديث عبدالله بن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: بينما أنا نائم إذ رأيت قدحاً أُتيتُ به فيه لبن، فشربت منه حتى إني لأرى الرِّيَّ يجري في أطفاري، ثم أَعطيتُ فضلي عمر بن الخطاب، قالوا: فما أولت ذلك يا رسول الله؟ قال ﷺ: (العلم)، وهو العبقري: فقد ثبت عنه ﷺ كما في الصحيحين من حديث عبدالله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: أريتُ في المنام أني أنزع بدلو بكرةٍ على قليب – بئر – فجاء أبوبكر فنزع ذنوباً – دلواً مملوءً – أو ذنوبين نزعاً ضعيفاً والله يغفر له – كان المسلمون يقولونها تقويةً لكلامهم لا لذنب ولا لتنقيص –،ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غرباً، فلم أر عبقرياً – العبقري: السيد، أي لم أر سيداً يعمل عمله – يفري فريه حتى رَوِيَ الناسُ وضربوا بعطن – أي أرووا الإبل ثم عادوا بها لمكان الراحة –

قال الشافعي: ومعنى في نزعه ضعفاً: قِصَر مدة الصدِّيق، وعجلة موته، وشغله بالحرب لأجل الردة عن الفتوحات مثل ما كان في عهد عمر.

وكان عظيم الأدب مع رسول الله ﷺ، فقد ذكر صاحب كتاب أخبار عمر، أن عبدالله بن عمر كان مع النبي ﷺ في سفر على بكرصعب لعمر، وكان يتقدم النبي ﷺ فقال له أبوه: يا عبدالله لا يتقدم النبيَّ أحدٌ.

قال العلماء: وكثيراً ما دعا له النبي ﷺ، فقد ورد في حديث حسن أن النبي ﷺ رأى على عمر ثوباً، وفي رواية – أبيض – فقال ﷺ أجديد ثوبك أم غسيل؟ فقال عمر: بل غسيل، فقال

ﷺ إلبس جديداً وعش حميداً، ومت شهيداً. – حديث حسن وهو في الجامع الصحيح –، وهو سيد كهول الجنة مع الصديق.

فقد روى ابن ماجة من حديث علي رَضِوَالِلَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: أبوبكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين، إلا النبيين والمرسلين، لا تخبرهما يا علي ما داما حَيَّيْن، وكان رَضِوَالِلَّهُعَنْهُ حريصاً على الاتباع، حذراً من الابتداع، فقد ورد عن المُسَوّر بن مخرمة الزهري أنه سمع عمر بن الخطاب يقول: سمعت هشام بن حكيم يقرأ في الصلاة سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يُقرئنيها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة فانتظرت حتى إذا سلم لَبَّبتهُ بردائه فقلت: من أقرأك هذه السورة؟ قال: أقرئنيها رسول الله ﷺ، قلت له: كذبت، فوالله إن رسول الله أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرؤها، فانطلقت أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت له: يا رسول الله إن هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، فقال ﷺ: أرسله يا عمر: اقرأ يا هشام، فقرأ القراءة التي سمعتها منه قال ﷺ عندها: هكذا أنزلت، ثم قال ﷺ: إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فقرؤوا ما تيسر منه.

موقفه يوم قبض رسول الله ﷺ:

وقبل التكلم عن موقف عمر من وفاته ﷺ نتكلم فيما أورد صاحب «الروض الأنف» حين قال تحت عنوان: ما حدث للناس عقب وفاته ﷺ، ثم يروي عن عائشة وغيرها من أصحاب النبي ﷺ قالوا: دهش الناس، وطاشت عقولهم، وأفحموا، واختلطوا، فمنهم من خبل، ومنهم من أُصمتَ، ومنهم من أُقعدَ إلى الأرض، فكان عمر ممن خبل وجعل يصيح، ويحلف ما مات رسول الله ﷺ، وكان ممن أُخرس عثمان حتى جعل يذهب به ويجاء، ولا يستطيع كلاماً، وكان ممن أقعد علي، فلم يستطع حراكاً، وأما عبدالله بن أنيس فأضنى حتى مات كمداً، فعمر خبل ولذلك ورد عنه أنه قال كلاماً غريباً أورده علماء الحديث إذ قال: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفي، وإنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى وقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل مات، والله ليرجعنَّ رسولُ الله ﷺ كما رجع موسى فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنه ﷺ مات.

وأقبل أبوبكر وكان كما قال السهيلي: جلد العقل والمقالة، ودخل على رسول الله ﷺ وقَبَّله

وقال: بأبي أنت وأمي يارسول الله، طِبتَ حياً وميتاً لو أن موتك كان اختياراً لجدنا لك بالنفوس، ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفدنا عليك ماء الشؤون، اللهم أبلغه عنا، يامحمد اذكرنا عند ربك، ولنكن على بابك، ثم خرج إلى الناس وقال: مَنْ كان يعبد محمداً... ثم تلا الآية: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾[١].

قال عمر: فوالله ماهو إلا أن سمعت أبا بكر يتلوها حتى وقعت على الأرض فعقرت ما تحملني رجلاي، وعرفت أن محمداً ﷺ قد مات، وقال كما روى السهيلي في «الروض» حين قال له الصديق: يا عمر ألم يقل الله عز وجل: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[٢] عندها قال عمر: والله لكأني لم أسمع بها لما نزل بنا، وأشهد أن الكتاب كما نزل، وأن الحديث كما حَدَّثَ، وأن الله تبارك وتعالى حي لا يموت، إنا لله وإنا إليه راجعون، وعند الله نحتسب رسوله.

ما سبب موقف عمر هذا؟

قال ابن عباس: إني لأمشي مع عمر يوماً في خلافته، وبيده الدرة يضرب وحشيّ قدمه، فالتفت إلي وقال: ياابن عباس هل تدري ما كان حملني على مقالتي التي قلتها يوم توفي رسول الله ﷺ؟ قلت: أنت أعلم يا أمير المؤمنين قال: كنت أقرأ قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ ﴿١٤٣﴾ ﴾[٣] وكنت أرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يدبرنا – أي أن يكون أخرنا موتاً –، وهذا الذي حملني على ما قلت.

ثم بعد مبايعة الصديق صعد المنبر واعتذر عن مقالته، ومن شعره في الاعتذار قوله:

لَعمري لقد أيقنتُ أنك ميــتٌ ... ولكنهـــا أبدى الذي قلتُه الجَزَعُ
وقلت يغيبُ الوحيُ عنا لفقــدهِ ... كما غاب موسى ثم يرجع كما رجع
وكان هواني أن تطـــولَ حياتُه ... وليس لحي في بقـــا ميتٍ طمع

(١) آل عمران: ١٤٤.
(٢) الزمر: ٣٠.
(٣) البقرة: ١٤٣.

كيف كان عمر مع أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؟

وقبل أن نتكلم عن عمر في عهد الصديق، أنقل لكم كلمة قالها مؤلفا كتاب – أخبار عمر – في حقيقة نظام الحكم في الإسلام؛ لأن هذه الكلمة تلقي الضوء على الطريقة التي انتخب فيها الصديق خليفة، كما تُظهر دورَ عمر بن الخطاب في انتخاب الصديق.

قال المؤلفان: قُبض رسول الله ﷺ، ولم يعين رجلاً ليخلفه في رياسة الأمة، ولم يحدد أسلوباً معيناً لاختيار الخليفة الذي يحبون، بشرط أن ينفذ الخليفة أحكام الشرع ولا يخالفها ولا يخرج عليها، وأن يكون نَصْبُه خليفة برأي الأمة، وأن يكون حكمه بمشورة من أهل الحل والعقد فيها، وأمرَ الدينُ الناسَ أن ينصحوه، وبين أن الدين النصيحة للخاصة والعامة، فإن لم يسمع الأمير النصيحة وأتى منكراً أوجب على المسلمين إنكار المنكر منه أو من غيره. فإن أمر الأمير بمعصية، لم يكن لأمره طاعة فيهم لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فإن استمر بالعصيان حتى بلغ الكفر الظاهر البواح، أزاله المسلمون عندها بالقوة.

ثم يقول المؤلفان: هذا هو نظام الحكم في الإسلام، وهو مزية من مزايا هذا الدين الذي وضع للناس القواعد العامة في أمورهم الإجتماعية ومعاملاتهم، وترك لهم اختيار الفروع والتفصيلات تبعاً لمصالحهم وأعرافهم، ليكون هذا الدين صالحاً لكل زمان ومكان.

موقف عمر يوم السقيفة:

لما توفي النبي ﷺ، اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة على زعيمهم سعد بن عبادة لأنهم رأوا الإسراع في انتخاب خليفة للنبي ﷺ، وأنهم هم المسؤولون عن ذلك لكونهم أكثرية المسلمين، وكان سعد مريضاً فاجتمع الأنصار لترشيح شخص منهم للخلافة، واجتمع عليٌّ والزبير ومعهم أناس لترشيح خليفة للمسلمين.

وسمع عمر بذلك فخاف أن يكون اختلاف بين المسلمين فأسرع إلى الصديق فقال له: يا أبابكر انطلق بنا إلى إخواننا الأنصار.. فانطلقا، فلقيهم في الطريق اثنان صالحان منهم فقالا: أين تريدان؟ قال أبو بكر وعمر: نريد إخواننا الأنصار.

قالا: لا عليكم ألا تقربوهم، اقضوا أمركم. قالا: والله لنأتينهم، فانطلقا إلى السقيفة حيث اجتمع الأنصار.

قام خطيب الأنصار فقال: بعد التشهد والثناء على الله بما هو أهله أما بعد: فنحن أنصار الله، وكتيبة الإسلام، وأنتم معشر المهاجرين رهطٌ قدموا علينا.. قال عمر: فلما سكت خطيبهم – خطيب الأنصار – أردتُ ان أتكلم، وكنت قد أعددت في نفسي مقالاً للرد على خطيب الأنصار فأسكتني أبو بكر وقال لي: على رسلك... فكرهت أن أغضبه. فتكلم أبو بكر فكان هو أحلم مني وأوقر، ووالله ما ترك من كلمة أعجبتني مما أعددته إلا قال في بديهته مثلها أو أفضل، فكان مما قال: ماذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهلٌ، ولن يعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب داراً ونسباً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم، فأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح وهو جالس بيننا، فوالله لم أكره مما قال غيرها، كان والله أن أُقدّم فتضربَ عنقي (لا يُقرِّبُني ذلك من إثم) أحبَّ إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر... فقام أحد الأنصار واقترح حلاً فقال: منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش، فقال الصديق: لا نحنُ الأمراء وأنتم الوزراء، فبايعوا عمراً أو أبا عبيدة، فقال عمر: بل نبايعك أنت، وأنت سيدنا وخيرنا، وأحبنا إلى رسول الله ﷺ.

قال المؤرخون: فكثر اللغط، وارتفعت الأصوات، وخاف عمر من الاختلاف فالتفت عمر إلى الأنصار قائلاً لهم: يا معشر الأنصار ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ أمر أبا بكر أن يؤم الناس فأيكم تَطيبُ نفسه أن يتقدم أبا بكر؟ فقالت الأنصار: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر. عندها بادر عمر وقال للصديق: ابسط يدك أبايعك، فبسط يده فبايعه، وبايعه المهاجرون، ثم بايعه الأنصار، كما في البخاري باب فضائل الصحابة.

قال عمر: وإنا والله ما وجدنا فيما حضرنا من أمر أقوى من مبايعة الصديق يعني: أنه لم يخالف أحد؛ لأنه لوخالف كانت فتنة...

قال المؤرخون: توفي النبي ﷺ يوم الإثنين ضحىً فانشغل الناس ببيعة الصديق يوم الإثنين في سقيفة بني ساعدة.. وعندما كان صباح الثلاثاء، جلس أبو بكر على المنبر، فقام عمر فتكلم، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: أيها الناس، إني قد قلت لكم مقالاً بالأمس ما كانت وماوجدتها في كتاب الله، ولا كانت عهداً عهده إلي رسول الله ﷺ، ولكني قد كنتُ أرى أن رسول الله ﷺ سيدبر أمرنا، ويكون آخرنا موتاً، وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي به هَدْيُ الله ورسوله فإن اعتصمتم به هداكم الله بما كان هداه له، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب

رسول الله ﷺ وثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوا، فبايع الناس بيعته العامة بعد بيعة السقيفة.

يقول صاحب كتاب – سيرة الفاروق -:هذا الموقف من عمر أنقذ الأمة بفضل الله من الاختلاف والفتنة، فهذا الموقف موقف عظيم من أعظم مواقف الحكمة حيث جمعهم على إمامة أبي بكر، وهذا الموقف ينبغي أن يسجل بماء الذهب.

موقف عمر رضي الله عنه من إرسال جيش أسامة:

قال المؤرخون: بعد حجة الوداع، في شهر المحرم من السنة الحادية عشرة للهجرة رأى النبي ﷺ أن يبعث جيشاً إلى بلاد الشام، وأن يكون قائد هذا الجيش أسامة بن زيد الشابُّ الذي لم يتجاوز عمره ثماني عشرة سنة وعقد له النبي ﷺ اللواء وأمره بالمسير إلى تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، حيث استشهد هناك زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبدالله بن رواحة، في جمادى الأولى سنة ٨ هـ في مؤتة.

وخرج الجيش وخيَّم بالجُرف – وهو موضع على ثلاثة أميال من المدينة على طريق الشام – فلما ثقل رسول الله ﷺ أقام الجيش هناك، فلما مات رسول الله ﷺ عظم الخطب، واشتد الحال، وظهر النفاق، واشرابت اليهودية والنصرانية وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية لفقدهم نبيّهم، وقلَّتهم وكثرة عدوهم، حتى ما بقي من يقيم الجمعة إلا مكة والمدينة، وجواثا في البحرين، وثبتت الطائف.

وقف أسامة بجيشة بالجُرْف، واستدعى عمر وقال له: ارجع إلى خليفة رسول الله فاستأذنه أن يأذن لي بالرجوع فإنَّ معي وجوه الناس، ولا آمن على خليفة رسول الله ﷺ وأهل رسول الله وذراري المسلمين أن يتخطفهم المشركون، وأشارت الأنصار على عمر فقالوا: إنْ أبى الصديق الرجوع، وأصرَّ على أن نمضي فأبلغه عنا، واطلب إليه أن يولّي أمرنا رجلاً أقدم سناً من أسامة.

فخرج عمر بأمر أسامة بن زيد وأتى الصديق وأخبره بما قال أسامة. فقال الصديق: لو خطفتني الكلاب والذئاب لم أردَّ قضاءً قضى به رسول الله ﷺ، قال عمر: قالت الأنصار: أمروني أن أبلغك أنهم يطلبون أن تولي قيادة الجيش رجلاً أقدم سناً من أسامة، قال المؤرخون: فوثب

أبو بكر – وكان جالساً–، فأخذ بلحية عمر، فقال له: ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب! استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن انزعه، فخرج عمر إلى الناس فقالوا له: ما صنعت؟ فقال: امضوا، ثكلتكم أمهاتكم! ما لقيتُ في سببكم من خليفة رسول الله ﷺ!

وسار أسامة بجيشه، فجعل لا يمرُّ بقبيل يريدون الارتداد إلا وقالوا: لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم، ولكن ننتظر حتى يلقوا الروم، فلقوا الروم وهزموهم ورجعوا سالمين، فثبت المرتددون على الإسلام.

وعند تحرك الجيش قام الصديق بتوديعه وهو ماشٍ ثم طلب الصديق من أسامة أن يترك له عمر بن الخطاب. فأطلقه له، ولهذا كان عمر لا يلقى أسامة إلا قال له: السلام عليك أيها الأمير.

موقفه من مانعي الزكاة:

فقد روى المؤرخون، كما في البخاري وغيره، أن بعض قبائل العرب وفدوا إلى المدينة بعد بيعة الصديق.. والتقوا به وقالوا: نُقِم الصلاة ولكن لا ندفع الزكاة، فردَّهم الصديق وقرر قتالهم.

ويروي البخاري عن أبي هريرة قال: لما توفي النبي ﷺ وكان أبو بكر بعده قال عمر للصديق: علامَ تقاتل الناس. وقد قال رسول الله ﷺ: أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحقها؟ فقال أبو بكر: والله لو منعوني عناقاً، وفي رواية عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنَّهم على منعها، إن الزكاة حقُّ المال، والله لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة. قال عمر: فما هو إلا أنْ رأيتُ الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق، وقد قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْۚ ۝٥﴾[(١)].

وكانت بنو عبس وبنو ذبيان ممن امتنع عن أداء الزكاة، وقتلوا بعض المسلمين فقام الصديق بنفسه وأدبهم... ولم تحتمل المعركة إلا ساعةً ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس حتى هزمهم الصديق، وبهذا يقول زياد بن حنظلة:

---

(١) التوبة: ٥.

ويومٌ بالأبارق قــد شهدنا | على ذِبيان تلتهب التهابا
أتيناهم بداهيــــــة نسوف | مع الصديق إذ ترك العتابا

موقفه من إقطاع الصديق أرضاً سبخة للأقرع بن حابس وعُيَيْنَة:

وخلاصة هذا الموقف، أن هذين الصحابيين طلبا من الصديق، أن يعطيهما أرضاً سبخة، لعلهما يحرثانها، فاستشار الصديق من حوله فيما قال الإثنان. فقالوا: نرى أن تُقطعهما إياها، لعل الله ينفع بها بعد اليوم، فأقطعهما إياها وكتب لهما كتاباً بذلك وأشهد عليه عمر – وكان عمر غير موجود – فانطلق الإثنان إلى عمر يُشهدانه على الكتاب، فوجداه قائماً يهنأ بعيراً له، فقالا: إن أبا بكر أشهدك على ما في كتابنا فنقرأه عليك أن تقرؤه أنت؟ قال: أنا على هذا الحال فاقرأا أنتما فقرآ، فلما سمع ما فيه تناوله من أيديهما ومحا ما فيه بريقه.. فتذمرا.. وقال لهما: إن رسول الله ﷺ كان يتألفكما والإسلام ضعيف وإن الله قد أعزَّ الإسلام فاذهبا فاجهدا جهدَ كما لا رعى الله عليكما إن رعيتما، فأقبلا إلى الصديق وقالا: والله ما ندري أنت الخليفة أم عمر؟ فقال الصديق: لا، بل هو أن لو كان شاء! فجاء عمر ووقف على الصديق وقال له: أهذه الأرض لك خاصة أم للمسلمين عامة؟ قال: بل للمسلمين عامة، قال عمر: فكيف تَخُصُّ بها هذين دون جماعة المسلمين، فقال الصديق: قد كنت قلت لك إنك على هذا أقوى مني ولكن غلبتني.

ويعلق بعض الكتاب على هذه الحادثة فيقول: هذا دليل على مكانة الشورى عند الخلفاء الراشدين، ولا حرج أن يتنازل الخليفة عن رأي وهو من هو في المكانة تحقيقاً للشورى، لا الشورى المزيفة التي نراها اليوم.

ومن تلك المواقف في عهد الصديق: إشارته إلى الصديق بجمع القرآن بعد أن اشتدَّ القتل بالقراءِ في حروب الردة وغيرها، وقد تردَّد الصديق بادئ الأمر وقال: كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ، فقال عمر: هو والله خير، قال الصديق: فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت أن ما قاله عمر حقٌّ، وهذا إلهام رباني لعمر وصدق فيه قول عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها حين قالت: من رأى عمر علم أنه خُلِقَ غِنىً للإسلام، وكان والله أحوذياً – الأحوذي: الحاذق، المشمر للأمور، القاهر لها، لا يشذ عليه شيء – نسيجَ وحدِهِ، قد أعدَ للأمور أقرانها.

قال المؤرخون: بقي عمر وزيراً للصديق طول خلافة الصديق التي دامت سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليالٍ، يساعده في إعداد الجيوش وبعثها لقتال فارس والروم، وبخاصةٍ جيش خالد الذي أرسله أولاً إلى العراق بعد أن فرغ من جزيرة العرب، فأرسل خالداً إلى العراق أول الأمر، ولما وصل إلى الحيرة أشار عمر على الصديق حين طلب جيشُ الشام منه المَدَد أن يحول خالداً مدداً إلى الشام، فقال خالد بعد أن وصله كتاب الصديق بأن يتحول إلى الشام، قال: هذا عمل الأُعيسر يعني عمر وكان عمر (عَسِر يَسِر)، أي يعمل باليدين معاً. وكان خالد عندها قد أغار على بلد يقال لها – سُوى – قبيل الصبح، وكان بعض أهلها يشربون خمراً لهم في جفنة مجتمعين، وشاعرهم ينشد:

ألا عَـلِّلاني قبـل جيش أبي بكر	لعل مَنايانـا قريبٌ وما ندري
ألا عـللاني بالزجـاج وكَرِّرا	عليّ كُمَيْتَ اللـون صـافيةً تجري
ألا عـللاني من سُـلافة قهـوة	تُسلِّي همـوم النفس من جَيِّدِ الخمر
أَظـنُّ خيولَ المسلميـن وخالداً	ستطرقكم قبل الصباح مـن البشر

قال الطبري: روي أن مغنّيهم ذلك قتل عند الغارة، فسال دمه في تلك الجفنة، والتقى خالد بعدها ببصرى مع قادة المسلمين في جبهة الروم، بعد أن استناب على العراق المثنى بن حارثة.

قال صاحب «البداية والنهاية» في التاريخ: مرض الصديق خمسة عشر يوماً، فقد روى ولده عبدالرحمن، أن أبا بكر اغتسل يوم الإثنين لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ، وكان يوماً بارداً فحُمَّ خمسة عشر يوماً لا يخرج إلى الصلاة، وكان يأمر عمر بن الخطاب أن يصلّيَ بالناس. وهو يَثقلُ كل يوم، واستبان له المرض فخاف أن يترك الناس بلا خليفة، ولم يَرِدْ أن يعين رجلاً بعينه فيفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ.

قال صاحبا أخبار عمر: فجمع الناس ولم يشغله مرضه وألمه عن الاهتمام بأمرهم، فنزع بيعته من أعناقهم، وكلفهم أن ينتخبوا غيره للخلافة، وقال لهم: إنه قد نزل بي ما ترون، ولا أظنني إلا ميتاً لما بي من المرض وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي، وحلَّ عنكم عقدتي، وردَّ عليكم أمركم فأمّروا أحدكم، ومن أحببتم، فإنكم إن أَمَّرتُم في حياةٍ مني، كان أجدر ألا تختلفوا بعدي.

فذهبوا فتشاوروا وبحثوا فلم يتفقوا على أحد، فرجعوا إليه فوكَّلوه أن يختار لهم. عندها قال أبوبكر: فأمهلوني حتى أنظر لله ولدينه ولعباده.

قال المؤرخون: وبدأ استشاراته، وجعل يدعو أصحاب الرأي وكبار الصحابة واحداً بعد واحد، فدعا أولاً عبدالرحمن بن عوف، فقال له: أخبرني عن عمر بن الخطاب، فقال عبدالرحمن: ما تسألني عن أمر إلا وأنتَ أعلم به مني، فقال الصديق: وإن! فقال عبدالرحمن: هو والله أفضل من رأيك فيه.

ثم دعا عثمان، فقال له مثل ذلك، فقال عثمان: علمي به أنَّ سريرته خير من علانيته، وأنه ليس فينا مثله. فقال الصديق لعثمان: رحمك الله، والله لو تركته ما عَدَوْتُكَ.

ثم شاور الصديق سعيد بن زيد، وأسيد بن حضير وغيرهما من المهاجرين والأنصار، فقال أسيد: اللهم، أعلمُهُ الخيرةَ بعدك، يرضى للرضى، ويسخط للسخط، والذي يُسِرُّ خير من الذي يعلن، ولن يلي هذا الأمر أحد أقوى عليه منه.

قال المؤرخون: وسمع بعض الصحابة هذه المشاورات، وكانوا يخافون شدَّةَ عمر ولا يرون انتخابه. فدخلوا على الصديق وكلموه، وقال أحدهم: ما أنت قائلٌ لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا، وقد ترى غِلْظته، وهو إذا ولي كان أفظ وأغلظ؟. فقال الصديق: أجلسوني، فلما جلس قال: أبالله تخوفونني؟ خافَ من تزوَّدَ من أمركم بظلم، أقول: اللهم إني قد استخلفت على أهلك خير أهلك.

ثم قال للقائل: أبلغ عني ما قلت لك مَنْ وراءك، ثم اضطجع ودعا بعثمان وأملى عليه القرار بتسمية عمر.

هنا ملاحظة: قال صاحبا كتاب – أخبار عمر – وهذا القرار لم يتخذه الصديق بوصفه الخليفة بل لأن المسلمين أصحاب الحق بالانتخاب وكَّلوه بأن يختار لهم من يراه.

ولنستمع نص قراره الكتابي.

(بسم الله الرحمن الرحيم.هذا ما عهد به أبوبكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، أني استخلفت عليكم بعدي..... وأخذته غَشْيَةٌ فذُهبَ به قبل أن يسمي أحداً، فكتب عثمان: عمر

بن الخطاب، ثم أفاق أبو بكر فقال: اقرأ عليَّ ما كتبت. فقرأ عليه ذكر عمر، فكبَّر أبو بكر وقال: أراك خِفْتَ أن تذهب نفسي في غشيتي تلك فيختلف الناس، فجزاك الله عن الإسلام خيراً، والله إن كنت لها لأهلاً.

ثم أمره أن يتابع الكتابة، فكتب عثمان تتمة ما أملاه عليه الصديق وهو: فاسمعوا وأطيعوا، وإني لم آلُ الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً. فإنْ عدلَ فذلك ظني فيه، وعلمي به، وإن بدَّلَ فلكل امرئ ما اكتسب، والخيرَ أردتُ ولا أعلم الغيب ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ٢٢٧﴾[1] والسلام عليكم ورحمة الله، ثم أمره فختم الكتاب.

ثم إن الصديق أشرف على الناس في كُوّته، فقال للناس: أيها الناس! إني قد عهدت عهداً، أفترضونه؟ فقال الناس: رضينا يا خليفة رسول الله ﷺ، فقام عليٌّ فقال: لانرضى إلا أن يكون عمر، قال الصديق: فإنه عمر. فأقروا بذلك جميعاً ورضوا وقالوا: سمعنا وأطعنا ثم بايعوا. فرفع الصديق يديه فقال: اللهم إني لم أرد إلا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة، فعملت فيهم ما أنت أعلم به، واجتهدت لهم رأيي فولّيتُ عليهم خيرهم وأقواهم عليه، وأحرصهم على ما أرشدهم، وقد حضرني من أمرك ما حضر، فاخلفني فيهم، فهم عبادك، ونواصيهم بيدك، وأصلح لهم أميرهم، واجعله من خلفائك الراشدين، يتبع هُدى نبيّ الرحمة، وهدى الصالحين بعده وأصلح له رعيته.

قال المؤرخون: وكانت وفاة الصدّيق في يوم الإثنين مساء أي ليلة الثلاثاء لثمان ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ.

قالت عائشة: توفي أبوبكر رحمه الله تعالى بين المغرب والعشاء.

وحدَّث الأوزاعي عن عبدالرحمن بن القاسم أن الصدّيق توفي بعدما غابت الشمس ليلة الثلاثاء، ودفن في نفس الليلة.

وتوفي الصدّيق رحمه الله وهوابن ثلاث وستين سنة، استوفى سن النبي ﷺ، لأن الصديق ولد بعد عام الفيل بثلاث سنين.

قال سعيد بن المسيب: استكمل أبو بكر سِنَّ رسول الله ﷺ، فتوفي وهو بسن النبي ﷺ.

---

(١) الشعراء: ٢٢٧.

وورد عن عطاءٍ وابن أبي مُليكة، أن (أسماء بنت عميس) قالت: قال لي أبو بكر: غسليني، قلت: لا أطيق ذلك، قال الصديق: يعينك عبدالرحمن بن أبي بكر بصب الماء. وحُمِلَ الصديق على السرير الذي حمل عليه رسول الله ﷺ، وصلى عليه عمر في مسجد رسول الله ﷺ . ودخل قبره عمر وعثمان وطلحة، وعبدالرحمن بن أبي بكر، وأراد ولده عبدالله أن يدخل قبره، فقال له عمر: كفيت.

وروى الطبري عن ابن أبي مليكة عن عائشة قالت: سألني أبو بكر؛ في كم كُفِّنَ النبي ﷺ؟ قالت: في ثلاثة أثواب، فقال الصديق: اغسلوا ثوبي هذين – وكانا ممشّقين – أي مصبوغين بالمَغْرَة – أي الطين الأحمر – وابتاعوا لي ثوباً آخر. قلت: يا أبه، إنا موسرون، قال الصديق: أي بنية، الحي أولى بالجديد من الميت، وإنما هما للمهلة والصّديد.

وأوصى رضي الله عنه عائشة أن يدفن إلى جنب النبي ﷺ، فلما توفي حُفِرَ له وجعل رأسه عند كتفي رسول الله ﷺ وألصقوا اللحد باللحد النبوي فقبر هناك.

قال الطبري: وقد حاول بعض أهل الصديق، وهي أخته أم فروة أن ترفع صوتها بالنواح فنهاها عمر فلم تنته فأمر هشام بن الوليد أن يخرجها له من البيت، فدخل هشام فأخرج أم فروة أخت أبي بكر إلى عمر، فعلاها بالدرة... فضربها ضربات.. فذهب النوح حين رأت ذلك. وكان الصديق يتمثل في مرض موته كما روى أبو زيد عن علي بن محمد:

وكُلُّ ذي إبلٍ موروثُ وكل ذي سَلَبٍ مسلوبُ

وكل ذي غيبة يَؤوبُ وغائب الموت لا يؤوب

وكان آخر كلامه رضي الله عنه: ربِّ ﴿تَوَفَّنِى مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾[1].

قال الدكتور – الصلابي مؤلف كتاب – سيرة الفاروق عمر – وباشر عمر بن الخطاب أعماله بصفته خليفة للمسلمين فور وفاة الصديق ثم قال: إن عمر ولي الخلافة باتفاق أهل الحل والعقد؛ لأن أبا بكر لم يقرر ذلك إلا بعد استشارة أعيان الصحابة واحداً واحداً، ثم فوضوا أمرهم له بعد مشاورتهم، ثم عين الخليفة ثم عرض هذا التعيين على الناس فأقروه، وهكذا كان استخلاف عمر على أصح الأساليب الشورية وأعدلها، ولم يورد التاريخ أي خلاف وقع حول

(١) يوسف: ١٠١.

خلافته بعد ذلك، بل كان هناك إجماع على خلافته وعلى طاعته فكان الجميع وحدة واحدة.

خطبة الفاروق بعد ولايته:

قال المؤرخون: صعد عمر المنبر فقال للناس: ثلاث دعوات إذا دعوتُ فأمِّنوا عليها: اللهم إني ضعيف فقوِّني، اللهم إني غليظ فليِّنِّي، اللهم إني بخيلٌ فسخِّني.

وقال: لو علمت أن أحداً أقوى مني على هذا الأمر، لكان ضربُ عنقي أَحبَّ إلي من هذه الولاية. وقال: إن الله ابتلاكم بي، وابتلاني بكم، بعد صاحبي، فلا والله لا يحضرني شيء من أمركم فيليه أحد دوني، ولا يتغيب عني فآلوا فيه عن أهل الصدق والأمانة، ولئن أحسنوا لأحسنن إليهم، ولئن أساؤوا لأنكلنَّ بهم. ويغفر الله لنا ولكم. ولما صعد المنبر للخطبة نظر إلى الدرجات فقال: ما كان الله ليراني أني أرى نفسي أهلاً لمجلس أبي بكر، فنزل مرقاةً – درجة – فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: اقرؤوا القرآن تُعرَفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتَزيَّنُوا للعرض الأكبر يوم تعرضون على الله لا تخفى منكم خافية. إنه لم يبلغ حق ذي حقٍ أن يطاع في معصية الله، ألا وإني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة وليّ اليتيم، إن استغنيت استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف – هذه الكلمات سماها بعض الكتاب (خطبة العرش) –

والآن: من أين جاء لقبه أمير المؤمنين.

قال المؤرخون: كما ذكر صاحب كتاب «الاستيعاب»، وابن الجوزي ونقل عنهما صاحب أخبار عمر، قالوا: كان يقال للصديق، خليفة رسول الله ﷺ، فلما استخلف عمر قيل له: يا خليفةَ خليفةِ رسول الله، فقال المسلمون: فمن جاء بعد عمر يقال له: خليفةَ خليفةِ خليفةِ رسول الله فيطول هذا، ولكن اجتمعوا على اسم تدعون به الخليفة، ويدعى به من بعده من الخلفاء – كما ذكر صاحب «الطبقات» – وشاء الله أن يبعث والي العراق إلى عمر في المدينة – لبيد بن ربيعة العامري – وعدي بن حاتم الطائي –، فلما وصلا المدينة أراحا راحلتيهما بفناء المسجد ثم دخلا المسجد، فإذا هما – بعمرو بن العاص –. فقالا له: استأذن لنا على أمير المؤمنين، فقال عمرو بن العاص: أنتما والله أصبتما اسمه، نحن المؤمنون وهوأميرنا. فوثب فدخل على عمر. فقال له: السلام عليك يا أمير المؤمنين. قال عمر: ما بدا لك في هذا الاسم؟ قال عمرو بن العاص: إن

لبيد بن ربيعة وعدي بن حاتم الطائي قدما من العراق فأناخا وقالا لي: استأذن لنا على أمير المؤمنين، فهما والله أصابا اسمك، أنت الأمير ونحن المؤمنون، فجرى الكتاب بذلك.

ومن كلامه في هذه الخطبة: إنما مثل العرب مَثَلُ جملٍ أَنفٍ فلينظر قائده حيث يقوده، وأما أنا فورب الكعبة لأَحملنَّهم على الطريق.

والمعنى: أن العرب كالجمل المؤاتي المطواع يعطيك ماعنده من السير عفواً سهلاً، وهو يأنف الزجر والضرب، وهذا تشخيص للأمة الإسلامية في عهده سامعةً مطواعةً، ومسؤولية الحاكم أن يرتاد لها الخير، ولذلك قال عمر: لأحملنهم على الطريق، أي الطريق الأقوم لهم. وقد فعل – الصلابي –.

بعد أن صار عمر أميراً للمؤمنين وحاكماً عامّاً للدولة الإسلامية، فلا بدّ من بيان خطته في الحكم، أو ما يسمى في عرفنا الحاضر ـ بياناً وزارياً ـ.

قال صاحب كتاب أخبار عمر: وعمر كان يدرك ويعلم لِينَ الصدِّيق، حيث بلغ من لين الصديق أن الصبيان كانوا إذا رأوه في الطريق سعوا إليه، ويقولون: يا أبتي! فيمسح رؤوسهم. بينما الخليفة الجديد، كان إذا مرَّ في الطريق وقد أخذ الرجال مجالسهم في الأفنية تركوا مجالسهم هيبةً منه، حتى ينظروا ما يكون في أمره، وأدرك عمر ذلك وبلغه..

فصاح في الناس: الصلاة جامعة! فحضروا، فجلس على المنبر في المكان الذي كان الصديق يضع قدميه، فلما امتلأ المسجد قام فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله، ثم صلى على النبي ﷺ ثم قال: بلغني أن الناس هابوا شدَّتي، وخافوا غلظتي، وقالوا: قد كان عمر يشتدُّ علينا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، ثم اشتدَّ علينا وأبو بكر والينا دونه، فكيف وقد صارت الأمور إليه؟ ومن قال ذلك فقد صدق، فقد كنت مع رسول الله ﷺ فكنتُ عبدَهُ وخادمه، وكان من لا يبلُغ أحدٌ صفته في اللين والرحمة، وكان كما قال تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[1] ، فكنت بين يديه سيفاً مسلولاً حتى يُغمدني أو يدعني فأمضي، فلم أزل مع رسول الله ﷺ على ذلك حتى توفاه الله وهو عني راضٍ، والحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعدُ، ثم وليَ أمرَ المسلمين أبو بكرٍ فكان من لا ينكرون دَعَتَهُ وكرمه ولينه، وكنت خادمه وعونه، أخلط شدَّتي بلينه، فأكون سيفاً

---

(١) التوبة: ١٢٨.

مسلولاً حتى يغمدني أو يدعني فأمضي، فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عني راضٍ والحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد، ثم إني قد وليتُ أموركم أيها الناس، فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي على المسلمين، فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا أليَن لهم من بعضهم لبعض، ولست أدع أحداً يظلم أحداً أو يتعدى عليه حتى أضع خَدَّه على الأرض، وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يُذعنَ بالحق، وإني بعد شدَّتي تلك أضع خدي على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف ولكم عليَّ أيها الناس خصالٌ أذكرها لكم فخذوني بها:

لكم عليّ أن لا أجتبي شيئاً من خراجكم ولا مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه، ولكم عليَّ إذا وقع في يدي ألا يخرج مني إلا في حقه، ولكم عليّ أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله وأسدَّ ثغوركم، ولكم عليّ ألّا أُلقيكم في المهالك ولا أُجمِّركم في ثغوركم، ـ التجمير: إبقاء الجنديّ مدةً طويلة في الجبهات ـ وإن غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم.

فاتقوا الله عباد الله! وأعينوني على أنفسكم بكفّها عني، وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر وإحضار النصيحة فيما ولّاني الله من أمركم، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

يقول المؤرخون: كانت هذه الخطبة بياناً شاملاً كالبيان الوزاري في أيامنا هذه، وخطةً كاملةً للحكم.

يقول الطنطاويان في ـ أخبار عمر ـ وكان أعظم مافي هذه الخطبة أنها لم تكن كلاماً يُرْصَف، ولا خطاباً يلقى بل كانت منهجاً سار عليه حياته كلّها، وخطةً اتبعها، وكانت أعمالاً لا أقوالاً.

عمر والفتوح:

قدم صاحبا كتاب ـ أخبار عمر ـ بعد أن ذكرا هذا العنوان مقدمةً رأيت من المفيد ذكرها، قالا: كان العرب في جاهليتهم يخافون فارس والروم وكانوا يخضعون لعامل الفرس على العراق وكان من لَـخْم، ولعامل الروم على بلاد الشام وكان من غسان، وكان العرب يلقبون ولاة فارس والروم بألقاب الملوك، وكان الشعراء يمدحونهم، فلما ولي عمر كسر هذا السَّدَّ ورفع للمسلمين

راية الجهاد، الجهاد الذي أمر به الإسلام وحضَّ عليه وجعله ركناً من أركانه، وفريضةً من أعظم فرائضه. ولم يكن هذا الجهاد للسيطرة ولا للغنيمة ولا للظلم والاستعمار، بل كان لإعطاء أهل الأرض قسطهم من هداية الله سبحانه ونصيبهم من رحمته جلَّ وعلا، وهكذا كانت الفتوح في عهده واسعةً سريعةً..

قال المؤرخون: فتحت أيام عمر بلاد الشام والعراق وفارس ومصر، وأطراف أفريقية، ولن نتكلم عن هذه الفتوحات ووقائعها، فإن ذلك يمكن مراجعته في المطولات التاريخية، ولكننا نشير بسرعة إلى هذه الفتوحات وتواريخها وقادتها.

قال المؤرخون: كان فتح حمص وبعلبك سنة ١٤ هـ.

وفي نفس السنة ١٤ هـ كانت وقعة القادسية بقيادة سعد بن أبي وقاص وكان المسلمون سبعة آلاف، والفرس ستين ألفاً بقيادة – رستم – ومعهم سبعون فيلاً.

وروى المؤرخون: أن رستم رآى في منامه كأن ملكاً نزل من السماء فختم على سلاح الفرس كله ودفعه إلى رسول الله ﷺ فدفعه رسول الله ﷺ إلى عمر.

وكانت وقعةُ اليرموك في السنة الخامسة عشرة، وكان المسلمون إذ ذاك ثلاثين ألفاً مقابل مائة ألفٍ من الروم.

وكان فتح بيت المقدس سنة خمس عشرة للهجرة على يد عمر بن الخطاب صلحاً، وسبب حضور عمر إلى بيت المقدس، ماذكره المؤرخون، أنَّ أبا عبيدة لما انتهى من فتح دمشق قصد بيت المقدس، فضيَّق عليهم فأجابوه إلى الصلح بشرط أن يكون المتولي لعقد الصلح عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ووصل عمر إلى الجابية وخطب فيها خطبةً طويلة كان منها:

أيها الناس، أصلحوا سرائركم تصلح علانيتكم، واعملوا لآخرتكم تُكْفَوْا أمر دينكم، ألا لا يخلُوَنَّ رجلٌ بامرأة فإنّ الشيطان ثالثهما، ومن سرّته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن..

ويروي رجاء بن حيوةَ عمّن شهد مع عمر حضوره من الجابية إلى ايلياء قال: لما شخصَ عمر إلى ايلياء فدنا من باب المسجد، فلما انفرق الباب قال: لبيك اللهم لبيك، بما هو أحبُّ إليك! ثم قصد المحراب ـ محراب داوود عليه السلام ـ، وذلك ليلاً، فصلى فيه، ثم لم يلبث أن طلع الفجر، فأمر المؤذن بالإقامة، فتقدم فصلى بالناس وقرأ بهم «ص» وسجد فيها، ثم قام وقرأ بهم في

الثانية صدر سورة بني إسرائيل، ثم أتمّ وانصرف وكانت هذه الصلاة من عمر هي ـ تحية المسجد بمحراب داوود ـ ثم صلى الصبح بالمسلمين.

وفتحُ بيت المقدس من علامات الساعة الصغرى، ففي البخاري من حديث ـ عوف بن مالك ـ قال: أتيتُ النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبة من أدَم فقال: اعدُدْ ستّاً بين يدي الساعة، موتي، ثم فتح بيت المقدس، ثم مُوْتانٌ يأخذ فيكم كقُعاص الغنم ـ مرض ـ (طاعون عمواس في عهد عمر بعد فتح بيت المقدس وهو الكوليرا) ثم استفاضة المال، ثم فتنةٌ لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هُدْنَةٌ تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غايةً ـ الراية ـ تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً. ثم فتح حلب وأنطاكية سنة ستَّ عشرة للهجرة، وتتابعت الفتوح فكان فتح جلولاء سنة سبع عشرة للهجرة وبلغت غنائم المسلمين فيها ثمانية عشر ألفِ ألفٍ، ثم فتحت الأهواز والموصل وحرّان، والسوس وتْستُر والرُّها وسُمْيساط ونصيبين وجُنديسابور سنة ثماني عشرة.

وفي معركة «تُسْتُر» زاحف المشركون المسلمين ثمانين زحفاً حتى إذا كان آخر زحف منها واشتدّ القتال ـ وكانت تستر قد حاصرها المسلمون ـ قال المسلمون للبراء بن مالك: يا براء أقسم على ربك ليهزمنّهم لنا، فقال: اللهم اهزمهم لنا واستشهدني، فهزمهم الله وكان الفتح، (وكان البراء بن مالك) قد قتل بالمبارزة مائة من صناديد الشرك.

وفُتحت تكريت وقيسارية سنة ١٩ هـ، وبدأ فتح مصر على يد عمرو بن العاص سنة عشرين للهجرة ثم أتمّها في السنة التالية. وفي نفس السنة تم فتح الجزيرة وأرمينية.

وفي سنة ٢٢ هـ كان فتح أذربيجان وجرجان ونهاوند، واصطخر على يد المغيرة بن شعبة وفتح الدينور وهمذان على يد حذيفة بن اليمان.

وأتم عمرو بن العاص فتح – طرابلس – ليبيا عنوة وكتب إلى عمر يستأذنه بإتمام فتح أفريقية فلم يوافق عمر على ذلك، وكتب إليه يَنْهاهُ عن ذلك.

اختياره للقادة:

كان عمر يختار القادة بنفسه. قال صاحب كتاب أخبار عمر: كان لعمر حاسةٌ عجيبة في اختيار القادة يعرف بها حقائق الرجال وأقدارهم وكفاءاتهم، فيعمد إلى الرجل العاديّ الذي لم

يقد معركة، ولم يتسلَّم إمارة جيش، فيولّيه القيادة لما يدركه من استعداده وقدرته، فما هي إلا معركة أو اثنتان حتى يخرجَ منه قائداً من أكابر قواد التاريخ، وعبقريّا من عباقرة الحرب، لا يدري أحد أين كان مخبوءاً.

فقد اختار ـ أبا عبيدة بن الجراح ـ قائداً للجيش الذي ذهب لفتح الشام مكان خالد بن الوليد، ولما خشيَ أن يفهم الناس عزل خالدٍ على غير حقيقته كتب منشوراً يُذاع في البلدان ذكر فيه: (إنه لم يعزل خالداً عن ريبة ولا عن خيانة ولا عن سخط، ولكن الناس فُتِنوا به فخشي أن يوكلوا إليه، فأحبَّ ان يعلموا أن الله هو الصانع، وأن النصر من عنده سبحانه ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١٢٦﴾[1].

وبعد عزل خالد طلب عمر من أبي عبيدة أن يعقل خالداً بعمامته، وينزع قلنسوته حتى يُعلِمهم من أين دفع للأشعث بن قيس عشرة آلاف درهم، فإن قال من مال الدولة فهي الخيانة وإن كان من ماله فهي الإسراف، استدعى أبو عبيدة خالد وجمع الناس فقام يريد عمر وسأل خالداً من أين المال الذي دفعته للأشعث؟ فسكت خالد وسكت أبو عبيدة، فقام بلال إليه وقال: هذا أمر أمير المؤمنين إليك، فتناول عمامته وعقله بها، وسأل السؤال نفسه، فقال خالد: لا بل من مالي، فأطلقه وأعاد قلنسوته ثم عَمَّمه بلال بيده ثم قال: نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا.

ثم استدعى عمر خالداً إلى المدينة فودّع خالدٌ الجند في قنسرين وحمص وودّعهم، ثم ذهب إلى المدينة فلما قابل عمر، قال له: لقد شكوتك إلى المسلمين فأنت في أمري غير مجمل، ثم سأله عن المال الذي دفعه للأشعث، فبين له أنها من الأنفال والسُّهمان، وتجارة دروع – ومع ذلك أخذ منه عشرين ألفاً أدخلها بيت المال ثم ردها إليه – ثم التفت إلى خالد وقال كلمته المشهورة (والله إنك علي لكريم، وإنك إلي لحبيب، ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء)، وتمثل عمر يقول القائل:

صنعتَ فلم يصنع كصنعك صانعٌ وما يصنـــــع الأقوام فالله صانعه

رحم الله أبا بكر كان أعلم مني بالرجال.

واختار – سعدَ بن أبي وقاص – أميراً على حرب العراق، وكان سعد قبل ذلك موظفاً عند

(١) آل عمران: ١٢٦.

الصديق لتحصيل صدقات هوازن، وبقي في خلافة عمر على ذلك، ثم استشار بعض الصحابة في اختيار قائد لجيش العراق، فأشار عليه عبدالرحمن بن عوف قائلاً: وجدته ياأمير المؤمنين قال: ومن هو؟ قال: الأسد عادياً سعد بن مالك، - أي ابن أبي وقاص -.

وأمَّر شرحبيل بن حسنة على جند الأردن وخراجها ثم عزله، فقال شرحبيل: أعن سخطة يا أمير المؤمنين؟ قال عمر: لا، إنك لكما أحب ولكني أريد رجلاً أقوى من رجل، قال شرحبيل: نعم فاعذرني من الناس لا تدركنا هجنةٌ، فقام عمر في الناس فقال: أيها الناس: إني والله ماعزلت شرحبيل عن سخطة، ولكني أردت رجلاً أقوى من رجل.

وفي وقعة – نهاوند – ٢١ هـ اختار عمر – النعمان بن مقرن المزني – وكان ملهماً في اختياره، وكان الفرس قد جمعوا جموعهم تحت إمرة (يزدجرد) فأمَّر عليهم (ذا الحاجب)، وكانوا مغتاظين من عمر، فأخرج ذا الحاجب الراية الكبرى للفرس واسمها (درفش كابيان) أي العلم الأكبر، لا يخرجونه إلا في الأمور العظيمة، وخطب قائد الفرس فيهم فقال: إن عمر قد اقتحم بلادنا، وخرب مملكتنا وهو آتينا إن لم نأته. وكان جيش الفرس أكثر من مائة وخمسين ألفاً، وأراد عمر أن يخرج له بنفسه فمنعه المسلمون، فقال للناس: أشيروا علي برجل، واجعلوه عراقياً، قالوا: يا أمير المؤمنين؛ أنت أعلم بأهل العراق وقد وفدوا عليك ورأيتهم وكلمتهم. قال: والله لأولينَّ أمرهم رجلاً ليكونن لأول الأسنة إذا لقيها غداً، فقيل من يا أمير المؤمنين؟ قال: النعمان بن مقرن المزني، فقالوا: هو لها، وتَصَافَّ الجيشان، والأعْجم قد رُبطوا بالسلاسل حتى لا يفروا، وكبّرالنعمان ثلاثاً وحمل المسلمون عليهم، فَرُميَ النعمان بنشّابة قتلته، خلّفه أخوه سويد بثوبه وكتم قتله حتى فتح الله عليهم، ثم دفعت الراية إلى حذيفة بن اليمان وقتل الحاجب، وافتتحت نهاوند.

وبمناسبة ذكر فتوحات عمر العظام أنقل كلمة نُشرت سنة ألفٍ وتسعمائة وستٍّ وأربعين، لصاحب كتاب أخبار عمر رحمه الله تعالى تلقي الضوء على هذه الفتوح، هذه الكلمة للشيخ الجليل نشرها لما وثب الألمان تلك الوثبة على أوروبا فقال: لما وثب الألمان تلك الوثبة، فطحنوا جيوشاً، ودوَّخُوا ممالك وطمسوا مصوِّرَ أوروبا حدوداً ومحوا دولاً، وأخذتهم العزة بالإثم والعدوان، فقال فرعونهم: أنا ربكم الأعلى!...

وقام من بعدهم اليابان، فقفزوا كالجنّ على جزر المحيط، وحازوا أطراف المشرق، وتمّ

ذلك كأنه حلم نائمٍ، أو سحر ساحر، ثم يقول المؤلف: ـ فقام مذيعٌ عربيٌّ وأذاع من محطة عربية ـ يقول الشيخ: لا أسميها ـ يُمجّد هذا النصر، وكان مما وسوس له به الشيطان أنه قال: (هذا هو الفتح لا فتوحاتنا التي لم نملَّ من الفخر فيها وقد مضى عليها ألفٌ وثلاثمائة سنة.)... وقد طُلب من الشيخ أن يردَّ عليه وأن يلقمه حجراً، فقال رحمه الله تعالى: لا! إنه لم يئن الأوان للرد عليه فانتظروا، فإنها ستردُّ عليه الأيام، ثم يقول المؤلف في المقال: وها هي الأيام قد قالت فأبلغت، وردَّت فأفحمت، ولكن أين ذلك المذيع ليستمع ويفكر، فيرى فتوح هتلر كفتوح تيمورلنك عاصفةً مدمرةً تهبُّ على الكون، فتقتلع الأشجار وتهدم البنى، ثم تضعفُ العاصفة وتضمحلُّ فلا تترك وراءها إلا الموت والخراب والدمار! وما أسهل الهدم، وما أهون القتل! إنّ كلباً عقوراً يقتل أعظم نابغةٍ في الدنيا، والبناء الضخم الذي ينشئه مائة مهندس بارع يهدمه لصٌّ بقنبلة، أو يحرقه بعود كبريت..

كذلك كان فتح تيمورلنك وهتلر... وأين اليوم هتلر وتيمور.. لقد طواهم الزمان فلم يبق منهم إلا قبور تحتها رفاتٌ رميم، أو صحائف فيها مجدٌ ميت أغرقها النسيان في لُجَّتِهِ، حتى إنّ بعضهم لم تمنح الأرض قبراً يضم رفاته.. ولم يعد لهم ذكر في التاريخ.. وكذلك: كل الفتوحات التي تفخر بها الأمم كلها فتوح قوة وتغلُّبٍ فإذا ضَعف القوي، أو قويَ الضعيف، عاد الغالب مغلوباً، والمغلوب غالباً.. أما الفتح الإسلامي، فنسيج وحده في تاريخ البشر، لا يشبهه فتحٌ ولا يدانيه ولا يقاس به، ثم يقول المؤلف رحمه الله تعالى: إن هذا المذيع رأى جانباً واحداً منه ـ من الفتح ـ وخفيت عنه جوانب: رأى الظفر في المعارك فقاسها على أشباهها وحكم عليها بما أوصله إليه عقله، وما دفعه إليه هواه...

أما الجوانب التي لم يرها، فقد وصفها العالم العبقري (ابن تيمية) بكلمةٍ جامعةٍ لو كان إعجازٌ بعد القرآن، لقلتُ إنها من معجزات البيان، هذه الكلمة هي قوله: إن المسلمين الأولين لم ينقلوا الإسلام إلى الأمم، ولكن نقلوا الأمم إلى الإسلام.

ففي هذه العبارة سرُّ الفتح الإسلامي ومزاياه، وعلَّة بقائه واستمراره، وإليكم البيان: كل الحروب في الأرض، لم تُدَرْ إلا ابتغاء أرض يضمّها الفاتح إلى أرضه أو شعب يحكمه إلى شعبه، أو غنائم ينالها، أو ثأرٍ يطلبه، أو كنزٌ يملكه هذه هي غايات الفاتحين، ومقاصد الحروب.

أما المسلمون: فقد خرجوا يعلنون كلمة الله يبذلون من أجلها دماءهم، ويفارقون من

أجلها ديارهم، لم يريدوا استكباراً في الأرض ولا يريدون مالاً ـ **هذه المزيّةُ الأولى** ـ كانت غايتهم إصلاح البشر في أخلاقهم، وسعادتهم في دنياهم وآخرتهم، وحملوا لهم القرآن وهو مفتاح هذه السعادة.. فإن كانوا عقلاء وقبلوا هذه الهداية رحّبوا بهم، وإن ركبوا مركب العناد وكرهوا نفعَ أنفسهم عاملوهم معاملة الأولاد القاصرين لابدّ لهم من وصيّ يقوم عليهم مقابل أجرةٍ طفيفة كأجرة الوصي الأمين، وإن أبى الطّغاة إلا الفساد في الأرض وأذى أنفسهم وإخوانهم في الإنسانية دعوهم إلى الحرب؛ لأن الإسلام يرى البشر كلهم كراكِبي السفينة إذا أراد أحدهم خرقها أخذوا على يديْه لئلّا يهلك نفسه ويهلكهم ـ **وهذه هي المزيّة الثانية** ـ.

وكانوا إذا حاربوا حافظوا على شرفهم، فكانوا أشرف محاربين عرفهم ظهر هذه الكرة.. ـ **وهذه هي الثالثة من المزايا** ـ.

ولم يكونوا يُشغلون عن غايتهم بمال، وكانوا إذا اشتدّ الخطب وادلَهَمَّتْ المعركة يلجؤون إلى الله الذي قاتلوا في سبيله، هذا قتيبة بن مسلم القائد المظفَّر يثِبُ عليه كمينٌ من التّرك، ويقع بين حجرَيْ الرّحى فيقول: انظروا إلى محمد بن واسع ماذا يصنع؟ قالوا: قائمٌ هناك يشير بإصبعه إلى السماء فيشرق وجهه ويطمئنُّ، ويقول: والله لهذه الإصبع أحبّ إليّ من عشرة آلاف سيفٍ يُشهر، أقدموا على بركة الله.

كانوا يعملون لله وحده، وقعوا ـ وهم المُصْحِرون المُعْدَمون ـ الذين كانوا يأكلون القدَّ، ويتبلّغونه بالتمرة، وقفوا على كنوز كسرى، وإنّ الحبّة الواحدة من هذه الكنوز يأخذها الرجل فتغنيه وولده من بعده وما يراه إلا الله، فلم يغلّوا شيئاً وأدَّوها كاملةً لأنهم إنما خرجوا لله لا للمال ـ **وهذه المزيّة الرابعة** ـ.

وكانوا إذا دخلوا بلدةً لم يحملوا إليها الإسلام في محاضراتٍ يلقونها، أو كتبٍ يطبعونها، ولم يقفوا من سكانها موقف المعلم من التلاميذ، ولكنهم كانوا يرشدونهم إلى المنابع الصافية: الكتاب والسنة، ثم يتركونهم لينتقلوا بأنفسهم إلى الإسلام، فكان هؤلاء بعدها هم أئمة الدين وعلماء القرآن والفقه والحديث ـ **وهذه المزية الخامسة** ـ.

ثم إن الفاتحين الأولين لم يدعُوا إلى الإسلام بأقوالهم، ولكن أروا الناس أخلاقهم فحبَّبوه بذلك إليهم، هاهم أهل حمص بعد أن فتحت لهم وأخذوا الجزية من أهلها بلغهم أن الروم قد

توجهوا إليهم بقوة كبيرة وأنهم عاجزون عن حماية أهل البلد الذين صاروا بذمّتهم فقرروا الخروج منها ودعوا البطاركة والرؤساء، وأخبروهم بعجزهم.. وردّوا إليهم الجزية كاملة، فتعجّب البطاركة وقالوا: إن ديناً يأمر أهله بذلك لنعم الدين، لأنتم أحبّ إلينا من قومنا. — **وهذه الميزة السادسة** –.

ثم يقول المؤلف رحمه الله: ولم يَنْجلِ الفتح عن غالب ومغلوب تستمر الأحقاد بينهم، وإنما انجلى عن أمة واحدة لها رب واحد، ونبي واحد، والتفاضل بالتقوى وهذه هي **الميزة السابعة**، بهذا استقر الفتح الإسلامي.

هذه الجوانب لم يعرفها المذيع، فحسب أن الفتح الإسلامي كفتح هتلر، غَلَبةٌ وقهر.. كلا، إنه فتح هداية وإصلاح، على أننا كنا أقوى من جند هتلر قلباً وأعظم بطولةً، وأعجب نصراً، فلقد حارب هتلر بعُدَّة ضخمة، ووسائل تدمير وجيش مدرب.

وقام العرب ففتحوا الدنيا بسيوف ملفوفة بالخرق، وخلصوا الدنيا من: جبروت كسرى وقيصر، ثم انتشروا في أرجاء الكون، من جنان الشام إلى سهول العراق ومصر، إلى صحارى أفريقيا.. إلى جبال الألب، إلى ثلج روسيا، إلى لظى الحبشة، حكموا كل ذلك بشرع محمد، وكانوا قبل ذلك قابعين في رحاب الجزيرة يخشون أجيراً من اتباع قيصر في الشام، ويرجون تابعاً من اتباع كسرى في العراق، ويسمونه ملك العرب.

هذه هي مزايا الفتح الإسلامي، ثم يخاطب المؤلف المذيع فيقول: فيا أيها المذيع قد بطل فخرك بفتح هتلر، وقد ذهب هتلر وفتحه مع أمس الدابر، ولم يعقب إلا الفساد في الأرض، وسيذهب كل فتح قام على القهر والظلم، ويظل الفتح الإسلامي راسخاً رسوخ الأرض، باقياً بقاء الزمان.. مفخرة لكل من قال: أنا إنسان.

ثم يختم قوله بجملة جميلة حيث يقول: (فيا أيها المنتصرون، هاتوا مثل هذا الفتح، أو فاسكتوا، لا تفتخروا!!!).

سياسة عمر في الأموال العامة:

قال المؤرخون: كانت الأموال العامة في عهد النبي ﷺ والصديق تتألف من أموال الزكوات، تجمع من أغنياء المسلمين في كل بلد ثم تعطى لفقرائهم، فإن زاد شيء حمل إلى الخليفة

في المدينة في عهد الصديق، وللنبي في حياته ﷺ، فلما تولى عمر وكثرت الفتوح تدفقت على المسلمين أموال هائلة من الغنائم، والحكم الشرعي في الغنائم: أن من قتل قتيلاً من المشركين فله سلبه، وأن الغنائم تقسم إلى خمسة أقسام، أربعة أقسام للمجاهدين، وخمس للإمام، وهذا الخمس كان النبي ﷺ يقسمه على خمسة أقسام: قسم لله وللرسول على عهده ﷺ، ولذي القربى قسم، ولليتامى قسم، وللمساكين قسم، ولأبناء السبيل قسم، وكان النبي ﷺ قد بَيَّنَ في الصحاح من أحاديثه أن الأنبياء لا يورثون، وأن ما يتركونه صدقات، وجاء أبو بكر فأسقط سهم الرسول وسهم ذوي القربى وقسم الخمس على ثلاثة، فلما ولي عمر برزت مشكلات في قضية الأموال العامة. وأول هذه المشكلات: أن أحداً من المجاهدين كان يقتل القائد من قواد العدو، عليه من الثياب والحلي ما قيمته عشرات الآف.. فهل يأخذه كله؟

قال المؤرخون: حصلت هذه المشكلة عندما قتل جندي مسلم- اسمه زهرة – في جيش سعد بن أبي وقاص في معارك القادسية سنة ١٤ هـ.. قتل الجالينوس؛ وكان من ملوكهم.. وكان عليه يارقان وقلبان، وقرطان على برذَوْن له قد خُضِدَ، وإن زهرة يومئذ لعلى فرس له، ما عنانها إلا حبل مضفور، وحزامها شعر منسوج، حمل على الجالينوس فقتله...

وعرف أسارى الفرس الذين أسرهم سعد سلب الجالينوس وأمتعته، فقالوا: هذا سلب الجالينوس، فسأل سعد بن أبي وقاص زهرة: هل أعانك عليه من أحد؟ قال زهرة بن حوية التميمي: نعم، قال سعد: من؟ قال زهرة: الله.

قال المؤرخون: نظر سعد إلى سلب الجالينوس فاستكثره، فكتب فيه إلى عمر، فاسمع معي أخي الكريم إلى جواب عمر لسعد قائد القادسية. (أَتعمدُ إلى مثل زهرة – وقد صَلِيَ بمثل ما صَلِيَ به وقد بقي عليك من حربك ما بقي – تكسر قرنه، وتفسد قلبه! أمض له سلبه وفَضِّله على أصحابه عند العطاء بخمسمائة).

وأمر سعداً بأن يُفضِّلَ كل من حسن بلاؤه في القادسية، فكان منهم زهرة، وعصْمة الضبي والكلَجُ.. وغيرهم فضلوا بخمسمائة زيادة على أعطياتهم، وكانوا خمسة وعشرون رجلاً.

وباع زهرة سلب الجالينوس بسبعين ألفاً.

أما ثاني هذه المشكلات فهي مشكلة القِطْف وهو – بساط كسرى –.

وخلاصته، أن سعد بن أبي وقاص لما فتح المدائن وجمع الغنائم ووزع على المجاهدين نصيبهم (أربعة أخماس الغنيمة). وهيأ الخمس الباقي لإرساله إلى المدينة.. وفضل بعد القسم وإخراج الخمس بهار كسرى – بساط كسرى – وكانت العرب تسميه القطف. وكان الفرس يمدونه في الشتاء إذا ذهبت الورود والرياحين، فكانوا إذا أرادوا الشرب مَدُّوه وشربوا عليه، فكأنهم في بستان صغير، وكان القطف ستين ذراعاً في ستين ذراعاً، وصفه المؤرخون فقالوا: أرضه بذهب، ووَشْيه بفصوص، وثمره بجوهر، وورقه من حرير وماء ذهب.

بساطٌ لا يقدر بثمن، جمع سعد المسلمين فقال: إن الله قد ملأ أيديكم، وقد عَسُرَ قَسْم هذا البساط، ولا يقوى على شرائه أحد، وهو بيننا قليل، ويقع من أهل المدينة موقعاً فهل لكم أن تطيب أنفسكم عن أربعة أخماس، فنبعث بها إلى عمر فيضعه حيث يرى! فقالوا: نعم هالله إذاً وكانت الفصوص فيه على هيئة نهر جارٍ، وطرقه كالصور، وخلاله منظر دير... أرسل سعد الخمس إلى عمر فوزعه وبقي البساط، فجمع الناس ثم قال: أشيروا علي أيها الناس في هذا القطف! فأجمع الملأ على أن قالوا: قد جعلوا ذلك لك فَرَ رأيكَ، ورأت القِلَّةُ القسمة.. واحتار عمر، فقام علي إلى عمر وقال: يا أمير المؤمنين: لِمَ تجعل علمك جهلاً، ويقينك شكاً! إنه ليس لك من الدنيا إلا ما أعطيت فأمضيت، أو لبست فأبليت، أو أكلت فأفنيت. قال عمر: صدقتني فقسَّمه بين الناس، فأصاب علياً قطعة منه، فباعها بعشرين ألفاً؛ وماهي بأجود تلك القطع.

قال المؤرخون: ولما أُتي عمر بحليّ كسرى وثيابه ووشاحه قال عمر: عليَّ – بمحلّم – وكان أجسمَ عربيٍّ بأرض المدينة، فألبسه تاج كسرى على عمودين من خشب، وعلق على محلِّم القلائد والأوشحة، ثم سيف كسرى، ثم قال عمر: والله إن قوماً أدَّوا هذا لذوو أمانةٍ، ثم قال عمر: إن كسرى لم يزد على أن تشاغل بما أوتي عن آخرته فجمع لزوج امرأته، أو زوج ابنته، أو امرأة ابنه، ولم يقدم لنفسه، فرحم الله امرأ قدّم لنفسه، وإلا جعلت للثلاثة من بعده، وما خير امرئ مسلم سبقه كسرى فيما يضره ولا ينفعه.

موقف عمر من أخماس جلولاء:

قال المؤرخون: بعد فتح المدائن التي كان فيها منزل كسرى وجيء لعمر بتاج كسرى ومنطقته دعا عمر سراقة بن مالك الجُعْشُمي، ـ وكان النبي ﷺ قد وعده يوم الغار بأنه سيلبس سواري كسرى ـ فألبسه عمر السوارين، وقال: (الله أكبر، ارفع يديك، وقل: الحمد لله الذي

سلبها كسرى بن هرمز وألبسها أعرابياً من بني مدلج، ورفع عمر بها صوته)، ثم قسّم الباقي بين المسلمين.

ثم كان فتح جلولاء، وكان بعد فتح المدائن، حيث عسكر فيها قائد الفرس ـ مهران.. ـ وجيء بالأخماس من جلولاء إلى عمر، فلما وصل إليه قال: (والله لا يُجِنُّهُ سقف بيت حتى أقسمه).

فصبَّ المال في صحن المسجد النبوي وقام عبد الرحمن بن عوف وعبدالله بن الأرقم عند المال طول الليل، فلما أصبح الناس جاء عمر فكشف عن جلابيبه ـ الأغطية التي غطى بها المال ـ فلما نظر إلى ياقوته وزبرجده وجوهره بكى، فقال عبد الرحمن بن عوف: ما يُبكيك يا أمير المؤمنين؟ فوالله إن هذا لموطن شكر! فقال عمر: والله ما ذلك يبكيني، وتالله ما أعطى الله هذا قوماً إلا تحاسدوا وتباغضوا، ولا تحاسدوا إلا أُلقيَ بأسهم بينهم. ثم قال: أَنَحْثوا أم نكيل لهم بالصاع؟ ثم أجمع رأيه على أن يحثو لهم، فحثا لهم، وكان ذلك قبل تدوين الدواوين ـ كما ذكر أبو يوسف في كتابه «الخراج» ـ، وبلغت غنائم جلولاء ثمانين ألفَ ألفٍ.

قال المؤرخون: ثم جاءت إلى عمر كنوز الهرمزان، وذلك أن الهرمزان أحد قادة الفرس طمع بنصرٍ على المسلمين وأن يهزم النعمان بن مقرن، وكان الهرمزان بمدينةٍ يقال لها ـ رامهرمز ـ والتقى الجيشان فيها فانهزم الهرمزان إلى ـ تستر ـ تحصن فيها داخل قلعتها.. ثم فاوض المسلمين وقال لهم: أضع يدي في أيديَكم على قول عمر يصنع بي ما يشاء. قال المسلمون: لك ذلك، وكان الهرمزان قد قتل بيده صحابيين جليلين هما: البراء بن مالك ومجزأة بن ثور، وكان في الجيش الإسلامي الذي دخل إلى تستر ـ السائب بن الأقرع ـ وكان رجلاً أميناً حاسباً كاتباً، كان عمر قد أرسله مع الجيش ليُقسّم للمسلمين فَيْأَهُمْ.

دخل السائب قصر الهرمزان في تستر وكان القصر منفرداً يبعد عن المدينة مسافة ميل، فرأى في غرفة من غرف القصر تمثالاً في الحائط مادّاً إصبعه مُصَوِّبَها إلى الأرض، فقال السائب: ما صُوِّبت إصبع هذا التمثال إلى هذا المكان إلا لأمر، احفروا ههنا، فحفروا فأصابوا صفطاً للهرمزان مملوءاً جوهراً كان الهرمزان قد خبأه في هذا المكان، فأخذ السائب من الصفط فصّاً وكتب إلى الأمير أبي موسى يعلمه بالفص وطلب منه أن يهب الفصَّ له، وأنه أرسل الصّفط إليه ليرسله بدوره إلى عمر.

نعود إلى الهرمزان: فاوض الهرمزان المسلمين، وألقى سلاحه واشترط عليهم أن يحملوه إلى عمر، وينزل على حكمه، فشدّوا وثاقه وأرسلوه إلى المدينة مع وفد فيهم الأحنف بن قيس وأنس بن مالك.. لما اقترب الوفد من المدينة، ألبسوا الهرمزان كسوته من الديباج المذهب ووضعوا على رأسه تاجاً يدعى ـ الأذين ـ مكللاً بالياقوت، وعليه حليته، ليرى عمر الهرمزان، ويراه المسلمون في المدينة على هيئته، ثم خرجوا به إلى الناس بتلك الهيئة وأتوا منزل عمر فلم يجدوه، وطلبوه في المسجد حيث كان يقابل وفداً من الكوفة.. فلم يروه.. فلما انصرفوا مرّوا بغلمانٍ من أهل المدينة يلعبون.. فقالوا للوفد: ما تلدُّدُكم؟ ـ أي ما لكم تلتفتون يميناً وشمالاً؟ ـ أتريدون أمير المؤمنين؟ فإنه نائمٌ في ميمنة المسجد، وكان بعد مقابلته لأهل الكوفة، توسَّد بُرْدَهُ فنام، وسار الوفد إلى عمر ومعهم الناس، فلما رأوه على هيئته جلسوا دونه، وليس في المسجد نائم ولا يقظان غيره والدرَّة معلَّقة في يده، فقال الهرمزان: أين عمر؟ فقالوا: هو ذا؛ وجعل الوفد يشيرون للناس أن اسكتوا عنه؛ وأصغى الهرمزان إلى الوفد، ثم قال: أين حراسه وحُجّابه عنه؟ قالوا: ليس له حارس ولا حاجب ولاكاتبٌ، قال الهرمزان: ينبغي أن يكون نبيّاً، فقال: بل يعمل عمل الأنبياء؛ وكثُر الناس فاستيقظ عمر بالجلبة، فاستوى جالساً، ثم نظر إلى الهرمزان، فقال: الهرمزان؟ قالوا: نعم. فتأمله عمر، ثم تأمل ماعليه، وقال: أعوذ بالله من النار وأستعين بالله! ثم قال: الحمد لله الذي أذلّ بالإسلام هذا وأشياعه؛ يا معشر المسلمين، تمسكوا بهذا الدين واهتدوا بهدي نبيكم، ولا تُبَطرنَّكُمُ الدنيا فإنها غرارة.

فقال الوفد لعمر: يا أمير المؤمنين هذا ملك الأهواز فكلمه، فقال عمر: لا حتى لا يبقى عليه من حليته شيء، فرُميت عنه الزينة، وبقي عليه ثوب يستره، ثم ألبسوه ثوباً صفيقاً فقال عمر: هيه يا هرمزان! كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله! قال الهرمزان: ياعمر، إنا وإياكم في الجاهلية كان الله قد خلّى بيننا وبينكم، فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم، فلما كان الله معكم غلبتمونا، فقال عمر: إنماغلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا، ثم قال عمر: ماحجتك وما عذرك في انتقاضك مرة بعد مرة؟ فقال الهرمزان: أخاف أن تقتلني قبل ان أخبرك، فقال عمر: لاتخف ذلك، واستسقى ماءً، فأُتِيَ به في قدحٍ غليظ ، فقال: لو متُّ عطشاً لم أستطع أن أشرب في مثل هذا، فأُتي بالماء في إناءٍ يرضاه، فجُعلت يده ترتجف، فقال: إني أخاف أن أُقتل وأنا أشرب الماء، فقال عمر: لا بأس عليك حتى تشربه، فأكفأه، فقال عمر: أعيدوا عليه، ولا تجمعوا عليه

القتل والعطش، فقال الهرمزان: لا حاجة لي في الماء، إنما أردت أن أستأمن به، فقال عمر: إني قاتلك، قال الهرمزان: قد أمنتني! قال عمر: كذبت! قال أنس: صدَق يا أمير المؤمنين قد أمنته، قال عمر: ويحك يا أنس! أنا أُؤَمّن قاتل مجزأة والبراء! والله لتأتينّ بمخرج أو لأعاقبنك! قال أنس: قلت له: لا بأس عليك حتى تخبرني، وقلت: لا بأس عليك حتى تشربه، وقال المسلمون من حوله مثل قول أنس، فأقبل عمر على الهرمزان، وقال: خدعتني، والله لا أنخدع إلا لمسلم؛ فقال الهرمزان: أشهد أن لا إله إلا الله.. ففرض عمر له راتباً، أنزله المدينة ثم سأله عمر: يا هرمزان هل تعرف هذا السفط؟ قال: نعم، هو سفطي فنظر فيه وقال: أفقد منه فصاً. قال عمر: إن صاحب المقسم استوهبه من الأمير - أبو موسى - فوهبه له أبو موسى. فقال الهرمزان: إن صاحبكم الذي طلب الفص لبصير بالجوهر. (والذي طلب الفص هو السائب بن الأقرع).

ويروي السائب بن الأقرع قصة أخرى في سياسة عمر المالية فيقول في غنائم نهاوند ـ والسائب هو المكلف من قبل عمر بقسمة الفيء ـ.

يقول السائب: لما فتح المسلمون نهاوند أصابوا غنائم عظاماً، فوالله إني لأقسم بين الناس، إذا جاء عِلجٌ من أهل نهاوند ـ والعلج: هو الرجل من كفار العجم ـ فقال للسائب: أتؤمنني على نفسي وأهلي وأهل بيتي؛ على أن أدلك على كنوز ـ النَّخيرجان ـ وهي كنوز آل كسرى، تكون لك ولصاحبك، لا يشركك فيها أحد؟ قال السائب: قلت: نعم، قال العلج: فابعث معي من أَدُلُّه عليها، فبعث معه، فأتى بسفطين عظيمين ليس فيهما إلا اللؤلؤ والزبرجد والياقوت؛ قال السائب: فلما فرغت من قسمي بين الناس احتملتها معي؛ ثم قدِمتُ على عمر بن الخطاب؛ فقال لي: ما وراءك يا سائب؟ فقلت: خيرٌ يا أمير المؤمنين؛ فتح الله عليك بأعظم الفتح، واستشهد النعمان بن مقرن رحمه الله، فقال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون! ثم بكى فنَشَجَ، حتى إني لأنظر إلى فروع منكبيه من فوق كَتدِهِ ـ مجتمع الكتفين من الإنسان ـ.

قال السائب: فلما رأيتُ ما لقيَ قلت: والله يا أمير المؤمنين ما أُصيب بعده من رجل يعرف وجهه، قال المستضعفون من المسلمين: لكن الذي أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم، وما يضيعون بمعرفة عمر بن أم عمر! قال السائب: ثم قام عمر ليدخل، فقلت: إن معي مالاً عظيماً قد جئت به، ثم أخبرته خبر الفسطين، فقال لي: أدخلها بيت المال حتى ننظر في شأنها، والحق أنت بجندك.

قال السائب: فأدخلتها بيت المال، وخرجت سريعاً إلى الكوفة، قال: وبات تلك الليلة التي خرجت فيها، فلما أصبح بعث في أثري رسولاً، فوالله ما أدركني الرسول حتى دخلت الكوفة، فأنخت بعيري، وأناخ الرسول بعيره على عرقوب بعيري، فقال: الحق بأمير المؤمنين، فقد بعثني في طلبك، فلم أقدر عليك إلا الآن.

قال: قلت: ويلك! ماذا ولماذا؟ قال الرسول: لا أدري والله، قال: فركبت معه ـ مع الرسول ـ حتى قدمتُ عليه، فلما رآني قال: ما لي ولابن أم السائب! بل ما لابن أم السائب ومالي! قال السائب قلت: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال عمر: ويحك! والله ما هو إلا أن نمت الليلة التي خرجت فيها، فأتت ملائكة ربي تسحبني إلى ذينك السفطين يشتعلان ناراً، يقولون لَنكوينّك بهما، فأقول: إني سأقسمها بين المسلمين؛ فَخُذْهُما عني لا أبا لك والحق بهما، قال السائب: فبِعتهما في أعطيات المسلمين وأرزاقهم، قال: فخرجت بهما حتى وضعتهما في مسجد الكوفة، وغشيني التجار، فاشتراهما مني عمرو بن حُريث المخزومي بألفي ألف؛ ثم باعهما في أرض الأعاجم بأربعة آلاف ألف، فما زال أكثر أهل الكوفة مالاً بعد ذلك.

قال العلماء: وهناك مشكلة اعترضت عمر بن الخطاب كانت نتائجها خيراً وبركةً على المسلمين، بل وكانت مفخرة من مفاخر تاريخنا، كان من ثمرتها ـ عطاءٌ ـ وهذا العطاء ليس رواتب موظفين، ولا صدقة على محتاجين، ولكنه نوع من الضمان الاجتماعي ـ كما قال صاحب كتاب تاريخ عمر ـ يأخذه صاحبه على أنه حقٌّ له من بيت المال، ليس عليه فيه مِنَّةٌ لأحد.

قال المؤرخون: لم يكن في عهد رسول الله ﷺ بيت مال بالمعنى الذي عرف فيما بعد، فقد كانت السياسة المالية للنبي ﷺ تقوم على تقسيم الأموال التي تأتيه أو إنفاقها دون تأخير، وكذلك كان الأمر في عهد الصديق...

وجاء عهد عمر، واتسعت الفتوح، وتدفقت الأموال من خراجٍ وجزية وصدقات وغنائم وفيء.. كل ذلك يحتاج إلى ضبط، وبخاصة عطاءات الناس، لأنه إذا لم تُضبط هذه العطاءات فقد يترك البعض بلا عطاء، أو يتكرر العطاء للآخرين، فجمع عمر ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ فقال: ما ترَوْن؟ فقال عليٌ: تُقسّم كل سنة ما اجتمع إليك من المال ولا يتبقى منه شيء، وقال عثمان: أرى مالاً كثيراً يسعُ الناس، وإن لم يحصَوا خشيتُ أن ينتشر الأمر. فقام ـ الوليد بن هشام بن المغيرة ـ وقال: يا أمير المؤمنين جئت الشام فرأيت ملوكها قد دوّنوا ديواناً، وجنَّدوا جنداً،

فدوِّن ديواناً، وجنّد جنداً، فأخذ بقوله فكان عمر أول من دوّن الدواوين لحلّ مشكلة العطاءات.

ويروي المؤرخون: أن أبا هريرة لما قدم من البحرين، أتى إلى عمر، قال أبو هريرة: فإن أول ما سألني عن الناس، فأخبرته، ثم قال لي: ماذا جئت به؟ قال: قلت: بخمسمائة ألف درهم، قال عمر: ويحك: أتدري ماتقول؟ قلت: نعم، مائة ألف... خمس مرات. قال عمر: إنك ناعسٌ، ارجع إلى أهلك فنم، فإذا أصبحت فأتني، فأتيته في الصباح، فعاد عليّ السؤال، وأعدتُ عليه الجواب وهو يعدّها بأصابعه الخمس ثم قال عمر: أطيّب؟ قلت: لا أعلم إلا ذاك، ثم صعد المنبر وقال: أيها الناس جاءنا مال كثير، فإن شئتم كيلاً، وإن شئتم عدّاً، فاقترح عليه الوليد بن هشام الدواوين، والديوان: (سجِلٌ ودفاتر لضبط أمور الدولة ولتوزيع العطاءات، فدعا عمر: عقيل بن أبي طالب، ومخرمة بن نوفل، وجُبير بن مطعم، وكانوا نُسَّاب العرب، وكتاب عمر، فكتبوا للناس على منازلهم كما أمر عمر: فكتبوا: وبدَؤوا ببني هاشم. فكان عمر هو أول من دوّن الدواوين، والراجح أن ذلك كان في العشرين من محرم سنة عشرين للهجرة. وقال لهم عمر: اكتبوا الناس على منازلهم، فكتبوا، فبدؤوا ببني هاشم، ثم أتبعوهم أبا بكر وقومه ـ بني تميم ـ، ثم عمر وقومه ـ بني عدي ـ، وكتبوا القبائل.. ثم رفعوا الكتاب إلى عمر، فلما نظر قال: لا، ما وددتُ أنه كان هكذا، ولكن ابدؤوا بقرابة النبي ﷺ الأقرب فالأقرب، حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله.

كما ذكر مؤلف كتاب سيرة الفاروق والراوي الطبري وغيره: أن بني عديّ ـ قوم عمر ـ جاؤوا إلى الخليفة عمر وقالوا: إنك خليفة أبي بكر، وأبو بكر خليفة رسول الله ﷺ فلو جعلت نفسك حيث جعلك هؤلاء القوم! فقال عمر: بخٍ بخٍ بني عديّ، أردتم الأكل على ظهري، وأن أهب حسناتي لكم! لا والله حتى تأتيكم الدعوة وإن أطبق عليكم الدفتر ـ أي ولو كتبتم آخر الناس ـ، إنَّ لي صاحبين سلكا طريقاً، فإن خالفتهما خولِفَ بي، والله ما أدركنا الفضل في الدنيا، ولا نرجو مانرجو من الآخرة من ثواب الله على عملنا إلا بمحمد ﷺ فهو شرفنا، وقومه أشرف العرب، ثم الأقرب فالأقرب، إن العرب شَرُفتّ برسول الله ﷺ... ثم يقول: ومع ذلك والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال، وجئنا بغير عمل، فهم أولى بمحمد ﷺ منا يوم القيامة، فلا ينظر رجل إلى القرابة، ولنعمل إلى ماعند الله، فإنه من قصَّر به عمله، لم يسرع به نسبه، وكان رضي الله عنه ربما تولّى بنفسه توزيع الأموال والعطاءات على أصحابها، فقد روى الطبري عن حزام بن هشام

الكعبي عن أبيه قال: رأيت عمر بن الخطاب يحمل ديوان خزاعة حتى ينزل قديداً ـ وهو اسم لمكان قرب مكة ـ وسُمّيَ المكان قديداً لذهاب السيول قِدَداً عند وصولها إليه كما قال ـ كُثَيّرُ عزة ـ (شاعر عربي)، ولما نزل تُبَّعُ ذلك المكان بعد حربه لأهل المدينة، جاءت ريحٌ فقَدَّتْ خيمة فسُمِّيَ المكان قديداً، وبذلك قال عبيد الله بن قيس الرُّقيات:

قل لِفِنْدٍ تُشيّعُ الأظعـــانا رُبَّما سَرَّ عَيشُنـــــا وكفانا
صادراتٍ عَشيةً من قُديـــد وارداتٍ مع الضحى عُسْفانا

عُسفان، قرية جامعة فيها زروع ونخيل بين المدينة ومكة تبعد ليلة عن المدينة، قال أعرابي يذكر أخاً له اشتاق إليه:

لقد ذكّرتني عن حُبابٍ حمامـة بعُسفـــــان أهلي فالفؤاد حزين
فويحك كم ذكَّرِتني اليوم أرضاً لعَلّ حِمامي بالحجــــاز يكون
فوالله لا أنساك ما هبّت الصَّبـا وما اخضرَّ من عود الأراك فنون

قال هشام الكعبي: كان ينزل عمر قُدَيداً يحمل ديوان خزاعة فنأتيه بقديدٍ، فلا يغيب عنه امرأة بكر ولا ثيّبٌ، فيعطيهنَّ في أيديهنَّ، ثم يروح فينزل عُسْفان، فيفعل مثل ذلك أيضاً حتى تُوفّيَ.

وكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يرى أن لكل الناس حقاً في بيت المال، فقد روى السائب بن يزيد قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: (والله الذي لا إله إلا هو؛ ثلاثاً؛ ما من أحد إلا له في هذا المال حقٌّ أعطيه أو منفعة؛ وما أحدٌ أحقّ به من أحد إلا عبد مملوك؛ وما أنا فيه إلا كأحدِهم؛ ولكنا على منازلنا من كتاب الله تعالى وقَسَمنا من رسول الله ﷺ، فالرجلُ وبلاؤه في الإسلام ـ أي الذين يحسنون بدفع الضر عن المسلمين، كالمجاهدين في سبيل الله، والناصحين، والعيون ـ، والرجل وقِدمه في الإسلام ـ وهم ذوو السابقة في الإسلام الذين بسَبْقِهم حصل المالُ ـ والرجل وغناؤه في الإسلام ـ أي يغني المسلمين بجلب المنافع لهم كولاة الأمور وأهل العلم الذين يجلبون للمسلمين منافع الدنيا والآخرة ـ، والرجل وحاجته في الإسلام، والله لئن بقيت ليأتيَنَّ الراعيَ بجبل صنعاء حظُّه من هذا المال وهو مكانه قبل أن يحمرَّ وجهه ـ أي في طلبه كما قال الطنطاويان ـ.

أنواع من فُرض لهم من العطاء:

بدأ بأزواج النبي ﷺ، ثم العباس عم النبي ﷺ، ثم لمن شهد بدراً من المهاجرين والأنصار، ثم لمن هاجر إلى الحبشة، ولمن شهد أُحداً إلى الحديبية.

وفرض لمن هاجر قبل فتح مكة، ولأبناء البدريين، ثم فرض لِـمُسْلمة الفتح، ثم فرض للناس على منازلهم وقراءتهم للقرآن وجهادهم.

وفرض لأهل اليمن وقيسٍ بالشام والعراق، ثم قال: لئن كثر المال لأفرضنَّ لكل رجل أربعة آلاف درهم، ألفٌ لسفره، وألف لسلاحه، وألف لأهله، وألف لفرسه وبغله. وفرض لأهل القادسية وأهل الشام، ثم فرض للروادِفِ...

عطاء النساء:

قال المؤرخون: فرض لصفية بنت عبد المطلب، ولأسماء بنت عُميس، وأم كلثوم بنت عقبة، وأم عبدالله بن مسعود، وفرض لنساء المهاجرين والأنصار.

وهناك ما سماه المؤرخون الأعطيات العامة..

كان يفرض للمنفوس مبلغاً قدره مائة درهم، فإذا ترعرع زاده.. وهكذا..

وكان لا يفرض لمولود شيئاً حتى يُفطمَ، حتى سمع امرأة تريد أن تفطم ولدها قبل موعد الفطام طمعاً في عطائه فأمر بالعطاء لكل مولود.

كما فرض لكل لقيط شهرياً ما يُصلحه، وكان يوصي باللقيط خيراً، ويجعل رضاعتهم ونفقتهم من بيت المال.

وجمع مرة ستين مسكيناً، وأطعمهم الخبز، فأحصوا ما أكلوه فوجدوه يخرج من جُريبين، ففرض لكل إنسان منهم له ولعياله جُريبين في الشهر ـ والجريب أربعة أقفزة، والقفيز: ثمانية أمْكِكَةٍ، والمكّوكُ: مكيالٌ يتسع صاعاً ونصف، والمكوك: ٣ كغ.

وفي روايةٍ: أنه أمر بجريبين من البُرِّ فطُحنَ ثم خُبز، ثم ثُرد، ثم دعا ثلاثين فأكلوا منه غدَّاهم حتى أصدرهم، ثم أمر في العشاء بمثل ذلك فقال: يكفي الرجل جريبان في الشهر ـ أي ما يعادل أربعة وعشرين كيلو غراماً ـ لأنَّ الجريبين تكفي ستين أكلة

فكأنّه قدر للرجل أكلتين في اليوم.

فكان يرزق الرجل والمرأة المملوكة جريبين في كل شهر، وكان الرجل إذا أراد أن يدعو على صاحبه قال له: قطع الله جريبك كما ذكر ـ أخبار عمر ـ.

قال المؤرخون: وكان عمر حريصاً على العدل في شأن أهل الذمَّة، وخاصة فيما يتعلق بعهود الذمة، فكتب إلى ولاته يأمرهم بأن يوفوا لأهل الذمة عهودهم، ويحذرهم من ظلمهم فيما يتعلق بالخراج والجزية، وألا يكلَّفون فوق طاقتهم.

وقد روي أن عمر مرَّ بسائل ضرير البصر كبير السن، فضرب عضده من خلفه، وقال له: من أي أهل الكتاب أنت؟ قال السائل: يهودي، قال عمر: فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: الحاجة والسنُّ والجزية، فأخذ عمر بيده إلى منزله فأعطاه شيئاً من المال، ثم أرسل إلى خازن بيت المال، فقال له: انظر هذا وضرباءه ـ وأمثاله ـ فوالله ما أنصفناهُ، أكلنا شيبته، ثم خزلناه عند الهرم، وأمر له بشيء من بيت المال، ـ وروى هذا الخبر أبو عبيد في كتاب الأموال، وضعَّفه ثم ذكر أن عمر فرض له من بيت المال من غير الزكاة... وقد أشار الطنطاوي إلى ذلك ـ.

وروى أبو عبيد في كتاب ـ الأموال ـ أن عمر أتى مرة بمال كثير من مال الجزية. فقال: إني لأظنكم قد أهلكتم الناس، قالوا: لا والله، ما أخذنا إلا عفواً وصفواً.

قال عمر: بلا سوط ولا نوط؟ أي بدون ضربٍ ولا تعليق. قالوا: نعم. قال: الحمد لله الذي لم يجعل ذلك عليَّ ولا في سلطاني.

ولك أن تعلم حسن المعاملة لأهل الذمة الذين يدفعون الجزية إذا علمت أن مقدار الجزية أربع وعشرين درهماً في السنة على كل رجل، ويُعفى منها النساء والصبيان، فإذا أسلم الذمَي سقطت عنه الجزية.

أنواع الأموال التي تدخل على بيت المال:

١. الزكاة: وتصرف على الأنواع الثمانية التي حددها القرآن في سورة التوبة ـ ٦٠. ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ

وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦٠﴾﴾(١).

٢. الفيْءُ: ويشمل:

١. الجزية.

٢. خراج الأرض.

٣. العُشْر ـ المكس ـ والمكس: هي الجمارك، ولا يُعشر مسلم ولا ذمّي.

٤. ما يؤخذ من أهل الحرب إذا دخلوا بلادنا متاجرين.

٣. الخُمسُ: خمس الغنائم، وخمس ما يكشفه الأفراد من المعادن والكنوز الأثرية.

تعميم العطاء:

حدَّث عُرفطَةُ العُذري قال: قدمت على عمر فسألني عما ورائي، فقال عرفطة: يا أمير المؤمنين! تركت الناس يسألون الله أن يزيد في عمرك من أعمارهم، ما من إنسان إلا ويَصِلُه حقه.. قال عمر: الله المستعان، إنما هو حقُّهم أُعْطوهُ، وأنا أسعد بأدائه إليهم منهم بأخذه، فلا تحمدني عليه، فإنه لو كان من مال الخطاب ما أعطيتموه، ولكني قد علمت أن فيه فضلاً ولا ينبغي أن أحبسه عنهم، فلو أنه إذا خرج عطاء أحد هؤلاء، ابتاع منه غنماً، فجعله بسوادهم فإذا خرج عطاؤه الثانية ابتاع الرأس والرأسين فجعله فيها ـ ويحك يا خالد بن عرطفة ـ أخاف عليكم أن يَليكم بعدي ولاة لا يُعَدُّ العطاء في زمنهم مالاً، فإن بقي أحد منهم او أحد من ولده، كان لهم شيءٌ قد اعتقدوه فيتَّكئون عليه، فإن نصيحتي لك وأنت عندي جالس كنصيحتي لمن هو بأقصى ثغر من ثغور المسلمين، وذلك لما طوَّقني الله من أمرهم. فقد قال رسول الله ﷺ: «من مات غاشّاً لرعيته لم يُرَحْ رائحة الجنة».

ويروي المؤرخون: أن عمر لما خرج عطاء زينب بنت جحش أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أرسله إليها، فلما دخل المال ـ وكان كثيراً ـ قالت: غفر الله لعمر، غيري من أخواتي كان أقوى على قَسْم هذا مني. وقالوا: هذا كله لكِ. قالت: سبحان الله! واستترت منه بثوب. ثم قالت: صُبّوه، واطرحوا عليه ثوباً، ثم قالت ـ لبرزة بنت رافع ـ: أدخلي يدك فاقبضي منه قبضة فاذهبي بها إلى بني فلان... وبني فلان من أهلها ورحمها وأيتامها ـ فقسّمته حتى بقيت بقيةٌ تحت الثوب. فقالت برزة لزينب: غفر الله لك يا أم المؤمنين، والله لقد كان لنا في هذا حقٌّ، قالت: فلكم ماتحت الثوب. قالت: فكشفنا الثوب

(١) التوبة: ٦٠.

فوجدنا خمسة وثمانين درهماً. ثم رفعت زينب يدها إلى السماء فقالت: اللهم لا يُدركني عطاء عمر بعد عامي هذا. فماتت فكانت أول أزواج النبي ﷺ لحوقاً به.

سياسة عمر في العشور: العشور ـ هي المكوس ـ، وهي الأموال التي يتم تحصيلها على التجارة التي تمر عبر حدود الدولة الإسلامية دخولاً وخروجاً وهي تشبه ما يسمى بالرسوم الجمركية كما قال صاحب كتاب عمر الفاروق.

ويقوم بتحصيلها موظف يسمى ـ العاشر ـ. ولكن هذا العشرَ ممن يؤخذ؟ هذا العشر لا يؤخذ من المسلمين فلقد سئل ابن عمر: أعلمت أن عمر أخذ من المسلمين العشر؟ قال: لا، لا أعلم، وكان زياد بن حُدَير يقول: أنا أول عاشر في الإسلام. فسئل: مَنْ كنتم تُعشِّرون؟ قال: ما كنا نعشر مسلماً ولا معاهداً. ـ المعاهد: أي الذي بين حكومته وبين المسلمين معاهدة صداقة ـ. قيل: فمن كنتم تعشرون؟ قال: تجار الحرب.

وفي الحديث: «إن صاحب المُكْس في النار». قال أبو عبيد في كتابه «الأموال»: صاحب مُكْس ـ هو العاشر ـ وذلك أن ملوك العجم والعرب في الجاهلية كانوا يأخذون من التجار عشر أموالهم إذا مروا بهم.

قال أبو عبيد: كان عمر يأخذ من التجار المسلمين الزكاة فقط، ومن تجار الذميين ٥٪ ـ والذميون: هم المواطنون غير المسلمين، لهم مالنا وعليهم ما علينا إلا في أمور خاصة ـ.

أما العشر فيؤخذ من الحربيين فقط إذا مروا تجاراً من بلادنا على قاعدة المعاملة بالمثل ـ كما كان يفعل حاكم الحبشة مع المسلمين ـ. والحربيون: هم الذين بيننا وبين حكوماتهم حالة حرب، وأعفى عمر الذميَّ من العشر إذا كان دَينه مستغرقاً. وحَطَّ من العشور للمصلحة كما فعل مع النبط في الزيت والقمح عندما احتاج أهل المدينة لذلك.

عام الرمادة: قحط عظيم حصل في السنة الثامنة عشرة للهجرة، ودام هذا القحط تسعة أشهر، سميت هذه السنة (عام الرمادة)؛ لأنَّ الأرض اسودَّتْ من قلّةِ المطر حتى عاد لونها شبيهاً بالرماد، ولأنَّ الريح كانت تسفي تراباً كالرماد، واشتد الجوع في ذلك العام حتى جعلت الوحش تأوي إلى الإنس.

قال صاحب «البداية والنهاية» «في التاريخ»:

أجدبت الناس في هذه السنة بأرض الحجاز، وجفلت – أسرعت – الأحياء إلى المدينة، ولم

يبق عند أحد زاد فلجؤوا إلى أمير المؤمنين فأنفق فيهم من حواصل بيت المال مما فيه من الأطعمة والأموال حتى أنفذه، وألزم عمر أمير المؤمنين نفسه ألا يأكل سمناً ولا سميناً حتى يُكشفَ ما بالناس.

حيث كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في زمن الخصب يُبَثُّ له الخبز باللبن والسمن، ثم كان عام الرمادة فكان الخبز يبث له بالزيت والخل، وكان يستمرئ الزيت، وكان لا يشبع مع ذلك حتى خاف الناس عليه الضعف، واستمر هذا الحال تسعة أشهر، ثم تحول هذا الحال إلى الخصب والراحة، وعاد الناس من المدينة إلى أماكنهم وقراهم.

قال الشافعي: بلغني أن رجلاً من العرب قال لعمر حين ترحَّلت الأحياء والقبائل عن المدينة: (لقد انجلت عنك، وإنك لابنُ حُرَّةٍ). أي واسيتَ الناس وأنصفتهم وأحسنت إليهم.

وروى المؤرخون: أن عمر خرج ليلة يَعُسُّ - يطوف ليلاً - في المدينة، فلم يجد أحداً يضحك، ولم يعد الناس يتحدثون في منازلهم كما هي العادة، حتى لم يرأحداً يسأل شيئاً فسأل عن سبب ذلك، فقيل له: الناس في هَمٍّ وضيق فهم لا يتحدثون ولا يضحكون، ثم إن الناس السُؤّال لم يُعْطوا فقطعوا السؤال.

فماذا فعل لما سمع بذلك؟

قال المؤرخون: كتب عمر إلى أمراء الأمصار: أن أغيثوا أهل المدينة ومَنْ حولها، فإنه قد بلغ بهم الجهد، قال الطبري وغيره: كان أول من قدم عليه بالمدد - أبو عبيدة عامر بن الجراح -، في أربعة ألاف راحلة من طعام، فولّاه قِسْمتها فيمن حول المدينة، فلما فرغ من قسمتها رجع إلى عمر وأعلمه بذلك، فأمر له بأربعة آلاف درهم، فقال أبو عبيدة: لا حاجة لي فيها يا أمير المؤمنين، إنما أردت الله وما عنده، فلا تُدخلْ عليَّ الدنيا، فقال عمر: خذها فلا بأس بذلك إذ لم تطلبه، فأبى أبو عبيدة، فقال عمر: خذها فإني قد وُلّيتُ لرسول الله ﷺ مثل هذا، فقال لي مثل ما قلت لك، فقلت له كما قلت لي، فأعطاني فاقبلها أيها الرجل، واستعن بها على دينك ودنياك، فقبلها أبو عبيدة، وكتب إلى سعد بن أبي وقاص يستمدُّه، فأمدَّه سعد بثلاثة آلاف بعير تحمل الدقيق، وثلاثة آلاف عباءة، ثم أمدَّه سعد بألفي بعير أخرى تحمل الدقيق.. ثم جاء مدد معاوية، ثم أمداد مصر براً بألف بعير، وبُعِثَ من مصر بحراً بعشرين سفينةً تحمل الدقيق والدهن إلى

ميناء جدة، ثم حُملت من جدة إلى مكة، ثم بعثت إمدادات مصر إلى نجد، وكان يدفع لكل بيت بعيراً بحِمْلِه مع كساءين لكل إنسان، ثم يأمرهم أن ينحروا البعير فَلْيُمَلِّحوا شحمه، وليقدِّدوا لحمه، ويأكلوا حتى يأتيهم الله برزق.

وروى الطبري وغيره: أن أعرابياً من البادية من قبيلة مُزينة، وفي بعض كتب التاريخ كان اسمه – بلال بن الحارث المزني – ذبح لأهله شاة عام الرمادة فلما سلخها وجد عظمها قد احمرَّ من هزالها، فعافوها، فراى ليلتها في منامه أن رسول الله ﷺ يقول له: (أبشر بالحياة، ايتِ عمر، فأقرئه مني السلام، وقل له: إن عهدي بك وأنت وفيُّ العهد، شديد العقد، فالكيسَ الكيسَ يا عمرُ!) فأتى الأعرابي المزني إلى باب عمر وقال للحاجب – غلامٌ لعمر – استأذن لرسول رسول الله ﷺ، فدخل الغلام على عمر فأخبره، ففزع عمر وقال للغلام: رأيتَ به مَسَّاً! قال الغلام: لا، قال عمر: فأدخله، فدخل بلال المزني فأخبر عمر بالمنام، فخرج عمر فنادى في الناس، الصلاة جامعة، فصلى بهم ركعتين ثم قام فقال بعد أن صعد المنبر: أيها الناس أنشدكم بالله الذي هداكم للإسلام، هل رأيتم مني شيئاً تكرهونه؟ قالوا: اللهم لا، أنشدكم بالله هل تعلمون مني أمراً غيرُه خير منه؟ قالوا: اللهم لا، قالوا: ولم ذاك؟ - أي لماذا تُحلِّفنا عن ذلك –

قال المؤرخون: فأخبرهم عمر بقول المزني ومنامه، (ففطِنوا ولم يفطن عمر) أي لمغزى المنام، فقالوا: إنما استبطأك في الاستسقاء فاستسقِ بنا، ففطن عمر وقال: الله اكبر! بلغ البلاء مدته فانكشف، ما أذن لقوم في الطلب إلا وقد رفع عنهم البلاء. ثم نادى بالناس فقام فخطب وأوجز، ثم صلى ركعتين فأوجز، ثم قال: اللهم عجزت عنا أنصارنا، وعجز عنا حَوْلُنا وقوتنا، وعجزت عنا أنفسنا، ولا حولَ ولا قوة إلا بك، اللهم فاسقنا، وأَحْيِي العباد والبلاد.

وذكر أبوبكر ابن أبي الدنيا.. عن خوّات بن جبير في كتاب – المطر، وكتاب – مُجابي الدعوة – أن عمر خرج بالناس فصلى ركعتين، فقال: اللهم نستغفرك ونستسقيك، فما برح من مكانه حتى مُطِروا، فقدم أعراب من البادية فقالوا: يا أمير المؤمنين: بينما نحن في وادينا في ساعة كذا، إذ أظلَّتنا غمامة فسمعنا منها صوتاً، أتاك الغوث أبا حفص، أتاك الغوث أبا حفص.

كان عمر يعمل بنفسه في عام الرمادة:

يروي المؤرخون، عن نافع مولى آل الزبير، قال: سمعت أبا هريرة يقول: رحم الله ابن حنتمة، لقد رأيته عام الرمادة، وإنه ليحملُ على ظهره جرابين وعُكَّةَ زيت – قربة صغيرة – في يده

وإنه ليعتقبُ هو وأسلم – غلام له – أي يتناوب – فلما رآني قال: من أين يا أبا هريرة؟ قلت: قريباً، فأخذت أَعْقُبه – أي أعاونه – فحملنا حتى انتهينا إلى صرارٍ – موضع يبعد عن المدينة ثلاثة أميال على طريق العراق، وقد ذُكر عند الشعراء – ومن ذلك قول جرير:

إن الفرزدق لا يزال لُؤْمُـــــه   حتى يزول من الطريق صِرار

مكان مرتفع كجبل.

فإذا صِرمٌ – جماعة – نحوٌ من عشرين بيتاً من محارب – قبيلة عربية –

فقال عمر: ما أقدمَكم؟ قالوا: الجهد، وأخرجوا لنا جلد ميتة مشوياً كانوا يأكلونه، ورقَّةُ العظام مسحوقة كانوا يستفُّونها.

قال أبو هريرة: فرأيت عمر طرح رداءه، ثم اتَّزرَ، فما زال يطبخ لهم حتى شبعوا، ثم أرسل غلامه أسلم إلى المدينة فجاء بأبعرة فحملهم عليها حتى أنزلهم الجبانة – أي المقابر والصحراء – ثم كساهم، ثم لم يزل يختلف إليهم وإلى غيرهم حتى رفع الله ذلك.

وكان عمر يطعم الطعام:

وقد ذكر صاحب كتاب – أخبار عمر –، عن عبدالله بن عمر قال: كان عمر بن الخطاب أحدث أمراً في زمان الرمادة لم يكن يفعله قبل، لقد كان يصلي بالناس العشاء ثم يخرج حتى يدخل بيته، فلا يزال يصلي حتى يكون آخر الليل ثم يخرج فيأتي الأنقاب – مفردها نُقْبة وهو الطريق في الجبل – فيطوف عليها، وإني لأسمعه ليلة في السحر وهو يقول:

اللهم لا تجعل هلاك أمة محمد على يدي، ويقول: اللهم لا تُهلكنا بالسِّنين وارفع عنا البلاء. يردد هذه الكلمة.

ونقل المؤلف عن ابن سعد في «طبقاته» قال: قال مالك بن أوس – من بني نصر –: لما كان عام الرمادة قدم على عمر قومي وهم مائة بيت فنزلوا بالجبانة، فكان عمر يطعم الناس من جاءه، ومن لم يأت أرسل إليه بالدقيق والتمر والأُدْم إلى منزله، فكان يرسل إلى قومي بما يصلحهم شهراً بشهر، وكان يتعاهد مرضاهم وأكفان من مات منهم. ولقد رأيت الموت وقع فيهم حتى أكلوا الثُّفْل – الردي من الطعام وليس فيه لبن – وكان عمر يأتي بنفسه فيصلي عليهم، ولقد رأيته صلى على عشرةٍ جميعاً، فلما جاء الحَيَا – وهو المطر والخِصْب – قال لهم: اخرجوا من القرية إلى ما كنتم اعتدتم من البريّة فجعل عمر يحمل الضعيف منهم حتى لحقوا ببلادهم.

وروى صاحب «الطبقات» في المجلد الثالث: أن عمر بينما كان نائماً في المسجد وقد وضع رداءه، مملوءاً حصى تحت رأسه إذا بهاتف يهتف ياعمراه! فانتبه مذعوراً، فعدا إلى الصوت وإذا أعرابي مُمسكٌ بخطام بعير والناس حوله، فلما نظر إلى عمر قال الناس: هذا أمير المؤمنين، فقال عمر: مَنْ آذاك؟ حيث ظن عمر أن ظلماً قد وقع عليه، فأنشد الأعرابي أبياتاً يشكو فيها الجدب، فوضع عمر رأسه بين يديه ثم صاح، واعمراه، واعمراه، تدرون ماذا يقول؟ يذكر جدباً وإسناتاً وإن عمر يشبعُ ويروى والمسلمون في جدب وأزل – ضيق – مَنْ يُوصلُ إليهم المِيرة والتمر وما يحتاجون إليه؟ فوجه رجلين من الأنصار ومعهما إبل كثيرة عليها الميرة والتمر فدخلا اليمن، فقسما ما كان معهما إلا فضلة بقيت على بعير. قال: فلما عزمنا على الانصراف ومشينا قليلاً فإذا نحن برجل قائم يصلي وقد التفَّت ساقاه من الجوع، فلما رآنا قطع وقال: هل معكما شيء؟ فصببنا ما معنا بين يديه.

قال أسلم: كنا نقول لو لم يرفع الله المحلَ عام الرمادة لظننا أن عمر يموت هماً بأمر المسلمين.

ويذكر المؤرخون: أن عام الرمادة جعل العرب يتجلَّبون من كل ناحية إلى المدينة المنورة حتى أحدقوا بها فكان عمر قد وظف رجالاً يقومون عليهم، ويرسلون لهم الميرة والطعام، وكانت الموائد تقام عند عمر للعشاء، فقال مرة للعرفاء المشرفين على إطعام الناس: أحصوا من تعشى عندنا، فأحصوهم فوجدوهم سبعة آلاف رجل، وأحصوا العيال والصبيان الذين لم يأتوا وإنما أرسلوا إليهم فوجدوهم أربعين ألفاً.. ثم مرَّت عدة ليال فزاد الناس.. فأمر بإحصائهم فوجدوا من تعشى عنده قد بلغ عشرة آلاف، والآخرين خمسين ألفاً.

وذكر صاحب «الفائق»: أن الطباخين عند عمر كانوا يقومون من السَّحَر يعملون العصائد، ويطعمون المرضى، وكان يأمر الطباخين أن يوضع الزيت في القدور الكبيرة على النار، ثم يُثْرد فيها الخبز بعد أن يذهب حرُّ الزيت قليلاً، وكان عمر يقول: لقد هممتُ أن أجعل مع كل أهل بيت من المسلمين مثلهم فإن الإنسان لا يهلك على نصفِ شُبعةٍ.

وروي أنه جيء إليه بثريد مفتوت بدهن وجلس معه بدوي يأكل، ويُتبعُ بلقمته الوَدَكَ – الدهن – من جانب الصفحة، فقال له عمر: كأنك مقفر من الدهن؟ فقال: أجل، ما أكلت سمناً ولا زيتاً ولا رأيت آكلاً له منذ كذا وكذا.. فحلف عمر لا يذوق لحماً ولا سمناً حتى يكون

الخصب والمطر.

ويروي عياض بن خليفة قال: رأيت عمر عام الرمادة، وقد مال لونه إلى السواد فقيل لعياض: مم ذاك؟ قال: كان رجلاً عربياً يأكل السمن واللبن فلما أمحل الناس حَرَّمها على نفسه حتى يُحْيَوا.

ويروي صاحب «الرياض النضرة» عن أسلم قال: نحرنا يوماً جزوراً لإطعام الناس فأطعمناهم، ثم أتينا لعمر بثريد منه فيه قطعة سنام وكبد، فقال: أنَّى هذا؟ قلنا: من الجزور الذي نحرناه اليوم.. فقال: بخ بخ بئس الوالي أنا إن أكلتُ طيبها وأطعمت الناس كراديسها – رؤوس العظام، ارفع هذه الجفنة وأرسلها أهل بيت بثَمْغ – موضع مالٍ لعمر وقفه بالمدينة – فإني لم أرهم منذ ثلاث وأخاف أن يكونوا مُقْفرين، وأْتِني مما أكل منه الناس.

قال أسلم: سمعت عمر يقول عام الرمادة، إني أخشى أن تكون سخطةً عَمَّتنا جميعاً فأعتبوا ربكم وانزعوا وتوبوا إليه وأحدثوا خيراً. ثم استسقى لهم وتوسل بدعاء العباس وعند مغرب الشمس خرج السحاب كالجبال ولم يروا مثل ذلك من أربع سنوات، ثم أطبق المطر في كل مكان، فأقبل الناس على العباس يمسون أركانه ويقولون: هنيئاً لك ساقي الحرمين، وكان المطر يعاودهم كل خمسة عشر يوماً.

وقال حسان:

سأل الإمامُ وقد تَتابع جَدْبُنا فسقى الغمامُ بغرَّة العباس
أحيا الإله به البلاد فأصبحت مُخْضَرَّةَ الأجنابِ بعد الياس

ولما نزل المطر أخرج عمر الأعراب قائلاً: اخرجوا إلى بلادكم.

وحدثت إحدى نساء عمر قالت: ما قرب عمر امرأة زمن الرمادة حتى أحيا الناس أي أخصبوا همّاً.

وقد روى عبدالله بن ساعدة قال: رأيت عمرإذا صلى المغرب نادى: أيها الناس، استغفروا ربكم ثم توبوا إليه، وسَلُوه من فضله، واستسقوه سُقْيا رحمة لا سقيا عذاب. فلم يزل كذلك حتى فرج الله ذلك. وكان يُلحُّ في الدعاء على المنبر ويبكي بكاءً طويلاً حتى أخضل لحيته كما ذكر الشعبي.

وقد جاء في «صحيح البخاري» عن أنس، أن عمر استسقى بالعباس بن عبدالمطلب فقال:

اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعمّ نبينا فاسقنا.

وروى أهل سيرة عمر، ورشيد رضا في كتابه «الفاروق عمر» أن عمر لما استسقى عام الرمادة قال في آخر كلامه: اللهم إني قد عجزتُ وما عندك أوسعُ لهم، ثم أخذ بيد العباس فقال: نتقرب إليك بعم نبيك وبقيَّة آبائه وكبار رجاله، فإنك تقول وقولك الحق: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾[(١)].

فحفظها لصلاح أبيهما، فاحفظ اللهم نبيك في عَمِّهِ، فقال العباس وعيناه تنضحان: اللهم إنه لا ينزل بلاء إلا بذنبٍ، ولا يُكشَفُ – أي البلاء- إلا بتوبةٍ، وقد تَوَجَّهَ القوم بي إليك لمكاني من نبيك ﷺ وهذه أيدينا مبسوطة إليك بالذنوب، ونواصينا بالتوبة فاسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين يا أرحم الراحمين، أنت الراعي لا تُهملِ الضالة، ولا تَدَع الكسير بدار مَضْيعة، فقد ضَرَعَ – ذَلَّ – الصغير، وفَرَقَ – أي خاف – الكبير –، وارتفعت الشكوى وأنت تعلم السر وأخفى، اللهم أَغِثْهم بغياثك قبل أن يقنطوا؛ فيهلِكُوا فإنه لا ييأس من رَوْحك إلا القوم الكافرون.

الرَّوْحُ – النَفَسُ –، استعير لكشف الكرب، ومنه: تنفس الصبح إذا زالت ظلمة الليل، ويقول تعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[(٢)] ومثل ذلك من المحسوس، كمثل يومٍ قائظ فتدخل بستاناً فتهب نسمةٌ رقيقة منعشة يتعطر الجو بها، أما الرُّوْحُ: فما به حياة النفس، قال تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴿٩﴾﴾[(٣)].

قال المؤرخون: ولما استسقى عمر بالعباس ودعا العباسُ، نشأت طريرةٌ من سحاب فهدأت ثم دَرَّتْ فوالله ما نزحوا حتى اعتنقوا الجدار، فقال الناس للعباس هنيئاً لك يا سَقِيَّ الحرمين.

فقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب:

بعمّي سقى اللهُ الحجـــاز وأهله ... عشيـــــــة يستسقي بشيبته عمر

---

(١) الكهف: ٨٢.

(٢) الواقعة: ٨٩.

(٣) السجدة: ٩.

توجَّه بالعباس في الجدب راغبــاً | إليه فما رام حتـــــــى أتى المطر
ومنا رسول الله فينــــــــا تُراثهُ | فهل فوق هذا للمفاخـــرِ مُفْتخَرْ

سياسة عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في تطوير العمران، وتمصير الأمصار:

يذكر صاحبا كتاب – أخبار عمر – أن عمر بنظره البعيد رأى أن العرب إذا نزلوا المدن الفارسية فقدوا مزايا الصحراء، وخلائق العروبة، وغلب عليهم الترف، وأضعفتهم الحضارة.. كما وقع لجنود هاني بعل (آنيبال) لما فتحوا إيطاليا، وذاقوا لذة المدنيَّة، فاسترخت عزائمهم، فغُلِبُوا بعد أن كانوا هم الغالبين، من هنا بدأ عمر بإنشاء مدن جديدة يعيش فيها العرب مثل عيشتهم في الجزيرة، ويبقون في هذه المدن على استعداد دائم للجهاد في سبيل الله كلما دعاهم داعي الجهاد، ويحفظون بذلك عاداتهم وأخلاقهم فأنشأ للجند مدينتي البصرة والكوفة (اللتين قال فيهما صاحبا كتاب أخبار عمر): أسدتا إلى اللغة العربية وأدبها ما لم تُسْدِ مثلَهُ مدينة قط، وكان لهاتين المدينتين الفضل في خدمة علوم العربية، وحفظِ شعرها وخُطبها وتاريخها مالم يكن لدمشق ولا لبغداد ولا للقاهرة. وكان لكل بلدة منهما مذهبها الخاص في النحو، ثم اندثر مذهب الكوفة باندثارها، وبقي مذهب البصرة إلى اليوم لا نعرف غيره.

بنيت هذه المدن على النمط الإسلامي سواء كانت الكوفة أو البصرة أو الفسطاط أو الموصل على الطريقة الإسلامية، المسجد في الوسط ثم حوله البيوت.

والآن فلنذكر مختصراً عن هذه السياسة العمرانية مبتدئين ببناء البصرة:

البصرة في اللغة، كل أرض حجارتها من الحصى.

بعث عمر قائده – عُتبة بن غزوان – إلى مكان البصرة وليس فيها شيء، ولكن كان إلى جانبها مرفأ كبير ترسو فيه السفن من عُمان والبحرين والهند والصين وفارس في أرض اسمها – الأُبُلَّةُ – في ذلك الزمان واسمها اليوم – أبو خصيب – وهي متصلة بالبصرة كما قال صاحب – أخبار عمر – والبصرة تقع على ملتقى دجلة والفرات ويُعرف ملتقاها بشط العرب.

والأبلة أقدم من البصرة؛ لأنَّ البصرة مُصِّرَتْ في أيام عمر كما قال صاحب «معجم البلدان»، وكان في المرفأ حامية فارسية انهزمت بعد معركة قصيرة مع جيش عتبة بن غزوان، ثم كتب عتبة إلى عمر يذكر له ذلك، ثم قال: يا أمير المؤمنين لا بد من منزل يشتو به الجند إذا شتوا..

فكتب إليه عمر: اجمع أصحابك في موضع واحد يكون قريباً من الماء والمرعى، فوقع اختيار عتبة على مكان البصرة وكتب لعمر بذلك وأنها أرض كثيرة المراعي والقصب.. فأذن له عمر بذلك والنزول فيها.. وكانت خصبة حتى قال الأصمعي: جِنانُ الدنيا ثلاث، غوطة دمشق، ونهر بلخ، ونهر الأبلة.

ونذكر هنا قصة طريفة بمناسبة ذكر – الأبلة – وهي أن بكر بن النطاح الحنفي مدح الأمير – أبا دُلَف العجلي – بقصيدة، فأثابه عليها بعشرة آلاف درهم، فاشترى الشاعر بها ضيعة في الأبلة ثم جاء إلى الأمير وأنشده أبياتاً قال فيها:

بك ابتعت في نهر الأبلة ضيعة ... عليها قُصَيرٌ بالرخام مَشيدُ
إلى جنبها أخت لها يعرضونها ... وعنـدك مالٌ للهِباتِ عتيد

قال الأمير أبو دلف العجلي: وكم ثمن هذه الضيعة الأخرى؟ فقال الشاعر: عشرة آلاف درهم؛ فأمر أن تُدفعَ له، فلما قبضها الشاعر قال له الأمير: اسمع مني يا بكر بن النطاح، إنَّ إلى جنب كل ضيعة أخرى، إلى الصين فإياك أن تجيئني غداً، وتقول إلى جنب هذه الضيعة ضيعة آخرى، فإن هذا شيء لا ينقصني.

وقد ذكر صاحب كتاب «الروض المعطار»: أن الأُبُلَّةَ هي القرية التي مر بها موسى والخضر عليهما السلام، ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ٧٧﴾(١). ويحكى أن أهلها أتوا إلى عمر بن الخطاب ورغبوا إليه أن يُثْبتَ في المصحف – فأتوا أن يضيفوهما – بدل الباء.

وهكذا بنيت البصرة على بعد أربع فراسخ من الأُبلَّة، وبنيت المساكن من القصب، المسجد، والديوان والسجن.. وكانوا إذا غزوا نزعوا ذلك القصب وحزموه ووضعوه جانباً حتى يعودوا، فإذا رجعوا أعادوا بناءه. ثم أصاب القصبَ حريقٌ، فاستأذنوا عمر بن الخطاب أن يبنوا باللبن، فأذن لهم وكان ذلك في عام سبعة عشر للهجرة بعد وفاة – عتبة بن غزوان – حيث خلفه أبو موسى الأشعري فقام ببناء المسجد ودار الأمارة. – باللبن والطين – ثم بنوها بالحجارة والآجر.

---

(١) الكهف: ٧٧.

بناء الكوفة:

المؤرخون مجمعون على أن سبب بناء الكوفة، أن الوفود وردت على عمر بعد فتح بعض المدن وبخاصة – جلولاء وتكريت – فرآهم عمر متغيرين، قد اصفرَّت وجوههم، وضعفت أجسامهم، فقال عمر: والله ما هيأتكم بالهيئة التي خرجتم بها، ولقد قدمت وفودُ القادسية فما كانوا مثلكم. فما الذي غيركم؟ قالوا: رطوبة البلاد ووخامتها، وبينما كان عمر يكلم الوفود جاءته رسالة من – حذيفة بن اليمان – وكان مع سعد بن أبي وقاص تُخبره، أن العربَ قد أُترفت بطونها، وخَفَّت أعضادها، وتغيرت ألوانها، فكتب عمر فوراً جواباً على هذه الرسالة يقول: أنبئني ما الذي غير العرب ولحومهم؟ فكتب إليه سعد: إن الذي غير ألوانهم وخَدَّدهم – أهزلهم – وخومة المدائن ودجلة، فكتب إليه عمر: إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان، فابعث – سلمان وحذيفة – فليرتادا منزلاً، فبعثهما سعد.

قال المؤرخون: خرج سلمان حتى أتى الأنبار – موضع الفلوجة اليوم – فسار في غربي الفرات مشى وهو يرتاد فلم يعجبه شيء من البقاع حتى أتى الكوفة، وخرج حذيفة فسار في شرقي النهر لا يرضى شيئاً حتى أتى الكوفة، فأتيا عليها وهي أرض حصباء، – وكل أرض اختلط فيها الحصا والرمل تسمى كوفة – وأعجبتهما البقعة فنزلا وصلَّيا وقال كل واحد منها: اللهم رَبَّ السماء وما أظلَّتْ، ورب الأرض وما أقلت، والريح وما ذَرَتْ، والنجوم وما هَوَت، والبحار وما جرت، والشياطين وما أضلَّت، والخِصاص وما أجنَّت باركْ لنا في هذه الكوفة، واجعله منزل ثبات.

ولما وافق عمر على ذلك جمع سعد قواده وارتحل بالناس من المدائن إلى الكوفة حيث عسكر بها بناءً على ارتياد سلمان وحذيفة، وموافقةِ عمر وكان ذلك في المحرم سنة سبع عشرة للهجرة، ثم كتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص أن يستدعي صاحب التنزيل – أي ما يسمى رئيس فرقة الهندسة في الجيش كما سماه مؤلف كتاب أخبار عمر، وكان هذا الرجل واسمه (أبو الهياج بن مالك الأسدي) خبيراً بالهندسة، وأمره عمر أن يجعل المناهج – الشوارع – بعرض أربعين، ثم ما يليها ثلاثين والصغيرة منها عشرين، وأن يجعل الأزقة في الشوارع لا تقل عن سبعة أذرع.. وهكذا خطط عمر للكوفة كما خطط للبصرة.. وهو بهذا جمع بين سكن المدن وهواء البادية.

ثم بنى سعد قصراً بجانب محراب مسجد الكوفة.. وكانت الأسواق أمامه فكانت غوغاءُ

الناس تُسمع فلا يستطيع سعد أن يتحدث.. فلما سكنه سعد قال عنه بعض الناس كلاماً لم يقله.. قالوا: إن سعداً قال: سكَن عني الصُّوَيْتُ، وأغلق باب القصر عن الناس.

قال المؤرخون: وبلغ ذلك عمر، وأن الناس يسمونه – قصر سعد –، فدعا عمر – محمد بن مَسْلمة –، وهو المفتش العام فأرسله إلى الكوفة، وقال له: اعمد إلى القصر حتى تحرق بابه، ثم ارجع عودك على بدئك. وخرج محمد بن مسلمة إلى الكوفة فاشترى حطباً ثم أتى القصر فأحرق بابه. وأتى سعداً الخبرُ فقال: هذا رسول أُرسلَ لهذا الشأن، وسأل عنه فإذا هو – محمد بن مسلمة –، فأراده على النزول فأبى، وعرض عليه النفقة فأبى ودفع محمد بن مسلمة إلى سعد كتاب عمر وفيه: بلغني أنك بنيت قصراً اتخذته حصناً ويسمى قصر سعد، وجعلت بينك وبين الناس باباً، فليس بقصرك ولكنه قصر الخبال – الجنون والفساد –، إلى أن يقول في رسالته: ولا تجعل على القصر باباً يمنع الناس من دخوله، وتَنفيهم به عن حقوقهم.

قال المؤرخون: فحلف له سعد أنه لم يقل الذي قالوا، ورجع محمد بن مسلمة فوره حتى إذا دنا من المدينة نفد زاده فأكل قشر الشجر فوصل إلى عمر وقد مرض بسبب ذلك فأخبره خبره كله، فقال عمر: هَلَّا قبلتَ من سعد؟ فقال محمد بن مسلمة: لو أردتَ ذلك كتبتَ لي، أو أذنتَ لي فيه. فقال عمر: إن أكمل الرجال رأياً من إذا لم يكن عنده عهد من صاحبه عمل بالحزم أو قال به، ثم أخبر محمد بن مسلمة ما قال له سعد، وأخبره بيمينه، فقال عمر: هو أصدقُ عندي ممن روى عليه وممن أبلغني.

توسيعه للمسجد النبوي:

يروي الطنطاويان: أن عمر والعباس التقيا، فقال عمر: إني سمعت رسول الله ﷺ (يريد أن يزيد في المسجد) ودارك قريبة منه فأعطناها نَزِدْهَا في المسجد ونُقْطِعك أوسعَ منها، قال: لا، قال عمر: ليس لك ذلك اجعلْ حكماً يقضي بيننا، قال العباس: ومَنْ هو؟ قال: حذيفة، قال حذيفة: عندي خبر في هذا، قال: وما ذاك؟ قال: إن داود أراد أن يزيد في بيت المقدس وكان بيت ليتيم قرب المسجد فطلبه منه فأبى اليتيم فأراد داود أخذه فأوحى الله إليه: (إن أنزه البيوت عن الظلم لبيتي فتركَهُ).

قال العباس لعمر: أبقي شيء؟ قال عمر: لا، قال العباس: لك الدار فزدها في مسجد

رسول الله ﷺ قال عمر: لولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: أريد أن أزيد في قبلتنا ما زدت. ثم فرشه بالحصى ووسع الحرم المكي: فاشترى الدور التي حوله وزادها فيه، وجعل جداره قصيراً دون القامة ووضع عليه المصابيح وكسا الكعبة، كانت كسوة الكعبة الجلود في الجاهلية، ثم كساها ﷺ الثياب اليمانية، ثم كساها عمر القَباطيَّ – كسوة بيضاء تُصنع في مصر – وحفر الخليج، حيث أمر – عمرو بن العاص – أن يحفر خليجاً من النيل إلى البحر الأحمر ليسهل حمل المؤن إلى مكة والمدينة بحراً، وحفر الخليج من جانب الفسطاط في سنةٍ، ثم قصّرَ الولاة في صيانته فردم.

سياسة عمر في التعامل مع الولاة:

كان عمر هو الذي يتولى تعيين الولاة، بل كان يسمي لهم أعوانهم، ولم يكن الوالي يعمل عملاً إلا بعد الكتابة لعمر به واسئذانه، - كما قال صاحب كتاب أخبار عمر – وكان يكتب للولاة المواعظ في إصلاح نفوسهم وتصحيح نياتهم كما يكتب لهم في أمور الدولة، وما كان يخلو كتاب له من مواعظ للوالي أو نصيحة.

قال المؤرخون: كما ذكر صاحب كتاب – تاج الملوك – وغيره ممن نقل عنهم الطنطاويان قالوا: كان له جهاز خاص، مربوط به، لمراقبة أحول الولاة، فكان علمه بالولاة النائين عنه كعلمه بمن عنده.. فكانت أخبار المشرق والمغرب تُصبح وتُمسي عنده، وكان إذا بلغه أن عاملاً عنده لا يعود مريضاً ولا يدخل عليه ضعيف عزله، وكتب إلى أبي موسى الأشعري حين ولاه: أنْ سَوِّ بين الناس في مجلسك وجاهك حتى لا ييأس ضعيف من عدلك، ولا يطمع شريف في حيفك..

وكان يقول: هانَ شيء وأُصْلِحُ به قوماً، أن أبدلهم أميراً مكان أمير.

ومن أقواله: أيُّما عامل لي ظلم أحداً، وبلغني مظلمته فلم أُغيّرها فأنا ظلمته.

قال المؤرخون: تقوم خطة عمر في تعامله مع الولاة على أمرين:

الأول: المركزية الشديدة التي لا يترك لهم حرية الإستقلال بالأمر مع المراقبة الشديدة لسلوكهم، والوقوف على تصرفاتهم.

الثاني: كان دقيقاً بل حريصاً على حفظ حقوق الناس، بل كان يعطي الناس أكثر مما لهم على حساب الولاة، ولذلك كان يسمع كل شكوى عليهم، حتى إن القارئ لَيعجبُ من دقة

محاسبته للولاة.

فتعالوا نستعرض شيئاً من هذه الشكاوى وهذه التحقيقات.

قال صاحب كتاب «أخبار عمر»: ومن أعجب هذه الشكاوى التي سمعها عمر: شكوى الجراح بن سنان الأسدي مع نفر من قومه من سعد بن أبي وقاص، اتهموا سعداً في صلاته وعدله، وكان ينبغي لهذه الشكوى أن تُهملَ لبُعدِ تصديقها على رجل كسعد رضي الله عنه، ولأن الشكوى جاءت في وقت حرج جداً، في وقت اجتمعت فيه قوى الفرس كلها لمعركة نهاوند، وسعد هو قائد هذه المعركة ضد الفرس، وكأن عمر شعر بأن هذه الشكوى على سعد مبعثها الشرُّ وحَظُّ النفس..

فقال مخاطباً الذين اشتكوا: إن الدليل على ما عندكم من الشرّ نهوضكم في هذا الأمر – أي الشكوى – في وقتٍ استعدَّ لكم من استعدوا – أي الفرس – وايم الله لا يمنعني ذلك من النظر فيما لديكم وإن نزلوا بكم – أي الفرس –، ثم بعث عمر محمد بن مسلمة - وكان هو المفتش العام على الولاة – مع أن الناس يستعدون لقتال الفرس..

وصل محمد بن مسلمة إلى الكوفة وأجرى التحقيق مع سعد، ولكنه تحقيق عجيب لم يكن سراً، حتى قال الطبري: - وليست المسألة في السرّ من شأنهم إذ ذاك – تحقيقٌ لا يتحمله إلا إنسان ذو قلب كبير، وصحابي جليل، ذلك أن محمد بن مسلمة كان يأخذ سعداً من مسجد إلى مسجد في الكوفة ويسألهم عنه وعن سيرته علناً، فيقولون: لا نعلم إلا خيراً، ولا نشتهي به بدلاً، ولا نقول فيه، ولا نُعينُ عليه، حتى وصل المكان الذي فيه الجَرَّاح بن سنان ورهطه... فكان هؤلاء يسكتون ولا يُثنون ولم يجرؤوا على الطعن في سعد رضي الله عنه، حتى وصل محمد بن مسلمة وسعد إلى مسجد بني عبس فسألهم فقام واحد منهم اسمه – أسامة بن قتادة – فقال عن سعد: إنه لا يَقسمُ بالسوية، ولا يعدل بالرعية، ولا يغزوا بالسرِّية، فقال سعد: اللهم إن قالها كذباً ورياء، وسمعةً، فأَعْمِ بصره، وأكثر عياله، وعرِّضه لِمُضِلَّات الفتن، فعميَ واجتمع له عشر بنات، وكان يقف في طرق النساء يمد يده إليهم.. فكان إذا عُثِرَ عليه قال: أصابتني دعوة سعد الرجل المبارك.

ثم دعا سعد على النفر الذين اتهموه، وقال: اللهم إن كانوا خرجوا أَشَراً وبَطَراً وكذباً

فاجهدْ بلاءهم.

قال الطبري: فجهد بلاؤهم، فالجرَّاحُ قُطِّعَ بالسيوف يوم حاول اغتيال الحسن بن علي بساباط، وقتل أَرْبَدُ بالوجء وبنعال السيوف، وشُدِخَ قبيصة بالحجارة.

ثم قال سعد: إني لأول رجل أهرق دماً من المشركين ولقد جمع لي رسول الله ﷺ أبويه وما جمعهما لأحد قبلي، ولقد رأيتني خمس الإسلام، وبنو أسد تزعم أني لا أُحسِنُ أصلّي، وأن الصيد يُلْهيني.

قال المؤرخون: وخرج محمد بن مسلمة به وبهم إلى عمر حتى قدموا عليه، فأخبره الخبر، ثم قال له عمر: ويحك ياسعد كيف تصلي؟ قال: أُطيلُ الأُولَيين، وأحذف الأخريين، فقال عمر: هكذا الظن بك! ثم قال: لولا الاحتياط لكان سبيلهم بيناً، – أي حقق عمر احتياطاً مع اعتقاده ببراءة سعد، وافتراء هؤلاء –.

نموذج آخر من الشكاوى على أبي موسى الأشعري:

يروي جرير بن عبدالله البجلي، قال: إن رجلاً كان مع أبي موسى الأشعري، وكان ذا نكاية في العدو، فغنموا مغنماً، فأعطاه أبو موسى بعض سهمه، فأبى أن يقبله إلا جميعاً، فجلده أبو موسى عشرين سوطاً وحلقه، فجمع الرجل شعره ثم ترجَّل إلى عمر حتى دخل عليه، قال الراوي جرير: كنتُ أقربَ الناس من عمر حين أُدخلَ عليه الرجل، فأخذ شعره ثم ضرب به صدر عمر بن الخطاب، ثم قال: أما والله لولا النار... فقال عمر: صدق والله لولا النار! فقال الرجل: يا أمير المؤمنين إني كنت ذا صوتٍ ونِكاية في العدو... ثم أخبره بأمره وقال: ضربني أبو موسى عشرين سوطاً وحلق رأسي.

فقال عمر: لأن يكون الناس كلهم على صرامة هذا أحبَّ إلي من جميع ما أفاء الله علينا. وكتب إلى أبي موسى الأشعري: سلامٌ عليك...أما بعد، فإن فلاناً أخبرني بكذا وكذا، فإن كنتَ فعلتَ ذاك في ملأ من الناس فغرمتُ عليك لما قعدتَ له في ملأ من الناس حتى يقتصَّ منك، وإن فعلت في خلاء من الناس فاقعدْ له في خلاء من الناس حتى يقتص منك.

فقَدِمَ الرجلُ، فقال له الناس: اعْفُ عنه، فقال: لا والله، لا أدعه لأحدٍ من الناس.

فلما قعد أبو موسى ليقتصَّ منه، رفع الرجل رأسه إلى السماء ثم قال: اللهم إني قد عفوتُ

عنه.

وروى أبو عمر الجوني – كما ذكر الطنطاويان عن ابن الجوزي -: أن عمر كتب إلى عامله أبي موسى يقول: إن كاتبك الذي كتبَ إليَّ لحَن فاضربه سوطاً.

وعن الحسن البصري قال: كتب عمر إلى أبي موسى – وهو بالبصرة، بلغني أنك تأذن للناس جمّاً غفيرا، فإذا جاءك كتابي هذا فَأْذن لأهل القرآن والشرف والتقوى والدين، فإذا أخذوا مجالسهم فائذن للعامة.

شكوى على عامله بمصر – عياض بن غنم -:

قال المؤرخون: كان عمر جالساً مع أصحابه، فمر به رجل فقال له: ويلك يا عمر من النار، فقال رجل من الحاضرين: يا أمير المؤمنين! ألا ضربته؟ فقال رجل أخر: ألا سألته؟ فقال عمر: عليَّ بالرجل، فقال: ولمَ؟ قال الرجل: تستعملُ العاملَ وتشترط عليه شروطاً، ولا تنظر في شروطه.

قال عمر: وما ذاك؟ قال الرجل: عاملك على مصر، اشترطتَ عليه شروطاً، فترك ما أمرته، وانتهك ما نهيت عنه.

فأرسل عمر إليه رجلين، فقال: سلا عنه فإن كان كَذَبَ عليه فأعلماني وإن كان صدق فلا تَملكاه من أمره شيئاً حتى تأتياني به.

فسألا عنه فوجداه قد صدق عليه، فاستأذنا ببابه. فقال: إنه ليس عليه إذن. فقال: ليخرجن إلينا أو لنحرقن بابه، وجاء أحدهما بشعلة من نار فلما رآى ذلك آذنه – أخبره – فخرج إليهما. فقالا: إنا رسولا عمر لتأتينه. قال: إن لي حاجةً بتزوُّد. قالا: ما أنت بالذي تأتي أهلك، فاحتملاه فأتيا به عمر، فسلم عليه.فقال عمر: مَنْ أنتَ ويلك؟ قال: أنا عاملك على مصر عياض بن غنم. – وكان رجلاً بدوياً فلما رأى ريف مصر ابيضَّ وسَمِنَ – فقال عمر: استعملتُكَ وشرطتُ عليك شروطا فتركتَ ما أمرتك به، وانتهكتَ ما نهيتك عنه، أما والله لأعاقبنك عقوبةً أبلغُ إليك فيها، ايتوني بدُرّاعةٍ من كساء وعصا وثلاثمائة شاة من شاء الصدقة، ثم قال له عمر: البس هذه الدراعة، وقد رأيت أباك وهذه خير من دراعته، وهذه خير من عصاه، اذهب بهذه الشاء فارْعَهَا في مكان كذا وكذا، – وذلك في يوم صائف – ولا تمنع السائل من ألبانها ولحومها

شيئاً.

قال المؤرخون: فلما أمعن ردَّه وقال: أفهمت ما قلت لك؟ - وردد عليه الكلام ثلاثاً — فلما كانت الثلثة ضرب بنفسه الأرض بين يدي عمر وقال: ما أستطيع ذلك فإن شئت فاضرب عنقي. قال عمر: فإن رَدَدتُكَ فأي رجل تكون؟ قال: لا ترى إلا ما تُحبُّ يا أمير المؤمنين! فردَّه فكان خير عامل.

ويروي زيد بن وهب: أن عمر خرج ذات يوم إلى سوق المدينة، فجاء رجل فجعل يقول: واعمراه. فسألناه عن خبره فقيل: إن عاملاً من عمالك يا أمير المؤمنين أمر رجلاً أن ينزل في وادٍ ينظر كم عمقه. فقال الرجل: إني أخاف، فعزم عليه الوالي أن ينزل فنزل. فلما خرج كُزَّ — أصابه الكزاز وهو يبوسة تحصل من البرد والرطوبة — فمات فنادى: ياعمراه. فبعث عمر إلى الوالي برسالة يقول:... أما والله لولا أخاف الله أن تكون سنة بعدي لضربتُ عنقك، ولكن لا تبرح حتى تؤدي دِيتَهُ، والله لا أولّيك أبداً.

وكان بعض عماله يكون شاعراً، وربما قال شعراً أو بيتاً لم يعجب عمر، فيستدعيه ويسأله وربما عزله، فقد ولى مرة رجلاً قرشياً على عمل له فبلغه أنه قال:

اسقني شربةً ألذُّ عليها　　　　واسق بالله مثلها ابنَ هاشم

فعزله، فوصل عمر البيت فاستدعاه وقال له: أنت القائل؟ وأنشده البيت قال: نعم، وأنا القائل بعده:

عسلاً بارداً بماء سحاب　　　　إنني لا أحب شُربَ المدام

فقال عمر: قاتلك الله كذا قلت، ورَدَّهُ إلى عمله.

ويروي المؤرخون: أن عمر استعمل النعمان بن عدي بن نضلة على بيسان، فبلغه عنه أنه قال شعراً منه:

فَمَن مُـبْلِـغُ الحَسْنَـاء أَنَّ خلِيلَـهَا　　　　بِميْسَانَ يُسْقَـــــــى فِي زُجَاجٍ وَحَنْتَمِ
إِذَا شِئْتُ غَنَّتْنِي دَهَاقِينُ قَـرْيَة　　　　وَصَنَّـــاجَةٌ تَحْدُو عَلَى كُلِّ مَنْسَمِ
فإِن كُنْتَ نَدْمَانِي فَبالأَكْبَرِ اسْقِنِـــي　　　　وَلا تَسْقِنِي بِالأَصْغَرِ المُتَثَلِّمِ

لَعَلَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ يَسُوءُهُ   تَنَادُمُنَا فِي الجَوْسَقِ المُتَهَدِّمِ

فكتب عمر إليه: بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿حمٓ ① تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ② غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ③﴾[1].

أما بعد: فقد بلغني قولك:

لَعَلَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ يَسُوءُهُ   تَنَادُمُنَا فِي الجَوْسَقِ المُتَهَدِّمِ

وايم الله إنه ليسوؤني، فاقْدِمْ فقد عزلتك، فلما قدم عليه قال: يا أمير المؤمنين، والله ماشربتها قط، وإنما هو شعر طفح به لساني وإني لشاعر. فقال عمر: أظن ذلك ولكن لا تعملْ لي على عمل أبداً.

قال العلماء والمحققون: إن النعمان كره الإمارة والولاية فقال هذه الأبيات وهدفه أن تصل إلى عمر فيعزله، وهذا ما حصل.

سياسة عمر مع غير المسلمين:

أولاً: مع اليهود:

هنا لا بد من مقدمة نكشف فيها أن اليهود في تاريخهم الجماعي تاريخ مشحونٌ بالأعمال المنحرفة، وهكذا كان طابعهم الجماعي في كل أدوار التاريخ ولهذا عاقبهم الله سبحانه وتعالى بالتشريد، قال تعالى: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ ١٦٨﴾[2] – بعد تسلط البابليين عليهم إلى هذه الأيام اجتمعوا في فلسطين وستزول دولتهم – وقطعناهم: أي كل قطعة لها تَماسكٌ ذاتي في نفسها، واليهود لا يذوبون في المكان والمجتمعات، لذلك تذهب إلى أوربا فتجد لهم في كل دولة تجمعاً خاصاً بهم لا يدخل فيه أحد، ولا يأخذون أخلاقاً من أحد، وحافظوا على طبائعهم وعاداتهم، وإذا تجنسوا بجنسية أمة كانوا يرقبون غفلاتها ليوقعوا بها مكراً، فإذا صحت الأمة وعرفت دسائسهم أوقعت بهم سوء العذاب وقد أشار القرآن الكريم إلى أن اليهود لن يهدأ لهم بال في نشر الفساد وإشاعته ولذلك يُسلِّطُ الله عليهم مَنْ يَسُومهم سوء العذاب، واسمع معي إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ

(١) غافر: ١-٣.

(٢) الأعراف: ١٦٨.

﴿ٱلۡعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٦٧﴾[1] ، ولا ينجون إلا بتوبة أو حماية دولة قوية قال تعالى: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ ١١٢﴾[2] – من الله: الإسلام، وحبل من الناس كأمريكا اليوم –.

وقوله تعالى: ﴿تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أي أعلم إعلاماً أكيداً بأنكم يا بني إسرائيل ستظلون على انحراف دائم، ولذلك سيسلط الله عليكم من يسومكم سوء العذاب، إما من جهة مؤمنة مثلما فعل الرسول ﷺ في طوائف اليهود من بني النضير، وبني قينقاع وخيبر، وإما يسلط عليهم حاكماً ظالماً غير مؤمن ولا متدين، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا ١٢٩﴾[3] أي وكذلك نُسلط الظالمين بعضهم على بعض على حد قول الشاعر:

وما من يدٍ إلا يدُ الله فوقها ... ولا ظـــالمٍ إلا سيبلى بأظلم

وهذا ما حدث لهم مع بختنصر وهتلر، وفي الأثر: – مَنْ أعان ظالماً سَلّطهُ الله عليه – .

وفي الزبور: – إني لأنتقم من المنافق بالمنافق ثم أنتقم من المنافقين جميعاً –.

ومن كلام الفضيل بن عياض: إذا رأيت ظالماً ينتقم من ظالم، فقف وانظر فيه متعجباً.

ولكن لو سألت عن سبب انحرافهم، وسلوكياتهم السيئة جاءك الجواب على لسان المؤرخين: أن سبب ذلك هو المشكلة النفسية عندهم.

ما هي هذه المشكلة النفسية؟

والجواب: أنهم يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار، وأنهم جِبِلَّةٌ خاصة تمتاز عن أمم الأرض، وأن الأمم الأخرى بهائم، والناس عندهم قسمان: يهودٌ، وجوييم، فالجوييم خُلقوا لخدمة اليهود، وأُعْطُوا صورة البشرية ليأنس بهم أسيادهم اليهود ويَسهُلَ تسخيرهم، ويستحل اليهودي السرقة والغش والظلم والربا في معاملة الجوييم.

وقد قص القرآن علينا هذه النفسية فقال سبحانه: ﴿۞ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ – كعبد الله بن سلام والذين آمنوا بمحمد – وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا

---

(١) الأعراف: ١٦٧.

(٢) آل عمران: ١١٢.

(٣) الأنعام: ١٢٩.

دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴿٧٥﴾ ﴾[1] ، ثم أكذبهم الله بهذه الدعوى فقال: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾[2].

من هنا كانت نفسية اليهود نفسية عدوانية، فمن بروتوكولاتهم -١٤- قولهم: حينما نمكن لأنفسنا فنكون سادة الأرض، لن نُبيحَ قيامَ أي دين غير ديننا، ولهذا يجب علينا أن نحطم كل العقائد الإيمانية الأخرى.

وفعلاً اليهود يستعملون كل سبيل لهدم القيم وتدمير الأديان والشعوب.

وإليكم هذه القصة الواقعية التي تمثل لنا نفسية اليهود على حقيقتها:

هذه القصة للكاتب الإيطالي – جيوفاني بابيني – وملخصها ما يلي: أن أحد أصحاب الملايين الأمريكيين ويدعى – جوك – نشر في إحدى الصحف الأمريكية الإعلان التالي: أطلب سكرتيراً عازباً فيلسوفاً يحسن عدة لغات يحب حياة التشرد والطواف.

قال الكاتب: فما كادت الصحف تنشر هذا الإعلان حتى تقدم ثلاثة وستون ٦٣ شخصاً من بينهم ستة وأربعون يهودياً، وأجرى المليونير المقابلة معهم ثم وقع اختياره على يهودي بدا أنه أوفرهم ذكاءً، وكان هذا اليهودي واسمه – روبي – قد توافرت فيه الشروط التي عينها المليونير وقد وصف بأنه أي – ابن روبي – كان قصير القامة، مُحْدَودِبَ الكتفين، غائر الوجنتين والعينين، تخالط شعره الأسود شعرات بيضاء كثيرة، أما لونه فكان ترابياً أخضر في لون وَحْلِ المستنقعات.

ولد هذا الشاب اليهودي في بولونيا، وتلقى علومه الأولية في مدينة – ريغا – ثم نال الدكتوراه في الفلسفة من جامعة – إيانا –، ثم نال شهادة اللغات الحية من جامعة – باريس – في فرنسا، ثم عمل أستاذاً في – برشلونه – ثم في – زيونخ –.

ومَثُلَ هذا الشاب أمام سيده المليونير الأمريكي في صورة أقرب إلى صورة الكلب المضروب؛ غير أنه كان واثقاً من نفسه أنه من طائفةٍ من الرجال الذين لا يستغني عنهم من كان في موقفِ ووضعِ المخدومِ الأمريكي.

سأله المليونير: ما هو السر في كون اليهود قوماً أذكياء وجبناء في وقت واحد؟

---

(١) آل عمران: ٧٥.

(٢) آل عمران: ٧٥.

فأجاب اليهودي: أما كونهم جبناء فهذا صحيح من الوجهة الجسدية، أما من الناحية الروحية فليسوا كذلك، لأنَّ اليهودي يرى أن قيمة الرجل في استغلال ذكائه، فاليهود في تاريخهم الطويل مُشتَّتون من غير دولة ولا حكومة – وكان هذا الكلام قبل قيام إسرائيل – فهم مبعثرون هنا وهناك على الأرض بين أناس يكرهونهم فهل تريدهم أن تنمو في أنفسهم بطولة العرب وغيرهم؟!!! ولكن اليهود ياسيدي استنبطوا وسيلتين خطيرتين هما – المال والذكاء – هل هناك غير الحديد والذهب؟ فإذا كان اليهودي عاجزاً عن استعمال الحديد، فإنه رآى اللجوء إلى الذهب، فكان الفرنك بندقيته، وكان الدولار رشاشه ومدفعه، ولا عجب أن يكون اليهودي رأسمالياً يسيطر على العالم بالمال، وتعاقبت السنون فلجأ اليهود إلى الانتقام بوسائل الغدر والخديعة، ولجأ اليهودي إلى الذكاء في انتقامه أكثر من لجوئه إلى المال.

لقد رأى اليهودي أن يدمر كل ماهو قائم من مبادئ وعلوم ومُثُل يقوم عليها الإسلام والنصرانية، وتلمس الذكاء اليهودي في تدمير معتقداتكم وأبنية أفكاركم التي شيدها – تولستوي، وفازلين، ونيتشه، وأبسن –،على يد اليهودي – ماكس فورد – وأوضح أن حضارتكم قائمة على الرياء والكذب، وجاء اليهودي – فرويد – وحطم سلامتكم من الشذوذ وأظهر أن أكثركم فضيلة يحوي في أعماقه رجلاً شاذاً.

ثم واصل اليهودي كلامه للمليونير قائلاً:

وأعتقد ثَمَّ أن السياسة والأخلاق والدين هي ظواهر سامية للفكر، ولا علاقة لها بالبورصة، فجاء اليهودي كارل ماركس مؤسس الإشتراكية وأثبت أن هذه الأشياء خيالية ولا تنمو إلا فوق علِم اقتصاد حقير.

أما في السياسة: فأُذكَّركَ سريعاً بأن اليهودي – دزرائيلي – يفوز سياسة على – غلادستون – وينتصر – لينين – على قيصر روسيا بجهود اليهودي – تروتسكي – والبريطاني – كليمنصو – لا يُحسن إلا إذا كان وراءه اليهودي – ماندل –.

ثم يقول:

وبالرغم من اختلاف جنسية هؤلاء تجدهم يسعون لغاية واحدة مشتركةٍ هي نقض الحقائق القائمة، وتحقير كل ما هو محترم، ويُنجِّسُوا كل ما هو طاهر، ويُسفِلوا كل ماهو مُنزَّه،

ونحن أسياد الأسواق المالية والصناعية والفكرية في العالم، نُديرها كيف نشتهي، فأنتم عبيدنا في ميدان المال، وضحايانا في ميدان الفكر، وإن الصعلوك – اليهودي – الذي اضطهدته الأمم – لأنه مُخرِّب – على توالي القرون، وتوالي الثورات، يستطيع اليوم أن ينشد نشيد ظفرٍ مزدوج.أ هـ كلام اليهودي.

قال صاحب كتاب «مكائد يهودية»: من هذه القصة، وهذا الحوار يتبيَّن لنا ما يفعله اليهود من مكائد للبشرية أخذناها من أقوالهم وأفعالهم، فهل نقول: إنَّ هؤلاء ذوو أنفس سوية، والمغُفَّلون منا ومن غيرنا يحملون أضاليلهم بغباء ويظنونها شيئاً لخير العالم، قوسُ شرٍّ لإراقة دماء العالم، وعلى الأمم وبخاصة أمتنا أن تكون على يقظة من مكايدهم، من هنا كان المسلمون الأولون على حذر ويقظة لأنَّ الإسلام بتعاليمه أوجب علينا ذلك.

قال تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ ﴾(١).

قال أهل التفسير: ولا يقال لك خُذْ حذرك إلا إذا كان هناك عدوٌّ يتربص بك فعليك أن تحتاط لمواجهة الخصوم ولا تغفل، ولا تنتظر لتفاجئك المكائد.

قال سبحانه: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴿١١٣﴾ ﴾(٢).

قال الشعراوي: وأدنى مراتب الركون ألا تمنعه من ظلم غيره، وأنت لو نظرت إلى العالم لوجدت أن آفات البشرية إنما تنشأ عن الظلم، وإن تزيّنَ للناس هذا الظالم.

قال المؤرخون: وهكذا كان تاريخ اليهود مع المسلمين، تاريخ غدر وخيانة وعدوان منهم، وصَفْحٍ وصدق وإنصاف من المسلمين.

ولكن لمّا توالى دسُّهُم وأذاهم بدأ النبي ﷺ بتأديبهم، فبدأ – ببني قينقاع –: وهم إحدى طوائف المدينة الثلاث اليهودية، وكانوا يساعدون المشركين ويتربصون بالنبي وأصحابه الدوائر، ولما انتصر في بدر قالوا للنبي ﷺ: يا محمد لا يَغرنَّكَ أنك أصبتَ من قريش، فهؤلاء لا علمَ لهم بالحرب، ولئن حاربتنا لتعلمنَّ والله أننا الناس – فأنزل الله رداً عليهم يخبرهم بهزيمتهم مقدماً –

---

(١) النساء: ٧١.

(٢) هود: ١١٣.

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٢ ﴾[1] فجمعهم النبي وحذرهم، ولكنهم اعتدوا على امرأة مسلمة فحاصرهم رسول الله ﷺ نصف شهر ثم أراد قتلهم بعد أن قَيَّدهم ولكن عبدالله بن أبي تدخل وأخرجوهم إلى أذرعاتٍ من الشام، وكان ذلك في السنة الثانية من الهجرة، ثم كان إجلاء بني النضير: وهم إحدى ثلاث طوائف يهودية تسكن حول المدينة، وعاهدهم رسول الله ﷺ ثم نقضوا العهد بمحاولة قتله ﷺ بإلقاء حجر الرحى عليه... وأعلمه الوحي بذلك.

ونزلت آية المائدة تُذكِّرُ بنعمة الله على الرسول والمؤمنين قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْۖ ۝١١ ﴾[2].

وكان ذلك في السنة الرابعة للهجرة، ثم قسم منهم سار إلى خيبر، وقسم إلى الشام.

والطائفة الثالثة هم بنو قريظة: وتم إخراجهم من المدينة على يد رسول الله ﷺ في السنة الخامسة للهجرة بعد أن نقضوا عهودهم مع رسول الله ﷺ مرات، قال تعالى: ﴿ أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمۚ ۝١٠٠ ﴾[3] وانضموا لمعسكر المشركين الذين حاصروا المدينة ثم حاصرهم رسول الله ﷺ واتفقوا معه على حكمٍ – سعد بن معاذ – بقتلهم وأخذ أموالهم وكانوا عندها في حصونهم ورفضوا حكم سعد بن معاذ، فصاح علي بن أبي طالب قائلاً: يا كتيبة الإيمان وتقدم معه الزبير بن العوام وقال: والله لأذوقن ما ذاق حمزة أو لأفتحنَّ حصنهم، فصاح اليهود رضينا بحكم معاذ... فاقتيدوا إلى المدينة... وضُربت أعناقهم هناك وكانوا قرابة سبع مائة رجل.

ثم انتقل وكر الدسائس إلى يهود خيبر: تجمعت عصابات الشر في خيبر، وفي المحرم سنة سبع للهجرة غزاها رسول الله ﷺ ثم صالحوه على أن يترك الأرض في أيديهم ويأخذ نصف الناتج ولم يكن عند رسول الله مَنْ أصحابه من يقوم على هذه الأراضي أبقاها ﷺ في أيديهم، وشرط على المدة التي يريدها رسول الله ﷺ.

---

(١) آل عمران: ١٢.

(٢) المائدة: ١١.

(٣) البقرة: ١٠٠.

فكان عبدالله بن رواحة يخرصها عليهم، وحاولوا رشوته.

عدوانهم على عبدالله بن عمر:

قال المؤرخون: بعد وفاة النبي ﷺ تركها أبوبكر بأيديهم على معاملة رسول الله ﷺ حتى وفاته، وبقي الأمر كذلك إلى صدرٍ من خلافة عمر، وجاء عبدالله بن عمر في حاجة فَبَيَّتُوه – أي أوقعوا به ليلاً –، قال عبدالله: خرجت أنا والزبير والمقداد إلى أموالنا بخيبر، فلما وصلنا تفرقنا في أموالنا، فعُديَ عليَّ تحت الليل وأنا نائم على فراشي ففُدعت يداي – لُويتا من المرفق – فلما أصبحتُ أتاني صاحباي وأصلحا من حالتي.. ثم قدما بي على عمر فقال: هذا عمل يهود، ثم قام في الناس خطيباً فقال: أيها الناس عاملنا يهود خيبر على أن نُخرجهم متى شئنا.. فمن كان له مال بخيبر فليلحق به فإني مُخرِجٌ يهود فأخرجهم.

وكان عمر قد بلغه قول النبي ﷺ حين مرضه: لا يجتمعنَّ بجزيرة العرب دينان.

فتأكد عمر من الحديث حتى بلّغه الثبتُ فأرسل إليهم – لليهود – وتلا عليهم حديث الرسول ﷺ، ثم أمرهم بالتجهز للجلاء، ثم أجلاهم عن الجزيرة وتفرقوا في البلدان.

أما النصارى: كان النصارى في نجران في الجنوب، وعاهدوا رسول الله، ثم نقضوا العهود في عهد عمر، ثم طلبوا الجلاء من أنفسهم، فأعطاهم عمر تعويضاً مضاعفاً عن أملاكهم وأسكنهم العراق، وأسقط جزيةَ سنتين عنهم، وكان سبب طلبهم الجلاء تَحاسُدٌ حصل بين زعمائهم، ثم عادوا إلى عمر فقالوا: أَقِلْنَا فرفض حرصاً على المسلمين، ولما تولى علي بن أبي طالب الخلافة أتوه وناشدوه الإقالة فقال: إن عمر رشيدُ الأمر وإني أكره خلافه.

قال عمر بن عبدالعزيز: لما كانت خلافة عمر أجلى أهل نجران إلى ناحية الكوفة وسميت بعدها بالنجرانية، وكتب عمر لهم كتاب الجلاء وأوصى كل أمراء الشام والعراق بهم إذا مروا عليهم، وأشهد على الكتاب – عثمان بن عفان ومعيقيب –.

ولما زار عمر الشام ومرّ بباب الجابية مرّ بنصارى مجذومين فأمر بإجراء الطعام عليهم.

تصرفات عمر مع الرعية وحرصه على المسلمين ومصالحهم:

أولاً: بِرَّهُ بأهل بيت النبي ﷺ:

يروي الطنطاويان في أخبار عمر نقلاً عن صاحب «الرياض النضرة»: أن أزواج النبي

ﷺ استأذن عمر في الحج، فأبى أن يأذن لهن حتى أكثرن عليه فقال: سآذن لكم بعد هذا العام وليس هذا من رأيي، وجاء العام فخرجهنَّ، فأرسل معهن عثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف، وأمرهما أن يسير أحدهما بين أيديهن – أمامهن – والآخر خلفهن ولا يُسايرهنَّ أحد، فإذا نزلن فأنزلوهن شِعباً ثم كونا على باب الشِّعْبِ لا يدخلنَّ عليهن أحدٌ، ثم أمرهما إذا طِفْنَ في البيت لا يطوف معهن أحد إلا النساء، فلما مات عمر غُلبنَ من بعده.

وقالت عائشة: كان عمر بن الخطاب يرسل لنا بخُصَصنا حتى من الرؤوس والأكارع.

ويروي المؤرخون: أن عمركسا يوماً أصحاب النبي ﷺ، ولم يكن في الكسوة ما يصلح للحسن والحسين، فبعث إلى اليمن فأتى لهما بكسوة فقال:الآن طابت نفسي.

وأرسل مرةً في طلب الحسين بن علي في حاجة يريدها، وجاء الحسين فلقي في طريقه عبدالله بن عمر، قال الحسين: فقلت له من أين جئت؟ فقال: استأذنت على عمر فلم يأذن لي، فرجع حسين، ثم لقيه عمر فقال: ما منعك يا حسين من أن تأتي؟ قال حسين: قد أتيتك ولكن أخبرني عبدالله بن عمر أنه لم يؤذن له عليك فرجعت، فقال عمر: وأنتَ عندي مِثْلَهُ؟ وأنت عندي مثله؟ أي أن الحسين أعزُّ عليه وأكرم من ولده عبدالله.

ومن جميل مايروى في تقديره للنبي ﷺ وأهل بيته أنه كان للعباس ميزابٌ ممتدٌ في مسجد رسول الله ﷺ يسيل منه ماء المطر في مسجد رسول الله ﷺ فقلعهُ عمر بيده – وكان الميزاب على طريق عمر، وفي يوم الجمعة لبس عمر ثيابه وكان قد ذُبحَ للعباس فرخان، فلما أوفى عمر الميزاب نزل منه ماء بدم الفرخين فأصاب عمر، فغيَّرَ عمر ثيابه وقلعه. فقال له العباس: والذي بعث محمداً بالحق، إنه هو الذي وضع هذا الميزاب في هذا المكان فنزعته أنت يا عمر. فقال عمر: فأنا أعزم عليك لما صعدتَ عليَّ حتى تضعه في هذا الموضع – وفي رواية ذكر صاحب كتاب أخبار عمر، أنه عمر قال: ضع رجلك على عنقي لترده إلى مكانه. ففعل ذلك العباس – نقله المؤلفان من مخطوط –.

قال المؤرخون: أما شفقته على الرعية، فقد أتعب بهذه الشفقة من بعده، والمطلع على سيرته يستطيع أن يجمع من برّه بالناس وشفقته على الرعية ما يملأ مجلداً.

وسنبدأ بقصة ذكرها أهل العلم تشير إلى ان عمر كان يرى أنَّ برَّ الوالدين أولى من الجهاد.

كان – أمية بن الأسكر الكناني – من سادات قومه، وكان له ابن اسمه – كلاب – هاجر إلى المدينه في خلافة عمر بن الخطاب، فأقام بها مدة، والتقى يوماً بالصحابيين الجليلين، طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، فسألهما: أيُّ الأعمال أفضل في الإسلام؟ فقالا: الجهاد.

أتى كلابٌ إلى عمر وسأله أن يخرج في الجند غازي، فقال عمر: التحق بجبهة العراق لقتال الفرس. فقام أمية الكناني والد كلاب وقال لعمر: يا أمير المؤمنين هذا اليوم من أيامي لولا كِبرُ سني، فقام إليه ابنه كلاب وكان عابداً زاهداً فقال: لكني يا أمير المؤمنين أبيع الله نفسي، وأبيع دنياي بآخرتي. فتعلّق الوالد بالولد وكان في ظل نخلة وقال للولد: لا تدع أباك وأمك شيخين ضعيفين ربياك صغيراً حتى إذا احتاجا إليك تركتهما.

فقال الولد كلاب: نعم أتركهما لما هو خير لي، ثم أرضاهما وخرج غازياً فأبطأ، وبينما كان أبوه في ظل نخل له، إذا حمامة تدعو فرخها، فرآها الشيخ فبكى، ورأته زوجته العجوز فبكت، فأنشأ يقول:

لِمَنْ شيخان قد نشدا كِلابا	كتاب الله لو قبل الكتابا
أُناديه فيُعرِضُ في إباءٍ	فلا وأبي كلابٍ ما أصابا
إذا هتفت حمامة بطن وَجّ	على بيضاتها ذكرا كِلابا
تركتَ أباك مُرَعشةً يداهُ	وأمك لا تُسيغ لها شرابا
تُنفِّضُ مهده شفقاً عليه	وتُجْنِبُه أباعِرَها الصِّعابا
فإنك قد تركت أباك شيخاً	يطارق أينُقاً شُرُباً طِرابا(١)
طويلاً شوقهُ يُبكيك فرداً	على حزن ولا يرجو الإيابا
فإنك والتماس الأجر بعدي	كباغي الماء يَتّبعُ السرابا

قال الراوي: ثم إن والد كلاب - أمية أَضَرَّ – أي عَمِيَ – فأخذه قائده ودخل به على عمر وهو بالمسجد، فوقف الأب وأنشد عمر قصيدة يقول فيها:

أعاذلُ قد عذلتِ بغير علم	وما تدرين عاذل ما أُلاقي

---

(١) شرباً طِراباً: ضامرة وشديدة الحركة.

فإمـــــا كنـــــت عاذلـــــةً فـــــردّي | كلابـــــا إذ توجَّـــــــه للعـــــراق
ولم أقـــضِ اللُّبانـــــة مـــــن كـــلابٍ | غـــــداةَ غـــــدٍ وآذن بـــــالفراق
فتـــى الفتيـــان في عُـــسرٍ ويـــسر | شـــديدُ الـــركن في يـــوم التلاقـــي
فلـــو فَلَـــقَ الفـــؤاد شـــديد وَجْـــدٍ | لهـــمَّ ســـواد قلبـــي بـــانفلاق
سأســـتعدي عـــلى الفـــاروق ربـــاً | لـــه دفـــعَ الحجـــيجُ إلى بَـــساقِ[1]
وأدعـــــو الله مجتهـــــداً عليـــــه | بـــــبطن الأَخـــشبين إلى دقـــاق
إن الفـــــاروق لم يَـــــرْدُدْ كلابـــــا | عـــــلى شـــــيخين هـــــامَهُما زواق

قال الرواة: فكتب عمر بردِّ كِلاب إلى المدينة، فلما قدم ودخل عليه، قال له عمر: ما بلغَ من برِّكَ بأبيك؟ قال: كنت أوثره وأكفيه أمره، وكنت إذا أردت أن أحلب له لبناً أجيء إلى أغزر ناقة في إبله فأُريحها وأتركها حتى تستقر، ثم أغسل أخلافها حتى تبرد، ثم أحلب له فأسقيه. فبعث عمر إلى أمية فجاءه وهو يتهادى وقد ضعف بصره وانحنى، فقال له: كيف أنت يا أبا كلاب؟ قال: كما ترى يا أمير المؤمنين، فقال عمر: يا أبا كلاب، ما أَحبُّ الأشياء إليك اليوم؟ قال: ما أَحبُّ اليوم شيئاً، ما أفرح بخير ولا يسوؤني شرٌّ. فقال عمر: بل علي ذلك – أي أخبرني -. قال: بلى، كلابٌ أُحبُّ إنه عندي فأشمُّه شمةً وأضمه ضمةً قبل أن أموت. فبكى عمر. ثم قال لأمية: ستبلغُ ما تحبُّ إن شاء الله تعالى.

ثم أمر كلاباً أن يحلب لأبيه ناقة كما كان يفعل ويبعث بلبنها إليه ففعل وناوله عمر الإناء وقال: اشرب يا أبا كلاب. فأخذه أمية، فلما أدناه من فيه قال: والله ياأمير المؤمنين إني لأشمُّ رائحة يدي كلاب، فبكى عمر وقال له: هذا كلاب عندك وقد جئناك به. فوثب إليه ابنه وضمه، وجعل عمر والحاضرون يبكون وقالوا لكلاب: الزمْ أبويك فجاهد فيهما ما بقيا، ثم شأنك بنفسك بعدهما، وأمر له بعطاء وصرفه مع أبيه.

قال المؤرخون: وكان كلاب من خيار المسلمين وتناقلت الركبان شعر أبيه وتغنَّت به، فوصلَ كلابٌ ذلك التغني بأشعار أبيه فقال:

---

(١) جبل عرفات.

لعمركَ ما تركت أبا كلابٍ كبيرَ السن مكتئباً مُصابا
وأُمّاً ما يزال لها حَنينٌ تنادي بعد رَقْدتها كلابا
لكسبِ المال أو طلبِ المعالي ولكني رجوتُ به الثوابا

ويروي أسلمُ غلامُ عمرَ قال: خرجت مع عمر إلى السوق، فلحقته امرأة وقالت: يا أمير المؤمنين! هلك زوجي، وترك صِبية صغاراً والله ما ينضجون كراعاً، ولا لهم ضرع ولا زرع، وخشيت عليهم الضيعة، وأنا ابنة خفاف بن أيماء الغفاري، وقد شهد أبي الحديبية مع رسول الله ﷺ. فوقف عمر معها ولم يمض، وقال: مرحباً بنسب قريب.. ثم انصرف إلى بعير ظهير – معين قوي – كان مربوطاً في الدار، فحمل عليه غرارتين ملأهما طعاما، وجعل بينهما نفقة وثياباً، ثم ناولها خطامه، وقال: اقتاديه فلن يفنى هذا حتى يأتيكم الله بخير. فقال الرجل: يا أمير المؤمنين أكثرتَ لها. قال: ثكلتك أمك، والله إني لأرى أبا هذه وأخاها، وقد حاصرا حصناً زماناً فافتتحاه، ثم أصبحنا نستفيء سهامهما.

وكان رضي الله عنه يكرم أسر الشهداء: فقد روى الأحنف بن قيس قال:

بعثنا عمر في سرية إلى العراق وبلاد فارس، فأصبنا من بياض فارس، فحملنا معنا واكتسينا، فلما قدمنا على عمر أعرض عنا بوجهه وجعل لا يكلمنا، فاشتدَّ ذلك علينا، فشكونا ذلك إلى ولده عبدالله فقال: قد رأى عليكم لباساً لم يلبسه رسول الله ﷺ ولا الخليفة من بعده، فأتينا منازلنا فنزعنا ما كان علينا وأتيناه في الهيئة التي يعهدها منا، فقام فسلَّم علينا على رجلٍ رجل، واعتنق رجلاً رجلاً كأنه لم يرَنا، فقدمنا إليه الغنائم فقسمها بيننا بالسوية، فعرض في الغنائم شيء من أنواع الخبيص – سمن وتمر – فذاقه فوجده طيب الطعم والريح، فقال: يا معشر المهاجرين والأنصار! ليقتلنَّ منكم الابنُ أباه والأخ أخاه على هذا الطعام، ثم أمر به أن يُحملَ إلى أولاد الشهداء من المسلمين، ولم يأخذ لنفسه شيئاً.

ويروي سلمة بن قيس الأشجعي قال: أتيت رسولاً إلى عمر بالفتح، فرأيته متكئاً على عصاه كما يصنع الراعي، وهو يدور على القِصاع ويقول: يا يرفأ زِدْ هؤلاء لحماً، زد هؤلاء خبزاً، زد هؤلاء مرقة.

ومن شفقته على الرعية ما ذكره الطبري في تاريخه عن الحسن قال:

قال عمر: لئن عشت إن شاء الله لأسيرن في الرعية حولاً، فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني؛ أما عمالهم فلا يرفعونها إلي؛ وأما هم فلا يصلون إلي، فأسير إلى الشام؛ فأقيمُ بها شهرين، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين، والله لَنِعمُ الحولُ هذا.

وحدث أبوبكر العبسي قال: دخلت حَيْرَ الصدقة – حظيرة – مع عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب، وكان عثمان قد جلس في الظل يكتب، وقام علي على رأس عثمان يُملي عليه ما يقول عمر، وعمر في الشمس قائم في يوم شديد الحر، عليه بردان أسودان؛ متزراً بواحدٍ، ولقد لفَّ على رأسه آخر، يعدُّ إبل الصدقة، ويكتب ألوانها وأسنانها، فقال علي لعثمان: إن نعْتَ بنت شعيب في كتاب الله ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦﴾[1].

ثم أشار علي بيده إلى عمر وقال: هذا القوي الأمين.

وكان بابه مفتوحاً لكل الناس لا يحتجبُ عن أحد:

فقد حدَّث أبو المخارق زهير بن سالم أن كعب الأحبار قال: نزلت على رجل يقال له – مالك – وكان جاراً لعمر بن الخطاب – فقلت له: كيف الدخول على أمير المؤمنين؟ فقال: ليس عليه باب ولا حجاب، يصلي الصلاة ثم يقعد فيكلمه من شاء.

وحدَّث أسلم مولى عمر قال: بعثني عمر بإبل من إبل الصدقة إلى الحمى – المرعى – فوضعت جَهازي على ناقة منها؛ فلما أردت أن أُصدرها قال: اعرضها عليَّ. فعرضتها عليه، فرأى متاعي على ناقة حسناء، فقال: لا أُمَّ لك! عمدت إلى ناقة تُغني أهلَ بيت من المسلمين! فهلا ابنَ لبون – سنتين – بوالاً، أو ناقة شصوصا – قليلة اللبن –.

ويروي الطبري: أنه قيل لعمر: إن ههنا رجلاً من أهل الأنبار له بصرٌ بالديوان؛ لو اتخذته كاتباً؟ فقال عمر: لقد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمنين.

وحدث شاب جهني قال: بعثني أبي بجداءٍ أبيعهن في المدينة، فلما اقتربت من المدينة مال حِمْلُ حماري فَمرَّ رجل يقصد المدينة، فقلت: ياعبد الله أَعِني على تعديله فقال: نعم يا بني.فقام

(١) القصص: ٢٦.

معي حتى عدَّله، ثم قال لي: من أنت؟ قال فلان ابن فلان الجهني، قال: إذا أتيت أباك فقل له: إياك وذبح الجداية فإن دسم العنود – ما عمره سنة – من أولاد المعزى خير من إنفحة الجَدْي – كرش – قلت: من أنت رحمك الله؟ قال: أنا عمر بن الخطاب.

مكانة عمر العلمية:

فقد حرص عمر منذ إسلامه على ملازمة النبي ﷺ، وهو ﷺ معلم البشرية، وهاديها، وكان لا يفوته علم من قرآن أو حديث أو توحيد، أو حادثة، واسمع معي إلى قول عمر يشير إلى هذا الحرص على ملازمته ﷺ.

قال عمر: كنت وجار لي من الأنصار، في عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ ينزل الأنصاري يوماً وأنزل يوماً، فإذا نزلت جئت بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك.

يقول صاحب كتاب «سيرة أمير المؤمنين» وهذا الخبر يوقعنا على الينبوع المتدفق الذي استمد منه عمر علمه وتربيته وثقافته، وهو كتاب الله الحكيم، فحدث له تَحولٌ غريب، واهتداء مفاجئ أخرجه من دائرة الظلام إلى دائرة النور، كما حرص على التبحُّر في الهدي النبوي، وكان إذا جلس في مجلس النبوة لم يترك المجلس حتى ينفضَّ، كما كان حريصاً على أن يسأل الرسول ﷺ عن كل ما تجيش به نفسه، أو يشغل خاطره، ولقد شهد له النبي ﷺ بالعلم كما في صحيح البخاري رقم / ٣٦٨١/ . أن النبي ﷺ قال: بينما أنا نائم أُتيتُ بقدح لبن، فشربت منه حتى إني لأرى الريّ يخرج من أظافري، - أو يجري في ظفري – ثم ناولتُ عمرَ قالوا: فما أَوَّلتهُ؟ قال ﷺ: العلم.

قال ابن حجر: والمراد بالعلم هنا سياسة الناس بالكتاب والسنة.

وعن أبي سعيد الخدري قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: بينما أنا نائم رأيت الناس عُرضوا عليَّ وعليهم قُمُصٌ، فمنها ما يبلغ الثديَّ، ومنه ما يبلغ دون ذلك، وعرَض علي عمر وعليه قميص إجتَرَّهُ . قالوا فما أولته يا رسول الله؟ قال: العلم.

نصيب عمر من الفراسة والكرامات:

ويكفينا ما قال فيه رسول الله ﷺ فيما يرويه أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: لقد كان

فيما قبلكم من الأمم ناس محدَّثون، فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر.

المحدَّث: هو الرجل الصادق الظن وهو من أُلْقي في روعه شيء من الملأ الأعلى، فيكون كمن يحدثه غيره به.

وفي رواية أخرى: لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يُكلَّمون.. من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر.

وقد ورد في حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً ولفظه: قيل يا رسول الله وكيف يحدَّثُ؟ قال: تتكلم الملائكة على لسانه. وفسره بعض العلماء (بالتفرُّس)

والمحدَّثُ: هو المُلهَمُ بالصواب الذي يُلقى على فيه. ويؤيده قوله ﷺ: إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه.

وأول كراماته التي ذكرها المؤرخون: نداؤه لسارية بن حصن:

كان عمر يخطب يوم الجمعة بالمدينة. فقال في خطبته: يا سارية بن حصن الجبل الجبل. من استرعى الذئب ظلم. فالتفت الناس بعضهم إلى بعض فلم يفهموا مراده، فلما قضى صلاته قال له علي بن أبي طالب: ماهذا الذي قلتَهُ؟ قال عمر: وسمعتَهُ؟ قال علي: نعم وكلُّ من في المسجد.

قال: وقع في خلدي أن المشركين هزموا إخواننا وركبوا أكتافهم وأنهم يَمرُّون بجبل، فإن عدلوا إليه قاتلوا مَنْ وجدوه فظفروا، وإن جاوزوه هلكوا، فخرج هذا الكلام مني.

فجاء البشير بعد شهر، فذكروا أنهم سمعوا في ذلك اليوم وتلك الساعة حين جاوزوا الجبل صوتاً يشبه صوت عمر يقول: يا سارية بن حصن الجبل الجبل، فعدلنا إليه ففتح الله علينا.

ومن كراماته وفراسته ما رُويَ أنه رأى أعرابياً نازلاً من جبل فقال: هذا رجل مصاب بولده. قد نظم شعراً لو شاء لأسمعكم. ثم قال: يا أعرابي من أين أقبلت؟ فقال: من أعلى هذا الجبل. فقال عمر: وما صنعت فيه؟ قال: أودعته وديعة لي، قال عمر: وما وديعتك؟ قال: بُنيٌّ لي هلك فدفنته فيه. فقال عمر: فأسمعنا مَرْثيتك فيه. فقال الأعرابي: وما يُدريك يا أميرَ المؤمنين فوالله ما تفوهت بذلك وإنما حدثت به نفسي، ثم أنشد:

يا غائباً ما يَؤوبُ من سفره ... عاجله موتُه على صِغره

يــــا قُـــرةَ العـــين كنـــت لي أنـــساً في طـــول لـــيلي نعـــم وفي قِـــصَره

مـــا تقـــع العـــين حيـــثما وقعـــت في الحـــي منـــه إلا عـــلى أثـــره

شربـــتَ كأســـاً أبـــوك شـــاربها لا بـــد منـــه لـــه عـــلى كِـــبره

يَـــشربها والأنـــام كلهـــم مـــن كـــان في بَـــدْوهِ وفي حَـــضره

فالحمـــد لله لا شريـــك لـــه في حكمـــه كـــان ذا وفي قَـــدَرِه

قَـــدَّرَ موتـــاً عـــلى العبـــاد فـــما يَقْـــدِرُ خَلْـــقٌ يَزيـــدُ في عُمـــره

قال: فبكى عمر حتى بَلَّ لحيته ثم قال: صدقتَ يا أعرابي.

وفي البخاري من حديث عبدالله بن عمر قال: ما سمعت عمر يقول لشيء قط إني لأظنه كذا، إلا كان كما يظنُّ. بينما عمر جلس إذ مرَّ به رجل جميل فقال عمر: لقد أخطأ ظني، أو هذا على دينه في الجاهلية، أو لقد كان كاهنهم عليَّ بالرجل. فَدُعيَ له فقال له ذلك. فقال الرجل: وما رأيت كاليوم استُقبلَ به رجلٌ مسلم. قال عمر: فإني أعزم عليك إلا ما أخبرتني. فقال الرجل: كنت كاهنهم. قال عمر: فما أعجب ما جاءتك به جنيتك. قال: بينما أنا يوماً في السوق جاءتني، أعرف فيها الفزع فقالت:

ألم تر الجن وإبلاسها، ويأسها من بعد إنكاسها، ورحلها العيسَ بإحلاسها.

فقال عمر: صدق. بينما أنا عند آلهتهم إذ جاء رجل بعجل فذبحه، فصرخ به صارخ، لم أسمع صارخاً قطُّ أشدّ صوتاً منه يقول: يا جليح، أمرٌ نَجيح، رجل فصيح، يقول لا إله إلا أنت، فوثب القوم، قلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا، ثم نادى يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح، يقول لا إله إلا الله، فما نشبنا أن قيل هذا نبيٌّ.

وعن يحيى بن سعيد أن عمر بن الخطاب قال لرجل: ما اسمك؟ قال: جمرة. قال ابنُ مَنْ؟ قال: ابن شهاب. قال عمر: مِمَّنْ؟ قال: من الحرقة، قال ثم ممن؟ قال: من بني ضِرام، قال: أين مسكنك؟ قال: الحرة، قال: بأَيِّها؟ قال بذات لظى، قال عمر: أدركْ أهلكَ فقد احترقوا. فكان الأمر كما قال عمر.

ويروي الطنطاويان في «أخبار عمر»: أن عمر كان يحمل في العام الواحد على أربعين ألف

بعير، يحمل الرجل إلى الشام على بعير، ويحمل الرجلين إلى العراق على بعير، فجاءه رجل من أهل العراق وقال: احملني وسُحَيماً. فقال عمر: أنشدك الله، أسحيم زقٌّ؟ قال الرجل: نعم، وقد أراد الرجل أن يوهم عمر أن معه رفيقاً ليأخذ الجمل وحده، فتنبه عمر بهذه الفراسة التي عنده.

ويعلق الطنطاوي عند هذه القصة فيقول: تنبه عمر بهذه الفراسة النادرة التي أوتيها والتي لا يبلغ العلمُ القدرةَ على تعليل أمثالها.

ومن فراسته العجيبة: أن الأسود بن قيس الذي ادَّعى النبوة في اليمن قبض على – أبي مسلم الخولاني – وطلب منه أن يشهد له بالنبوة فأبى، فقال الأسود: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، فأمر الأسود بنار عظيمة فأُجِّجَتْ وأُلقي فيها أبو مسلم فلم تضره، فأمر الأسود بنفيه من اليمن، فذهب إلى المدينة، ولما وصل إلى مسجد النبي ﷺ ودخل من الباب قال عمر: هذا صاحبكم الذي زعم الأسودُ الكذاب أن يُحرّقَه فنجاه الله منها.

وحدّث الحكم بن أبي العاص الثقفي: كنت قاعداً مع عمر بن الخطاب، فأتاه رجل فسلَّم عليه، فقال له عمر: بينك وبين أهل نجران قرابة؟ قال الرجل: لا. قال عمر: بلى. قال الرجل: لا. قال عمر: بلى والله. أنشد الله كلَّ رجل من المسلمين يعلم أن بين هذا وبين أهل نجران قرابة لَـمَـا تكلم، فقال رجل من القوم: يا أمير المؤمنين: بلى بينه وبين أهل نجران قرابة من قبل كذا وكذا. فقال له عمر: مَهْ فإنَّا نقفو الأثار.

ومن الأخبار العجيبة عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَشْفُه لجريمة غامضة ذكرها أهل العلم وملخصها أن عمر أُتيَ يوما بفتى أمرد وقد وجد مقتولاً مُلقى على وجه الطريق، فسأل عمر عن أمره واجتهد فلم يحصل على نتيجة أو خبر، ولم يُعرفْ له قاتل فشقَّ ذلك عليه فقال: اللهم أظفرني بقاتله، حتى إذا كان رأس الحول أو قريباً من ذلك وجد صبي مولود مُلقى بموضع القتيل، فأتي به إلى عمر فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ظفرتُ بدم القتيل إن شاء الله تعالى وكرر ظفرت.. ثم دفع الصبي إلى امرأة وقال لها: قومي بشأنه، وخذي منا نفقته، وانظري من يأخذه منك، فإذا وجدت امرأة تقبله وتضمه إلى صدرها فأعلميني بمكانها، فلما شب الصبي جاءت جارية فقالت للمرأة: إن سيدتي بعثتني إليك لتبعثي الصبي لتراه وتَردَّهُ إليكَ.. قالت المرأة: نعم، اذهبي به إليها وأنا معك، فذهبت بالصبي والمرأة معها، حتى دخلت على سيدتها، فلما رأت الولد أخذته فقبلته وضمته إليها، فإذا هي ابنة شيخ من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ، فأتت المرأة عمر فأخبرته، فقام واشتمل على سيفه ثم أقبل إلى منزل المرأة، فوجد أباها

متكئاً على باب داره فقال له: يا أبا فلان مافعلت ابنتك فلانة؟ قال الرجل: جزاها الله خيراً يا أمير المؤمنين، هي من أعرف الناس بحق الله وحق أبيها، مع حُسْنِ صلاتها وصيامها، والقيام بدينها، فقال عمر: قد أحببتُ أن أدخل عليها فأزيدها رغبة في الخير وأحثها عليه. فقال أبوها: جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين: امكثْ مكانك حتى أرجع إليك. فاستأذن لعمر.. فدخل أبوها ودخل عمر معه، ثم أمر بأن يخرج من عندها، وبقي عمر معها.. فكشف عمر عن السيف وقال للبنت: اصدقيني وإلا ضربتُ عنقك، قال الراوي: وكان عمر لايكذب. فقالت: على رِسْلكَ يا أمير المؤمنين، فوالله لأصدقنَّ: إن عجوزاً كانت تدخل عليَّ فاتخذتها أماً، وكانت تقوم من أمري بما تقوم به الوالدة، وكنت لها بمنزلة البنت فأمضيت بذلك حيناً، ثم إنها قالت لي: يا بنية؟ إنه عرض لي سفرٌ ولي ابنة في موضع أتخوف عليها أن تضيع، وقد أحببت أن أضمها إليك حتى أرجع من سفري، فعمدت يا أمير المؤمنين إلى ابنٍ لها شاب أمرد، فهيأته كهيئة الجارية وأتت به لا شك أنه جارية، فكان يرى مني ماترى الجارية من الجارية، حتى اغتفلني يوماً وأنا نائمة فما شعرت حتى علاني وخالطني، فمددتُ يدي إلى شفرة كانت إلى جنبي فقتلته ثم أمرت به فأُلقيَ حيث رأيت، فاشتملت منه على هذا الصبي فلما وضعته ألقيته في موضع أبيه، فهذا والله خبرهما على ما أعلمتك. فقال عمر: صدقت، بارك الله فيك، ثم أرضاها، ووعظها ودعا لها وخرج وقال لأبيها: نعم الابنة ابنتك ثم انصرف.

ويروي أبو رَمْثَةَ قال: صليت مع النبي ﷺ، وصلى معنا رجل قد شهد التكبيرة الأولى من الصلاة، فصلى رسول الله ﷺ ثم سلم، فقال الرجل الذي أدرك التكبيرة الأولى مع رسول الله ﷺ يشفع، فوثب عمر إليه فأخذه بمنكبه فهزَّهُ ثم قال: اجلس فإنه لم يهلك أهل الكتاب إلا أنه لم يكن بين صلاتهم فصل. فرفع النبي ﷺ بصره وقال: أصاب الله بك يا ابن الخطاب. وتلمس في هذا الحديث إصابته للحق، وكرامته على رسول الله ﷺ، ولا شك أن هذا ثمرةٌ للحب السامي لرسول الله ﷺ.

ورد أن عمر استأذن يوماً إلى عمرة فقال له ﷺ: لا تَنْسنَا يا أُخَيَّ من دعائك. فقال عمر: ما أحب أن لي بها ما طلعت عليه الشمس لقوله ﷺ: يا أخي.

شخصيته رضي الله عنه:

قال العلماء في هيبته:

فكلُّ من كتب عن عمر وسيرته متفق على ذكر هذه الهيبة، فقد ذكر صاحب كتاب

«أخبار عمر»: عن عائشة أم المؤمنين قالت: أتيت رسول الله ﷺ بحريرة – وهي طحين يُطبخ بسمن أو دسم – طبختها له ﷺ، وكان النبي ﷺ جالساً بيني وبين سودة بنت زمعة، تزوجها النبي ﷺ بعد موت خديجة وكانت متزوجة من السكران بن عمرو هاجر إلى الحبشة فتنصر ومات كافراً فزوجها والدها زمعةُ بن قيس بن عبد شمس، فدخل بها النبي ﷺ بمكة وأصدقها أربعمائة درهم، وتوفيت في خلافة عمر. قالت عائشة: فقلت لزمعة: كلي. فأبت. فقلت لها: لتأكلنَّ أو لألطخن وجهك. فأبت، فوضعت يدي في الحريرة ولطخت بها وجهها، فضحك النبي ﷺ ووضع بيده لها وقال لسودة: لطخي وجهها، فلطمت وجهي، فضحك النبي ﷺ أيضاً، ويَمرُّ عمر فناداه النبي ﷺ: يا عبدالله! فظن النبي ﷺ أنه سيدخل فقال ﷺ: قوما فاغسلا وجوهكما. قالت عائشة: فما زلتُ أهاب عمر لهيبة رسول الله ﷺ إياه.

ومن هيبة الصحابة له مارواه المؤرخون:

قالوا: بينا عمر يمشي وخلفه عدّة من أصحاب رسول الله ﷺ إذا بدا له فالتفت، فلم يبق أحد إلا وحبلُ ركبتيه ساقطٌ قال: فأرسل عينيه فبكى ثم قال: اللهم إنك تعلم أني منك أشدُّ فَرَقاً منهم لي.

وروى عكرمة أن حلاقاً كان يقص شعر عمربن الخطاب وكان عمر رجلاً مهيباً، فتنحنح عمر فأحدث الحلاق، فأمر له عمر بأربعين درهماً.

وكان عبد الله بن مسعود يخطب فقال مرة: إني لأحسب عمر بين عينيه مَلَكٌ يُسدِّده ويُقَوِّمه، وإني لأحسب الشيطان يَفْرَقُ من عمر.

وقال مجاهد: إن الشياطين كانت كلها مُصَفَّدة فلما أُصيب بُثَّتْ.

ولقي رجل من قريش عمر فقال له: لِنْ لنا ياأمير المؤمنين فقد ملأت قلوبنا مهابة، فقال: أفي ذلك ظلم؟ قال الرجل: لا، قال عمر: فزادني الله في صدوركم مهابة.

قال المؤرخون: ومع كل هذه المهابة كان ليناً رَجَّاعاً إلى الحق، فقد خرج مرة من المسجد ومعه الجارود العبدي، فبينما هما خارجان إذ بامرأة على ظهر الطريق، فسلم عليها عمر فردَّت عليه السلام ثم قالت: رُويدكَ ياعمر حتى أكلمك كلمات قليلة، قال لها: قولي، قالت: يا عمر!

عهدي بك وأنت تُسمى عميراً في سوق عكاظ تصارع الفتيان فلم تذهب الأيام حتى سُمِّيت عمراً، ثم لم تذهب الأيام حتى سُميت أمير المؤمنين، فاتق الله في الرعية، واعلم أنه من خاف الموت خشيَ الفوت. فقال الجارود: هيه، لقد اجترأت على أمير المؤمنين، فقال عمر: دعها، أما تعرفُ هذه يا جارود؟ هذه خولة بنت حكيم التي سمع الله قولها من فوق سمائه، فعمرُ والله أحرى أن يسمع كلامها. أراد عمر بذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۝١﴾[1] بكسر الدال وفتحها والكسر أقوى، وتسمى سورة قد سمع، وهي سورة مدنية بالإجماع كما قال ابن عطية نزلت حين ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت، وهذه السورة المائة والثلاث في عِدادِ نزولِ سور القرآن الكريم.

وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا غضب وذكر الله ذهب غَضبُه.

صاح على رجل يوماً وعلاه بالدِرَّة فقال له الرجل: أُذكِّرك بالله فطرحها وقال: لقد ذكرتني عظيماً.

وعن عبدالله بن عمر قال: ما رأيت عمر غضب قط فذكر الله عنده أو خوَّفه أو قرأعنده إنسان آية من القرآن إلا وقف عما يريد.

قال أسلم: جاء بلال يريد أن يستأذن على عمر فقلت: إنه نائم. فقال بلال لأسلم: يا أسلم كيف تجدون عمر؟ فقلت: خيرَ الناس إلا أنه إذا غضب فهو أمرعظيم. فقال بلال: لو كنت عنده، إذا غضب قرأت عليه القرآن حتى يذهب غضبه.

ودخل عيينة بن حصن على عمر فقال: هي، يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل. فغضب عمر حتى همَّ أن يوقع به. – أن يؤدبه – فقام – الحرُّ بن قيس – ابن أخي عيينة فقال: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾[2].

وإن هذا لمن الجاهلين، فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقّافاً عند كتاب الله تعالى.

(١) المجادلة: ١.

(٢) الأعراف: ١٩٩.

ويروي حذيفة قال: دخلت على عمر فرأيته مهموماً حزيناً، فقلت له: ما يهمك يا أمير المؤمنين؟ فقال: إني أخاف أن أقع في منكر فلا ينهاني أحد منكم تعظيماً لي. فقال حذيفة: والله لو رأيناك خرجت عن الحق لنهيناك. ففرح عمر وقال: الحمد لله الذي جعل لي أصحاباً يُقوِّمونني إذا اعوججتُ.

ويروي المؤرخون: أنه قال يوماً على المنبر: يا معشر المسلمين، ماذا تقولون لو ملتُ برأسي إلى الدنيا كذا، - ومَيَّلَ رأسه - فقام رجل وقال: كنا نقول بالسيف كذا - وأشار إلى القطع -. فقال عمر: رحمك الله، الحمد لله الذي جعل في رعيتي من إذا تَعوَّجتُ قومني.

ويروي داود بن حِبال الأسدي قال: إن عمر بن الخطاب قال لطليحة أنت الكذاب على الله حين زعمت أن الله أنزل عليك أن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم وفتح أدباركم شيئاً فاذكروا الله أعفةً قياماً فإنَّ الرغوة فوق الصريح.

فقال طليحة: يا أمير المؤمنين! ذلك من فتن الكفر الذي هدمه الإسلام كلّه فلا تعنيف عليَّ ببعضه. فسكت عمر.

وعن المسيب بن دَرام قال: رأيت عمر يؤنب رجلاً ويقول: حَمَّلت جملك مالا يطيق.

من تصرفاته التربوية التأديبية:

ما ذكره أهل العلم، من أنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرَّ بسائل وعلى ظهره جراب مملوء طعاماً، فأخذه فنثره للنواضح - الإبل المهيأة للسقاية - ثم قال: الآن سَلْ ما بدا لك.

ويروي السائب بن يزيد قال: كنت في المسجد، فحصبني رجل، فنظرتُ فإذا عمر بن الخطاب، فقال: اذهب فأتِني بهذين، فجئته بهما فقال لهما: ممن أنتما ومن أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف. قال: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ.

وكان يكره المَلَق - الملق أن تعطي في اللسان ما ليس في القلب -.

قال الحسن: كان رجلٌ لا يزال يأخذ من لحية عمر بن الخطاب الشيء، فأخذ الرجل يوماً من لحية عمر فقبض عمر على يده، فإذا ليس في يده شيء، فقال عمر: إن المَلَقَ من الكذب، من أخذ من لحية أخيه المؤمن شيئاً فَلْيُرِه إياه.

وكان بالبقيع مجزرة، وكانت للزبير بن العوام ولم يكن في المدينة مجزرة غيرها، يأتي ومعه

الدرة، فكل من يراه يشتري لحماً يومين متتابعين علاه بالدرة ويقول له: هلا طويت بطنك يومين لجارك وابن عمك.

وجاءته امرأة من الأنصار فقالت: اكسُني يا أمير المؤمنين، فقال: ما هذا أوان كسوتك. قالت: والله ما عليَّ ثوب يواريني - كناية على أن ثوبها ممزق - فقام فدخل خزائنه فأخرج درعاً قد خِيط أبيضَ، فألقاه إليها وقال: البسي هذا وانظري خَلَقكِ فارقعيه وخَيِّطيه والبسيه على بُرْمتِكِ وعملك، فإنه لا جديدَ لمن لا خَلَقَ له.

وشكا عمرو بن معد يكرب لعمر قوماً نزل بهم أنهم أبرام، - بخلاء - يا أمير المؤمنين! قال عمر: وكيف ذلك؟ قال: نزلت بهم فما قَرَوْني غيرَ ثور - قطعة من الأقط وهو اللبن المجفف - وقوسٍ - بقية تمر - وكعبٍ - قليل من سمن. فقال عمر: إن في ذلك لَشِبعاً.

وكان يؤدب المحتالين: فقد ذكر صاحب كتاب «تحفة العروس» أن رجلاً تزوج في زمن خلافة عمر وكان قد خضب لحيته، وبعد أيام من العرس نصل خضابه فبدا شيبه، فاستعدى عليه أهل المرأة عمر وقالوا: حسبناه شاباً! فأوجعه عمر ضرباً وقال له: غَشَشتَ القوم، غررت القوم.

وكان يرى الكفاءة في الزواج تقوم على التقوى.

فقد روى المؤرخون أن رجلاً من الموالي خطب بنتاً من قريش إلى أخيها وأعطاها مالاً جزيلاً فأبى القرشي تزويجها منه فقال له عمر: وما منعك أن تزوجه فإن له صلاحاً وقد أحسن عطية أختك؟ قال القرشي: يا أمير المؤمنين! إن لنا حسباً - الحسب: ما يُعَدُّ من مفاخر الآباء - وإنه ليس بها بكفء، فقال عمر: لقد جاءك بحسب الدنيا والآخرة أما حسب الدنيا فالمال، وأما حسب الآخرة فالتوقي، زَوِّجِ الرجل إن كانت المرأة راضيةً، فراجعها أخوها فرضيت فزوجه منها.

وكان حريصاً على توبة المرتد: فقد روي أنه لما كان فتح مدينة تُسْترَ سأل هل من أمور مستجدة؟ قالوا: نعم لقد ارتد رجل عن الإسلام. قال: فما صنعتم به؟ قالوا: قتلناه. قال: فهلا أدخلتموه بيتاً وأغلقتم عليه، وأطعمتموه كل يوم رغيفاً واستتبتموه، فإن تاب وإلا قتلتموه؟ ثم قال: اللهم إني لم أشهد ولم آمر ولم أرضَ إذ بلغني.

وكان يؤدب النائحات:

فقد سمع صوت بكاء في بيت، فرأى نائحة تنوح، فضربها بالدرة حتى سقط خمارها، فقال لغلامه: اضرب النائحة وَيْلكَ اضربها فإنها نائحة لا حرمة لها لأنها لا تبكي بشجونكم، إنها تُهريقُ دموعها على أخذ دراهمكم إنها تؤذي أمواتكم في قبورهم، وأحياءكم في دورهم، إنها تنهى عن الصبر وقد أمر الله به، وتأمر بالجزع وقد نهى الله عنه.

وكان يكره الزواج بالأجنبيات:

فقد ذكر الطبري: أنه لما كانت معركة القادسية، ولم يجد المسلمون نساء مسلمات تزوجوا من الكتابيات، ثم كثر المسلمات، فبعث عمر إلى حذيفة بن اليمان بعد أن وَلَّاهُ المدائن قال: بلغني أنك تزوجت امرأة من أهل المدائن من أهل الكتاب، فطلقها. فكتب إليه حذيفة: لا أفعل حتى تخبرني أَحلالٌ أم حرام؟ وما أردتَ بذلك؟ فكتب عمر إليه: لا بل حلال، ولكن في نساء الأعاجم خلابة – خديعة –، فإن أقبلتم عليهن غَلَبْنكم على نسائكم، فقال حذيفة: الآن فطلقها.

ويروي عبيد بن عمير قال: بينما عمر يمر في الطريق، فإذا هو برجل يكلم امرأة، فعلاه بالدرة، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين إنما هي امرأتي. فقال عمر: فَلِمَ تقف مع زوجتك في الطريق تُعرِّضان المسلمين لغيبتكما؟ فقال يا أمير المؤمنين: الآن قد دخلنا المدينة ونحن نتشاور أين ننزل، فدفع إليه الدرة وقال: اقتصَّ مني يا عبد الله. فقال الرجل: هي لك ياامير المؤمنين. فقال عمر: خذ واقتصَّ فقال بعد ثلاث: هي لله، قال عمر: اللهُ لك فيها.

وكان مرة في سفر، فرفع عقيرته بالغناء وأنشد:

وما حملتُ من ناقة فوق رحلها   أبرَّ وأوفى ذمةً مـــن محمد

فاجتمع الناس، فقرأ قرآناً، فتفرقوا، فكرر ذلك غير مرة. فقال: يا بني المُتْكاء – لا تمسك البول فرائحتها كريهة – إذا أخذتُ بمزامير الشيطان اجتمعتم، وإذا أخذت بكتاب الله تفرقتم.

وكان يشرف على مداواة عماله:

فقد روى صاحب كتاب «الرياض النضرة»: أن خازن بيت المال مرض واسمه معيقيب، فكان عمر يطلب له الطب عند كل من يسمع عنده عِلمٌ بذلك، حتى قَدِمَ عليه رجلان من أهل

اليمن، فسألهما: هل عندكما من طب لهذا الرجل الصالح، فإن الوجع أسرع فيه. فقالا: أمَّا شيء يُذهبه فإنا لا نقدر على ذلك، ولكن عندنا دواء يوقفه فلا يزيده، قال عمر: عافيةٌ عظيمة أن يقف الداء فلا يزيد. قالا: هل ينبتُ في أرضك هذا الحنظل. قال: نعم. قالا: اجمع لنا منه. فجمع عمر لهما ذلك، فعمدا إلى الحنظلة فقطعاها ثم جعلا يدلكان بطون قدميه بالحنظل، فوقف الداء.

قال الراوي: فوالله ما زال معيقيب بعدها متماسكاً ما يزيد وجعه حتى مات.

عمر مع نفسه ومع أهله:

وقد عَنْونَ صاحب كتاب «أخبار عمر» بعنوان يقول فيه بينه وبين نفسه؛ وكان من أبرز هذه البينية، أنه كان يعاتب نفسه، والعتاب نوع من المحاسبة للنفس إن قصرت في أمرٍ من الأمور، أو فعلت ما يؤاخذ الإنسان عليه، ومن ذلك:

ما روى الأحنف بن قيس قال: كنت مع عمر فَلَقِيَهُ رجل فقال: يا أمير المؤمنين انطلق معي فأعْدِني على فلان فإنه قد ظلمني. فرفع عمر الدرة وخفق بها رأس الرجل وقال: تدعون أمير المؤمنين وهو معرّض لكم حتى إذا شُغلَ في أمر من أمور المسلمين أتيتموه: أعدني أعدني! فانصرف الرجل وهو يتذمر، فقال عمر: عليَّ بالرجل. فألقى إليه المِخْفقة وقال: امتثل – أي اخفقني كما خفقتك –. فقال الرجل: لا والله ولكن أدعها لله ولك، قال عمر: ليس هكذا، إما أن تدعها لله إرادةَ ماعنده أو تَدَعَها لي فأعلم ذلك، قال: أَدَعُها لله. ثم انصرف عمر ثم جاء يمشي حتى دخل منزله ونحن معه فصلى ركعتين ثم جلس فقال: يا ابن الخطاب! كنت وضيعاً فرفعك الله، وكنت ضالاً فهداك الله، وكنت ذليلاً فأعزك الله، ثم حملك على رقاب الناس فجاءك رجل يستعديك، فضربته، ماتقول لربك غداً إذا أتيته؟

فجعل يعاتب نفسه في ذلك معاتبةً حتى ظننا أنه خير أهل الأرض!

ونادى يوماً: «الصلاة جامعة» هذا النداء كان إذا سمعه المسلمون فهموا أنهم مدعوّون إلى اجتماع في المسجد كما قال الطنطاوي – فلما اجتمع الناس صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس! لقد رأيتُني وأنا أرعى على خالات لي من بني مخزوم فكنت أستعذب لهن الماء فيقبضن لي القبضة من التمر أو الزبيب ثم نزل، فقال له عبدالرحمن بن عوف: ما أردتَ إلى هذا يا

أمير المؤمنين؟ فقال: ويحك يا ابن عوف، خلوت بنفسي فقالت لي: أنت أمير المؤمنين وليس بينك وبين الله أحد، فمن ذا أفضلُ منك؟ فأردتُ أن أُعرِّفها قدرها.

وروى هاشم بن الحسن قال: كان عمر يمر بالآية وهو يقرأ فتخنقه العَبرةُ فيبكي حتى يسقط، ثم يلزم بيته حتى يُعادَ، يَحسبونه مريضاً.

وروى عبدالله بن عيسى قال: كان في وجه عمر خطّان من أثر البكاء.

وعن عبدالله بن عمر قال: صليتُ وراء عمر فسمعت حنينه – أنينه – من وراء ثلاثة صفوف.

وعن عبدالله بن شدّاد قال: سمعت نشيج عمر وأنا في آخر الصفوف في صلاة الفجر وهو يقرأ سورة يوسف حتى بلغ ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴿٨٦﴾﴾(١).

وكان إذا جاء وفد من الأقطار استخبرهم عن أحوال الناس، فيقولون أما البلد الفلاني فإنهم قد جمعوا من الأموال مالا تحمله السفن، وهم موجّهون بها إليك.

وأما البلد الفلاني فقد وجدنا بها عابداً في طرف المسجد ساجداً يقول في سجوده – اللهم اغفر لأمير المؤمنين زَلَّته، وارفع درجته –.

فيقول عمر: أما من خافني فلو أريد بعمر خيرٌ لما أُخيف منه، وأما الأموال فلبيتِ مال المسلمين، وليس لعمر ولا لآل عمر فيه شيء، وأما الدعاء الذي سمعتم بظهر الغيب فذلك ما أرجو.

وكان إذا دخل عليه أبو موسى الأشعري يقول له: يا أبا موسى ذكِّرنا ربنا فيقرأ أبو موسى وربما يبكي عمر، وكان ربما يأخذ بيد الصبي فيقول: ادعُ لي فإنك لم تذنب بعد.

وكان إذا طاف بالبيت يبكي ويقول: اللهم إنْ كنتَ كتبتنا عندك في شقوة وذنب فإنك تمحو ما تشاء وتُثبت وعندك أم الكتاب فاجعلها سعادةً ومغفرةً.

وكان يحب الصلاة في كبد الليل، فكان يصلي من الليل ما شاء الله أن يصلي، حتى إذا كان نصف الليل أيقظ أهله ثم يتلو ﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ

---

(١) يوسف: ٨٦.

﴿لِلتَّقْوَىٰ ١٣٢﴾[1].

وذكر ابن الجوزي أن عمر خرج إلى بستان له فرجع وقد صلى الناس العصر فقال لنفسه: خرجتِ إلى حائطي فرجعتِ وقد صلى الناس، حائطي صدقة على المساكين.

قال صاحب كتاب «أخبار عمر» قال الليث بن سعد: إنما فَاتَتْهُ الجماعة.

وصلى المغرب مرةً فمسَّى بها أو شغله بعض الأمر حتى طلع نجمان فلما فرغ من صلاته أعتق رقبتين.

قال العلماء: وكان يجهز جيشه وهو في الصلاة، فيتَّسع قلبه للصلاة والجهاد معاً وفي آنٍ واحد، وكان أكثر الناس صياماً وسواكاً.

وكان من دعائه: اللهم لا تكثر لي من الدنيا فأطغى، ولا تقلل لي منها فأنسى، فإنه ما قلَّ وكفى خيرٌ مما كثر وألهى.

وكان لا يفسر القرآن برأيه، ويخاف من ذلك، فقد ورد عن أنس بن مالك قال: قرآ عمر هذه الآية: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ٢٨﴾[2]. ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ٣١﴾[3] فقال عمر: هذه الفاكهة والقضب – ما يقطع من النبات مرة بعد مرة وهو علف البهائم – وهذه الأشياء قد عرفناها فما الأبُّ؟ والفاكهة معروفة ما يُتفكَّه به، والأبُّ التبن للبهائم، فوضع يده على رأسه ثم قال: إن هذا لهو التكلفُ يا ابن أم عمر، ما عليك أن لا تدري ما هو الأبُّ.

وسئل مرة عن قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ١﴾[4] قال: هي الرياح ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله لما قلته، وقيل: ﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ٢﴾[5]. قال: السحاب ولولا أني سمعت

---

(١) طه: ١٣٢ .

(٢) عبس: ٢٤-٢٨.

(٣) عبس: ٢٩-٣١.

(٤) الذاريات: ١ .

(٥) الذاريات: ٢ .

رسول الله ﷺ يقوله لما قلته. ﴿ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣ ﴾[1] قال: السفن ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله لما قلته، ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤ ﴾[2] قال: الملائكة ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله لما قلته .

معاملة عمر لأهله كما ذكر صاحب كتاب «أخبار عمر»:

قال المؤرخون: كان عمر إذا نهى عن شيء جمع أهله وقال لهم: إني قد نهيت الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم، فإن وقعتم وقعوا، وإن هِبْتم هابوا، وإني والله لا أُوتى برجل منكم وقع فيما نهيتُ عنه إلا ضاعفت له العذاب لمكانه مني، فمن شاء منكم فليتقدم، ومن شاء فليتأخر.

وصادر هدية لزوجته:

قال المؤرخون: قَدِمَ بريدُ ملك الروم على عمر، فاستقرضتْ امرأةُ عمر ديناراً فاشترت به عطراً وجعلته في قوارير، وبعثت به مع البريد إلى امرأة ملك الروم. فلما وصلت الهدية إلى زوجة ملك الروم أفرغت القوارير وملآتهن جواهر، وقالت للبريد: اذهب به إلى امرأة عمر، فلما وصل البريد فرَّغت امرأة عمر الجواهر على البساط، فدخل عمر وقال: ماهذا؟ فأخبرته، فأخذ عمر الجواهر فباعه ودفع إلى امرأته دينارها، وجعل الباقي في بيت المال.

قال عبدالله بن أرقم: قلت لعمر: إنَّ عندنا حِليةً من جلولاء وآنيةً وفضة فانظر ما تأمرنا فيها، فقال عمر: إذا رأيتني فارغاً فآذِنِّي. فجاء يوماً فقال: يا أمير المؤمنين! إني أراك اليوم فارغاً. فقال عمر: ابسط، نطعاً، فبسط، ثم أتى بذلك المال فصبَّه، ثم وقف وقال: اللهم إنك ذكرت هذا المال فقلت: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ۝١٤ ﴾[3].

وقلت: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۝٢٣ ﴾[4].

---

(١) الذاريات: ٣.

(٢) الذاريات: ٤.

(٣) آل عمران: ١٤.

(٤) الحديد: ٢٣.

اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زيَّنت لنا، اللهم إني أسألك أن تضعه في حقه، وأعوذ بك من شره.

فأُتِي بابن له فقال: يا أبتاه هب لي خاتماً. قال عمر: اذهب إلى أمك تسقيك سويقاً، فما أعطاه شيئاً.

ويأتيه مرة مالٌ، وتأتيه ابنته حفصة أم المؤمنين وقالت: يا أمير المؤمنين: حقُّ أقاربك من هذا المال، وقد أوصى الله عز وجل بالأقربين. فقال: يا بنية حقُّ أقربائي من مالي، وأما هذا ففيء المسلمين، غَشَشتِ أباك ونصحت أقرباءك. قومي. قالوا: فقامت والله تجرُّ ذيلها.

وتأتيه مرة أكسية من صوفٍ أوخزٍّ،- مُروط - فقسمها بين نساء أهل المدينة، فبقي منها مرط جيد، فقال له بعض من حضر: يا أمير المؤمنين! أعط هذا ابنة رسول الله التي عندك - زوجته أم كلثوم بنت علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - فقال: أم سليط أحقُّ به. فإنها ممن بايع رسول الله ﷺ وكانت تَزفِنُ - تحمل - للناس القرب يوم أُحد.

وقدم عليه صهره فعرَّض له أن يعطيه من بيت المال، فانتهره عمر وقال: أردتَ أن ألقى الله ملكاً خائناً؟ ثم بعد فترة أعطاه من صُلبِ ماله.

وقال أبو عمران الجوني: كما ذكر الطنطاويان، والله ما كان عمر يصيب من الطعام هو وأهله إلا تقوُّتاً.

وسأل الأصمعي رجلاً: ما إدامك. قال الرجل: الإدام الكثيرة والألوان الطيبة. قال الأصمعي: أفي إدامك سمن؟ قال: نعم. قال: فتجمع السمن والسمين على مائدة؟ قال: نعم. قال الأصمعي: ليس ذلك عيش آل الخطاب.

وهنا واقعة جرت لولده عبدالرحمن سرح فيها خيال القصاص فكانت كما قال صاحب كتاب «أخبار عمر»، وقد أخذ هذا الحديث قومٌ من القصاص فأبدوا فيه وأعادوا، وذكروا كلاماً مرققاً لم يصدر عن عمر..

والواقعة: أن عمرو بن العاص، قال يوماً: - وقد ذكر عمر فترحَّم عليه - ما رأيت أحداً بعد نبي الله ﷺ وأبي بكر أخوفَ لله من عمر لا يبالي على من وقع الحقُّ، على ولدٍ أو والدٍ. ثم قال عمرو بن العاص: والله إني لفي منزلي في مصر، إذ أتاني آتٍ فقال: هذا عبدالرحمن بن عمر وأبو

سروعة يستأذنان عليك، فقلت: يدخلان. فدخلا وهما منكسران. فقالا: أقم علينا حدَّ الله، فإنا قد أصبنا البارحة شراباً فسكرنا. قال عمرو بن العاص: فزبرتُهُما، فقال عبدالرحمن بن عمر: إنْ لم تفعله أخبرت أبي إذا قدمت عليه. قال عمرو: فأخرجتهما إلى صحن الدار فضربتهما الحدَّ. ودخل عبدالرحمن إلى ناحية الدار فحلق رأسه – وكانوا يحلقون مع الحدود – ووالله ما كتبت لعمر بحرف حتى جاءني كتابه وفيه: من عبدالله عمر إلى العاصي بن العاصي، عجبت لك يا ابن العاص وجرأتك عليَّ وخلافِك عهدي، فما أراني إلا عازلكَ، تقيم الحدَّ في بيتك على عبدالرحمن وقد عرفت أنَّ هذا يُخالفني؟ إنما عبدالرحمن رجل من رعيتك تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين، ولكن قلتَ: ولد أمير المؤمنين وقد عرفتَ أنْ لا هوادةَ لأحد من الناس عندي في حقٍ يجب لله عليه، فإذا جاءك كتابي هذا فابعث به في عباءةٍ على قتبٍ حتى يعرف سوء ما صنع. قال عمرو بن العاص: فبعثتُ به كما قال أبوه وكتبت لعمر كتاباً، وحلفت له بالله إني لأقيم الحدود في صحن داري على المسلم والذمي. وبعثت الكتاب مع عبدالله بن عمر فدخل على عمر، وعبدالرحمن لا يستطيع المشي من سوء مركبه، فقال له عمر: يا عبدالرحمن فعلت وفعلت؟ فكلمه عبدالرحمن بن عوف، وقال: يا أمير المؤمنين قد أُقيم عليه الحدُّ. فلم يلتفت عمر إليه، فجعل عبدالرحمن يصيح: إني مريض وأنت قاتلي! فضربه ثانية وحبسه، ثم تركه فصحَّ بعد ذلك من مرضه وبقي شهراً صحيحاً ثم أصاب قدره.

فحسب الناس أنه قد مات من جلد عمر، وعمر لم يضربه إلا ضربتين.

وقد قال المحققون: وإنما شرب عبدالرحمن النبيذ لا الخمر متأوّلاً أنه لايسكر وكذلك أبو سروعة فهو بدريّ، فلما شعرا بالسكر طلبا التطهير بالحد، وكان يكفيهما مجرد الندم على التفريط غير أنهما غضبا لله سبحانه على أنفسهما المفرِّطة، فأسلماها إلى إقامة الحد.

أما ضرب عمر مرةً ثانيةً لولده فليس ذلك حداً، وإنما ضرب غضباً وتأديباً، لأنَّ الحدَّ لا يُكرّر.

وتدخل عليه سُرِّيّةٌ لعبيد الله بن عمر تشكوه فقالت: يا أمير المؤمنين! ألا تعذرني من أبي عيسى؟ فناداه فصاح عليه ثم ضربه وقال: ويلك هل لعيسى أب؟ أما تدري ما كُنى العرب: أبوسلمة، أبوحنظلة، أبو عرفطة، أبومرة...كما ذكر الطنطاويان.

عمر الرجل:

قال الطنطاويان: الحديث تحت هذا العنوان يشمل أموراً كثيرة، يشمل اسمه وكنيته ونسبه ومولده وصفته، وما يتعلق بأموره الخاصة من طعام ولباس وركوب ونوم.. وغيره.

أما اسمه: فعمر لم يتغير في الجاهلية والإسلام.

أما كنيته: فأبو حفص، والحفص هو الشبل – ولد الأسد – كَنَّاه به النبي ﷺ يوم بدر كما ذكر ابن هشام في سيرته.

أما لقبه: فالفاروق، وقد سماه به النبي ﷺ، وقد ورد عن ابن عباس أنه سأل عمر لأي شيء سُمِّيتَ الفاروق؟ فذكر عمر له كيفية إسلامه وإعلانه لإيمانه، وإخراج رسول الله للمسلمين إلى المسجد الحرام صفّين على رأس الأول حمزة، وعلى الثاني عمر، ولهم كَديدٌ ككديد الطحين حتى دخلنا المسجد. فنظرت قريش إليّ وإلى حمزة بن عبدالمطلب فأصابهم كآبة لم يصبهم مثلها فسماني رسول الله يومئذ الفاروق، فرَّقَ الله بي بين الحق والباطل.

وفي حديث ذكره صاحب كتاب «الرياض النضرة» عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: بينما أنا جالس في مسجدي أتحدث مع جبريل إذ دخل عمر بن الخطاب، فقال جبريل: أليس هذا أخوك عمر بن الخطاب؟ فقلت: بلى يا أخي، أله اسم في السماء، كما له اسم في الأرض؟ فقال جبريل: والذي بعثك بالحق إن اسمه في السماء أشهرُ من اسمه في الأرض، اسمه في السماء الفاروق، واسمه في الأرض عمر، وهذا يدل على أن تسمية الفاروق كان بوحي، ويدل على ذلك مارواه النزال بن سيرة قال: وافْقنا يوماً من علي رضي الله عنه يوماً أطيب نفساً ومزاجاً. فقلنا: ياأمير المؤمنين حدثنا عن عمر بن الخطاب. قال علي: ذاك امرؤٌ سماه الله الفاروق فرق به بين الحق والباطل.

كما ورد عن ابن عباس أن النبي ﷺ ذكر موقفه يوم القيامة وموقف أبي بكر ثم قال: ثم ينادي مناد أين الفاروق؟ فيؤتى به فيقول الله عز وجل: مرحباً أبا حفص، هذا كتابك فإن شئت فاقرأه، وإن شئت فلا فقد غفرت لك.

ويؤكد هذا ما روت عائشة أنها لما سئلت: من سمى عمر الفاروق؟ قالت: النبي ﷺ.

قال المؤرخون: ولعمر لقب ثانٍ يعرف به وهو (الأُصيلع) لصلعته فعن عبدالله بن

سرجس المزني قال: رأيت الأصيلع - يعني عمر- يقبل الحجر.

أما نسبه: هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبدالعزى - والعزى صنم عندهم – ينتهي نسبه إلى عدنان ويلتقي نسبه مع النبي في كعب بن لؤي بن غالب القرشي، وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم وهو من بني عديّ ولذلك يقال له الهاشمي العدويُّ.

مولده: كان عمر يقول: ولدت قبل الفِجار بأربع سنين، وكان الفجار قبل بعثة النبي ﷺ بستٍ وعشرين سنة. فكان مولده رضي الله عنه قبل البعثة بثلاثين سنة.

والفجار: حرب كانت بين قريش ومن معها من كنانة، وبين قيس عيلان، وكانت الدَّبْرَةُ على قيس، فلما قاتلوا قالوا فجرنا؛ لأنها كانت حروباً أربعة في الأشهر الحرم، وحضرها النبي ﷺ وهو ابن عشرين.

صفته وهيأته: كانت الصفة التي تميز عمر عن غيره القوة والشدة، كان جلداً شديد الخَلْق، ضخم الجثة، وكان يمشي فيشرف على الناس كأنه راكب على دابةٍ، وما يكون ماشياً مع قوم إلا رُئِيَ كأنه فوقهم.

وحدَّث زرُّ بن حُبيش قال: رأيت عمر يأتي العيد ماشياً حافياً أعسرَ أيسرَ متلبباً بُرْداً قِطْرياً، مشرفاً على الناس كأنه على دابةٍ، وكان إذا مشى أسرع ووطئ الأرض وَطْأً شديداً.

وحدَّث عاصم بن كليب قال: لقي أبي عبدَالرحمن بن الأسود وقد مشى إلى جانب الجدار متخشعاً هكذا – وأمال الراوي عنقه – فقال له والدي: مالك تمشي إلى جانب الحائط؟ أمَا والله إن عمر كان إذا مشى شديد الوطء على الأرض، جَهوريَّ الصوت، وكان يصيح الصيحة فيكاد مَنْ يسمعها يُصعَقُ ويُغشى عليه.

ورأت الشفّاء ابنة عبدالله فتياناً يقصدون في المشي ويتكلمون رويداً. فقالت: ماهذا؟ قالوا: نُسّاكٌ. قالت: كان والله عمر إذا تكلم أَسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع وهو الناسك حقاً.

وذكر أكثر من مؤلف: أنه كان إذا همَّ بالركوب أخذ بأذن الفرس وأخذ أذنه بيده الأخرى، ثم نزى على متن الفرس، فكأنما خُلقَ على ظهره ثم عدّاه عدواً شديداً.

قال أبو مسعود الأنصاري: كنا جلوساً في نادينا فأقبل رجل على فرسه يُركِّضُه حتى كاد يوطئنا؛ فارتعنا لذلك وقمنا، فإذا عمر بن الخطاب. قلنا: فمن بعدك يا أمير المؤمنين؟ قال: وما أنكرتم؟ وجدت خفة فأخذت فرساً فركضته.

وكان ﵁ أروحَ. إذا مشى تباعدت صدور قدميه، وتدانى عقباه، وكان ﵁ أعسر أيسر، أي يعمل بيديه جميعاً.

حدَّث رجل في مجلس الحسن البصري قال: لقي رجل راعياً فقال له: أشعرت بأن ذلك الأعسر اليسر – يعني عمر – قد أسلم؟ قال: ذاك الذي كان يصارع في سوق عكاظ؟ قال: نعم. قال: أما والله ليوسعنهم خيراً، أو ليوسعنهم شراً.

وكان أصلعَ شديد الصلع، أجلحَ، قد انحسر الشعر عن جانبي رأسه خفيفَ العارضين، وكان يخضب لحيته بالصفرة، وكان طويل السَّبْلَة – طرفا الشارب – وكان إذا حَزَبهُ أمر، أو عراه غضب، فتل سبلته، وأخذ بطرفها إلى فمه ثم نفخ.

يقول المؤرخون: كان الزهدُ هو الصفة الغالبة على عمر، ولذلك ورد عن طليحة بن عبيد الله قال: ما كان عمر بأوَّلنا إسلاماً ولا أقدمنا هجرة، ولكنه كان أزهَدنا في الدنيا، وأرغبنا في الآخرة.

من هنا كان في طعامه، يَدَّخِرُ طَيِّباتِهِ لآخرته.

دخل عليه غلامه يوماً، وكان الطعام بين يدي عمر، فقال الغلام: هذا عتبة بن فرقد بالباب .قال عمر: ما أقدمَ عتبة؟ ائذن له. فلما دخل عتبة رأى بين يدي عمر. قال عمر: اقترب يا عتبة فأَصِبْ من هذا. فذهب يأكل، فإذا هو بطعام جَشِب – خشن – لا يستسيغه! فقال لعمر: يا أمير المؤمنين! هل لك في طعام يقال له (الحُوَّاري)؟ وهو لباب الدقيق. قال عمر: ويلك ويَسَعُ المسلمين كلهم؟ قال عتبة: لا والله. قال: ويلك يا عتبة! أفأردتَ أن آكل طيبات في حياتي الدنيا وأستمتع بها.

قال المؤرخون: لما قدم الشام صُنع له طعام لم يَرَ قبله مثله، فقال: هذا لنا فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا ولم يشبعوا من خبز الشعير؟ قال خالد بن الوليد: لهم الجنة. فاغرورقت عينا عمر وقال: لئن كان حظنا في هذا الطعام وذهبوا بالجنة فقد بَايَنُونا بَوْناً بعيداً.

وكان لا يجمع في طعامه إدامين: دخل مرة على ابنته حفصة، فقدمت إليه مرقاً بارداً وصبت عليه زيتاً فقال: أُدْمانِ في إناء واحد؟ لا آكله حتى ألقى الله عز وجل.

قال العلماء: وليس جمع الأُدمين حراماً ولكنه زهدُ عمر رضي الله عنه.

قال ابن عمر: دخل علينا أمير المؤمنين ونحن على مائدة، فأوسعتُ له عن صدر المجلس فقال: بسم الله، ثم ضرب بيده في لقمةٍ فلَقِمَها، ثم ثنى بأخرى، ثم قال: إني لأجد طعمَ دَسمٍ غير دسم اللحم. فقال ابنه عبدالله: يا أمير المؤمنين! إني خرجت إلى السوق أطلب السمين لأشتريه فوجدته غالياً، فاشتريت بدرهم من المهزول وجعلت عليه بدرهم سمناً، فقال عمر: ما اجتمعا عند رسول الله ﷺ إلا أكل أحدهما وتصدق بالآخر. فقال ابن عمر: يا أمير المؤمنين: ولن يجتمعا عندي أبداً إلا فعلتُ ذلك.

قال صاحب كتاب «أخبار عمر» عند ذكر هذه القصة: ولم يحرم الإسلام الطيبات وليس جمع إدامين حراماً، ولكنه زهد منه رضي الله عنه.

ويروي أبو أمامة قال: بينما كنا نجول في سِكَكِ المدينة مع عمر ومعنا الأشعث ابن قيس، فأدرك عمر الإعياء فقعد، وقعد إلى جنبه الأشعث بن قيس، وقد أُتِيَ عمر بمرجلٍ فيه لحم، فجعل يأخذ منه العِرْقَ فينهشه فينضح على الأشعث. فقال الأشعث: يا أمير المؤمنين لو أمرت بشيء من سمن فَصُبَّ على هذا اللحم حتى يبلغ إناه - نُضْجَه - كان أليَنَ له. فرفع عمر رأسه فضرب صدر الأشعث ابن قيس ثم قال له: أُدمان في أُدم؟ كلا، إني لقيتُ صاحبيَّ وصحبتهما فأخاف إن خالفتهما أن يُخالفَ بي عنهما ولا أنزلُ معهما حيث ينزلان.

وقال أنس بن مالك: رأيت عمر يُلقى إليه الصاعُ من التمر فيأكله على حشفه - التمر الرديء -.

وقدم عليه ناس من العراق فيهم جرير بن عبدالله فأتاهم بجفنة قد صنعت بخبز وزيت وقال: خذوا. فأخذوا أخذاً ضعيفاً. فقال لهم عمر: قد أرى ما تفعلون فأيَّ شيء تريدونه أحلواً وحامضاً وحاراً وبارداً ثم قذفاً في البطون.

وكان يرى أن الطعام أهونُ من يُدخَلُ بسببه النار. فقد دخل على بيته مرة وهو جائع، فقال: عندكم شيء؟ فقالت امرأته: تحت السرير، فتناول قِناعاً فيه تمر - طبق يصنع من عسب

النخل – فأكل ثم شرب من الماء ثم مسح بطنه ثم قال: ويحٌ لمن أدخله بطنهُ النارَ، وكان يقول كما روى النخعي: من أدخله بطنه النار أبعده الله.

واحذر – يا عبدالله – أن تظن أن عمر لا يعرف أطايب الطعام، لا والله فقد روى ابن الجوزي أن عمر قال: لنحن أعلم بلين الطعام من كثير من آكليه، ولكنا نَدَعهُ ليوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها.

ووصفَ مرة بعض أطايب الطعام أمام – حفص بن أبي العاص –، فقال لعمر: إني لأراك عالماً بطيب العيش. فقال: والذي نفسي بيده لولا أن تُنتقصَ حسناتي لشاركتكم في لين عيشكم، لكنني أستبقي طيباتي لأني سمعت الله عز وجل يقول: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴿٢٠﴾﴾[1].

أما لباسه: فاسمع معي إلى ما يرويه علي بن أبي طالب قال: رأيت لعمر بن الخطاب إزاراً فيه إحدى وعشرون رقعة من أدم ورقعة من ثيابنا.

وقال أنس: رأيت في قميص عمر أربعة رقعات بين كتفيه.

وعن عبدالله بن عباس قال: خرجت أريد عمر فلقيته راكباً حماراً وقد ارْتَسَنهُ بحبل أسود، في رجليه نعلان مخصوفتان – مفروزتان – وعليه إزار وقميص صغير، وقد انكشف منه رجلاه إلى ركبتيه، فمشيت إلى جانبه وجعلت أجذب الإزار وأُسوّيه عليه، كلما سترتُ جانباً انكشف جانب. فيضحك عمر ويقول: إنه لا يطيعك.

ويروي زياد بن عبدالله قال: استحضرني عمر فأتيته وعليَّ ثياب كتّان وعليَّ خُفان ساذجان، وفي يده مَخْصَرةٌ على رأسها حديد فغمرها في خفي حتى أذى رجلي. فلما كان من الغد رجعت إليه في خفين غليظين وعلي ثوبان من القطن. فلما رآني قال:هكذا يا زياد، هكذا يا زياد، ثم قال لي: بكم أخذت هذين الخفين؟ قلتُ: بوافٍ – أي درهماً كاملاً – فأعطاني درهماً وقال لي: اشتر لي مثلها. ولما استقبله الناس بالشام وأشاروا عليه بركوب البرذون فإنه ملك العرب، ويلقاه عظماء الناس قال: لا أراكم هنا إنما الأمر من هنا – وأشار إلى السماء – خَلُّوا سبيل جملي.

أما نومه: فكان خفقاتٍ في ساعاتٍ متفرقة من ليل أو نهار، وكان يقول: لئن نمت النهار

---

(١) الأحقاف: ٢٠.

لأضيعن الرعية، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية بن خديج، قال ذلك لمعاوية عندما جاء يبشره بفتح الاسكندرية في النهار فظن معاوية أن عمر كان في قيلولة.

أما جلوسه: قال الزهري: كان عمر يجلس متربعاً. وعند انفراده يستلقي على ظهره رافعاً احدى رجليه على الثانية.

الأيام الأخيرة في حياته:

قال المؤرخون: كان عمر مثالاً للخليفة المسلم، قضى خلافته كلها في خدمة دينه وأمته، كان القائدَ الأعلى للجيش، والفقيه المجتهد، والقاضي النزيه، والأب الحنون، والسياسي المحنك المؤمن، والإداري الحازم، تحققت بقيادته أعظم الانتصارات على الفرس والروم، فكانت الفتوحات على جبهة الفرس قد شملت القادسية والمدائن وجلولاء ونهاوند، وعلى جبهة الروم البيزنطيين شملت فتح مصر والشام...

وكانت خلافته سداً منيعاً أمام الفتن، وكان عمر نفسه باباً مغلقاً لا يقدر أصحاب الفتن على الدخول إلى المسلمين في حياته، ولا الفتن أن تُطِلَّ برأسها في عهده – كان عمرُ قفلَ الفتنة –، أي الباب الذي يحجز بين الناس والفتنة، وكان عمر مانعاً للفتنة أن تهيج بين المسلمين، فلما امتدت يد الغدر والخيانة من ذلك المجوسي القذر – فيروز أبو لؤلؤة – قال عمر قولته المشهورة: الحمد لله الذي لم يجعل ميتتي بيد رجل يدعي الإسلام.

قال شوقي:

شعوبك في شرق البلاد وغربها كأصحاب كهفٍ في عميق سُباتِ

بأيمانهم نوران ذِكْرٌ وسُنة فما بالهم في أحلك الظلمات

هنا سؤال: هل كان يعلم من الباب؟

والجواب: نعم، والدليل على ذلك ما رواه الشيخان عن حذيفة رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: أيكم يحفظ قولَ رسول الله ﷺ في الفتنة؟ فقلت – أي الراوي حذيفة – أنا أحفظه كما قاله ﷺ! قال عمر: هاتِ، لله أبوك، إنك لجريء. قلت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره يُكفّرها الصيامُ والصلاة والصدقة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال عمر: ليس هذا أريدُ إنما أريد الفتن التي تموج كموج

البحر! قلت – حذيفة – مالك ولها ياأمير المؤمنين؟ إن بينك وبينها باباً مغلقاً!!! قال عمر: أَيُكْسَرُ أم يُفتح؟ قلت: لا بل يكسر!! قال: ذاك أحرى ألا يغلق أبدا حتى قيام الساعة!!!

قال أبو وائل: الذي روى عن حذيفة هل كان عمر يعلم من الباب؟ قال حذيفة: نعم. كما يعلم أن دون الغد الليلة، إني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط.

قال أبو وائل: فَهِبْنا ان نسأل حذيفة: مَنِ الباب؟ فقلنا لمسروق: سَلْ حذيفةَ من الباب؟ قال حذيفة: هو عمر.

قال المحققون: إن حذيفة سمع هذا من رسول الله ﷺ ووعاه وحفظه، وحذيفة لا يقرر هذا من عنده، وإنما هذا الحديث من علامات نبوة الصادق المصدوق، ولذلك قال حذيفة: إني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط، أي حديثاً صحيحاً صادقاً لا أغاليطَ فيه ولا أكاذيب لأنني سمعته من رسول الله ﷺ، ثم إن عمر: يعلم الحقيقة التي أخبره بها حذيفة، فهو يعلم أن خلافته باب منيع قوي يمنع تدفق الفتن على المسلمين، وأن الفتن لن تغزو المسلمين أيام خلافته وحياته.

قال ابن المنيّر: آثر حذيفة الحِرصَ على حفظ السر ولم يصرح لعمر بما سأل عنه، وإنما كَنَّى بذلك ولَـمَّح.

قال صاحب كتاب «سيرة الفاروق»: وكان عمر يعلم من رسول الله ﷺ أنه سيقتل قتلاً، وسيلقى الله شهيداً، وفي الصحيح من حديث أنس بن مالك قال: صعد رسول الله ﷺ جبل أحد، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فرجف الجبل بهم، فضربه رسول الله ﷺ برجله وقال له: (اثبتْ أُحد فإنما عليك نبيٌّ وصِدّيقٌ وشهيدان).

كما كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يطلب الشهادة: فقد ورد عن سعيد بن المسيب، أن عمر لما نفر من منى أناخ بالأبطح – الرمل المنبسط على وجه الأرض، أو أثر مسيل الماء فيه دقاق الحصى يضاف إلى مكة وإلى منى، ولكنه إلى منى أقرب وهو ما يعرف بالمحصَّب – ثم كوم كومة من البطحاء، فألقى عليها طرف ردائه ثم استلقى عليها ورفع يديه إلى السماء فقال: اللهم كبرت سني، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مضيّع ولا مفرط، اللهم ارزقني شهادة في سبيلك، واجعل موتي في بلد رسولك، فما انسلخ ذو الحجة حتى طعن.

وجاء في رواية: اللهم قتلاً في سبيلك، ووفاةً في بلد نبيك.

فقيل لعمر – كما في رواية حفصة – وأني يكون ذلك؟ فقال عمر: يأتيني به الله إن شاء.

هنا سؤال: هل من فرق بين تمني الشهادة وتمني الموت؟

والجواب: نعم كما قال الصلابي: قال: تمني الشهادة مستحب، وتمني الموت مكروه، فما الفرق بينهما؟

والجواب: تمني الموت: هو طلب تعجيله قبل وقته، ولا يزداد المؤمن في عمره إلا خيراً.

وتمني الشهادة: هو طلب الموت عند انتهاء أجله شهيداً، فليس في طلب الشهادة طلب تقديم الموت عن وقته، وإنما طلب فضيلة فيه.

وعن أبي موسى الأشعري قال: رأيت كأني أخذت جوادَّ كثيرةً فجعلتُ أخذه حتى بقيت واحدةٌ فأخذتها حتى انتهيت إلى جبل زلق فإذا برسول الله ﷺ فوقه وإلى جنبه أبو بكر، وإذا هو يومئ إلى عمر أن تعال فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، مات والله أمير المؤمنين.

فقال له أنس: ألا تكتب إلى أمير المؤمنين؟ فقال: ما كنت لأنعي إليه نفسه.

وورد عن جبير بن مطعم قال: حججت مع عمر آخر حجة حجها فبينما نحن واقفون على الجبل بعرفة إذ سمعت رجلاً يقول: يا خليفة رسول الله! ثم قال: يا أمير المؤمنين: فقال: أعرابي من لهب – وهم حي من أزد شَنُوءَةَ كانوا أصحاب عيافة – من خلفي: والعيافة: – يرى حادثة فيسعد بها أو يتشاءم – ماهذا الصوت؟ قطع الله لهجتك – أو لَـهَاتكَ – والله لا يقف أمير المؤمنين على هذا االجبل بعد هذا العام أبداً، فَسَبَبْته وأدَّبته.

فلما كان الغد وقف عمر يرمي الجمار فجاءت حصاة عائرةٌ فأصابت رأسه ففصدت عرقاً فسال الدم، فسمعت رجلاً من الجبل يقول: أشعرت! أما والله لا يقف بعد هذا العام ههنا أبداً، فالتفتُّ فإذا ذلك اللِّهبي فوالله ماحج عمر بعدها.

وفي آخر خطبة خطبها في المدينة، وكانت خطبة جمعة بعد رجوعه من الحج في الحادي والعشرين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة.

قال معدان بن أبي طلحة: أن عمر خطب الناس يوم الجمعة – بعد رجوعه من الحج وتلك آخر جمعة عاشها – فذكر النبيَّ ﷺ وذكرَ أبا بكر ثم قال: إني رأيت رؤيا لا أراها إلا لحضور أجلي: رأيت كأن ديكاً نقرني نقرتين، وإن قوماً يأمرونني أن أستخلف وإن الله لم يكن

ليضيِّعَ دينه، ولا خلافته ولا الذي بُعثَ به نبيُّه ﷺ وهو عنهم راض، وإني علمت أن قوماً سيطعنون في هذا الأمر بعدي، أنا ضربتهم بيدي هذه على الإسلام، فإن فعلوا ذلك فأولئك هم أعداء الله الضُّلّال.

وفي صحيح البخاري: من رواية عمرو بن ميمون قال: رأيت عمر بن الخطاب قبل أن يُصاب – أن يقتل – بأيام – أربعة أيام – بالمدينة بعد رجوعه من الحج، وكان ذلك سنة ثلاث وعشرين بالاتفاق، ووقف على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف – يكلمهما في أمر قد كلفهما به، فقد كلف حذيفة بتقدير خراج الأرض التي تسقى بماء نهر دجلة، ووظف عثمان بن حنيف لِيُقدِّرَ خراج الأرض التي تسقى بماء نهر الفرات، وهي الأراضي المعروفة بأرض السواد.

وقال لهما: كيف فعلتما؟ انظرا أن تكونا حمَّلتما الأرض ما لا تُطيق؟ قالا: حملناها أمراً هي له مُطيقة ما فيها كبيرُ فضلٍ. فقال عمر: لئن سلمني الله لأَدعنَّ أرامل أهل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدي أبداً. قال: فما أتت عليه رابعة حتى أصيب بعد هذه المحاورة. وكان رضي الله عنه لا يسمح لغير المسلمين بدخول المدينة المنورة عاصمة الخلافة.

قال صاحب كتاب (الخلفاء الراشدون): كان عمر لا يأذن للسبايا في الأقطار المفتوحة بدخول المدينة المنورة، وكان يمنع مجوس العراق وفارس ونصارى الشام ومصر من الإقامة في المدينة إلا إذا أسلموا ودخلوا في هذا الدين.

وقد يقال لماذا ذلك؟

والجواب: إن هذا الموقف يدل على عظيم حكمة عمر، وبُعدِ نظره؛ لئن هؤلاء الناس المغلوبين المقهورين حاقدون على الإسلام، مبغضون له، متهيؤون للتآمر والكيد ضد هذا الدين وضد أهله ولذلك منعهم من الإقامة فيها لدفع الشر عن المسلمين.

وكان بعض الصحابة عندهم عبيد ورقيق من هؤلاء السبايا أو المجوس وكان بعضهم يُلحُّ على عمر أن يأذن لبعض عبيده من هؤلاء بالإقامة في المدينة ليستعين بهم في أموره وأعماله، فأذن عمر للبعض القليل على كُرهٍ منه، وكان أن وقع ما توقعه عمر وما كان حذَّر منه.

قال المؤرخون: من هو قاتل عمر؟

فلما كان عمر لا يأذن لسبيٍ قد احتلم أن يدخل المدينة، حتى كتب إليه المغيرة بن شعبة

وكان والياً على الكوفة يستأذنه في غلام صَنعٍ يدعى – أبا لؤلؤة –، واسمه فيروز، لديه أعمال كثيرة فيها منافع للناس، فهو حداد ونقاش ونجار، فأذن له عمر، فأرسل به المغيرة وكان يستغله كل يوم أربعة دراهم، كما كان يصنع الأرحاء – جمع رحى وهي الطواحين – وجاء غلام المغيرة هذا إلى عمر يشتكي إليه ويقول: يا أمير المؤمنين إن المغيرة أثقل عليَّ غلتي فكلِّمْهُ لي ليخففَّ عني. فقال له عمر: ما تُحسِنُ من الأعمال؟ فذكرها له. فقال له عمر: فما خراجك بكثير فاتق الله وأحسن إلى مولاك.

قال المؤرخون: وكان من نية عمر أن يلقى المغيرة فيكلمه يخفف عنه خراجه، فانصرف العبد مُغضَباً، وقال: وَسِعَ الناسَ كلهم عدلهُ غيري.

قال المؤرخون: وكان هذا العبد خبيثاً إذا نظر إلى السبي الصغار يأتي فيمسح رؤوسهم ويبكي ويقول: أكل عمر كبدي، فأضمر قتله. وجعل هذا الخبيث يتحين الفرص، فمر يوماً بعمر فقال له عمر: ألم أُحَدّثْ أنك تقول: لو أشاء لصنعت رحى تطحن بالريح؟ فالتفت العبد عابساً ساخطاً إلى عمر – وكان مع عمر رهط – فقال العبد: لأصنعن لك رحى يتحدث بها الناس. ثم مشى العبد، فلما ولى التفت عمر إلى القوم الذين معه وقال: أوعدني العبد آنفاً.

وكان بعض العرب يخافون من دخول العجم إلى المدينة. ويحرصون على أن يكون عمر حذراً من هؤلاء الأعاجم.

فقد روى المؤرخون أن عيينة بن حصن قال لعمر: احترس أو أخرج هؤلاء العجم من المدينة فإني لا آمن أن يطعنك رجل منهم في هذا الموضع، ووضع يده في المكان الذي طعنه فيه أبو لؤلؤة.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: لما كان آخر حجة حجها عمر أذن لأزواج النبي ﷺ بالحج، فخرجنا معه فلما صدرنا عن عرفة وارتحلنا من المُحصَّب من آخر الليل، أتى رجل على راحلته فقال وأنا أسمع: أين كان عمر أمير المؤمنين نزل؟ فقال: رجل آخر ههنا. فأناخ الأعرابي راحلته ثم رفع عقيرته، فقال:

عليكَ سلامٌ من إمام وباركــت ... يدُ الله في ذاك الأديــــم الممزَّق

فمن يَسْعَ أو يركبْ جناحَيْ نعامة ... ليدرك ما قدمــتَ بالأمـس يُسبق

قضيتَ أموراً ثم غــادرت بعدها　　　بوائـــــــق في أكمــامها لم تُفتَّق

ثم نُسبت هذه الأبيات إلى الشماخ بن ضرار أو لأخيه مزرّد، وكانوا ثلاثة إخوة كلهم شاعر، ولكن مزرداً نفى علمه بهذه الأبيات حين سألته عائشة وقال ما شهدت ذلك الموسم.

حادثة قتل عمر:

قال الطنطاويان وغيرهما: سأذكر حادثة القتل نقلاً عن المؤرخين هذا التفصيل، والمؤرخون منهم من تَوسَّعَ في الشرح ومنهم من اختصر، ويكفينا أصل الخبر في صحيح البخاري، وذكره ابن سعد في «الطبقات»، وذكره المحب الطبري في «الرياض النضرة في مناقب العشرة»، وصاحب «أسد الغابة»، وابن الجوزي، وتاريخ أبي الفداء، ودول الإسلام، وغيرها مع اختلاف في الروايات، ننقل أصحَّها إن شاء الله تعالى.

قال عمرو بن ميمون: - راوي الحديث كما في فتح الباري شرح صحيح البخاري: إني لقائمٌ – أي في الصف ننتظر صلاة الصبح – ما بيني وبين عمر إلا ابن عباس، وكان عمر إذا مرَّ بين الصفين، قال: استووا فإذا استووا تقدم فكبر، وفي رواية – حتى إذا لم ير خللاً فيهم تقدم وكبر – وما منعني أن أكون في الصف الأول إلا هيبة عمر وكان رجلاً مهيباً، وكنت في الصف الذي يليه، وكان عمر لا يكبر حتى يستقبل الصف المتقدم بوجهه، فإن رأى رجلاً متقدماً من الصف أو متأخراً ضربه بالدرة، فذلك الذي منعني منه – أي من الأول – فربما قرأ بسورة يوسف أو النمل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس. قال عمرو بن ميمون: فما هو إلا أنه كبر حتى سمعته يقول: قتلني أو أكلني الكلب حين طعنه، وجاء الطعن في خاصرته وفي كتفه، وكانت ستَّ طعنات.

قال عمرو بن ميمون: فطار العِلْجُ بسكين ذات طرفين لا يمرُّ على أحد يميناً ولا شمالاً إلا طعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً، مات منهم تسعة أو سبعة، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه بُرنُساً له ليأخذه، فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه – العلج هو الواحد من كفار العجم –.

قال الراوي: وتناول عمر يد عبدالرحمن بن عوف فقدمه للصلاة بالناس فأما من يلي عمر فقد رأى الذي رأيت، وأما نواحي المسجد فإنهم لا يدرون ما الأمر إلا أنهم فقدوا صوت عمر

وهم يقولون: سبحان الله! سبحان الله! فصلى بهم عبدالرحمن بن عوف صلاة خفيفة صلى بهم بأقصر سورتين في القرآن ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾[1] و﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾[2] ، ثم غلب على عمر النزف حتى غشي عليه، فاحتمله رهط حتى أدخله بيته فلم يزل في غشيته حتى أسفر، فنظر في وجوهنا وقال: أصلى الناس؟ فقلت: نعم. قال: لا إسلام لمن ترك الصلاة. ثم توضأ وصلى، وفي رواية ابن سعد: فتوضأ وصلى وقرأ في الركعة الأولى سورة العصر، وفي الثانية، قل يا أيها الكافرون، وتساند إليّ – إلى عمرو بن ميمون – وجرحه يَثْغَبُ دماً، إني لأضع إصبعي الوسطى فما تسد الجرح.

قال عمرو بن ميمون: رأيت عمر لما طُعنَ، عليه ملحفة صفراء، قد وضعها على جرحه، وخرَّ وهو يقول: وكان أمر الله قدراً مقدورا.

قال الراوي: فلما انصرفوا قال عمر لابن عباس – وكان يحبه ويُدْنيه – يا ابن عباس، اخرج فَسَلْ مَن قتلني، فخرجت من باب الدار، فإذا الناس مجتمعون، فقلت: من طعن أمير المؤمنين؟ قالوا: طعنه عدو الله أبو لؤلؤة غلام المغيرة الصّنعُ، ثم طعن معه رهطاً، ثم قتل نفسه، فجال ابن عباس ساعة ثم عاد إلى عمر، قال ابن عباس: رجعت فإذا عمر يمدني في النظر، يستأني خبرَ ما بعثني إليه، فقلت: غلام المغيرة بن شعبة، قال عمر: الصنعُ؟ قلت: نعم، قال: قاتله الله، لقد أمرتُ به معروفاً ثم قال: الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجُّني عند الله بسجدة سجدها له قط، وفي البخاري: الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدعي الإسلام.

وفي رواية أبي إسحق: فقال عمر: يا ابن عباس اخرج فناد بالناس: أَعَنْ ملأٍ منكم كان هذا؟ فقالوا: معاذ الله ما علمنا وما أطلعنا، وكان عمر يظن أنه مقصر مع الناس في أمر لا يعلمه فدعا ابن عباس فأمره بذلك. فخرج ابن عباس لا يمر بملأ من الناس إلا وهم يبكون، فكأنما فقدوا أبكار أولادهم. قال ابن عباس: فرأيت البِشْرَ في وجهه، وكان مما قاله رضي الله عنه: ما كانت العرب لتقتلني، ثم قال لابن عباس: قد كنت أنت وأبوك – أي العباس – تحبان أن يكثر العلوج في المدينة كنت أريد ألا يدخلها علج فغلبتموني، وكان العباس أكثرهم رقيقاً. فقال عبدالله بن عباس: إن شئت فعلنا، قال عمر: كذبتَ – أي أخطأت – لأنَّ أهل الحجاز يقولون كذبت في

(١) الكوثر: ١.

(٢) النصر: ١.

موضع أخطأت -. بعدما تكلموا بلسانكم وصَلّوا قبلتكم، وحجوا حجكم.

وكان ابن عباس يقصد العلوج الذين لم يسلموا، فظن عمر أنه يقصد كل الأعاجم، وعمر قال له ذلك لما عُرِفَ من شدته في الدين، ولعلمه أن المسلم لا يحل قتله.

ثم حُمِلَ إلى بيته ودخل عليه الناس، وقال المهاجرون والأنصار البدريون: والله لوددنا أن الله زاد في عمره من أعمارنا.

قال الراوي: لما حمل إلى بيته انطلقنا معه، وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ، فقائل يقول: لا بأس، وقائل يقول: أخاف عليه. فأُتي بنبيذ – المراد بالنبيذ تمرات نُبذت في الماء، أي نُقعت به، كانوا يفعلون ذلك، لاستعذاب الماء، فأمره الطبيب – وكان طبيباً من العرب – أن يشرب هذا المنقوع فشرب فخرج من جوفه مختلطاً بالدم، قال ابن عباس: فدعوت طبيباً من الأنصار فسقاه لبناً فخرج اللبن من الطعنة التي تحت السرة أبيض، فقال الطبيب: اعهدْ يا أمير المؤمنين، فقال عمر: صدقني، ولو قال غير ذلك لكذَّبْتُهُ، فعرف أنه الموت، فقال: (الآن لو أن لي الدنيا كلها لافتديتُ به من هول المطلع، وما ذاك والحمد لله أن أكون رأيت إلا خيراً). وكان كل ما يشغل باله الخوف من الحساب.

قال المؤرخون: لما طعن قال له ابن عباس، وكأنه يُجزِّعُهُ – يزيل خوفه من الحساب – يا أمير المؤمنين! ولئن كان ذلك، لقد صحبتَ رسولَ الله ﷺ فأحسنتَ صحبته، ثم فارقته وهو عنك راض، ثم صحبت أبا بكر، ثم أحسنت صحبته، ثم فارقته وهو عنك راض، ثم صحبت صحبتهم فأحسنت صحبتهم، ولئن فارقتهم لتفارقنهم وهم عنك راضون.

قال عمر: أما ما ذكرت من صحبة رسول الله ﷺ ورضاه عني فإنما ذاك مَنٌّ من الله تعالى منَّ به عليَّ، وأما ما ذكرت من صحبة أبي بكر ورضاه عني فإنما ذلك منٌّ من الله جل ذكره منَّ به عليَّ، وأما ما ترى من جزعي فهو من أجلك وأجل أصحابك، والله لو أن لي طِلاعَ الأرض – أي مِلْأَها – ذهباً، لافتديتُ به من عذاب الله عز وجل قبل أن أراه.

وروي: أنه قال له: أبشر يا أمير المؤمنين: أسلمت مع الرسول ﷺ حين كفرَ الناس، وقاتلت معه حين خذله الناس، ولم يختلف في خلافتك رجلان، وقتلت شهيداً، فقال عمر: أَعِدْ، فأعاد، فقال: (المغرور من غررتموه، لو أن لي ما على ظهرها من بيضاء وصفراء لافتديتُ به من

هول المطلع).

قال القسطلاني: وإنما قال عمر ذلك لغلبة الخوف، لغلبة خوفه من التقصير فيما يجب عليه من حقوق الرعية، ومن الفتنة بمدحهم.

ومن جملة ماقاله ابن عباس لعمر: أبشر بالجنة يا أمير المؤمنين، صحبت رسول الله ﷺ فأطلت صحبته ثم وليت فعدلت وأديت الأمانة. فقال عمر: تُبشِّرون إياي بالجنة؟ فوالله الذي لا إله إلا هو، ولو أن لي ما بين السماء والأرض، لافتديتُ به ما هو أمامي قبل أن أعلم الخبر، وأما ما ذكرت من أمر المسلمين فوالله لوددتُ أني نجوت منها كفافاً لا لي ولا علي، وأما ما ذكرت من صحبة رسول الله ﷺ فذاك – وروي عنه أنه قال: أبالأمارة تُزكُّونني؟ لقد صحبت رسول الله ﷺ وهو عني راض، وصحبت أبا بكر فسمعتُ وأطعت، وتوفي وأنا سامع مطيع له، وما أصبحت أخاف على نفسي إلا إمارتكم هذه.

وورد عن ابن عباس قال: لما طعن عمر رضي الله عنه، دخلت عليه فقلت: أبشر يا أمير المؤمنين، فقد مَصَّر الله بك الأمصار، ودفع بك النفاق، قال عمر: أفي الإمارة تثني عليّ يا ابن عباس؟ قلت: وفي غيرها، قال: والذي نفسي بيده لوددت أني خرجت منها كما دخلت فيها لا أجرَ ولا وِزْرَ.

ويروي ابن عباس قال: دخلت مع عليّ رضي الله عنه على عمر، وكانت أم كلثوم مع نسوة يبكين معها، فقال عمر: والله لو أن لي ما على الأرض من شيء لافتديت به من هول المطلع، قال ابن عباس: فقلت له: والله إني لأرجو أن لا تراها إلا مقدار ما قال الله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ ﴿٧١﴾ ﴾(١)، إن كنت – ما علمنا – لأميرَ المؤمنين، وأمين المؤمنين، وسيد المؤمنين، تقضي بكتاب الله، وتقسم بالسوية، قال ابن عباس: فأعجبه قولي، فاستوى جالساً فقال: أتشهد بذلك لي يا ابن عباس؟ فكففتُ، فضرب على كتفي فقال: اشهدْ لي يا ابن عباس؟ قلت: نعم، أنا أشهد.

وفي رواية أخرى، أن ابن عباس قال لعمر: لقد كان إسلامك غزاً، وإمارتك فتحاً، ولقد ملأت الأرض عدلاً، فقال عمر: أتشهد لي بذلك يا ابن عباس؟ - قال المؤرخون: فكأنَّ ابن عباس كره ذلك، وكان إلى جانبه عليُّ بن أبي طالب، قال ابن عباس: فقال لي علي: قل نعم وأنا

---

(١) مريم: ٧١.

معك. فقال عمر: الحمد لله.

وفي «فتح الباري»: أن الناس كانوا يدخلون على عمر وهو مصاب فكانوا يثنون عليه، وكان ممن دخل عليه المغيرة فأثنى عليه وقال له: هنيئاً لك الجنة، وكان يجيب بمثل جوابه الأول: وَدِدْتُ أن ذلك كفافٌ لا لي ولا عليَّ، ثم دخل عليه الصحابة، ثم أهل المدينة، ثم أهل الشام، ثم أهل العراق، وكلما دخل عليه قوم بكوا وأثنوا عليه.

قال: وجاء رجل شاب من الأنصار ودخل عليه وقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك، من صحبة رسول الله ﷺ، وقِدَمٍ في الإسلام ما قد علمت، ثم وُلِّيتَ فعدلتَ، ثم شهادة. قال عمر: وددت أن ذلك كفاف لا علي ولا لي، فلما أدبر الشاب إذا إزاره يمس الأرض، قال عمر: ردُّوا عليَّ الغلام، فردوه. قال عمر: يا ابن أخي، ارفع ثوبك، فإنه أبقى لثوبك وأتقى لربك، وفي رواية: أنقى لثوبك.

قال العلماء: لم يشغل عمر ماهو فيه من الموت عن الأمر بالمعروف.

وقال عبدالله بن عباس: يرحم الله عمر، لم يمنعه ما كان فيه – من الموت – من قول الحق.

ويروي المؤرخون: أنه لما قصَّ المسلمون على الحسن البصري ما فعله عمر عند موته وخشيته من ربه قال: هكذا المؤمن يجمع إحساناً وشفقةً، والمنافق جمع إساءةً وعزةً، والله ما وجدت إنساناً ازداد إحساناً إلا وجدته ازداد مخافةً وشفقةً، ولا ازداد إساءةً إلا ازداد عزة.

ساعات عمر رضي الله عنه الأخيرة:

حرصه على وفاء دينه الذي كان أكثره قد صرف في مصلحة المسلمين: فقد روى البخاري من حديث عمرو بن ميمون، بعد أن ذكر دخول الشاب الأنصاري على عمر وثنائه عليه، وكيف بشَّره، وكيف أن عمر رأى أن ثوب ذلك الشاب يمس الأرض، فقال له ياابن أخي، ارفع ثوبك فإنه أنقى لثوبك، وأتقى لربك.

قال راوي الحديث: ثم التفت عمر إلى ابنه عبدالله بن عمر وقال له: ياعبدالله بن عمر! انظر ماعليَّ من دَيْن؟ فحسبوه فوجدوه ستةً وثمانين ألفاً من الدراهم أو نحوه، قال: إنْ وفَّى به مالُ آلِ عمر فأَدِّه من أموالهم، وإلا فاسأل بني عدي فيه، فإن لم تف أموالهم فاسأل فيه قريشاً ولا تَعْدُهم إلى غيرهم، فأدِّ عني هذا المال. فقال عبدالرحمن بن عوف: ألا تستقرضها من بيت

المال حتى تؤديها؟ فقال عمر: معاذ الله أن تقول أنت وأصحابك بعدي، أما نحن فقد تركنا نصيبنا لعمر، فتغرُّوني بذلك – أي تكرمون عليَّ – فتتبعُني تِبعَتهُ فأقع في أمر لا ينجيني إلا المخرج منه، ثم قال لولده عبدالله بن عمر: اضمنها،فضمنها، فلم يدفن عمر حتى أشهدَ بها ابنُ عمر على نفسه أهل الشورى وعدَّةً من الأنصار، وما مضت جمعة حتى حمل المال إلى عثمان وأحضر الشهود على البراءة بدفعه.

ثم قال لابنه عبدالله – انتبه ياعبدالله – استأذن لي عائشة أن أُدفن في بيتها.

قال المؤرخون: قال عمر لولده عبدالله، انطلق إلى عائشة أم المؤمنين، فقل: يقرأ عليك عمر السلام، ولا تقل أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين بأمير، وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه.

قال ابن التين في كتابه «المحبر الفصيح في شرح البخاري الصحيح»:

إنما قال هذه العبارة لتعلم عائشة أن طلب عمر ليس أمراً، ولأنه تيقن من الموت.

قال المؤرخون: فمضى عبدالله وسلم واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي، فسلم عليها وقال: يُقرئك عمر السلام، ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه، قالت: كنت أريده لنفسي ولأُوثِرنَّه اليوم على نفسي.

فلما أقبل قيل لعمر: هذا عبدالله بن عمر قد جاء، قال عمر عندها: ارفعوني، فأسنده رجل إليه، فقال لولده: ما لديك؟ قال ولده: الذي تحب يا أمير المؤمنين، أَذِنتْ، قال: الحمد لله، ما كان شيء أهم إلي من ذلك المضجع، يا عبدالله بن عمر، انظر فإذا أنا قبضت فاحملوني على سريري ثم قف بي على الباب – باب عائشة – فقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت لي فأدخلني، وإن ردتني فردني إلى مقابر المسلمين، فإني أخشى أن يكون إذنها لي لمكان السلطان.

قال المؤرخون: فلما مات وحُملَ إلى باب عائشة فكأن المسلمين لم تصبهم مصيبة إلا يومئذ، فأذنت له فدفن حيث أكرمه الله مع النبي ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه، وجاءت حفصة أم المؤمنين بنت عمر فقالت: يا صاحب رسول الله، يا صهر رسول الله يا أمير المؤمنين.

فقال عمر: لا صبر لي على ما أسمع، أُحرِّجُ عليك بما لي عليك من حق أن تندبينني بعد مجلسك هذا، فأما عينيك فلن أملكهما. فدخلت إلى الدار، ثم قالوا لعمر: أوصِ يا أمير المؤمنين،

استخلفْ، ولكن عمر كان مصراً على عدم الاستخلاف.

وهاهو ابن عمر يروي لنا ذلك، قال ابن عمر: قالت لي حفصة، أعلمت أن أباك غير مستخلف؟ قلت: ما كان ليفعل، فقالت: إنه فاعل – أي لن يستخلف –، فحلفت أن أكلمه في ذلك، فغدوت عليه ولم أكلمه فكنت كأنما أحمل بيميني جبلاً حتى رجعت فدخلت عليه، فسألني عن حال الناس وأنا أخبره، ثم قلت له: إني سمعت الناس يقولون مقالة، فآليتُ أن أقولها لكَ، زعموا أنك غير مستخلف، أرأيت لو أنك بعثت إلى قَيّم أرضك ألم تكن تحب أن يستخلف مكانه حتى يرجع إلى الأرض؟ قال عمر: بلى قلت: أرأيت لو بعثت إلى راعي غنمك، ألم تكن تحب أن يُستخلف راجلاً حتى يرجع؟ فماذا تقول لله عز وجل إذا لقيته ولم تستخلف على عباده؟ فأصابه كآبة ثم نكس رأسه طويلاً ثم رفع رأسه وقال: إن الله حافظ الدين، وأيَّ ذلك أفعل فقد سُنَّ لي، إنْ لم أستخلف فإن رسول الله ﷺ لم يستخلف، وإن استخلفت فقد استخلف أبو بكر.

هنا فهم عبدالله بن عمر شيئاً فقال: علمتُ أنه لا يعدل أحد رسول الله ﷺ وأنه غير مستخلف.

قال المؤرخون: استمر اهتمام الفاروق بوحدة الأمة ومستقبلها حتى اللحظات الأخيرة من حياته، رغم ما كان يعانيه من جراحاته وآلامه، وقد استطاع الفاروق في تلك اللحظات الحرجة أن يبتكر طريقة جديدة في اختيار الخليفة الجديد، وهذه الطريقة كانت دليلاً ملموساً على فقهه في سياسة الدولة الإسلامية كما يقول الصلابي في كتابه.

لقد مضى قبله الرسول ولم يستخلف أحداً بعده بنص صريح، ومضى أبو بكر واستخلف عمر بعد مشاورة كبار الصحابة، ولما طلب من عمر أن يستخلف وهو في الساعات الأخيرة، سلك مسلكاً آخر يتناسب مع المقام، فرسول الله ﷺ ترك الناس وكلهم مقرٌ بأفضلية الصديق، فاحتمال الخلاف في أمره نادرٌ خصوصاً وأن النبي وجَّه الأمة قولا وفعلاً إليه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والصديق لما استخلف عمر كان يعلم أن عند الصحابة جميعاً قناعةً بأن عمر أقوى وأقدر وأفضل من يحمل المسئولية بعده، فاستخلفه بعد مشاورة كبار الصحابة، وحصل الإجماع على بيعة عمر.

وأما طريقة انتخاب الخليفة الجديد فتعتمد على جعل الشورى في عدد محصور، وهذا

الذي فعله عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال أبورافع: كنت عند عمر بن الخطاب بعد أن طعن وكان مستنداً إلى ابن العباس وعنده ابن عمر وسعيد بن زيد فقال عمر: علموا أني لم أستخلفْ بعدي أحداً، فقال سعيد بن زيد: إنك لو أشرت برجل من المسلمين ائتمنك الناسُ، فقال عمر: إني جاعل هذا الأمر إلى هؤلاء النفر الستة الذين مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، فقال رجلٌ: هو المغيرة بن شعبة أدُلُّكَ عليه، – عبدالله بن عمر – قال عمر: قاتلك الله! والله ما أردت الله بهذا، ولا أَرَبَ لنا في أموركم وما حمدتها فأرغب فيها لأحدٍ من أهل بيتي، إن كان خيراً فقد أصبنا منه، وإن كان شراً فبحسب آل عمر أن يحاسبَ منهم رجل واحد ويُسأل عن أمر أمة محمد ﷺ، أما لقد جهدت نفسي، وحرمت أهلي، وإن نجوت كفافاً لاوزر ولا أجر إني لسعيد.

قال المؤرخون: وجعلها عمر شورى في ستة من أصحاب رسول الله ﷺ، كلهم بدريون، وكلهم قد توفي عنهم رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، وكلهم يصلحون لتولي الأمر وإن كانوا يتفاوتون، وحدَّدَ لهم طريقة الانتخاب ومدته وعدد الأصوات الكافية لانتخاب الخليفة وحدَّدَ الحَكَمَ في المجلس والمرجع إن تعادلت الأصوات، وأمر مجموعة من جنود الله لمراقبة سير الانتخاب في المجلس وعقاب كل من يخالف، ومنع الفوضى بحيث لا يسمحون لأحدٍ يدخلُ أو يسمعُ ما يدور في مجلس أهل الحلِّ والعقد.

أما العدد الذي حدده للشورى وأسماءهم فهو ستة وهم: علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، واستبعد سعيد بن زيد بن نفيل وهو من العشرة المبشرين بالجنة، لماذا؟ لأنه من قبيلة بني عدي كما في «البداية والنهاية».

أما طريقة الانتخاب: فقد أمرهم أن يجتمعوا في بيت أحدهم ويتشاوروا ويحضرهم عبدالله بن عمر مشيراً فقط، وليس له من الأمر شيء، ويصلي بالناس أثناء ذلك صهيب الرومي، وأمر المقداد بن الأسود وأبا طلحة الأنصاري أن يراقبا سير الانتخابات.

مدة المشاورة: حددها عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بثلاثة أيام، لأنَّ الأمر إذا طال دل على وجود مخالفات وغبار، ولذلك كان مما قاله لهم: لا يأتي اليوم الرابع إلا وعليكم أمير.

أما عدد الأصوات الكافية لاختيار الخليفة: فقد أخرج ابن سعد في «طبقاته» ٣/ ٣٤٢ بسند رجاله ثقات أن عمر قال لصهيب الرومي: صلِّ بالناس ثلاثاً وليخلُ هؤلاء الرهط في بيتٍ فإذا اجتمعوا على رجل فمن خالفهم فاضربوا رأسه.

فعمر أمر بقتل من يريد أن يخالف هؤلاء الرهط الستة، ويشقَّ عصا المسلمين ويفرق بينهم عملاً بقوله ﷺ في صحيح مسلم: «من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد منكم، يريد أن يشقَّ عصاكم، أو يفرق جماعتكم فاقتلوه». وجعل مجموعة من جند الله تراقب الانتخابات وتمنع الفوضى.

فقد استدعى عمر أبا طلحة الأنصاري قبل أن يموت بساعة فقال له: يا أبا طلحة إن الله عز وجل أعز الإسلام بكم فاختر خمسين رجلاً من الأنصار فاستَحِثَّ هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم.

وقال للمقداد بن الأسود: إذا وضعتموني في قبري فاجمع هؤلاء الرهط في بيتٍ حتى يختاروا رجلاً منهم.

هنا أُشير إلى ملاحظة:

وهي أن بعض الروايات التاريخية التي لم تَصِحَّ سنداً، بل هي من الروايات الغريبة، وبخاصة عندما نعلم أن الذي رواها وساقها مؤرخٌ من أهل البدع والروافض يقال له – أبو مخنف – وخلاصتها أن عمر قال لصهيب: وقم على رؤوسهم – أي أهل الشورى الستة – فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحدٌ فاشدخ رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعةٌ فرضوا رجلاً منهم وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما.

فانظر إلى هذا التبديل في العبارة بين قوله لصهيب: فمن خالفهم – أي الستة – فاضربوا رأسه، وهي الرواية الصحيحة، وهذه الروايات التي رواها أبو مخنف هي المنكرة عند المحققين.

قال المؤرخون: ثم دعا عمر الرهط، فدخلوا عليه، وكان طلحة غائباً في أراضيه بالسَّراة – وهي أرض مرتفعة قرب الطائف – فدخلوا عليه فقال: إني نظرت في أمر الناس فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم، وقد قُبِضَ رسول الله ﷺ وهو عنكم راضٍ، ثم قال: إن قومكم يُؤمّرون أحدكم أيها الثلاثة: لعبدالرحمن بن عوف وعثمان وعلي، ثم

قال لعلي: اتق الله يا عليُّ، إن وُلِّيتَ شيئاً من أمور المسلمين فلا تحملنَّ بني هاشم على رقاب الناس، ثم نظر إلى عثمان وقال: اتق الله، إن وليت شيئاً من أمور المسلمين فلا تحملنَّ بني أمية – أو قال بني أبي معيط – على رقاب المسلمين، ثم قال لعبدالرحمن بن عوف: وإن كنت على شيء من أمر الناس يا عبدالرحمن فلا تحمل ذوي قرابتك على رقاب الناس، ثم قال: قوموا فتشاوروا فأمِّروا أحدكم.

فلما خرجوا من عنده قال عمر: لو ولّوها الأجلح لسلك بهم الطريق.- والأجلح هو من انحسر شعره عن جانبي الرأس – ويعني علياً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فقال له ابن عمر: فما يمنعك يا أمير المؤمنين أن تقدم علياً؟ قال: أكره أن أحملها حياً وميتاً، ثم التفت إلى عبدالله بن عمر ولده فقال له: إذا أنا مت فأغمضني واقصد في كفني، فإن إن كان لي عند الله خير أبدلني خيراً منه، وإن كنتُ على غير ذلك سلبني، واقصد في حفرتي فإنه إن كان لي خيراً عند الله وسَّع لي فيها مدَّ بصري، وإن كنت على غير ذلك ضيق عليّ حتى تختلف أضلاعي، أو أعضائي، ولا تخرج معي امرأة، ولا تزكوني بما ليس فيَّ فإن الله هو أعلم بي، وأسرعوا في المشي، فإن كان لي عند الله خير تقدموني إليه وإلا فشرٌّ تضعونه عن رقابكم.

وفي رواية ذكرها الطبري في حوادث سنة ثلاثٍ وعشرين قال: إن المسلمين لما أشاروا عليه أن يستخلف – وذلك قبل تعيين الستة قال: قد كنت أجمعت بعد مقالتي لكم – أنه لن يستخلف – أن أنظر فأُولِّي رجلاً أمركم، هو أحراكم أن يحملكم على الحق – وذكر علياً –. ورهقتني غشيةٌ فرأيت رجلاً دخل جنة قد غرسها، فجعل يقطف كل غضةٍ ويانعةٍ فيضمُّه إليه ويُصيّرُهُ تحته؛ فعلمت أن الله غالب أمره ومتوفٍ عمر، فما أريد أن أتحملها حياً وميتاً؛ عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله ﷺ فيهم (إنهم من أهل الجنة) فليختاروا منهم رجلاً؛ فإذا ولَّوا والياً فأحسِنوا مؤازرته وأعينوه إن ائتمَنَ أحداً فليؤد إليه أمانته، وخرجوا.

ولما عين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هؤلاء الستة للشورى، بدأت بوادر أهل الفتنة تهمس خفية.

فقد روى صاحب كتاب «الرياض النضرة» عن ابن عمر قال: لما طعن عمر وأمر بالشورى دخلت عليه حفصة ابنته فقالت: يا أبت إن أناساً يزعمون أن هؤلاء الستة ليسوا رضاً، فقال عمر: أسندوني، فلما أسندوه قال: فما عسى أن يقولوا في علي بن أبي طالب؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: يا علي: «يدك في يدي تدخل – يعني يوم القيامة – حيث أدخل».

وما عسى أن يقولوا في عثمان؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يوم يموت عثمان يصلي عليه ملائكة السماء)، قلت: يارسول الله عثمان خاصة أم الناس عامة؟ فقال ﷺ: (عثمان خاصة).

ما عسى أن يقولوا في طلحة بن عبيد الله؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول ليلة – وقد سقط رحله -: (من يُسَوِّي رحلي وهو في الجنة)، فبدر طلحة بن عبيد الله فسواه حتى ركب، فقال النبي ﷺ: (ياطلحة هذا جبريل يقرئك السلام ويقول أنا معك يوم القيامة حتى أُنجيك منها).

وما عسى أن يقولوا في الزبير بن العوام؟ رأيت رسول الله ﷺ وقد نام فجلس الزبير يذب عن وجهه حتى استيقظ فقال له النبي ﷺ: (يا ابا عبد الله لم تزل؟) فقال الزبير: لم أزل بأبي أنت وأمي! فقال ﷺ: (هذا جبريل يقرئك السلام ويقول: أنا معك يوم القيامة حتى أذبَّ عن وجهك شرَّ جهنم).

ما عسى أن يقولوا في سعد؟ سمعت رسول الله ﷺ يوم بدر وقد أوتر قوسه أربع عشرةَ مرةً فيدفعها له – لسعد – ويقول: (ارمِ سعدٌ فِداك أبي وأمي).

ما عسى أن يقولوا في عبد الرحمن بن عوف، وقد بعث بطعام إلى فاطمة وأولادها، فقال ﷺ: (كفاك الله أمرَ دنياك، وأما أمر آخرتك فأنا لها ضامن).

اللحظات الأخيرة من حياته رضي الله عنه:

وهذا عثمان بن عفان يحدثنا عن هذه اللحظات فيقول: أنا آخركم عهداً بعمر، دخلت عليه، ورأسه في حِجْر ابنه عبدالله بن عمر فقال له: ضع خدَّي بالأرض، قال ابنه: فهل فخذي والأرض إلا سواء؟ قال عمر: ضع خدي بالأرض لا أمَّ لك، في المرة الثانية أو الثالثة، ثم شبَّك بين رجليه، قال عثمان فسمعته يقول: ويلي، ويلَ أمي إن لم يغفرِ اللهُ لي، ويكرر ذلك حتى فاضت روحه.

فانظر رحمك الله، يا عبدالله إلى هذه الخشية لله تعالى حتى كان آخر كلامه الدعاء على نفسه بالويل إن لم يغفر الله له مع أنه مبشر من الصادق المصدوق بالجنة، ولكن كما قال الدكتور الصلابي: من كان بالله أعرف كان من الله أخوفَ، وإصراره على وضع خده على الأرض استصغار لنفسه ليكون ذلك أقرب لاستجابة الدعاء.

تاريخ وفاته ومدة خلافته وسنه:

كانت وفاته لأربع بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، طعن يوم الأربعاء، ودفن

يوم الأحد بعد الطعن في الحرم سنه ٢٤ هـ، وكانت مدة خلافته عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام كما روى صاحب «الاستيعاب» ابن عبدالبر.

أما عمره: فأصحُّ الأقوال أنه كان عمره يوم توفي خمساً وستين سنة وثلاثة أشهر ونصفاً، لأنه ولد قبل حرب الفجار بأربع سنين.

غسله والصلاة عليه ودفنه:

غسله ابنه عبدالله بالماء والسِّدْر، وكفنه في ثلاثة أثواب، وصُلِّي عليه في مسجد رسول الله ﷺ، وصلى عليه صهيب بن سنان الرومي لأن عمر قد أوصى بأن يصلي صهيب.

قال المؤرخون: ولم يرشح عمر أحداً من الستة أهل الشورى للصلاة حتى لا يظن تقديمه للصلاة ترشيحاً له من عمر، كما أن صهيباً كانت له مكانته الكبيرة بين أصحاب النبي ﷺ وقد قال عمر فيه: نعم العبد صهيب لو لم يَخَفِ الله لم يَعْصِه.

قال العلماء: وقد استبقَ عليٌ وعثمان للصلاة عليه، فقال عبدالرحمن بن عوف: إن هذا لهو الحرص على الإمارة ماهذا إليكما، ولقد أمرَ به غيرَكما . فتقدمْ يا صهيب فصلِّ عليه، فتقدم صهيب فصلى.

قال ابن سعد: سأل عليٌ بن الحسين سعيد بن المسيب: من صلى على عمر؟ قال سعيد: صهيب، قال: كم كَبَّرَ عليه؟ قال: أربعاً، قال: أين صلى عليه؟ قال: بين القبر والمنبر.

دفنه رضي الله عنه:

فقد دفن في الحجرة النبوية، ونزل في قبره عثمان وسعيد بن زيد، وصهيب وولده عبدالله بن عمر.

قال ابن سعد: جُعلَ رأس أبي بكر عند كتفي النبي ﷺ، ورأس عمر عند حقوي النبي ﷺ.

وورد عن القاسم قال: دخلت على عائشة فقلت: ياأمَّه اكشفي لي عن قبر النبي ﷺ وصاحبيه، فكشفت لي عن ثلاثة قبور لا مشرفةٍ ولا لاطئةٍ مبطوحةٍ، ببطحاء العَرَصة الحمراء، وكان رسول الله ﷺ مقدَّماً، وأبوبكر عند رأسه، وعمر عند رجليه، رأسه عند رجلي رسول الله ﷺ.

قالت عائشة: مازلت أضع خماري وأتبذل في ثيابي وأقول: إنما هما زوجي وأبي حتى دفن عمر بن الخطاب فيه، فلم أزل متحفظة في ثيابي حتى بنيت بيني وبين القبور جداراً فتفضَّلت في ثيابي بعد.

قال هشام بن عروة: لما سقط قبر النبي ﷺ في زمن الوليد بن عبدالملك أخذوا في بنائه فبدت لهم قدم ففزعوا وظنوا أنها قدم النبي ﷺ فما وجدوا أحداً يعلم ذلك حتى قال لهم عروة ابن الزبير: لا والله، ماهي قدم النبي ﷺ ماهي إلا قدم عمر.

وقد ذكر ابن الجوزي: أنه لما جاء نعي عمر للناس يوم وفاته، وكانوا يقولون: - كأنَّ القيامة قد قامت – ولما مات عمر وصنعت الموائد فكفَّ الناس عن الطعام.

فقال العباس: يا أيها الناس! إن رسول الله ﷺ قد مات فأكلنا بعده وشربنا، ومات أبوبكر فاكلنا، فإنه لا بد للناس من الأكل والشرب، فمد يده فأكل فأكلت الناس.

ما قيل في رثائه:

يروي البخاري في فضائل الصحابة عن ابن عباس قال: وُضِعَ عمر على سريره فتكنَّفهُ الناس يدعون ويصلون، قبل أن يرفع، وأنا فيهم، فلم يَرُعْني إلا رجلٌ أخذ منكبي، فإذا عليٌّ بن أبي طالب، فترحم على عمر وقال: ما خلَّفتُ أحداً أحبَّ إلي أن ألقى الله بمثل عمله منك، وايم الله، إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك وحسبت أني كنت كثيراً أسمع النبي ﷺ يقول: ذهبت أنا وأبوبكر وعمر، ودخلت أنا وأبوبكر وعمر، وخرجت أنا وأبوبكر وعمر، فإني كنت لأرجو أو لأظن أن يجعلك الله معهما. صحيح مسلم كذلك وعن عبدالله بن عمر قال: وُضِعَ عمر بين المنبر والقبر، فجاء عليٌّ فوقف بين الصفوف فقال: هو هذا – ثلاثاً – ثم قال: رحمة الله عليك، مامن خلقِ الله أحدٌ أحب إليَّ من أن ألقاه بصحيفته بعد صحيفة رسول الله ﷺ من هذا الُسَجَّى عليه ثوبه، ثم قال: إذا ذُكِرَ الصالحون فحيهلاً بعمر.

وكان يكثر البكاء عليه عند موته فقيل له بذلك فقال: أبكي على موت عمر، إنَّ موت عمر ثُلمةٌ في الإسلام لا ترتقُ إلى يوم القيامة، واعمراه! مات نقي الثوب، قليل العيب.

وعن عبدالله بن عباس قال: رحمة الله على أبي حفص، كان مأوى الأيتام، ومحل الإيمان،

ومنتهى الإحسان، كان للحق حصناً، وللناس عوناً، وقوراً في الرخاء والشدة، شكوراً في كل وقت، فأعقب الله من يبغضه الندامة إلى يوم القيامة.

أما عبدالله بن مسعود فقد روى عنه أبو وائل قال: قدم علينا ابن مسعود فنعى عمر، فلم أرَ يوماً كان أكثر بالياً وحزيناً منه، ثم قال: لو أعلم عمر كان يحب كلباً لأحببته والله إني لأحسب أن العِضاه قد وَجَدَتْ فقدَ عمر.

وقال العباس: كنت جاراً لعمر فما رأيت أحداً من الناس كان أفضل من عمر، إن ليله صلاةٌ، وإن نهاره صيامٌ، وفي حاجات الناس.

أما أبو طلحة الأنصاري فقال: والله ما أهل بيت من المسلمين إلا وقد دخل عليهم في موت عمر نقصٌ في دينهم، أو ذلٌّ في معيشتهم.

أما حذيفة فقال: إنما كان الإسلام أيام عمر مثل امرئٍ مقبل لم يزل في إقبال، فلما قُتل أدبر فلم يزل في إدبار.

وقال عمرو بن العاص: لله در عمر بن حنتمة، أيُّ امرئ كان.

وقال عبدالله بن عمر: ما رأيت أحداً قط بعد رسول الله ﷺ من حين قبض أجدَّ ولا أجود من عمر.

وقال معاوية بن أبي سفيان: أما أبوبكر فلم يُرِدِ الدنيا ولم تُردْه، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يُردْها، وأما نحن فتمرَّغنا فيها ظهراً لبطن.

أما عبدالله بن سلام فقد جاء بعدما صلي على عمر، فقال: إن كنتم سبقتموني بالصلاة عليه، لا تسبقوني بالثناء عليه، ثم قام عند سريره فقال: نِعْمَ أخو الإسلام كنتَ يا عمر جواداً بالحق بخيلاً بالباطل، ترضى حين الرضا، وتسخط حين السُّخط، لم تكن مداحاً ولا مغتاباً، طيب الظرف، عفيف الطرف.

أما أم المؤمنين عائشة فقالت: من رآى عمر بن الخطاب علم أنه خلق غَناءً للإسلام، وكان والله أحوذياً نسيج وحده، وقد أعدَّ للأمور أقرانها(١).

---

(١) الأحوذي: الـمُشمِّرُ للأمور، القاهر لها. نسيج وحده: هو الرجل البارع الذي لا يسبقه أحد.

وقالت أم أيمن: يوم أُصيب عمر: اليوم وهى الإسلام.

وقال الحسن البصري: إذا أردتم أن يطيب المجلس فأفيضوا في ذِكْرِ عمر.

وقال: أيُّ أهل بيت لم يجدوا فقد عمرَ فهم أهلُ بيتِ سوء.

وممن رثاه عاتكة ابنة زيد بن عمر بن الخطاب قالت:

فجَّعنـــــي فيـــــروز لادَرَّ درُّهُ ... بأبيض تالٍ للكتـــــاب منيـب
رؤوفٍ على الأدنى غليظ على العدا ... أخي ثقةٍ في النائبات مجيـــــــب
متى ما يَقُــلْ لا يكذبُ القولَ فِعلهُ ... سريعٍ إلى الخيرات غيرِ قطـــوب

ومن شعرها أيضاً:

عينُ جودي بعبرةٍ ونحيـــــــب ... لا تَمَلّي علــــى الإمـــام النجيب
فجعتنا المنون بالفارس المعلَـم ... يوم الهيــــاج والتلبيـــــــب(١)
عصمةُ الناس والمعين على الدهر ... وغيثُ الـمُنتاب والمحــــروب(٢)
قُلْ لأهل السراء والبؤس موتوا ... قد سقته المنون كأس شعــــوب(٣)

وقالت امرأة مسلمة فيه:

سيبكيك نساء الحيّ يبكين شجيات
ويخمشن وجوهاً كالدنانير نقيـــات
ويلبسن ثياب الحزن بعد القصبيات

هل كان قتل عمر مؤامرة؟

والجواب، ما قاله المحققون، من المؤرخين، فقد ذكروا في مقتله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثلاثة اتجاهات.

الأول: ما رواه ابن سعد في «طبقاته» أن كعب الأحبار أخبر عمر أنه قرب أجله، وجاءه

---

(١) التلبيب: الضرب.

(٢) المحروب: المطعون.

(٣) الشعوب: الموت.

مرة وقال: اعهدْ يا أمير المؤمنين فإنك ميت بعد ثلاث، وزعم كعب أنه يجد هذه الأمور في التوراة.

وقد ردَّ المحققون هذه الرواية وقالوا: إنْ صَحَّتْ فيكون كعب الأحبار شريكاً في الجريمة ومن المتآمرين، ولكن الرواية واهية؛ لأنَّ التوراة الموجودة اليوم هي التي كانت موجودةً عند كعب الأحبار، وليس فيها – بل ولا يمكن أن يكون فيها – تاريخ موت عمر، وتعيين اليوم الذي مات فيه.

الثاني: ما رواه صاحب كتاب «الرياض النضرة» أن – عيينة بن حصن – أخبر عمر بأن أعجمياً سيطعنه، وأشار بيده إلى موضع الطعنة، فإن صحت الرواية فيكون عيينة شريكاً في الجريمة، ولكن المحققين ردوا هذه الرواية لأسباب أهمها أن سندها ليس بالقوي الذي يبعث على غلبة الظن كما قال الطنطاويان. والثاني أن عيينة بن حصن كان أعرابياً جلفاً جافياً، وكان يسمى الأحمق المطاع فلم يكن من المعقول أن يشارك في هذا السر، أو يطلع على المؤامرة، ولو كان قد حذر عمر فعلاً لكان أظهر ذلك بعد مقتله، وافتخر بأنه حذره، ولاهتمَّ بذلك الصحابة.

الثالث: وهو الذي ذكره ابن سعد والطبري، وهذا هو الخبر المهم، بل هو أهم من كل ما مرَّ في حادثة مقتل عمر رضي الله عنه.

روى الطبري عن سعيد بن المسيب أن عبدالرحمن بن أبي بكر قال غداة طعن عمر، مررتُ على أبي لؤلؤة قاتل عمر عشيَّ أمس؛ ومعه جفينة والهرمزان، وهم نجيٌّ، فلما باغتهم ثاروا، فسقط من بينهم خنجر له رأسان ونصابُهُ وسطُهُ، فانظروا ما الخنجر الذي قتل به عمر، وكان الذي قتل أبا لؤلؤة رجل من بني تميم وكان قد احتفظ بالخنجر، ولما أحضروا الخنجر وجدوه على الوصف الذي شهد به عبدالرحمن بن أبي بكر. فسمع بذلك عبيدالله بن عمر؛ فأمسك حتى مات عمر؛ ثم اشتمل على السيف بعد موت عمر، فأتى الهرمزان فقتله؛ فلما عَضَّه السيف قال: لا إله إلا الله.

قال عبيد الله بن عمر، ثم دعوت جفينة، وكان نصرانياً من نصارى الحيرة كان ظئراً لسعد بن مالك – سعد بن أبي وقاص أتى به إلى المدينة ليعلم الكتابة بالمدينة –، قال عبيدالله فلما عَلَوتُه بالسيف صَلَّبَ بين عينيه، ثم انطلق عبيدالله إلى ابنة صغيرة لأبي لؤلؤة فقتلها، وكانت تدّعي

الإسلام.

وأراد عبيدالله أن لايترك سبياً يومئذ بالمدينة إلا قتله، وبلغ ذلك صهيباً الرومي فأرسل إليه عمرو بن العاص، فلم يزل به وعنه، ويقول: السيف بأبي وأمي! حتى ناوله إياه. وقام إليه سعد بن أبي وقاص وجذبه من شعره حتى أضجعه إلى الأرض، وحبسه سعد في داره، فلما صار الأمر لعثمان، دعا المهاجرين والأنصار، وقال لهم: أشيروا عليَّ في قتل هذا الذي فتق في الإسلام ما فتق.

كان أكثر الناس مع عبيدالله بن عمر يقولون: أَبْعَدَ اللهُ الهرمزان وجفينة وأبا لؤلؤة، وقالوا للقلة من المهاجرين التي أرادت إقامة الحد على عبيدالله: أتريدون أن تُتبعوا عمرَ ابنه.

قال المؤرخون: ثم انتهى الأمر إلى الصلح ودفع الدية، فدفع عثمان دية الرجلين والجارية.

قال المؤرخون: وكان عبيد الله يومها كالليث الحَرِبِ.

قال محمود بن لبيد: ما كان عبيد الله يومئذ إلا كهيئة السَّبُعِ الحرِب

وجعل يعرضُ العجم بالسيف حتى حبس يومئذ في السجن، وكانت حفصة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ممن شجعت عبيدالله بن عمر أخاها على قتلهم، فقد قال عبد الله بن عمر أخوها: يرحم الله حفصة، فإنها ممن شجع عبيدالله على قتلهم.

وهنا نجد أنفسنا نقف مع الدكتور الوكيل! إذ يقول: أفتُرى عبيدالله هذا يترك كعبَ الأحبار المشتبه به ثم يقتل ابنة أبي لؤلؤة الصغيرة؟

والجواب: لا، وما أجمل قول الدكتور محمد السيد حسين الذهبي: حين قال: إن ما يعرف عن كعب الأحبار في دينه وخلقه، وتوثيق أخبار أصحاب الصحاح له، يجعلنا نجزم أن اتهامه تلفيق وكذب، وإنه مأمونٌ وثقة، وعالمٌ استُغلَّ اسمه في أخبار باطلة ليقبلها العوام والجهلة، ثم تواترت الأخبار أن كعب الأحبار كان واقفاً بباب عمر يبكي ويقول: والله لو أن عمر يقسم على الله أن يؤخره لأخره.

ثم هل كان كعب وحده العالم بالخبر في التوراة؟ ثم هل من طباع الناس أن يكشف الإنسان عن نفسه بنفسه فيقول لعمر: إنك ميت بعد ثلاث؟

أما ابن كثير، فأتى بحجة مقنعة تبرئ كعباً، فقال: إن تهديد أبي لؤلؤة كان عشية يوم

الثلاثاء، وأن الطعن كان يوم الأربعاء صباحاً، فالمسافة بينهما ساعات، فكيف يقول كعب لعمر في هذه الرواية المكذوبة ستموت بعد ثلاثٍ فأوصِ.

ثم إن كبارمؤرخي الإسلام لم يذكروها مما يدل على عدم ثبوتها.

فالثابت عند المؤرخين أنها مؤامرة مجوسية، يدل عليها تهديد العبد المجوسي لعمر حين قال له – لأصنعنَّ لك رحى يتحدثُ عنها الناس –.

كما يدلك مقتل عمر على مدى هذا الحقد، إذ هَبْ أن عمر كان قد ظلم المجوسي فما ذنبُ ثلاثة عشر صحابياً طار العلج بضربهم بخنجره، وعمر لما علم أن أبا لؤلؤة الذي طعنه قال: (قاتله الله، لقد أمرت به معروفاً، فالحمد لله الذي لم يجعل قتلي....).

ومما يؤكد هذه المؤامرة المجوسية ما ذكره الصلابي في كتابه «سيرة الفاروق» أن أحباب أبي لؤلؤة قاموا ببناء مشهد تذكاري على غرار الجندي المجهول في بلد معروف، يقول حسين الموسوي: من علماء العراق. – النجف –

واعلم: أن في مدينة «كاشان» في منطقة «باغي فين» مشهدَ قبرٍ وهمي لفيروز الفارسي أبي لؤلؤة قاتل عمر، وأطلقوا عليه: (مرقد بابا شجاع الدين) وهذا لقب أطلقوه على قاتل عمر، وقد كُتب على جدران هذا المرقد بغير العربية. مرك بر أبوبكر، مرك بر عمر، مرك بر عثمان، أي الموت لأبي بكر، الموت لعمر، الموت لعثمان.

ويقول السيد حسين الموسوي: وقد رأيت هذا المشهد بنفسي، حيث تُلقى فيه الأموال، وباشروا بتوسيعه.

والآن إليك بعض ثناء المعاصرين من أهل الفكر وآرائهم فيه:

قال الفحام شيخ الأزهر: إن عبقرية عمر الخالدة لا تزال تضيء لنا الطريق لحل مشكلات الحياة المختلفة، مع تَفوّقٍ سياسي عنده.

قال العقاد: إن هذا الرجل العظيم قد هدم نظرية العصر الحديث التي شاعت فيه عبادة القوة الطاغية، لئن عمر كان غاية في القوة والبأس وغاية في العدل والرحمة، وهذا الفهم دواء لداء العصر تقديس القوة الطاغية.

وقال المستشار علي علي منصور: إن رسالة عمر في القضاء أكمل ما وصلت إليه قوانين

المرافعات الوضعيّة، وقوانين استقلال القضاء.

وقال اللواء الركن محمود شيث خطاب: على رأس أسباب الفتوحات الإسلامية ما كان يتمتع به عمر من سجايا قيادية فذة لا تتكرر في الرجال إلا نادراً.

وقال المحمصاني: سيبقى اسم عمر مخلداً ولامعاً في تاريخ الحضارة والفقه.

والآن ننقل ما قاله بعض المستشرقين مما كتبه الصلابي:

قال – موير– في كتابه «الخلافة»، وكانت البساطة والقيام بالواجب من أهم مبادئه وكان شعوره بالعدل قوياً، وقد قيل فيه (إن درة عمر أشد من سيف غيره إلا أنه كان رقيق القلب).

وقال إيرفنج: في كتابه «محمد وخلفاؤه»: إن حياة عمر من أولها إلى آخرها تدل على مواهب عقلية عظيمة، وهو الذي ثبت رغبات النبي ونفذها.

وفي «دائرة المعارف البريطانية»: كان عمر حاكماً عاقلاً بعيد النظر.

وقال الدكتور مايكل هارت: إن مآثر عمر مؤثرة حقاً.

وفي الختام ننقل ما قاله صاحب كتاب «جولة في عصر الخلفاء الراشدين» قال: وقد طويت بوفاة هذا الخليفة الراشد صفحة من أنصع صفحات التاريخ وأنقاها، فقد عرفه التاريخ رجلاً فذاً، لم يكن همه جمع المال، ولم تَسْتهوهِ زخرفةُ السلطان، ولم تُمِلْ به عن جادة الحق سطوةُ الحكم، ولم يحمل أهله على رقاب الناس، بل كانت أعظم أمانيه سيادة الشريعة وأخص غاياته تحقيق العدالة، وقد حقق ذلك كله بعون الله في تلك الفترة الوجيزة التي لا تُعَدُّ في عمر الدول شيئاً مذكوراً.

فهل من مسترشد؟ وهل من متبع؟ وهل منا مَنْ يُعيدُ لهذه الأمة دورها الحضاري...

عثمان بن عفان

رضي الله عنه

المقدمة

قال أهل العلم والمؤرخون: إن معرفة عهد الخلافة الراشدة، ومنهاج النبوة خطوةٌ لا بد منها في تحقيق الأهداف التي تسعى أمتنا المسلمة لتحقيقها في هذه الحياة، وفي الحديث الصحيح أنه ﷺ قال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي».

إن تاريخ عصر الخلفاء الراشدين مليء بالدروس والعبر، وعلى هذه الأمة إذا أرادت العودة إلى قيادة البشرية.. أن تسير على هدي النبي وخلفائه الراشدين، فقد أخبرنا ﷺ في حديثٍ رجالهُ ثِقات قال ﷺ: «تكون النبوةُ فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهج النبوة، فتكون ماشاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ثم تكون ملكاً عاضاً فيكون ماشاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة».

فالصحابة – كما يقول الصلَّابي في كتابه «عثمان بن عفان» –، عصرهم خير العصور؛ لأنهم قاموا بتطبيق أحكام الإسلام، فتاريخهم هو الكنز الذي حفظ مُدَّخرات هذه الأمة في الفكر والثقافة والعلم والجهاد، والتعامل مع الشعوب والأمم، ثم يتابع المؤلف كلامه فيقول: إن التاريخ الإسلامي أصبح مرمىً لسهام أعداء الإسلام على مختلف عقائدهم، فهؤلاء الأعداء يحاولون أن يُوجِدوا فجوة في الإسلام وتاريخه الزاهر، لماذا؟ لكي يحدثوا عملية عزلٍ للأجيال عن الإسلام وعقيدته وتراثه العلمي.

لقد حاول المستشرقون، وأهل البدع الضالة، وأهل الرفض أن ينشروا كل رواية باطلة تُنقِصُ من شان الصحابة الكرام، وتطعن في تاريخ الأمة المجيد، وتصور تاريخه بأنه صراع على السلطان والنفوذ، لذلك يجب الحذر من كل ضال كاذب، ومستشرق حاقد، وعلماني جاهل، ومستغرب مقلد، ولا بد من الدفاع عن هذا التاريخ بالهجوم الشجاع على مناهج الكذابين والحاقدين، ويكون هذا الهجوم بقذائف الحق العلمية المملوءة بالحقائق الساطعة، والأدلة القاطعة، والبراهين الدامغة.

يقول مؤلف كتاب «الفتنة بين الصحابة» أرجو أن تتدبروا هذا الأمر– تشويه التاريخ؛ فإن التاريخ مملوء بالكذب والروايات الموضوعة المصنوعة، التي شككت كثيراً من الناس في حياة

أصحاب النبي ﷺ، فالتاريخ يحتاج إلى فهم دقيق، ووعي عميق في نقل الروايات.

هناك حقائق ينبغي أن ندركها، من هذه الحقائق أن التاريخ الإسلامي لم يُدوَّنْ إلا في عهد الدولة العباسية، وقام على تدوينه – كما قال الشيخ محمد حسان – وأنقل ما كتبه بتعريف بسيط ليتمكن السامع من الفهم الدقيق – **ثلاثُ طوائف**:

الطائفة الأولى: هي طائفة المنتفعين، الذين لا يخلو منهم زمان ولا مكان ممن يكتبون؛ ليأكلوا بأقلامهم، وهؤلاء شَوَّهوا تاريخ الأمويين؛ ليرضوا بهذا التشويه أمراء العباسيين.

الطائفة الثانية: هي طوائف محترفة من الخوارج والروافض، فالخوارج كفَّروا علياً ونسفوا تاريخه..

وجاءت الروافض فكتبوا تاريخاً جديداً – لا وجود له في الأمة – رفعوا علياً إلى مرتبة الألوهية، ونسفوا تاريخ الخلفاء، وأساؤوا إلى بيت النبوة.

الطائفة الثالثة: وهي طائفة الوسط من المؤرخين، من أهل السنة كالطبري وابن كثير، وابن الأثير، وابن عساكر، والذهبي، وابن هشام، وغيرهم عليهم رحمة الله تعالى.

هؤلاء الأئمة نقلوا في تاريخهم جميع الروايات بأسانيدها ليتبين كل باحثٍ في التاريخ صحة الرواية من عدم صحتها بالوقوف على سَنَدها وكانت ظروفهم حرجة.

ثم جاء من بعدهم مَنْ لايتقن هذا الفن – معرفة السند – من حيث صحته وصنفه، فنقل من هذه التركة الضخمة دون تمييز بين الخطأ والصواب لعدم تحقيقه للروايات، ظناً منه أن مجرد وجود الرواية في كتب هؤلاء الأئمة الأعلام دليل على صحتها، ولم ينتبهوا إلى أن الأئمة قد ذكروا سند كل رواية؛ للتعرف على صحتها من بطلانها، وهذا سبب رئيس في تشويه تاريخ أصحابه ﷺ.

هذا تأصيل مهم لا بد من معرفته جيداً حتى لا نَفتري على أطهر الخلق بعد الأنبياء والرسل، على صحابته ﷺ.

قال المؤرخون: كان موت النبي ﷺ قاصمةَ الظهر، ومصيبة العمر، فقد استأثر الله سبحانه بنبيه ﷺ، بعد أن أكمل له ولنا دينه وأتم عليه وعلينا نعمته، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ

وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴿٣﴾﴾[1].

والإكمال: أن يأتي الشيء على كماله، وكمال الشيء باستيفاء أجزائه – عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق – وقوله تعالى: ﴿أَكۡمَلۡتُ﴾ ، أي فلا نقص، وقوله: ﴿وَأَتۡمَمۡتُ﴾ فلا زيادة، وقوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴿٣﴾﴾ أي منهجاً.

فالله تعالى قال: أكملت، فلانقص، فاحذر أن تزيد، وقال: أتممت، فلا تستدرك على الله، وقال سبحانه: ورضيت، فمن خالف منهج الله، فقد غلَّب رضاه على رضا ربه سبحانه.

وما من شيء في الحياة الدنيا يكمل إلا وجاء والنقصان، وهذا ما حصل بعد الكمال للدين، وبعد إتمام النعمة بدأ النقص بوفاته ﷺ.

فقد ورد في حديث قال عنه الترمذي: حديث صحيح غريب، وقال عنه ابن كثير: اسناد صحيح على شرط الصحيحين عن أنس قال: (وما نفضنا أيدينا عن رسول الله ﷺ حتى أنكرنا قلوبنا).

اضطرب الحال بموته ﷺ فكانت قاصمة الظهر.

فهذا علي قد استخفى في بيته، وأما عثمان فسكت، وأما عمر فأهجر، فتدارك الله الإسلام والأنام، وانجابت الغمة بالصِّدِّيق.

قال المؤرخون: ثم استخلف الصديق عمر بن الخطاب، فظهرت بركة الإسلام ونفذَ وعد الله في الخليفتين، وهو وعد الله عز وجل في سورة النور ٥٥ قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾[2].

ثم جاء عمر فجعلها شورى، فأخرج عبدالرحمن بن عوف نفسه من الأمر حتى يتحرى فيمن يقدم، فقدم عثمان، وقد ذكر البخاري تقديم عثمان في حديثٍ هو أصح حديث ثبت في هذا الموضوع وأجوده.

---

(١) المائدة: ٣.

(٢) النور: ٥٥.

قال المؤرخون: قدم عبدالرحمن بن عوف عثمان بن عفان، فكان عثمان عند حُسْنِ الظن به، ما خالف وعداً، ولا نكث عهداً، ولا اقتحم مكروهاً، ولا خالف سنةً.

وما أجمل قول ابن تيمية في كتابه «منهاج السنة ج ٣ ص٢٣٣- ٢٣٤»: ناقلاً عن الإمام أحمد قوله: لم يتفق الناس على بيعةٍ كما اتفقوا على بيعة عثمان، وَلَّاهُ المسلمون بعد تشاورهم ثلاثة أيام، وهم مؤتلفون متفقون، متحابون متوادون معتصمون بحبل الله جميعاً، وقد أظهرهم الله، وأظهر بهم دين الحق، ونصرهم على الكفار ففتح بهم بلاد الشام والعراق.. وبعض خراسان.. فلم يعدلوا بعثمان غيره.

قال ابن تيمية في كتابه «منهاج السنة»: وجميع المسلمين بايعوا عثمان لم يتخلف عن بيعته أحد.

وقال أبو الحسن الأشعري: وثبتت إمامة عثمان بعد عمر بعقدِ مَنْ عقد له الإمامة من أصحاب الشورى، ورضوا بإمامته وأجمعوا على فضله وعدله.

وقال الحافظ بن كثير حاكياً لإجماع الصحابة على خلافة عثمان:

نهض عبدالرحمن بن عوف يستشير الناس، مثنى وفرادى ومجتمعين سراً وجهراً حتى خلص إلى النساء المخدرات في حجابهن..

وحتى سأل الولدان في المكاتب، وحتى سأل من يرد من الركبان والأعراب إلى المدينة في مدة ثلاثة أيام بلياليها، فلم يجد اثنان يختلفان في تقدم عثمان بن عفان، فسعى في ذلك ثلاثة أيام بلياليها لا يغمض له جفن، فهو في صلاة ودعاء واستخارة وسؤالٍ من ذوي الرأي عنهم، فلم يجد أحداً يعدل بعثمان.

ثم اجتمعوا في المسجد، وتمت البيعة لعثمان حيث وضع عبدالرحمن بن عوف يده في يد عثمان وقال: اللهم اسمع واشهد، اللهم اسمع واشهد، اللهم اسمع واشهد، اللهم إني جعلت مافي رقبتي من ذلك في رقبة عثمان.

قال المؤرخون: واجتمع الناس وزاحموا على عثمان يبايعونه حتى غشوه تحت المنبر، فقعد عبدالرحمن مقعد النبي ﷺ وأجلس عثمان تحته في الدرجة الثانية، وجاء الناس يبايعونه، وبايعه علي بن أبي طالب أولاً، وقيل ثانياً، كما ذكر صاحب «البداية والنهاية» في التاريخ.

قال المؤرخون: عندما بويع بالخلافة قام في الناس خطيباً فأعلن عن منهجه في سياسة الأمة مبيناً أنه سيتقيد بالكتاب والسنة وسيرة الشيخين أبي بكر وعمر، وبين في هذه الخطبة إلى أنه سيسوس الناس بالحلم والحكمة إلا فيما استوجبوه من الحدود، ثم حذرهم من الركون إلى الدنيا والافتتان بحطامها خوفاً من التحاسد والتنافس والتباغض بينهم، مما يفضي بالأمة إلى الفرقة والخلاف.

واسمع إلى هذه الخطبة الموجزة الرائعة، وكأنه ينظر إلى الغيب بستر رقيق يستكشف الفتن التي ستحدث في هذه الأمة بسبب الأهواء وتهالك الناس على الدنيا.. فتعال إلى الخطبة بعد البيعة.

ورد عن عون بن عبدالله بن عتبة بن مسعود الهذلي، تابعيٌّ ثقة أنه قال: خطب عثمان الناس بعدما بويع بالخلافة فقال: [أما بعد، فإني كُلِّفتُ وقد قبلت، ألا وإني متبعٌ ولست بمبتدع، ألا وإن لكم عليَّ بعد كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ ثلاثاً: اتباع مَنْ كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسننتم، وسنَّ أهل الخير فيما تَسنّوا عن ملأ، والكفّ عنكم إلا فيما استوجبتم العقوبة وإن الدنيا خضرةٌ وقد شُهِّيَتْ إلى الناس، ومال إليها كثير منهم، فلا تركنوا إلى الدنيا، ولا تثقوا بها، فإنها ليست بثقة، واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها]...

هذه رواية ابن عون، وهو تابعي ثقة وثقه النسائي وابن سعد وأحمد وابن معين والعجلي، وابن حبان، وترجم له ابن سعد والبخاري في «التاريخ الكبير»، وابن حجر، وابن أبي حاتم... أتيت بهؤلاء الأعلام لتعلم دقة الخبر وصحته، وأنها أخبار تفيد القطع.

وأنقلك الآن إلى الخبر نفسه مروياً عند أهل الأهواء:

فاسمع ما رواه صاحب كتاب «العقد الفريد لابن عبد ربه» قال: قام عثمان فخطب فأُرتجَ عليه فلم يدر ما يقول، حتى قال: يا أيها الناس إن أول مركب صعب وإن أعش فستأتيكم الخطبة على وجهها، وهذا إسناد كاذب للواقدي والواقدي متروك عند أهل التحقيق.

هنا نريد أن نقف على هذا الوصف الدقيق للدنيا لندرك مدى فهم عثمان العجيب لوظيفة المؤمن في الحياة، وأن له غاية أكبر من الدنيا، وكأنه بوصفه هذا يعيد لنا ما تكلم به مؤمن آل فرعون الذي وعظ قومه فقال لهم حين عتا فرعون وهامان والملأ وقد قص الله علينا قول هذا

المؤمن.. ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٣٨ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩ ﴾[1].

فعثمان بَيَّنَ للناس أن الدنيا ليسن غاية، وإنما هي مرحلة موصلة للغاية، مثل الطالب نعلمه ليأخذ شهادة الإعدادية مثلاً، فهل الإعدادية غاية؟ لا إنما هي مرحلة موصلة للثانوية، وكذلك المرحلة الثانوية موصلة لما بعدها، وهكذا.

فالشيء مادام له بعدٌ فليس بغاية – الغاية هي التي ليس لها بعد... –

لذلك قال لهم الرجل المؤمن: إن الدنيا كلها متاع مجرد، فهي متاع وليس غاية إنما الغاية الحقيقية التي يركن إليها، ويوثق بها هي الآخرة، وهي الجنة..

وانظر معي إلى ماقاله أهل العلم: قالوا: نحن نرى أن الإنسان له عمر في هذا الكون، عمره مُبْهم غير محدد، وهذا الإبهام عين البيان، لأنه سبحانه جعلنا نتوقعه حين أبهمه، وجعلنا ننتظره في كل لحظة وفي أي مكان، لذلك قال عبدالله بن المعتز: الموت سهم أُرسلَ إليك وهو في الطريق إليك، وعمرك بقدر سفره إليك.

والمتأمل في الكون كما قال العلماء يجد أن الخالق سبحانه خلق لك كوناً منسجماً يخدمك – شمس وقمر ونبات وماء – فانظر ياعبدالله يامن خُلقَتْ له هذه الأكوان، كيف تفنى أنت وتبقى هي، تموت أنت والشمس كما هي، والقمر وغيرهما...

لم يتغير في كون الله شيء.

حتى الماء الذي نظنه ينقص هو في الكون كما هو منذ خلقه الله لا يزيد ولا ينقص، حتى الوردة فإن الماء الذي فيها عند جفافها يعود إلى الأرض.

فالكون كله عبارة عن تغيرات في متحد.

وهنا سؤال يجب أن تطرحه على نفسك يا عبد الله، أيعقل أن يكون الخادم أطول عمراً من المخدوم؟

أموت ويبقى القمر والشمس التي تخدمني والتي خُلقت من أجلي؟

---

(١) غافر: ٣٨-٣٩.

والجواب: نعم لتعلم أن خادمك أطول عمراً منك في الدنيا مع أنك أنت يا أيها الإنسان المكرم المخدوم.

كيف ذلك؟

الجواب: لا بد إذن أن لي عمراً آخر يناسب هذا التكريم، عمراً يبقى بعد فناء هذه المخلوقات من شمس وقمر... وأبقى أنا، وهذا لا يكون إلا في الآخرة.

واسمع إلى قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾(1).

فالأرض هناك غير الأرض هنا؛ لأنَّ الأرض هنا أرض نُرزق فيها بالأسباب، أما حياة الآخرة فنحن نحياها بالمسَبّب، بمجرد الرغبة في الشيء يجده العبد قد تحقق، ففي الجنة لا أسباب، لذلك لا بد من تبديل الأرض كذلك السماء.

قال العلماء: من هنا ندرك هذا الفهم الدقيق لكلماتٍ معدوداتٍ قالها الخليفة الثالث بعد أن بويع بالخلافة، - هكذا كان فهم أصحاب النبي ﷺ أن الغاية هي الآخرة -

فإن آمَنَ العبد بهذه الحقيقة، فسيكون هو الأطول عمراً، حتى الموت نفسه سيموت

ويذبح، وتبقى أنت يا عبدالله الخالد لا تفوتك النعمة ولا يدركك الموت.

فالله يريد منا أن ننظر إلى الغاية، لا أن ننظر تحت أقدامنا لنعيش أياماً معدودات، وننسى الغاية الحقيقية، وهي الآخرة التي ليس بعدها بعدُ.

وإلى هذا أشارت الآية الكريمة: ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾(2).

والحيوان: هي صيغة مبالغة من الحياة، أي هي الحياة الحقيقية، وهذا الذي عناه عثمان بتحذير المسلمين من فتنة الدنيا والانشغال بها عن دار القرار.

---

(1) إبراهيم: ٤٨.

(2) العنكبوت: ٦٤.

عثمان بن عفان:

ونحن عندما نتكلم عن تراجم هؤلاء الرجال من أصحاب النبي ﷺ لا نقصد بذلك سرد الحوادث والوقائع، وإنما الهدف من التعريف بالنفس الإنسانية في حالة من أحوال العظمة العبقرية، أو حالة من أحوال النبل والأريحية، وقد نتجاوز هذا المقصد إلى مقصد أخر، وهو كيف كان الفكر الإسلامي قد أخرج بهؤلاء الرجال أطوار التاريخ الإنساني من عمى التيه والظلمة، وتسلَّك به مسلكاً بعيداً عن التخبط والضلال، ولكن الشيء الذي نحب أن نؤكده، وأن نلفت الدنيا كلها إليه إلى أن سيرة هؤلاء الأصحاب والخليفة الثالث عثمان بن عفان منهم، نمط من أنماطٍ متعددة زخرت بها الدعوة الإسلامية، خلفاء وغير خلفاء، فالصديق والفاروق، وعثمان، وعلي، وأبوعبيدة، وخالد وسعد... وأمثالهم من أصحاب النبي ﷺ ومن التابعين ما منهم إلا من كان عظيماً بمزية، وعلماً من أعلام التاريخ ولكن أين كان موضع هؤلاء من العظمة، ومن التاريخ الإنساني لولا العقيدة الإسلامية، ولولا الرسالة المحمدية – كما قال العقاد – ثم أيُّ باعثٍ يبعث الإنسان على التمسك بهذه الأخلاق والقيم إلا أن يكون عقيدةً وديناً وإيماناً، وأيُّ باعث غير ذلك لا قيمة له في ميزان القيم.

اسمه ونسبه:

هو عثمان بن عفان ابن أبي العاص بن أمية، يلتقي نسبه مع رسول الله ﷺ في عبد مناف.

أمه:

أروى بنت كُريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن مناف، وأمها أم حكيم البيضاء بنت عبدالمطلب، والبيضاء عمة رسول الله، فأروى أم عثمان هي ابنة عمة رسول الله ﷺ.

كنيته:

كان يكنى في الجاهلية أبا عمرو، فلما تزوج رقية بنت رسول الله ﷺ ولد له غلام سماه عبدالله، فكناه المسلمون أبا عبدالله.

لقبه:

فهو ذو النورين، وقد ذكر العيني وهو مؤرخ ومحدث وفقيه توفي سنة ٨٥٥ هـ في شرحه على صحيح البخاري: أنه قيل للمهلب بن أبي صفرة الأزدي من الأمراء الأبطال غزا الهند في

عهد معاوية توفي سنة ٨٢ هـ قيل له: لم قيل لعثمان ذو النورين؟ فقال: لأنا لا نعلم أحداً أرسل ستراً على بنتي نبيٍّ غيره.

وقال عبدالله بن عمر الجعفي: قال لي خالي – حسين الجعفي – يا بني، أتدري لم سمي عثمان ذا النورين؟ قلت: لا أدري، قال: لم يجمع بين ابنتي نبيّ منذ خلق الله آدم وإلى أن تقوم الساعة، غير عثمان فلذلك سمي ذا النورين. والخبر هذا في مرتبة الحسن .

ويرى بعض المؤرخين: أن هناك أسباباً أخرى جعلته يلقب بذي النورين، ومن ذلك، أنه يكثر من تلاوة القرآن في قيام الليل، فيجمع بين نور القرآن، ونور القيام، كما كان له سخاءان،أحدهما قبل الإسلام وبعده، وكذلك إذا كان يوم القيامة ودخل الجنة، فيستقبل فيها ببرقتين فسمي ذا النورين.

مولده:

الراجح أنه ولد بالطائف بعد عام الفيل بست سنين فهو أصغر من رسول الله ﷺ بخمس سنين.

صفته:

كان ربعةً ليس بالطويل ولا القصير، كَثَّ اللحية عظيمها، عظيم الكراديس – المفاصل – مشرف الأنف من أحسن الناس وجهاً، جُمَّتُهُ – مجتمع شعر الرأس – أسفل من أذنيه، وكان يُوتِّد أسنانه بالذهب، ويخضب لحيته، وربما تركها أحياناً بلا خضاب.

خلائقه:

فقد أجمع واصفوه على أنه كان عذبَ الروح حلو الشمائل محبباً إلى كل من يعرفه، حتى إن نساء قريش كنَّ عندما يُرَقِّصن أطفالهن يقلن للولد:

أحبك والرحمن حبَّ قريش لعثمان

مكانته في الجاهلية:

كان عريض الجاه، واسع الثراء، شديد الحياء، فكان قومه يوقرونه، لم يسجد في الجاهلية لصنم قط، ولم يقترف فاحشة قط، وكان يحرص أن لا يرى عورته.

وهاهو يصف لنا حياءه وخُلقهُ فيقول:

ما تغنيتُ– من الغناء –، ولا تمنيت – كذبت –، ولا مسست ذكري بيميني منذ بايعت بها رسول الله ﷺ، ولا شربت خمراً في جاهلية ولا إسلام، ولا زنيت في جاهلية ولا إسلام.

إسلامه:

فيحدثنا أبو إسحق قال: كان أول الناس إسلاماً بعد أبي بكر وعلي وزيد بن حارثة عثمان، فكان رابع من أسلم من الرجال، وقد روى أبو بشور الفهمي وكان مصاحباً لعثمان قال: سمعت عثمان بن عفان يقول: لقد اختبأتُ ربي عشراً، إني لرابع أربعة في الإسلام، وجهزت جيش العسرة، وجمعت القرآن في عهد رسول الله ﷺ، وائتمنني رسول الله ﷺ على ابنته ثم توفيت فزوَّجني الأخرى، وما تغنيت ولا تمنيت، وما وضعت يدي اليمنى على فرجي منذ بايعتُ رسول الله ﷺ، وما مرت بي جمعة إلا وأنا أعتق فيها رقبة، أن لا تكون عندي فأعتقها بعد ذلك، ولا زنيت في جاهلية ولا إسلام ولا سرقت..

ويعلل بعض المؤرخين – كابن سعد في طبقاته – سرعة استجابة عثمان لحادثة وقعت له عند عودته من الشام، وقد ذكرها للنبي ﷺ حين دخل عليه هو وطلحة بن عبيد الله، فعرض النبي ﷺ عليهما الإسلام، وقرأ عليهما القرآن، فآمنا وصدقا.

فقال عثمان: يارسول الله قدِمتُ حديثاً من الشام، فلما كنا بين معان والزرقاء، ونحن كالنيام إذ منادٍ ينادينا: أيها النيام هبوا فإن أحمد قد خرج بمكة، فقدمنا فسمعنا بك.

قال المؤرخون: لا شك أن هذه الحادثة تترك في نفس صاحبها أثراً إيجابياً لا يستطيع التخلي عنه، ولم تكن سرعة عثمان لتلبية دعوة رسول الله ﷺ عن طيش أو حمق، ولكنها كانت عن يقينٍ وتصديق بهذا الحق، وتدلُّ على عقل ناضج، تأمَّلَ الدعوة الجديدة بهدوء وروية وفكر على عادته في معالجة الأمور، فوجدها دعوةً إلى الفضائل في العقيدة والأخلاق، وترهيب وتحذير من سيئ السلوك، ثم قارن بينها وبين ما عليه قومه من شرك وضلال، وسفك دماء، ونظر إلى محمد ﷺ فلم تُعهد عليه كذبة، ولم تحسب عليه خيانة.. فأسلم رضي الله عنه على يد الصديق ومضى في إيمانه قوياً هادياً، عظيماً راضياً، عفواً كريماً سخياً، باذلاً يعين المستضعفين كما روى الصادق عرجون في كتابه «عثمان».

قال المؤرخون: ومن المشهور أن عثمان كانت له خالة اسمها – سعدى بنت كريز – هنأته بإسلامه ثم بزواجه وكانت شاعرة فقالت:

هدى الله عثمـــان الصفيَّ بقوله ... فأرشده والله يهـــــــدي إلى الحقّ

فتابع بالــــــرأي السديد محمداً ... وكان ابن أروى لا يصد عن الصدق

فأنكحه المبعــــــوثُ بالحق بنته ... فكان كبدر ما زج الشمــس في الأفق

فداؤك يا ابن الهاشميين مهجتـــي ... فأنت أمينُ الله أُرسلت للخلـــــق

زواجه من رقية بنت رسول الله ﷺ:

قال المؤرخون: فرح المسلمون بإسلام عثمان فرحاً شديداً، وتوثقت بينهم عرى المحبة، وأخوة الإيمان، وأكرمه الله تعالى بالزواج من رقية بنت رسول الله ﷺ، ولذلك قصة ملخصها:

أن النبي ﷺ خطب أبو لهب ابنته رقية لولده عتبة بن أبي لهب وطلب أم كلثوم لولده الثاني عتيبة بن أبي لهب، فرضي النبي ﷺ وعقد لهما على ابنتيه، فلما نزل قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤ ﴾[1] ناداهم رسول الله، ودعاهم إلى التوحيد وذلك سنة أربع للبعثة، فقال عمه أبو لهب: تباً لك ألهذا جمعتنا، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١ ﴾[2].

فلما نزلت هذه السورة قال أبو لهب وزوجته أم جميل بنت حرب بن أمية (حمالة الحطب) لولديها، فارقا ابنتي محمداً، ففارقاهما قبل الدخول بهما وذلك كرامة الله تعالى لهما، وهواناً لابني أبي لهب كما قال رشيد رضا في كتابه «ذو النورين عثمان» ونصبت أم جميل العداوة لرسول الله ولدعوته، وكانت تقول: مذمّماً عصينا، وأمره أبينا، ودينه قلينا، وكان لها عقد ثمين فباعته وأقسمت أنها ستنفقه في عداوة محمد ﷺ.

قال المؤرخون: وما كاد عثمان يسمع بخبر المفارقة والطلاق حتى استطار فرحاً، وأسرع فخطب رقية من رسول الله ﷺ فزوجها الرسول الكريم منه، وزفَّتها إلى زوجها عثمان أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، وكان الزوجان من أبهى قريش طلعةً، ولذلك كان الغناء عند الزفاف:

---

(١) الشعراء: ٢١٤.

(٢) المسد: ١.

أبهى زوجين رآهما إنسان رقية وزوجهـــا عثمان[1]

وروى عبدالرحمن بن عثمان القرشي: أن رسول الله ﷺ دخل على ابنته رقية وهي تغسل رأس عثمان، فقال ﷺ: (يا بنية، أحسني إلى أبي عبدالله فإنه أشبه أصحابي بي خَلْقاً).

ابتلاؤه وهجرته:

سنةُ الابتلاء ماضية في الأفراد والجماعات والشعوب، والحكومات، وقد مرت هذه المحن على أصحاب رسول الله ﷺ، فكانوا أثبت من الرواسي.. بل وتحملوا ضغط الضرورات..

وكان عثمان ممن عُذب وأوذي في سبيل الله، وكان عذابه على يد عمه – الحكم بن العاص – حيث أخذ عثمان فأوثقه رباطاً وقال له: أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث؟ والله لا أحلك أبداً حتى تدع ما أنت عليه، فقال عثمان: والله لا أدعه أبداً ولا أفارقه..

واشتد الإيذاء بالمسلمين وتجاوز الحد، إلى قتل البعض، ولم يسلم من التعذيب أحدٌ، وهاهو أحد الذين فروا بدينهم من العذاب إلى الحبشة يصف لنا بشعر رقيق كيف أن الاضطهاد لم يسلم منه أحدٌ من أصحاب النبي ﷺ وهذا الصحابي هو – عبدالله بن الحارث بن قيس بن عدي يقول في القصيدة بعد أن وصل إلى الحبشة وأَمِنَ بها:

يــــا راكبـــا بَلِّغـــن عنــــي مغلغلـــة مــن كـــان يرجـــو بـــلاغ الله والـــدين
وكـــل امـــرىء مـــن عبـــاد الله مـــضطهد بـــبطن مكـــة مقهـــور ومفتـــون
أنــــا وجـــدنا بـــلاد الله واســـعة تنجـــي مـــن الـــذل والمخـــزاة والهـــون
فـــلا تقيمـــوا عـــلى ذل الحيـــاة وخـــز ي في المـــمات وعيـــب غـــير مـــأمون
أَنـــــا تبعنــــا رســـــول الله واطرحـــــوا قـــول النبـــي وعـــالوا في المـــوازين
فاجعـــل عـــذابك في القـــوم الـــذين بغـــوا وعائـــذ بـــك أن يغلـــوا فيطغـــوني

فعن أنس بن مالك قال: أول من هاجر إلى أرض الحبشة عثمان، وخرج بابنة رسول الله ﷺ رقية، وأبطأ على رسول الله ﷺ خبرهما فجعل يتوكَّفُ الخبر، فقدمت امرأة من قريش من أرض الحبشة فسألها عنها فقالت: رأيتها. فقال ﷺ: على أيّ حال رأيتها؟ قالت: رأيتها وقد حملها

(١) أنساب الأشراف – ص٩٨.

زوجها على حمار من هذه الدواب وهو يسوقها، فقال النبي ﷺ: صحبهما الله!! أن كان عثمان لأول من هاجر بأهله إلى الله عز وجل بعد لوط.

قال الصلابي: وقد استفاد عثمان من هذه الهجرة دروساً وعبراً كثيرة، فمن شاء الاستزادة فليراجعها.

قال المؤرخون: ومنذ اليوم الذي أسلم فيه عثمان لزم النبي ﷺ حيث كان، ولم يفارقه إلا للهجرة بإذنه، أو في مهمة يُندبُ لها من النبي ﷺ ولا يُغني أحد فيها غناءه، لقد كان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على صلةٍ وثيقةٍ بالدعوة الكبرى من سنتها الأولى، فلم يفته شيء من أخبار النبوة الخاصة والعامة في حياة النبي ﷺ، ثم لم يفته شيء من أخبار خلافة الشيخين بعد ذلك، فكونه أول من هاجر من هذه الأمة إلى أرض الحبشة، فهذه منقبة عظيمةٌ فكيف إذا أضيفت لهذه المكرمة شرف تزويجه بابنتي رسول الله ﷺ وبخاصة فقد ورد أن الوحي هو الذي أمر النبي ﷺ بتزويج أم كلثوم البنت الثانية لعثمان بعد وفاة رقية.

فمن حديث أبي هريرة عن ابن ماجة قال: لقي النبي ﷺ عثمان عند باب المسجد فقال ﷺ: «يا عثمان هذا جبريل أخبرني أن الله قد أمرني أن أزوجك أم كلثوم بمثل صداق رقية، وعلى مثل صحبتها».

وروي عن عثمان والراوي أبو هريرة قال: لما ماتت امرأته الأولى رقية بنت رسول الله ﷺ بكيت بكاءً شديداً فقال رسول الله ﷺ: ما يبكيك؟ قلت: أبكي على انقطاع صهري منك، قال ﷺ: «فهذا جبريل يأمرني بأمر الله عز وجل أن أزوجك أختها».

وورد عن ابن عباس زيادة في هذا الحديث وهي:

«والذي نفسي بيده لو أن عندي مائة بنت تموت واحدة بعد واحدة زوجتك أخرى حتى لا يبقى من المائة شيء، هذا جبريل أخبرني أن الله عز وجل يأمرني أن أزوجك أختها وأن أجعل صداقها مثل صداق أختها». — خرجه الفضائلي —

كان أصدق أمة محمد حياء: فقد ورد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «عثمان أحيا أمتي وأكرمها»، وورد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أصدق أمتي حياءً عثمان».

وورد عن الحسن البصري أنه ذكر عثمان وشدة حيائه فقال: إنه كان ليكون في البيت

والباب عليه مغلق فما يضع عنه الثوب ليفيض عليه الماء، يمنعه الحياء أن يقيم صلبه.

وكان عبد الله بن عمر يقول: ثلاثة من قريش أصح الناس وجوهاً، وأحسنهم أخلاقاً، وأثبتها حياء، إن حدثوك لم يَكْذِبوك، وإن حدثتهم لم يُكذِّبوك، أبوبكر وعثمان وأبوعبيدة.

اختصاصه بأن الملائكة تستحي منه:

ففي صحيح مسلم وغيره عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ مضطجعاً في بيته كاشفاً عن ساقيه، فاستأذن أبوبكر فأذن له وهو على تلك الحال فتحدَّث، ثم استأذن عمر فأذن له وهو على تلك الحال فتحدَّث، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله ﷺ وسوّى ثيابه، فدخل عثمان فتحدَّث، فلما خرج قالت عائشة: يا رسول الله دخل أبوبكر فلم تهشَّ له ولم تُبالِ به، ثم دخل عمر فلم تهشَّ له ولم تبال به، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك؟ فقال النبي ﷺ: «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة».

أن النبي ﷺ كان يتمنى محادثته في بعض الأحوال:

فقد ورد عن عائشة قالت: كنت عند حفصة ذات يوم والنبي ﷺ عندنا، فقال ﷺ: لو كان عندنا رجل يحدثنا؟ فقلت – أي عائشة –: يا رسول الله أبعث إلى أبي بكر؟ قالت: فسكت النبي ﷺ؛ قالت: فدعا رجلاً فأسَرَّ إليه شيئاً دوننا فذهب فجاء عثمان وأقبل عليه بوجهه.

وعنها – عن عائشة – أنها قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه: وَدِدتُ أن عندي بعض أصحابي، قالت: فقلت: يا رسول الله، ألا ندعو لك أبابكر فسكت ﷺ، قلنا عمر فسكت، قلنا علياً فسكت، قلنا: عثمان، قال ﷺ نعم!!. قالت: فأرسلنا إلى عثمان.

اختصاصه بقول النبي (ادعوا إليَّ أخي):

فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: ادعوا إليَّ أخي! قلنا أبوبكر؟ قال ﷺ: ادعوا إليَّ أخي! قلنا: عمر؟ قال ﷺ: ادعوا إليَّ أخي! قلنا: عثمان؟ قال ﷺ: نعم.

مساررة النبي ﷺ له في مرضه:

فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده عن أبي عبدالله الجبيري قال: دخلت على عائشة وعندها حفصة بنت عمر فقالت لها: أنشدك بالله أن تصدّقيني بكذب، أو تكذّبيني بصدقٍ، تعلمين أني كنت أنا وأنت عند رسول الله ﷺ فأغمي عليه فقلت لك: أترينه قد قُبِضَ؟ فقلتِ: لا أدري، ثم

أفاق ﷺ فقال: افتحوا الباب، فقلت لكِ أبوك أو أبي؟ فقلتِ: لا أدري؛ ففتحنا فإذا عثمان، فلما رآه النبي ﷺ قال له: ادْنُه، فأكبَّ عليه فسارَّه بشيء لا أدري أنا وأنت ماهو، ثم رفع رأسه ﷺ فقال: أفهمت ما قلت لك؟ قال عثمان: نعم، قال ﷺ: ادنُه، فأكبَّ عليه أخرى مثلها فسارَّه بشيء، ما ندري ما هو، ثم رفع رأسه فقال ﷺ: أفهمت ما قلتُ لك؟ قال عثمان: نعم، قال ﷺ: ادنُه فأكبَّ عليه إكباباً شديداً فسارَّه بشيء، ثم رفع رأسه فقال ﷺ: أفهمت ما قلت لك؟ قال عثمان: نعم! سمعته أذناي، ووعاه قلبي، فقال ﷺ اخرج.

قالت حفصة: اللهم نعم. أخرجه الإمام أحمد.

قال المؤرخون: فلما كان يوم الدار، وحُصر فيها عثمان، قلنا يا أمير المؤمنين ألا نقاتل؟ قال: لا إن رسول الله ﷺ عهد إلي عهداً، وإني صابر نفسي عليه.

وفي رواية عن عائشة يرويها عنها – قيس بن أبي حازم –: أن عثمان لما ساره النبي ﷺ كان وجهه يتغيَّرُ، قال قيس: كانوا يرون أن هذه المسارة تتعلق بحصاره يوم الدار، ولذلك قال عثمان عندما طُلب منه القتال: (إن رسول الله ﷺ عهد إلي عهداً، وإني صابر نفسي عليه).

يقول الصلابي: ويظهر قول عثمان السابق أن النبي ﷺ أرشده إلى الموقف الصحيح، عند اشتعال الفتنة حتى لا تعمَّ الفتنة وتنطلق، وأفهمه أن لا ينخلع قميص قمَّصَهُ الله إياه، ولا شكَّ أن هذا القميص هو الخلافة.

كما يظهر من مساررة النبي ﷺ له أن الأمر عظيم وخطير، ولذلك لم يتكلم به النبي ﷺ أمام عائشة وحفصة حفظاً على سرية الأمر، من هنا ندرك إصرار عثمان على عدم القتال. ولا شك أن هناك أموراً أخرى في هذه المسارة بقيت في قلب عثمان تتعلق في الفتنة وأخبارها.

وهذا الحديث يفسر لنا سبب رفض عثمان للقتال أثناء الحصار، ورفضه للتنازل عن الخلافة عندما عرض عليه المشاغبون ذلك، وهما موقفان طالما حَيَّرا المؤرخين، وكانت هذه المواقف التي أسرّ رسول الله ﷺ إلى عثمان وأخبره بها أنها ستقع، وهي من علم الغيب الذي أطلعَ الله عليها رسوله في حياته، فإن علم الغيب صفة من صفات الله، ليست لأحدٍ من خلقه، وإنما ذلك علم أطلعه الله عليه وأمره أن يبينه للناس.

قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ

مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾(١).

قال البغوي: في سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس: أن أهل مكة قالوا يامحمد، ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو فنشتري فتربح عند الغلاء، وبالأرض التي تريد أن تجدب فترتحل منها إلى التي أخضبت، فأنزل الله سبحانه قوله السابق، وقوله ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ هو تبرؤٌ من معرفة الغيب سواءٌ منه ما كان يخص نفسه وما كان من شؤون غيره.

اختصاصه بتجهيز جيش العسرة:

وهي غزوة تبوك – ولا بد من إلقاء ضوءٍ على هذه الغزوة، حتى ندرك أهمية تجهيز عثمان لها.

قال المؤرخون: كانت غزوة تبوك نظير فتح مكة في قذف الرعب في قلوب الأعداء، ورفع الغشاوة عن عيون كثير ممن كانوا يعتقدون أن الإسلام سحابة صيف عن قليل تنقشع، أو سراجاً يلمع ثم ينطفئ.

وتبوك اسم لعين ماء في الأصل، وهي بلد تقع في منتصف الطريق بين المدينة ودمشق على بعد ٣٦٠ كيلاً من المدينة المنورة، وكان العرب لا يحلمون بغزو الروم، بل كانوا يخافونهم، ويرون أنفسهم أصغر من ذلك.

وكانت الدولة الرومية في أوجها حين غزا النبي ﷺ تبوك، وكانت جيوش هرقل في أوج انتصاراتها على جيوش إيران وفارس، وهزمتهم هزيمة منكرة حتى إن هرقل مشى من حمص، إلى ايلياء في موكب الملك المنتصر، وذلك سنة ٧ هـ يحمل الصليب الذي استردَّه من الفرس، وقد بسط له البسط، ووزعت عليه الرياحين فمشى عليها، ثم بعد سنتين من هذا الانتصار الرائع يخرج رسول الله ﷺ من المدينة يريد الروم، بعد أن أُخبر ﷺ أنهم يستعدون لغزو المدينة.

وينبغي أن تعلم أن هذه الغزوة التي تولى عثمان أغلب تمويلها هي التي مهدت لفتح الشام في عهد الخليفتين أبي بكر وعمر.

وكانت هذه الغزوة في رجب سنة ٩ هـ غزاها رسول الله ﷺ في حرّ شديد حين طابت

(١) الأعراف: ١٨٨.

الظلال والثمار، كما كانت في ظرف صعب فمع شدة الحر كان الجدب واقعاً في كثير من أنحاء الجزيرة، مع بعد المكان وكثرة العدو، ولم يكن قبل هذه الغزوة نفير عام، ولم يكن النبي ﷺ يحدد اتجاه غزواته إلا في هذه الغزوة، كما سمي جيش هذه الغزوة جيش العسرة، إذ بلغت العسرة يومها أشدّها، وكانت هذه الغزوة كاشفة للضالعين في النفاق، فقد وجه النبي ﷺ الدعوة للخروج رسمياً إلى الجد بن قيس الذي كان من زعماء النفاق، حيث قال له النبي ﷺ: يا جد، هل لك في جلاد بني الأصفر؟ فقال: يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني فوالله لقد عرف قومي أن ما من رجل أشدّ عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وأذن له، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾(١)، وهذا تلويح بكفرهم، وبيان بغائهم حيث قالوا: متعللين بعلل يسترون بها نفاقهم، وكرههم للجهاد بالمال والنفس. ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾(٢).

والغباء أن ترضى التمتع بأيام منقضية، لتكون في الآخرة في جهنم، وهؤلاء المنافقون لم يكتفوا بالاعتذار وإظهار العلل الواهية، بل كانوا يلتقون مع رجل يهودي اسمه سويلم، في بيت ذلك اليهودي وينشرون فكرة عدم الخروج والتثبيط للناس، ويقولون: لا تنفروا في الحر وعلم رسول الله ﷺ بذلك، فأمر طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه أن يحرق عليهم بيت سويلم اليهودي مركز اجتماعهم في مكان يقال له – جاسان – وذهب طلحة ففعل ما أمره رسول الله ﷺ، ففر المثبطون من ظهر الدار، وسقط الضحاك بن خليفة من ظهر البيت فانكسرت رجله فقال:

كادت وبيت الله نار محمـــــــد   يشيط بهـــا الضحاك وابن أبيرق
وظلت وقد طبقت كبس سويلم   أنوء على رجلـــي كسيراً ومرفقي
سلام عليكم لا أعود لمثلهـــــا   أخاف ومن تشمل به النار يحرق

---

(١) التوبة: ٤٩.

(٢) التوبة: ٨١.

قال صاحب كتاب «هذا الحبيب يامحب»: ولما كان المال ضرورياً لتجهيز هذا الجيش الضخم، تسابق الصالحون في هذا الميدان، وفاز بالمرتبة الأولى عثمان فإنه جهز جيش العسرة وحده أو كاد.

قال الزهري: حمل عثمان بن عفان في غزوة تبوك على تسعمائة وأربعين بعيراً، وستين فرساً أتم بها الألف.

أما من الذهب، فكان أول دفعة قدمها، فقد ورد عن عبدالرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان بألف دينار في كمه حين جهز النبي ﷺ جيش العسرة، فنثرها في حجر النبي ﷺ، فرأيت النبي ﷺ يقلبها في حجره ويقول: «ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم».

وعن حذيفة بن اليمان قال: بعث النبي ﷺ إلى عثمان في جيش العسرة فبعث إليه عثمان بعشرة آلاف دينار فصبت بين يديه، فجعل النبي ﷺ يقول بيده ويقلبها ظهرا لبطن ويقول: «غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت وما هو كائن إلى يوم القيامة، ما يبالي ما عمل بعدها».

قال صاحب كتاب «هذا الحبيب يا محب»: أنفق عثمان نفقة قال فيها رسول الله ﷺ: «اللهم ارض عن عثمان فإني عنه راض».

وروى عن قتادة قال: حمل عثمان في جيش العسرة على ألف بعير، وسبعين فارساً.

أن النبي ﷺ ترك الصلاة على مبغضه:

فقد ورد عن جابر قال: أتي النبي ﷺ بجنازة رجل ليصلي عليها فلم يصل عليها، فقيل يا رسول الله، ما رأيناك تركت الصلاة على أحد قبل هذا؟ قال ﷺ: «إنه كان يبغض عثمان فأبغضه الله عز وجل». رواه الترمذي وغيره

اختصاصه بصلاة الملائكة عليه يوم يموت:

فقد ورد عن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يوم يموت عثمان تصلي عليه ملائكة السماء»، قلت: يارسول الله عثمان خاصه أم للناس عامة؟ قال ﷺ: «عثمان خاصة».

يحاسب سرّاً، أو لا يحاسب:

فقد ورد عن علي رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، من أول من يحاسب يوم القيامة؟ قال ﷺ:

أبوبكر، قال علي: ثم من؟ قال ﷺ: عمر، قال: ثم من؟ قال ﷺ: ثم أنت يا علي، قلت: يا رسول الله أين عثمان؟ قال ﷺ: «إني سألت عثمان حاجة سراً، فقضاها سرّاً، فسألت الله أن لا يحاسب عثمان، وفي رواية: أن يحاسبه سرّاً لحيائه».

ولعل من اختصاصاته ما ورد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: قوموا بنا نَعُدْ عثمان بن عفان، قلنا: عليل يا رسول الله؟ قال ﷺ: نعم! فقام ﷺ واتبعناه حتى أتى منزل عثمان فاستأذن له فدخل.. فوجد عثمان مكبوباً على الأرض على وجهه لا يرفعه، فقال ﷺ: مالك لا ترفع رأسك؟ قال: أستحي – أي من الله – قال ﷺ: ولم ذاك؟ قال: أخشى غضبه، فقال ﷺ: «ألست حافرَ – مُسبّل بئررومة –، ومُجهِّزَ جيشِ العسرة؟ والزائد في مسجدي، وباذل المال في رضوان الله، هذا جبريل يخبرني عن الله عز وجل، أنك نور أهل السماء، ومصباح أهل الأرض والجنة».

اختصاصه ببعض أدعية رسول الله ﷺ:

فقد ورد عن جابر بن عطية قال: قال رسول لله ﷺ: «غفر الله لك يا عثمان ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أخفيت وما أبديت، وما كان وما هو كائن».

استعرضنا خصائص عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، لندرك بها مكانته، وأن المسلمين كانوا مجتمعين على أفضليته بعد عمر، ولذلك أجمع المسلمون على بيعته.

قال ابن تيمية في كتابه «منهاج السنة»: عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قال: لم يجتمعوا على بيعة أحد كما اجتمعوا على بيعة عثمان.

قال ابن تيمية: لم يتخلف عن بيعته أحد.

وقال ابن مسعود: حين استُخلف عثمان: استخلفنا خير من بقي ولم نأله.

وذكر محمد بن حاطب قال: سمعت علياً يقول في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١ ﴾[1]: عثمان منهم. وقوله: ﴿ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ ﴾، والسبق: حقيقته تجاوز الغير في السير إلى مكان معين، أي سبق في الإيمان والعمل الصالح.

(١) الأنبياء: ١٠١.

وأهل السنة مجمعون على ترتيب أفضلية الأربعة وفق ترتيب الخلافة فقد ورد عن علي بن الموفق كما روى صاحب كتاب «الرياض النضرة» قال: قمت في ليلة باردة فتوضأت بماء بارد، وتوجهت القبلة فصليت، وقرأت ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾[1] ألف مرة، فلما فرغت غلبتني عيناي فنمت فرأيت النبي ﷺ في النوم، فقلت: يارسول الله، القرآن كلام الله غير مخلوق، فسكت، فقلت: يارسول الله، القَدرُ خيره وشره، حلوه ومره.. فسكت، فقلت يارسول الله: الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فسكت، قلت يا رسول الله: خير الناس بعدك أبوبكر، فسكت، ثم قلت: عمر بعد أبي بكر، فسكت، ثم أردت أن أقول عثمان فاستحييتُ منه ﷺ، فقلت:علي بعد عمر، فقال لي: ثم عثمان، ثم علي وجعل يُردِّدها، ثم عثمان، ثم علي، قال ابن الموفق: ثم أخذ بعضدي وقال لي: ياابن الموفق، هذه سنتي، فاستيقظت.

وقد روى البخاري بإسناده عن ابن عمر قال: كنا في عهد النبي ﷺ لا نعدل بأبي بكر أحداً، ثم عمر، ثم عثمان، ثم نترك أصحاب النبي ﷺ لا نفاضلُ بينهم.

قال ابن تيمية: وقول ابن عمر هذا أخبار عما كان عليه الصحابة على عهد رسول الله ﷺ من تفضيل، أبي بكر، ثم عمر، ثم عثمان.

وقد روي أن ذلك كان يبلغ النبي ﷺ فلا ينكره.

والآن بعد توليه الخلافة، أعلن منهجه في الحكم (البيان الحكومي، أو خطاب العرش).

منهجه في الحكم:

قال المؤرخون: عندما بويع بالخلافة، قام في الناس خطيباً فأعلن منهجه في سياسة الأمة وبَيَّنَ الأمر الأهم فقال: بعد حمد الله والثناء عليه، أما بعد: فإني كُلِّفتُ وقد قبلت، ألا وإني متَّبعٌ ولست بمبتدع، وإن لكم عليَّ بعد كتاب الله وسنة نبيه ثلاثاً: اتباع مَنْ كان قبلي فيم اجتمعتم عليه، وسنَّ أهل الخير فيما تسنوا على ملأ، والكف عنكم إلا فيما استوجبتم العقوبة.

فبين أنه ملتزم بالكتاب والسنة، وسيرة الشيخين قبله أبوبكر وعمر..

ويظهر التزامه بسيرة من قبله أنه رضي الله عنه أقرَّ عمل عمر رضي الله عنه فلم يعزل أحدا منهم، والمطلع على كتابه الذي كتبه للولاة، يقف على منهجه في سياسة الأمة، فقد بدأ بالولاة وكتب إليهم جميعاً

(١) الإخلاص: ١.

كتاباً واحداً قال فيه: أما بعد: فإن الله أمر الأئمة – الولاة – أن يكونوا رعاةً، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباةً، وليوشكن أئمتكم أنه يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة، فإن عادوا كذلك – جباة لا رعاة – انقطع الحياء والأمانة والوفاء، ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم، فتعطوهم الذي لهم، وتأخذوهم بالذي عليهم.

ثم تطرَّقَ في كتابه لأهل الذمة فقال: ثم تُثنُّوا بالذمة، فتعطوهم الذي لهم، وتأخذون بالذي عليهم، ثم ثلث بالأعداء فقال كما ذكر الطبري: ثم العدو الذي تنتابون – اللقاء بهم مرة بعد أخرى - فاستفتحوا عليه بالوفاء.

لقد كان في كتابه هذا إلى الولاة التركيز على العدل السياسي والاجتماعي والاقتصادي، بإعطاء الحقوق، وأخذ الواجبات، وإعلاء شأن الرعاية السياسية في الأمة لا الجباية المالية كما قال المؤرخون.

ونبّه في كتابه هذا إلى أن الولاة إذا انقلبوا إلى جباة فإن مكارم الأخلاق ستزول، فلا حياء ولا وفاء ولا أمانة.. وانظر في العالم الإسلامي اليوم كم من طامات الفساد تَطمُّ، فهنا الفساد في أموال التقاعد بالمليارات وهناك سرقات وهناك سيول تجرف الناس لفساد البناء والرشوة.

ولماذا عندما ينقلب الولاة جباة تزول مكارم الأخلاق؟

والجواب؛ لأنه يوجد في الإسلام بين الراعي والرعية رباطٌ سامٍ من العلاقات المتينة القائمة على العمل الصالح ابتغاء وجه الله تعالى، فالوالي يسعى إلى هذا الهدف، - رضوان الله بالعدل – والرعية تطيع الراعي استجابة لأمر الله.. وعندها تكون القيم هي السائدة، وأما عندما يكون الأمر على العكس.. جبايةً لا رعايةً، عندها يموت الحياء والأمانة.

من هنا نلاحظ التلازم بين العدل مع من فوقك، وبين العدل مع من دونك، قال كسرى ابرويز: أطع من فوقك، الله، الرسل، الولاة. يطيعك من تحتك، الرعية والأسرة..

لذلك ورد عن كعب قوله: في العدل عمران البلاد، وفي الظلم خرابها ومحق البركة.

ويروي المقريزي في «خططه» قال: كان في صعيد مصر نخلة تحمل (١٠) أرادب تمراً، والأردب يساوي (٧٢) صاعاً، أي ما تحمله يساوي (٧٢٠) صاعاً أي ما يعادل (١٤٤٠) كغ تمراً، فاغتصبها ظالم فلم تحمل سنتها إلا تمرة واحدة فأعادها.

واسمع معي إلى وصف دقيق من علمٍ من أعلام التابعين وهو الحسن البصري يصف لنا الأمن والاستقرار والرخاء والشفقة على الرعية في عهد عثمان فيقول: شهدت منادي عثمان بن عفان ينادي بالناس يقول: يا أيها الناس اغدوا على أعطياتكم، فيغدون فيأخذونها كاملة، يا أيها الناس: اغدوا على أرزاقكم فيغدون فيأخذونها وافيةً، حتى سمعت مناديه والله يقول: اغدوا على كسوتكم فيأخذون الحلل، اغدوا على السمن، اغدوا على العسل، ثم قال الحسن: أرزاق دَارَّةٌ، وخير كثير، وذات بين حسن، ما على الأرض مؤمن يخاف مؤمناً بل يودُّه، وينصره ويحبه، ويألفه.

وعثمان بهذا العدل يسير على منهج الشيخين، والإسلام علّم اتباعه أثر العدل في الأمم، فكل من سار على هذا النهج إنما فعله استجابة لأمر الله، وأمر رسوله..

وشعوراً بأن هذا سبب السعادة والرخاء.

قال الدارمي في «مسنده» عن أبي زرعة عن حيّة بنت أبي حيةَ قالت: دخل علينا رجل بالظهيرة، فقلت يا عبدالله: من أين أقبلت؟ قال: أقبلت أنا وصاحب لي من بُغاء بعير، فانطلق صاحبي يبغي. ودخلت أنا أستظل بالظل وأشرب الشراب، قالت: فقمت إلى – لُبَيْنة – حامضة فسقيته منها فشرب وشربت، قالت: ثم تفرست فيه، فقلت: ياعبدالله من أنت؟ قال: أنا أبوبكر، فقلت: صاحب رسول الله الذي سمعت عنه؟ قال: نعم، قلت: فذكرتُ غَزْوَنَا خثعماً في الجاهلية، وغزونا بعضنا، وقارنت بين الحياتين، وما جاء الله به من الإلفة والمحبة والطاعة وإطناب الفساطيط، ثم التفتتْ إلى الصديق وقالت: حتى متى أمر الناس هكذا؟ أرادت بهذا السؤال أن تطمئن إلى دوام هذه الإلفة، وهذه المحبة، وهذا الخير، وهذه البركة، فقال ﵁: ماستقامت الأمة، رعاةً وجباةً.

وهكذا كان كل إمام، وكل حاكم يسيرعلى منهج الأنبياء.

وما أجمل قول ميمون بن مهران حين تولى الحكم في العهد الأموي، عمر بن عبد العزيز الذي كان يُشاهَدُ أحياناً ليلاً وهو قابع بمفرده وببعض زوايا الطريق، وقد سئل مرة لماذا يفعل ذلك ويرابط منفرداً فقال: إني أرابط متحرياً عن الذين يكتنفهم الجوع في الليل، ولو كنت أعلم أين أماكنهم لذبحتُ إليهم ناقتي، وحملتها إليهم إرباً.. حتى منازلهم.

أجاركم الله أسعدكم الله، هل من يدلني على هؤلاء المرهقين..

قال ميمون بن مهران عن عمر بن عبدالعزيز: كان الله تعالى يتعاهد الناس نبياً بعد نبي، وإن الله تعالى تعاهد هذه الأمة بعمر بن عبدالعزيز.

والآن وبعد أن قرأنا كتابه إلى الولاة شارحاً لهم المنهج في التعامل مع الناس من رعيتهم وفي كل ذلك يشير إلى أنه متبع لمن قبله.

وبعد بيان منهجه في الرعية المسلمة، ثنى بيان منهجه في أهل الذمة فقال: ثم تثنُّوا بأهل الذمة فتُعطوهم الذي لهم، وتأخذوهم بالذي عليهم.

ثم ثلث بمعاملة العدو فقال: ثم العدو الذي تنتابون – تلقونه مرة بعد مرة – فاستفتحوا عليه بالوفاء، ويشير هنا عثمان إلى نقطة مهمة في منهجه في التعامل مع الأعداء، وهي: الوفاء بالعهود والعقود التي هي من أسباب النصر والفتح، وقد أثبت التاريخ حق هذا المنهج

كتابه لقادة الجند:

ووجه كتاباً لقادة الجند قال فيه: بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

إنكم حماة المسلمين وذادتهم؛ وقد وضع لكم عمر بن الخطاب مالم يَغِبْ عنا بل كان على ملأ منا، ولا يبلُغنّي عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم، ويستبدل بكم غيركم، فانظروا كيف تكونون، فإني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه، والقيام عليه.

ونحب أن نشير هنا إلى قول عثمان في كتابه للقادة: ولا يبلُغُني عن أحد منكم تغيير فيغير الله ما بكم، هذا القول فيه وعي كبير لسنن الله في الحياة، فمعيةُ الله لأوليائه وجنده بالتوفيق والنصر والتأييد مشروطةٌ بلزومهم لشرعه سبحانه، فإن غيروا في ذلك غير الله ما بهم.. كما قال العلماء وذلك ما قررته الآية: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١﴾[1].

ومن كرمه سبحانه أن البشر عندما يغيروا ما بأنفسهم ويبتعدون عن منهج الله سبحانه، فالله سبحانه يغير فقط الإمدادات الفرعية: المال والصحة والولد، أما الإمدادات الأصلية فلا، لأنَّ الله يريد لهذا الكون أن يبقى على مسيرته إلى يوم القيامة.

---

(١) الرعد: ١١.

ثم بعد كتبه للولاة والقادة شارحاً السياسة المتبعة خصّ عمال الخراج بكتاب.

كتابه إلى عمال الخراج:

قال المؤرخون: كان أول كتاب كتبه وبعثه إلى عمال الخراج – وزراء المال والاقتصاد اليوم – قال فيه: بعد حمد الله والثناء على رسوله أما بعد: فإن الله خلق الخلق بالحقّ، فلا يقبل إلا الحقّ، خذوا الحق وأعطوا الحق به، والأمانة الأمانةَ، قوموا عليها، ولا تكونوا أول من يسلبها، والوفاءَ الوفاءَ، لا تظلموا اليتيم والمُعاهَد فإن الله خصم لمن ظلمهم. « الطبري ج ٢ ص ٥٩١».

يقول الصادق عرجون في كتابه «عثمان»: خصَّ عثمان في كتابه هذا وزراء المال – الجباة – الذين يجبونه من أفراد الأمة ليصرف في مصالح الأمة العامة، فبين لهم أن الله لا يقبل إلا الحق، وإن الحق قائم على أمرين الأمانة والوفاء، كما خصّ صنفين من الرعية وميزهما لضعفها – اليتيم والمعاهد – حيث حذر من ظلمهما لأنَّ الله هو المتولي لحمايتهما. ص١٩٨.

قال الصلابي: وفي هذا الكتاب لفتةٌ جميلةٌ تُظهر عظمة الإسلام حيث دعا إلى نصرة المظلومين وإن كانوا كفاراً معاهدين.

وقد أشار الطبري في «تاريخه ج٢ ص٥٩١»: إلى أن عثمان وجَّه بعد ذلك كتاباً إلى العامة فقال فيه بعد حمد الله والثناء على رسوله أما بعد: فإنما بلغتُم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع، فلا تلفتنَّكمُ الدنيا عن أمركم، فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع، وذلك بعد اجتماع ثلاثة فيكم: تكامل النعم، وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن، فإن رسول الله ﷺ قال: «الكُفْرُ في العُجمة» فإذا استعجم عليهم أمرٌ تكلّفوا وابتدعوا.

قال الصلابي: في هذا الخطاب نلاحظ أن عثمان حذر الأمة من تغير الحال بأن ينتقلوا من الاتباع إلى الابتداع.

الحالة الأولى: تكامل النعم، حيث إن كثرة النعم تبطر النفس وتدفعها إلى الترف، ويَصُدُّها عن الاجتهاد والعمل، ويصرفها إلى الكسل فتفتر عزائمها، وتخور قواها.

الحالة الثانية: بلوغ أولاد السبايا، والمطلع على تاريخنا يلاحظ تأثير أولاد السبايا من الترك والفرس والديلم في المجتمع الإسلامي من الوجهة السياسية، والإجتماعية، بل والدينية.

الحالة الثالثة: قراءة الأعراب والأعاجم للقرآن، وإنما أراد عثمان بذلك لفت نظرهم إلى ما

في طباع الأعراب من غِلْظةٍ وجفاء حيث لا تبلغ هداية القرآن مراكز الخير والرقة في قلوبهم وأفئدتهم.

أما الأعاجم، فيريد عثمان أن يبين ما في الأعاجم من عقائد متأصلة، وعادات موروثة قديمة تُباعد بينهم وبين سنن القرآن في الهداية، وقد ظهر هذا في فرق الخوارج الذين كان أكثرهم من هؤلاء الأعراب الجفاة، فرغم كثرة قراءتهم للقرآن كان فقههم له قليل، وكانوا أبعد الناس عن هدايته.

كما ظهر أثر الأعاجم في هذه الأمة فيما بعد، فيما ابتدعوه من آراء ومذاهب كانت شراً على المسلمين في عقائدهم، وكان منهم – كما يقول الصادق عرجون في كتابه «عثمان» – أكثر الفرق الضالة التي لعبت في تاريخ الإسلام أخطر الأدوار.

فتوحاته رضي الله عنه:

وهذه الفتوحات لن نطيل الكلام فيها لأنَّ الاطلاع عليها سهل في كتب التاريخ، ولكن نريد أن نشير إلى ما ذكره المؤرخون، من تحرك أعداء الإسلام وخصوصاً الفرس والروم على جبهات القتال بعد مقتل عمر.

قال الصلابي المؤرخ لعهد عثمان وعصره:

شجع مقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب القوى المعادية للإسلام، وخصوصاً في بلاد الروم وفارس، حيث طمعوا في استرداد ما فتحه المسلمون من بلادهم.

(فيزدجرد) ملك الفرس الذي هرب أمام جيوش المسلمين واستقر في سمرقند، واتخذ – مدينة فرغانة – عاصمة سمرقند مركزاً يخطط منه لاسترداد ملكه.

أما الروم وزعماؤهم، فبعد أن تركوا بلاد الشام، انتقلوا إلى القسطنطينية العاصمة البيزنطية، وبدؤوا بالتخطيط لاستعادة الملك.

أما في مصر، فقد تحصن الروم في عهد عمر في مدينة الاسكندرية وعززوا قوتهم فيها بالتحصينات والمنجنيقات فوق أسوارها، ولما كانت الاسكندرية معقلهم الأخير، فقد قرر هرقل أن يباشر القتال بنفسه ولا يتخلف أحد من الروم.

تولى عثمان الحكم، فتحرك الروم ضده، وأول شيء فعلوه هو نقضهم للصلح المعقود مع

المسلمين، واستنفروا كل قوة الروم البحرية، فأمدوهم بثلاثمائة سفينة بحرية تحمل السلاح والرجال.

قال المؤرخون: وقد واجه عثمان كل هذه التحركات.. بسياسة تتسم بصفتين الحزم والحسم، وتمثلت بالبنود التالية:

١ – إخضاع المتمردين من الفرس والروم، وإعادة هيبة الإسلام.

٢ – استمرار الفتوحات والجهاد إلى ما وراء هذه البلاد.

٣ – إقامة قواعد ثابتة يرابط فيها المسلمون لحماية الثغور الإسلامية.

٤ – إنشاء قوة بحرية عسكرية، لعدم وجود هذه القوة البحرية في الجيوش الإسلامية.

وكانت معسكرات الجيوش الإسلامية في عهده هي عواصم المسلمين الكبرى.

فمعسكر العراق، الكوفة والبصرة، ومعسكر الشام، دمشق، ومعسكر مصر، مركزه الفسطاط. ودورها حماية البلاد الإسلامية ومواصلة الفتوح.

وحتى ندرك عظمة عثمان وحزمه أضع أمامك الصورة التي كانت عندما تولى الحكم، وما أجمل ما أشار إليه العقاد في كتابه «ذو النورين عثمان» يصور لنا المحنة التي واجهها عثمان حيث يقول رحمه الله تعالى:

كانت هيبة عمر تملأ الجزيرة وما حولها، وكانت فارس والروم أهيبَ له من رعيته في الجزيرة، فما أن انتشر مقتل عمر حتى تمرد الفرس والترك والروم، ونقض الروم العهود والصلح فأرسلوا أساطيلهم من الاسكندرية إلى شواطئ فلسطين، وبعثوا إلى بني جنسهم ممن كانوا عاهدوا المسلمين يُغرونهم بالعصيان.. بالوعد والوعيد لنقض العهود مع المسلمين، واجتمع للروم أكثر من خمسمائة سفينة ومائة ألف مقاتل، وسمع الأرمن والخزر بهذه الزحوف فقاموا يتعللون بالذرائع لنقض الصلح مع المسلمين.

وهذا ماقاله العقاد مصوراً هذه المحنة التي حصلت عند تولي عثمان الحكم فيقول: لقد كانت محنة كمحنة الردة أو أكبر منها في اتساع ميادينها وتباعد أطرافها ولكن، هل كان عثمان كفؤاً لهذه المحنة؟

والجواب ما ذكره أهل التاريخ حيث قالوا: كان عثمان كفؤاً لها بالعزم والرأي والسرعة في تصريف الأمور، وتسيير النجدات، وإسناد كل عمل إلى من يحسنه ويسدُّ فيه أحسن سداد.

ثم يواصل العقاد كلامه فيقول: إن علاج عثمان لمشكلات الدولة الخارجية التي فاجأته بعد ولايته قد كان أحسن علاج يتولاه خليفة في تلك الأونة، عزم وسداد وسرعة، فقام الخليفة الشيخ بأعبائه الجسام على أحسن ما يقام به في هذه الفتنة الجائحة، وكان له ولا شك أكبر الفضل في تثبيت مهابة الدولة التي ظن أعداؤها أنها وهنت بعد مقتل عمر.

عندها وقر في أذهان الأمم المحيطة بها من الترك والروم والفرس أنهم ينازلون قوماً لا يؤثر في قوتهم موت خليفة، أو تبديل قائد، وأنهم – المسلمون – منتصرون مستميتون في سبيل النصر على اختلاف القادة والزعماء.

ويكفينا دليلاً على تثبيت عثمان لهيبة الدولة، أن عثمان بعد ذلك قتل، ثم قتل علي، ثم مات معاوية، ثم مات يزيد، وتخلى معاوية الثاني عن الملك وحصل ما حصل بين المسلمين ولم يسجل التاريخ أن أهل فارس أوبلاد الروم قامت لهم قائمة في وجه الدولة الإسلامية، إلا شغبٌ متفرق ليس يذكر في ميزان التحركات.

هنا يوجد لفتة لبعض المؤرخين لا بد أن نشير إليها ونعلق عليها:

قالوا: إن عثمان في عمله الضخم هذا كان مُعاناً ولم يكن منفرداً بحمله، وهذا كلام جميل، ولكن بماذا كان مُعاناً؟

قالوا: كان معاناً بكفاءة القادة، وحماسة الجند، وحمية الدين، والعقيدة التي حفزت دعاة الإسلام وجنده من نصر إلى نصر، ومن عزمةٍ إلى عزمة، وصحبتهم من بدر إلى القادسية، إلى تبوك، إلى حصن بابليون..

حتى قال العقاد: بل لعلَّ عزيمة المسلمين كانت في حروبهم للفرس والروم – أيام عثمان – أقوى من عزيمتهم في حروبهم في الجزيرة العربية إذ كانت أنفة العربي – بعد عزته بالإسلام – أن ينهزم أمام الطغاة المتعجرفين من الأعاجم كفيلةً أن تحرك غضبه الشديد الذي لا يحركه – هذا الغضب – قرب العربي للعربي.

وسأضرب مثالاً واحداً يبين لنا تلك الحمية الهائلة في نفوس الجند بل في نفس قائد وزوجه:

كان قائد عثمان حبيب بن مسلمة الفهري يقاتل الروم في ميادين سورية وفلسطين، فتوجه إليه الروم والترك في ثمانين ألفاً وكان حبيب في قلةٍ من جند المسلمين فطلب المدد من عثمان فأمده بجند من الكوفة ولم يصلوا سريعاً وهم ثمانية آلاف، ثم أمر عثمان بمدد آخر من الجزيرة، وهذا المدد وصل إلى حبيب.

قال المؤرخون: وكان حبيب بن مسلمة صاحب كيد حربي، حيث نوى أن يبيّتَ – الموريان – أي يفاجئهم من مكان لم يتوقعوه ليلاً، وسمعت زوجته أم عبدالله بنت يزيد الكلبية يذكر ذلك، فقالت له: يا حبيب، أين موعدك؟ قال: سرادق الموريان أو الجنة.

ثم بيّتهم فقتل من تصدى إليه وهزم الباقون، وأتى سرادق الموريان فوجد امرأته قد سبقته إليه – إلى السرادق –.

قال المؤرخون: فجعل لها السرادق خاصاً بها، فكانت أول امرأة من العرب ضرب عليها سرادق.

السرادق: بيت من كرسف يُضرب فوق صحن الدار أو حاجز يحيط بالخيمة يمنع الوصول إليها، وشأن السرادق أن يكون في بيوت أهل المكانة والمناصب، ولذلك قال رؤبة بن العجاج يمدح الحكم بن المنذر:

يا حكم بن المنذر بن الجـــارود

أنت الجواد بن الجواد المحمود

سرادق المجد عليك ممـــدود

أما قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن ...إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ ﴿٢٩﴾ ﴾[١] فإثبات سرادق لدار العذاب – جهنم – تهكُّمٌ لذلك تسمى في اللغة هنا (استعارة تهكمية).

---

(١) الكهف: ٢٩.

قال المؤرخون: قد يقول قائل إن الصديق والفاروق أُعينا لذلك بحماسة الجند وكفاية القادة.

فنقول: لكن أعباء الجهاد عند استلام عثمان الخلافة كانت أشد وأحوج إلى الجهد لتعدد العدو، وتباعد المسافات، وامتداد خطوط القتال.

قال المؤرخون: ثم أمر الخليفة الشيخ جنده بمتابعة الفتوح، فتقدمت جنوده شرقاً إلى حدود الصين والهند، وغرباً إلى أبواب القسطنطينية وتخوم الأندلس، وشمالاً إلى ما وراء بحر الخزر، وجنوباً إلى السودان والحبشة.

نذكر بإيجاز فتوحاته مع إبراز بعض الحوادث التي تفيد في إظهار فضيلة، أو التحذير من رذيلة، لنأخذ العبر إذ فائدة التاريخ في ذلك، وقديماً قالوا:

اقرأ التاريخَ إذ فيـــه العِبر ضلَّ قومٌ ليس يَدرون الخبر

فتوحات عثمان في الجبهة الشرقية:

وذلك في سنة ٢٤ هـ، وبدأ أولاً (بأذربيجان)، حيث قام الوليد بن عقبة والي الكوفة بأمرعثمان بتأديبهم بعد نقضهم للعهود، فعادوا إلى الصلح بعد نقضهم للصلح مع عمر، ثم أسلم أكثر أهل أذربيجان واستقرت أحوالهم وتعلموا القرآن الكريم.

ثم (الري) فقد أصدر عثمان أمراً إلى أبي موسى الأشعري حينما كان والياً على الكوفة، بالتوجه إلى الريَّ لتأديب أهلها بعد نقضهم للصلح، فأرسل أبو موسى إليها – قريظة بن كعب الأنصاري – فأدبهم.

ثم (أرمينية) حيث تقدم قائد عثمان سليمان بن ربيعة الباهلي في أرمينية، وقاتل وانتصر.

قال المؤرخون: أما (طبرستان)، فلم يَغْزُها أحد قبل عثمان سنة ثلاثين للهجرة حيث تحرك قائد عثمان على الكوفة سعيد بن العاص، ومعه نخبة من أصحاب النبي ﷺ يريد خراسان (طبرستان مقاطعة كبيرة تتألف من عدة مدن) فيهم، عبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وعبدالله بن الزبير، ومعه الحسن والحسين، وقاتل سعيد بن العاص مقاطعات طبرستان، وصلى بالجند صلاة الخوف وهم يقتتلون، حيث سأل حذيفة عن كيفية صلاة الخوف أثناء الالتحام فأخبره، فصلى بهم سعيد صلاة الخوف، وحاصر حصن – طميسة – وهي مدينة من طبرستان، فقتل

كلَّ المقاتلة إلا واحداً، وحوى كل مافي الحصن من الأموال، وحصلت حادثة يومها نذكرها للعبرة، فقد روى الطبري أن رجلاً من جند سعيد بن العاص من بني نهد أصاب سفطاً عليه قفل، فظن أن فيه جواهر، فأخفاه، وعلم القائد سعيد بذلك فأرسل إلى النَّهدي، فأتاه بالسفط عليه قفل، فكسروا القفل فوجدوا داخله سفطاً آخر ففتحوه، فإذا فيه خرقة سوداء مدرجة فنشروها، فوجدوا تحتها خرقة حمراء فنشروها، فإذا خرقة صفراء؛ وفيها ذكران (كُمَيْتٌ وَوَرْدٌ)، فقال الشاعر يهجو بني نهد كلهم، حيث غل هذا النَّهدي السفط فأراد الله فضحه، قال الشاعر:

آبَ الكرام بالسبـــايا غنيمةً ... وفـــاز بنو نهدٍ بأيْرين في سَفَطْ

كُميتٍ ووردٍ وافرين كلاهما ... فظنوهما غُنماً فناهيك من غلط

فلما عاد سعيد بن العاص منتصراً إلى الكوفة، مدحه الشعراء ومن ذلك مدح كعب بن جُعيل حيث قال في قصيدة:

فـــنعم الفتـــى إذ جـــال جـــيلانُ دونـــه ... وإذ هبطـــوا مـــن دَسْـــتبى ثـــم أبهـــرا

تعلَّـــم ســـعيدَ الخـــير أنَّ مطيتـــي ... إذا هبطـــت أشـــفقتُ مـــن أن تعقَّـــرا

كأنـــك يـــوم الـــشّعب ليـــثُ خفيَّـــةٍ ... تحـــرَّدَ مـــن ليـــث العـــرين وأصـــحرا(١)

تـــسوس الـــذي مـــا ســـاس قبلـــك واحـــد ... ثمانـــين ألفـــاً دارعـــين وحُـــسَّرا

نواصل الحديث عن الجبهة الشرقية فنقول: بعد تحرك جيش من الكوفة كما رأينا، تحرك جيش من البصرة باتجاه فارس كذلك، بقيادة عبدالله بن عامر، للقاء – يزدجرد – آخر أكاسرة فارس، فهرب يزدجرد إلى كرمان، ثم خراسان حتى شارف – مَرْوَ – ودخل قصراً له هناك، ثم تآمر فريق من جنده عليه، فهرب من القصر متنكراً راجلاً لينجو بنفسه، فمشى قرابة فرسخين حتى وصل إلى موقع رحاً، فدخله كالاً تعباً، فرآه صاحب الرحا ففرش له وقدم له الطعام والشراب، ومكث عنده يوماً وليلةً، ثم قام له بفأس ليلاً فقتله وأخذ ما عليه من ثياب، وألقى جثته في النهر، الذي عليه الرحا، وبقر بطنه، وأدخل فيه أصولاً من أصول نبات طرفاء، نابتةً في النهر لتحبس جثته، وجاء في بعض الروايات أنه مرّ بشدائد، وأن قوماً أرادوا قتله – وهم من

---

(١) ليث خفية: الشجر الكثيف – تحرد: غضب واغتاظ – أصحر: برز له.

قومه – فحذرهم أنه في عقيدة الفرس وفي كتبهم أن من قتل ملكاً عاقبه الله بالحريق في الدنيا، مع ما هو قادم عليه في الآخرة، وقال لهم: لا تقتلوني، ولكني سلموني إلى دهقان بلدكم أو إلى العرب فإنهم يستحيون مثلي من الملوك، وكان يزدجرد آخر ملوك الفرس على الإطلاق، وكان ملكه عشرين سنة، منها أربع سنين في دعة ورفاهية، وباقيها كان هارباً من بلد إلى آخر خوفاً من الإسلام وأهله – كما قال السلمي صاحب كتاب «خلافة عثمان».

وقد ورد في «صحيح مسلم» أن النبي ﷺ قال في ملوك الفرس والروم: «إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، والذي نفسي بيده لَتُنفقنَّ كنوزهما في سبيل الله».

وقد علق صاحب «الاكتفاء ج٤ ص٤١٩» الكلاعي على مقتله فقال: فسبحان ذي العظمة والملكوت، الملك الحق الحي الدائم الذي لايموت، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم، وإليه ترجعون.

أما عن جبهة الترك:

قال المؤرخون: غزا المسلمون الخارجون من الكوفة مدينة (بلنجر) من الترك سنين من إمارة عثمان لم تَئِمْ فيهم امرأة ولم ييتم فيهم صبي من قتلٍ، حتى كانت سنة تسع من خلافة عثمان قبل التقاء الجيشين بيومين رأى يزيد بن معاوية النخعي رؤيا رأى أن غزالاً جيء به إلى خبائه، لم ير غزالاً أحسن منه حتى لُفَّ في مِلْحفته، ثم أتي به قبرٌ عليه أربعة نفر لم ير قبراً أشدّ استواءً منه ولا أحسن منه حتى دفن فيه؛ فلما غدا المسلمون للقاء الترك رُميَ يزيد بن معاوية النخعي بحجر فهشم رأسه، فكأنما زُيِّن ثوبه بالدماء زينة وليس بتلطخ، فكان ذلك الغزال الذي رأى.

قال الطبري: كان في معسكر المسلمين في معركة (بلنجر) مع الترك خيمتان متجاورتان في الأولى من أبطال المسلمين، يزيد بن معاوية النخعي، وعلقمة بن قيس، ومعضد الشيباني، وأبومفرّز التميمي في خباءٍ، وإلى جوار هذا الخباء خباء آخر فيه من أبطال المسلمين: عمرو بن عتبة، وخالد بن ربيعة، والحلحال بن ذُرِّي، ورابع يقال له: القرثع.

وكان القرثع يقول: ما أحسن لمع الدماء على الثياب!

وكان عمرو بن عتبة يقول لقباء عليه أبيض: ما أحسن حمرة الدماء في بياضك!

قال الطبري: فلما كان يوم المزاحفة مع الترك، قال مِعْضَد لعلقمة: أَعِرْني بُرْدكَ أعصب به رأسي، فأعطاه، فأتى البرج الذي أصيب فيه يزيد، فرماهم فقتل منهم، ورُمي بحجر في عرّادة — منجنيق صغير — ففضخ هامته واستشهد، وسحبه أصحابه فدفنوه إلى جنب يزيد بن معاوية النخعي.

ويروي المؤرخون: أن معضد لما دنا من البرج وجاء الحجر، استصغره ولم يهتم به فأصيب فوضع يده على جرحه ثم مات، فغسل دمه علقمة صاحب البرد الذي عصب معضد رأسه به فلم يذهب الدم، فكان علقمة يحضر به الجمعة ويقول: إنما يدفعني على لبسه، أن فيه دم معضد.

وأما عمرو بن عتبة، فلبس عند المزاحمة قباءً أبيض، وقال: ما أحسن الدم على هذا! فأتاه حجر فقتله، وملأه دماً.

وأما القرثع، فكان يقول قبل المزاحمة: ما أحسن لمع الدماء على الثياب، ثم أصيب في المعركة — بلنجر — حتى خرقت الحراب جسده.

قال المؤرخون: فكأنما كان قباؤه ثوباً، أرضه بيضاء ووشيه أحمر، ومازال الناس ثبوتاً حتى أصيب، ثم كانت هزيمة الناس مع مقتله.

ولما بلغ عثمان مقتلهم قال: إنا لله وإنا إليه راجعون! انتكث أهل الكوفة، اللهم تُبْ عليهم، وأقبل بهم.

وهنا نحب أن نشير إلى تعبير يستعمله المؤرخون القدامى، هذا التعبير هو كلمة هزيمة وكانوا يعنون بها الانسحاب، لأنَّ الانسحاب ترك ساحة القتال وفق خطة مرسومة بقيادة واحدة، فهو — الانسحاب — صفحة من صفحات القتال، الهدف منه إعادة الكرة على العدو بعد إكمال متطلبات المعركة عَدَداً أو عُدداً، كما قال صاحب كتاب«قادة الفتح الإسلامي في أرمينية»، وهذا ما أشار إليه المؤرخ العراقي المشهور العميد الركن محمود شيث خطاب حيث قال: إن الانسحاب أشبه بقتال المسلمين يومئذ، وذلك في حال اشتداد الضغط عليهم، وكثرة الخسائر في الأرواح، والانسحاب عندها هو من أجل الانحياز إلى فئة من المسلمين، ليعيدوا الكرة ثانيةً على العدو.

ومما يؤكد هذا المعنى للهزيمة وأنها — الانسحاب — ماحصل في معركة مؤته سنة ٨ هـ

حين استشهد القادة الثلاثة الذين عينهم رسول الله ﷺ وهم: زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فعبدالله بن رواحة، فلما قال ﷺ بكى الناس لأنه ﷺ إذا قال فإن أصيب فلان فالأمير فلان، أصيب كل من ذكره.. ثم اتفق المسلمون بعد مقتل الأمراء الثلاثة على – خالد بن الوليد – فأخذ الراية ودافع العدو، وحاشى بهم ثم انحاز، فانحاز عنه العدو وانصرفوا فرجع خالد بالجيش إلى المدينة، فأقبل الناس يرمون الجيش بالتراب ويقولون: يافرار يافرار، فقال رسول الله ﷺ وكان يحمل عبدالله بن جعفر ليسوا بالفرار، ولكنهم الكُرَّار، إن شاء الله.

وسمى النبي ﷺ حينها خالداً سيفَ الله وقال ﷺ: ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله خالد بن الوليد، فعاذ بالناس.

هذا هو معنى الهزيمة عند العرب، وليس معناها، ترك ساحة القتال بدون نظام ولا قيادة، ولا ترتيب، فهي عندئذ كارثة.

ثم يقول اللواء الركن شيث خطاب: فعسى ألا يقع المؤرخون المحدثون في مثل هذا الخطأ في التعبير، فلا يفرقون بين الهزيمة والانسحاب لئن الفرق بين التعبيرين شاسع. «قادة الفتح الإسلامي في أرمينية ص ١٥٢/ ١٥٣».

قال المؤرخون: كان الترك في أول معاركهم مع المسلمين قد بلغ بهم الخوف من المسلمين نهايته، فهربوا من قتالهم، واعتقدوا أن السلاح لا يؤثر فيهم، فانهزموا واختفوا في الغياض – الشجر الملتف – واتفق أن تركيّاً اختفى في غيضة ورشق مسلماً بسهم فقتله، فنادى في قومه، إن هؤلاء يموتون كما تموتون فلم تخافونهم؟

فاجترأ الترك بعدها وتكاثروا على المسلمين، وخرجوا من مكامنهم واشتد القتل، ووقع في المسلمين خسائر، واستشهد قائدهم عبدالرحمن بن ربيعة وكان يقال له – ذو النور –.

قال المؤرخون: الفتوحات في خلافة عثمان على الجبهة الشرقية هائلة، فقد كانت معظم الفتوحات على يد عبدالله بن عامر، حيث استعان بقائد فذ هو (الأحنف بن قيس) الذي تحرك على هذه الجبهة تحركاً واسعاً ثم عاد إلى رئيسه، عبدالله بن عامر، فلما التقيا قال الناس لابن عامر: ما فتح الله على أحد ماقد فتح عليك، فارس، كرمان،سجستان، وعامة خراسان، فماذا قال؟

قال: لأجعلنَّ شكري لله تعالى على ذلك أن أخرج معتمراً من موقعي هذا، فأحرم بعمرة من مكانه – نيسابور- فلما وصل إلى الخليفة عثمان، لامه على إحرامه من خراسان، وقال: ليتك تضبط ذلك من الوقت الذي يُحرِمُ منه الناس.

وتابع قائد عثمان (الأحنف بن قيس) فتوحاته، والتقى في معركة كبيرة مع أهل مَرْوُروذ، والطالقان، والفارياب، والجوزجان، ومعه المسلمون فقاتلهم من صلاة العصر حتى عامة الليل، وكان الأحنف يتمثل حين يحمل على العدو بقول جؤية الأعرجي:

أحقّ من لم يكره المنية   حَزَوَّرٌ ليست له ذريّة

وعند مدينة الجوزجان كانت المعركة الفاصلة حيث انتصر المسلمون فيها، وقتل بعض فرسان المسلمين الأشاوس، فقال كثيّر النهشلي يرثيهم:

سقى مُزْنَ السحاب إذا استهلَّتْ   مصـــــارعَ فتية في الجوزجان

قال المؤرخون: كانت فتوحات عثمان على هذه الجبهة كبيرة، وهي دليل على حزمه وعزمه، وكل ذلك ينفي عنه زعم الزاعمين أنه كان ضعيفاً، وهو زعم الروافض وأهل الاستشراق، ومن تربى في أحضانهم.

ويكفي أن تشاهد منه حسن اختياره للقادة الذين امتلأ التاريخ بذكرهم، وبتقواهم وبتضحيتهم، وحسبك من بينهم الأحنف بن قيس، وهو من سادات التابعين، كان مطاعاً في قومه، وسيد أهل البصرة، كان ثقة عند الناس جميعاً وكان مهاباً، وقد قيل فيه، كما نقل صاحب كتاب «فتوح السند وأفغانستان ص ٣٠٤»:

إذا الأبصارُ أبصرت ابنَ قيس   ظللّـــــن مهابةً منه خشوعا

وكان يفرُّ من الشرف والشرف يتبعه، وكان حكيماً ينطق بالحق والموعظة، سئل عن المروءة فقال: التقى والاحتمال، ثم أطرق ساعة فقال:

وإذا جميلُ الوجـــه لم   يأت الجميلَ فما جماله

ما خيرُ أخلاق الفتى   إلا تُقـــاه واحتمالــه

وكان يقول: جَنِّبوا مجالسنا الطعام والنساء، فإني أبغض الرجل يكون وصافاً لفرجه

وبطنه، وإن المروءة أن يترك الرجل الطعام وهو يشتهيه.

وهنا نلقي مزيداً من الضوء على شخصية الأحنف بن قيس لِمَا كلن له من دور في فتوحات الجبهة الشرقية، وصفة المؤرخون بأنه رجلٌ يقاتل عدوه بسيفه وعقله معاً، وجمع بين قدرته على إعداد الخطط الناجحة والقرارات السريعة، مع شجاعة ليس لها نظير، حيث كان يُؤثِرُ جنده بالراحة والأمن، ويتقدم هو إلى مواضع الخطر.

قال عنه الحسن البصري: ما رأيت شريفَ قومٍ أفضل منه.

قال الأحنف: حجزني عمر عنده سنة في المدينة، يأتيني كل يوم وليلة، فلا يأتيه عني إلا ما يحبُّ، فقال له عمر بعد أن حجزه سنة كاملة عنده: يا أحنف!! قد بلوتك وخبرتك، فلم أر إلا خيراً، ورأيت علانيتك حسنةً وأنا أرجو أن تكون سريرتك مثل علانيتك. «الطبقات لابن سعد ٧/ ٩٤».

وقال فيه ابن كثير في «تاريخه»: كان الأحنف رجلاً صالحاً، كثير الصلاة بالليل، وكان يُسرج المصباح ويصلي ويبكي، وكان يضع إصبعه في المصباح ويقول لنفسه: إذا لم تصبر على المصباح فكيف تصبر على النار الكبرى، وكان كثير الصوم، فإن قيل له في ذلك وأنه يضعف المعدة. قال: إني أعده لسفر طويل.

ولما تولى خراسان وأتى مدينة فارس، أصابته جنابة في ليلة باردة، فلم يوقظ أحداً من الخدم أو الجند، وانطلق يطلب الماء فمشى على شوكٍ حتى سالت قدماه دماً، فوجد الثلج، فكسره واغتسل، كما روى مؤلف كتاب «فتح السند وأفغانستان».

وكان معظم دعائه: اللهم إن تغفر لي فأنت أهل لذلك، وإن تعذبني فأنا أهل لذاك.

ومرَّت به جنازةٌ فقال: رحم الله من اجتهد نفسه لمثل هذا اليوم.

ونقف عند دعائه: اللهم إن تغفر لي فأنت أهل ذاك، وإن تعذبني فأنا أهل لذاك.

إن فيه الإشارة إلى الآية الأخيرة من سورة المدثرفي قوله تعالى: ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾[1] فالله سبحانه ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴿٥٦﴾﴾، أي هو وحده سبحانه مستحقٌ أن يُتقى عذابه

(١) المدثر: ٥٦.

وأن غيره لا يستحقُّ أن تُبقَى، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ ٣٧﴾[1].

وقوله: ﴿وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ٥٦﴾[2] أي أن المغفرة من خصائصه سبحانه، وأنه أهلٌ وحقيق لئن يغفر لفرط رحمته وسعة كرمه وإحسانه، وما أجمل قول القائل في هذا المعنى:

ألا يا ارحموني يا إلهَ محمد فإن لم أكن أهلاً فأنت له أهلُ

ومن حديث أنس أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ٥٦﴾ فقال ﷺ: «قد قال ربكم أنا أهلٌ أن أُتقى فلا يجعل معي إلهٌ، فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهاً آخر فأنا أهلٌ أن أغفر له».

وأخرج الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى: «إني لأجدني أستحي من عبدي يرفع يديه إليَّ ثم يردهما من غير مغفرة». قالت الملائكة: إلهنا ليس لذلك بأهل، فيقول تعالى: «لكني أهل التقوى وأهل المغفرة أشهدكم أني قد غفرت له».

وهكذا كان الأحنف رجلاً في أمةٍ، وأمةً في رجل، إنه سيد المشرق كما يقول عمر بن الخطاب.

جبهة الشام:

قال المؤرخون: إن عثمان هو أول من أجاز الغزو البحري للمسلمين، فقد حاول معاوية بن أبي سفيان عندما كان والياً لعمر بن الخطاب على بلاد الشام أن يزين له غزو البحر، وأن يأذن له به، حتى وصف لعمر بن الخطاب مرة قرب الروم من مدينة حمص فقال: يا أمير المؤمنين إن قرية من قرى حمص يسمع أهلها نُباحَ كلابهم وصياح دجاجهم؛ وكاد عمر يقتنع بغزو الروم بحراً من كثرة إلحاحه عليه ولكنه أراد أن لا يتعجل في هذا الأمر، فكتب إلى عمرو بن العاص، وقال له: صِفْ لي البحر وراكبه، فإن نفسي تنازعني إليه، فكتب إليه عمر بن العاص: إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خَلْقٌ صغير، ليس إلا السماء والماء، إنْ ركنَ خرق القلب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقينُ قلَّةً، والشك كثرةً، هم كدودٍ على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق، - هدد -.

---

(١) الأحزاب: ٣٧.

(٢) المدثر: ٥٦.

فلما قرأ عمر هذا الوصف للبحر كتب إلى معاوية: أنَ لا، والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل عليه مسلماً أبداً، وتالله لَمسلمٌ أحبُّ إلي مما حوت الروم فإياك أن تعرض لي وقد تقدمتُ إليك.

قال المؤرخون: ولكن الفكرة في غزو البحر لم تفارق ذهن معاوية، فلما تولى الخلافة عثمان، عاود معاوية الحديث عن غزو البحر وألح عليه مع عثمان، فكان ردُّ عثمان على معاوية أن قال له:

إني قد شهدتُ ما ردَّ عليك عمر رحمه الله تعالى حين استأذنته في غزو البحر.

وعاود معاوية الكرة مع عثمان يُهَوِّنُ عليه ركوب البحر إلى قبرص، فكتب إليه عثمان:... فإن ركبت معك امرأتك فاركبن مأذوناً وإلا فلا، ثم أضاف عثمان تعليمات أخرى فقال لمعاوية: لا تنتخب الناس ولا تُقرع بينهم، خَيِّرهم فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه، ففعل معاوية ما أمر به عثمان واستعمل على البحر – عبدالله بن قيس الجاسيّ –، فغزا خمسين غزوة من بين شاتيةٍ وصائفة في البحر، ولم يغرق له أحد ولم يُنكب؛ وكان يدعو الله أن يرزقه العافية في جنده، وأن لا يبتليه بمصابِ أحد منهم ففعل، حتى إذا أراد الله أن يصيبه وحده؛ خرج في قارب طليقةٍ، فانتهى إلى مرقى من أرض الروم، – مركز للرصد له درجات –، وعليه سُؤّال يَعْتَرُّون – فقراء يسألون الناس – بذلك المكان، فتصدق عليهم، فرجعت امرأة من السؤّال إلى قريتها، فقالت للرجال: هل لكم في عبدالله بن قيس؟ قالوا: وأين هو؟ قالت: في المرقى – أي المرفأ –، قالوا لها: أي عدوَّةَ الله! ومن أين تعرفين عبدالله بن قيس؟ قالت: فوبَّختهم، وقالت: أنتم أعجز من أن يخفى عبدالله على أحد. فثاروا إليه وهاجموه، فقاتلهم، وأصيب وحده، وأفلتَ الملاحُ حتى أتى أصحابه، فجاؤوا حتى أرقوا – وصلوا المرقاة – وكان قائدهم منهم سفيان بن عوف الأزدي فخرج فقاتلهم، وكان غَضُوباً، فجعل يشتم أصحابه ويوبخهم، فقالت جارية لعبدالله بن قيس، واعبدالله ما كان هكذا يقول حين يقاتل! فقال سفيان بن عوف: وكيف كان يقول؟ قالت: الغمراتُ ثم ينجلينا، فترك سفيان التوبيخ والشتم لجنوده، ولزم: الغمرات ثم ينجلينا.

ويروي المؤرخون أنه قيل للمرأة التي دلت عليه قومها: كيف عرفتيه، وبأي شيء مَيَّزتيه؟ قالت: بصدقته؛ أعطى كما يعطي الملوك؛ ولم يقبض قبض التجار – أي لم يبخل كما يبخل التجار –.

ويذكر المؤرخون: أن معاوية أعدّ المراكب لحمل الجيش، واتخذ ميناء عكا مركزا للانطلاق، وحمل معه زوجته فاختة بنت قَرَظة، وكان في هذه الغزوة عبادة بن الصامت، وحمل معه امرأته أم حرام بنت مِلحان في تلك الغزوة، وقد ورد في «صحيح البخاري» من حديث أنس قال: دخل رسول الله ﷺ على ابنة ملحان فاتكأ عندها، ثم ضحك، فقالت: لِمَ تضحكُ يارسول الله؟ فقال ﷺ: «ناس من أمتي يركبون البحر الأخضر في سبيل الله، مثلهم مثل الملوك في الأسرة»، فقالت أم حرام: يا رسول الله، ادع الله ان يجعلني منهم، فقال: «اللهم اجعلها منهم»، ثم عاد رسول الله ﷺ فضحك، فقالت له مثل ذلك، فقال ﷺ: مثل جوابه الأول، فقالت: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال ﷺ: «أنت من الأولين ولست من الآخرين».

قال أنس: فتزوجت عبادة بن الصامت فركبت البحر مع زوجة معاوية وركبت معه البحر لغزو قبرص، وركبوا من ميناء عكا متجهين إلى قبرص، ونزلوا الساحل، وتقدمت أم حرام لتركب دابتها، فنفرت الدابة، وألقت أم حرام على الأرض فاندقَّ عنقها وماتت هناك.

قال الصلابي: وترك المسلمون أم حرام بعد دفنها في أرض جزيرة قبرص عنواناً على مدى التضحيات التي قُدمت في سبيل الله، وعرف قبرها هناك بقبر المرأة الصالحة.

هنا سؤال قد يطرح نفسه، لماذا غزا المسلمون قبرص؟

والجواب: أن عمر كان من سياسته أن لا يجعل بينه وبين جيش المجاهدين بحراً، ولا جسراً، ولما عرض عليه معاوية غزو البحر، رفض عمر، ولم تكن مشكلة ركوب البحر أمراً ضرورياً يتطلب الحلَّ السريع من ولي الأمر، ولكن لما تولى عثمان، ظهرت مشكلة الغزو في البحر، لماذا؟

قال المؤرخون: لأنَّ مصائب المسلمين جميعاً جاءت حينها من البحر، من بحار فارس والروم، وأصبح ركوب البحر ضرورة لا محيدَ عنها بعد أن كانت ليست ضروريةً، ولكن كيف ذلك؟

والجواب: أصبحت قبرص ورودس وجزر الشاطئ القريب ملتقى تتربص فيه أساطيل الكفر المجتمعة من أقطار دول الروم، وأصبحت خطراً على البلاد، الإسلامية من الشام ومصر وفلسطين والقيروان، تخشى منها المفاجأة..

قال المؤرخون: ونظر عثمان إلى هذه المشكلة – الغزو في البحر – من أدلِّ الأمور على نصيبه في الاجتهاد ومن الاقتداء، ومن أدلّ الأمور على إقدامه على أمرٍ أحجم عنه من هو أشهر منه بالإقدام – أي عمر والصِّدِّيق – فقد كان عسيراً على عثمان أن يبيح ركوب البحر، كما كان عسيراً عليه أن يمنع غزو البحر، والعدوُّ أخذ تلك الأماكن مركز انطلاق لقتال المسلمين وأماكن راحته، وبؤر تآمر، فخرج عثمان من هذين العسيرين خيرَ مَخرج، فكتب إلى معاوية ما ذكرناه.. ألا يجبر أحداً على ركوب البحر، وألا ينتخب الناس، ولا يقترع بينهم، وأن يُخيِّرهم، وأن يحمل معاوية زوجته معه..

وعلى هذه الشروط غزا – عبدالله بن قيس الجاسي – قائد الأسطول خمسين غزوة بين شاتيةٍ وصائفة لم يغرق أحدٌ ولم ينكب أحد كما مرَّ معنا، وبهذا أمَّنَ المسلمون البحر لمن يسلكه من المسلمين، والمسالمين، ولو أنهم تركوا البحر ولم يغزوا فيه لما أمكن دفع غارات الروم البحرية، ولما استطاعوا تأمين الملاحة والسيطرة عليها.

قال المؤرخون: سُمحَ لمعاوية بغزو البحر لتأمين اعتداءات الروم، واجتمع معاوية بأصحابه وفيهم أبو الدرداء، وأبو ذر الغفاري، وعبادة بن الصامت، وأبو أيوب الأنصاري، والمقداد بن الأسود وغيرهم وتشاوروا، وكتبوا إلى أهل قبرص: إننا لم نغزوكم للاستيلاء على جزيرتكم، ولكن ندعوكم لدين الله، ولتأمين حدود الدولة الإسلامية بالشام من اعتداءات البيزنطيين الذين يتخذون من قبرص مركزاً لمؤونتهم وتحركاتهم.

ولكن أهل قبرص لم يردوا على رسالة المسلمين وتحصنوا في العاصمة – قسطنطينا – وتأملوا أن يسرع الروم للدفاع عنهم..

عندها تقدم المسلمون إلى العاصمة وحاصروها ساعات فاستسلمت وطلبوا الصلح، وصالحهم المسلمون، على شروط من الطرفين: أما شرط أهل قبرص فهو أنهم طلبوا من المسلمين ألا تطلبوا شرطاً يُورِّطنا مع الروم فليس عندنا القدرة على قتالهم، وأما المسلمون، فكان من أهم شروطهم:

١ – ان يسمح أهل قبرص لمرور المسلمين إذا حصل قتال مع الروم.

٢ – ألا يساعد أهل قبرص الروم، ولا ينقلوا لهم أخبار المسلمين.

٣ – أن يساعدوا المسلمين في بيان تحركات الروم.

قال المؤرخون: وعاد المسلمون، وقد أثبتوا قدرتهم على خوض المعارك البحرية بجدارة. نَقضُ القبارصة للعهد والصلح: في سنة ٣٢ هـ وقع القبارصة تحت ضغط رومي عنيف وطلبوا من القبارصة إمدادهم بالمؤن فأمدوهم وخالفوا عهد الصلح، وعلم معاوية بخيانة أهل قبرص، فقرر الاستيلاء عليها، فغزا المسلمون الجزيرة، واستولوا عليها، ونقل الناس إلى بعلبك وبنوا مدينة فيها وأقاموا مسجداً، وصالح معاوية أهل قبرص على الشروط الأولى.

قال المؤرخون: أدرك المسلمون أن أهل قبرص لا يملكون قدرات عسكرية، وهم ضعفاء أمام الروم، وأن من الواجب على المسلمين حمايتهم حتى يتم تأمين الدولة الإسلامية، وبخاصة أن الروم كانوا يظلمونهم. لذلك قال اسماعيل بن عياش: أهل قبرص أذلاء مقهورون يغلبهم الروم على أنفسهم ونسائهم فحقَّ علينا أن نمنعهم ونحميهم.

وبعد هذا الفتح ظلت الجزيرة هادئة آمنة من اعتداءات البيزنطيين على أهلها وعلى المسلمين.

ما أهون الخلق على الله إذا هم عصوه:

ونحب هنا أن نشير إلى موقف لأبي الدرداء في سياق فتح قبرص، ذلك أن أبا الدرداء لما نظر إلى نصر المسلمين وما وقع في أيديهم من كثرة الأسرى والسبي بكى، فقال له – جبير بن نفير –: أتبكي في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال أبو الدرداء: ويحك يا جبير، إن هذه كانت أمة قاهرة لهم ملك، فلما ضيعوا أمر الله سلط عليهم السبي، ثم قال: ما أهون العباد على الله إذا هم تركوا أمره.

قال المؤرخون: ما تِفوَّه به أبو الدرداء.. يعتبر مثلاً للبصيرة النافذة، والفقه الواعي في أمر الله تعالى، فأبوالدرداء يبكي حسرةً على هؤلاء الكفرة الذين أعمى الله بصائرهم لرفضهم الانقياد لدعوة الحق، ولو أنهم عقلوا لأدركوا أن دخولهم في الحق هو الذي يحفظ ملكهم وعِزِّهم، وينجيهم في الآخرة.

وموقف آخر نذكره هنا لعبادة بن الصامت في قسمة غنائم قبرص، حيث قال لمعاوية بن

أبي سفيان: شهدتُ مع رسول الله ﷺ غزوة حنين، والناس يكلمونه في الغنائم، فقال ﷺ لهم بعد أن أخذ وبرة من بعير وقال: «ما لي مما أفاء الله عليكم من هذه الغنائم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم»، فاتق الله يامعاوية في القسمة، ولا تعط أحداً أكثر من حق، فقال معاوية: قد وليتك قسمة الغنائم، وليس أحد في الشام أفضل منك ولا أعلم فاتق الله في قسمتها.

قال المؤرخون: فقسمها عبادة بن الصامت بين أهلها، وأعانه على ذلك صحابيان جليلان، أبو الدرداء وأبو أمامة.

الفتوحات على الجبهة المصرية:

كان أول عمل على هذه الجبهة، هو تأديب المتمردين في الاسكندرية:

قال المؤرخون: كان سقوط الاسكندرية في أيدي المسلمين ضربة قاصمة للروم، وكانوا يتحينون الفرص لاستردادها، وبدؤوا بتحريض بعض سكان الاسكندرية من الروم للخروج على سلطان المسلمين، وتحرك الروم لإعادة الاسكندرية بقوات هائلة تتألف من ثلاثمائة سفينة مشحونة بكل ما يلزم من السلاح والعتاد.

علم أهل مصر الأصليين بأن قوات الروم وصلت إلى الاسكندرية بقيادة منويل الخصي، فكتبوا إلى عثمان يطلبون منه أن يعيد عمرو بن العاص والياً عليهم، - وكان عثمان قد عزله وولى مكانه عبدالله بن سعد بن أبي السرح – وقالوا: إن عمرو بن العاص أعرفُ بحرب الروم، وله هيبة في نفوسهم فاستجاب الخليفة عثمان لطلب المصريين، وأعاد لهم عمرو بن العاص.

قال المؤرخون: تقدم مانويل الخصي بجيشه، ووصل الاسكندرية، فنهبها، ثم تركها قاعاً صفصفاً، وعاث مع جنده فيها وفي القرى المجاورة ظلماً وفساداً.

كل ذلك، وعمرو بن العاص لم يحرك ساكناً في ردهم، ليزدادوا فساداً، وليشعر المصريون سكان البلد الأصليون بالفارق الكبير بين حكم المسلمين، وحكم الرومان، وتركهم حتى امتلأت قلوب المصريين حقداً على الرومان.

خرج مانويل الخصيُّ من الاسكندرية بعد الإفساد فيها، وقصد مصر السفلى وعمرو لم يحرك ساكناً ضد الروم – وهنا تخوف بعض قادة المسلمين من ترك منويل الخصي يتحرك بحرية، فقال لهم عمرو بن العاص: دعهم يسيروا إلي، فإنهم يصيبون من مرّوا به، فيخزى بعضهم ببعض.

قال المؤرخون: وقد صدق حدس عمرو بن العاص واجتهاده، فقد أمعن الروم في النهب والإفساد حتى ضج منهم المصريون، وصاروا يتطلعون إلى من يخلصهم من شر هؤلاء الغزاة المفسدين الرومان.

قال المؤرخون: وصل مانويل الخصي إلى مدينة (نقيوس) حيث كان فيها عمرو بن العاص قد استعد للقائه، وعبأ جنده، واتجه إلى مانويل، وتقابل الجيشان عند حصن نقيوس على شاطئ النيل.

وأجمع المؤرخون على أن هذه المعركة كانت شرسة، استبسل فيها الفريقان، وشهدوا لعمرو بن العاص بأنه أمعن في صفوف العدو ضرباً وقطعاً للرؤوس حتى دخل بينهم، وأصيب فرسه بسهم فترجَّل عمرو وانضم إلى صفوف المشاة يقاتل معهم، ولما رآه المسلمون على هذه الحال تضاعف حماسهم واستهانوا بالموت طلباً لموعود الله وهو الجنة.

قال المؤرخ البلاذري: وأمام ضربات المسلمين وَهَنَتْ عزائم الروم وانهارت قواهم، وانهزموا أمام الأبطال الذين يريدون إحدى الحُسْنيين، وقصد الرومُ في فرارهم الاسكندرية لعلهم يجدون في حصونها المنيعة، وأسوارها الشاهقة ما يُواري عنهم شبحَ الموت الذي يلاحقهم، وأثناء هربهم دمروا الجسور، وهدموا الطرق، فقام المصريون لما رأوا هزيمة الروم يصلحون ما أفسده الرومان، فيعيدون رصف الطرق ومدَّ الجسور، وأظهروا فرحهم بنصر المسلمين، وقدموا للجيش الإسلامي كل ما يلزم من سلاح ومؤونة.

قال المؤرخون: وصل عمرو بن العاص إلى الاسكندرية وقد تحصن بها الهاربون فنصب عليها المنجنيقات وهدم أسوارها، ودخلها المسلمون وأعملوا السيف في الرومان، فأسرع من بقي منهم إلى السفن ليفروا عائدين من حيث أتوا، وكان مانويل الخصي في عداد القتلى.

قال صاحب كتاب «جولة تاريخية ص ٣٣٨»: ولما توسط المسلمون المدينة ولم يبق من الروم من يقاتل أو يقاوم، أمر عمرو بن العاص ببناء مسجد في المكان الذي توقف فيه القتال وسماه مسجد الرحمة.

ثم عادت الطمأنينة إلى الاسكندرية وأهلها، ورجع إليها من كان قد فرَّ منها من ظلم

الرومان، وعاد بطريقُ الاسكندرية – بنيامين – القبطي بعد أن كان قد فرَّ مع الفارين، وطلب من عمرو بن العاص أن يبقى على حسن معاملة القبط حيث انهم لم ينقضوا العهد، ورجاه ألا يعقد صلحاً مع الروم، وطلب من عمرو أن يدفنه في كنيسة – يحنس – كما روى صاحب كتاب «جولة تاريخية ص ٣٤٠»، ثم جاء سكان مصر من كل حدب وصوب يشكرون عمرو بن العاص على تخليصهم من ظلم الروم، وطلبوا منه إعادة ما نهب من أموالهم، فأعاد عمرو للقبط المال والدواب لكل من أقام بَيِّنة على دعواه، أو من عرف من له بعينه فردَّه عليه.

العمل الثاني على الجبهة المصرية فتح بلاد النوبة:

قال المؤرخون: أول من بدأ بفتح بلاد النوبة عمرو بن العاص، في أيام الخليفة عمر بن الخطاب، فوجد عمرو حرباً مع أهلها لم يألفه المسلمون وهي الرميُ بالنبال في أعين المحاربين، حتى فقد المسلمون مائة وخمسين عيناً في أول معركة، ثم تهادن الجيشان، ثم تولى قيادة الجيش الإسلامي سنة إحدى وثلاثين للهجرة القائد المظفر عبدالله بن أبي السرح، فقاتله الأساودُ من أهل النوبة قتالاً شديداً، وأصيب يومها عيونٌ كثيرة من المسلمين في معركة دُمْقُلَهْ، فقال الشاعر كما ورد في كتاب قادة الفتح في المعركة:

لم ترَ عينٌ مثل يوم دمقلـــه   والخيل يعدو بالدروع مُثقله

ثم تصالح الفريقان، واعتنق كثير من أهل النوبة الإسلام، واطمأن المسلمون إلى حدودهم الجنوبية، وبقي هذا الصلح مدة ستة قرون كما ذكر صاحب كتاب «الخلافة والخلفاء الراشدون» اختلط المسلمون بالنوبة والبَجَّةِ، واتسعت بينهم التجارات، وانتشر الإسلام.

العمل الثالث: فتح افريقية:

قال المؤرخون: في سنة ٢٦هـ ٦٤٦ م تولى عبدالله بن سعد بن أبي السرح الولاية على مصر، بدلاً من عمرو بن العاص، فكان يبعث جرائد الخيل – هي أشبه ما يكون بكتائب استطلاعية صغيرة – إلى حدود أفريقية – تونس –.

فاجتمعت عنده معلومات كافية عن أفريقيا، عن قوتها وعتادها وموقعها ومداخلها ومخارجها، ثم كتب إلى عثمان بهذه المعلومات واستأذنه بفتحها.

يقول الدكتور صالح مصطفى كما نقل الصلابي في كتابه «عثمان»:

وصل كتاب عبدالله بن سعد إلى الخليفة عثمان يستأذنه بالفتح، جمع عثمان الصحابة واستشارهم في ذلك، فأشاروا عليه بفتحها إلا واحداً اسمه سعيد بن زيد أبو الأعور، فلما أجمع الصحابة على ذلك، دعا عثمان للجهاد، وتحركت المدينة النبوية، وتم تجهيز المجاهدين لارسالهم إلى أفريقية تحت قيادة ابن أبي السرح.

قال الصلابي: وقد ظهر الاهتمام بهذه الغزوة جلياً، حيث خرج فيها عدد من كبار الصحابة، ومن خيار شباب أهل البيت، وأبناء المهاجرين الأوائل، وكذلك الأنصار، وكان في هذه الغزوة الحسن والحسين، وابن عباس، وابن جعفر، وغيرهم وكان القائد ابن أبي السرح مداوماً على الاستطلاع، فرصد مجموعاتٍ من السفن الحربية الرومانية ترسو في ساحل ليبيا البحري على مقربة من طرابلس تريد مباغتة المسلمين، فانتبه لها هذا القائد فباغت هذه القوة وأسر مائة من ركابها، وغنم كثيراً مما في هذه السفن، فكانت هذه أول غنيمة غنمها المسلمون من أفريقية.

ثم واصل الجيش الإسلامي بعد ذلك تحركه حتى وصل إلى مدينة – سُبيطلة – عندها التقى الجيش الإسلامي يقوده عبدالله بن سعد ابن أبي السرح مع حاكم أفريقية الطاغية جُرْجير، وكان بين القائدين – كما يذكر المؤرخون – اتصالات ومكاتبات، للسماح بعرض الدعوة.. ولكن جُرجير أبى ورفض كل العروض وأصرَّ واستكبر حيث كان يقود مائة وعشرين ألف مقاتل، فدارت المعركة بين الفريقين لأيام عدة لم يظهر أحدٌ من الفريقين على الآخر، حتى وصل المدد إلى المسلمين بقيادة عبدالله بن الزبير حيث حسم المعركة وكانت نهاية الطاغية جُرجير على يديه.

وصل عبدالله بن الزبير مدداً للمسلمين في أفريقيا ولما التقيا كبر المسلمون وفرحوا، فسأل جرجير عن الخبر، فقيل له: قد أتاهم عسكرٌ، ففتَّ ذلك في عضده.

راقب ابن الزبير المعركة، فرأى المسلمين يقاتلون من البكرة حتى الظهيرة، فإذا أذن الظهر عاد كلُّ فريق إلى خيامه، ثم شهد ابن الزبير القتال في اليوم الثاني فلم يرَ عبدالله بن سعد في المعركة فسأل عنه فقيل: إنه سمع منادي جرجير يقول: من قتل عبدالله بن سعد فله مائة ألف دينار وزوجته ابنتي، ولذلك فهو حَذِرٌ..

فأتاه ابن الزبير وقال له: تأمر منا من ينادي: من أتاني برأس جرجير نفلته مائة ألف

وزوجته ابنته، واستعملته على بلاده، ففعل عبدالله بن سعد، فصار جرجير حذراً وخائفاً أكثر من خوف عبدالله بن سعد.

ثم قال ابن الزبير لعبدالله بن سعد: إن أمرنا مع هؤلاء يطول، وهم في بلادهم يأتيهم المدد كل يوم، ونحن منقطعون عن ديار المسلمين فلا بد من حسم المعركة، قال عبدالله: وكيف؟ قال ابن الزبير: إني أرى أن نترك جماعةً صالحة غداً من أبطال المسلمين في خيامهم متأهبين، ونقاتل نحن الروم في باطن العسكر إلى أن يملوا، فإذا رجع كلٌّ من الفريقين إلى خيامه، ركب من كان في الخيام من أبطال المسلمين وهم مستريحون، فنفاجئ بهم الروم لعل الله ينصرنا عليهم.

واستشار في ذلك أعيان الصحابة فوافقوه على الخطة، وفي الغد فعل قائد المسلمين ما اتفقوا عليه، فأقام شجعان المسلمين في خيامهم وخيولهم مسرجة، ومضى الباقون للقتال، فلما أذن الظهر همّ الروم بالانصراف، فلم يُمكِّنهم ابن الزبير وألح عليهم بالقتال حتى أتعبهم، ثم رجع بمن كان معه من المسلمين، فوقع كلٌّ من الفريقين تعباً ملقياً سلاحه عندها أخذ ابن الزبير من كان مستريحاً من شجعان المسلمين، وقصد الروم، وخالطهم فجأةً، وكبر المسلمون، فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون، وقتل جرجير، وقتله ابن الزبير، وانهزم الروم، وأخذ ابنة جرجير سبيةً، ولما تم فتح سبيطلة تقدم قائد المسلمين عبدالله بن سعد وقدّم ابنة ملك النوبة التي وقعت في أسر المسلمين نفلاً لعبدالله بن الزبير، وأرسله إلى عثمان بالبشارة بفتح أفريقيا، فسار إلى عثمان مبشراً ومعه أموال الفتوح.

وقد ذكر الحافظ ابن كثير – رحمه الله تعالى – موقف عبدالله بن الزبير وما أبدى من خارق البطولة فقال:

لما قصد المسلمون أفريقية وهم عشرون ألفاً أميرهم عبدالله بن سعد وفي جيشه عبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمر، قابلهم ملك البربر جرجير في مائة وعشرين ألفاً، وقيل في مائتي ألف، فلما التقى الجمعان فاجأ جرجير جيش المسلمين بجيشه الضخم، فأحاطوا بالمسلمين هالةً، واسمع معي ما قاله المؤرخون في هذا الموقف الصعب للمسلمين.

قال المؤرخون: فوقف المسلمون عندها في موقفٍ لم يُرَ أشنع منه ولا أخوف عليهم منه.

والآن، نترك الحديث لعبدالله بن الزبير، حيث يقول في هذا المقام: نظرت إلى الملك

جرجير وقد وقف من وراء الصفوف وهو راكبٌ على برذونٍ، وجاريتان تُظلَّانهِ بريش الطواويس، فذهبت إلى أميرنا عبدالله بن سعد بن أبي السرح، فطلبت منه أن يبعث معي من يحمي ظهري، وأقصد الملك، فجهز معي نخبةً من الشجعان، فأمر بهم فحموا ظهري، وذهبت حتى خرقتُ الصفوف إليه، وجندهم يظنون أني أحمل رسالة إلى الملك، فلما اقتربت منه أحس مني الشرَّ، ففرَّ على برذونه، فلحقتُه، فصفعته برمحي، وذَفَفْتُ – أجهزت – عليه بسيفي، وأخذت رأسه فنصبته على رأس الرمح وكبَّرت، فلما رأى البربر ذلك فَرَقُوا وفروا كفرار القطا، وأتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وكان نصراً عظيماً وذلك ببلد يقال لها سبيطلة، على مسافة يومين من القيروان.

قال ابن كثير: هذا أول يومٍ – موقفٍ – اشتهر به عبدالله بن الزبير رضي الله عنه وعن أبيه، وأصحابها أجمعين، وعمره حينها سبعٌ وعشرون سنة.

وهذه الحادثة دليل على أن الله مع أوليائه المؤمنين، وأنه سبحانه ينقذهم من المأزق، فقد وقع المسلمون في معضلة كبيرةٍ حيث أحاط بهم عدو يفوقهم ست مرات في العدد أو أكثر، وكان على المسلمين أن يقاتلوا في كل الجوانب، وهذا أمرٌ عسيرٌ يؤيده قول الراوي: فوقف المسلمون في موقفٍ لم ير أشنع منه، ولا أخوف عليهم منه. فقيض الله لهم هذا البطل المغوار الذي أقدم على مغامرة نادرةٍ، فأنقذ الجيش كله، ولم ينس التاريخ الأبطال الذين حموا ظهره فإن لم يذكر أسماءهم، فالله يعلمهم وسيوفيهم أجورهم مع المجاهدين الصادقين.

قال المؤرخون: وقد قدم المسلمون الكثير من الشهداء في فتح أفريقية خلال فتوحات عثمان وفي عهده، ومن جملة هؤلاء الشهداء، الشاعر المشهور أبو ذؤيب الهذلي، وله قصيدةٌ جميلة سار بها الرواة والركبان لجمالها، وفيها يرثي أولاده الخمسة أو السبعة الذين توفوا في يوم واحدٍ.. فقال بعد وفاتهم:

أَمِنَ المَنونِ ورَيْبِها تتوجعُ ... والدهر ليس بِمُعْتبٍ مَن يجزعُ
قالت أميمة ما لجسمك شاحباً ... منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع
فأجبتها أما لجسمي إنه ... أودى بنيَّ من البلاد فودَّعُوا
أودى بنيَّ فأعقبوني حسرةً ... بعد الرقاد وعَبرةٍ ما تقلعُ

سبقوا هوايَ وأعنقوا لهواهم ... فتخرموا ولكل جنب مصرع
ولقد حرصت بأن أدافع عنهم ... وإذا المنية أقبلت لا تُدفع
فالعين بعدهم كأن حداقها ... سُملتْ بشوكٍ فهي عورٌ تدمع
وتَجلُّدي للشامتين أُريهمُ ... أني لريبِ الدهر لا أتضعضعُ

وهذا البيت استشهد به معاوية عند وفاته.. حين قال: أفٍ لك يا دنيا، كنتُ عشرين سنةً أميراً وعشرين سنةً خليفةً، ثم أصير إلى هذا، وتجلّدي.

قد بينا في ما مرَّ معنا أن التاريخ الإسلامي مملوء بالروايات المصنوعة والموضوعة، ذلك لئن هذا التاريخ دون في العهد العباسي، وقام على تدوينه ثلاث طوائف:

الأولى: طائفة المتنفعين الذين كتبوا ليأكلوا بأقلامهم وهم موجودون في كل عصر ومصر.

الثانية: طوائف محترقةٌ، كالخوارج والروافض وأهل الأهواء، فالخوارج كَفَّروا علياً ونسفوا تاريخه، وجاء الرافضة فكتبوا تاريخاً لا وجود له في الأمة، ورفعوا علياً إلى مرتبة الألوهية..

الثالثة: وهي الطائفة الوسط من أهل السنة، كالطبري، وابن الأثير، وابن كثير، وابن عساكر، والذهبي، وابن هشام وغيرهم، فهؤلاء نقلوا في تواريخهم جميع الروايات بأسانيدها، وتركوا لمن بعدهم التدقيق لهذه النصوص.

ثم جاء من بعدهم أناس لا يتقنون هذا الفن، ولا يحسنُ أن يميز الخطأ من الصواب ظناً منهم أن الأمة ما كتبوا إلا كل صحيح وهذا سبب رئيسٌ في تشويه تاريخ أصحابه ﷺ.

قال المؤرخون: كان موت النبي ﷺ قاصمة الظهر، ومصيبة العمر حيث كان الدين قد اكتمل وتم، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ ...﴿٣﴾﴾[1].

وما من شيء يتم إلا ويأتي بعده النقص، وبدأ النقص بوفاته ﷺ، حت قال أنس: (وما نفضنا أيدينا عن رسول الله ﷺ حتى أنكرنا قلوبنا).

اضطرب الحال بموته ﷺ فتدارك الله هذه الأمة بالصديق ثم جاء عمر فجعلها شورى،

---

(١) المائدة: ٣.

وقدموا عثمان، وكان عثمان عند حسن الظن، فما خالف عهداً، ولا نكث وعداً، ولا اقتحم مكروهاً، ولا خالف سنةً، وما أجمل قول ابن تيمية ناقلا عن الإمام أحمد: (لم يتفق الناس على بيعةٍ كما اتفقوا على بيعة عثمان).

وقال ابن تيمية: ولاه المسلمون، وهم مؤتلفون، متحابون، معتصمون بحبل الله جميعاً، فأظهرهم الله، ونصرهم على الكفار، ففتح بهم بلاد الشام والعراق، وبعض خراسان فلم يعدلوا بعثمان غيره.

وهاهو الحسن البصري من أعلام التابعين يصف لنا الأمن والاستقرار والرخاء والشفقة على الرعية في عهد عثمان فيقول: شهدتُ منادي عثمان ينادي في الناس يقول: يا أيها الناس اغدوا على أُعطياتكم فيفدون، فيأخذونها كاملة، ثم ينادي اغدوا على كسوتكم، اغدوا على السمن، اغدوا على العسل، أرزاقٌ دارةٌ وخير كثيرٌ، وذاتُ بينٍ حسنٍ، ماعلى الأرض مؤمن يخاف مؤمناً، بل ينصره ويحبه ويألفه.

الفتنة على عثمان:

أخبر النبي ﷺ عن هذه الفتنة بالخبر القطعي عن طريق الوحي أن عثمان في هذه الفتنة على الحق، وأنه سيقتل مظلوماً وأمر النبي ﷺ المسلمين باتباعه.

فاحذر أن تتوهم أن عثمان كان على باطل، فقد روى الترمذي من سننه وقال حديث حسن صحيح من حديث عبدالله بن عمر، أن رسول الله ﷺ ذكر فتنةً فقال: «يقتل فيها هذا مظلوماً» – يعني عثمان – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وروى الإمام أحمد من حديث كعب بن عجرة قال: ذكر رسول الله ﷺ فتنةً فقرَّبها وعَظَّمها، ثم مرَّ رجل متقنع في ملحفةٍ فقال ﷺ: «هذا يومئذ على الحق». فانطلقت مسرعاً فأخذت بضبعيه – أي بعضديه –، فقلت: هذا يارسول الله؟

قال ﷺ: هذا، فإذا هوعثمان. (قال المحقق: إسناده صحيح).

وروى الحاكم في «مستدركه» بإسناد صحيح عن أبي هريرة أنه خطب فقال: إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنكم تلقون بعدي فتنة واختلافاً»، فقال له قائل من الناس: فمن لنا يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «عليكم بالأمين وأصحابه».

وروى أحمد في «مسنده» وابن شبَّةَ في «تاريخ المدينة»، عن عبدالله بن حوالة، أن النبي ﷺ قال: «مَنْ نجا من ثلاث فقد نجا»، قالوا: يارسول الله ماذا؟ قال ﷺ: «موتي، والدجال، وقتل خليفة مصطبرٍ بالحق يُعطيه»، والمقصود بموتي، ما حدث بعدها من رِدَّةٍ، والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وفي «تاريخ دمشق» لابن عساكر، من حديث أنس بن مالك قال: إن لله سيفاً مغموداً في غمده ما دام عثمان بن عفان حياً، فإذا قُتل عثمان جُرِّدَ ذلك السيف، فلم يُغمدْ إلى يوم القيامة.

وعند ابن شبةَ في «تاريخ المدينة» أن رسول الله ﷺ قال لعثمان: «يا عثمان إنك مستشهد، فاصبر صبرك الله، ولا تخلع قميصاً قَمَّصكَ الله».

إذا كان عثمان في هذه الفتنة مظلوماً صاحب حق، وهو شهيد، فماهي هذه الفتنة، ومن أين أتت، وماهي نوافذها؟

قال المؤرخون: إن النافذة العظمى التي أطل منها رؤوس الفتنة، والتي كانت مدار الخصومة: (محاسبة الإمام لنفسه، ومحاسبة الرعية لإمامها) وكان هذا الأمر شيئاً جديداً في التاريخ، وكان هذا الأمر – أي محاسبة الخليفة – يتصدى له الصغير والكبير على السواء. هو الفتح الذي جاءت به العقيدة الإسلامية على أعقاب الجاهلية وعلى مسمعٍ من طغيان الأكاسرة والقياصرة والتبابعة كما يقول العقاد رحمه الله تعالى.

وكانت الرعية تحاسب الخليفة حتى في زيادة الحِمى المتروك لإبل الصدقة بعد تكاثر هذه الإبل ومضاعفة عددها، بل كانوا يحاسبون والياً كمعاوية.. لماذا سمى مال الدولة، سماه بيت مال الله بعد أن كان اسمه بيت مال المسلمين، فغير الإسم، حاسبوه لأنهم خافوا أن يكون تغيير الاسم تمهيداً لإبعاد الناس عن المحاسبة حيث كان اسمه – بيت مال المسلمين –.

قال العقاد: هذه المحاسبة بين الحاكم والمحكوم قيمةٌ كبيرة، نشأت مع العقيدة الإسلامية؛ فالقانون في ذاته عظيم، وقيمته كبيرة على كل حال، فالمخلص يصونه، وغير المخلص وأصحاب الأغراض يدَّعون صيانته كاذبين مدلسين، ويبقى القانون مع ذلك كسباً عظيماً للشعوب لا يستهان به، ولا يستغني عنه عاقل بسبب كذبٍ يرتكبه بعض المغرضين...

وهكذا جمع القيم الغالية من قيم الحياة الإنسانية، كالحرية والصدق والفضيلة وغيرها، في

آمادِ التاريخ مما يحرص عليه الناس أو يُظهرون الحرص عليها، منهم من يحرص إخلاصاً، ومنهم مَنْ يصطنعون الحرص عليها، ويخفون أهواءً وأغراضاً...

وحتى ندرك قيمة هذه الفضيلة، وحتى نعلم هذه النقلة العظيمة التي نقلها الإسلام في هذا المجال لأتباعه...

يقول العقاد في كتابه «ذو النورين عثمان»: أين كان أبناء الجاهيلة من حق الحساب بين الحاكم والمحكوم؟

ثم يقسم أبناء الجاهلية إلى قسمين، أبناء البادية، والحكومات في العمران، ثم يقول:

أما في البادية، فقد كان الحساب كله على الثأر والانتقام، وإغارة القبيلة الكبيرة على القبيلة الصغيرة، وكان الغالب على الفرد العيش في كنف القبيلة، ولم تكن القيم قائمة على حق إنساني تحميه الشرائع والآداب.

ثم قال: وأما الحكومات التي قامت في الجزيرة العربية، على نحو من نظام الملك والإمارة، فقد كانت شريعتها طغياناً مطلقاً من جميع القيود، وكان بعض الملوك يتخذ من أهوائه ونزواته شعائر يدين بها الناس في حياتهم.. بل وفي موتهم..

فكان المنذر بن ماء السماء يجعل له يوم نعيم ويوم بؤس ويقتل كل من يسوقه إليه الحِيْن في يوم بؤسه ولو كان عابر طريق..

وكان يسكر ويأمر بالقتل فينفذ القتل لساعته ثم لا يدري بعد إفاقته لم هذا العقاب إن صح أن يسمى عقاباً.

ويروي المؤرخون: أن الحجر بن حارث فرض على بني أسد إتاوة ثقيلة فتمردوا عليها، فاستباح أحياءهم، واعتقل رؤساءهم، وأقسم ليقتلنهم بالعصا إحتقاراً لهم وهواناً بهم عنده أن يقتلهم بالسيف أو السلاح.

فسُمُّوا من أجل ذلك بعبيد العصا، وقال شاعرهم عبيد بن الأبرص:

ومنعتُهـــــم نجداً فقد حلُّــوا علــى وجلٍ تهامة

إمَّا تركـت تركـت عفوا أو قتلـــت فلا ملامة

أنتَ المُملَّك فوقهـــم وهُمُ العبيد إلى القيامة

وكان عمرو بن هند يكلم الناس من وراء الستور...

وكان العرب يضربون المثل بكليب وائل فيقولون عن الرجل العزيز البالغ في العزة – إنه أحمر من كليب وائل –، فماذا كان يفعل؟

كان يحمي الأراضي التي فيها الكلأ، فلا يقرب حِماه أحدٌ، ويمرُّ بالمكان يعجبه فيرمي عنده بكليب.. وينادي بين القوم: إنه حيث بلغ عُواؤه كان حمى لا يرعاه أحد غيره.

ومن أمثالهم المشهورة أنهم كانوا يقولون: - لا حُرَّ بوادي عوف – حيث كان من عزته يقهر كل من كان بواديه، فكلهم عنده عبيد، أو كالعبيد..

وأقبح من ذلك ما روي عن (عِمليق) ملك – طسم وجديس – فإنه كان يأمر ألا تُزفَّ فتاةٌ إلى زوجها قبل أن تُزف إليه، وفي ذلك تقول إحدى الفتيات:

أَيجمُلُ ما يؤتى إلى فتيانكم وأنتم رجالٌ فيكم عدد الرمل

وأما النافذة الثانية التي جاءت منها الفتنة، فهي تحول المجتمع البشري الإسلامي وإقبال الدنيا عليهم:

قال الصلابي في كتابه «عثمان»: حدثت تغيرات اجتماعية عميقة في عهد عثمان ابتداء من النصف الثاني من خلافته.

لما توسعت الدولة الإسلامية عبر حركة الفتوح الواسعة، حصل تغيير في تركيبة المجتمع، لئن هذه الدولة بتوسعها المكاني والبشري ورثت ما على هذه الأماكن الواسعة من أجناس وألوان ولغات، ومعتقدات وثقافات مما أظهر عدم التجانس التركيبي، وبخاصة في الأمصار الكبرى المؤثرة. كالشام ومصر، والكوفة والبصرة والمدينة ومكة...

فقد كانت هذه الأمصار الكبرى بمواقعها وأهميتها، تدفع بجيوش الفتوح، وتستقبلها وهي عائدة، وقد نقص عددها بالقتل أو الموت، وتستقبل بدلاً منهم، بل وأكثر منهم أعداداً وفيرة من أبناء البلدان المفتوحة، فُرسٌ وترك وبربر وروم وقبط وكرد، وهؤلاء شاركوا في الفتح الإسلامي، ثم استقروا في الأمصار، وهؤلاء في أغلبهم ليسوا ممن تلقوا التربية الكافية على يد رسول الله ﷺ أو على أيدي الجيل الأول من أصحابه ﷺ إما لانشغالهم بالفتوح، وإما لقلة

أصحاب النبي ﷺ، فنتج عن ذلك تغيرات في نسيج المجتمع البشري المكون من جيل السابقين، وسكان البلاد المفتوحة، والأعراب.. مع وجود نصارى أو يهود.. فالنسيج البشري الجديد تكون الآن من قطاعات عدة:

١ – **القطاع الأول**: قطاع الأسبقين ممن بقي من الصحابة ومن الذين نالوا قسطاً كبيراً من رعاية الصحابة لهم، ولكن هذا القطاع – الصحابة ومن تربوا على أيديهم – ظل يتناقص، إما بالموت أو القتل في ساحات الجهاد، وإما عن طريق تفرقهم في الأمصار مما جعلهم أقل القطاعات حضوراً، وكانوا موزعين في الأمصار الكبيرة المفتوحة.

٢ – **القطاع الثاني**: سكان المناطق المفتوحة، وكانوا يشكلون الأكثرية بالنسبة للقادمين.. فبقي القادمون قلةً رغم حضورهم في إدارة البلاد وفي تأثيرهم السلوكي والأخلاقي والفكري واللغوي، وكان هؤلاء الأعاجم يستقرون في الأمصار الكبيرة، حيث كانوا يتحركون على شكل تجاري، أو كانوا سَبْياً يتحركون وفقَ حركة مواليهم، أو يتحركون تحركاً معرفياً.. لمعرفة العلوم ولم يكن مانعٌ يمنع هؤلاء.. بل كانوا يلقون الدعم والتشجيع..

لذلك يقول المؤرخون: وقد كان الأعاجم الذين جاؤوا من البلاد المفتوحة من أسرع الناس إلى الفتنة، لأنَّ أغلب الأعاجم من الأمم الموتورة والشعوب المقهورة، فما أكثر مسارعتهم للفتن بسبب جهلهم، وحداثة عهد الكثيرين منهم بالكفر وقلة فقههم في الدين بسبب العجمة وغيرها كعصبيتهم وكراهتهم للعرب، وتذكرهم لملكهم الذي أزاله العرب.

٣ – **القطاع الثالث**: قطاع الأعراب، وهم سكان البوادي، وهم مثل بقية الناس منهم المسلم التقي، ومنهم الكافر والمنافق، وهم أسرع الناس في أسباب الفتن والنفاق والكفر. قال تعالى: ﴿ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ ﴿٩٧﴾ ﴾[1].

فإن الأعراب لنشأتهم في البادية كانوا بُعَداء عن معرفة الحقائق، وهم لبعدهم عن مشاهدة أنوار النبوة – محمد ﷺ – وأخلاقه وأدابه، وعن تلقي الهدى صباح مساء أجهل بأمور الديانة، وأكثر غلظةً في المعاملة، - قبل النبي ﷺ الحسن وعنده الأقرع....«مَنْ لا يَرحم لا يُرحم» – الشيخان عن أبي هريرة.

---

(١) التوبة: ٩٧.

وها نحن نشاهد بعض قبائل طي قد امتنع عن دفع الزكاة للصديق بعد وفاة النبي ﷺ. وهاهو شاعرهم يقول عندما جاء الساعي لإحصاء زكاة نعمهم، مع تمكن العصبية من نفوسهم وتعاليهم على العلماء...

فقولا لهذا المرء ذو جاء ساعياً هلـمَ فإن المشرفيَّ الفرائضُ

ولذلك قال تعالى مُشَنِّعاً على هذا القسم من الآعراب: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾[1] – مغرماً أي ظلماً – عليهم دائرة السوءْ، والدعاء من الله: تقديرٌ مَشُوبٌ بإهانة، وقد أُهينوا وكانت دائرة السوء عليهم حين قاتلهم الصديق وعادوا خائبين، ثم أنصف القرآن الصادقين منهم فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ﴿٩٩﴾ ﴾[2].أي كذا يوم القيامة وصلوات الرسول، أي دعاؤه ﷺ لهم اللهم اغفر لآل أبي أوفى وبارك لهم.

ثم إن هؤلاء الأعراب يستغلهم أهل الأهواء لجهلهم وسذاجتهم فيستطيع أهل الدهاء أن يستدرجوهم إلى نصرة أهوائهم.

٤- **القطاع الرابع**: وهو قطاع المرتدين الذين قاتلهم الصديق، صحيح أن منهم من حسن إسلامه ولكن الكثيرين منهم لم يتذوق حلاوة الدين فظل يعيش بعقليته السابقة، وهؤلاء شكلوا عنصراً قوياً في إيقاد الفتنة على عثمان.

صحيح كان هؤلاء المرتدون موجودين في عهد أبي بكر وعمر ولكن أبا بكر لم يسمح لأحد من أهل الردة أن يكون في جيش المسلمين، ولذلك نجد بعض من ارتد وحسن إسلامه بعد ذلك، يستحي من مواجهة الصديق، فطلحة الأسدي بن خويلد يذهب إلى مكة معتمراً، فما قابل الصديق حياءً منه حتى مات.

وجاء عمر فاستعملهم على قلةٍ مع الحذر الشديد.

وجاء عثمان فرآى أن عامل الزمن قد يصلحهم، فاستعملهم، ولكنهم لم ينصلحوا، بل زادوا فساداً، وهذا قائلهم يتمثل قول القائل:

---

(١) التوبة: ٩٨.

(٢) التوبة: ٩٩.

وكنتُ وعمراً كالمُسِمِّنِ كلبه فتخـــــــدشُه أنيابه وأظافره

وهكذا وجدنا في أسماء من اشترك في قتل عثمان، أناساً كانوا من بعض قبائل المرتدين، أمثال: سودان بن حمران السكوني، وقتيرة السكوني، وحكيم العبدي.

وهكذا حدث تغيير في المجتمع، تغيير بشري كان له أثره في الفتنة على عثمان ﵁.

أما إقبال الدنيا على المسلمين، وإن شئت فَسَمِّه الرخاء:

كان النبي ﷺ يرى ما يعانيه أصحابه من شظف العيش، وفقر الحال، فكان ﷺ يُصبِّرهم، ثم يخبرهم أن هذا الحال لن يدوم طويلاً، حتى تفتح عليهم خزائن الدنيا وخيراتها، وكان في نفس الوقت يحذرهم من الاشتغال بذلك عن العمل الصالح وعن الجهاد في سبيل الله تعالى، وما يمكن أن يجره ذلك عليهم من الفتن، والخصومات على متاع الدنيا الزائل.

وكان عهد الصديق امتداداً لعهد النبي ﷺ فلم يكن فيه تغيير، وجاء عمر، وقد فقه هذا التحذير من رسول الله ﷺ كما يقول الصلابي، فكان من سياسة عمر أنه حمى المسلمين من غوائل فتنة المال وخيرات الدنيا، فكان يمنع المسلمين من التوسع في بلاد العجم خشية تأثرهم بألوان الخيرات والأرزاق فيستولي بذلك حب الدنيا على قلوبهم فتفسد عليهم آخرتهم...

ولكن ظهرت مصلحةُ أخرى راجحة على المنع، وهي أن هذه البلاد المفتوحة تحتاج إلى مواصلة الجهاد... وإلى التعليم والهداية إلى الدين الجديد.

فسمح عمر بخروج كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار الذين ملأ حب الآخرة قلوبهم... فلم يكونوا ينظرون إلى الدنيا إلا بمقدار ما تكون سبباً لنجاتهم في الآخرة، وطريقاً لنصرة هذا الدين.

فلما جاء عهد عثمان، وتوسعت الفتوحات شرقاً وغرباً، وبدأت الأموال تتقاطر على بيت المال، وامتلأت أيدي الناس بالأرزاق والخيرات مما جعل الناس يميلون للرخاء والرفاهية.

والمال مادة للتنافس والبغضاء، بخاصة بين أولئك الذين لم يصقل الإيمان قلوبهم، ولم تهذبهم التقوى من جفاة أعراب البوادي، ومن مسلمة الفتح، ومن أبناء الأمم المترفة الذين دخلوا في الإسلام – وهم مترفون أصلاً – فاتخذوا الدنيا غاية وصاروا يتنافسون فيها.

وقد أدرك عثمان هذه الظاهرة، وأنذر بعاقبة الترف وما سيؤول إليه أمر الأمة من التبدل

والتغيير، فوجه كتاباً إلى الرعية يقول فيه:... أما بعد فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع إذا اجتمع ثلاثة فيكم: (تكامل النعم، وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم للقرآن) كما ذكر الطبري.

أما تكامل النعم، فتعالوا نستمع إلى كلمة للحسن البصري وهو شاهد عيان على حالة المجتمع حيث يقول واصفاً إدرار الخيرات في عهد عثمان، ووفرة المال، وما آل إليه أمر الناس من الترف وعدم الشكر، يقول الحسن: - أدركت عثمان وقلما يأتي على الناس يوم إلا وهم يقتسمون خيراً... -

يقال له: يا معشر المسلمين اغدوا على السمن والعسل.. فالأعطيات جارية، والأرزاق دارة، والعدو متقى، وذات البين حسنٌ، والخير كثير..

والأخرى، كان السيف مُغمداً على أهل الإسلام، فسلُّوه على أنفسهم، فوالله مازال مسلولاً إلى يوم الناس هذا... وأيم الله إني لأراه سيفاً مسلولاً إلى يوم القيامة.

وأما بلوغ أولاد السبايا: فيظهر فيما وصل إليه الأمر من هؤلاء إلى الترف والدعة، وكان أول منكرٍ ظهر في المدينة حيث فاضت الدنيا على هؤلاء؛ طيرانُ الحمام، والرميُ على الجُلاهقات - رماية البندق -.

فاستعمل عليها عثمان رجلاً من بني ليث سنة ثمان من ولاية عثمان فقصَّ أجنحة الطيور، وكسر الجلاهقات، وأقام العسس في المدينة يعاقبون كل من كان على شر، أو شهر سلاحاً، وكان ينفي أهل الشر إلى خارج المدينة...

وعاونه المسلمون على ذلك، ثم خطب في المدينة فكان مما قال: (إن الناس تبلغني عنهم هناتٌ وهنات، وإني لا أكون أول من فتح بابها - الفتنة - ولا أدار راحتها، ألا وإني زامٌ نفسي بزمامٍ، وملجمها بلجام، فأقودها وأكبحها - أمنعها - بلجامها، ومناولكم طرف الحبل، فمن اتبعني حملته على الأمر الذي يعرف ومن لم يتبعني فمن الله خلف منه وعزاء منه، ألا وإن لكل نفس يوم القيامة سائقاً وشهيداً، سائق يسوقها على أمر الله، وشاهدٌ يشهد عليها بعملها، فمن كان يريد الله بشيء فليبشر، ومن كان يريد الدنيا فقد خسر).

وأما بالنسبة لقراءة الأعراب والأعاجم القرآن الكريم فيظهر في شكل واضح في تكوين

طبقة في المجتمع المسلم تتعلم القرآن لا رغبةً في الثواب، وإنما رغبة في الجُعْلِ الذي جعله الخليفة تشجيعاً وتأليفاً.

وينبغي أن نلاحظ أن هذا التغيير بدأ أثره يظهر أولاً في أطراف الدولة الإسلامية، ثم بدأ يزحف إلى عاصمة الدولة – المدينة – وكان عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يلاحظ هذا التغيير، حيث توالت خطبه يذكر المسلمين بضرورة الحذر من التهالك على الدنيا، ومن جميل خطبه التي تدل على ذلك ما ذكره المؤرخون حيث قال: [إن الله إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة، ولم يُعطِكُموها لتركنوا إليها، إن الدنيا تفنى، وإن الآخرة تبقى، ولا تبطرنكم الفانية، ولا تشغلنكم عن الباقية]... ثم قرأ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾[1].

المؤمن مطالب بأمرين: ألا يصنع المنكر، وأن ينهى عن المنكر، فإذا نصحك إنسان بترك منكر، فلا تقل له: أصلح نفسك أولاً حتى لايقول لك ذلك الناصح:

فَخُذْ بعلمي ولا تركن إلى عملي   واجــنِ الثمارَ وخَلِّ العود للنارِ

وإن كان الأكمل عاملاً بالخير، منتهياً عن الشر، حتى لا ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾﴾[2].

قال صاحب كتاب «تحقيق مواقف الصحابة منن الفتنة» ناقلاً عن الطبري–

من هنا نعلم أثر الرخاء في تحريك الفتنة، ومن هنا ندرك ما عناه عثمان في قوله لعبدالرحمن بن ربيعة: – وهو في جهات أذربيجان – (إن الرعية قد أبطر كثيراً منهم البطنةُ، فقصِرّ بهم ولا تقتحم بالمسلمين فإني خاشٍ أن يُبتلوا).

ويدلك على طبيعة هذا التحول في المجتمع ما كتبه – سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص – وهو من الأمراء الفاتحين – ذو خلقٍ وحَزْم– كان أميراً على الكوفة وغزا طبرستان

---

(١) آل عمران: ١٠٣-١٠٤.

(٢) الصف: ٢.

كتب إلى عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم، وغُلبَ أهل الشرف منهم، والسابقةُ والقِدمَةُ، والغالب على تلك البلاد روادف ردفت وأعراب لحقت حتى ما ينظر إلى ذي شرفٍ ولا بلاءٍ من نازلتها ولا نابتتها.

هكذا بدأت التطورات في حياة الدولة الإسلامية في الشطر الثاني في ولاية عثمان الخلافة.

وهذا أمر قد يبدو غير مستغربٍ فقد حكم عثمان الدولة الإسلامية بعد أن تحولت من دولةٍ محدودة النطاق تقوم في المدينة المنورة وتحكم شبه جزيرة العرب، ثم تحولت في الشطر الثاني من ولايته إلى دولة عالميةٍ يمتدُّ سلطانها ليشمل إضافةً إلى جزيرة العرب ممالك، العراق، والشام، ومصر، وأفريقية، وأرمينية، وبلاد فارس، وبعضاً من جزر البحر الأبيض المتوسط.

وهذا التحول نتج عنه جيلٌ من المسلمين يعتبر في مجموعه أقلَّ من الجيل الأول الذي حمل على كنفه عبء بناء الدولة وإقامتها، فقد تميز الجيل الأول من المسلمين بقوة الإيمان، والفهم السليم لجوهر العقيدة الإسلامية، والاستعداد التام للبذل، ولإخضاع النفس لنظام الإسلام الشامل المتمثل في الكتاب والسنة.

وفي كتاب لعثمان بعث به إلى عماله وأمرائه قال فيه:

(أما بعد، فإن الرعية طعنت في الانتشار، ونزعت إلى الشر، وأعداها على ذلك ثلاث: دنيا مؤثرةٌ، وأهواءٌ متسرعةٌ، وضغائن محمولة).

هذه هي النافذة الثانية التي أطلت منها الفتنة على عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

النافذة الثالثة: مجيء عثمان بعد عمر، واختلاف طبائعهما وسياستهما.

قال المؤرخون: لقد كان مجيء عثمان بعد عمر مباشرةً، واختلاف الطبع بينهما مؤدّياً إلى تغيير أسلوبهما في معاملة الرعية، وكان عمر قوي الشكيمة في محاسبته لنفسه، ولمن تحت يديه، بينما كان عثمان ألين طبعاً، وأرق في المعاملة، ولم يأخذ نفسه أو يأخذ الرعية بما يأخذهم به عمر، حتى يقول عثمان: يرحم الله عمر، ومن يطيق ما كان عمر يطيق.

ويروي الشعيبي فقال: لم يمت عمر حتى ملّته قريش، وقد كان حصرهم في المدينة، وقال: أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد، فإذا جاء الرجل منهم ليستأذن في الغزو قال له عمر: قد كان لك في غزوك مع رسول الله ﷺ ما يبلِّغك، وخيرٌ بك من غزوك اليوم ألا ترى

الدنيا ولا تراك.

فلما ولي عثمان خلّى عنهم، فانتشروا في البلاد، وانقطع الناس إليهم، وكان عثمان أحبَ إليهم من عمر حتى أصبحت محبته مضرب المثل، حتى كان من الأهازيج قولهم:

أحبك والرحمـــــن   حُبَّ قريش عثمان

والعجيب – كما قال الصادق عرجون في كتابه «عثمان» -: أن هذه الصفات التي كانت دعائم محبة عثمان في القلوب هي نفسها كانت نوافذ الأحداث، والعظائم القاصمة في الفتنة، فوداعة عثمان ولينه وتَعَطُّفه ورأفته وحلمه جاءت بعد شدةِ عمر، فعمر بن الخطاب يخفق رأس سعد بن أبي وقاص بطل القادسية، وأحد أعضاء مجلس الشورى المرشحين لمنصب الخلافة؛ لأنَّ سعداً زاحم الناس وتخطّى إلى عمر، فأراد عمر أن يريه أن سلطان الله لا يهاب أحداً.

ولما قدم عمر إلى مكة وشكا له الناس أن معاوية بنى بيتاً ليحبس الماء لنفسه فأتاه عمر فقال: ارفع هذا الحجر.. ثم قال: الحمد لله الذي جعل عمر يأمر أباسفيان ببطن مكة فيطيعه.

ولين عثمان وحلمه أطمعا جهجاهاً الغفاري في أن يأخذ من يد عثمان، وهو على المنبر عصا رسول الله ﷺ التي كان يخطب عليها، فيكسرها، وحلم عثمان سمح لعبدالرحمن بن عوف أن يرد هبته وهو خليفة المسلمين بغير إذنه؛ فقد ذكر الطبري في تاريخه: أن إبلاً من إبل الصدقة جيء بها إلى عثمان، فوهبها عثمان بعض ولد الحكم بن أبي العاص فعلم بذلك عبدالرحمن بن عوف، فأخذها وقسمها بين الناس وعثمان في داره، وهكذا كان الفرق بين الشخصيتين عمر وعثمان في الأحداث التي جرت في عهد كل منهما.

قال المؤرخون: وقد أدرك عثمان ذلك الفرق حين قال لقوم سجنهم: أتدرون ما أجرأكم علي؟ ما أجرأكم علي إلا حلمي.

وحين ظهرت له نوايا الخارجين بعد أن ظهر الحق معه، وأراد الصحابة أن يقتلوا هؤلاء المارقين، رفض عثمان إلا تركهم لحلمه ووداعته، وقال: بل نعفو ونقبل، ونُبصِّرهم بجُهدنا، ولا نُحادُّ أحداً حتى يركب حدّاً أو يبدي كفراً.

قال صاحب كتاب «تحقيق مواقف الصحابة»:

وهكذا كانت دِرة الحكم وسلطانه في يد الفاروق شدةً وصرامةً، وفي يد ذي النورين حلماً

ورحمةً، وفي كلٍّ خير.

بعد أن تبين لك شخصية عثمان، فاحذر أن تظنه عاجزاً أو ضعيفاً، فلم يكن ضعيفاً ولا مستضعفاً.

إنها فتنة لم تقع فجأة، وإنما حيكت خيوطها، وهيئت منذ زمن مديد، فلما اختمرت فاضت، ولما اتَّقدت اشتعلت، فأذهلت الحلماء، وأضلت الحكماء، ونفذ بها القضاء، كما يقول الصادق عرجون.

ثم يقول المؤرخون: لقد وقع في أوهام كثير من الناس، ولُقّن شباب المسلمين في المدارس، ومعاهد التعليم، أن عثمان كان ضعيفاً في مواجهة الأحداث، وهذه غلطة تاريخية خطيرة في حق ثالث عظماء الإسلام، ويجب على كل مسلم سليم العقيدة، صحيح الفهم لتاريخ الإسلام أن يعمل على تصحيحها، فما كان أيسر على عثمان – لو أراد – أن يصنع مثل ماصنع يزيد ابن معاوية، فيتخذ له ولاةً مثل زياد بن أبيه، وابنه عبيدالله، أو مثل صنيع عبدالملك وابنه الوليد، فيحكم في رقاب المسلمين أشباه الحجاج الذين استباحوا البلاد حتى تدين له الدنيا ويصفو له الملك، فلينصف المؤرخون عثمان، فإن الأمر أعظم من ذلك.

أفترى – يا عبدالله – أن عثمان كان عاجزاً عن التنكيل بهؤلاء، الخارجين حين كانوا نفراً قليلاً، وهو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحد السابقين في الإسلام، الذين نصروا الدين بأنفسهم وأموالهم، أفتراه عاجزاً وهو في عز الخلافة وسلطانها، أفتراه عاجزا عن هؤلاء الذين ليس لهم سابقة من إسلام ولا تقدم في هجرة، ولا فضل كبير في جهاد، وإنما هم أحلاس فتنة، ومطايا الشياطين من أمثال ابن سبأ وحزبه.

وقد قال له أهل المدينة – وهم جمهور الصحابة – لما انكشف حال هؤلاء المارقين، وخبث نواياهم، اقتلهم، فأبى إلا العفو، وهل كان عثمان عاجزاً عن الاستجابة لمعاوية حين قال له: انطلق معي إلى الشام فإن أهلها معك قبل أن يستفحل أمر هؤلاء المشاغبين، فقال عثمان كلمته المشهورة: أنا لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشيء، وإن كان فيه قطع خيط عنقي.

فقال له معاوية: فأبعث إليك جنداً منهم يقيم بين ظهراني أهل المدينة لنائبةٍ إن نابت أهل المدينة أو إياك؟ فقال عثمان: أنا أُقتِّر على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق بجندٍ يُساكنهم وأُضيِّقُ

على أهل الهجرة والنصرة؟ قال معاوية: والله يا أمير المؤمنين لَتُغتالَنَّ أو لَتُغزينَّ. فقال عثمان: حسبي الله ونعم الوكيل.

قال المؤرخون: هل كان عثمان عاجزاً أن يصيحَ بهم: مَنْ نَقبَ بيتنا نقبنا عن قلبه ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً.

ولا تظهر من أحدكم ريبة بخلاف ما عليه العامة إلا ضربت عنقه؟

كلا، ما كان عثمان عاجزاً عن ذلك وأمثاله، ولا كان ضعيفاً وقد قال له المحاصرون حين حاصروه: فلسنا منصرفين حتى نعزلك، ونستبدل بك، فإنْ حالَ قومك دوننا قاتلناهم حتى نخلص إليك، فقال: ولعمري لو كنت أريد قتالكم لقد كنت كتبت إلى الأجناد، فقادوا الجنود، وبعثوا الرجال، ولكن عثمان كان خليفةً راشداً يحجزه عدل الخلافة الراشدة عن مأثم الملك العضود.

ومن النوافذ التي أطلت منها الفتنة: المنافرة الشديدة بين أمية وهاشم قبل الإسلام، وامتدت إلى أيام الدعوة الإسلامية.

قال المؤرخون: يحفظ لنا التاريخ والرواة أخباراً كثيرةً من التنافس بين العشيرتين، حتى أنه ليشمل هذا التنافس كل مطلب من مطالب الحياة.

فمن أحداث التنافس بينهما قبل الإسلام: ما ورد أن (حرب بن أمية) و(عبدالمطلب بن هاشم) تنافرا إلى حكم من بني عدي القرشي – وهو جد عمر بن الخطاب – واسمه نفيل.

فقال الحكم نفيل لحرب بن أمية: أتنافر رجلاً هو أطول منك قامةً، وأعظم منك هامةً، وأوسم منك وسامةً، وأقل منك لامة، وأكثر منك ولداً، وأجود منك صفداً، وأطول منك مذوداً – لساناً – وقال:

أبوك معاهد، وأبوه عَفٌّ   وذاد الفيلَ عن بلد حرام

يشير بهذا البيت إلى تعرض أمية للنساء، ومنهن امرأة من بني زهرة راودها أمية، وعلم قومها، وكادت أن تكون فتنةً.

قال العقاد: وأقدم من هذه المنافرة، منافرة أخرى بين هاشم وأمية، ذلك أن أمية حاول أن يصنع مثل هاشم، وهاشم اسمه عمرو وغلب عليه لقب هاشم لأنه تكفل بإطعام المحتاجين عام

المجاعة، فكان يهشم الثريد، وينحر الإبل، ويتعهد الفقراء.

ولهذا سمي هاشم، ويقول شاعرهم:

عمرو الذي هشم الثريد لقومه   ورجال مكة مُسْنتون عِجاف

فأراد أمية أن ينافسه في الشرف ومحبة الناس، فعجز أمية عن ذلك.

فدعاه إلى المنافرة كعادتهم. واحتكما إلى كاهن خزاعة بعسفان على خمسين ناقة تنحر بمكة، وجلاء عشر سنين من جوار الحرم، فقال الكاهن: سجعاً على أسلوب الكهان والمحكمين جميعاً يومئذ:

والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بعلم مسافر، من منجد وغائر، لقد سبق هاشم إلى المآثر، أول منه وأخر وأبو همهمة بذلك خابر.

وأبو همهمة: هو حبيب بن عامر الذي خرج مع أمية.

قال المؤرخون: وكأن الكاهل أراد أن يذكر حيبباً بسرٍّ عن الأقدمين هو به خبير.

قال الرواة: فأخذ هاشم الإبل فنحرها، وأطعم لحمها من حضر، وخرج أمية إلى الشام فأقام بها عشر سنين، حتى تنافس أمية وعبدالمطلب على سباق الخيل، وتراهنا على جز ناصية المسبوق، ويُغرَّم عدداً من العبيد والإبل، فسبق فرس عبدالمطلب فرس أمية، ودان أمية بسيادة عبدالمطلب عليه سنة.

وقال الكلبي في أبناء عبدالمطلب: كانوا إذا طافوا في البيت يأخذون البصر، ورأهم عمرو بن مالك فقال: بهؤلاء تمنع مكة.

قال العقاد: ونحسب أن المنافسة بين العشيرتين كانت ضربة لازب. – امتدت إلى الإسلام –.

السبئية وأثرها في أحداث الفتنة:

وقبل الحديث عن فتنتهم ودورهم، نريد أن نعرف من هم السبئية.

قال المؤخون: السبئية نسبة إلى عبدالله بن سبأ الحميري، يهودي من صنعاء، وأمه يهودية سوداء، وينسب إليها فيقال: ابن السوداء، أو ابن اليهودية، ادعى الإسلام في عهد عثمان.

قال عبدالقاهر بن طاهر البغدادي في كتابه: «الفرق بين الفرق – ص ٢٣٥» أن ابن سبأ كان على دين اليهود، وتستر بالإسلام، وأراد أن يفسد على المسلمين دينهم بتأويلاته في علي وأولاده.

يقول البغدادي: السبئية أتباع عبدالله بن سبأ الذي غلا في علي رضي الله عنه، وزعم أنه كان نبياً، ثم غلا فيه حتى زعم أنه إله، ودعا إلى هذا القول في الكوفة..

وعلم علي بذلك فأمر بإحراق فريق منهم في حفرتين حتى قال بعض الشعراء:

لترمي بي الحوادثُ حيث شاءت إذا لم ترم بي في الحفرتين

وفي كتاب «الفصل» لعلي بن حزم الظاهري، فصَّلَ هذه الحادثة، وخلاصتها أن جماعة من أصحاب عبدالله بن سبأ أتوا إلى علي بن أبي طالب فقالوا مشافهةً: أنت هو، فقال علي: ومن هو؟ قالوا: أنت الله. فاستعظم الأمر، وأمر بنارٍ فأججت، وأحرقهم بالنار، فجعلوا يقولون وهم يرمون بالنار:

(الأن صح عندنا أنه الله، لأنه لا يعذب بالنار إلا الله).

وإلى هذا أشار علي رضي الله عنه بقوله:

لما رأيتُ الأمر أمراً منكراً أججتُ ناري ودعوت قنبراً

وقنبر هو خادم علي تولى طرح هؤلاء الكفرة في النار.

يقول الأستاذ الخضري في كتابه «سيرة الخلفاء»: استكمل الفتح للأمة، واستكمل الملك، وكانت بعض قبائل العرب الذين من بكر بن وائل وعبد قيس، وربيعة والأزد وكندة وتميم وقضاعة وغيرهم ممن لم يكونوا قد أخذوا من معين النبوة إلا القليل. وكان لهؤلاء يد في الفتوحات، فلما استفحل الملك، وذل العدو، كانت عروق الجاهلية تنبض فيهم، ووجدوا الرئاسة عليهم للمهاجرين والأنصار من قريش وسواهم فأنفت نفوسهم، ووافق ذلك أيام عثمان، فكانوا يظهرون الطعن على الولاة بالأمصار، ويؤاخذونهم باللحظات والخطرات، ويطلبون عزلهم، وكان رأس الفتنة في ذاك الرجل اليهودي المسمى عبدالله بن سبأ وكان هذا الرجل الخبيث قد فتل غزله فتلاً محكماً، وتمكن من رؤوس الغوغاء والعامة في الأمصار الإسلامية البعيدة، وأصبح في كل مصرعصابة تتصل به وتدين بمذهبه، وكانت تلك العصابات

هي التي تولت إشعال الفتنة، ونادوا بخلع عثمان، وانبعث صوتها من وكر الشيطان.

روى الطبري: عن يزيد الفقعسي قال: كان عبدالله بن سبأ يهودي من أهل صنعاء أمه سوداء، أسلم أيام عثمان ثم تنقل في البلدان يريد إضلالهم، فبدأ بالحجاز، ثم البصرة، ثم الكوفة، ثم الشام. فلم يقدر ما يريد عند أحد، فأخرجوه إلى مصر. فمكث فيها، وقال لهم مبتدأً بالدهماء من العامة وكان في مصر قد إنتشر فُشُوُّ الأحاديث التي تشير إلى رجوع عيسى آخر الزمان ليحكم بالشريعة الإسلامية.

واعتمد على بعض ضلالات اليهود القائلين برجعة بعض الأنبياء.

بدأ ابن السوداء بالعوام موجهاً إليهم هذا السؤال: هل يرجع عيسى في آخر الزمان. قالوا: نعم. قال: ومحمد؟ قالوا: لا يرجع. قال: أيهما أفضل عيسى ام محمد؟ قالوا: بل محمد. قال: فكيف يرجع عيسى ولا يرجع محمد، ومحد أفضل من عيسى؟ فسكتوا ما يدرون بماذا يجيبون. فقال لهم: العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب أن محمداً يرجع.

وقد قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ ﴿٨٥﴾﴾(١).

فمحمد أحق بالرجوع من عيسى، وكلمهم بالرجعة، فقبلوا منه ذلك، وتكلموا فيها.

ولكن ما معنى الآية التي فسرها لهم على غير وجهها؟

الآية خطاب للنبي ﷺ حين هجرته إلى دار الإيمان وهي المدينة بعد أمره لأصحابه بالهجرة إلى دار الأمن وهي الحبشة. فلما خرج رسول الله ﷺ من مكة ووصل إلى الجُحْفَة، وكانت قرية جامعة على بعد اثنين وثمانين ميلاً من مكة، وكانت تسمى مَهْيعة، فاشتاق النبي ﷺ إلى مكة، فنزل جبريل وسأله: أتشتاق إلى مكة؟ فقال ﷺ: نعم، فأوحى الله هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾.

قال ابن عطاء: معناها: إن الله الذي يسَّر عليك القرآن.. قادرٌ على أن يردك إلى موطنك الذي خرجت منه. ثم أمره بحسن جدالهم فقال: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ وما يستحقه من ثواب ونصر وهو رسول الله ﷺ ﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وهم المشركون.

---

(١) القصص: ٨٥.

قال البروسوي: وتدل الآية على أن الله يفتح على المهتدي، ويقهرُ الضال، ولكل عسر يسرٌ فسيراه الصابر وعليه ألا ييأس.

يروي أهل المواعظ: أن رجلاً ركب البحر، فانكسرت السفينة ولجأ إلى جزيرة في البحر، فمكث أياماً لا يرى أحداً ولم يأكل فتمثل بقول الشاعر:

إذا شاب الغرابُ أتيتُ أهلي وصار القار كاللبن الحليب

وصار البر مسكن كل حوت وصار البحر مرتع كل ذيب

ثم نام فسمع هاتفاً يقول:

عسى الكربُ الذي أمسيت فيه يكون وراءه فَرَجٌ قـــريبُ

فيأمن خائف ويُفَـــــكَّ عانٍ ويـــأتي أهله الرجل الغريب

ففرج الله عنه بسفينة أشار إليها.

ثم قام ابن سبأ فأتى بضلالة أخرى فقال: إنه كان ألف نبي، ولكل نبي وحي، وكان عليٌّ وصي محمد ﷺ، ومحمد خاتم الأنبياء، وعلي خاتم الأوصياء، ومن أظلم ممن لم يُجِزْ وصية رسول الله ﷺ، ووثب على وصي رسول الله ﷺ، وتناول أمر الأمة. ثم قال لهم: إن عثمان أخذها بغير حق، وهذا وصيُّ رسول الله ﷺ، فانهضوا في هذا الأمر فحركوه، وابدؤوا بالطعن في أمرائكم، وأظهروا أنكم تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر.

قال الصادق عرجون: فبثَّ دعاته، وكاتب من استفسد في الأمصار وكاتبوه ودعوا في السر إلى ما هم عليه، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتبٍ يضعفونها في عيوب ولاتهم، ويكتب أهل كل بلد إلى البلد الآخر بما يصنعون، فيقرؤه، أولئك في بلدانهم، وهؤلاء في أمصارهم، حتى تناولوا المدينة، وأوسعوا الأرض إذاعةً، وهم يريدون غير ما يظهرون، ويُسرّون غير ما يبدون، فيقول أهل كل مصر: إنا لفي عافية مما ابتلي به هؤلاء، إلا أهل المدينة، فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار والبلدان فقالوا: إنا لفي عافية مما فيه الناس.

قال المؤرخون: ومشى أهل المدينة إلى عثمان أمير المؤمنين يسألونه عن حقيقة ما بلغهم، فقال لهم: ما بلغني عن وُلَاتي إلا السلامة وأنتم شركائي وشهود المؤمنين، فأشيرواعلي؛ فأشاروا عليه أن يرسل رجلاً إلى البلدان للتحقق من هذه الأخبار، فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة،

وأرسل أسامة بن زيد إلى البصرة، وأرسل عبدالله بن عمر إلى الشام، وأرسل عمار بن ياسر إلى مصر، وفرَّقَ رجالاً غيرهم إلى بقية البلدان، فرجع القوم كلهم وقالوا: ما علمنا عن أمرائك إلا خيراً، والأمر أمر المسلمين، والولاة يعدلون ويقومون على الرعية.

قال المؤرخون: ولم يكتف عثمان بذلك بل كتب إلى جميع الأمصار أن يوافيه العمال في كل موسم ومن يشكونهم..

وقال: وأنا مع الضعيف على القوي ما دام مظلوماً إن شاء الله.

وبذلك أشرف الخليفة نفسه على التحقيق فيما يُقدَّمُ من شكاوى، والتقى الخليفة في موسم الحج بالولاة، ولم يتقدم أحد بشكوى ضدهم على الرغم من إعلان عثمان أنني مع الضعيف والمظلوم، وأنه على المسلم ألا يذل نفسه، ولا حاجة لمداهنة أصحاب النفوذ والسلطان، التقى عثمان بولاته وهم: عبدالله بن عامر والي البصرة، ومعاوية بن أبي سفيان والي الشام، وعبدالله بن أبي السرح والي مصر، وشاورهم، وأدخل معهم في المشاورة: سعيد بن العاص والي الكوفة، وعمرو بن العاص بن وائل، ثم قال لهم عثمان: ويحكم! ما هذه الشكاية؟ والله إني لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم، وما يُعْصَبُ هذا إلا بي. فقالوا له: ألم تبعث؟ ألم يرجع إليك الخبر؟ ألم يرجعوا وما أحدٌ شكا شيئاً، لا والله ما برّوا ولا صدقوا، ولا نعلم لهذا الأمر أصلاً وما هي إلا إذاعةٌ لا يحل الأخذ بها، ولا الانتهاء إليها.

قال المؤرخون: وقد كذبت السبئية في دعواهم، وعلموا أنهم انكشفوا وظهر كذبهم وزيفهم، وبدلاً من التوبة تمادوا في الإشاعات والإذاعات.

ولما تأكد الخليفة من صدق الولاة، وقبولهم للمحاسبة وإعطاء الحق من أنفسهم، أراد عثمان أن يسمع من الولاة تفسيراً لهذه الشائعات، فقال: أشيروا علي. فقال سعيد بن العاص والي الكوفة والذي لمس كذب السبئية والغوغاء فيها، وأدرك أنه تشويش صادر من هؤلاء قدّم لعثمان رأياً فيه العلاج الناجح الذي يتناسب مع حجم جريمتهم فقال: يا أمير المؤمنين، هذا أمر مصنوع في السرّ فيلقي به غير ذي المعرفة، فيخبرُ به، فَيُتحدث به في مجالسهم، قال عثمان: فما دواء ذلك؟ قال سعيد: طلب هؤلاء الذين يخرج من عندهم وقتلهم.

قال المؤرخون كما عند الصلابي: إن المكان الذي رتع فيه ابن سبأ هو مصر، وهناك بدأ

ينظم حملته ضد عثمان، ويحث الناس على التوجه إلى المدينة لإثارة الفتنة بدعوى أن عثمان أخذ الخلافة بغير حق، ووثب على وصي رسول الله ﷺ وهو علي، وغشَّ الناس بكتب يكتبها من عنده، ويدَّعي أنها جاءته من كبار الصحابة، فلما أتى الأعراب إلى المدينة المنورة، واجتمعوا بالصحابة فلم يجدوا منهم إلا عكس ما أفهمهم ابن سبأ، حيث تبرؤوا من الكتب التي نُسبت إليهم في تحريض الناس على عثمان، ووجدوا عثمان مقدراً للحقوق، ورد عليهم افتراءاتهم وناظرهم ووضح الحق، عندها قال أحد قادة هؤلاء الأعراب: لعله مَكرَ به وبكم.

قال الصلابي: إن المشاهير من المؤرخين، والعلماء من سلف الأمة وخلفها متفقون على أن عبدالله بن سبأ أتى المسلمين بعقائد وأفكار سبئية ليبعد المسلمين عن دينهم، وطاعة إمامهم ويوقع الخلاف بينهم، فاجتمع حوله أوباش الناس، وغوغاء العامة وما تكونت به الطائفة السبئية المعروفة التي كانت عاملاً من عوامل الفتنة التي أدت إلى قتل عثمان رضي الله عنه.

والخلاصة هنا:

إنهم يريدون هدم الدين، ولكن كيف؟

والجواب: إنهم بدؤوا بالطعن في أصحاب النبي ﷺ ثم كَفَّروهم بعد موته ﷺ، وقالوا: إن علياً كفرَ حين أسلم الخلافة للصديق وعمر، ثم رجع للإسلام بعد مقتل عثمان.

قال المؤرخون: ماهي غايتهم من الطعن في الصحابة؟

والجواب: عند رأس هذه الفئة واسمه – شاكر- كان في سجن هارون الرشيد، ثم جيء به لتُضربَ عنقه فسأله الرشيد وقال له: أخبرني؛ لم تعلمون المتعلم معكم أول ما تعلمونه الرفضَ والقَدَر؟

فقال الخبيث: أما قولنا بالرفض، فإننا نريد الطعن على الناقلة، فإذا بطلت الناقلة أوشك أن يبطل المنقول. – الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد ج٣ ص٣٠٨».

قال المؤرخون: رسم ابن اليهودية لأتباعه المنهج في الفتنة، وأصل لهم أصول الضلال لردِّ المسلمين عن دينهم.. وكان أول أصل أصَّله قوله: أظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس إليكم.

انظر ياعبدالله: أتى بمقدمات صادقة هي من الدين، وبنى عليها مبادئ فاسدة راجت عند

الغلاة وعند السذج، وعند أهل الأهواء، وإلا من ينكر أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصلٌ من أصول الدين، ألم يقل الله عز وجل: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ...﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ....﴾[2]. وتَستَّرَ وراء هذا الأصل ليثير فتنة فيقسم الناس إلى فريقين، فريقٍ يعي أبعاد هذه الفتنة، وإلى فريق يخدع بهذا الشعار..

ورأينا كيف أَوَّل القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾[3]، وادعى أن محمداً سيعود، وأن وصيَّ محمدٍ عليٌّ، وعثمان مغتصب لحق الوصي..

ثم أمر بالأصل الثاني في فتنته، وهو قوله: وابدؤوا بالطعن على أمرائكم، وقولوا للناس إن عثمان مغتصب للحق ونحن نطالب بردّ الحق إلى أصحابه وهو عليٌّ، ولكن هنا سؤال: من هم هؤلاء الأمراء الذي طلب من اتباعه الطعن فيهم في وقتها؟

والجواب: إنهم أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض.

وقد بَيَّنتُ لكم أن الغاية من الطعن في الصحابة هو ما ذكره رأس الزندقة – شاكر – أيام هارون الرشيد عندما أحضره الرشيد للقتل وسأله: لماذا تعلمون المتعلم أول ما تعلموه الرفض – أي رفض الصحابة –؟

فقال الخبيث: إننا نريد الطعن على الناقلة، فإذا بطلت الناقلة بطل المنقول، فالأمر واضح لأنه إذا ارتفع الوثوق بالصحابة انهدم الإسلام لأنهم هم الذين نقلوه إلينا رضوان الله عليهم.

قال الصلابي: توجه ابن سبأ إلى الشام ليبث سمومه في بعض أهلها ويؤثر فيهم، ولكنه لم ينجح في هدفه الشيطاني الذي يريد به هدم الإسلام، وعزل الخليفة عثمان، كان معاوية له بالمرصاد، فخرج إلى البصرة ليجند اتباعاً له من المارقين، أو الحاقدين، أو الرعاع البلهاء، وكان والي البصرة عبدالله بن عامر بن كريز حازماً عادلاً صالحاً.

وصل ابن سبأ إلى البصرة، ونزل عند رجل خبيث من أهلها كان لصاً فاتكاً اسمه – حكيم

---

(١) آل عمران: ١١٠.

(٢) آل عمران: ١٠٤.

(٣) القصص: ٨٥.

بن جبلة -.

وعلم الوالي عبدالله بن عامر، أن رجلاً غريباً نزل عند حكيم بن جبلة، وهو معروف بفساده، لأنه كان عندما تعود الجيوش الإسلامية من الفتوح إلى البصرة، كان حكيم هذا يتخلَّف عن الجيش ليسعى فساداً في ديار الفرس، وكان يغير على أرض أهل الذمة، ويعتدي على أراضي المسلمين، ويأخذ منها ما يشاء، فكتب أهل الذمة والمسلمون إلى عثمان بحال حكيم بن جبلة، فكتب عثمان إلى واليه في البصرة عبدالله بن عامر بن كريز كتاباً يقول فيه: احبس حكيم بن جبلة في البصرة، ولا تتركه يخرج منها حتى تأنس منه رشداً، فحبسه ابن عامر في بيته - إقامه جبرية - فكان لا يستطيع الخروج من البصرة، وأثناء هذا الحبس لحكيم نزل عليه ابن سبأ، وابن سبأ يعلم سوء ابن جبلة، وزعارته وانحرافه وحقده ولؤمه، فجنده لصالحه وجعله من اتباعه، وصار ابن جبلة يقدم لابن سبأ أمثاله من المنحرفين والموتورين، فيغرس ابن سبأ فيهم أفكاره من الرجعة والوصيِّ، والأمر بالمعروف.. والطعن بالأمراء وهم أصحاب النبي ﷺ، ويجندهم بجمعيته السرية.

ويعلم الوالي عبدالله بن عامر بابن سبأ.. فاستدعاه، وقال له: ما أنت؟ قال ابن سبأ: أنا رجل من أهل الكتاب رغبت في الإسلام فأسلمت، ورغبت في جوارك فأقمت عندك، قال الوالي: ما هذا الكلام الذي يبلغني عنك؟ اخرج عني فأخرجه ابن عامر من البصرة، فغادرها ابن سبأ إلى الكوفة، بعد أن ترك اتباعاً فيها، جعلهم فرعاً لحزبه السبئي اليهودي، ودخل الكوفة فوجد فيها بعض المنحرفين، استقبلوه، فجندهم وجعلهم من حزبه السري، وعلم به والي الكوفة سعيد بن العاص، فأخرجه منها، فتوجه إلى مصر، فأقام فيها.

قال المؤرخون: عشعش في مصر، وباض فيها وفرخ وأفسد، واستمال هناك أناساً من الرعاع، والحاقدين ومن العصاة والمذنبين، ومن مصر كان ابن سبأ يرتب الإتصالات السرية بينه وبين اتباعه في البصرة والكوفة، والمدينة ويتحرك رجاله بين هذه العواصم والمراكز الإسلامية، واستمرت جهود ابن سبأ وأعوانه قرابة ست سنوات، حيث بدؤوا أعمالهم الشيطانية سنه ثلاثين للهجرة، ونجحوا في آخر سنة خمس وثلاثين في قتل الخليفة عثمان، واستمر إفسادهم طيلة خلافة عليّ.

ابن سبأ يشعل نار الفتنة:

قال المؤرخون: استجاب لابن السوداء حثالة من أصحاب القلوب المريضة في بعض المدن، كالكوفة والبصرة ومصر.. وغيرها، وحتى تعلم – يا عبدالله – من هؤلاء، فاسمع معي إلى صاحب كتاب: «العواصم من القواصم» وهو أبو بكر بن العربي ينقل ما كتبه المحققون في حال هؤلاء الناقمين فقال:

قال ابن تيمية في كتابه «منهاج السنة ج ٢ ص ١٨٦»:

إن خيار المسلمين لم يدخل واحد منهم في دم عثمان، لا قتل ولا أمر بقتله، وإنما قتله طائفة من المفسدين في الأرض من أوباش القبائل وأهل الفتن، وكان عليٌّ يقول: اللهم العن قتلة عثمان في البر والبحر، والسهل والجبل، ثم قال:

الذين شاركوا في الجناية على الإسلام يوم الدار طوائف على مراتب: فيهم الذين غلب عليهم الغلو في الدين، فأكبروا الهنات، وارتكبوا في إنكارها الموبقات.

وفيهم الذين ينزعون إلى عصبية جاهلية على شيوخ الصحابة من قريش حيث لم تكن لهؤلاء سابقة في الإسلام، فحسدوا أهل السابقة من قريش على ما أصابوا في جهادهم وفتوحهم، فأرادوا أن يكون لهم مثلها بلا سابقةٍ ولا جهادٍ.

وفيهم الموتورون من حدود شرعية أقيمت على بعض أتباعهم وذويهم فجمعوا في قلوبهم الغل والحقد لأجل ذلك.

وفيهم الحمقى الذين استغل السبئيون ضعف عقولهم وقلوبهم فدفعوهم إلى الفتنة والعقائد الضالة.

وفيهم من أثقله خير عثمان ومعروفه... فطمع من عثمان بأكثر مما يستحقه من الرئاسة والتقدم بسبب نشأته في أحضانه.

وفيهم من ناله شيء من التعزير من عثمان لبوادر بدرت منهم تخالف أدب الإسلام، ولو أنهم نالهم من عمر أشد منه لرضوا...

وفيهم المتعجلون بالرئاسة قبل ان يتأهلوا لها اغتراراً بذكاءٍ خلاب أو فصاحة لا تغذيها الحكمة، فثاروا يتعجلون المكانة قبل أوانها.

ثم قال: وبالإجمال، فإن الرحمة التي فطر عليها عثمان أرادوا أن يتخذوا منها مطيةً لأهوائهم.

قال المؤرخون: تواعد السبئية أن يكون اللقاء في المدينة في موسم الحج يدَّعون أداء العبادة ويكتمون نيتهم الحقيقية قتل عثمان أو عزله، وعلم عثمان بمجيئهم، وعلم مرادهم، فأرسل قبل وصولهم برجلين من بني مخزوم ليكون في صفوف القوم ليتأكدا من خطتهم الخبيثة التي خرج لها هؤلاء الأوباش كما يقول الشيخ محمد حسان في كتابه «الفتنة».

فماذا فعل عثمان عندما تأكد من نياتهم.

صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله، وأخبر الناس في المسجد بما خرج إليه هؤلاء القوم. فقام الرجلان من بني مخزوم، وأكدا كلام عثمان، وقالا ما سمعاه من الخارجين فصاح الناس بصوت واحد في المسجد: اقتلهم يا أمير المؤمنين.

قال المؤلف: هذا حكم الشرع فيهم لقوله ﷺ: (إنه ستكون هنات وهنات، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع، فاضربوه بالسيف كائناً من كان)، وفي رواية (فاقتلوه). هذا حكم من خرج على إمام المسلمين الذي بايعه المسلمون.

هذا ولو كان عثمان من عُباد المناصب – كما يقول الشيخ محمد حسان – لقتلهم استجابة لقول الصحابة الذين امتلأ بهم المسجد: اقتلهم يا أمير المؤمنين، ولكن عثمان وهو الحيي الكريم قال: بل نعفوا ونقبلُ منهم ما جاؤوا من أجله، ونبصرهم جُهدَنا ولا نقيم الحد على أحد حتى يركب حداً أو يبدي كفراً، ثم ذكر عثمان الأمور التي ذكروها والملاحظات التي أبدوها وأخذ يجيب عليها مسألةً مسألة.

وقال بكل تواضع: ماهي المسائل التي تعترضون عليَّ بسببها؟

قال الصلابي: ثم دعا عثمان السبئيين إلى عرض شبهاتهم وبيان ما هي الأمور التي خالف عثمان فيها من سَلَفَهُ، وكانت جلسة مصارحة ومكاشفة في المسجد على مرأى من الصحابة والمسلمين، فقام متكلم السبئيين وعرض الأخطاء التي زعم أن عثمان ارتكبها، ثم قام عثمان فتكلم وبَيَّنَ حقيقة الأمر، والمسلمون المنصفون يسمعون هذه المحاسبة والمصارحة، فتعالوا إلى أهم الأمور التي أخذوها عليه.

قال عثمان: قالوا:

الأولى: أبطلت سنة القصر في السفر. وكان ذلك سنة تسع وعشرين هـجرية في منىً في موسم الحج، وقام عبدالرحمن بن عوف فعاتبه في منىً حين أتم الصلاة رباعية ولم يقصر، فاعتذر عثمان لعبدالرحمن بن عوف وقال: أيها الناس: إن القصر سنة نبيكم وصاحبيه ولكن حدث أن طغاماً – أعراب جهلاء – قالوا في العام الماضي: إن الصلاة للمقيم ركعتان، وهذا إمامكم عثمان يصلي ركعتين فخشيت أن لا يستنوا – يعني لا يصلي صلاة المقيم أربع ركعات... وأن أعرابياً قال لعثمان: ما زلت أصليها، ركعتين منذ ر أيتك صليتها ركعتين عام أول – يعني هذا الأعرابي صار يصلي الرباعية مقصورة وهو في بيته وبلده، فخاف عثمان من ذلك، ثم قال لهم وقد اتخذت بمكة أهلاً – تزوج فيها – فصار مقيماً في مكة فأتم الصلاة في منىً، ولذلك لما عاتبه ابن عوف، صلى بعدها معه وقال الخلاف شر.

ثم قال عثمان لأصحاب النبي في المسجد، أوكذلك هو؟ - قصر الصلاة – قال الصحابة: اللهم نعم.

الثانية: ثم قالوا: أي الثوار: إنك حميت حمى، وضيقت على المسلمين، ورعيت بهذا الحمى إبلك؟ فماذا قال عثمان؟ قال: إني قد وليت الخلافة وأنا أكثر العرب بعيراً وشاةً، وليس لي اليوم من الشاة والبعير غير بعيرين اثنين لحجي، أكذلك هو؟ فارتجَّ المسجد وقالوا: اللهم نعم، لقد أنفق عثمان ماله كله في سبيل الله.

لقد نسي الحاقدون أن عثمان جهز جيش العسرة، وهو الذي اشترى بئر رومة، وهو الذي اشترى أرضاً لتوسعة المسجد النبوي على المسلمين، فهل يتهم مثل عثمان بذمته المالية.

ثم قال لهم: هاتوا **الثالثة**:

قالوا: كان القرآن كتباً، فجعلته كتاباً واحداً.. أي كان القرآن في صحف عدةٍ فجمعتها في كتاب واحد.

قال المؤرخون: أما جمع القرآن فكانت فضيلة عثمان الكبرى، وحسنته العظمى، وهو وإن كان قد وجدها ممن قبله، لكنه أظهرها وردَّ الناس إليها وقطع مادة الخلاف، وكان وعد حفظ الله كتابه على يديه، وكان جمعه للقرآن على نسخة واحدة هي التي بين أيدينا عندما جاءه حذيفة وهو

في غزوة أرمينيا وأذربيجان، وقال: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة لا تختلف كما اختلف أهل الكتاب في القراءات.

ثم قال عثمان لأهل المسجد، والسبئيون منهم: أيها الناس إن القرآن واحد، جاء من عند الله – سبحانه وتعالى – وإنما أنا تابعٌ لصاحبي أبوبكر وعمر، ثم نظر إلى الصحابة وقال أكذلك هو؟ قالوا: اللهم نعم.

ثم قال هاتوا **الرابعة**:

قالوا: إنك استعملت الأحداث، ولاة وقادة وأمراء؟!!

فقال عثمان: والله لم أستعمل إلا مَرْضياً، وقد ولى من كان قبلي من هم أصغر سناً منهم، فقد ولى رسول الله ﷺ أسامة بن زيد وهو أصغر سناً ممن وليتهم، وكان تحت إمرته أبوبكر وعمر.

ألم يجعل عمر ابن عباس على صغره في مجلس شوراه يشاورهم، وكان المجلس من كبار أصحاب النبي ﷺ، ثم التفت عثمان إلى أهل المسجد وقال: أكذلك هو؟ قالوا: اللهم نعم. وزالت الشبهة.

ثم قال لهم هاتوا **الخامسة**:

قالوا: إنك تحب أهل بيتك وتكثر لهم في العطاء؟!!

فقال: أما حبي لأهل بيتي، فإني لم أمل معهم إلى جور أو معصية – يعني ما حابيتهم في حد أو معصية – بل أجري عليهم الحقوق كغيرهم من المسلمين.

وأما أعطياتهم؛ فإنما أعطيهم من مالي، ولا أستحل أموال المسلمين لنفسي، ولا لأحد من أهلي، فوالله لم آكُلْ منذ وليت الخلافة إلا من مالي، ولا آكل من مال المسلمين. ثم التفت إلى المسجد وقال: أكذلك هو؟ قالوا: اللهم نعم.

ثم قال: هاتوا **السادسة**:

قالوا: إنك أعطيت عبدالله بن سعد بن أبي السرح خمس فيء أفريقية، وهذا افتراء، والذي يثبت أن عثمان لما أمر عبدالله بن أبي السرح بالزحف من مصر إلى تونس قال له: إن فتح الله عليك

أفريقية غداً فلك مما أفاء الله على المسلمين خمس الخمس من الغنيمة نفلاً. وقد نفل أبوبكر وعمر مثل ذلك، ولما قال الجند إنا نكره أن تعطيه كل ذلك رددتُهُ عليهم، وليس لهم الحق في ذلك، وكان مائة ألف. ثم التفت عثمان إلى الناس وقال: أكذلك هو؟ قالوا: اللهم نعم.

قال المؤرخون: وتمت المصارحة في أمور أخرى هذه أهمها وظن عثمان بعد هذه الحجج الدامغة الناصعة، ظن أن عفوه عنهم سيطفئ نار الحقد في قلوبهم، ولكن القوم ما خرجوا لحقٍ وإنما خرجوا لفتنة.

كانوا ثلاثة فرقاء، عاد فريق البصرة باتجاه البصرة، وعاد فريق الكوفة باتجاه الكوفه، وعاد فريق مصر باتجاه مصر، ولكن – انتبه ياعبد الله – فسرعان ما فوجئت المدينة بعودة هؤلاء الخبثاء مرة أخرى وحاصروا بيت عثمان من كل ناحية.

كيف جاؤوا؟ وما الذي جاء بهم؟

قال صاحب كتاب «الفتنة»: سبحان الله! كيف عاد أهل الكوفة وأهل البصرة، وأهل مصر.. في وقت واحد، ليلتقي الجميع أمام بيت عثمان، ومعلوم أن الطريق إلى البصرة، غير الطريق إلى مصر، غير الطرق إلى الشام، غير الطريق إلى الكوفة..؟

الجواب هنا: أن هؤلاء قد عادوا عبر مسرحية هزلية لا يجيدها إلا الكذابون، ادعوا أنهم في طرق العودة إلى مصر قبضوا على رجل وقالوا: إنه أحد رعاة إبل الصدقة، ومعه كتاب عثمان بخطه وعليه خاتمه يأمر فيه عثمان عامله على مصر عبدالله بن سعد بن أبي السرح أن يقتل هؤلاء أو يصلبهم، وفيهم محمد بن أبي بكر.

فقال لهم عثمان الحيي الكريم: إما أن تقيموا علي اثنين من المسلمين ليشهدا علي أني كتبت هذه الرسالة، أو يميني فالبينة على من ادعى، واليمين على من أنكر.

قال ابن تيمية: وكل عليم بحال عثمان يعلم أنه لم يكن ليأمر بقتل محمد بن أبي بكر ولا أمثاله، ولا عرف عنه أنه قتل أحداً من هذا الضرب.

تدبر هذا الافتراء، وهذا الكتاب المزور.

قال المؤرخون: وحملوا الكتاب إلى علي بن أبي طالب بعد أن عادوا إلى المدينة بهذا الكتاب المكذوب، وقالوا لعلي: ألم تر إلى عدو الله عثمان ماذا كتب فينا إلى عامله... لقد أحل الله دمه؟

وهكذا حكموا في الحال على عثمان بالقتل.. فقم معنا إليه؛ فقال علي: والله لا أقوم معكم. فقالوا: فلم كتبت إلينا؟ فقال علي: والله ما كتبتُ إليكم، فنظر بعضهم إلى بعض، وهذا يَدُلُّكَ أن هؤلاء البغاة قسمان، قسم خادع، وفريق مخدوع، فالخادع يقود الحركة، ويدبر التآمر، ويقود هؤلاء المخدوعين الرعاع السذج، فانظر كيف نسب كتاب مزور إلى عثمان، ثم كتاب مزور إلى علي، وزوروا على عائشة كتاباً، وعلى لسان طلحة والزبير كذلك.

ولكن ما قصة هذا الكتاب المزور على عثمان؟

قال الصادق عرجون: ملخص ما ذكره المؤرخون في كتب التاريخ:

أن أهل مصر شكوا إلى عثمان عاملهم عبدالله بن سعيد بن أبي السرح فقال لهم عثمان: اختاروا رجلاً أُوَلِّهِ عليكم، ومشى عثمان في هذا جرياً على سنة عمر بن الخطاب في تغيير الوالي إذا طلبت رعيته ذلك، فاختار المصريون محمد بن أبي بكر، فكتب إليه عثمان عهداً بالولاية على مصر، وأخرج معه نفراً من المهاجرين والأنصار لإصلاح ذات البين.

قال الرواة: ولما كان محمد بن أبي بكر على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة إذا بغلام أسود على بعير يخبط الأرض كأنه يَطلبُ أو يُطلب، فقال له القوم: ما شأنك؟ كأنك طالب أو هارب!! فقال: أنا غلام عثمان أمير المؤمنين، وجَّهني إلى عامل مصر، فقالوا: هذا عامل مصر معنا، فقال: ليس هذا أريد، فأخبروا بأمره محمد بن أبي بكر، فطلبه، فقال له محمد: من أنت؟ فصار مرة يقول: أنا غلام أمير المؤمنين، ومرة أنا غلام مروان، فقال له محمد: إلى مَنْ أرسلك؟ قال: إلى عامل مصر، قال: بماذا؟ قال: برسالة، قال محمد: أمعك الكتاب؟ قال: لا، ففتشوه فلم يجدوا معه شيئاً إلا إداوة وقد يبست، فيها شيء يتقلقل، فحركوه فلم يخرج، فشقوا الإداوة فإذا فيها كتاب من عثمان إلى عامله السابق عبدالله بن أبي السرح يأمره بقتل محمد ومن معه، فاجتمع محمد مع المهاجرين والأنصار وقرؤوا الكتاب، وأتوا إلى علي بن أبي طالب، فسأل عثمان: أنت كتبت الكتاب، قال: لا وحلف بالله ما كتب الكتاب، ولا أمرتُ به، ولا وجَّهتُ غلاماً إلى مصرقط، فشكوا في الأمر، وعلموا أن عثمان لا يحلف كاذباً.

قال الصادق عرجون: هذه مؤامرة بلهاء تحمل شواهد بطلانها وأنها موضوعة، إذ كيف يعقل أن يولي عثمان محمد بن أبي بكر ولاية مصر، ويبعث معه جماعة من الأنصار والمهاجرين، ثم

يرسل غلاماً بنفس الطريق الذي يسلكه محمد بن أبي بكر معه كتاب بقتل محمد ومن معه؟

ثم يقول: والحق أنه لم يكن هناك كتاب بقتل أحد، لا من عثمان، ولا من مروان، ولا كان هناك غلام أسود أو أبيض، ولا كان هناك ناقة ولا جمل، ولكن الذي كان تدبير شيطاني وكيد من السبئيين.

والصحيح كما يقول المحققون: أن أهل البغي رأوا أن الأمر كاد يخرج من أيديهم، فعثمان استجاب لطلب الناس، وعين والياً جديداً على مصر ورضي الناس، وأجاب أمير المؤمنين على تساؤلاتهم وعَمَّ الصفاء ورضوا عن الخليفة وعماله أكرب السبئيين هذا الصلح، فمكروا ودبروا، وخرجوا على الناس بقصة الكتاب المزعوم، والغلام الأسود ثم رجع هؤلاء البغاة من كل فج بعد أن سار كل فريق باتجاه، وصاروا يصرخون في طرق المدينة بالويل والثبور، فذهل أهل المدينة واستغربوا رجوعهم بعد الرخا والمعاتبة واللقاء بعثمان والصحابة، ثم قام أهل المدينة، وفيهم علي، فكلموهم، وقالوا لهم: ما ردكم بعد ذهابكم، ورجوعكم عن رأيكم؟ قالوا: أخذنا كتاباً مع البريد يأمر بقتلنا، وأتى طلحة، فقال البصريون: مثل قول أهل مصر، وجاء الزبير: فقال الكوفيون مثل ذلك، كأنما كانوا على ميعاد واحد. فقال لهم علي: يا أهل البصرة، ويا أهل الكوفة، كيف علمتم بما قال أهل مصر وهم مغربون، وقد سرتم مراحل مشرّقين، ثم طويتم نحونا فجأة؟ هذا والله امر أبرم في المدينة.

فقال البغاة: فضعوه كيف شئتم، لا حاجة لنا بهذا الرجل فليعتزلنا.

وكذلك قام محمد بن مسلمة بنفس التحقيق.

قال الصادق عرجون: وقول البغاة: اجعلوه كيف شئتم، ولا حاجة لنا بهذا الرجل ليعتزلنا، وهذا الأمر الحق كلام صريح واضح إلى أبعد الحدود والصراحة والوضوح، أن هؤلاء السبئيين أعداء الإسلام إنما أرادوا شيئاً واحداً هو تقويض الخلافة وتفريق شمل الأمة.

وهكذا قال العلامة ابن خلدون:

فالمسألة لا تخرج عن أحد فرضين:

الأول: ألا يكون هناك بريد بكتاب ولا غلام، وإنما هي أكذوبة افتروها لينفذوا بها إلى ما يريدون، فافتعلوا هذا الكتاب بالمدينة وتصايحوا لتحريك الغوغاء، ويؤيد هذا الفرض قول علي

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذا أمر أبرم بالمدينة.

الثاني: أنه كان هناك كتاب مع بريد، وكانوا هم الذين كتبوا الكتاب ووصفوا فيه العظائم، وأبردوه مع غلام أسود في طريق محمد بن أبي بكر ليقع الكتاب في يده، فيثور على عثمان ويقف في صفهم بعد رضاه عن عثمان، ومما يؤيد هذا الفرض قول المؤرخين: ثم رجع المصريون راضين، فبينما هم في الطريق إذا براكب يتعرض لهم، يرجع ويذهب..ثم أتوا به وأخرجوا الكتاب.

وقال المحققون: فكيف يكتب عثمان إلى عامله في مصر عبد الله بن أبي السرح بقتل هؤلاء وابن أبي السرح كان خرج من مصر ووصل إلى العقبة بناء على طلب من عثمان بالقدوم عليه.

ثم إن عثمان نهى عن قتل المتمردين عندما حاصروه الحصارالأول ومنع الصحابة من قتلهم، فكيف يكتب هذا الكتاب المزور وقد خرجوا من المدينة تائبين.

ثم بعد خروج الخارجين من المدينة تخلف عنهم اثنان هما: حكيم بن جبلة والأشتر النخعي، وفي بقائهما إشارة واضحة إلى أنهما اللذان افتعلا الكتاب بتوجيه من عبدالله بن سبأ.

ويقول الصلابي: ثم إن هذا الكتاب المزور ليس أول كتاب زور، بل زور المجرمون كتباً كثيرة على لسان طلحة والزبير، وعلى لسان أمهات المؤمنين، وحتى زوروا على لسان عائشة كتاباً تأمر فيه الناس بالخروج على عثمان، ويسألها مسروق بن الأجدع التابعي الجليل من تلامذة ابن مسعود وحذيفة بن اليمان هل كتبت كتاباً في ذلك، فأقسمت قسماً لم يقسمه أحد قبلها حيث قالت: (أقسم بالله الذي آمن به المؤمنون، وكفر به الكافرون، ما كتبت إليهم سوداء في بيضاء). كما روى ابن أبي شيبة وهو صحيح.

قال المؤرخون: وممن كان له دور في وضع الكتب على لسان أمهات المؤمنين محمد بن أبي حذيفة بن عتبة العبشمي، وكان يتيماً في حجر عثمان، فلما كبر طلب من عثمان الولاية، فقال له عثمان: يا بني، لو كنت رضاً لاستعملتك، ولكن لست هناك.

قال الخبيث: فأذن لي في الخروج لأعمل، قال: فاذهب حيث شئت، وجهزه عثمان من ماله وحمله وأعطاه، فلما ذهب إلى مصر تغير على عثمان.

قال المقريزي في «خُططه»: ظهر محمد بن أبي حذيفة في مصر وحرض على عثمان، ودعا إلى خلعه، وكان يزور الكتب على لسان أزواج النبي ﷺ، ويأخذ الرواحل فيضمرها، ويجعل رجالاً

على ظهور البيوت لتلوح الشمس وجوههم تلويح المسافر ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق المدينة بمصر، ثم يرسل من يتلقاهم، وكان قد علمهم محمد بن أبي حذيفة: أنكم إذا سئلتم ماالأخبار: فقولوا الأخبار في الكتب التي معنا عليكم بالمسجد لنقرأ لكم كتب أزواج الرسول ﷺ.

فيجتمع الناس في المسجد ثم يقوم قارئ فيقول: إنا نشكو إليكم ما صنع في الإسلام فيقوم الشيوخ يبكون في أنحاء المسجد.

قال المؤرخون: والتزوير الذي جرى في عهد عثمان لم يكن بدعاً من الأمر ولكنه لم يلق الشدة التي يجب أن تكون.

ففي عهد عمر بن الخطاب، كما يروي البلاذري في «فتوح البلدان»، وابن حجر في «الإصابة»، أن رجلاً اسمه معن بن زائدة انتقش على خاتم الخلافة فأصاب مالاً من خراج الكوفة، فكتب عمر بن الخطاب إلى والي الكوفة المغيرة بن شعبة، بلغني أن رجلاً اسمه معن فعل كذا وكذا... فإذا أتاك كتابي هذا فأطع رسولي...

فلما صلى المغيرة العصر وأخذ الناس مجالسهم خرج المغيرة ومعه رسول عمر، فاشرأبَّ الناس.. ما الخبر.. حتى وقف المغيرة على معن بن زائدة ثم التفت للرسول وقال: إن أمير المؤمنين أمرني أن أطيع أمرك فيه، فمرني بما شئت، فقال الرسول للوالي ادع لي بجامعة أعلقها في عنقه.. فأتي له بها فجعلها في عنق – معن – ثم جذبها بشدة، ثم قال للمغيرة: احبسه حتى يأتيك أمر أمير المؤمنين فيه، فسجنه المغيرة، وكان السجن من قصب فاحتال معن بن زائدة وخرج حتى أتى إلى عمر في المدينة فدخل عليه، وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال عمر: وعليك من أنت؟ قال: معن بن زائدة، جئتك تائباً، قال عمر: أُبْتَ؟ فلا يحييك الله، فلما صلى الصبح قال عمر للناس: مكانكم، فلما طلعت الشمس، قال عمر: هذا معن بن زائدة، انتقش خاتم الخلافة فأصاب مالاً فماذا تقولون فيه؟ فقائل: قال اقطعه، وآخر اصلبه.. وعليٌّ ساكت، فقال عمر له: ماذا تقول يا أبا الحسن؟ قال: يا أمير المؤمنين: رجل كذب كذبة عقوبته في بشره..

فضربه عمر شديداً، ثم كان في الحبس ما شاء الله، ثم أرسل معن إلى صديق له ليكلم عمر، فجاء فكلم عمر... فقال عمر: معن: ذكرتني الطعن.. فقام عمر فضرب معناً، فأوصى معن كل أصدقائه ألا يكلم أحد منهم عمر في شأنه، ثم لبث محبوساً ماشاء الله، ثم انتبه عمر،

فاستدعاه فأخذ منه النصف وخلى سبيله.

فالتزوير كان حاصلاً قبل عثمان ولكن في عهد عثمان لم يجد المزور عقوبة كالتي كانت في عهد عمر.

قال صاحب كتاب «الفتنة»: تدبر – أخي الحبيب – لتقف على هذه اليد الخبيثة التي زورت الكتاب على عثمان، وزورت كتباً عن علي وعائشة، وعلي وطلحة والزبير.

قال الصلابي: تم الحصار، وأحاط الخارجون بدار عثمان، وطلبوا منه خلع نفسه، وإلا هددوه بالقتل، ورفض عثمان خلع نفسه وقال: لا أخلع سربالاً سَرْبَلَنِيهِ الله عز وجل، يشير بذلك إلى وصيه رسول الله ﷺ له، وعهده إليه، ألا يخلع نفسه من الخلافة، حتى لا يكون ذلك سابقة؛ فقد روى الإمام أحمد وعمر بن شبة عن طريق عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا عثمان! عسى الله أن يقمصك قميصاً من بعدي فإن أراد المبيتون – وفي رواية – المنافقون عن خلعه فلا تخلعه، يقول ذلك ثلاثاً».

وروى ابن شبة في كتابه «تاريخ المدينة المنورة»: عن طريق حفصة قالت: قال النبي ﷺ لعثمان: «يا عثمان إنك مستشهد فاصبر صَبَّرَك الله، ولا تخلعن قميصاً قمَّصه الله».

قال صاحب كتاب «تحقيق مواقف الصحابة»: إن عزل عثمان عن الخلافة، ليس له مبرر شرعي، إذ حُكم الشرع قائم، والعدل منتشر، ولكن هؤلاء البغاة ليسوا طلاب حق ولا عدل، وإنما هم قوم مردوا على النفاق، يستترون تحت شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما ذكرنا، ولذلك قال لهم عثمان مرة: إن وجدتم في كتاب الله أن تضعوا رجليَّ في قيد فضعوهما.

وقال لهم مرة أخرى حين حصروه فأشرف عليهم وقال: كما روى الإمام أحمد في فضائل الصحابة: علام تقتلوني! فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجل زنى بعد إحصانه فعليه الرجم، أو قتل عمداً فعليه القودُ، أو ارتد بعد إسلامه فعليه القتل، فوالله ما زنيت في جاهلية ولا إسلام، ولا قتلت أحدا فأقيدُ نفسي منه، ولا ارتددت منذ أسلمت، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. وفي رواية أخرى لأحمد: ولا أحببت أن لي الدنيا بديني بدلاً منذ هداني له.. ففيم تقتلوني.

وروى ابن سعد في كتابه «الطبقات» أن عثمان أشرف على الذين حاصروه، فقال: يا قوم!!

لا تقتلوني. فإني والٍ وأخ مسلم، فوالله إن أردت إلا الإصلاح ما استطعت أصبت أو أخطأت، وإنكم إن تقتلوني لا تُصلّوا جميعاً أبداً، ولا تغزوا جميعاً أبداً، ولا يقسم فيئكم بينكم.

وفي رواية ابن شيبة في المصنف:

فوالله إن قتلتموني لا تصلُّون جميعاً أبداً، ولا تجاهدون عدواً أبداً ولتختلفنَّ حتى تصيروا هكذا – وشبك بين أصابعه –

ثم قال الحسن البصري عقب ذلك، وقد عاش إلى سنة هـ ٧٢٨م، فوالله إن صلى القوم جميعاً إن قلوبهم مختلفة.

قال محمد حسان في كتابه «الفتنة»: هنا يأتينا سؤال خطير، وهو: أين كانت الصحابة رضوان الله عليهم، وهؤلاء المجرمون الموتورون يحاصرون بيت الخليفة عثمان؟

والجواب: ما عليه إجماع من كتب في تاريخ هذه الفترة: لقد كان عثمان إزاء هذه الأحداث الخطيرة التي نزلت به المثل الأعلى لما يمكن أن يقدمه الفرد في سبيل الجماعة والأمة الإسلامية.

كان بإمكانه أن يأمر الصحابة بقتلهم فيسلم هو..

بل ما كان عليه إلا أن يتقبل رجاءهم أن يدافعوا عنه، لقد حاول كل الصحابة أن يفدوه، ولكنهم لم يفلحوا ولم ينجحوا، ولكن لماذا؟

اسمع معي يا عبدالله إلى ما يرويه عامر بن ربيعة: يقول عامر: كنت مع عثمان في الدار – أي داره – يوم أن قتل، فقال عثمان: أعزم على كل من رأى أن عليه سمعاً وطاعةً لي إلا كف يده وسلاحه؛ فإن أفضلكم عندي غناء، من كف يده وسلاحه.

وعن محمد بن سيرين قال: انطلق الحسن والحسين وابن عمر وابن الزبير ومروان يحملون السلاح حتى دخلوا دار عثمان، فماذا قال عثمان؟ قال لهم: أعزم عليكم أن ترجعوا، وأن تضعوا أسلحتكم، وأن تلزموا بيوتكم.

وعن أبي هريرة أنه قال لعثمان: اليوم طاب الضرب معك يا أمير المؤمنين؟ فقال عثمان: أعزم عليك لتخرجن إلى بيتك يا أبا هريرة.

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبدالله بن الزبير قال: قلت لعثمان يوم الدار: اخرج فقاتلهم ؛

فإن معك من قد نصر الله بأقل منهم، والله إن قتلهم لحلال، يقول عبدالله بن الزبير: فأبى عثمان.

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن سيرين قال: جاء زيد بن ثابت إلى عثمان فقال: يا أمير المؤمنين، الأنصار بالباب، فإن شئت أن نكون أنصار الله مرتين؛ فأمرنا نقاتل: أي مرة نصروا النبي، ومرة ينصرون بها عثمان. فقال عثمان: أما القتال فلا وفي رواية: لا حاجة لي بذلك فكفوا.

وروى ابن عساكر باسناده إلى جابر بن عبدالله: أن عليَّ بن أبي طالب انطلق وهو معتمٌّ بعمامة رسول الله ﷺ مع خمسمائة دارع من أبطال الصحابة، وقال لعثمان: يا أمير المؤمنين: ائذن لي أن أمنعك القوم؛ فإنك لم تحدث شيئاً يستحلون به ذلك؛ فقال عثمان: جزيت خيراً يا علي؛ ما أحب أن يهراق دم بسببي.

وما أجمل قول القاضي - أبوبكر العربي - في كتابه «العواصم من القواصم»:

إن عثمان مظلوم محجوج بغير حجة، فعثمان قتل، والصحابة برآء من دمه؛ لأنه منع من قتل من ثار عليه وقال: لا أكون أول من خلَّف رسول الله ﷺ في أمته بسفك الدماء.

فصبر على البلاء واستسلم للمحنة، وفدى الأمة بنفسه.

يقول صاحب كتاب «الفتنة»:

أن عثمان قوي الإيمان، راسخ اليقين، كبير النفس، وكان يعلم يقيناً أنه سيبتلى.

ألم يخبره رسول الله بذلك؟

ألم يبشره رسول الله ﷺ على بلوى تُصيبه؟

ألم يعاهد عثمان رسول الله ﷺ على الصبر إذا ما وقعت الفتنة؟

والجواب: بلى، فقد وقعت الفتنة، فلتَفِ يا عثمان بوعدك وعهدك لرسول الله ﷺ، وهو حبيبك.

ففي مسند أحمد، ومستدرك الحاكم، والمصنف لابن أبي شيبة عن عبدالله بن حوالة الأزدي عن النبي ﷺ أنه قال:

«من نجا من ثلاث فقد نجا، من نجا من ثلاث.. من نجا من ثلاث....

قالوا: ماذا يا رسول الله؟ قال ﷺ: موتي، وخروج الدجال، وقتل خليفة مصطبر بالحق يعطيه».

وهذا ما كان من عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال المؤرخون: لقد كان عثمان يعلم يقيناً أن هذه الفتنة ستقع وقد وافقه الصحابي الجليل عبدالله بن عمر ألا يخلع نفسه وعلى أن يصبر، فقد روى الإمام أحمد، وابن أبي شيبة وغيرهما بسند صحيح عن عبدالله بن عمر قال: قال لي عثمان وهو محصور في الدار وعنده – المغيرة بن الأخنس -: انظر ما يقول هؤلاء القوم، يقولون: اخلعها ولا تقتل نفسك – يعني: انج بنفسك، واترك الخلافة – وهذا رأي المغيرة بن الأخنس، فقال عبدالله بن عمر: يا أمير المؤمنين: إذا خلعتها أمخلَّد أنت في الدنيا؟

تدبر يا عبدالله هذه النصيحة العظيمة من عبدالله بن عمر: أمخلد أنت في الدنيا؟

قال عثمان: لا، قال عبدالله: فإن لم تخلعها هل يزيدون على أن يقتولك؟ قال عثمان: لا، قال عبدالله بن عمر: فهل يملكون لك جنة أو ناراً، قال عثمان: لا، قال ابن عمر: فلا أرى أن تخلع قميصاً قمصكه الله، فتكون سنة، كلما كره قوم خليفتهم قتلوه، حتى لا يقوم لله دين، ولا للمسلمين قطام.

يقول الصلابي في قول عبدالله بن عمر: ما كان أبعد نظره، فلو تنازل عثمان لهؤلاء الخوارج وخلع نفسه لصار الخلفاء ألعوبةً بأيدي الطامعين وأصحاب الأهواء، ولقد سن عثمان سنة حسنة لمن بعده بمشورة ابن عمر وغيره من الصحابة حيث صبر واحتسب فلم يتنازل عن الخلافة، ولم يسفك دماء المسلمين.

قال المؤرخون: وعدم القتال كان عهداً من رسول الله ﷺ على عثمان ألا يقاتل وأن يصبر.

ففي مسند أحمد بسند صحيح من حديث عائشة أن النبي ﷺ قال يوماً وهو يجلس في بيتها: «ادع لي بعض أصحابي»، فقالت عائشة: أبوبكر يارسول الله؟ قال ﷺ:(لا)، قالت: عمر؟ قال ﷺ: (لا)، قلت: ابن عمك علي؟ قال ﷺ: (لا)، قالت: عثمان؟ قال: (نعم)، قالت عائشة: فلما جاء عثمان قال ﷺ: «تنحي، فجعل يُسارُّهُ ولون عثمان يتغير».

فلما كان يوم الدار – أي اليوم الذي حوصر فيه – قلنا: يا أمير المؤمنين، ألا تقاتل؟ قال: لا، إن رسول الله ﷺ عهد إلي عهداً وإني صابر نفسي عليه.

قال المؤرخون: وهذا العهد ألا يخلع عثمان نفسه أبداً من الخلافة حتى لا يكون هذا الأمر سابقة في تاريخ هذه الأمة.

ومن الأحاديث الجميلة الموضحة لذلك، ما رواه أحمد بسند صحيح، وابن ماجة في سننه، والترمذي في السنن أنه ﷺ قال بكلام صريح وهو لا ينطق عن الهوى: «يا عثمان إنك مقتول مستشهد، فاصبر صبرك الله، ولا تخلعن قميصاً قمصك الله عز وجل»، - ويعني الخلافة -.

فهذه أوامر من النبي ﷺ بالصبر، وعدم القتال، وعدم الاختلاع، فصبرعثمان، ومنَّ الله عليه بالشهادة.

قال المؤرخون: وفي الليلة المقدرة من السنة الخامسة والثلاثين للهجرة قام عثمان فصلى من الليل ما قدر له أن يصلي وقرآ القرآن ما قدر له أن يقرأ، ونام، فرأى في منامه المصطفى ﷺ وقال له: «إنك ستفطر عندنا الليلة ياعثمان، وفي رواية – أفطر عندنا غداً يا عثمان –».

وروى ابن أبي شيبة في المصنف، والحاكم في المستدرك وصححه من حديث ابن عمر أن عثمان أصبح فحدث فقال: إني رأيت النبي في المنام الليلة فقال: (يا عثمان: أفطر عندنا)، فأصبح عثمان صائماً، فقتل في يومه.

وفي رواية لأحمد بسند حسن: أن عثمان قال: إني رأيت رسول الله ﷺ البارحة في المنام، ورأيت أبا بكر وعمر، وإنهم قالوا لي: ياعثمان، أفطر عندنا، فأصبح عثمان صائماً، فقتل من يومه.

هنا سؤال: ماهي الأسباب التي منعت عثمان من السماح للصحابة بالقتال؟

والجواب:

أولاً: العمل بوصية رسول الله ﷺ، والعهد أن يصبر.

ثانياً: قوله: لن أكون أول من خلف رسول الله ﷺ في أمته بسفك الدماء.

ثالثاً: علمه، بأن البغاة لا يريدون غيره.

رابعاً: علمه بأن هذه الفتنة فيها قتله إذ بشره النبي ﷺ بالجنة على بلوى تصيبه.

خامساً: العمل بوصية عبدالله بن سلام الكف الكف.

آخر لقاء بالمسلمين، وآخر خطبة له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

قال الصلابي: كان آخر لقاءٍ لعثمان مع المسلمين بعد عدة أسابيع من الحصار، حيث دعا

الناس فاجتمعوا جميعاً أهل المدينة والبغاة، وكان في مقدمة الحاضرين: عليٌّ وطلحة والزبير، فقال للناس من جملة ماقاله: (إن الله عز وجل إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا الأخرة، ولم يعطكم الدنيا لتركنوا إليها... فلا تبطرنكم الفانية ولا تشغلنكم عن الباقية، وآثروا ما يبقى على ما يفنى، فإن الدنيا منقطعة، وإن المصير إلى الله، واتقوا الله عز وجل، فإن تقواه جنة ووقاية من بأسه وانتقامه، والزموا جماعتكم ولا تصيروا أحزاباً، قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[١].

ثم قال للمسلمين: يا أهل المدينة، إني أستودعكم الله، وأسأله أن يُحسنَ عليكم الخلافة من بعدي، وإني والله لا أدخلُ على أحدٍ بعد يومي هذا حتى يقضي الله فيَّ قضاءه، ولأَدَعنَّ هؤلاء الخوارج وراء بابي ولا أعطيهم شيئاً يتخذونه عليكم دَخَلاً في دين أو دنيا، حتى يكون الله هو الصانع في ذلك ما أحبَّ)، وأمرَ أهل المدينة بالرجوع وأقسم عليهم فرجعوا، إلا الحسن بن علي ومحمد بن طلحة وابن الزبير وأشباهاً لهم، فجلسوا على باب عثمان عن أمر آبائهم وثاب إليه رجال كثيرون، ولزم عثمان الدار حتى جاء أجله.

قال المؤرخون: لما انقضت أيام الحج، تحول جنود الأمصار من موسم الحج إلى المدينة لإنهاء هذا التمرد، وبخاصة عندما علموا أن كبار الصحابة في صف عثمان ومنهم زوج النبي ﷺ عائشة وابن عباس، وقَدِمَتِ الأخبار إلى المتمردين بأن أهل الموسم يريدون المدينة فوقعوا في حَيْصَ بَيْصَ وأعلقهم الشيطان وقالوا: لا يخرجنا من وقفتنا هذه، إلا قتل هذا الرجل فينشغل بذلك الناس عنا.

آخر أيام الحصار: هاجم المتمردون الدار فتصدى لهم الحسن بن علي وعبدالله بن الزبير ومحمد بن حاطب، ومروان، وسعيد بن العاص ومن كان من أبناء الصحابة ومن أقام معهم فنشب القتال، فناداهم عثمان: الله الله، أنتم في حلٍّ من نُصرتي.

قال المؤرخون: فأبوا ودخل غلمان لعثمان لينصروه، فأبى، وأمرهم ألا يفعلوا، بل إنه

---

(١) آل عمران: ١٠٣.

أعلن لهؤلاء الغلمان أنه من كفَّ يده منهم فهو حر، وقال عثمان في وضوح وإصرار وحزمٍ وحسم – وهو الخليفة الواجبة طاعته – أَعْزِمُ على كل من رأى أن عليه سمعاً وطاعةً إلا كَفَّ يده وسلاحه.

يقول المحققون: ولا تبرير لهذا الإصرار من عثمان على عدم القتال إلا أنه كان واثقاً من استشهاده بشهادة النبي ﷺ له بذلك، ولذلك أراد ألا تُراقَ قطرة دم بسببه، وألا تقوم فتنة بين المسلمين.

وكان المغيرة بن الأخنس بن شريق فيمن كان بالحج، وقد تَعجَّل مع نفرٍ حجوا معه لنصرة عثمان، فوصل قبل استشهاد عثمان، ودخل الدار يحمي عنه وقال: ما عذرنا عند الله إن تركناك ونحن نستطيع دفعهم.

وخاف المتمردون من وصول أهل الموسم فأقدموا على حرق الباب والسقيفة فثار إليهم مَنْ بالداخل وعثمان يصلي فمنعوهم، وقاتل المغيرة بن الأخنس والحسن، ومحمد بن حاطب، وسعيد بن العاص، وأبوهريرة، ومروان بن الحكم، فأبلوا بلاءً حسناً، وعثمان يرسل إليهم بالانصراف دون قتال، ثم ينتقل إلى صلاته، فاستفتح قوله تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣﴾(1)، وكان سريعَ القراءة فما أزعجه ما سمع، ومضى في قراءته ما يخطئ وما يتعتع، حتى إذا أتى إلى نهايتها قبل أن يصلوا إليه، عاد وجلس وقرأ قوله تعالى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٣٧﴾(2)، ثم عاد وقرأ ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ۝١٧٣﴾(3).

قال المؤرخون: وأصيب يومئذ أربعة من شبان قريش، الحسن بن علي، وعبدالله بن الزبير، ومروان، ومحمد بن حاطب، وقُتلَ: المغيرة بن الأخنس، ونيَّارُ بن الأسلمي، وزياد الفهري.

واستطاع عثمان أن يقنع المدافعين عنه، وألزمهم بالخروج من الدار، وخَلَّى بينه وبين

---

(1) طه: ١-٣.

(2) آل عمران: ١٣٧.

(3) آل عمران: ١٧٣.

المحاصرين، فلم يبق في الدار إلا عثمان وأهله، وليس بينه وبين المحاصرين حامٍ ولا مدافع، وفتح رضوان الله تعالى عليه باب الدار.

وبعد أن أخرج عثمان المدافعين عنه من الدار، نشر المصحف بين يديه، وأخذ يقرأ منه، وكان صائماً، فإذا برجل يدخل عليه من المحاصرين – لم يُسَمِّه المؤرخون – فلما رآه عثمان قال له: بيني وبينك كتاب الله، فتركه الرجل وخرج.

قال المؤرخون: استمر الحصار من أواخر ذي القعدة إلى الثامن عشر من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين للهجرة، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في أثناء الحصار في غاية الشجاعة وضبط النفس، فهو هادئٌ أشد ما يكون الهدوء، ومطمئن النفس غاية الاطمئنان رغم قسوة الظروف، وشدة الحصار فأيُّ شجاعة أعظم من ذلك، أليست الشجاعة ضبط النفس عند النوازل في غير قلقٍ، والصبر على المكاره في غير جزع، ومصابرة الحوادث في غير سأم.

مقتله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

ويروي صاحب كتاب «الإنصاف» للدكتور حامد خليفة: أنه عندما اشتد القتال عند باب الدار، ندب الخوارج له رجلاً لقتله، فدخل عليه البيت، فقال لعثمان: اخلعْها ونَدعُكَ، فقال عثمان: ويحك: والله ما كشفتُ امرأة في جاهلية ولا إسلام، ولا تغنيتُ ولا تمنيتُ، ولا وضعت يميني على عورتي منذ بايعت رسول الله ﷺ، ولست بخالعٍ قميصاً كَسَانِيه الله عز وجل، وأنا على مكاني حتى يُكرمَ اللهُ أهلَ السعادة، ويهين أهل الشقاء. فخرج الرجل فقال له اتباعه: ما صنعتَ؟ فقال: عَلِقْنا والله، ما يُنجينا من الناس إلا قتله، وما يَحِلُّ لنا قتله. كما ذكر الذهبي في كتابه «الخلفاء الراشدون» ونقله خليفة.

قال المؤرخون: وأصبح عثمان في اليوم الذي قُتِلَ فيه، فقال لمن حوله: لولا أن يقول الناس تمنى عثمان أمنية لحدثتكم حديثاً، قالوا: حَدِّثنا أصلحك الله فلسنا على ما يقول الناس. قال: إني رأيت رسول الله ﷺ في منامي هذا فقال لي: (إنك شاهد فينا الجمعة).

وورد عن زوجته نائلة بنت الفرافصة قالت: أغفى عثمان إغفاءةً فلما استيقظ قال: إن القوم يقتلونني، قالت فقلتُ: كلا يا أمير المؤمنين، قال: إني رأيت رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر فقالوا: إنك تُفطِرُ عندنا الليلة كما ذكر صاحب «البداية والنهاية» في التاريخ.

وروى ابن أبي الدنيا عن – عبدالله بن سلام – قال: أتيت عثمان لأسلم عليه وهو محصور،

فدخلت عليه فقال: مرحباً بأخي رأيت رسول الله ﷺ الليلة في هذه الخوخة، قال: عبدالله بن سلام وخوخة في البيت. فقال ﷺ: يا عثمان، حصروك؟ قلت: نعم. قال ﷺ: عطشوك؟ قلت: نعم، فأدلى ﷺ دلواً فيه ماء فشربتُ حتى رويت، حتى إني لأجد برده بين ثَدْيَيَّ وبين كتفي، وقال لي ﷺ: إن شِئتَ نُصرتَ عليهم، وإن شئت أفطرتَ عندنا.

فاخترت أن أفطر عنده ﷺ. - فقتل عثمان في يومه -.

قال (أبو سعيد مولى عثمان بن عفان)، ودعا عثمان بسراويل فَشدَّها عليه ولم يلبسها في جاهلية ولا إسلام...

قال ابن كثير: وإنما لبس السراويل في هذا اليوم لئلا تبدو عورته إذا قُتِلَ فإنه كان شديد الحياء، كانت تستحي منه ملائكة السماء كما نطق بذلك النبي ﷺ، ووضع المصحف بين يديه يتلو فيه واستسلم لقضاء الله، وكف يده عن القتال، وأمر الناس وعزم عليهم ألا يقاتلوا، ولولا عزيمته عليهم لنصروه، ولكن كان أمر الله قدراً مقدورا.

قال المؤرخون: وجاحفَ الناسُ عن عثمان أَشدَّ المجاحفة، واقتتلوا على الباب قتالاً شديداً، وأحاط المارقون بالدار وأحرقوا الباب فلم يستطيعوا، فتسوَّروا من الدار المتاخمة لدار عثمان.

قال صاحب كتاب «الفتنة» الشيخ محمد حسان:

وانقض عليه المجرمون الآثمون كالذئاب المسعورة، فضربه - الغافقي - من مصر بحديدة معه، والتفت الضارب إلى المصحف في حجر عثمان فضربه برجله فاستدار المصحف دورة كاملة واستقر في حجر عثمان مرة أخرى لتخالطه دماء عثمان، كما خالطت آيات القرآن دماء عثمان!

ثم يتساءل المؤلف فيقول: أهؤلاء قوم خرجوا لله؟ يَضربُ صاحبهم المصحف برجله ويدعي أنه خارج لله؟ وظل عثمان جالساً على كتاب الله كالطود الشامخ واستمر يقرأ فانقض عليه مجرم يقال له - التجيبي - من مصر، وهو رجل من سدوس اسمه - كِنانةُ بن بِشْر - يقال له: الموت الأسود، فضرب عثمان ضربة آثمة فأصابت كفه، فقال عثمان: الحمد لله، والله إنها يدٌ خطَّت المُفَصَّلَ.

وجاء التجيبي مخترطاً سيفه فوضعه في بطن عثمان. فجاءت زوجته الصابرة الوفية التقية النقية العفيفة الطاهرة – نائلة – لتفدي زوجها بروحها ودمها فطعنها هذا المجرم في يدها فجرَتْ، فنظر الخبيث إلى مؤخرتها، فقال: ما أعظم عجيزتها، وقالت لغلام لعثمان اسمه – رباح / نجيح – وكان معه سيف عثمان، أَعِنِّي على هذا وأخرجه عني، فضرب رباحُ التجيبيَّ بالسيف فقتله وانقض السبئية على الغلام فقتلوه.

فأول من ضربه – التجيبي كنانة بن بشر – ثم اشترك السبئيون في الإجهاز عليه – هذا هو الراجح – إذ لم يُنسبْ قتله لواحد وحده ولذلك قال الوليد بن عقبة:

ألا إنَّ خيرَ الناس بعد نبيهم   قتيلُ التجيبي الذي جاء من مصر

ولما ضرب عثمان قال: بسم الله، توكلت على الله، ولما سال الدم على اللحية والمصحف بين يديه اتَّكأ على شقه الأيسر وهو يقول: سبحان الله العظيم.

ثم قال: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، اللهم إني أستعديك وأستعينك على جميع أموري وأسألك الصبر على بَلِيَّتِي.

قال الزهري: قتل عثمان عند صلاة العصر، ودخلت الغوغاء داره، فصاح إنسان منهم: أَيَحِلُّ دم عثمان ولا يحل ماله؟ فانتهبوا المتاع، فقالت زوجته نائلة: (لصوصٌ ورَبِّ الكعبة)! يا أعداء الله، ما ركبتم من دم عثمان أعظم، أما والله لقد قتلتموه صَوَّاماً قَوَّاماً. ثم خرج الناس.

قال الصلابي: حقق السبئيون مرادهم، وقتلوا الخليفة عثمان، وبعد القتل توقف الكثير من الغوغاء الذين كانوا معهم ليفكروا وقالوا: ما كنا نَظنُّ أن الأمر يصل إلى القتل، وهذا ما استبشعوه، وحصل لبعضهم ندم شديد، ولكن كان قد فات الأوان، وهذا الزبير بن العوام لما اشتد ألمه على مقتل عثمان، قالوا له: إن القوم نادمون، فقال: دَبَّروا ودبروا ولكن كما قال تعالى: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ – أي النجاة – كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾ ﴾[(١)].

وكذلك قيل لطلحة: إن القوم نادمون، فقال: تباً لهم وقرأ قوله تعالى: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ

(١) سبأ: ٥٤.

تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾[1].

وكذلك لما قيل لعلي رضي الله عنه: إن القوم نادمون، فقرأ قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾[2].

وكذلك لما قيل لسعد بن أبي وقاص قال: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾[3].

ثم قال سعد: اللهم أندِمهم واخْزِهم واخذُلْهم، ثم خُذْهم.

واستجاب الله دعوة سعد، وكان مُستجابَ الدعوة، فما سَلِمَ منهم أحدٌ، حتى جهجاه الغفاري الذي أخذ عصاة رسول الله وكانت بيد عثمان على المنبر فكسرها على ركبته، فوقعت الأَكَلَةُ في ركبته.

قال الصلابي: ثم قام نفر من الصحابة بغسله وبكفنه وحَمْلِه، منهم حذيفة، وحكيم بن حزام، وعلي بن أبي طالب..وأبو الجهم، وجبير بن مطعم وصلى عليه في الراجح الزبير بن العوام لأنَّ عثمان أوصى إليه بذلك، ودفن ليلاً بين المغرب والعشاء يوم السبت في البقيع – في حُشِّ كولب – كان قد اشتراه عثمان ووسع به البقيع.

وهذا هو الصحيح الراجح: وما سواه من الروايات باطل ضعيف (من أنه بقي ثلاثة أيام في الأرض)، فهذا مردود سنداً ومتناً.

ومما جعل الألم يشتد على أصحاب رسول الله ﷺ، أن عثمان لم يقع في ذنب، وإنما لفقت له التهم وكتبت على لسانه ولسان الصحابة الكتب المزورة ثم أشيعت بين الناس وتناقلها الأعراب والغوغاء واستغلها الخوارج، وهذا ما عبر عنه كعب بن مالك الأنصاري:

يـــا لَلرجـــالِ لأمـــرٍ هـــاجَ لي حزنـــاً ... لقـــد عجبـــتُ لمـــن يبكـــي عـــلى الـــدِّمنِ

---

(١) يس: ٤٩.

(٢) الحشر: ١٦-١٧.

(٣) الكهف: ١٠٣-١٠٦.

إني رأيـــت قتيـــلَ الـــدار مُـــضطهَداً	عـــثمان يُهـــدى إلى الأجـــداث في كفـــن
يـــا قاتَـــلَ اللهُ قومـــاً كـــان أمـــرهم	قتـــلَ الإمـــام الزكـــيِّ الطيـــبِ الـــرُّدُنِ
مـــا قـــاتلوه عـــلى ذنـــبٍ ألمَّ بـــه	إلا الـــذي نطقـــوا زُوراً ولم يَكـــنِ

كان مقتل عثمان جرحاً عميقاً في قلوب أصحاب رسول الله ﷺ لِمَا علموا ما سيكون من أثرها في المستقبل وفي صناعة الأحداث القادمة.

قال المؤرخون: وكل من اشترك في قتل عثمان أصابته عقوبة.

وقد روى قتادة أن رجلاً من بني سدوس قال: كنتُ فيمن دخل الدار على عثمان فما رأيتُ رجلاً ممن دخل إلا أصابته عقوبة غيري.

قال قتادة: فما مات حتى عَمِيَ.

وروى محمد بن سيرين: كنت أطوف بالكعبة فإذا رجل يقول: اللهم اغفر لي، وما أظن أنْ تغفرَ لي! قلت له: يا عبدالله ما سمعتُ أحداً يقول كما تقول! قال: كنت عاهدتُ الله عهداً إنْ قدرتُ أن ألطم وجه عثمان إلا لطمته. فلما قُتلَ وُضِعَ على سريره في البيت، والناس يجيئون فيصلون عليه، فدخلت كأني أصلي عليه، فوجدت خلوة فرفعت الثوب عن وجهه ولطمته وغطيت الثوب، والله ما رفعته إلا ويميني يابسة، قال ابن سيرين: رأيتها يابسة كأنها عود. رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق».

وأخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح: عن عمرة بنت أرطأة العدوية قالت: خرجتُ مع عائشة سنة قتل عثمان إلى مكة، فمررنا بالمدينة، ورأينا المصحف الذي كان في حجره حين قتل، فكانت أول قطرة قُطِرتْ من دمه على هذه الآية: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾[1].

قالت عمرة: فما مات منهم رجل سَوِيّاً.

---

(١) البقرة: ١٣٧.

علي بن أبي طالب

رضي الله عنه

المقدمة

الحمد لله الذي أنعم على الإنسانية برسالة الإسلام. وصلى الله وسلم على خير الأنام، الإنسان الأعلى، والمعلم الأكمل، محمد بن عبد الله صفوته من خلقه.

وأَعلى مقامَ الذين قاموا بتحقيق رسالته، ممن تشرفوا بصحبته، وأحسنوا الخلافة على أمته، ومن واصلوا عملهم بعدهم، ملتزمين سنته، ومُتحرِّين أهدافهم إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد انتهينا من سيرة عثمان الشهيد، لننتقل إلى سيرة شهيد جديد، إلى سيرة علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ونحن عندما نتابع دراسة هذه السلسلة الذهبية من الخلفاء الراشدين، أو من العشرة المبشرين، فإنما نريد الدروس والعبر من تاريخنا، وأن نعود إلى ديننا عودة تزكي السرائر وتبني الأخلاق وتَصِلنا بالقرأن الكريم، وتُشعرنا بالانتماء إلى محمد صلى الله عليه وسلم ودينه، وضرورة العمل بدعوته، وسنة خلفائه الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وسائر أصحابه الميامين، ونكون حلقة موصولة في دعم رسالة الحبيب صلى الله عليه وسلم التي استوعبت الزمن كله.

والذي يدلنا على أن رسالة محمد قد استوعبت الزمن كله أن سيرة العظماء، والقادة وأخبار المصلحين والعلماء والمفكرين عبر عصور التاريخ، تُكتب هذه السير وتختم ولا يعود فيها مجال للمزيد، أو لكتابة شيء جديد.

لكن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وسيرته كانت ولا تزال وستظل ميداناً مفتوحاً للتأليف والإبداع، والاقتداء بهذه السيرة العطرة حتى لكأنها نبع متجدد وكتاب مفتوح يكتشف فيه العقل المبدع ما لم يسبقه إليه من قبله.

نريد بتدريس هذه السلسلة أن نبرز قيمة أمة كان لها قادتها الأفذاذ، لنكون على طريقهم حتى تعيد هذه الأمة مجداً أضاعته، وحتى نتصل بكتاب الله صلةً تشفي أسقامنا، فهو وحده الدواء لا للمسلمين وحدهم بل وللإنسانية التي تترنح الآن.

وفي هذه الآونة من التاريخ لبعدها عن منهج الله الذي فيه سعادتها وهو قريب على حد قول الشاعر:

ومن العجائب والعجائب جمةٌ   قُربُ الحبيب وما إليه وصول

كـــالعِيس في البيـــداء يقتلهـــا الظـــما والمـــاءُ فـــوق ظهورهـــا محمـــول

إن العواصف العاتية – **كما قال الصلابي** – تهب بعنف علينا تريد اجتياح إسلامنا ودينا وعقيدتنا من جذورها، وجهود خصوم الإسلام من الصليبية واليهودية والعلمانية والمبتدعة وغيرها تستبيح قادتنا وأسلافنا في ميدان العلم والأدب والسياسة وتريد تشويه تاريخنا ومَنْ ربَّاهم الرسول ﷺ قدوات لنا لنكون أمة ضائعة بلا تاريخ، ولا رجال، ولا عظماء، وما قيمة تاريخ لا قادة فيه ولا عظماء، وما قيمة أمة لم تصنع حضارةً.. فهل يكمننا أن نستلهم الدروس والعبر من تاريخنا بذكر هؤلاء الأعلام لنعيد مجداً يحرص الأعداء على دفنه، ونعيد حضارة يتفانى الأعداء بطمس إنسانيتها ومعالمها.

ونحن بعودتنا إلى هذا النبع الصافي ننصف أنفسنا، وننقذ غيرنا من خضم الشقاء والتعاسة.

وهؤلاء الأصحاب الذين هم الجيل القرآني الفريد، لن يكون منهم مَن لا يقتدي بهم، ولا يحن إليهم، ولا يشتاق للقائهم والتأسي بهم على حد قول القائل:

ومـــن عجـــب أني أَحـــنُّ إلـــيهم وأســـأَلُ عـــنهم مَـــن لقيـــتُ ومـــن معـــي

وتَطلـــبُهم عينـــي وهـــم في ســـوادها ويـــشتاقهم قلبـــي وهـــم بـــين أضـــلعي

ورأس هذه الأمة من نحن في سيرتهم، الخلفاء الراشدون وهم الأئمة الأربعة الذي سيكون آخرهم علي بن أبي طالب محور حديثنا في هذه الدروس.

وهم في الفضل حسب ترتيبهم في الخلافة، قال الشاعر:

إني أُحـــبُّ أبـــا حفـــص وشـــيعته كـــما أُحـــب عتيقـــاً صـــاحبَ الغـــار

وقـــد رضـــيتُ عليـــاً قـــدوةً علـــماً ومـــا رضـــيت بقتـــل الـــشيخ في الـــدار

كـــلُّ الـــصحابة ســـاداتي ومعتقـــدي فهـــل عَـــليَّ بـــذاك القـــول مـــن عـــار

بيعة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

قال صاحب كتاب – الإنصاف فيما وقع بين الصحابة -:

بعد استشهاد عثمان، لم يعد هناك من هو أولى بالخلافة مَن علي بن أبي طالب، لذلك

توجهت الأنظار إليه، وطلبه المسلمون لكن المرحلة كانت فتنة، والمُصابُ بعثمان كان عظيماً، فلم يكن من السهل أن يقبل أحد من الصحابة البيعة، ويحمل أعباء الفتنة وأهوالها ويُصلح ما جناه السبئيون من الفساد، وما أحدثته الغوغاء، ويستقبل أحداثاً وصراعاً، وذلك ثمن دماء عثمان التي استباحها الخارجون عامدين دون وجه حق، حتى روى المؤرخون أن المدينة بقيت عدة أيام بلا أمير، والناس يلتمسون مَن يُجيبهم إلى القيام بالأمر فلا يجدونه، يأتي المصريون علياً فيختبئ منهم ويلوذ بحيطان المدينة، فإذا لقوه تبرأ منهم وباعدهم مرة بعد مرة.

ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه فأرسلوا له رسلاً حيث هو فباعدهم وتبرأ من مقالتهم، ويطلب البصريون طلحة، فإذا لقيهم تبرأ من مقالتهم مرةً بعد مره.

وكان الخوارج مختلفين فيمن يكون خليفةً، فلما رأوا الرفض من الثلاثة – علي والزبير وطلحة – قالوا: لن يتابع واحداً من هؤلاء الثلاثة، وإنما سنولي أول من يستجيب لنا.. فبعثوا إلى سعد بن أبي وقاص وقالوا: إنك من أهل الشورى ورأينا فيك مجتمعٌ فأقدم نبايعك، فبعث إليهم:

إني وابن عمر خرجنا منها فلا حاجة لي فيها على حال وتمثل بقول الشاعر:

لا تخلطنَّ خُبيثاء بطيبةٍ واخلع ثيابك منها وانْجُ عُريانا

ثم أتوا عبدالله بن عمر فقالوا: أنت ابن عمر فَقُمْ بهذا الأمر فقال: إن لهذا الأمر انتقاماً، والله لا أتعرض له فلتمسوا غيري، فبقوا حيارى لا يدرون ما يصنعون.

ويروي المؤرخون: أن الغوغاء كانوا إذا لقوا طلحة وعرضوا عليه الأمر أبى عليهم، وتمثل قول الشاعر:

ومن عجب الأيام والدهر أنني بقيتُ وحيداً لا أُمِرُّ ولا أُحْلِي

فيقولون له: إنك لَتُوعِدُنا، فيقومون فيتركونه.

فيعودون إلى الزبير، فإذا لقوه أرادوه للبيعة فيأبى ويقول:

متى أنت عن دارٍ بفيحان راحلٌ وباحتها تحنو عليك الكتائب

فيقولون: إنك لتوعدنا، فيقومون ويتركونه. – **كما ذكر الطبري وابن كثير** –

يقول أهل العلم: ومن هذه المواقف المتماثلة، والتي تعبر عن رؤية واحدة، ومنهج واحد

يتأكد لنا أن الصحابة الكرام لم يكونوا مختلفين ولا متنافسين في أمر الخلافة؛ بل كانت الرؤية واحدة قبل استشهاد عثمان وبعده، وأن الموقف كان من هؤلاء الخوارج واحداً أيضاً.

كما نستفيد من هذه المواقف الواحدة من الصحابة أنهم كانوا يتدافعونها إشفاقاً من مسؤوليتها، وهذا ما عرف عنهم من بيعتهم للخلفاء الراشدين.

واعلم – يا عبدالله – أن كل رواية تعارض هذه المنهجية، وتتهم الصحابة بغير ما عرف عنهم فهي محل نظر، فما وافق أخلاق الصحابة ودينهم، وحرصهم على سلامة عقيدتهم وصلاح آخرتهم فهي محل قبول وذلك أن الصحابة كلهم عدول بتعديل الله تعالى ورسوله ﷺ لهم.

كيفية البيعة لعلي رضي الله عنه:

يروي الخلال بإسناد رجاله ثقات، والخلال هو – **أبو بكر الخلال صاحب كتاب السنة** – عن محمد بن الحنفية قال: كنت مع علي وعثمان محصور، قال: فأتاه رجل فقال: إن أمير المؤمنين مقتول الساعة، قال: فقام علي... قال محمد بن الحنفية: فأخذت بوسطه تَخَوُّفاً عليه فقال: خَلِّ لا أَمَّ لك، قال: فأتى علي الدار، وقد قتل عثمان، فأتى عليٌّ داره فدخلها فأغلق بابه، فأتاه الناس، فضربوا عليه الباب، فدخلوا عليه، فقالوا: إن هذا قد قتل، ولا بد للناس من خليفة ولا نعلم أحداً أحق بها منك، فقال لهم علي: لا تريدوني فإني لكم وزيراً خير مني لكم أميراً، فقالوا: لا والله، لا نعلم أحداً أحق بها منك، قال: فإن أبيتم عليَّ فإن بيعتي لا تكون سراً، ولكن أخرج إلى المسجد، فإنه ينبغي لبيعتي أن لا تكون خفياً ولا تكون إلا عن رضىً من المسلمين.

فقال عبدالله بن عباس: فلقد كرهت أن يأتي المسجد كراهية أن يشغب عليه، وأبى هو إلا المسجد، فلما دخل المسجد جاء المهاجرون والأنصار فبايعوا وبايع الناس.

وفي رواية مؤثرة ذكرها الحاكم في «المستدرك»، والحافظ ابن عساكر في «تاريخ دمشق» عن – قيس بن عباد – قال: سمعت علياً يقول: اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان، اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان، ولقد طاش عقلي يوم قتل عثمان، وأنكرت نفسي – يقول صاحب كتاب «الفتنة» محمد حسان: تدبر هذا الكلام – وأنكرت نفسي، وجاؤوا للبيعة، فقلت: والله إني لأستحي من الله أن أبايع قوماً قتلوا رجلاً قال عنه رسول الله ﷺ: «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة».

هؤلاء ما كانوا طلاب كراسي كما يقول محمد حسان.

قال: فلما قال لهم ذلك وقال علي: إني لأستحي أن أبايعَ وعثمان قتيل لم يُدفن بعد، فانصرفوا عنه لما قال ذلك، ثم جاؤوا إليه مرة أخرى يسألونه البيعة، يقول علي: فقلت لهم: إني مشفق مما أقدم عليه، ثم جاءت عزيمة فبايعت – أي عزم عليه أهل بدر من المهاجرين والأنصار –، قال: فلما سمعت قولتهم: يا أمير المؤمنين فكأنما صدع قلبي، ثم قال: اللهم خذ مني لعثمان حتى ترضى.

وفي «مصنف ابن أبي شيبة» عن – عبيد الله بن أبي رافع كاتب علي – قال: رأيت علياً حين ازدحموا عليه حتى أدموا رجله، فقال: اللهم إني قد كرهتهم وكرهوني فأرحني منهم، وأرحهم مني.

أخي الكريم، أنت أمام إمام من طراز عمر، إمام من أئمة الزهد والعفة والورع والعلم والتقى والبلاغة والبيان أمام علي يقول – فلما قالوا: يا أمير المؤمنين، كاد قلبي أن ينصدع، وانسكبت عيني بالعبرات –، عرف حجم الأمانة، وخطورة الولاية، وكيف لا، وهو الذي سمع من رسول الله – كما في «صحيح مسلم» – أن أبا ذر لما جاء يطلب الولاية من رسول الله، ضرب رسول الله ﷺ منكب أبي ذر وقال: يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها.

فها هو علي لما ذهب إليه الناس ليبايعوه رفض الخلافة، وأشار عليهم بطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، فقال الناس له: انطلق معنا إلى طلحة والزبير، فانطلق معهم علي وبدأ بطلحة وقال علي: يا أبا محمد، إن الناس قد اجتمعوا إلي في البيعة.. أما أنا فلا حاجة لي فيها، فابسط يدك حتى أبايعك، فقال طلحة: يا أبا الحسن أنت أولى بهذا الأمر وأحق به مني، لعقلك وسابقتك في الإسلام وقرابتك من رسول الله ﷺ، وهل يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوو الفضل.

ثم ذهب إلى الزبير، وقال له مثلما قال لطلحة. وكان جواب الزبير كجواب طلحة ثم انطلق الجميع إلى المسجد فبايعوا علياً.

ويروي ابن عساكر عن الحسن البصري قال: لما قدم علي البصرة قام عبدالله بن الكواء،وقيس بن عباد فقالا: يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن مسيرك إلى البصرة هذا.

أَوصيَّةٌ أوصاك بها رسول الله ﷺ؟ أم عهد عهده إليك؟ أم رأي رأيته حينما رأيت الأمة تفرقت كلمتها بعد مقتل عثمان؟

قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اللهم لا، فلو عهد إليَّ رسولُ الله ﷺ شيئاً لقمتُ به.

وفي رواية، والله ما أكونُ أولَ كاذبٍ على رسول الله. ويعني بكلمته هذه – أنه سيقول كلاماً صريحاً واضحاً صادقاً –.

قال: والله ما مات رسول الله ﷺ موت فجأة، ولا قتل قتلاً، ولقد مكث النبي ﷺ في مرضه أياماً وليالي يأتيه المؤذن فيؤذن بالصلاة، فيأمر النبي ﷺ أبا بكر فيصلي بالناس وهو يعرف مكاني، ويعلق صاحب كتاب – الفتنة على كلام علي هذا – فيقول: إنه كلام في غاية الدقة، فهو من أبلغ الردود على من يقدمون علياً على الصديق، فعلي يقول: النبي يأمر في مرضه أبا بكر أن يصلي بالناس وهو ﷺ يعرف مكاني – يعني لو كان ﷺ يرى أني أهلٌ لهذه المكانة لقدمني على أبي بكر– ثم يقول علي المنصف: ولقد أرادت امرأة من نسائه أن تصرفه عن الصديق فقالت: إن أبا بكر رجل رقيق لا يستطيع أن يقوم مقامك، فلو أمرت عمر يصلي بالناس، فغضب ﷺ وقال: «أنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس».

هذا أمر صريح، ثم يقول علي:

فلما قَبض الله نبينا نظرنا في أمورنا، فاخترنا مَن اختاره النبي لديننا، فكانت الصلاة أصلَ الإسلام وقوام الدين وهو أمين الدين، ثم يقول علي: فبايعنا أبا بكر، وكان لذلك أهلاً لم يختلف عليه منا اثنان.. فأديت لأبي بكر حقه، وعرفت له طاعته، وغزوت معه في جنوده وكنت آخذ إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني، وأضرب بين يديه الحدود بسوطي.

فلما قبض الصديق ولَّاها عمر، فأخذها بسنة صاحبه، وما يعرف من أمره، فبايعنا عمر لم يختلف عليه منا اثنان، فأديت إلى عمر حقه، وعرفت له طاعته، وغزوت معه في جيوشه، وكنت أخذ إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني، وأضرب بين يديه الحدود بسوطي، فلما قُبض عمر تذكرت في نفسي قرابتي وسابقتي، وأنا أظن ألا يعدلوا بي، ولكن خشي – أي عمر – ألا يُعمل بعده دم إلا لحقه في قبره، فأخرج نفسه وولده إلى رهط من قريش ستة فبرئ عمر منها، ستةٍ أنا أحدهم.

فلما اجتمع الرهط ذكرت قرابتي في نفسي، وأنا أظن ألا يعدلوا بي، فأخذ عبدالرحمن بن

عوف مواثيقنا على أن نسمع ونطيع من ولاه الله أمرنا.

ويعلق صاحب كتاب «الفتنة» فيقول: انظر إلى عبقرية عمر، لما نام على فراش الموت اختار ستةً من الصحابة – طلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبدالرحمن بن عوف وعلياً وعثمان – وقال عمر: الخلافة في هؤلاء.

فتنازل عبدالرحمن وسعد وطلحة والزبير، وظلت الخلافة بين علي وعثمان، وأجمع الصحابة أمرهم على عثمان، فهل شاغبَ عليٌّ أو استنكر؟

لا والله وإنما قال كلمة ترن في أذن التاريخ لتدلنا على أنهم لم يكونوا طلاب مناصب ولا طلاب دنيا، قال علي: فأخذ عبدالرحمن بن عوف مواثيقنا على أن نسمع ونطيع لمن ولاه الله أمرنا، ثم أخذ عبدالرحمن بيد عثمان فضرب بيده على يده، فنظرت في أمري – فإذا طاعتي قد سبقت بيعتي –.

سبحان الله ما أجملها من عبارة: أي سبقت طاعتي لعثمان ما كنتُ أرجوه أن أُبايعَ بها أنا.

ثم يقول علي: فبايعنا عثمان، فأديتُ إليه حقه، وعرفت له طاعته، وغزوت معه في جيوشه، وكنت آخذ إذا أعطاني وأغزو إذا أغزاني، وأضرب بين يديه الحدود بسوطي.

فلما أصيب – عثمان – نظرت في أمري، فإذا الخليفتان اللذان أخذاها بعهد رسول الله ﷺ إليهما بالصلاة قد مضيا. وهذا الذي أخذ له الميثاق قد أصيب فبايعني أهل الحرمين – مكة والمدينة – وأهل المصرين – الكوفة والبصرة – وفي رواية: فجاءني الناس فبايعوني طائعين غير مكرهين وهكذا تمت البيعة لعلي كما قال صاحب «العواصم»: (فلما قضى الله من أمره ما قضى، ومضى في قدره ما مضى، علم أن الحق لا يترك الناس سدى؛ وأن الخلق بعده مفتقرون إلى خليفة مفروض عليهم النظر فيه، ولم يكن بعد الثلاثة كالرابع قدراً، وعلماً وتُقىً وديناً، فانعقدت له البيعة، أي لعلي.

فمن هو علي رضي الله عنه؟

يحدث علي عن نفسه فيقول: إنهم لما قالوا له بعد البيعة يا أمير المؤمنين كاد قلبي أن ينصدع، وانسكبت عيناي بالدموع.

ويدلك على إجماع الأمة عليه قوله رضي الله عنه: لما أصيب عثمان بايعني أهل الحرمين – مكة

والمدينة – وأهل المصرين – الكوفة والبصرة – جاءني الناس فبايعوني طائعين غير مكرهين.

قال العلماء: وهكذا كانت البيعة لعلي ما تخلف أحد، وما أجمل قول القاضي أبي بكر بن العربي صاحب كتاب «العواصم من القواصم»:

فلما قضى الله من أمره ما قضى، وقضى في قدره ما مضى، علم أن الحق لا يترك الناس سدى، وأن الخلق بعده مفتقرون إلى خليفة مفروض عليهم النظر فيه.

ولم يكن بعد الثلاثة كالرابع قَدْراً وعلماً وتُقىً وديناً، فانعقدت له البيعة، وعزم عليه المهاجرون والأنصار، ورأى ذلك فرضاً عليه فانقاد إليه.

قال صاحب كتاب «سيرة أمير المؤمنين علي» الصلابي:

انعقد إجماع أهل السنة والجماعة على أن علياً كان متعيناً للخلافة بعد عثمان لبيعة المهاجرين والأنصار له، لِمَا رأوا من فضله على من بقي من الصحابة، وأنه أقدمهم إسلاماً، وأوفرهم علماً، وأقربهم بالنبي نسباً، وأشجعهم نفساً، وأحبهم إلى الله ورسوله، وأشبههم برسول الله ﷺ هدياً وسمتاً.

وقد نقل محمد بن سعد إجماع مَنْ له قدم صدق وسابقة في الدين ممن بقي من أصحاب النبي ﷺ بالمدينة على بيعة علي.

وقال عبدالله بن بطة: كانت بيعة علي بيعة اجتماع ورحمة، لم يَدْعُ إلى نفسه، ولم يجبرهم على البيعة بسيفه، ولم يغلبهم بعشيرته، ولقد شرف الخلافة بنفسه، وزانها بشرفه، وكساها حلة البهاء بعدله، ورفعها بعلو قدره، ولقد أباها فأجبروه، وتقاعس عنها فأكرهوه.

وقال ابن تيمية: كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب آخر الخلفاء الراشدين المهديين، وقد اتفق عامة أهل السنة من العلماء والعُبَّاد والأمراء والأجناد على أن يقولوا: أبوبكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي. كما في كتابه «الوصية الكبرى» ص٢٣.

وقال الحسن البصري: والله ما كانت بيعة علي إلا كبيعة أبي بكر وعمر.

أول خطبة خطبها علي بعد توليه الخلافة:

قال أمير المؤمنين علي في أول خطبة خطبها بعد البيعة:

«إن الله أنزل كتاباً هادياً، بَيَّنَ فيه الخير والشر، فخذوا بالخير ودعوا الشر، الفرائض أدوها إلى الله سبحانه يؤدّكم إلى الجنة .

إن الله حرم حرماً غيرَ مجهولةٍ، وفضل حرمة المسلم على الحُرَمِ كلها، وشدَّ بالإخلاص والتوحيد المسلمين، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق، لا يحل أذى المسلم إلا بما يجب، بادروا أمر العامة... فإن الناس أمامكم وأنَّ من خلفكم الساعةَ تحدوكم.. تخففوا تلحقوا، فإنما ينتظر الناس الآخر، اتقوا الله في عباده وبلاده، إنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم، أطيعوا الله عز وجل ولا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشر فدعوه».وختم كلمته بقوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[١] .

قال أهل العلم: وإنك لتلمس عظيم فطنته في هذه الكلمة الموجزة، فإنه لما كانت بيعته بعد فتنة عمياء ذهب ضحيتها الخليفة السابق فإنه دعاهم إلى الخير ونبذ الشر، وبين لهم أن حرمة المسلم فوق كل الحرمات.. ثم ذكَّرهم بالموت والآخرة.

ورسم في هذه الخطبة خطته للناس، فهو يريد أن يقول لهم: ارجعوا إلى العهد الذي كنتم فيه أيام الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده..

وانظر إلى جميل الختام بالآية ليقارنوا بها بين ما كانوا عليه قبل الإسلام وبعده، من القلة والضعف حتى كانوا كقطعة لحم على كف يتخطفها الطير، ثم صاروا إلى القوة والسعة والأمن والسلام، والرخاء، وما أكرمهم به من الرفعة فخفقت راياتهم، ودان لهم العباد والبلاد، وكل هذه النعم تحتاج إلى المزيد من الشكر ولذلك قال: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ ﴾ مشتق من الذُكر وهو التذكر لا ذكر اللسان أي اذكروا زمن كنتم.

وقوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ تنبيه منه سبحانه أنهم إذا أُعطوا حق الشكر دام أمرهم في تصاعد، وحين نسوه – حق الشكر – آخذ أمرهم في تراجع.

قال العلماء: والشكر له سبحانه، أن تتحرى الحلال في كل حركة حياتك فيزيدك، ورأس ذلك في تحري ما تأكل.

---

(١) الأنفال: ٢٦.

ولذلك قال البروسوي:

اعلم أن أربعة في الطعام فريضة:

أن لا يأكل إلا من حلال.

وأن يعلم أنه من الله تعالى.

وأن يكون راضياً.

وأن لا يعصي الله ما دامت قوة ذلك الطعام فيه.

وأربعٌ سنة:

أن يسمي في الابتداء.

ويحمد الله في الانتهاء.

وأن يغسل يديه قبل الطعام وبعده.

وأن يثني رجله اليسرى وينصب اليمنى في الجلوس.

وأربع آداب:

أن يأكل مما يليه.

وأن يُصَغِّر اللقمة.

وأن يمضغها ناعماً.

وأن لا ينظر إلى لقمة غيره.

واثنان دواء:

أن يأكل ما سقط من المائدة.

وأن يلعق الصحن.

واثنان مكروهان:

أن يشم الطعام وأن ينفخ فيه.

ولا يأكل حاراً حتى يبرد فإن اللذة في الحار، والبركة في البارد.

والآن وبعد البيعة، نقول: من هو علي؟ وما فضائله؟

هو علي بن أبي طالب، (أبو طالب) اسمه (عبد مناف) ابن (عبد المطلب)، وعبد المطلب اسمه (شيبة الحمد) بن هاشم، فهو ابن عم رسول الله ﷺ ويلتقي معه في الجد الأول عبد المطلب (شيبة الحمد)، وأبوطالب (عبد مناف) هو شقيق (عبد الله) والد النبي ﷺ.

أمه: (فاطمة بنت أسد بن هاشم) وهي أول هاشمية ولدت هاشمياً، أسلمت وتوفيت مسلمة بالمدينة المنورة وشهد النبي ﷺ دفنها وأشعرها النبي ﷺ قميصه، ونزل في قبرها، ولما سئل عن ذلك قال ﷺ: «ألبستها لتلبس من ثيابِ أهل الجنة» ودعا لها ﷺ وقال: «إنها كانت أحسن خلقِ الله صنيعاً إليَّ بعد أبي طالب، وبكى وقال: جزاك الله خيراً، فلقد كنت خير أم وكانت قد ربت النبي ﷺ».

ولدت لأبي طالب أربعة من الذكور: طالباً وعقيلاً وجعفراً وعلياً، وبنتين هما (فاخته – أم هانئ – وجمانة).

وكان علي أصغر أولاد أبي طالب، كان أصغر من جعفر بعشر سنين، وكان جعفر أصغر من عقيل بعشر سنين، وكان عقيل أصغر من طالب بعشر سنين.

مولده:

ولد قبل البعثة النبوية بعشر سنين، وهذا أرجح الأقوال، وهو أول مولود من بني هاشم ولد في جوف الكعبة كما قال الفاكهي في «أخبار مكة» وقال الحاكم في «مستدركه على الصحيحين»: إن الأخبار تواترت أنه ولد في جوف الكعبة سمته أمه عند ولادته «أسداً» على اسم أبيها (أسد بن هاشم)، وكان أبو طالب غائباً، فلما عاد لم يعجبه الاسم، فسماه علياً، وقد دل على ذلك قول علي مرتجزاً يوم خيبر:

أنا التي سمتني أمي حيدرة ... ليثٌ بغابات شديد قَسْورة

كليثِ غاباتٍ كريه المنظـــرة

كنيته: أبو الحسن نسبةً إلى ابنه الأكبر الحسن، من ولد فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ويكنى أيضاً بأبي تراب، وهي كنية كناه بها رسول الله ﷺ، وكان يفرح إذا نودي بها، وسبب ذلك أن

رسول الله ﷺ جاء مرة لبيت ابنته فاطمة، فلم يجد علياً في البيت، فقال لها: أين ابن عمك؟ قالت: كان بيني وبينه شيء فغاضبني فخرج فلم يقل عندي، - من قالَ يقيلُ من القيلولة -. وهي وقت الظهيرة، وتكون بمعنى النوم في الظهيرة.

فقال ﷺ لإنسانٍ انظر أين هو؟ فجاء، فقال: يا رسول الله هو في المسجد راقد، فجاء رسول الله ﷺ وعليٌّ مضطجع وقد سقط رداؤه عن شقه وأصابه تراب، فجعل رسول الله ﷺ يمسحه عنه ويقول: قم يا أبا تراب. كما في صحيح مسلم. (وعند البخاري): والله ما سماه إلا النبي ﷺ. ومن كناه: أبو الحسن والحسين، وأبو السبطين.

وكناه رسول الله كذلك بأبي الريحانتين، فعن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: سلام عليك يا أبا الريحانتين، فعن قليل يذهب ركناك والله خليفتي عليك.

فلما قُبِضَ رسولُ الله ﷺ قال علي: هذا أحد الركنين الذي قال ﷺ فلما ماتت فاطمة قال علي: هذا الركن الآخر الذي قال ﷺ. – أحمد في المناقب –.

لقبه: أمير المؤمنين، ورابع الخلفاء الراشدين.

إسلامه: قال ابن هشام في «السيرة النبوية»: كان من نعمة الله عز وجل على علي، وما أراد به من الخير، أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة.

فقال رسول الله ﷺ لعمه العباس: (وكان من أغنى بني هاشم). يا عباس: إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد ترى ما أصاب الناس من الأزمة هذه، فانطلق بنا فلنخفف عنه عياله، آخذ من بيته واحداً وتأخذ واحداً فنكفيهما عنه، فقال العباس: نعم.. فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا له: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى تنكشف هذه الشدة، فقال لهما أبو طالب: إن تركتما لي عقيلاً فافعلا ما شئتما، فأخذ رسول الله ﷺ علياً فضمه إليه، وأخذ العباس جعفراً فضمه إليه. فلم يزل علي عند رسول الله ﷺ حتى بعثه الله نبياً فاتَّبعه علي فأقر به وصدقه، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه.

قال المؤرخون: أراد رسول الله ﷺ أن يرد الجميل والمعروف لعمه أبي طالب الذي كفله بعد وفاة جده عبدالمطلب، فكان هذا من أكبر نعم الله على علي، حيث تربى على يد رسول الله ﷺ، وكفى بذلك تربية.

أما كيفية إسلامه: فقد رواها ابن إسحاق فقال: إن علياً جاء إلى النبي ﷺ بعد إسلام خديجة فوجدهما يصليان، فقال علي: ما هذا يا محمد؟

فقال النبي ﷺ: دين الله الذي اصطفاه لنفسه، وبعث به رسله، فأدعوك إلى الله وحده وإلى عبادته، وتكفر باللات والعزى؟

فقال له علي: هذا أمرٌ لم أسمع به قبل اليوم فلست بقاضٍ أمراً حتى أحدث أبا طالبٍ. فكره رسول الله ﷺ أن يُفشي عليه سره قبل أن يستعلن أمره، فقال له ﷺ: «يا علي إن لم تُسْلم فاكتم»، فمكث علي تلك الليلة، ثم أوقع الله في قلبه الإسلام، فأصبح غادياً إلى رسول الله ﷺ حتى جاءه فقال: ما عرضت علي يا محمد؟

فقال له رسول الله ﷺ: «تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وتكفر باللات والعزى، وتبرأ من الأنداد»، ففعل علي وأسلم، ومكث فترة يأتيه على خوف من أبي طالب، وكتم علي إسلامه ولم يظهر به. كما روى ابن كثير في «البداية والنهاية».

وكان ﷺ إذا حضر وقت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج علي معه مستخفياً من أبيه أبي طالب، ومن جميع أعمامه، ثم عثر أبو طالب عليهما يصليان فسأل علياً عن هذا الدين فأجابه. قالوا فقال أبوطالب: (أما إنه لا يدعوك إلا إلى خير فالزمه) ابن هشام.

بعض خصائصه رضي الله عنه:

أولاً: هو أول من يجثو للخصومة يوم القيامة:

ففي صحيح مسلم من حديث قيس بن عبادة قال: سمعت أبا ذكر يقسم قسماً أن قوله تعالى في سورة الحج الآية ١٩: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ ﴾(١).

هذه الآيات خلّدت مَأثرةً لعلي رضي الله عنه، يقول أبو ذر: إنها نزلت في الذين برزوا يوم بدر للمبارزة. نزلت في الثلاثةِ والثلاثةُ هم: حمزة بن عبدالمطلب وعبيدة بن الحارث وعلي بن أبي طالب، مقابل: عتبة وشيبة أبناء ربيعة والوليد بن عتبة.

---

(١) الحج: ١٩.

وفي البخاري أن علياً قال: فينا نزلت هذه الآية وفي مبارزتنا يوم بدر ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ لذلك قال علي: أنا أول من يجثو للخصومة بين يدي الرحمن سبحانه يوم القيامة.

ولماذا هو أول من يجثو للخصومة يوم القيامة؟

والجواب: لأنَّ معركة بدر كانت أول معركة في الإسلام. وأول خصومة وقعت فيها – وهي هذه المبارزة – بين فريقين مؤمن وكافر، ولذلك قال: ﴿ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾.

قال أهل العلم: كان من عادة العرب في الحروب أن يخرج أبطال القوم للمبارزة حتى يحسم الأمر من أوله ولا يتكلفوا القتال.

ومن ذلك ما حدث بين علي ومعاوية في صفين، حيث دعاه علي للمبارزة... حسماً للأمر.. فقال عمرو بن العاص وكان في جيش معاوية: قال لمعاوية: لقد أنصفك الرجل، وفيه حقن لدماء المسلمين، فنظر معاوية إلى عمرو بن العاص: والله ما أردتَ إلا التخلص مني، وما دمت قلت ما قلت، فلا يبارزه غيرك فاخرج إليه.. ولكن شتان..

وقد ذكر ابن كثير أن علياً حمل على عمرو بن العاص فضربه بالرمح فألقاه إلى الأرض فبدت سوأته فرجع عنه، فقال أصحاب علي: (مالك تركته ياأمير المؤمنين)؟ فقال: أتدرون ماهو؟ قالوا: لا. قال علي: تلقاني بسوأته فذكرني بالرحم فرجعت عنه فلما رجع عمرو إلى معاوية سليماً، قال له معاوية: احمد الله، قم احمد اسْتكَ.

ويقول بعض الرواة: استعمل عمرو بن العاص الحيلة ليصرف علياً عن قتاله، فعمرو يعلم أن علياً يتورع عن النظر إلى العورة، فحين وقع إلى الأرض كشف عورته، فانصرف عنه علي، ونجا عمرو بهذه الحيلة، ولذلك عبر الشريف الرضي (محمد بن الحسين الحسيني أشعر الطالبيين توفي سنة ٤٠٦ هـ) بقوله في قصيدة مطلعها:

أراك عَـصيَّ الـدمع شـيمتك الـصبر ... أمـا للهـوى نَـهيٌ عليـك ولا أمـر

بـلى أنـا مـشـتاق وعنـدي لـوعة ... ولكـنَّ مِـثلي لا يُـذاع لـه سِـرُّ

ونحـن أنـاس لا تَـوسُّـطَ بيننـا ... لنـا الـصدردون العـالمين أو القـبر

وفيها يقول:

ولا خيرَ فـي رد الردى بـدنيَّـةٍ 	كما ردها يوماً بسوأته عمرو

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾.

والآن ننتقل إلى خصيصة، ومنقبة ثانية:

وهي منقبة ظهرت له في السنة السابعة من الهجرة في غزوة خيبر، فقد روى البخاري في كتاب الجهاد، أن النبي ﷺ لما حاصر خيبر، وطال الحصار قال ﷺ: «لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه»، هذه شهادة من النبي ﷺ أن الله يفتح على يديه حصون خيبر كما يقول (محمد حسان في كتاب الفتنة).

ثم قال ﷺ: «يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله». فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها. – يدوكون: يتناقشون ويتباحثون في هذا الرجل الذي له هذه الخصيصة – «يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» حتى أن عمر بن الخطاب يقول كما في «صحيح مسلم»: والله ما أحببت الإمارة إلا يومئذ فتساورت لها – أي تطلعت لها – رجاء أن أُدعى لها.

قال العلماء: إنما قال عمر ذلك لما سمعه من رسول الله ﷺ: (يحبه الله ورسوله) كما قال صاحب كتاب «الفتنة»: ما تطلع عمر للإمارة إلا في هذا اليوم، لينال هذه المنقبة العظيمة، وهذه الشهادة الجليلة من رسول الله ﷺ.

يقول راوي الحديث، وهو (سهل بن سعد): فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجون أن يُعطاها (أي الراية) ونظمت الصفوف، ووقف الكل يتطلع إلى النبي ﷺ، الكل يريد أن يأخذ الراية، وينتظر نداء النبي ﷺ لهذا الرجل.

قال العلماء:

وشق السكون والصمت صوت رسول الله ﷺ وهو يقول: (أين علي بن أبي طالب)؟ ولم يكن علي موجوداً يومها، فقالوا: يا رسول الله، إنه يشتكي عيناه – تَخلَّفَ لمرض أصابه في عينه – فقال ﷺ: «أرسلوا إليه» فأُتي به، فبصق النبي في عينيه، ودعا له فبرأ، حتى كأن لم يكن به وجع، ثم أعطاه الراية، وقال النبي ﷺ: «امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك».

فسار علي شيئاً ثم وقف ولم يلتفت فصرخ: يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟

فقال النبي ﷺ: «قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دمائهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله، فوالله! لأن يهدي بك رجلٌ واحد خير لك من حُمْرِ النَّعَم».

قال العلماء: وسرعان ما علا هتاف النصر بصوت علي بن أبي طالب الذي ردده النبي ﷺ في أول يوم عند حصون خيبر: «الله أكبر خربت خيبر، الله أكبر خربت خيبر».

وهكذا فتح الله على يد علي بن أبي طالب لينال منقبتين جليلتين:

فتح حصون خيبر على يديه، والثانية شهادة النبي ﷺ له بأنه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله.

وحتى نعرف معنى الحب والمحبة بدقة وما هو مفهومه عند سلفنا الصالح، فلا بد من بيان المادة والمعاني التي يدور عليها معنى الحب.

قال العلماء: مادة الحب والمحبة تدور في اللغة على خمسة أشياء أو ستة معان فما هي؟

أولاً: الصفاء والبياض ومنه قوله لصفاء بياض الأسنان ونضارتها: حبب الأسنان.

ثانياً: العلو والظهور ومنه قولهم: حبب الماء وحبابه، وهو ما يعلو الماء عند شدة المطر، وحبب الكأس منه

(حَفَّ كأسها الحَبَبُ   فهي فضةٌ ذهبُ).

ثالثاً: الثبات واللزوم، ومنه حب البعير وأحب البعير، إذا برك ولم يقم، ومنه قولهم:

(حلَّت عليه بالفلات ضربا   ضربَ بعيرِ السوء إذ أحبَّا).

رابعاً: اللب والداخل، ومنه حبة القلب للبه وداخله، فالحبة أصل النبات ومنه الحبة: للواحدة من الحبوب، إذ هي أصل الشيء ومادته.

خامساً: الحفظ والإمساك ومنه حِبُّ الماء، للوعاء الذي يحفظ الماء ويمسكه.

سادساً: وقيل مأخوذة من القلق والاضطراب، لذلك سمي المُقرط حِبّاً لِتقلْقُلهِ في الأذن واضطرابه.

قال ابن القيم:

ولا ريب أن هذه الأمور التي ذكرناها هي من لوازم المحبة، فإن صفاء المودة، وظهور إرادات القلب للمحبوب، وثباتها ولزومها لزوماً لا تفارقه، وتعلق قلبه باضطرابه فهو لا يسكن حتى يلقى الله يوم القيامة، ولإعطاء المحب محبوبه لُبَّه، وأشرف ما عنده – وهو قلبه – ولاجتماع عزماته وإراداته وهمومه على محبوبه، كل هذه الأمور اجتمعت في هذه المعاني التي ذكرناها، ولذلك وضع العلماء لهذه المعاني حرفين مناسبين للمسمى تمام المناسبة.

الحاء: التي تخرج من أقصى الحلق.

الباء: الشفوية التي هي نهايته، فللحاء الابتداء، وللباء الانتهاء، وهذا شأن المحبة وتعلقها بالمحبوب فإن ابتداءها منه، وانتهاءها إليه، وفعلها حبَّ وأحبَّ.

قال العلماء: وهذه المحبة من الله للعبد لها ثمن، وأول نقدةٍ من أثمان المحبة بذل الروح والمال. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ﴿٥٤﴾ ﴾(١).

فلا مكانَ في هذه المبايعة لجبان.

بدم المحب يُباع وَصْلهم فمن الذي يبتاع بالثمن؟

ولا مكان في هذه المبايعة لبخيل. قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ ... ﴿١١١﴾ ﴾(٢).

عرف السلف عَظمةَ المشترى، وفضل الثمن، وجلالة من جرى معه عقد المبايعة، عرفوا قدر السلعة، فرأوا من أعظم الخسارة أن يبيعوها لغيره بثمن بخسٍ، فعقدوا معه بيعة الرضوان بالتراضي من غير ثبوت خيار كما قال العلماء، ولذلك قالوا: والله لا نُقِيلُكَ ولا نَستقيلك.

فلما تم العقد وسلموا البيع – الأنفس والأموال – قيل لهم: منذ اللحظة التي صارت نفوسكم وأموالكم لنا رددناها عليكم أوفرَ ما كانت وأضعافَها مضاعفةً، وذلك قوله

---

(١) المائدة: ٥٤.

(٢) التوبة: ١١١.

تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴿١٧٠﴾ ﴾[1].

وهذا الثمن جعل البطالين يتأخرون، وقام المحبون فتقدموا وثبتوا وجاؤوا ببيِّنتهم على المحبة الصادقة وهي (اتباعهم للحبيب محمد ﷺ في أفعاله وأقواله وأخلاقه)، لأنَّ هذا الاتباع هو البينة الصحيحة على صحة الدعوى وذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴿٣١﴾ ﴾[2].

والآن: أدركنا معنى قول النبي ﷺ لعلي يوم خيبر: (لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، يُحبُّ الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله).

فعلي ممن عرف الثمن وقيمته، وعرف السلعة وأهميتها، فبذل الثمن روحاً ومالاً.

فتعالوا لندلل على شجاعته وكرمه:

أما شجاعته: فقد قال صاحب كتاب (الرياض النضرة): إن شهرته وشدة بلائه يوم بدر وأُحد وخيبر بلغت حد التواتر حتى صارت شجاعته معلومة لكل أحد، وكفى بفدائيته أن نام في فراش رسول الله ﷺ يوم الهجرة.

وقد ورد عن ابن عباس قوله: (والله ما رأيت رجلاً أَطرحَ لنفسه في متلفٍ من علي، ولقد كنت أراه يخرج حاسر الرأس، بيده السيف إلى قتال الرجل الدارع فيقتله).

وقال ابن هشام: حدثني من أثق به من أهل العلم أن علي بن أبي طالب صاح وهم محاصرو بني قريظة: يا كتيبة الإيمان، وتقدم هو والزبير وقال: والله لأذوقن ما ذاق حمزة أو لأفتحن حصنهم، فقالوا: يا محمد ننزلُ على حكم معاذ.

وعن صعصعة بن صوحان قال: خرج يوم صفين رجل من أصحاب معاوية اسمه (كريز بن الصباح الحميري) فوقف بين الصفين وطلب المبارزة، فخرج إليه رجل من أصحاب علي فقتله الحميري، ووقف عليه ثم قال: من يبارز؟ فخرج إليه آخر من أصحاب علي فقتله وألقاه على الأول، ثم قال: من يبارز؟ فخرج إليه الثالث فقتله وألقاه على الآخرين، وقال: من يبارز؟

---

(١) آل عمران: ١٦٩-١٧٠.

(٢) آل عمران: ٣١.

فأحجم عنه الناس.. فخرج إليه علي على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، فشق الصفوف، فلما انتهى منها نزل عن البغلة وسعى إليه فقتله، وقال رضي الله عنه: من يبارز؟ فخرج إليه رجل فقتله ووضعه على الأول، ثم قال: من يبارز؟ فخرج إليه رجل فقتله فوضعه على الآخرين، ثم قال: من يبارز؟ فخرج إليه رجل فقتله ووضعه على الثلاثة، ثم قال: يا أيها الناس: إن الله عز وجل يقول: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ ۝١٩٤﴾(١).

ولو لم تبدؤوا بهذا لما بدأنا، ثم رجع مكانه.

أما كرمه وجوده، فقد قال فيه أهل العلم:

من الأخلاق الكريمة التي تجسدت في شخصية أمير المؤمنين علي: خُلُقُ الكرم والجود، حيث كان رضي الله عنه متأثراً بالتربية القرآنية والنبوية، فمع كرمه وجوده تلمس تواضعه للمحتاج وحرصه ألا يرى ذل السؤال في وجه الطالب حتى يبقى صائناً لكرامته، فقد ذكر الحافظ ابن كثير تَأَصُّلَ الكرم والجود في شخصية علي رضي الله عنه، قال ابن كثير: يروي الأصبغ بن نباتة أن رجلاً جاء إلى أمير المؤمنين علي فقال: ياأمير المؤمنين، إن لي إليك حاجة قد رفعتها إلى الله تعالى قبل أن أرفعها إليك، فإن قضيتها حمدتُ الله وشكرتك، وإن لم تَقْضِها حمدت الله وعَذَرتكَ، فقال علي: اكتب حاجتك على الأرض فإني أكره أن أرى ذُلَّ السؤال في وجهك، فكتب الرجل: إني محتاج، فقال علي: عليَّ بحلةٍ فأُتِيَ بها، فأخذها الرجل فلبسها.

ثم انشد:

كسوتني حُلةً تَبلى محاسنها ... فسوف أكسوكَ من حُسْنِ الثنا حللا
إن نلت حسن ثنائي نلت مكرمة ... ولست أبغي بما قد قلته بدلا
إن الثناء ليحيي ذِكْرَ صاحبه ... كالغيث يحيي نداء السهل والجبلا
لا تزهد الدهر في خير تُواقِعُه ... فكل عبد سيجزى بالذي عملا

فقال علي: (عليَّ بالدنانير) فأُتي بمائة دينار فدفعها إليه. فقال الأصبغ: يا أمير المؤمنين حلة ومائة دينار؟! قال: نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنزلوا الناس منازلهم» وهذه منزلة هذا الرجل عندي.

---

(١) البقرة: ١٩٤.

قال العلماء: وإن أروع مافي هذه القصة قول علي: (اكتب حاجتك على الأرض، فإني أكره أن أرى ذل السؤال في وجهك) فكم من المحتاجين يعاني الانكسار عند الطلب وقد يتلعثمون فلا يستطيعون الطلب كما قال الصلابي معلقاً على هذه القصة.

ولهذا كانت مشاعر هذا المحتاج عظيمة حين واجهه علي بهذه المعاملة، فصاغ مشاعره بهذه الأبيات الجميلة التي مدح بها أمير المؤمنين علياً.

وقد كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يفرح بالضِّيفان، وكان يقول: لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام، أخاف أن يكون الله قد أهانني.

وكان يقدم إخوته في العقيدة على المساكين، فقد قال مرة: (لعشرون درهماً أعطيها أخي في الله أحبُّ إلي من أن أتصدق بمائة درهم على المساكين).

وعندما سئل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن السخاء قال: ما كان منه ابتداء، أما ما كان عن مسألة فحياء وتكرم.

وقد جعل في حياته أوقافاً لله تعالى حيث قال: حيث جعل أرضه في مدينة ينبع وقفاً، وكتب فيها كتاباً قال فيه: (هذا ما أمر به علي بن أبي طالب، وقضى في ماله: إني تصدقت بينبع ووادي القرى والأذينة وراع في سبيل الله وذي الرحم القريب والبعيد، ولا يوهب ولا يورث حياً أنا وميتاً).

ولقد قال عن وقفه هذا: لقد رأيتني وإني لأربط الحجر على بطني من الجوع، وإن صدقتي لتبلغ اليوم أربعة آلاف دينار (والمقصود أن غلة هذا الوقف صدقة تقدر بأربعة آلاف دينار). فإنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يدخر مالاً أبداً، واسمع إلى ما قاله ولده الحسن بن علي يوم استشهاده: لقد فارقكم رجل ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم بقيت من عطائه، أراد ان يشتري بها خادماً، يقصد علياً.

وكان من وصاياه في إكرام القرابة قوله: (أكرم عشيرتك، فإنهم جناحك الذي به تطير، وإنك بهم تصول، وهم العدة عند الشدة، أكرم كريمهم، وعُدْ سقيمهم، ويَسِّر على مُعسِرهم).

هنا نشير إلى قاعدة ينبغي أن يتقيد بها كل دارس لسيرة أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأطهار، هذه القاعدة أشار إليها كل مؤرخ منصف، وكل محقق دقيق، وماأجمل قول صاحب كتاب

«الفتنة» (الشيخ محمد حسان) في هذا الموضوع حيث قال في الصفحة ٢٠١ وما بعدها: (إنه لا ينبغي البتة لرجل أن يتكلم في أصحاب النبي ﷺ إلا بضوابط شرعية، فالحديث عن الصحابة يتطلب صحة في العقيدة، وأمانة في النقل، ودقة في الفهم، وسلامة في القصد والنية، ونظرة فاحصة مدققة لأراجيف المغرضين والكذابين والوضاعين)، ثم يقول: هذا التأصيل في غاية الأهمية؛ حتى لا نَزِلَّ في النيل من أشرف وأطهر عِرْضٍ على وجه الأرض بعد الأنبياء والمرسلين، وحتى نسلم من تشويه صورتهم التي نراها عند أهل الأهواء، وقد حذرنا نبينا ﷺ من التعرض لأصحابه، فهم كلهم عدول، ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال: «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحدٍ ذهباً ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه».

وفي سنن الترمذي وابن ماجة بسند فيه ضعف، لكن المتن له شواهد في الصحيح من الأحاديث، عن عبدالله بن المغفل، أن النبي ﷺ قال: «اللهَ اللهَ في أصحابي، الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أَحبَّهم، فبحبِّي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن أذى الله فيوشك أن يأخذه».

الفتنة الثانية وأثر السبئية فيها: - معركة الجمل -

قال المؤرخون: مرت الفتنة الأولى والكبيرة، وهي حصار عثمان وقتله، ثم بايع الناس علياً مع بداية العام السادس والثلاثين للهجرة النبوية، وكان أول من بايع طلحة والزبير.. ثم بعد فترة قصيرة نشأ الخلاف بين طلحة والزبير وعائشة من جهة، وبين أمير المؤمنين علي من جهة أخرى، ثم بعد ذلك نشأ الخلاف بين علي ومعاوية، ولكن السؤال المهم هو: على أي شيء كان الخلاف؟

قال الصلابي في كتابه «سيرة أمير المؤمنين علي»: لم يكن سبب الخلاف ومنشؤه أن هؤلاء الأصحاب كانوا يقدحون في خلافة علي وإمامته وأحقيته بالخلافة والإمامة على المسلمين، فقد كان هذا الأمر محل إجماع بينهم.

قال ابن حزم: ولم ينكر معاوية قط فضل علي واستحقاقه بالخلافة ولكن اجتهاده أداه إلى أن رأى تقديم أخذ القود من قتلة عثمان على البيعة، ورأى نفسه أحق بطلب دم عثمان.

وقال ابن تيمية: ومعاوية لم يدعي الخلافة، ولا أنه يستحقها، ويقرون لعلي بالخلافة. ثم

قال: وكل الفرق مُقِرَّةٌ بأن معاوية ليس كفئاً لعلي بالخلافة، فإن فضل علي وسابقته وعلمه وشجاعته وسائر فضائله كانت عندهم ظاهرة معلومة كفضل إخوانه أبي بكر وعمر وعثمان، وهكذا كان شأن طلحة والزبير.

قال صاحب كتاب الفتنة: بعد بيعة طلحة والزبير لعلي بأيام، ذهبا إليه وطلبا منه على وجه السرعة أن يقيم الحدَّ على قتلة عثمان، ولكن علياً اعتذر بكلام جميل قال فيه: (إن قتلة عثمان لهم مَدَدٌ وأعوان، والدليل حصارهم لدار عثمان وقتله.. وما رفض عثمان قتالهم إلا خوفاً من سفك الدماء في مدينة رسول الله ﷺ وقال – أي عثمان – (والله ما أحب أن ألقى الله وفي عنقي قطرة دم لامرئ مسلم)، ثم قال علي: هؤلاء – البغاة – تعصب لهم كثير، وبلغ عددهم ألوفاً).

قال المؤرخون: فقد رأى علي بفقهه واجتهاده وفهمه ومراعاته للمصالح والمفاسد، واختياره لأَخَفِّ الضررين رأى أن يؤجل إقامة الحق على قتلة عثمان ولكن طلحة والزبير رفضا هذا الاجتهاد، وثارا عليه، وخطبا في الناس لأنهما كانا يشعران بضغوط نفسية عليهما، حيث اتهم كلٌّ منهما نفسه بالتقصير في نصرة عثمان، فهذا طلحة يقول: إنه كان مني في عثمان شيء ليس توبتي إلا أن يُسفكَ دمي في طلب دمه.

وهكذا الزبير حيث قال: ننهض الناس فيدرَكُ بهذا الدم لئلا يبطل، فإن في أبطاله توهين سلطان الله بيننا أبداً إذا لم يفطم الناس عن أمثالها، لم يبق إمام إلا قتله هذا الضرب.

وكذلك رفض معاوية اجتهاد علي حيث كانت نائلة زوج عثمان قد أرسلت قميص عثمان الذي قُتل فيه ووضعت فيه أصابعها التي قطعت وهي تدافع عنه، أرسلت كل ذلك إلى معاوية، وكان معاوية عاملاً لعثمان على بلاد الشام.

قال المؤرخون: فلما أن وصل القميص إلى معاوية حتى بكى بكاء شديداً، وخرج بقميص عثمان إلى المسجد الدمشقي، وعلق معاوية قميص عثمان على المنبر، وعلق في القميص أصابع زوجة عثمان نائلة..

فلما رأى المسلمون هذا المشهد انخلت قلوبهم، وبكوا بكاء شديداً، وألزموا معاوية في هذه اللحظات الشديدة التي تأججت فيها نيران العواطف بالثأر لعثمان، والأخذ على يد مَنْ قتله، وإقامة الحد عليهم.

هنا رفض معاوية أن يعطي البيعة لعلي حتى يقيم الحد على قتلة عثمان، أو يسلِّمهم إليه، وانتبهْ يا عبدالله فمعاوية ما طلب الخلافة قط، وما طلب البيعة لنفسه، وإنما أَخَّر البيعةَ لعلي حتى يقيم عليٌّ الحدَّ على قتلة عثمان.

قال العلماء: هنا نرجو أن نلاحظ ان معاوية ما طلب الخلافة قط، وما طلب البيعة لنفسه، وإنما آخر البيعة لعلي حتى يقيم الحد على قتلة عثمان.

وهكذا حصل الخلاف على محور ثانٍ بين علي ومعاوية، بعد الخلاف في المحور الأول بين طلحة والزبير مع علي.

قال المؤرخون: لما كلم طلحة والزبير علياً بشأن السرعة في إقامة الحد على قتلة عثمان، واعتذر عليٌّ الاعتذارَ الذي قررناه في السابق قرر طلحة والزبير الخروج إلى مكة من المدينة، لكن لماذا لمكة؟

والجواب: لأنَّ في مكة في هذا الوقت عائشة، وظن طلحة والزبير أن خروج عائشة معهما لحثِّ الناس على المطالبة بدم عثمان، سيجعلُ الناسَ يلتفون حول عائشة، فهي أم المؤمنين، وزوج سيد المرسلين.

واحذر – اخي الكريم – أن تصدق روايات أهل الأهواء والمبتدعة الذين يقولون ويزعمون (أن طلحة والزبير خرجا من المدينة إلى مكة؛ لأنهما نقضا البيعة لعلي). فليس في هذا خبر يصح، وإنما الأدلة الصحيحة – عند المحققين – أن طلحة والزبير وعائشة بل وعلياً عندما خرجوا من المدينة ما خرجوا البتة من المدينة إلا وهم يريدون الإصلاح بين الناس، كلهم يريد الإصلاح.

قال محمد حسان: (فهذه عقيدة لا بد أن تثبت في قلوبنا، فهم ما خرجوا يريدون سفك الدماء إطلاقاً، لكنهم اجتهدوا في أن يحركوا الناس للمطالبة بدم عثمان).

وعلي ما خرج من المدينة لمقابلتهم إلا وهو يريد الإصلاح.

قال صاحب كتاب «الإنصاف»: بعد وصول طلحة والزبير إلى مكة، التقوا بعائشة وأهل مكة ورجالات قريش فيها، تشاوروا فيما يجب عليهم فعله لمعالجة الفتنة التي تمر بالأمة، واعتقدوا أن ذهابهم إلى البصرة سيمكِّنهم من جمع المسلمين فيها، والاستعانة بهم على دحر

الخوارج السبئية فيها – في البصرة – ثم يرفدون الخليفة علي في المدينة بقوة جديدة تعين أمير المؤمنين علياً على القصاص من قتلة الخليفة عثمان، وقالوا لأم المؤمنين: - انتبه – (تَقدُمين فيراك المسلمون فيصلح الله عز وجل ذات بينهم).

ولهذه المقاصد النبيلة التي ليس فيها حظ النفس ولا اتباع الهوى سار طلحة والزبير وأخذوا معهم أم المؤمنين متحملة عناء السفر البعيد (رجاء أن يرجع الناس إلى أمهم فيَرْعَوْا حُرمةَ نبيهم ﷺ) وتلوا عليها قوله تعالى: ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴿١١٤﴾ ﴾(١).

وقد خرج النبي في الصلح وأرسل فيه، فَرَجَتْ المثوبةَ، وخرجت حتى بلغت الأقضية مقاديرها. كما يقول ابن العربي صاحب «العواصم من القواصم».

(كيف بدأت الفتنة الثانية)؟

معركة الجمل:

روى أحمد وابن شيبة في مصنفه بسند صحيح – كما روى محمد حسان – أن عائشة لما خرجت معهم إلى البصرة مرت ليلاً على بعض مياه بني عامر فنبحت عليها الكلاب؛ فقالت عائشة: أيّ ماء هذا؟ فقالوا: ماء الحوأب، فوقفت وقالت: ما أظنني إلا راجعة، ما أظنني إلا راجعة، فقال لها طلحة والزبير: مهلاً يا أماه، رحمك الله، بل تقدمي إلى البصرة فيراك المسلمون، فيصلح الله ذات بينهم.

هذه نية طلحة والزبير، بل ونية عائشة.

يقول صاحب كتاب (الفتنة): نعود إلى قول عائشة، ما أظنني إلا راجعة لنعلم بأن هذه الفتن قد وقعت كما أخبر عنها رسول الله ﷺ وهو الذي لا ينطق عن الهوى.

وسوف تعجب – يا عبدالله – إذا علمتَ أن النبي ﷺ قد ذكر هذه الحادثة لعائشة حال حياته ﷺ، فقد روى ابن أبي شيبة والبزار بسند صحيح من حديث ابن عباس، وان النبي ﷺ قال يوماً لزوجاته أمهات المؤمنين: (أيتكنّ صاحبةُ الجمل الأديب)؟ - وهو الجمل الذي يظهر على وجهه الشعر الكثيف، وهو نفس هيئة الجمل الذي كانت تركبه عائشة رضوان الله تعالى عنها

(١) النساء: ١١٤.

– تخرج حتى تنبحها كلاب الحوأب، هذا الكلام كان في عهد النبي، ثم يقول ﷺ: «يُقتَلُ عن يمينها وعن شمالها قتلى كثير، وتنجو بعدما كادت» أي كادت أن تهلك، وبهذا سميت موقعة الجمل، وقد قتل جملها في هذه الواقعة وكادت أن تقتل.

وكذلك الزبير،لم يخرج إلا للإصلاح، فقد روى الحاكم والبيهقي بسند صحيح أن الزبير بن العوام لما قابل علياً رضي الله عنهما عزم على الرجوع إلى المدينة – وكان قد حصل بينه وبين علي كلام سنبينه من بعد – عرض له ابنه عبدالله بن الزبير وقال: كيف ترجع إلى المدينة؟ فقال الزبير: ذَكَّرني علي بحديث سمعه من رسول الله ﷺ وإني راجع؛ فقال له عبدالله: وهل جئت للقتال؟ إنما جئت للإصلاح بين الناس وليصلح الله بك هذا الأمر.

وقد بينت عائشة أن اصلاح الأمر كان هدف الجميع.

قال الشيخ محمد حسان: فلما خرجت إلى البصرة مع مَنْ معها من المسلمين وبلغ والي البصرة (عثمان بن حنيف)، وهو والي البصرة من قِبَل علي، أرسل إليها يستفسرها عن سبب خروجها. لماذا جاءت إلى البصرة؟ فقالت كلاماً عجيباً وهي الفقيهة العالمة. قالت: إن الغوغاء من أهل الأمصار، ونزاع القبائل.. غزوا حرم رسول الله ﷺ – تعني المدينة – وأحدثوا فيها الأحداث. وآووا فيه المحدثين، واستوجبوا فيه لعنة الله، ولعنة رسوله ﷺ مع ما نالوه من قتل أمير المؤمنين بلا ترة ولا عذر، فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه، وانتهبوا المال الحرام، وأحلوا البلد الحرام، والشهر الحرام، ومزقوا الأعراض والجلود، وأقاموا في دار قوم كانوا كارهين لمقامهم، ضارّين مضرّين، غير نافعين ولا متقين..

فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم، وما فيه الناس وراءنا، وما ينبغي لهم ان يأتوا في إصلاح هذا، ثم تلت قوله تعالى: ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾.

ومما يؤكد خروج أم المؤمنين للإصلاح، ما نقل ابن حبان في (الثقات ج٢ ص٢٨٢) أن عائشة كتبت إلى أبي موسى الأشعري (وهو والي علي على الكوفة) تقول: سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد: فإنه قد كان من قتل عثمان ما قد علمتَ، وقد خرجت مُصلِحةً بين الناس، فمر من قبلك بالقرار في منازلهم، والرضى بالعافية حتى يأتيهم ما يحبونه من

صلاح أمر المسلمين.

قال المؤرخون: كما جاء في «تاريخ الطبري» بسند صحيح أن علياً نفسه ما خرج من المدينة إلا لذلك (أي للإصلاح بين المسلمين) فإنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، لما سمع بخروج طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة صمم هو الآخر على أن يخرج إلى البصرة، فوقف أمام دابته عبدالله بن سلام وقال له: يا أمير المؤمنين لا تخرج من مدينة رسول الله ﷺ، فوالله لئن خرجتَ منها لا يعود إليها سلطان المسلمين أبداً!

قال صاحب كتاب (الفتنة): وستعجب إذا علمت يا عبدالله ان ممن وقف أما دابة علي ليمنعوه من الخروج من المدينة (الحسن بن علي)، فقد انطلق ليأخذ بخطام دابة أبيه؛ ويقول يا أبت: أعزمُ عليك ألا تخرج؟ لا تخرج من دار الخلافة حتى تبقى المدينة داراً للخلافة كما كانت في عهد إخوانك الثلاثة،أبي بكر وعمر وعثمان؛ فماذا قال علي؟

قال: والله ما خرجت إلا وأنا أريد الإصلاح.

وهكذا أجمع المؤرخون في رواياتهم الصحيحة التي وردت لتؤكد تأكيداً لا مراء فيه أن هؤلاء جميعاً – جميع الأطراف – ما عدا السبئية ما خرجوا إلا للإصلاح.

قال المؤرخون: هذه كانت نية علي في الإصلاح، فقد ثبت عن ولده الحسن أنه كان يحلف بالله ويقول: (والله ما أردنا إلا الإصلاح)، ويؤكد هذه النية ما ذكره المؤرخون من أن (الأحنف بن قيس)، يقبل على علي ويقول له: يا أمير المؤمنين إن شئت قاتلت معك، وإن شئت كففت عنك أربعة آلاف سيف؟ فأجاب علي: بل اكفف عنا أربعة آلاف سيف.

يقول صاحب كتاب (تحقيق مواقف الصحابة):

هذا الموقف من الأحنف بن قيس الذي قدم بستة آلاف مقاتل وانضم بهم إلى علي أمير المؤمنين، وهم بانضمامهم إلى علي سيحدثون تغييراً في ميزان القوى لدى المعسكرين، ولكن علياً يرفض ذلك لأنه آثر الصلح على الحرب ولو كان يفكر بالحرب لما رد القبائل التي جاءت لتناصره وهي قبائل كثيرة من طي، وأسد، وبكر بن وائل.

وهكذا كان علي يريد الإصلاح حتى آخر لحظة، قال محمد حسان: فما أن وصل علي إلى البصرة للقاء عائشة وطلحة والزبير حتى أرسل رسولاً إليهم من قبله، وكان الرسول (القعقاع

بن عمرو التميمي) في مهمة الصلح، وأوصى علي رسوله قائلاً: (الْق هذين الرجلين، فادعهما إلى الإلفة والجماعة، وعظم عليهما الاختلاف والفرقة).

وذهب القعقاع إلى البصرة (من ذي قار) فبدأ بعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقال لها: ما أقدمك يا أماه إلى البصرة؟ قالت له: يا بني من أجل الإصلاح بين الناس، فطلب القعقاع منها أن تبعث إلى طلحة والزبير ليحضرا، ليكلِّمهما في حضرتها وعلى مَسمعٍ منها.

فلما حضرا سألهما عن سبب حضورهما، فقالا كقول عائشة: (من أجل الإصلاح بين الناس). فقال لهما: أخبراني ما وجه الإصلاح؟ يعني كيف يتحقق؟ وما السبيل إليه؟ وعلى أي شيء يكون؟ فوالله لئن عرفناه لنصطلحنَّ، ولئن أنكرناه لا نصطلح، فقال طلحة والزبير: أن يُقتلَ علي قتلة عثمان.

هذه هي القضية التي خرجا من أجلها. فإنْ ترك عليٌّ هذا الأمر – إقامة الحد – كان تاركاً للقرآن، لأنَّ من واجبه إقامة الحد على القاتل، وهو الخليفة.

هذا فهم طلحة والزبير، فماذا قال القعقاع؟ قال: يا طلحة يا زبير – كما ذكر صاحب كتاب الفتنة – إن تحمستما وقتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة، وكانوا عدداً قليلاً لا يزيدون عن ستة أفراد، فغضب لهؤلاء الستة الذين قتلوا ستةُ آلاف، فإن تركتموهم – أي الستة آلاف – وقعتم فيما تزعمون أن علياً قد وقع فيه، وإن قاتلتموهم وغلبوكم فقد وقعتم في المحظور، وقَوَّيتموهم وأصابكم ما تكرهون، وهذا ما حصل مع علي، ووجود قتلة عثمان في جيشه.

وإنما آخر عليٌّ قتلَ قَتلةِ عثمان إلى أن يتمكن منهم. فإن الكلمة اليوم في جميع الأمصار مختلفة.

ويعلق صاحب كتاب (الفتنة) على كلام القعقاع فيقول: تدبر فقه الإنكار؛ فالإنكار لاسيما في وقت الفتن له فقه يوفق الله إليه من يشاء في اللحظات الحرجة الدقيقة، وصدق الله: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٤﴾(١).

ثم يقول (محمد حسان): الحماس وحده لا يكفي، والإخلاص وحده لا يكفي، بل يجب أن يكون الحماس والإخلاص منضبطين بضوابط الشرع الثابتة، ولا بد من تحقيق المناطات

---

(١) الجمعة: ٤.

الخاصة والعامة للربط بين دلالات النصوص ومناطاتها ربطاً صحيحاً وإلا وقعنا في كثير من المفاسد والإحراجات.

تصور لو أقام علي الحد على ستة آلاف في البصرة كيف تكون برك الدماء؟!! لهذا آخر علي إقامة الحد حتى يتم الائتلاف.

وما أجمل قول ابن القيم في كتابه الماتع «إعلام الموقعين» نقله عنه الشيخ محمد حسان قال رحمه الله تعالى:

إن النبي ﷺ شرع لأمته وجوب إنكار المنكر ليحصل من المعروف ما يحبه الله ورسوله، فإن كان إنكار المنكر، يستلزمُ ماهو أنكرَ من المنكر؛ فهو أمرٌ بمنكرٍ وسعي في معصية الله ورسوله – آثار ابن تيمية –

ولقد كان النبي ﷺ يرى بمكة أكبر المنكرات، ولا يستطيع تغييرها، بل لما فتح الله عليه مكة، وصارت مكة دار إسلام، وعزم النبي ﷺ، على هدم البيت الحرام، ورده على قواعد إبراهيم. لم يفعل مع قدرته على فعل ذلك؛ لأنَّ قريشاً كانت حديثة عهدٍ بكفرٍ، وقريبة عهدٍ بإسلام.

قال الصلابي في كتابه «سيرة أمير المؤمنين علي»: تأثرت أم المؤمنين ومَنْ معها بمنطق مبعوث علي (القعقاع) وحجته المقبولة؛ فقالت له: فماذا تقول أنت يا قعقاع؟ قال أقول: هذا أمر دواؤه التسكين، ولا بد من التأني في الاقتصاص من قتلة عثمان، فإن انتهت الخلافات، واجتمعت الأمة وكلمتها على أمير المؤمنين تفرغ لقتلة عثمان، وإن أنتم بايعتم علياً – أي انقدتُمْ لسياسته هذه في التعامل مع قتلة عثمان – واتفقتم معه، كان هذا علامة خير، وتباشير رحمة، وقدرة على الأخذ بثأر عثمان، وإن أنتم أبيتم ذلك وأصررتم على المكابرة والقتال كان هذا علامة شرٍ، وذهاباً لهذا الملك فآثروا العافية تُرزقوها، وكونوا مفاتيح خير كما كنتم أولاً، ولا تعرضون للبلاء، فتتعرضوا له، فيصرعنا الله وإياكم.وأيم الله إني لأقول لكم هذا، وأدعوكم إليه، وإني لخائف أَلَّا يتم حتى يأخذ الله حجته من هذه الأمة التي نزل بها ما نزل، فإن ما نزل بها أمر عظيم، وليس كقتل الرجلِ الرجلَ، ولا قتل النفر الرجل، ولا قتل القبيلةِ القبيلةَ.

قال المؤرخون: اقتنع الجميع بكلام القعقاع بن عمرو المخلص الصادق، وقالوا له:

(أصبت وأحسنت المقالة، فارجع فإن قدم علي، وهو على مثل رأيك، صلح هذا الأمر إن شاء الله تعالى).

عاد القعقاع إلى علي في (ذي قار) وقد نجح في مهمته، وأخبر علياً بما جرى معه، فأعجب علي بذلك، وأوشك القوم على الصلح، كَرِهَهُ مَنْ كرهه ورضيه من رضيه (كما في البداية والنهاية) نقله الصلابي وغيره.

قال المؤرخون: لما عاد القعقاع وأخبر علياً بما فعل، أرسل عليٌّ رسولين يستوثق مما جاء به القعقاع بن عمرو، فعادا يؤكدان على ما قاله القعقاع، فسار علي بمن معه حتى وصل البصرة ونزل بجوارهم، فنزلت القبائل إلى قبائلهم، مضر إلى مضر، وربيعة إلى ربيعة، واليمن إلى اليمن، وهم لا يشكون في الصلح، فكان بعضهم يخرج إلى بعض، ولا يذكرون ولا ينوون إلا الصلح.

وكان أمير المؤمنين علي لما نوى التحرك من ذي قار إلى البصرة أعلن قراره الخطير: (ألا وإني راحل غداً فارتحلوا – إلى البصرة – ألا ولا يرتحلن غداً أحدٌ أعان على عثمان بشيء في شيء من أمور الناس) الطبري.

قال المؤرخون: ويجب أن نعتقد أنه لا يوجد صحابي واحد من أصحاب النبي ﷺ قد أعان – ولو بكلمة – على قتل عثمان وعلى هذه الفتنة الحالكة، وإنما الذي أشعلها هم السبئية والمنافقون بشهادة النبي ﷺ كما ذكرنا سابقاً.

وها هي السبئية تحرك هذه الفتنة الثانية في معركة الجمل، بين طلحة والزبير، وبين علي.

قال المؤرخون: فلما نزل الناس منازلهم واطمأنوا، خرج علي وخرج طلحة والزبير، فتوافقوا وتكلموا فيما اختلفوا فيه، فلم يجدوا أمراً هو أمثل من الصلح وترك الحرب حين رأوا هذا الأمر أخذ بالانقشاع، فافترقوا على ذلك، ورجع علي إلى معسكره ورجع طلحة والزبير إلى عسكرهما، وبعث كل منهما إلى عساكره وبعث علي إلى رؤساء عساكره ما عدا الذين اشتركوا في حصار عثمان، فبات الناس على نية الصلح والعافية وهم لا يشكون في الصلح، وبات بعضهم بجانب بعض يتحادثون في الصلح وبات أهل الفتن من السبئيين بشرٍّ ليلة باتوها قط.

موقف علي من السبئية:

قال صاحب (الإنصاف): كانت كل خطب علي بعد استشهاد عثمان لم يتعرض للبراءة من

السبئية بشكل علني وصريح. ولكن كان يظهر تأففه منهم، وعدم قربه منهم، أما بعد أن تم الاتفاق على الصلح بينه وبين الفريق الآخر – طلحة والزبير– وأشرف الناس على الصلح، وانكسرت شوكة السبئية في البصرة.. فقد أصبح الوقت ملائماً لكي يعلن أمير المؤمنين علي موقفه الرسمي الصريح من هؤلاء الذين خرجوا على عثمان ويعلن براءته منهم.

فأعلن علي هذا الموقف، وقبل أن يتحرك إلى البصرة للقاء طلحة والزبير وإتمام الصلح وكان في (ذي قار) خطب وقال فيما قاله: إني مرتحل غداً، فارتحلوا، ولا يرتحل معي أحد أعان على قتل عثمان بشيء من أمور الناس – أي ولو بكلمة – وليغنِ السفهاء عن أنفسهم.

فعلي يقول في هذه الخطبة: إن كل من أعان على قتل عثمان بكلمة أو إشارة فهو متهم لا يصلح ان يكون في جيش أمير المؤمنين الذي يسعى لجمع الشمل والإلفة بين المسلمين.

ويتابع صاحب الإنصاف فيقول: لما علم القتلة بموقف أمير المؤمنين هذا، أيقنوا أنه قد عزم على التخلص منهم وإقامة الحد عليهم. هذا قبل لقائه بطلحة والزبير للصلح، فكيف به إذا التقى بهما. فإن يصطلحوا فعلى دمائنا. فلابد من التشاور فيما بينهم. فاجتمع من رؤساء السبئية جماعة صغيرة بزعامة عبدالله بن سبأ وهو المشير فيهم، وكان منهم الأشتر النخعي، وخالد بن ملجم وغيرهما، وكان السبئية كلهم يقدرون بألفين وخمسمائة ليس فيهم صحابي واحد ولله الحمد. كما قال الطبري وابن كثير، وابن الأثير.

قال المؤرخون: وتكلم الأشتر فقال أما طلحة والزبير فأمرهما معروف – يريدان القصاص منا – وأما علي فعرفنا أمره اليوم، وإن رأي الناس فينا واحد والله، وسيصطلحون على دمائنا وقتلنا، فهلموا فلنتواثب على علي فنلحقه بعثمان، فتعود فتنة يرضى منها بالسكون. فقال ابن سبأ: لو قتلناه قُتلنا جميعاً؛ لأنهم يجتمعون معاً ويعرفون قِلَّتنا.

وقال شريح بن أوفى – من زعمائهم –: أبرموا أموركم قبل أن تخرجوا ولا تُؤَخِّروا أمراً ينبغي لكم تعجيله، ولا تعجلوا أمراً ينبغي لكم تأخيره، فأنا عند الناس بشر المنازل، فلا أدري ما الناس صانعون غداً إذا ما هم التقوا.

ثم تكلم ابن السوداء – عبدالله بن سبأ – وعرض الرأي الذي وافق عليه هؤلاء القادة فقال: يا قوم، إن عزكم في خلطة الناس فصانعوهم، وإذا التقى الناس غداً فأنشبوا القتال،

وأنشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر. فاتفقوا على ذلك، قسَّم الخبيث ابن سبأ جماعته إلى فرقتين واتفقوا على أن يتسلل كل فريق في سواد الليل إلى معسكر كل فريق من الفريقين، فرقة تنطلق إلى معسكر طلحة والزبير، وفرقة نتطلق إلى معسكر علي وينشبون القتال في كل معسكر من المعسكرين في سواد الليل فوقعت الفتنة، ولا يدري كل فريق ماالخبر!!

وقامت أم المؤمنين عائشة تركب هودجها لا تدري ما الخبر، وظن كل فريق من الفريقين أن الفريق الآخر قد خدعه، وأن ما قاله القعقاع بالليل ماكان إلا خدعة كبيرة من علي. وقال فريق طلحة: فعلها علي! خدعنا علي! ولما بدأ الطعن في فريق علي، قال علي ومَنْ معه: فعلها طلحة والزبير، ونشب القتال الضاري، وما توقف القتال إلا بعدما أشرقت الشمس، وتبين الناس الأمر، ووقفت عائشة تبكي، ووقف طلحة والزبير يسكتان الناس، ويطلبان مهم الصبر والتأني، ولكن هيهات في وقت الفتنة أن يسكت الناس.

قال صاحب (الفتنة): وهكذا وقعت هذه الفتنة، التي لا يمكن لعاقل منصف أن يقول، إن هذه المعركة دارت بتخطيط من أحد الفريقين علي وطلحة. فهذا علي قام يردد يوم معركة الجمل حيث قتل حول هودج عائشة الكثير قال كما روى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح (اللهم ليس هذا أردت، اللهم ليس هذا أردت).

وحينما رأى كثرة القتلى فداءً لأم المؤمنين كما قال أحد زعماء بني ضبة قال: (لوددت أني مت قبل هذا بعشرين سنة).

نحن بني ضبة أصحابُ الجمل — نُنازلُ الموتَ إذا الموتُ نــــزل
الموت أحلى عندنا من العســـل — ننعى ابن عفان بأطراف الأسل

وهذا طلحة في الجانب الآخر ينادي – وهو على دابته – وقد غشيه الناس: يا أيها الناس أنصتوا! ولا ينصتون، فما زاد طلحة أن قال: أف، أف، فراش نارٍ، وذباب طمعٍ – ويعني بذلك السبئية – ثم أصابه سهم في أول الفتنة غرب فقتل، بعد النزف، ولما مر علي ورآه مقتولاً، جعل يمسح التراب عن وجهه ويبكي ويقول: عزيز علي أبا محمد ان أراك مجندلاً في التراب تحت نجوم السماء، ثم قال علي: (إلى الله أشكو عُجَري وبُجَري) – أي همومي – الظاهرة والباطنة.

وبكى علي وبكى أصحابه على طلحة صاحب اليد المشلولة التي شُلَّت يوم أحد، وهو

يدافع عن رسول الله ﷺ، ودفن رضي الله عنه في البصرة.

أما الزبير فقد وصى ولده عبدالله لقضاء دَينه، وقال له: يا بني إنه لا يقتل اليوم إلا ظالم أو مظلوم، ولا أراني إلا سأُقتل مظلوماً، وإن أكبر همي ديني، ثم انسحب من المعركة.. وغادرها لأنه خشي أن يقاتل علياً.. فتبعه ابن جرموز فقتله..

قال الصلابي: فالزبير كان على وعي لهدفه – وهو الإصلاح – ولكنه لما رأى حلول السلاح مكان الإصلاح رجع ولم يقاتل. وكان علي يقول: لما شاهد سيف الزبير: طلما جلا الزبير بهذا السيف الكربَ عن وجه رسول الله ﷺ ثم قال: (بشر قاتل ابن صفية بالنار)، ثم قام علي رضي الله عنه فصلى على قتلى الفريقين جميعاً. ثم اقترب علي من هودج عائشة وقال: كيف حالك يا أماه فقالت: بخير والحمد لله فقال: غفر الله لك، فقالت: ولكَ، ثم أنزلها وزودها وأرسل معها أخاها محمد بن أبي بكر ليصحبها من البصرة إلى مكة ثم إلى المدينة. وكانت كلما قرأت قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴿٣٣﴾﴾[1] وتبكي حتى تبل خمارها وتقول: وددت أني كنت جلست كما جلس أصحابي.

والمؤرخون مجمعون على أن هذه الفتنة أشعلها السبئيون.

قال الطحاوي في كتابه «العقيدة الإسلامية» كما نقل عنه صاحب كتاب «الفتنة»: فجرت فتنة الجمل على غيراختيار من علي ولا من طلحة، وإنما أثارها المفسدون بغير اختيار السابقين.

وقال الباقلاني في كتاب «التمهيد»: لما تم الصلح، والتفرق على الرضا بين الفريقين – علي وطلحة – خاف قتلة عثمان من الإطاحة بهم، فقرروا أن ينقسموا إلى فريقين ويختلطوا بالمعسكرين، ويبدؤوا بالحرب سحراً، ويصيح الفريق الذي في عسكر علي: غدر طلحة والزبير. ويصيح الفريق الذي في عسكر طلحة والزبير: غدرَ علي.

فتم للسبئية ما دبروه، ونشبت الحرب فكان كل فريق منهم – طلحة وعلي – دافعاً لمكروه عن نفسه، وهذا صواب من الفريقين وطاعة لله تعالى إذ وقع. ونقل القاضي عبدالجبار أقوال العلماء باتفاق رأي علي وطلحة والزبير وعائشة على الصلح. وأن قتلة عثمان كرهوا ذلك وخافوا أن تتفرغ الجماعة لهم فدبروا في إحداث هذه الفتنة وكانت موقعة الجمل.

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

إذاً السبب الذي أوقع الخلاف بين الفريقين، هو المطالبة بدم عثمان. فريق يطالب بإقامة الحد على قتلة عثمان فوراً. وفريق يطالب بالتأجيل؛ حتى تلتقي كلمة المسلمين، وتقوى شوكتهم، ويستطيع علي بعدها أن يقيم الحد على الغوغاء الذين تعصب لهم الكثير.

موقعة صفين:

ننتقل الآن للحديث عن الخلاف بين علي ومعاوية وهو المحور الثاني وتسلسل الأحداث قبل موقعة صفين.

ذكرنا أن زوج عثمان نائلة بنت الفرافصة لما استشهد عثمان، بعثت قميصه المُضرَّج بالدماء مع أصابعها التي قُطعت أثناء الدفاع عنه، بعثته مع النعمان بن بشير إلى معاوية، فأخذه معاوية ووضعه على المنبر في مسجد دمشق ليراه الناس، وعلق الأصابع في كم القميص، والناس يتباكون حوله وحث الناس بعضهم بعضاً على الأخذ بثأر عثمان، حتى أن شرحبيل ابن المصمت الكندي جاء إلى معاوية وقال له: كان عثمان خليفتنا فإن قويتَ على الطلب بدمه وإلا فاعتزلنا.

وذكر الطبري: إن رجالاً من الشام حلفوا أن لا يمسوا النساء ولا يناموا على الفُرُش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشيء أو تفنى أرواحهم. كل ذلك لأنَّ الصورة كانت عند أهل الشام بشعة، حيث قتل الخليفة عثمان، وسيوف أهل البغي مُفْلتةٌ على أهل المدينة، ونُهبَ بيت المال، هذه هي الصورة التي نقلها النعمان بن بشير إلى أهل الشام. ثم جاء القميص والأصابع، فهاجت النفوس، واهتزت المشاعر وذرفت العيون حتى إن بعض الصحابة وكثيراً من المؤمنين الصادقين، كما نقل محمد حسان رأوا أن على معاوية ألا يبايع علياً حتى يقتص من قتلة عثمان، وقالوا: لا نبايع من يؤوي القتلة، وتخوفوا على أنفسهم من قتلة عثمان الذين كانوا في جيش علي، فرأوا أن البيعة لعلي لا تجب عليهم إلا إذا أقام الحد على القتلة أو سلمهم لمعاوية ليقيم الحد عليهم باعتباره أولى الناس بالمطالبة بدم عثمان لقرابته من عثمان، كما أنه هو عامله على الشام فمعاوية كان والياً لعثمان على الشام، وكذلك كان والياً على الشام منذ عهد عمر.

ولما تولى علي الخلافة أراد عزله وتولية (عبدالله بن عمر بن الخطاب). لكن ابن عمر اعتذر، فأرسل عليٌّ (سهل بن حنيف) بدلاً عنه. ولكن سهلاً ما كاد يصل إلى مشارف الشام – وادي القرى – حتى عاد من حيث جاء. حيث لقيه خيل لمعاوية عليها (حبيب بن مسلمة

الفهري)، فقالوا لسهل بن حنيف: إن كان بعثك عثمان فحيهلا بك، وإن بعثك غيره فارجع.

وكان معاوية يرى أن عليه مسؤولية الانتصار لعثمان، والقودَ من قاتليه، فهو وليُّ دمه والله تعالى يقول: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾[1].

لذلك جمع معاوية الناس، وخطبهم، وأن عثمان قتل مظلوماً على يد سفهاء منافقين لم يقدِّروا الدم الحرام، حيث سفكوه في الشهر الحرام، والبلد الحرام، فثار الناس، وارتفعت الأصوات.

وكان منهم بعض أصحاب النبي ﷺ. فقام أحدهم وهو – مُرَّة بن كعب – فقال: لولا حديث سمعته من رسول الله ﷺ لما تكلمتُ. فقد ذكر ﷺ الفتن فقرَّبها، فمر رجل متقنع بثوب، فقال ﷺ: «هذا يومئذ على الهدى». فقمت إليه، فإذا هو عثمان بن عفان، فأقبلتُ عليه – على رسول الله ﷺ – بوجهه فقلت: هذا؟ قال ﷺ: «نعم».

قال المؤرخون: لقد كان الحرص الشديد على تنفيذ حكم الله في قتلة عثمان هو السبب الرئيسي في رفض أهل الشام برئاسة معاوية بيعة علي، ورأوا أن تقديم حكم القصاص مقدمٌ على البيعة، ولم يكن معاوية طامعاً في خلافة، أو في ولاية على الشام؛ لأنه يدرك إدراكاً تاماً أن علياً أفضل منه، وأولى بالأمر منه.

لذلك فقد ذكر الجعفي (يحيى بن سليمان) عن أبي مسلم الخولاني أنه قال لمعاوية أنت تنازع علياً الخلافة؟ أو أنت مثله؟! فقال معاوية: لا أنازعه في الخلافة، وإني أعلم أنه أفضل مني، وأحق بالأمر مني، ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً، وأنا وَلِيُّه وابن عمه وأطالب بدمه؟!! فَأْتُوا علياً فقولوا له: يدفع لنا قتلة عثمان. فكلموه. فقال علي: (يدخل في البيعة ويحاكمهم إليَّ)!! فامتنع معاوية.

وقد ذكر الطبري في «تاريخه»: أن معاوية أرسل رسولاً إلى علي بن أبي طالب، فلما دخل الرسول على علي قال علي: ما وراءك؟ قال الرجل: جئتك من عند قومٍ لا يريدون إلا القودَ كلهم موتور، تركت ورائي ستين ألف شيخ يبكون على قميص عثمان، وهو منصوب لهم، وقد ألبسوه

(١) الإسراء: ٣٣.

منبر دمشق، فقال علي: مني يطلبون دم عثمان، (اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان! نجا والله قتلةُ عثمان؛ إلا أن يشاء الله).

ثم خرج الرسول من بين يدي علي، فَهَمَّ به أولئك الخوارج يريدون قتله، فما أفلت منهم إلا بجهد.

وقد علق صاحب كتاب (الفتنة) على مقالة علي فيقول: انظر إلى الفهم العجيب من علي حيث قال عندما وصلته الرسالة: لقد نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله. ولكن لماذا قال ذلك؟ لأنَّ كلمة الأمة افترقت، وفي هذه الفرقة سيضيع الحق، وسيضيع دم عثمان؛ من هنا كان علي يرجو أن يبايعه معاوية، لتلتقي القوتان ولتلتقي الجموع – جموع أهل الشام وأهل العراق – ليستطيعوا من خلال هذه القوة.. أن يقيموا الحد على قتلة عثمان، ولكن افترقت كلمة الأمة؛ لذا قال علي: نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله.

قال محمد حسان: وقد أرسل علي – وفداً – إلى معاوية. (وهذه عادته ﵁ ، وهذا خُلُقه). وكان في هذا الوفد (بشير بن أبي مسعود الأنصاري) المدني، وهو تابعي جليل ثقة. فدخل بشير على معاوية بن أبي سفيان وقال له: (أدعوك إلى تقوى ربك، وإجابة ابن عمك علي، إلى ما يدعوك إليه من الحق؛ فإنه أسلم في دينك، وخير لك في عاقبة أمرك!).

فقال معاوية: ويَبطلُ دمُ عثمان؟!! لا والرحمن لا أفعل ذلك أبداً، فرد معاوية وكتب كتاباً إلى علي يقول فيه: إن كنت صادقاً فأمكِنَّا من قتلة عثمان نقتلهم به ونحن أسرع إليك إجابة وأطوعهم طاعة، وإلا فليس لك ولأصحابك عندنا إلا السيف، فوالله الذي لا إله غيره، لنطلبنَّ قتلةَ عثمان في البر والبحر، والجبال والرمال حتى نقتلهم، أو تلحق أرواحنا بالله والسلام.

يقول إمام الحرمين الجويني في كتابه «لمع الأدلة في عقائد أهل السنة»:

إن معاوية لا ينكر إمامة علي ولا يدعيها لنفسه، وإنما كان يطلب قتلة عثمان ظناً منه أنه مصيب ولكنه كان مخطئاً.

المعتزلون للفتن من الصحابة:

يقول صاحب كتاب «تحقيق مواقف الصحابة»: ولا بد من الإشارة هنا إلى أن أكثر الصحابة اعتزلوا الفتنة، وعلي رأسهم سعد بن أبي وقاص، فإنه لم يكن على ظهر الأرض يوم

صفين أفضلُ منه سوى علي، واعتزل (سعيد بن زيد) أحد المبشرين العشرة بالجنة، وزيد بن ثابت، وعبدالله بن مغفل، ومحمد بن مسلمة، وأبو برزة الأسلمي، وأبو بكرة، وأبو موسى الأشعري، وأسامة بن زيد، وعبدالله بن عمر وغيرهم كثيرون.

فقد روى عبدالرزاق في «مصنفه»، والإمام أحمد بسند صحيح عن محمد بن سيرين قال: هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ عشرات الألوف، فلم يحضرها منهم مائة، بل لم يبلغوا الثلاثين.

وروى ابن بطة عن بكير بن الأشبح أنه قال: أما أن رجالاً من أهل بدر لزموا بيوتهم بعد قتل عثمان فلم يخرجوا إلا إلى قبورهم.

وروى الإمام الشعبي – كما قال الطبري – قال: (بالله الذي لا إله إلا هو ما نهض في تلك الفتنة إلا ستة بدريين ما لهم من سابع. أو سبعة مالهم من ثامن).

وحدث شعبة قال: سألت (الحكم بن عتبة الكوفي) رجل عابد ثقة صاحب سنة، كان إذا قدم المدينة أخلوا له سارية النبي ﷺ يصلي إليها، سألته هل شهد أبو أيوب الأنصاري وقعة صفين؟ قال: لا ولكن شهد قتال النهروان.

من هنا ندرك أن علياً لما خطب في أهل المدينة يدعوهم إلى الخروج معه إلى الشام، تثاقل الناس خشية قتال المسلمين وأجابه فقط رجلان من أعلام الأنصار، وهما: (أبو الهيثم بن التيهان) وهو بدري، (وخزيمة بن ثابت) وهو غير ذي الشهادتين.

وروى ابن سعد وأبو نعيم والطبراني عن ابن سيرين قال: لما قيل لسعد بن أبي وقاص: ألا تقاتل؟ إنك من اهل الشورى. وأنت أحق بهذا الأمر من غيرك؟ قال: لا أقاتل حتى يأتوني بسيف له عينان ولسان وشفتان يعرف المؤمن من الكافر، فقد جاهدت وأنا أعرف الجهاد.

ولما سأله رجل قائلاً: هذا عليٌّ يدعو الناس، وهذا معاوية يدعو الناس وقد جلس عنهما عامة أصحاب رسول لله ﷺ فقال سعد: أما وإني لا أحدثك ما سمعت من وراء وراء، ما أحدثك إلا ما سمعته أذناي ووعاه قلبي، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن استطعت أن تكون عبدالله المقتول، ولا تقتل أحداً من أهل القبلة فافعل).

قال أهل العلم: والذين اعتزلوا الفتنة اعتمدوا على أصل شرعي ثابت وهذا الأصل هو:

(ترك القتال في الفتنة). وهذا النص في صحيح البخاري.

تجهيز أمير المؤمنين علي لغزو الشام:

بعد رد معاوية على رسائل علي يطلب منه القصاص قبل البيعة، عزم علي على قتال أهل الشام، وبعث إلى ولاته في مصر والكوفة يأمرهم بالاستعداد وجاء إليه ابنه (الحسن) فقال له: يا أبه، دع هذا فإن فيه سفك دماء المسلمين، ووقوع الفرقة بينهم، فلم يقبل ذلك منه.

قال المؤرخون – صاحب «الإنصاف»: كان بين انتهاء معركة الجمل، وبين استعداد علي للخروج لصفين فترة طويلة قدرها المسعودي في (مروج الذهب) بستة أشهر، وقدرها البخاري في كتابه «التاريخ الصغير» بشهرين أو ثلاثة، قال: وهذا يعني أن علياً لم يكن بنيته أن يسرع في لقاء معاوية وقتاله، إلا أن الغوغاء من السبئية أعجلته، وارتحلوا بغير إذنه فارتحل وراءهم ليقطع عليهم أمراً إن كانوا أرادوه.

وعين علي على ولاية البصرة (عبدالله بن عباس) ليحكم أمرها بعد موقعة الجمل، وكان هو في الكوفة ليتحرك إلى الشام.

وقال المؤرخون (صاحب «الإنصاف»): كان في جيش أمير المؤمنين علي رجل اسمه (مالك بن الحارث الأشتر) من قبيلة النخع اليمنية من قبائل مذحج، بطل شجاع من أبطال العرب، كانت أول معاركه في اليرموك، وفيها فقد إحدى عينيه، ثم شاء الله ان يكون سيفاً مسلولاً على إخوانه المسلمين.

أمر مهم نحب أن نشير إليه:

هذا الأمر ذكره المؤرخون، وكان سبباً في تعميق الخلاف بين الخليفة علي، وبين والي الشام معاوية، وهو:

وجود الغوغاء في جيش علي، وتحريضهم على قتل معاوية، وتَهويلهم امتناعه عن البيعة إلا بعد القصاص: (لأن ذلك يعنيهم بالدرجة الأولى).

ولاحظ معاوية سطوة أولئك الغوغاء ونفوذهم في جيش علي.

وأدرك أن هؤلاء هم الذين يحاولون تعميق الخلاف بين الفريقين، وتغذية الأحقاد، وشحنوا صدر علي على معاوية بأكاذيبهم وزيّنُوا له عزله عن ولاية الشام.

وهذا ما أقدم عليه أمير المؤمنين علي، فعزل معاوية عن الشام، وكان هذا أول احتكاك بين الطرفين، وأرسل علي (سهل بن حنيف الأنصاري) والياً على الشام، وسار سهل حتى إذا كان بتبوك، لقيته خيل، فقالوا: مَن أنت؟ قال: أمير، قالوا: على أي شيء؟ قال: على الشام، قالوا: إن كان عثمان قد بعثك فحيَّهلاً بك، وإن كان بعثك غيره فارجع، فرجع سهل إلى علي.

ثم بعث علي رسولاً إلى معاوية يحمل كتاباً، وهذا الرسول هو (سبرة الجهني)، ولكن معاوية لم يردَّ على الكتاب حتى كان الشهر الثالث من استشهاد عثمان، فبعث (قبيصة العبسي) إلى علي، وأعلمه ان أهل الشام لن يُعطوا البيعة إلا بعد إقامة الحد علي قتلة عثمان، فقال علي: اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان، ثم أمر مبعوث معاوية بالخروج، فخرج (قبيصة العبسي) وصاحت السبئية: هذا الكلب، هذا وافد الكلاب، اقتلوه، وهجموا عليه، فحمته مُضَر.. وجعلوا يقولون له: اسكت.

فيقول: لا والله، ولا يفلح هؤلاء أبداً، فلقد أتاهم ما يوعدون.

فيقولون له: اسكت، فيقول: لا والله لا يفلح هؤلاء أبداً، فلقد أتاهم ما يُوعَدُون، فيقولون له: اسكت، فيقول: لقد حلَّ بهم ما يحذرون، انتهت والله أعمالهم، وذهبت ريحهم، فوالله ما أمسوا حتى عرف الذل فيهم.

في مواقف الفتنة، والذي دفعه إلى هذا التغير، أمران:

أولاً: حب الرئاسة والجاه، وغُلوّه في الدين، وكان من رؤوس السبئيين الذين خططوا لإنشاب القتال بين طلحة وفريقه وبين علي قبل أن يصطلحا عليهم – أي على السبئيين –.

وفي وقعة الجمل اصطرع مع (عبدالله بن الزبير) واختلفا ضربتين، وقال عبدالله بن الزبير كلمته المشهورة (اقتلوني ومالكاً) وما زال يضطرب بين يدي ابن الزبير حتى أفلت.

وكان الأشتر قد أعماه حب الجاه، فكان يخطط ويدبر لعلَّ علياً يكافئه بولاية البصرة، فلما عين علي على ولاية البصرة (عبدالله بن عباس) غضب وقال: علامَ قتلنا الشيخ إذن، اليمن لعبيد الله، والحجاز لقثم، والبصرة لعبدالله بن عباس، والكوفة لعلي. ثم دعا بدابته فركب وقفل راجعاً فبلغ ذلك علياً فنادى: الرحيل! ثم أجَدَّ عليٌّ السير فلحق به فلم يره أنه قد بلغه عنه، وقال علي له: ماهذا السير، سبقتنا! وخشي علي إن تُرِك الخروجَ أن يوقع في نفس الناس شراً.

قال المؤرخون: وكان أول من توقع من الأشتر شراً للمسلمين عمر بن الخطاب، فقد ورد عن (عبدالله بن سلمة المرادي) قال: نظر عمر بن الخطاب إلى الأشتر وأنا عنده، فصعَّد فيه عمر النظر، ثم صوبه، ثم قال: (إن للمسلمين من هذا يوماً عصيباً).

كان لوجود الأشتر وأمثاله – كما يقول صاحب الإنصاف- في جيش أمير المؤمنين علي تأثير في مواقف علي، وقد كان حب الأشتر للشغب والفتن معروفاً عند المسلمين، قال عنه أبو الأعور السلمي: إن خِفَّةَ الأشتر وسوء رأيه، وهجومه على عثمان يُقبِّحُ محاسنه، كما أن دخوله دار عثمان مع من قتل عثمان جعله متبعاً بدمه.

وكان له صاحب اسمه (الأشعث بن قيس) يُعرف منه حبه للشغب وسوء رأيه، فكان الأشعث يقول لعلي: وهل نحن إلا في حكم الأشتر! فقال علي: وماحكمه؟ فقال الأشعث: يضرب بعضنا بعضاً بالسيوف. وقال الأشعث مرة لعلي: وهل سَعَّر الأرض غير الأشتر؟!

لهذا كان الأشتر رأساً من رؤوس الفتنة، ومن أسرع الناس إليها، وكان أغيظَ ما يَغيظهُ الدعوة إلى الصلح وجمع شمل المسلمين، وكان يتهم كل من يسعى إلى الصلح من أهل العراق بأنه من أصحاب معاوية، ولم يُذكَرْ له في تاريخه أي دعوة للصلح، أو الموافقة عليه، بل كان دائماً داعياً للفتنة، وكان أحرص الناس على هزيمة معاوية لِمَا يعلمُ من حرص معاوية على الثأر من قتلة عثمان. وكان علي – كما قال المؤرخون – يُداريه مع معرفته بأخلاقه، وذلك لموقعه في قبيلته وطاعتهم له، كما يملك قدرات قتالية عالية، لكنه أفسدها بسعيه في الفتن بين المسلمين، ولهذا لما رحل من البصرة إلى الكوفة..سايره أمير المؤمنين علي ولم يؤنبه على رحيله دون إذنه، وكذلك سايره علي حينما أراد الأشتر انتزاع بعض مدن الجزيرة التابعة لولاية معاوية في الشام مثل:

الرُّها – وهي مدينة بين الموصل والشام.

وحرّان – وهي من أول المدن التي بنيت بعد الطوفان، فُتحت في خلافة عمر.

قرقيسياء – وهي بلد على مصب نهر الخابور على الفرات، فتحها جبير الفهري.

ولكن معاوية علم بنية الأشتر في احتلال هذه المدن فبعث له (عبدالرحمن بن خالد بن الوليد) ففر الأشتر، واستقرت هذه البلاد لمعاوية.

قال المؤرخون: ولما استقر أمير المؤمنين في الكوفة، أرسل إلى الصحابي الجليل: جرير

البجلي، وكان ذلك يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب سنة ست وثلاثين (٣٦هـ).

أراد علي أن يرسل (جرير بن عبدالله البجلي) إلى معاوية يدعوه إلى بيعته، وقال جرير لعلي: أنا أذهب إليه يا أمير المؤمنين، فإن بيني وبينه وُدّاً فآخذ لك البيعة منه، فقال الأشتر: لا تبعثه ياأمير المؤمنين، فإني أخشى أن يكون هواه معه. فقال علي: دعه، فبعثه علي، وبعث معه كتاباً إلى معاوية يُعلمه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته، ويدعوه إلى الدخول في بيعته، وأخبره بما جرى في موقعة الجمل.

لما وصل جرير إلى الشام والتقى بمعاوية وأعطاه الكتاب – ولم يكن من سياسة معاوية العَجلَ – جمع رؤوس أهل الشام فاستشارهم، فأبوا المبايعة حتى يقتل علي قتلة عثمان، أو يسلمهم إلى أهل الشام، ونقل معاوية إلى جرير هذا الرأي وحمل جرير لعلي الجواب، وأخبره بما قال أهل الشام.

عندها قال الأشتر لعلي: ألم أَنْهكَ يا أمير المؤمنين أن تبعث جريراً؟ فلو كنتَ بعثتني لما فتح معاوية باباً إلا أغلقته، فقال له جرير: لو كنتَ ثَمَّ قتلوك بدم عثمان، فقال الأشتر: والله لو بعثتني لم يَعنِني جوابُ معاوية، ولأعجلنَّهُ عن الفكرة، ولو أطاعني قبلُ أمير المؤمنين لحبسك وأمثالك حتى يستقيم أمر هذه الأمة.

فخرج جرير مغضباً إلى قرقيسياء وكان والياً عليها من خلافة عثمان وكتب إلى معاوية يُخبره بما جرى، وما قال، وما قيل له، فكتب إليه معاوية يأمره بالقدوم عليه.

وقال صاحب كتاب «سيرة أمير المؤمنين علي»: وهكذا كان الأشتر سبباً في إبعاد صحابي جليل هو جرير (وهو رأس في قبيلة بجيلة) عن أمير المؤمنين علي.

وجرير هو الصحابي القائل: ما رآني رسول الله ﷺ إلا تَبسَّمَ في وجهي وقال: (يَطلعُ عليكم من هذا الباب رجلٌ من خيرِ ذي يمن، على وجهه مسحة ملك).

قال صاحب «الإنصاف»: ولعل هذا الموقف الذي حصل لجرير بن عبد الله الصحابي الأمير من الأشتر وما اتَّهمهُ به بين يدي علي – من أنه يميل إلى معاوية – يصور لنا تدخل زعماء الفتنة في شؤون الخلافة، وجرأتهم على الخليفة، وسعيهم المستمر لإفساد كل مساعي الصلح.

خروج علي إلى صفين:

قال المؤرخون: لما عاد رسول أمير المؤمنين علي من الشام ناقلاً له موقف أهلها من طلب القِصاص من قتلة عثمان قبل المبايعة له.

ولما كان رأي علي أنه لا يرى القصاص إلا بعد استتباب الخلافة والفراغ من البيعة كان لا بد من المواجهة.

جهز أمير المؤمنين علي الناس، وباشر القيادة بنفسه، وعسكر في موضع قريب من الكوفة على بُعْدِ ميلين منها، اسمه النخيلة، ثم توافدت إليه القبائل من العراق، فسار قاصداً الشام ماراً بالمدائن – بغداد – ثم الأنبار، ثم قرقيسياء، ثم الرقة، ثم عبر إلى ضفة الفرات اليمنى إلى مكان يقال له (صفين).

وبلغ معاوية أن علياً خرج بنفسه على رأس جيشه، فسار بجيشه حتى نزل صفين.

الموضع على الماء:

قال المؤرخون: وصل جيش معاوية إلى صفين قبل وصول علي بجيشه، فعسكر في موضع سهل مناسب.. ووصل علي متأخراً، ولم يجد موضعاً فسيحاً سهلاً يكفي لجيشه.. فعسكر في أرض وعرة ذات صخور.. وفوجئ بأن منافذ الماء إلى الفرات كانت بيد معاوية.. فشكا جُنْدُ علي له ذلك، فأرسل علي إلى (الأشعث بن قيس). فجاء الأشعث إلى معاوية وقال له كما روى صاحب كتاب «سير أعلام النبلاء»: اللهَ الله يا معاوية في أمة محمد ﷺ هبوا أنكم قتلتم أهل العراق، فمن للبعوث والذراري؟ إن الله يقول ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ ۝٩﴾(١).

فقال معاوية للأشعث:

ماذا تريد؟ قال: خَلُّوا بيننا وبين الماء، فأرسل معاوية إلى (أبي الأعور السلمي) قائد مقدمة جيشه الذي اختار للجيش منزلاً فسيحاً إلى جانب (شريعة في الفرات). ليس في المكان شريعة غيرها فجعلها في حَيِّزِهِ. وقال له معاوية – لأبي الأعور –: خلّ بين اخواننا وبين الماء.

كلا الطرفين لم يكن عندهم الرغبة في القتال:

قال صاحب «الإنصاف»: بعد وصول اهل العراق وأهل الشام إلى صفين، وعسكروا

---

(١) الحجرات: ٩.

هناك دارت بينهم المفاوضات والرسل حرصاً على وحدة الجماعة، وعدم القتال بين الإخوة، وكانت هناك محاولات جادة ومتواصلة للإصلاح بين المسلمين.

وقد كان معاوية عارفاً بفضل علي، فكان يكتب له في رسائله: أما فضلكَ في الإسلام وقرابتك من رسول الله ﷺ فلست أدفعه.

قال المؤرخون: إن الإشفاق على المسلمين في الجهتين كان مستشعره الجميع، ما عدا السبئية ومن اغتروا بهم من الغوغاء، ويظهر ذلك في موقفِ وقولِ (شاعر أهل الشام كعب بن جعيل التغلبي) وهو يرتجز قبل موقعة صفين حيث قال:

أصبحتِ الأمةُ في أمرٍ عَجَـبْ ... والمُلْكُ مجمـــوعٌ غداً لمن غلب
أقول قولاً صادقاً غير كــذب ... إنّ غداً يَهلكُ أعلام العـــرب
بعد الجمال والحياء والحســب ... يارب لا تُشمِـتْ بنا ولا تُصب
من خلع الأنداد طُراً والصُّلُبْ

وثبت عن علي أنه كان يقول: (قتلانا وقتلاهم في الجنة).

واستفاضت الأخبار - كما قال صاحب الإنصاف - عن علي وعمار أنهما كانا يقولان عن قتلى أهل الشام: (إنهم جميعاً مسلمون، فلا تتبعوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تغنموا مالاً، فإذا كان هذا رأي أميرالمؤمنين فيمن خالفه، فكيف ستكون حماسةٌ على القتال بين الطرفين).

قال في «الإنصاف»: ومما يدل على عدم الرغبة في القتال أيام صفين، تلك المدة الطويلة التي قضاها القوم يتراسلون ويتحاجزون لمدة ثلاثة أشهر وهم متقابلون في موقع واحد ولديهم كل عدة القتال فلم تقع الحرب إلا بعد هذه المحاجزة ولمدة ثلاثة أيام فقط، بل إن الحرب الحقيقية لم تجرِ إلا ليوم واحد (٣٠ ساعة) ومما يدلك على الرغبة في الصلح وعدم القتال في تلك المرحلة ما قاله (أيمن بن خريمن بن فاتك) الذي اعتزل صفين وقال:

ولستُ مقاتلاً رجلاً مصلي ... على سلطــان آخر من قريش
له ســلطانـه وعلي إثمي ... معـــاذ الله مـن سَفَهٍ وطيش

أأقتلُ مسلماً في غير جُـــرم فليس بنافعي ماعشت عيشي

قال المؤرخون: وقد حرص دعاة الفتنة على الانتقاص من كل من تكلم في الصلح بين الفريقين، ويظهر لك ذلك فيما روي أن رجلاً من فزارة اعترض على علي في سيره إلى صفين لقتال أهل الشام وقال له: أتريد أن تسيرنا إلى إخواننا من أهل الشام فنقتتل.. كلا هاالله لا نفعل ذلك، فقام (الأشتر النخعي) وقال لجماعته: من لهذا أيها الناس؟ فهرب الفزاري واشتد الناس في أثره فلحقوه ووطِئوه بأرجلهم حتى مات، ولم يُعرفْ قاتله فدفع علي ديته من بيت المال.

وكان (ابن عباس) يلح على عليٍّ في الصلح ويحذره من عدم طاعة أهل العراق له، فلما ظهر لعلي بعد ذلك اختلافهم وعدم طاعتهم قال: لله دو ابن عباس إنه ينظر إلى الغيب من ستر رقيق. وقال ابن عباس: والله ليتأمَّرَنَّ عليه معاوية لئن الله يقول: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾(١).

أمر القتال في صفين:

قال المؤرخون: وقف الفريقان أمام بعضهما أشهراً تتردد الرُّسُل بينهما للصلح، وقام القراءُ من الفريقين بمحاولات للصلح بينهما فلم تنجح تلك المحاولات لتمسُّك كل فريق برأيه، كما حاول أبو الدرداء، وأبوأمامة الصلح بين الفريقين فلم تنجح مهمتهما لنفس الأسباب.فتركا الفريقين ولم يشهدا معهما، وكذلك فعل القراء.

كما قام (مسروق بن الأجدع) وهو تابعي جليل، فوعظ وخَوَّفَ، ثم اعتزل، عند ذلك كان لابد من القتال لحسم الأمر.

قال المؤرخون: كان أول يوم في القتال يوم الأربعاء لسبعٍ خلون من صفر سنة ٣٧ هـ بعد انسلاخ شهر محرم سنة ٣٧ هـ ثم كان القتال في اليوم الثاني يوم الخميس، وفيه تفوق أهل العراق على أهل الشام، وتقدموا حتى قاربوا الوصول إلى كتيبة معاوية – الشهباء – حتى إن معاوية فكر في ترك ميدان القتال، إلا أنه صبر وتمثل بقول الشاعر:

أبت لي عِفَّتي، وأبى بلائي وأخـــذي الحمد بالثمن الربيـــح

وإكراهي على المكروه نفسي وضــــــربي هامـــة البطل المُشيح

---

(١) الإسراء: ٣٣.

وقولي كلما جشأت وجاشــت   مكانك تُحمدي أو تســــتريحي

استشهاد عمار بن ياسر: قال المؤرخون: ثم إن أهل الشام تماسكوا، وبايعوا على الموت، وكروا بشدةٍ وعزيمة، وتقدموا وتراجع جيش العراق.

كان عمار في جيش العراق، وكان قد تجاوز الثالثة والتسعين أو الرابعة والتسعين، ولما رأى العراقيين قد تقهقروا تقدم الصفوف بحماسة، واستنهض الهمم، ولكنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان بعيداً عن الغلو، فحين سمع رجلاً من العراقيين بجواره يقول: (كفر أهل الشام)، فنهاه عمار عن ذلك وقال له: إنما بغوا علينا، فنحن نقاتلهم لبغيهم، فإلهنا واحد، ونبينا واحد، وقبلتنا واحدة، وتقدم إليه رجل وسأله: يا عمار، أرأيتَ قتالكم مع علي رأياً رأيتموه، فإن الرأي يخطئ ويصيب، أو عهد عهده إليكم رسول الله ﷺ؟ فقال: ما عهد إلينا رسول الله ﷺ عهداً لم يعهده إلى الناس كافة. وقال: حدثني حبيبي رسول الله ﷺ إني لا أموت إلا قتلاً بين فئتين مؤمنتين. «البخاري في التاريخ الصغير».

وكان يشجع على الثبات، طالباً من العراقيين عدم التقهقر وكان يقول لهم: (من سره أن تكتنفه الحور العين فليقدم بين الصفين محتسباً.. ثم يقول: والذي نفسي بيده لو ضربونا حتى يبلغوا منا سعفات هجر. لعلمنا أن مُصلحينا على الحق وأنهم على الباطل).

وقد روى عبدالله بن سلمى قال: رأيت عماراً يوم صفين شيخاً كبيراً آدماً طوالاً آخذاً الحربة بيده ويده تُرعَدُ – لكبر سنه – فقال: والذي نفسي بيده لقد قاتلت بهذه الراية مع رسول الله ﷺ ثلاث مرات وهذه الرابعة.

قال الصلابي: كان منظر عمار منظراً مؤثراً، فهو صحابي جليل مهاجر بدري جاوز الرابعة والتسعين يمتلك كل هذا الحماس وهذه الهمة، فكان عاملاً مهماً في رفع الروح المعنوية عند جيش علي، وفي تقوية حماسهم حتى استطاعوا ان يحولوا ميزان المعركة لصالحهم، وكان يحث حامل الراية (هشام بن عتبة بن أبي وقاص) ويقول له: تقدم يا هشام، الجنة تحت ظلال السيوف، والموت في أطراف الأَسَل: (اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه).

وتقدم (هشام بن عتبة) وهو يرتجز:

أعور يبغي أهله محَلّا   قد عالج الحياةَ حتى مَلّا

لا بد أن يفِل أو يُفلا

- الطبري ٥/ ٦٥٢

قال المؤرخون: وعند غروب شمس ذلك اليوم (الخميس)، طلب عمار شربة من لبن ثم قال: إن رسول الله ﷺ قال لي: «إن آخر شربة تشربها من الدنيا شربة لبن».

واستحث معه حامل الراية (هشام بن عتبة بن أبي وقاص الزهري) فلم يرجعا، وقتلا معاً رحمهما الله تعالى و رضي الله عنهما.

أثر استشهاد عمار على المسلمين:

عمار الذي قال فيه رسول الله ﷺ من حديث أبي سعيد الخدري الوارد في الصحيحين: «تَقتلكَ الفئةُ الباغية» فأثبت النبي ﷺ ظلماً من فريق معاوية على فريق علي، ومع ذلك لم يُخرجْ النبي ﷺ الفئتين من الإيمان.

وقال ابن حجر في «الفتح»: في هذا الحديث علم من أعلام النبوة وفضيلة ظاهرة لعلي وعمار، ورَدٌّ على من يقول: (إن علياً لم يكن مُصيباً في حروبه).

قال النووي: كان الصحابة يوم صفين يتبعون عماراً حيث توجه لعلمهم أنه مع الفئة العادلة لهذا الحديث.

وكان لمقتل عمار أثر حتى على أهل الشام، فقد جاء في رواية صحيحة أن (عمرو بن حزم) دخل على عمرو بن العاص فقال: قتل عمار، وقد قال رسول الله ﷺ: «تقتله الفئة الباغية».فقام عمرو بن العاص فزعاً يُرجِّع.

وقد ذكر المؤرخون: إن مقتل عمار بن ياسر أثر في نفس عمرو بن العاص مما جعله يسعى لإنهاء الحرب، وقد ورد عنه كما ذكر صاحب «أنساب الأشراف» أنه قال بعد مقتل عمار: وددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة.

اليوم الثالث: ليلة الهرير: وكانت يوم الجمعة وليلة السبت، ليلة التاسع من صفر سنة ٣٧هـ.

كان اندفاع أهل العراق في هذا اليوم شديداً حتى أزالوا أهل الشام عن أماكنهم، وصلى علي بجيشه المغرب صلاة الخوف – الخميس – وصلى الناس صباح الجمعة إيماءً حتى تَضَاحى النهارُ، وتوجه النصر لأهل العراق على أهل الشام.

معاملتهم لبعضهم في مدة الحرب:

يقول صاحب كتاب «سيرة أمير المؤمنين علي»: إن وقعة صفين كانت من أعجب الوقائع بين المسلمين، كان فيها من الأمور الغريبة ما يجعلك لا تصدق ما تقرأ عنها، بل وقد تقف مَشْدوهاً أمام ما وصلنا عن هذه التصرفات من المصادر التاريخية.

فمثلاً: هم إخوةٌ يذهبون معاً إلى الماء، فيستسقون جميعاً، ويزدحمون وهم يغرفون الماء، ولا يؤذي إنسان إنساناً. وهم اخوة عندما يتوقف القتال.

وهاهو أحد المشاركين في القتال يحدثنا فيقول: كنا إذا توقف القتال دخل هؤلاء معسكر هؤلاء، وهؤلاء في معسكر هؤلاء... وتحدثوا إلينا وتحدثنا إليهم وهم أبناء قبيلة واحدة «سير أعلام النبلاء».

وإذا حان وقت الصلاة توقفوا لأدائها. ويوم قتل عمار صلى عليه الطرفان. «أنساب الأشراف».

وقد مر أصحاب العراق بقتيل لهم أمام عمرو بن العاص، فلما رآه عمرو بكى وقال: (لقد كان مجتهداً أخشن في أمر الله) عن عتبة بسند حسن.

وكانوا يسارعون إلى التناهي عن المنكر حتى في مثل هذة المواقع: فقد كان هناك جماعة من أهل الشام (من تلامذة عبدالله بن مسعود) لم ينضموا إلى أمير المؤمنين علي، ولا إلى معاوية، وقالوا لأمير المؤمنين: إنا نخرج معكم ولا ننزل عسكركم، ونعسكر على حِدَة حتى ننظر في أمركم وأمر أهل الشام، فمن رأيناه أراد مالا يحلُّ أو بدا منه بغي كنا عليه. فقال علي: (مرحباً وأهلاً، هذا هو الفقه في الدين، والعلم بالسنة، فمن لم يرض بهذا فهو جائر خائن).

أما معاملة الأسرى: فكان المبدأ العام هو الإحسان إلى الأسير، أما علي، فكان يحبس الأسير ويطلب منه البيعة، فإن بايع أخلى سبيله، وإن أبى أخذ سلاحه ودابته ووهبهما لمن أسره، ويُحلِّفه ألا يقاتل، ويعطيه أربعة دراهم.

وكان غرضه من ذلك إضعاف جانب البغاة، وقد أُتي بأسير يوم صفين، فقال الأسير: لا

تقتلني صبراً، فقال علي: لا أقتلك صبراً، إني أخاف الله رب العالمين، فخلى سبيله، ثم قال له: أفيك خير تبايع. «الأم» للشافعي.

تفقده للقتلى وترحمه عليهم: وكان علي يقوم بتفقد القتلى بعد الجولات الحربية، ويقول شاهد عيان – كما ذكر الصلابي –: رأيت علياً على بغلة النبي ﷺ – الشهباء – يطوف بين القتلى وكان معه الأشتر فمر برجل مقتول – وهو أحد القضاة العُبَّاد بالشام – (هو حابس بن سعد الطائي). فقال الأشتر، أو (عدي بن حاتم): أحابس معهم؟ عهدي به والله مؤمن، فقال علي: فهو اليوم مؤمن.

وهذا القاضي هو الذي أتى على عمربن الخطاب يوماً وقال: يا أمير المؤمنين رأيت رؤيا أفزعتني، قال عمر: ما هي؟ قال: رأيت الشمس والقمر تقتتلان، والنجوم معهما نصفين. قال عمر: فمع أيهما كنت؟ قال القاضي: مع القمر على الشمس. فقال عمر: قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ۝١٢﴾[1]. (فانطلق فوالله لا تعمل لي أبداً).

قال الراوي: بلغني أنه قتل في صفين مع أهل الشام.

وكان علي يقف على قتلى الفريقين ويقول: (غفر الله لكم، غفر الله لكم للفريقين جميعاً).

وعن يزيد بن الأصم: خرج علي فمر على قتلاه فقال: هؤلاء في الجنة، ثم خرج إلى قتلى معاوية فقال: هؤلاء في الجنة، وكان يقول عنهم: هم المؤمنون.

موقف لمعاوية مع ملك الروم: ذكر صاحب «البداية والنهاية» في التاريخ (ابن كثير) قال: إن ملك الروم استغل الخلاف بين علي ومعاوية وطمع في ضم بعض المدن التي كانت تحت سلطة معاوية..فكتب معاوية إليه: والله لئن لم تنتهِ وترجع إلى بلادك يا لعين لأصطلحنَّ أنا وابن عمي عليك ولأُخرجنَّكَ من جميع بلادك، فعند ذلك خاف ملك الروم وانكفَّ وطلب تمديد الهدنة.

مرور علي على المقابر بعد رجوعه من صفين:

قال صاحب البيان والتبيين كما نقل عنه الصلابي: أن علياً لما انصرف من صفين مرَّ بالمقابر

---

(١) الإسراء: ١٢.

فقال: السلام عليكم أهل الديار الموحشة، والمحالِ المقفرة من المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات، أنتم لنا سَلَف فارطٌ، ونحن لكم تبع، وبكم عما قليل لاحقون، اللهم اغفر لنا ولهم، وتجاوز بعفوك عنا وعنهم، الحمد لله الذي جعل الأرض كِفاتا، أحياءً وأمواتا، الحمد لله الذي خلقكم وعليها يحشركم، ومنها يَبعثكم، وطوبى لمن ذكر المَعاد، وأَعَدَّ للحساب وقَنِعَ بالكفاف.

روايات اللعن كاذبة: نحب ان ننبه إلى أن ماورد من لعنٍ كُلٍّ من الفريقين للآخر، فلا صحةَ له، ولا تثبت من حيث السند، حيث في الرواية (أبو مخنف) واسمه (لوط بن يحيى) وهو رافضي محترق لا يُوثَقُ في رواياته. فلنتنبه إلى ذلك.

الدعوة إلى التحكيم:

قال المؤرخون: بعد الليلة الثالثة من القتال في صفين، والتي سميت ليلة الهرير تعب الجميع، ولم يكن الحال يحتمل المزيد من القتال نادت المشيخة في جيش أمير المؤمنين علي بالرحم وحقوق الأخوة، ونادوا (يا معشر العرب، الله الله في الحرمات، مَنْ للنساء والبنات).

وفي المساء خطب (الأشعث بن قيس الكندي) وهو من أهل الكوفة خطب فيهم خطبةً قادت إلى الصلح بين الطرفين كما قال صاحب «الإنصاف».

وكان من خطبته أن قال: يامعشر المسلمين، قد رأيتم ما قد كان في يومكم الماضي – يقصد ليلة الهرير– وما قد فني فيه من العرب، فو الله لقد بلغت من السن ماشاء الله ان أبلغ، فما رأيت مثل هذا قط، ألا فليبلغ الشاهد الغائب، إن نحن تواقفنا غداً إنه لفناء العرب، وضيعة الحرمات، أما والله ما أقول هذا جزعاً من الحرب، ولكني رجل مسن، وأخاف على النساء والذراري غداً إذا نحن فنينا، اللهم إنك تعلم أني نظرت لقومي ولأهل ديني فلم آلُ.

قال المؤرخون: ولما سمع معاوية بهذه الخطبة قال: أصاب ورب الكعبة لئن نحن التقينا لَتميلنَّ الرومُ على ذرارينا ونسائنا، ولتميلن أهل فارس على أهل العراق وذراريهم، وإنما يبصر هذا ذوو الأحلام.

ثم قال لأصحابه: اربطوا المصاحف على رأس القنا، فأصبح أهل الشام وقد ربطوا

المصاحف على رؤوس الرماح ورفعوها، وقلّدوها أعناق الخيل والناس على الرايات قد اشتهوا هذا ودعوا إليه، ونادوا: (يا اهل العراق بيننا وبينكم كتاب الله).

وأرسل أهل الشام رجلاً إلى الخليفة علي، فأتاه وهو يحمل المصحف وينادي: بيننا وبينكم كتاب الله. ويقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾(١).

فقال علي: (نعم أنا أولى بذلك).

وورد أن معاوية أرسل (عبدالله بن عمرو بن العاص) ليكلم أهل الكوفة فقام عبدالله، حتى إذا كان بين الصفين نادى: أنا عبدالله بن عمرو بن العاص، إنها قد كانت بيننا وبينكم امورللدين والدنيا، فإن تكن للدين فقد والله أعذرنا وأعذرتم، وإن تكن للدنيا فقد والله أسرفنا وأسرفتم، وقد دعوناكم إلى أمر لو دعوتمونا إليه لأجبناكم، فإن يجمعنا وإياكم الرضا فذلك من الله، فاغتنموا هذه الفُرجة.

قال في «الإنصاف»: وذهب الأشعث بن قيس إلى معاوية فسأله لأي شيء رفعتم المصاحف؟ قال معاوية: نرجع نحن وأنتم إلى أمر الله في كتابه، فابعثوا منكم رجلاً ترضونه، ونبعث رجلاً ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقنا عليه. فقال الأشعث: هذا هو الحق.

قال المؤرخون: هذه الرواية رواية عراقية لا ذِكرَ فيها لعمرو بن العاص ولا للمخادعة ولا للاحتيال، وإنما الظاهر فيها ان الرغبة في الصلح بدأت من أهل العراق من (الأشعث بن قيس) فأقرها معاوية، ودعا إلى العمل على تطبيقها، وباشر بتنفيذ ذلك حتى تم الصلح.

وفي «مصنف ابن أبي شيبة»، و«مسند أحمد»، أن أمير المؤمنين علياً لما قال للعمل بكتاب الله الذي دعا إليه أهل الشام: (نعم بيننا وبينكم كتاب الله أنا أولى به منكم).

كانت فكرة الصلح هي السائدة عند أهل الكوفة –العراق – وأخيارهم، ولم يعارض ذلك إلا الخوارج (وكانوا يسمون بالقُرَّاء، لأنهم كانوا يبالغون في التدين ثم صار منهم الخوارج) البخاري.

---

(١) آل عمران: ٢٣.

جاؤوا إلى علي وقالوا – وسيوفهم على عواتقهم – ألا نمشي إلى هؤلاء حتى يحكم الله بيننا وبينهم. فقام (سهل بن حنيف الأنصاري) وقال لهؤلاء القراء – الخوارج -: اتهموا رأيكم فقد رأيتنا يوم الحديبية – يوم الصلح الذي كان بين الرسول ﷺ وبين المشركين – ولو نرى قتالاً لقاتلنا، وحدثهم عن معارضة عمر بن الخطاب للصلح ثم نزلت سورة الفتح تشير إلى أن صلح الحديبية كان فتحاً.

فقال علي بن أبي طالب عندما تكلم بذلك (سهل بن حنيف) أيها الناس: إن هذا فتح، فقبلَ عليٌّ القضيةَ ورجع ورجع الناسُ. ثم إن هؤلاء القراء خرجوا إلى حروراء وسميت هذه العصابة بالخوارج، وسميت الخوارج بالحرورية نسبة إلى هذه القرية (حروراء).

قال صاحب «الإنصاف»: وفي هذه الروايات والأحاديث الصحيحة رَدٌّ على دعاة الفتنة، الذين كانوا يظهرون بمظهر المتحمس للحرب وذلك لزرع الفتنة بين المسلمين وهم الذين عصوا علياً يوم الجمل وأنشبوا القتال، كذلك خالفوه يوم صفين وعصوه ولكن لم يتمكنوا من تدبير سبب يختفون وراءه لاستمرار القتال على الرغم من محاولات (الأشتر النخعي) المستميتة لاستمرار القتال وزعم أن أهل الشام لم يستجيبوا للصلح إلا عندما أوشكوا على الهزيمة ولكن الله أخزاه في هذه المرة ففشل في تنفيذ خديعته.وكان سبب فشله أمرين:

الأول: قوة جيش الشام، وخبرة قادته.

الثاني: انكشاف أمر الأشتر وخداعه عند العراقيين، فعندما قال: كيف نجيب إلى الصلح وقد اقتربنا من الظفر، قال له (الأشعث بن قيس): (إنك والله ما رأيت ظفراً) كما روى الطبري.

ومن هنا قال المؤرخون: إن رفع المصاحف في صفين كان عملاً رائعاً، تُوِّجَ باستجابة أمير المؤمنين دون تردد، ولهذا فإن هذا الموقف يعد أهم حدث في صفين لما جرَّ على المسلمين من منافع الصلح وحقن الدماء، الذي أثلج صدور المؤمنين، ووصل كل الجسور والروابط التي قطعها الغوغاء والمنافقون. ولم يكن رفع المصاحف خدعة فعلها عمرو بن العاص كما يزعم الخوارج، الذين كانوا يكرهونه لمعرفته العميقة بهم وبمقاصدهم منذ أن كان والياً على مصر أيام عثمان، لذلك بقي عمرو هدفاً لإشاعتهم وبهتانهم.

ثم يتابع صاحب «الإنصاف» فيقول: عادت ونتيجة لذلك فقد عادة الأمة لصحوتها،

وأنجزت بسرعة وحدتها بعد أن صحت من هول المصاب الذي طعنها به السبئية والغوغاء، ثم بعدها تفرغ علي للخوارج، فتتبَّعهم أولاً بإقامة الحجة عليهم ومن أصر على ضلاله وبغيه جرد فيهم السيف لأنه رأى أنهم الأخطر على الأمة وعلى عقيدتها وعلى خلافته.

قال الصلابي: إن الدعوة إلى التحكيم لكتاب الله عز وجل دون التأكيد على تسليم قتلة عثمان إلى معاوية، وقبول التحكيم من علي دون الطلب للبيعة من معاوية تَطورٌ فرضته أحداث الحرب في صفين التي أحدثت اتجاهاً جماعياً رأى أن وقف القتال وحقن الدماء ضرورة اجتماعية تقتضيها حماية الأمة وصيانة قوتها أمام العدو، وهو دليل على وعي الأمة وحيويتها في اتخاذ القرارات.

قضية التحكيم: بعد موقعة صفين تم الاتفاق بين الفريقين على التحكيم. وهو: (أن يحكم كل واحد منهما رجلاً من جهته ثم يتفق الحكمان على مافيه مصلحة المسلمين).

فوكل معاوية عمرو بن العاص.

ووكل علي أبا موسى الشعري (عبدالله بن قيس الأشعري).

ولما اتفق الطرفان على الحكمين المذكورين، كتبوا كتاب التحكيم أو وثيقة التحكيم، وقد كتبت هذه الوثيقة ليلة الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر صفر سنة ٣٧ هـ.

وقد ورد في هذه الوثيقة ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم.

هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان.

قاضى علي على أهل الكوفة ومن معهم من المؤمنين والمسلمين شاهدهم وغائبهم.

وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم من المؤمنين والمسلمين شاهدهم وغائبهم.

إننا ننزل عند حكم الله وكتابه فيما يحكم به من فاتحته إلى خاتمته، نحيي ما أحيا، ونميت ما امات. على ذلك تقاضينا وبه تراضينا.

وإن علياً ومَنْ معه رضوا بعبد الله بن قيس (أبو موسى الأشعري) ناظراً وحاكماً.

وإن معاوية ومَنْ معه رضوا بعمرو بن العاص ناظراً وحاكماً.

فما وجد الحكمان في كتاب الله عملا به، وما لم يجدا في كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة. لا يتعمدان لها خلافاً، ولا يبغيان فيها بشبهة.

والناس آمنون على أنفسهم وأهاليهم وأموالهم وأولادهم إلى انقضاء الأجل، والسُّبُلُ آمنة، والسلاح موضوع، والغائب من الفريقين مثل الشاهد في الأمر.

وللحكمين أن ينزلا منزلاً عدلاً متوسطاً بين أهل الشام والعراق ولا يحضرهما فيه إلا من أحبَّا عن تراضٍ منهما.

وعلى عبدالله بن قيس (أبي موسى الأشعري). وعمرو بن العاص العهدُ والميثاق أن يحكما بين هذه الأمة ولا يرداها في حرب ولا فرقة.

وأجَّلا القضاء إلى رمضان – انتبهوا إلى هذا – إلى رمضان بدومة الجندل، -وكان هذا الكتاب في صفر كما مر معنا – يعني معهم مهلة سبعة أشهر تقريباً (من صفر إلى رمضان).

وإن أحبا أن يؤخِّرا ذلك أخّراه، أو يُقَدِّما الموعدَ قدّماه.

وإن توفي أحد الحكمين فأمير تلك الفئة يختار غيره ولا يألو من أهل العدل والصلاح.

وإن مات أحد الأميرين قبل انقضاء الأجل المحدود في هذه القضية فلشيعته أن يولّوا مكانه رجلاً يرضون عدله وصلاحه.

وللحكمين الحرية في اختيار من يرضون من الشهود على الوثيقة وهم أنصار على مَنْ ترك مافي هذه الصحيفة، وأراد فيها إلحاداً أو ظلماً. (اللهم إنا نستنصرك على من ترك ما في هذه الصحيفة والسلام).

قال صاحب كتاب «الفتنة»: وشهد على هذه الوثيقة جمع كبير من أصحاب النبي ﷺ منهم: الحسن، والحسين ابنا علي، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن حنيف ابن أبي طالب، والأشعث الكندي، وعبدالله بن خباب بن الأرت، وحبيب بن مسلمة الفهري، وعبدالله بن خالد بن الوليد، أوصل المؤرخون عدد الشهود إلى العشرات..

وبعدما كتبت هذه الوثيقة توقف القتال، وتفرق الناس كُلٌّ إلى دياره، فعاد علي بجيشه إلى الكوفة، وعاد معاوية ومن معه إلى الشام ولكن سرعان ما اشتعلت فتنة جديدة قبل وصول علي إلى الكوفة، إنها الفتنة مع (الخوارج).

قضية التحكيم بين أهل الحق وأهل الضلال:

قال المؤرخون: قضية التحكيم وروايتها دخلها الكثير من الروايات الباطلة والمزيفة، حتى قال صاحب «العواصم من القواصم» ابن العربي: وقد تحكم الناس في التحكيم، فقالوا فيه ما لا يرضاه الله، وإذا لحظتموه بعين المروءة – الدين – رأيتم أنها – أقوال المغرضين – سخافة حمل على سطرها في الكتب في الأكثر، عدم الدين وفي الأقل جهل متين.

ويروي الدارقطني بسند صحيح عن (حضين بن المنذر)، أنه سأل عمرو بن العاص وقال: أخبرني عن الأمر الذي وُلِّيتَ أنت وأبو موسى كيف صنعتما فيه؟ فقال عمرو بن العاص: لقد قال الناس في ذلك ما قالوا، والله ما كان الأمر على ما قالوا، انتبه إلى لهذا الكلام – ياعبدالله– كما يقول صاحب كتاب «الفتنة»، فإنه على لسان عمرو بن العاص يقول: لقد قال الناس في أمر التحكيم ما قالوا، والله ما كان الامر كما قالوا، لكن قلت لأبي موسى: يا أبا موسى، ماترى هذا الأمر؟ فقال أبوموسى: أرى أنه في النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنهم. فقال عمرو بن العاص: فأين تجعلني أنا ومعاوية؟ فقال أبو موسى: إن يُستعنْ بكما ففيكما المعرفة، وإن يُستغنَ عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما!!.

قال الشيخ محمد حسان: هذه الرواية في غاية الأهمية لأنها تبين الكذب الصريح، والباطل الأسود الذي نسج حول قضية التحكيم التي صورت عمرو بن العاص داهية من الدواهي، وصورت أبا موسى الأشعري رجلاً مغفلاً.

وما أجمل قول صاحب «الإنصاف»: إن الروايات المكذوبة عن التحكيم مردودة بكل الموازين لأنَّ الذي أسهم في نشرها هم مبغضو الصحابة الذين حولوا كلمة أبي موسى إلى غباء، وذكاء عمرو بن العاص إلى غدروخديعة.

وهذا لا يُستغرب من أعداء الصحابة السابقين أو اللاحقين، لكن الغريب أن كثيراً من كتبة التاريخ دَوَّنوها ولم ينبهوا إلى بطلانها وزيفها، ورحم الله ابن كثير في تاريخه «البداية والنهاية» حيث قال حين مر على روايات المغرضين الطاعنين في الحكمين قال: ولا يَصحُّ هذا.ابن كثير في «البداية والنهاية» ج٧ ص ٢٩٧.

ولعل التعريف بسيرة هذين الصحابيين الجليلين، يكشف زيغ الروايات المكذوبة التي

أشاعها أعداء الإسلام، وأعداء تلامذة نبي الإسلام.

أبوموسى الأشعري:

قال صاحب كتاب «سيرة أميرالمؤمنين علي»: هو (عبدالله بن قيس) الإمام الكبير، صاحب رسول الله ﷺ أبو موسى الأشعري التميمي، ومن أوسمة الشرف التي وضعها رسول الله ﷺ على صدر أبي موسى ما يلي كما قال الصلابي:

أولاً: هجرته من اليمن مع عدد من قومه، ومعه إخوته في السفينة إلى النجاشي في الحبشة، وهاجر إلى النبي ﷺ إلى المدينة يوم فتحت خيبر، فقال رسول الله ﷺ: «لكم الهجرة مرتين: هاجرتم إلى النجاشي وهاجرتم إليَّ» «صحيح مسلم» ٢٥٠٢.

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقدمُ عليكم غداً قومٌ هم أرقُّ قلوباً للإسلام منكم» فقدم الأشعريون، فلما دنوا جعلوا يرتجزون:

غداً نلقى الأحبة محمـــداً وصحبه

فلما قدموا تصافحوا، فكانوا أول مَنْ أحدث المصافحةَ، اسناده صحيح.

ثانياً: وروى الحاكم في «مستدركه» بسند صحيح عن عياض الأشعري قال: لما نزلت الآية ٥٤ من سورة المائدة وهي قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٤ ﴾ قال النبي ﷺ: «هم قوم: أبوموسى» وأومأ ﷺ إليه.

ثالثاً: وقد دعا له النبي، أو قُلْ خَصَّه بدعاء، وهو قوله ﷺ: «اللهم اغفر لعبدالله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً»، ولهذا الدعاء قصة ذكرها مسلم في «صحيحه» وهي:

فقد روى أبو موسى الأشعري قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من حنين بعث (أبا عامر الأشعري) على جيش أوطاس، فلقي أبو عامر (دريد بن الصِّمَّة) فقتله، فرمى رجلٌ أبا عامر في ركبته بسهم فأثبته. «سير أعلام النبلاء» فقلت – أبو موسى قال: يا عم مَنْ رماك؟ فأشار إليه، فقصدت له، فلحقته، فلما رآني، ولّى ذاهباً، فجعلت أقول له: ألا تستحي؟! ألست عربياً؟! ألا

تثبت؟! قال: فكفَّ فالتقيت أنا وهو، فاختلفنا ضربتين، فقتلته، ثم رجعت إلى أبي عامر، فقلت: قد قتل الله صاحبك، قال: فانزع هذا السهم فنزعه، فنزا منه الماء، فقال: يا ابن أخي، انطلق إلى رسول الله ﷺ فأقرئه مني السلام، وقل له: (يستغفر لي) واستخلفني أبو عامر على الناس، فمكث قليلاً ثم مات.

قال أبوموسى: فلما قدمنا أخبرت النبي ﷺ فتوضأ ثم رفع يديه، وقال: «اللهم اغفر لعبيد ابن أبي عامر» حتى رأيت بياض إبطيه ﷺ. ثم قال ﷺ: «اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك»، قلت: ولي يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «اللهم اغفر لعبدالله بن قيس ذنبه وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً».

رابعاً: وفي «صحيح مسلم» عن أبي موسى الأشعري قال: كنت مع رسول الله ﷺ بالجعرانة – بلد بين مكة والطائف، وهي أقرب إلى مكة – فأتى أعرابي فقال: ألا تنجز لي ما وعدتني؟ قال ﷺ: «أبشر» قال الأعرابي: قد أكثرت من البشرى، فأقبل رسول الله ﷺ عليّ وعلى بلال، فقال ﷺ: «إن هذا قد ردَّ البشرى فاقبلا أنتما»، فقالا: قبلنا يارسول الله، فدعا ﷺ بقدح، فغسل يديه ووجهه فيه، ومجَّ فيه، ثم قال ﷺ: «اشربا منه، وأفرغا على رؤوسكما ونحوركما» ففعلا، فنادت أم سلمة من وراء الستر، أن أفضلا لأمّكما، فأفضلا لها منه. «مسلم ٢٤٩٧».

خامساً: وفي «صحيح مسلم» رقم ٧٩٣: عن ابن بريدة عن أبيه قال: خرجت ليلةً من المسجد، فإذا النبي ﷺ عند باب المسجد قائمٌ، وإذا رجل يصلي فقال لي:(يابريدة أتراه يرائي؟) فقلت: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: «بل هو مؤمنٌ منيب، لقد أُعطيَ مزماراً من مزامير آل داود». فاتيته فإذا هو أبوموسى الأشعري فأخبرته.

وفي «صحيح مسلم» رقم ٢٧٠٤، عن أبي موسى الأشعري قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر، وكان القوم يصعدون ثَنيةً أو عقبة، فإذا أصعدَ الرجلُ قال: لا إله إلا الله، والله أكبر – أحسبه قال بأعلى صوته– ورسول الله ﷺ على بغلته يعترضُها في الجبل، فقال ﷺ: «أيها الناس، إنكم لا تنادون أصم ولا غائباً»، ثم قال: «يا عبدالله بن قيس – أو يا أبا موسى – ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: قل لا حول ولا قوة إلا بالله».

سادساً: استعمله رسول الله ﷺ على زَبيد وعَدَنْ حين أرسله مع معاذ إلى اليمن، فقد ورد

عن أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ لما بعثه ومعاذاً إلى اليمن وقال لهما: «يسّرا ولا تعسرا وتطاوعا ولا تنفرا»، فقال له أبو موسى: إن لنا بأرضنا شراباً، يُصنع من العسل يقال له البِتْعُ، ومن الشعير يقال له المِزْر، فقال ﷺ: «كلُّ مسكر حرام».

قال أبو موسى: فقال لي معاذ: كيف تقرأ القرأن؟ قلت: أقرأه في صلاتي وعلى راحلتي، وقائماً وقاعداً أتفوقه تفوقاً – يعني شيئاً بعد شيء –، قال: فقال معاذ: لكني أنام ثم أقوم، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي، قال: وكأن معاذاً فُضِّلَ عليه.

مكانته عند عمر:

استعمله عمر بعد النبي ﷺ والياً على البصرة، وبقي والياً عليها إلى أن قتل عمر، فاستعمله عثمان على البصرة ثم الكوفة، وبقي والياً على الكوفة حتى قتل عثمان، فأقره علي والياً على الكوفة، فهل يتصور أن يثق رسول الله ﷺ ثم خلفاؤه من بعده برجل يمكن أن تمرَّ عليه مثل خدعة التحكيم التي يرويها كذباً أهل الأهواء، وهل يمكن أن يقال عنه: إنه مغفل.

وذكر الشعبي أن عمر كتب في وصيته: ألا يُقرَّ لي عاملٌ أكثر من سنة وأقروا الأشعري أربع سنين.

وروى الفسوي – قال عنه صاحب كتاب الفتنة – الإمام الثقة الكبير، عن أبي البختري الكوفي قال: أتينا علياً فسألناه عن أصحاب محمد ﷺ قال علي: فعن أيِّهم تسألوني؟ قلنا: نسألك عن أبي موسى، قال عليٌ: صُبِغَ في العلم صبغةً.

وقال مسروق: انتهى القضاء في أصحاب النبي ﷺ إلى ستة وهم: [عمر، وعلي، وابن مسعود، وأُبيّ، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري].

وقال الأسود بن يزيد: لم أر بالكوفة أعلم من علي وأبي موسى.

وقال صفوان بن سليم الزهري من فقهاء التابعين: لم يكن يفتي في زمن النبي ﷺ غير هؤلاء: [عمر، وعلي، ومعاذ، وأبوموسى].

وروى الزبير بن الخرِّيت عن أبي عبيد – سعد بن عبيد الزهري تابعي – قال: ما كنا نُشبِّه كلام أبي موسى إلا بالجزار الذي لا يخطئ المِفْصل.

وقد ثبت أن أبا موسى كان ممن حفظ القرآن كله على عهد رسول الله ﷺ، وكان من

المشهورين في تعليمه للناس. وكان قد جعل مسجد البصرة مركز نشاطه العلمي، وخصص جزءاً كبيراً من وقته لمجالسه العلمية، فإذا ما سلَّم من الصلاة استقبل الناس وأخذ يعلمهم، ويضبط لهم قراءتهم للقرآن الكريم.

قال ابن شوذب: كان أبوموسى إذا صلى الصبح استقبل الصفوف رجلاً رجلاً يقرئهم، وعُرف بحسن قراءته، وجمال صوته، فكان الناس يجتمعون عليه إذا سمعوه يقرأ، وكان عمر بن الخطاب إذا جلس عنده أبوموسى طلب منه أن يقرأ له ما تيسر من القرآن، وازدحم عليه الطلاب في مسجد البصرة، فقسمهم إلى مجموعات وحلقٍ، فكان يطوف عليهم ويسمعهم ويستمع منهم، ويضبط لهم قراءتهم.

وكان القرآن شغله الشاغل في سفره وفي حِلِّه، فقد ورد عن أنس بن مالك قال: بعثني الأشعري إلى عمر، فقال عمر لي: كيف تركت الأشعري؟ فقلت له: تركته يعلم الناس القرآن، فقال عمر: أما إنه كيّس – عاقل فطن– ولا تُسمِعها إياه.

قال المؤرخون: حتى عندما كان يخرج إلى الجهاد، كان يعلِّم ويفقه، فقد ورد عن حطاب بن عبدالله الرقاشي قال: كنا مع أبي موسى في جيشٍ على ساحل دجلة؛ إذ حضرت الصلاة، فنادى مناديه للظهر فقام الناس للوضوء، ثم صلى بهم بعدما توضأ، ثم جلسوا حِلقاً، فلما حضرت العصر، نادى منادي العصر، فهبَّ الناس للوضوء – أيضاً – فأمر مناديه أن يقول: لا وضوء إلا على مَنْ أحدث.

قال صاحب كتاب «سير أعلام النبلاء»: وأثمرت جهود أبي موسى العلمية، وقرَّت عينه برؤية عددٍ كبير حوله من حفاظ القرآن الكريم وعلمائه زاد عددهم في البصرة وحدها على ثلاثمائة.

وقد ذكر الشيخ عبدالحميد طهماز رحمه الله تعالى: أن أنس بن مالك الذي كان خادم النبي ﷺ كان مقرباً من أبي موسى الأشعري، بل كان يعتبر من خواصه، فقد ورد عن ثابت بن أنس قال: كنا مع أبي موسى في مسير، والناس يتكلمون ويذكرون الدنيا، فقال أبو موسى: يا أنس، إن هؤلاء يكاد أحدهم يفري الأديمَ بلسانه فرياً، فتعال فلنذكر ربنا ساعة، ثم قال أبو موسى: ما ثبر الناس – أي ما بطأهم –؟ قلت: الدنيا والشيطان والشهوات، قال أبو موسى: لا، لكن عُجلتْ

الدنيا، وغُيبت الآخرة، أما والله لو عاينوها ما عَدَلوا ولا بدلوا «ظهماز في كتابه «الخادم الأمين» ١٣٥».

وفي كتاب «مناقب عمر» لابن الجوزي قال: وقد جرت العديد من المراسلات بين أبي موسى الأشعري وعمر بن الخطاب في مختلف القضايا، وقد تولى منصب القضاء في عهد عمر، وكان كتاب عمر له في القضاء نموذجاً يفيد كلَّ قاض، بل وكلَّ إداري في كل زمان ومكان، وقال عنه – عن كتاب العقاد – وهذا كتاب جليل تلقاه العلماء بالقبول، وبنوا عليه أصول الحكم والشهادة، والمفتي أحوج شيء إليه وإلى تأمله والتفقه فيه – «إعلام الموقعين» ١/ ١٨٦.

ومن أجمل الرسائل التي بعثها عمر لأبي موسى رسالة يوجهه فيها إلى كيفية استقباله للناس في مجالس الإمارة، ورسالة في نصيحة له تأمره بالورع ومحاولة إسعاد الرعية، وهي قَيِّمة قال فيها عمر لأبي موسى:

أما بعد: فإن أسعد الناس من سَعدتْ به رعيته، وإن أشقى الناس من شقيت به رعيته، وإياك أن ترتع فيرتع عمالك، فيكون مثلك عند ذلك مثل البهيمة نظرت إلى خُضرة الأرض فرتعت تبغي السِّمنَ، وإنما حتفها في سمنها. «مناقب عمر» لابن الجوزي ص ١٣٠، وقد جمع هذه المراسلات محمد حميد الله في كتابه القيم «الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة».

بعد هذا الاستعراض لحياة أبي موسى حيث اعتمد عليه رسول الله ﷺ ثم الخلفاء الأربعة من بعده، فهل يُتصوَّر – كما قال الصلابي – أن تمر عليه مثل خدعة التحكيم التي يرويها المغرضون في قضية التحكيم كذباً وزوراً.

عمرو بن العاص:

هو عمرو بن العاص بن وائل السهمي، يكنى أبا محمد، وأبا عبدالله.

إسلامه: قصة إسلامه قصة جميلة، أحببتُ أن أذكرها لما فيها من الدروس، فتعالوا نستمع إليه رضي الله عنه يحدثنا هو كيف أسلم، ومتى دخل الإسلام قلبه، قال رضي الله عنه: لما كانت غزوة الأحزاب، وانصرفنا منها، – وهي غزوة الخندق وكان عمرو لم يُسلم، وإنما كان في صف قريش، ثم خذلهم الله.. جمعتُ رجالاً من قومي من وجوه قريش، وكانوا يسمعون مني فقلت لهم: تعلمون والله إني أرى أمر محمدٍ ﷺ يعلو الأمور علواً منكراً، وإني رأيت أمراً، فما ترون فيه، قالوا: وماذا رأيت؟

قال: رأيت ان نلحق بالنجاشي، فإنا أن نكون تحت يديه أحبُّ إلينا أن نكون تحت يدي محمد، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا، فلن يأتينا منهم إلا خيراً، قالوا: إن هذا الرأي، قلت: فاجمعوا لنا ما نهديه له، وكان أحبَّ مايهدى إليه من أرضنا الأُدْمُ. فجمعنا له أُدماً كثيراً، ثم خرجنا إلى الحبشة حتى قدمنا عليه، فوالله إنا لعنده إذ جاءه (عمرو بن أمية الضمري) وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن (جعفر بن أبي طالب وأصحابه)، قال: فدخل عليه – أي عمرو بن أمية الضمري دخل على النجاشي – ثم خرج من عنده.

قال عمرو بن العاص: فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية الضمري لو دخلت على النجاشي وسألته إياه فأعطانيه، فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك رأت قريشٌ أني أجزأت عنها – أي كَفيتُها – حيث قتلتُ رسولَ محمد ﷺ، قال: فدخلت عليه، فسجدت له كما كنتُ أصنع، فقال – أي النجاشي –: مرحباً صديقي، أهديتَ إلي من بلادك شيئاً؟ قال عمرو: نعم أيها الملك، قد أهديت إليك أُدْماً كثيراً، قال: ثم قربته إليه فأعجبه واشتهاه، ثم قلت له: أيها الملك: إني رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسولُ رجلٍ عدوٍّ لنا، فأعطِنيهِ لأقتله، فإنه قد أصاب من خيارنا وأشرافنا.

قال: فغضب النجاشي، ثم مدّ يده فضرب بها أنفه ضربةً ظننتُ أنه قد كسره، فلو انشقت لي الأرض فدخلت فيها فَرَقاً منه، ثم قلت له: أيها الملك، والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتُكَهُ.

قال النجاشي: «أتسألني أن أعطيك رسول رجلٍ يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله؟ «قال: قلت: أيها الملك أكذلك هو؟ قال: ويحكَ يا عمرو أطعني واتبعه، فإنه والله لعلى الحق، وليظهرنَّ على مَنْ خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده.

قال عمرو: قلت: أفتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم، فبسط – النجاشي – يده فبايعته على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابي، وقد تغير رأيي عما كان عليه، وكتمت على أصحابي إسلامي.

ثم خرجت عامداً إلى رسول الله ﷺ لأسلم، فلقيت خالد بن الوليد،– وذلك قبل فتح مكة – وهو مقبل من مكة فقلت له: أين يا أبا سليمان؟ قال: والله لقد استقام المَنْسِمُ – أي تَبيَّنَ

طريق الحق ووضحَ – وإن الرجل لنبيٌّ، أذهبُ والله فأُسلِمُ، فحتى متى؟ قال عمرو: قلت: والله ما جئت إلا لأسلم، فقدمنا المدينة على رسول الله ﷺ فتقدم خالد فأسلم وبايع، ثم دنوت فقلت: يارسول الله إني أبايعك على أن يغفر لي ماتقدم من ذنبي، ولا أذكر ما تأخر، قال: فقال ﷺ: «ياعمرو بايع، فإن الإسلام يجبُّ ما قبله، وإن الهجرة تجبُّ ما كان قبلها»، فبايعته ثم انصرفت.

وفي رواية في «صحيح مسلم» – كتاب الإيمان – قال عمرو: فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط ﷺ يمينه، قال عمرو: فقبضتُ يدي، قال ﷺ: «مالك يا عمرو؟» قال: قلت: أردتُ أن أشترطُ، قال ﷺ: «تشترط بماذا؟»، قلت: أن يُغفرَ لي، فقال ﷺ: «أما علمتَ أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله».

قال المؤرخون: وكما كان لأبي موسى فضائل وأوسمة شرفٍ من رسول الله ﷺ، كذلك كان لعمرو بن العاص فضائل وأوسمة شرفٍ من رسول الله ﷺ، فمن ذلك:

أولاً: شهادة رسول الله ﷺ له بالإيمان:

فقد روى الإمام أحمد، والترمذي بسند صحيح عن عقبة بن عامر أن النبي ﷺ قال: (أسلم الناسُ، وآمن عمرو بن العاص)، هذه شهادة من رسول الله ﷺ.

وفي مسند أحمد من حديث أبي هريرة بسندٍ حسن أن النبي ﷺ قال: «ابنا العاص مؤمنان عمرو وهشام».

وعند أحمد والترمذي من حديث طلحة بن عبيد الله أنه ﷺ قال: «عمرو بن العاص من صالحي قريش»، وهذا درس منه ﷺ لمعرفة صالحي الرجال.

وفي مسند أحمد بسند حسن، أن عمرو بن العاص قال: فزع الناس بالمدينة مع النبي ﷺ فتفرقوا، فرأيت سالماً احتبى سيفه فجلس في المسجد، فلما رأيت ذلك فعلت مثل الذي فعل – سالم – فخرج رسول الله ﷺ فرآني وسالماً، وأتى الناس فقال ﷺ: «أيها الناس ألا مَفزعكم إلى الله ورسوله، ألا فعلتم كما فعل هذان الرجلان».

ثانياً: ومن ذلك دعاء رسول الله ﷺ له: فعن زهير بن قيس البلوي، عن عمه علقمة بن رمثة البلوي قال: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص على البحرين، ثم نعس رسول الله ﷺ ثم

استيقظ فقال: «رحم الله عمراً»، فتذاكرنا مَنْ اسمه عمرو، ثم نعس ﷺ ثانية فاستيقظ فقال: «رحم الله عمراً»، ثم نعس ثالثة فاستيقظ، فقال: «رحم الله عمراً»، قلنا: مَنْ عمرو يارسول الله؟ قال ﷺ: «عمرو بن العاص»، قلنا: وما بَالُه؟ قال ﷺ: «ذكرته، إني كنت ندبت الناس للصدقة، جاء من الصدقة ما أجزل، فأقول: من أين لك هذا يا عمرو؟ فيقول: من عند الله، وصدق عمرو، أنَّ لعمرو عند الله لخيراً كثيراً».

قال زهير البلوي راوي الحديث، فلما كانت الفتنة قلت: أَتبعُ هذا، قال فيه رسول الله ﷺ ما قال، فلم أفارقه. المستدرك صحيح.

وفي مسند أحمد بسند فيه انقطاع، ولكن له شواهد كما ذكر صاحب (الفتنة) من حديث طلحة بن عبيدالله عن النبي ﷺ قال: (نعم أهل البيت عبدالله – أي عبدالله بن عمرو بن العاص – وأبوعبدالله وأم عبدالله).

ثالثاً: وهو قائد سرية (ذات السلاسل) سنة ٧ هـ:

جهز النبي ﷺ جيشاً بقيادة عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل لتأديب قبيلة قضاعة التي كانت قد وقفت إلى جانب الروم في غزوة مؤتة، وحاولت مهاجمة المدينة، فتقدم عمرو بن العاص في ديار قضاعة ومعه ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار، وأمدَّه رسول الله ﷺ بمدد عليه أبوعبيدة، فتقدم عمرو ونجح في إعادة هيبة المسلمين لأطراف الشام.

قال الصلابي: وفي هذه السرية دروس وعِبر تتعلق بعمرو بن العاص، منها:

١ – إخلاص عمرو بن العاص: يقول عمرو: بعث إليَّ رسول الله ﷺ يوماً فقال: «خذ عليك ثيابك وسلاحك، ثم ائتني»، فأتيته ﷺ وهو يتوضأ، فصعَّد فيّ النظر، ثم طأطأ، فقال: «إني أريد أن أبعثك على جيش، فيسلّمك الله ويُغنِمَكَ، وأرغب لك في المال رغبةً صالحة»، قال: قلت يارسول الله، ما أسلمتُ من أجل المال، ولكنني أسلمت رغبة في الإسلام، وأن أكون مع رسول الله ﷺ، قال ﷺ: «نِعْمَ المالُ الصالح للمرءِ الصالح».

فهذا يدل على صدق إيمان عمرو وإخلاصه، وحرصه على ملازمة النبي ﷺ كما قال الصلابي.

٢ – وتلمس من عمرو حرصه على سلامة جيشه، فلما بعثه النبي ﷺ في غزوة ذات

السلاسل، فأصابهم بردٌ، فقال عمرو لجنوده: لا يوقدن أحدٌ نارا، فلما رجعوا شكوا ذلك للنبي ﷺ، فقال عمرو: يا نبي الله، كان فيهم قلةٌ، فخشيتُ أن يرى العدو قلتهم، ونهيتُهم أن يتبعوا العدوَّ مخافة أن يكون لهم كمين، فأعجب ذلك رسول الله ﷺ كما قال صاحب (سير أعلام النبلاء).

٣ – وفي هذه الغزوة ظهر فقه عمرو بن العاص، ولم يمض على إسلامه أكثر من أربعة أشهر، وفي هذا يقول عمرو: احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيمَّمتُ، ثم صليت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال ﷺ: «ياعمرو، صليت بأصحابك وأنت جنبٌ؟» فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال، وقلت: إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ٢٩﴾[(١)]، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً.

قال الصلابي عند تعليقه على هذه الحادثة: وهذا الاجتهاد من عمرو بن العاص يدل على فقهه ووفور عقله، ودقة استنباطه الحكم من دليله، والذي يستوقفنا في هذه الحادثة تلك السرعة في أخذ عمرو للقرآن وصِلَته به، حتى بات قادراً على فقه الأمور من خلال الآيات، ولم يمض على إسلامه أربعة أشهر.

٤ – وقد ذكر ابن عساكر، والطبراني في «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر كما نقل الشيخ محمد حسان في كتاب «الفتنة» قال:

قال قبيصة بن جابر، وهو من الطبقة الأولى من الصحابة: صحبت عمرو بن العاص فما وجدت رجلاً أبين أو أنصح رأياً، ولا أكرم جليساً منه، ولا أشبه سريرة بعلانيةٍ منه، وهذه شهادة له.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «فتاواه» ج٣٥: إن أحداً من السلف لم يتهم عمرو بن العاص، ومعاوية بنفاق أو خداع، فعمرو بن العاص وأمثاله ممن قدم مهاجراً إلى النبي ﷺ بعد الحديبية، هاجروا إليه ﷺ طوعاً لا كرهاً من بلادهم، والمهاجرون لم يكن فيهم منافق، وإنما كان النفاق في بعض أهل المدينة.

---

(١) النساء: ٢٩.

أعمال عمرو بن العاص في عهد الصديق وعمر وعثمان:

قال ابن سعد في «طبقاته»: كان رسول الله ﷺ قد بعث عمراً إلى دعوة ابني الجلندي (جيفر وعباد) إلى الإسلام، فدعاهما عمرو، فصدقا بالنبي ﷺ، ولم يَريَاهُ، وهما ولدا حاكم عمان الجلندي، وكان عوناً لعمرو على من خالفه، وبعد وفاة النبي ﷺ، وجَّه الصديق عمرو بن العاص بجيش إلى فلسطين وخَيَّره الصديق بين البقاء على عمله الذي أسنده إليه رسول الله ﷺ وبين ان يختار له ما هو خير له في الدنيا والآخرة. إلا أن الذي هو فيه أحب إليه، فكتب إليه عمرو بن العاص:

إني سهم من سهام الإسلام، وأنت بعد الله الرامي بها، والجامع لها، فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم به.

فلما قدم عمرو المدينة أمره أبو بكر أن يخرج خارج المدينة، وأن يعسكر حتى يندب معه الناس، ثم أرسله بجيش إلى بلاد الشام.

وفي معركة اليرموك كان على الميمنة، وكان له أثر في انتصار المسلمين، وبعد وفاة الصديق، استمر في المشاركة الفعالة في حركة الفتح الإسلامي في الشام، وشارك شرحبيل بن حسنة في فتح بيسان، وطبرية، وأجنادين، ثم قام بفتح غزة، واللد، ويبنى، وعمواس، وبيت جبرين، ويافا ورفح، وبيت المقدس.

ثم أمر الخليفة (عمر بن الخطاب) بالسير إلى مصر بمن معه من الجند، فخرج حتى وصل إلى العريش ففتحها، ثم فتح الفَرْما، والفسطاط، وحصن بابليون، وعين شمس، والفيوم، والأشمونين، وأخميم، والبشرود، وتنيس، ودمياط، وتونه، ودقهلة، والاسكندرية، ثم تابع الفتوح في البلاد الأفريقية ففتح: برقة، وزويلة، وطرابلس.

وقد شهد له الفاروق بصفات الإمامة والقيادة فقال: (ما ينبغي لأبي عبد الله – عمرو بن العاص – أن يمشي على الأرض إلا أميراً).

أما في عهد الخليفة (عثمان بن عفان)، فكان مقرباً عنده، ومن أهل مشاورته، ولما أُحيطَ بعثمان خرج عمرو بن العاص متوجهاً إلى الشام وقال: (والله يا أهل المدينة لا يقيم بها أحد فيدركه قتلُ هذا الرجل إلا ضربه الله بذل، ومن لم يستطع نصره فليهربْ، فسار إلى الشام وسار

معه ولداه عبدالله ومحمد، وخرج بعده حسان بن ثابت.

وعندما جاءه الخبر بمقتل عثمان، ومبايعة علي قال عمرو بن العاص: رحم الله عثمان، وغفر له، فقال (سلامة بن زنباع الجذامي): يا معشر العرب، إنه قد كان بينكم وبين العرب فاتَّخِذوا باباً إذا كسر الباب. فقال عمرو بن العاص: وذاك الذي نريد، ولا يصلح الباب إلا أشافٍ – جمع أشفى وهو المثقب –، تخرج الحق من حافرة البأس، ويكون الناس في العدل سواء، ثم تمثل بأبيات من الشعر يرثي بها عثمان، ثم ارتحل راجلاً يبكي على عثمان ويقول: واعثماناه؛ أنعي الحياء والدين، حتى قدم دمشق.

قال الغضبان في كتابه «عمرو بن العاص» ونقل عنه الصلابي: هذه هي الصورة الصادقة عن عمرو بن العاص، وعن حياته كلها، أما الصورة التي تصوره طالب دنيا، وصاحب مطامع فهي الرواية المتروكة الضعيفة التي ردها المحققون، وهي: «رواية الواقدي عن موسى بن يعقوب».

فاعلم – ياعبدالله – ذلك، واعلم أن مجموعة من الكتاب المتأخرين تأثروا بالروايات الضعيفة، ومنهم العقاد الذي تعالى عن النظر إلى الإسناد، واستخفَّ بمن ينظر في صحة الرواية ولو أجمع النقاد على صحتها، فصور عمرو بن العاص على أنه صاحب مصلحة.

فتنة ظهور الخوارج:

قال المؤرخون: المقصود بالخوارج، فرقة خرجت من جيش علي رضي الله عنه وفارقوه عند رجوعه من صفين وقبوله بالتحكم، وانطلقوا يرددون (لا حكم إلا لله)، مقررين أنه لا يجوز العدول عن حكم الله إلى حكم الرجال (أي الحكمين). ونزلوا أرضاً يقال لها (حروراء)، والاسم مأخوذ من (الريح الحرور)، وهي قرية قريبة من الكوفة، على بعد ميلين منها، نزل بها هؤلاء الخوارج الذين خرجوا من جيش علي لقبوله بالتحكيم وسُمُّوا (الحرورية) نسبة إلى ذلك المكان حروراء.

قالوا لأمير المؤمنين: انسلخت من قميص أَلبسَكَهُ الله، واسمٍ سَمَّاكَ به الله، ثم انطلقتَ فحكَّمت الرجال في دين الله (لا حكم إلا لله).

وفي صحيح مسلم، أن هؤلاء الخوارج أنكروا عليه يوماً التحكيم وهو في المسجد فقالوا:

(لا حكم إلا لله)، فأجابهم رضي الله عنه: (كلمةُ حق أُريد بها باطل).

قال صاحب كتاب «تحقيق مواقف الصحابة»: وقد أراد علي رضي الله عنه أن يبين سطحية تفكيرهم ورداءة عقولهم كما جاء في وصف النبي ﷺ لهم قبل ظهورهم بقوله عليه الصلاة والسلام: (سفهاء الأحلام)، فجمع علي الناس، ونادى مناديه: (ألا يدخل عليه رجل إلا رجلاً قد حمل القرآن)، فلما امتلأت الدار من قراء الناس، دعا بمصحف عظيم فوضعه بين يديه، وجعل يَعكُّه ويقول: أيها المصحف: حَدِّثِ الناس، فقال الناس: ماهذا إنسان، إنما هو مداد وورق، ونحن نتكلم بما روينا منه، فماذا تريد؟

قال: (هؤلاء الذين خرجوا من بينكم، بيني وبينهم كتاب الله تعالى، يقول الله تعالى في كتابه في امرأة ورجل: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴿٣٥﴾ ﴾[1].

وأمة محمد أعظم من قضية امرأة ورجل دماً وحرمةً.

قال الصلابي: وكان علي رضي الله عنه حريصاً على إرجاعهم إلى جماعة المسلمين لأنهم انفردوا فعينوا أميراً لهم للصلاة، وآخر للقتال...

وأن البيعة لله مما يعني انفصالهم عن جماعة المسلمين.

من هنا حرص علي إلى إعادتهم فأرسل إليهم عبدالله بن عباس لمناظرتهم، وهاهو ابن عباس يروي لنا بلسانه دخوله عليهم ومناظرته لهم..فيقول: خرجت إليهم، ولبست أحسن ما يكون من حلل اليمن، وترجلت ودخلت عليهم في دار في نصف النهار – وكان ابن عباس رجلاً جميلاً جهيراً – فقالوا: مرحباً بك يا ابن عباس، ما هذه الحلة؟ قال: ما تعيبون علي؟ لقد رأيت على رسول الله ﷺ أحسن ما يكون من الحلل، ونزلت الآية: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴿٣٢﴾ ﴾[2].

قالوا: فما جاء بك؟ قال: قد أتيتكم من عند صحابة النبي ﷺ من المهاجرين والأنصار، من عند ابن عم النبي ﷺ وصهره، وعليهم نزل القرآن، فهم أعلم بتأويله منكم، وليس فيكم

(١) النساء: ٣٥.

(٢) الأعراف: ٣٢.

منهم أحد لأبلغكم ما يقولون، وأُبلِّغهم ما تقولون، فانتحى لي نفر منهم، قلت: هاتوا ما نقمتم على أصحاب رسول الله ﷺ وابن عمه.

قالوا: ثلاثاً. قلت: ما هن؟ قالوا: أما إحداهن: فإنه حكم الرجال في أمر الله، والله يقول: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۝٥٧﴾[1] ما شأن الرجال والحكم؟ قلت: هذه واحدة.

قالوا: وأما الثانية: فإنه قاتل ولم يَسْبِ ولم يَغنمْ، فإن كانوا كفاراً فقد حلَّ سبيهم، ولئن كانوا مؤمنين ماحل سبيهم ولا قتلهم.

قلت: هذه اثنتان، فما الثالثة؟

قالوا: محا نفسه من أمير المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين.

قلت: هل عندكم شيء غير هذا؟ قالوا: حسبنا هذا.

قلت لهم: أرأيتكم إن قرأت عليكم من كتاب الله – جلَّ ثناؤه – وسنة نبيه ﷺ ما يَردُّ قولكم أترجعون؟ قالوا: نعم. قلت: أما قولكم: حكم الرجال في أمر الله، فإني أقرأ عليكم من كتاب الله تعالى أن قد صير الله حكمه إلى الرجال في حكم صيدٍ ثمنه ربع درهم، فأمر الله تعالى أن يحكموا فيه، أرأيتم قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ... ۝٩٥﴾[2].

وكان من حكم الرجال، أنشدكم بالله: أحكمُ الرجال في صلاح ذات البين، وحقْنِ دمائهم أفضلُ، أو في أرنب؟ قالوا: بلى، بل هذا أفضل.

قلت: وفي المرأة وزوجها يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ ۝٣٥﴾[3].

فنشدتكم بالله: حكم الرجال في صلاح ذات البين بينهم وحقن دمائهم أفضل من حكمهم في بُضْعِ امرأة، أَخرجتُ من هذه؟ قالوا: نعم.

---

(١) الأنعام: ٥٧.

(٢) المائدة: ٩٥.

(٣) النساء: ٣٥.

قلت: وأما قولكم: قاتَلَ ولم يَسْبُ ولم يغنم، أفتسبون أُمُّكم عائشة، تَستحلُّون منها ما تستحلون من غيرها وهي أمكم؟ فإن قلتم: إنا نستحل منها ما نَسْتحلُّ من غيرها، فقد كفرتم.

وإن قلتم ليست بأمنا فقد كفرتم، فقد قال الله تعالى: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ ﴿٦﴾ ﴾[1]، فأنتم بين ضلالتين، فأتوا منها بمخرج، أفخرجت من هذه؟ قالوا: نعم.

فقال ابن عباس: وأما محي نفسه من أمير المؤمنين، فأنا آتيكم بما ترضون.

إن نبي الله ﷺ يوم الحديبية صالح المشركين، فقال ﷺ لعلي: «اكتب يا علي: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ».

فقال المشركون: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناكَ، فقال ﷺ: «امح يا علي: اللهم إنك تعلم أني رسولُ الله، امح يا علي واكتب: هذا ما ما صالح عليه محمد بن عبدالله..».

والله لرسولُ الله ﷺ خير من علي، وقد محا نفسه، ولم يكن محوه نفسه ذلك محاةً من النبوة، أَخرجتُ من هذه؟ قالوا: نعم، فرجع منهم ألفان إلى الحق، وخرج بقيتهم، فقتلوا على ضلالتهم. قتلهم المهاجرون والأنصار. النسائي بإسناد حسن.

قال المؤرخون: بعد مناظرة ابن عباس للخوارج استجاب له ألفان ثم دخل الجميع الكوفة، ولما جاء يوم الجمعة خطب علي خطبة الجمعة فذكر الخوارج وذكر مفارقتهم وأمرهم الذي فارقوه فيه..

وجاء في رواية، أن رجلاً قام فقال: لا حكم إلا لله، ثم قام آخر فقال: لا حكم إلا لله. ثم قاموا نواحي المسجد يُحكِّمون الله فأشار علي عليهم بيده: اجلسوا، نعم لا حكم إلا لله، كلمة حق يُبتغى بها باطل، حكمَ الله أنتظرُ فيكم. وأخذ يسكتُهم بالإشارة وهو على المنبر، فقام رجل منهم واضعاً إصبعيه في أذنيه ويقول: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾[2].

فرد عليه أمير المؤمنين علي بقوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا

---

(١) الأحزاب: ٦.

(٢) الزمر: ٦٥.

يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[1].

ثم أعلن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سياسته العادلة الحكيمة اتجاه هذه الفئة المنحرفة فقال لهم: إن لكم عندنا ثلاثاً:

١ – لا نمنعكم صلاة في هذا المسجد.

٢ – ولا نمنعكم نصيبكم من هذا الفيء ما كانت أيديكم مع أيدينا.

٣ – ولا نقاتلكم حتى تقاتلونا.

وهكذا سلم لهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بهذه الحقوق ما داموا لم يقاتلوا الخليفة ولم يخرجوا على جماعة المسلمين، ولهم الاحتفاظ بتصوراتهم الخاصة في إطار العقيدة الإسلامية – كما قال الصلابي – فعلي لم يُخرجهم من الإسلام، وإنما سلم لهم حق الاختلاف الذي لا يؤدي إلى الفرقة وحمل السلاح، فلم يسجنهم، ولم يحجر على حرياتهم، ولم يتجسس عليهم، وإنما حرص على إقامة الحجة عليهم وإظهار الحق لهم ولغيرهم، حتى لا ينخدع الناس بأقوالهم.

قال المؤرخون: لما أيقن الخوارج أن علياً مصرٌّ على قبول التحكيم، وأنه سيرسل أبا موسى الأشعري لهذا الأمر، طلبوا منه الامتناع عن ذلك، فرفض طلبهم، وبين لهم أن هذا يعد نقضاً وغدراً. وقد كتبنا بيننا وبين القوم عهوداً.

وقد قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴿٩١﴾ ﴾[2].

قرر الخوارج الانفصال عن أمير المؤمنين علي، وتعيين أمير لهم، فاجتمعوا في منزل (عبدالله بن وهب الراسبي)، فخطبهم خطبة بليغة زهَّدهم في الدنيا، ورغبهم في الآخرة والجنة، وحَثَّهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان مما قال: (فاخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها إلى جانب هذا السواد إلى بعض كُوَرِ الجبال أو بعض هذه المدائن مُنكرين لهذه الأحكام الجائرة).

---

(١) الروم: ٦٠.

(٢) النحل: ٩١.

ثم قام أحد زعمائهم وهو (حرقوص بن زهير) فقال بعد حمد الله والثناء عليه: (إن المتاع بهذه الدنيا قليل، وإن الفراق لها وشيك، فلا تدعوَنَّكم زينتُها أو بهجتها إلى المقام بها، ولا تلتفت بكم عن طلب الحق وإنكار الظلم). ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾(١).

ثم تكلم أحد رؤوسهم وهو (حمزة بن سنان الأسدي) فقال: ياقوم، إن الرأي ما رأيتم، وإن الحق ما ذكرتم، فولُّوا أمركم رجلاً منكم.. فبعثوا إلى (زيد بن حصن الطائي) فعرضوا عليه الإمارة فأبى، ثم علي (شريح العبسي) فأبى، وعرضوها على (عبدالله بن وهب الراسبي) فقبلها وقال: أما والله لا اقبلها رغبة في الدنيا، ولا أَدَعُها خوفاً من الموت.

ثم اجتمعوا مرة أخرى في بيت (زيد بن حصن الطائي) فخطبهم وقال حَاثّاً لهم على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾(٢).

ثم قال: فأُشْهِدُ على أهل دعوتنا، من أهل قبلتنا، أنهم اتبعوا الهوى، ونبذوا حكم الكتاب، وجاروا في الأقوال والأعمال، وإن جهادهم حق على المؤمنين، ثم قال: اضربوا وجوههم وجباههم بالسيوف حتى يطاع الرحمن الرحيم.

وما أجمل تعليق ابن كثير بعد ان ذكر كلامهم حيث يقول: وهذا ضرب من الناس من أغرب الأشكال في بني آدم.

وما أحسن ما قال بعض السلف في الخوارج: إنهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾(٣).

قال الطبري: لكن هؤلاء الخوارج أجمعوا على الخروج، فقال لهم (زيد بن حصين الطائي): إنكم إن خرجتم مجتمعين أُتبعتم، ولكن اخرجوا آحاداً مستخفين، فأما المدائن فإن بها من يمنعكم – أي من دخولها – ولكن سيروا إلى جسر النهروان حتى تنزلوا هناك، وتُكاتِبوا

---

(١) النحل: ١٢٨.

(٢) ص: ٢٦ .

(٣) الكهف: ١٠٣-١٠٤.

إخوانكم من أهل البصرة، قالوا: هذا هو الرأي.

والنهروان: كورةٌ واسعة بين بغداد وواسط، وكان من أجمل نواحي بغداد، وأكثرها جمالاً ودخلاً، وأبهاها منظراً، والفرس هي التي حفرت النهروان، وكان اسمه عندهم نهرواناً ومعناه: إن قلَّ ماؤه عطش أهله، وإن كثر غرقوا.

خرج هؤلاء يتسللون إلى النهروان، وكتبوا إلى مَنْ هم على رأيهم في البصرة وغيرها ليوافوهم في النهروان، فاجتمعوا في هذا المكان، وصارت لهم شوكة ومنعة، وكانوا أشداء.

قال المؤرخون: ولما اجتمع أمرهم بدؤوا بارتكاب المحظورات، واستباحوا دماء وأموال من خالفهم، وقد كثرت الروايات التي تعدد مخالفاتهم ولكن نكتفي بحادثة واحدة يرويها (شاهد عيان)، كان منهم ثم تركهم، وتاب من ضلالاتهم، والقصة عن هذا الشاهد نقلها الصلابي من مصدرين، من «مصنف ابن أبي شيبة» بسند صحيح، وقسم منها من «تاريخ بغداد» في ترجمة عبدالله بن خباب. رقم ١٦.

قال الراوي: صحبتُ أصحاب النهر (النهروان)، ثم كرهت أمرهم، فكتمته خشية أن يقتلوني، فبينما أنا مع طائفة منهم، إذ أتينا على قرية على النهر إذ خرج رجل من القرية مذعوراً يجرُّ رداءه، فقالوا له: كأننا رَوَّعناكَ؟ قال: أجل، قالوا: لا روعَ لك.

قال الراوي: فقلت: والله يعرفونه ولم أعرفه، فقالوا له: أنت ابن خباب صاحب رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، قالوا: عندك حديثٌ تُحدثناه عن أبيك عن النبي ﷺ؟ قال: نعم، قال: سمعت أبي يقول: إنه سمع النبي ﷺ ذكر فتنة فقال ﷺ: «القاعدُ فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، فإن أدركتكَ فكنْ عبدَالله المقتول» فأخذوه وسُرّيةً له معهم، فمرَّ بعضهم على ثمرةٍ ساقطةٍ من نخلةٍ فأخذها فألقاها في فمه، فقال بعضهم له: ثمرة معاهَد، فبم استحلَلْتها؟ فألقاها من فمه، ثم مروا على خنزير فنفحه بعضهم بسيفه، فقال بعضهم: خنزير معاهد فبم استحللته؟ فقال عبدالله بن خباب بن الأرت: ألا أدلكم على ما هو أعظمُ حُرمةً من هذا؟ قالوا: نعم، قال: أنا، فقدموه إلى الماء – على النهر – فذبحوه كما تذبح الشاة فسال دمه في الماء مثل الشِراك ما امذقرّ – أي ما اختلط بالماء حتى توارى عنهم – ثم دعوا بالسُرِّية وهي حُبلى، فبقروا عما في بطنها.

يقول الراوي: (شاهد العيان) الذي كان منهم: لم أصحب قوماً هم أبغض إليَّ صحبةً منهم، حتى وجدت خلوة فانفلتُّ.

قال المؤرخون: أثار هذا العمل الرعب بين الناس، وأظهر مدى إرهابهم بذبحهم لعبدالله وبقرهم لبطن الحامل، حتى إن بعضهم استنكر هذا العمل قائلا: (ويلكم ما على هذا فارقنا علياً).

وبالرغم من شناعة جريمتهم، لم يبادر عليٌّ إلى قتالهم، بل أرسل إليهم أن يسلموا القتلة لإقامة الحد عليهم، ونادى عليهم بذلك ثلاثاً، فأجابوه بغلظة (كلنا قتله)، عندها قال علي لجنده (دونكم القوم)، وسار بجيشه في شهر المحرم من عام ٣٨ هـ وعسكر على الضفة الغربية لنهر النهروان، والخوارج على الضفة الشرقية مقابل مدينة النهروان.

معركة النهروان:

وهي المعركة بين علي وهؤلاء الخوارج، وسببها، ارتكاب الخوارج للمخالفات، ومخالفتهم للشروط التي اتفقوا عليها مع علي رضي الله عنه، فسفكوا الدماء المحرمة ورأينا قتلهم لعبدالله بن خباب وسُرّيته، كما استباحوا المال الحرام، حتى إن بعضهم استنكر عليهم هذه الأفعال وقال لهم: ما على هذا فارقنا علياً.

قال المؤرخون: بالرغم من فظاعة ما ارتكبه الخوارج من منكرات، أمر عليٌّ جيشه ألا يبدؤوهم بقتال حتى يجتازوا النهر – النهروان – غرباً، وأرسل لهم رسله يناشدهم الله أن يرجعوا، وأرسل إليهم (البراء بن عازب) يدعوهم ثلاثة أيام فأبوا، وواصل عليٌّ إرسال الرسل إليهم حتى قتلوا رسله، واجتازوا النهر، وعندما وصلوا إلى هذا الحدّ من الاستكبار، والإصرار على القتال، نبذ إليهم بالقتال وتهيأ له، وكان عليٌّ يدرك أن هؤلاء القوم هم الخوارج الذين سمع وصفهم من رسول الله ﷺ حيث سماهم ﷺ (بالمارقين)، ولذلك أخذ علي يحرض أصحابه على قتالهم، فقال:

أيها الناس إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج قوم من أمتي يقرؤون القرآن، وليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، ويقرؤون القرآن يحسبون أنه لهم، وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تَراقِيهم، يمرقون من الإسلام

كما يمرق السهم من الرمية»، ثم قال علي: لو يعلم الجيش الذي يصيبونه ما قضى لهم على لسان نبيّهم لاتّكلوا عن العمل، وآية ذلك أن فيهم رجلاً له عضدٌ وليس له ذراع، على رأس عضده مثل حَلَمَةِ الثدي عليه شعيرات بيضٌ..

ثم قال: فتذهبون إلى معاوية وأهل الشام، وتتركون هؤلاء يخلفونكم في ذراريكم وأموالكم، والله إني لأرجو أن يكونوا هؤلاء القوم، فإنهم سفكوا الدم الحرام، وأغاروا في سرح الناس، فسيروا على اسم الله.

وقال يوم معركة النهروان هذه: (أُمِرْتُ بقتال المارقين، وهؤلاء المارقون).

قال المؤرخون: عسكر عليٌ في مقابلة الخوارج بينه وبينهم النهروان، وأمر جيشه أن يتركوهم حتى يعبروا النهر غرباً، ثم أرسل إليهم البراء بن عازب يدعوهم ثلاثة أيام أن يرجعوا إلى الحق فأبوا، ثم أرسل إليهم رسلاً يناشدونهم الله، فقتلوا الرسل، واجتازوا النهر، عندها قام علي بترتيب جيشه وتهيئته للقتال، فجعل على الميمنة (حجر بن عدي)، وعلى الميسرة (شَبْثَ بن ربعي)، وعلى الخيل (أبا أيوب الأنصاري)، وعلى الرَّجالة (أبا قتادة الأنصاري)، وعلى أهل المدينة وكانوا سبعمائة (قيس بن سعيد بن عبادة).

ثم أمر علي أبا أيوب الأنصاري، أن يرفع راية أمانٍ للخوارج ويقول لهم: (من جاء إلى هذه الراية فهو آمن، ومن انصرف إلى الكوفة أو المدائن فهو آمن)، إنه لا حاجة لنا فيكم إلا فيمن قتل إخواننا، فانصرف منهم كثيرون بالآلاف، ولم يبق إلا ألف أو أقل مع عبدالله بن وهب الراسبي هؤلاء وقفوا تجاه جيش علي لقتاله.

وقد ذكر المبرِّد في كتاب «الكامل»، ونقل عنه وعن غيره الصلابي أن قسماً من هؤلاء الخوارج المقاتلين اعتزلوا القتال لكلمة سمعوها من قائدهم – عبدالله بن وهب الراسبي – تدل على ضعف اليقين وسوء الاستبصار، هذه الكلمة قالها الراسبي حين ضرب علي رجلاً من الخوارج بسيفه، فقال الخارجي: حبذا الروحة إلى الجنة، فقال عبدالله بن وهب الراسبي: ما أدري إلى الجنة أم إلى النار.

وسمع هذه العبارة رجل من بني سعد هو (فروة بن نوفل الأشجعي) فقال: إنما حضرت اغتراراً بهذا وأراه قد شك، فانفرد بجماعة من أصحابه، ومال قسم كبير إلى أبي أيوب الأنصاري

وجعلوا بعدها يتسللون.

قال أبو أيوب: طعنت رجلاً من الخوارج بالرمح، فأنفذته من ظهره، وقلت له: أبشر يا عدو الله بالنار فقال: ستعلم أينا أولى بها صِلِيّا.

كانت المعركة حاسمة وقصيرة أخذت أقل من يوم، وهو اليوم التاسع من شهر صفر سنة ٣٨ هـ، وأسفرت عن قتل أمراء الخوارج تحت سنابك الخيل، وكانوا أربعة أمراء منهم، الراسبي، وحرقوص بن زهير، وشريح بن أوفى.. وغيرهم، وعن قتل عدد كبير من الخوارج على عكس قتلى علي حيث كان قتلى أصحاب علي فيما رواه مسلم في «صحيحه» رجلين فقط، وفي رواية عند أبي مجلز قال: ولم يقتل من جيش علي إلا تسعة رهط، وهذا الرقم ذكره شاهد عيان في المعركة وهو الصحابي الجليل (أبو برزة نضلة بن عبيد الأسلمي)، فقد حضر المعركة.

أما قتلى الخوارج، فأغلب الروايات أنهم أصيبوا جميعاً، ولكن المسعودي في كتابه «خلافة علي» أن عدداً يسيراً لا يتجاوز العشرة فروا بعد هزيمة الخوارج.

وذكر المؤرخون: كابن الأثير في كتابه «الكامل»، والطبري، وابن كثير، أنه ما إن انتهت معركة (النهروان) مع الخوارج حتى كان همُّ أمير المؤمنين علي وأصحابه العثور على رجل مخدج..

قال أبو جحيفة: قال علي حين فرغنا من حرب الخوارج: (إن فيهم رجلاً ليس في عضده عظم، وليس له ذراع، على رأس عضده مثل حَلَمَةِ الثدي عليها شعرات طوال عقفٌ)، فالتمسوه فلم يجدوه.

قال أبو جحيفة: فما رأيت علياً جزع جزعاً أشد من جزعه يومئذ.

فقالوا: ما نجده يا أمير المؤمنين، فقال علي: ويلكم ماسم هذا المكان؟ قالوا: النهروان، قال: كذبتم، إنه لفيهم، ارجعوا فوالله ما كَذبتُ ولا كُذِبْتُ مرتين أو ثلاثاً، ثم قام علي ليبحث عن هذا الرجل المُخْدَجِ بنفسه، حتى أتى ناساً قد قتل بعضهم على بعض (ساقية).

قال علي: أَخِّروهم، فوجدوه مما يلي الأرض، فلما رأى علي صفته التي وصفها النبي ﷺ قال: الله أكبر، وسجد سجوداً طويلا، وكبّر أصحابه إستبشاراً بأجر جهاد هؤلاء الناكثين للبيعة الخارجين عن الجماعة.

وبعد سجوده الطويل قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: صدق الله، وبلغ رسوله.

وكان إلى جانب علي (عبيدة السلماني) فقام وقال لعلي: يا أمير المؤمنين! آلله الذي لا إله إلا هو! لسمعت هذا الحديث من رسول الله؟ فقال علي: أي والله الذي لا إله إلا هو حتى استحلفه ثلاثاً وهو يحلف له.

قال المؤرخون: وحرص علي على إيجاد جثة المخدج كان شديداً، لأنَّ وجودها من الأدلة التي تدل على صواب قتالهم وأن الحق مع علي، وأنه هو الذي يقاتلهم (وكان علي يعرف ذلك).

ففي مسند أحمد، والسنن الكبرى للنسائي من حديث أبي سعيد قال: كنا مع رسول الله ﷺ فانقطعت نعله، فرمى بها إلى علي، فتخلف علي يخصفها، فمشى ﷺ قليلاً، ثم قال: «إن منكم رجلاً يقاتل على تأويل القرآن، كما قاتل على تنزيله».

فاستشرف لها القوم، وفيهم أبوبكر وعمر.

قال أبو بكر: أنا هو؟ فقال ﷺ: لا. قال عمر: أنا هو؟ قال ﷺ: «لا ولكن خاصف النعل» يعني علياً.

قال أبو سعيد: فبشَّرناه، فلم يرفع به رأسه، كأنه قد سمعه من رسول الله ﷺ.

معاملة علي للخوارج:

قال المؤرخون: عاملهم علي قبل الحرب وبعدها معاملة المسلمين، فما أن انتهت المعركة حتى أصدر أمره في جنده، ألا يتبعوا مُدْبراً، ولا يُذَفِّفوا على جريح أو يمثلوا بقتيل.

وقد سئل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن الخوارج أكفارٌ هم؟

قال: من الكفر فروا، فقيل: منافقون؟ قال: المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلا، قيل: فما هم؟ قال: قوم بَغَوْا علينا فقاتلناهم.

وفي رواية: قوم أصابتهم فتنة فَعَمُوا فيها وصموا.

وفي رواية: قوم بغوا علينا، فَنُصرنا عليهم.

ووجه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمن معه وللأمة الإسلامية من بعده نصيحة فقال: (إن خالفوا إماماً عادلاً فقاتلوهم، وإن خالفوا إماماً جائراً فلا تقاتلوهم، فإن لهم مقالاً).

قال أهل العلم: والملاحظ في قتال علي يوم الجمل وصفين كان نادماً على ذلك وحزيناً، أما في قتاله للخوارج فكان يُظهر الفرحَ والسرور.

قال ابن تيمية في فتاواه جزء ٢٨ ص ٥١٦: والسبب أن قتال الخوارج كان بنص من رسول الله ﷺ وإجماع الأمة فلم يخالفه فيها أحد، أما يوم صفين فقد ظهر من علي كراهته له وندمه عليه.

من هم الخوارج؟

إنهم الخارجون على علي لقبوله التحكيم، وأهم صفاتهم، أنهم كانوا قراءً وعُبَّاداً لم يتفقهوا في السنن الثابتة عن رسول الله ﷺ، لذلك قال فيهم ابن حزم: كانوا أعراباً قرؤوا القرآن قبل أن يتفقهوا في السنن الثابتة عن رسول الله ﷺ ولم يكن فيهم أحدٌ من الفقهاء، ولا من أصحاب أحد من علماء الصحابة.. ولذلك نجدهم يُكَفِّرُ بعضهم بعضاً لأقل حادثة..

وقد أشار النبي إلى ظهور هؤلاء في الأمة، فقد أخرج أبو داوود في سننه من حديث أبي سعيد الخدري وأنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «سيكون في أمتي اختلاف وفرقة، قومٌ يُحسِنون القِيلَ، ويسيئون الفعل، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم..هم شر الخلق، طوبى لمن قتلهم أو قتلوه، يدعون إلى كتاب الله وليسوا منه في شيء، من قاتلهم كان أولى بالله منهم».

قالوا: يا رسول الله: ما سيماهم؟ قال ﷺ: «التحليق».

وفي مسند أحمد عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إنه سيخرج من أمتي أقوام أشداء أحداء، ذليقة ألسنتهم بالقرأن، لا يجاوز تراقيهم، ألا فإذا رأيتموهم فأنيموهم – اقتلوهم – فالمأجور قاتلهم».

وفي مسند البزار بسند حسن من حديث عائشة قالت: ذكر رسول الله ﷺ الخوارج فقال: «هم شرار أمتي يقتلهم خيار أمتي».

وكان ابن عمر يراهم شرار الخلق؛ لأنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها في المؤمنين.البخاري في «الجامع الصغير».

استشهاد علي رضي الله عنه:

كان استشهاده على يد الخوارج في ١٧ من رمضان سنة ٤٠ هـ قال الدكتور محمد حامد

خليفة صاحب كتاب «الإنصاف»: إن ما كانت تقوم به الخوارج ليس أمراً عشوائياً.. وإنما كان مخططاً مدروسةً أبعاده ونتائجه، فقبل عبدالله بن سبأ اليهودي، لم يكن عند العرب المسلمين فكرة الخروج على الخلفاء، والطعن على الولاة حتى جاء عبدالله بن سبأ وريث الفكر اليهودي، فأظهر الإسلام، فحصَّن نفسه في ظل دولة الخلافة الراشدة لكي يقول ما يشاء وينتقد ما يشاء تحت مظلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..

ثم انكشف أمرهم لعلي رضي الله عنه..وأدرك خطرهم.

اتخذ الإجراءات المناسبة لاستئصالهم.. وهرب عبدالله بن سبأ. ولما رأى الخوارج أن أمرهم وضلالهم انكشف عند علي رضي الله عنه ولم يعد هناك ما يمكن أن يغطوا ضلالهم، أدركوا أنه لا مناص من اغتياله وإلحاقه بعثمان، ولكنهم أدركوا أنهم إن اغتالوا علياً فإنهم سيمهدون السبيل لخلافة معاوية، ومعاوية هو طالبهم للقصاص منهم مقابل دم عثمان، عندها قرروا توسيع دائرة الاغتيال لتشمل قتل علي ومعاوية.

ثم نظروا فإذا بصحابي جليل آخر هو خصمهم الأول، شخص عارف بمكرهم، وهو قائم بأمر مصر، فضموه إلى قائمة الاغتيال هو عمرو بن العاص.

قال صاحب «الإنصاف»: وبهذا التخطيط أعلنوا عن هويتهم، وأنه لا فرق عندهم بين علي ومعاوية وعمرو؛ لأنَّ كل من يعمل للإسلام وعقيدته وأمته هو عدو لهم، وعائق أمام مخططاتهم يجب إزالته.

ولعل هذه هي منهجية اليهود وأعداء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا اليوم والتي نراها ويصدقها كل ما يجري على الأمة الإسلامية منذ سقوط الخلافة.

وبإقرار تلامذة ابن سبأ اغتيل هؤلاء القادة الثلاثة العظام فقد أقروا أوسع مؤامرة في التاريخ الإسلامي، كان الهدف منها:

إنزال ضربة قاصمة بالإسلام والمسلمين، وفتح باب الفتنة والصراع الداخلي على أوسع نطاق لكي لا يغلق، وفي الأمة روح من عقيدة أو من قوة.

فتعالوا بنا إلى بيان هذه المؤامرة.

روى الطبراني في «المعجم الكبير»، والطبري في «تاريخه»:

أن ثلاثة من الخوارج اجتمعوا في مكة فذكروا أمر الناس، وعابوا عمل ولاتهم ثم انتقلوا

إلى ذكر إخوانهم الذين قتلوا في النهروان، فترحموا عليهم وقالوا: ما نصنع بالبقاء بعد قتل اخواننا؟

لا قيمة للحياة بعد هؤلاء الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم، والذين لا يخافون في الله لومة لائم، فلو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلال فقتلناهم، فأرحنا منهم البلاد، وثأرنا بهم إخواننا.

وهؤلاء الثلاثة هم: عبدالرحمن بن ملجم، والبرك بن عبدالله، وعمرو بن بكر التميمي.

ولكن من المقصود من قولهم أئمة الضلال؟

قال صاحب كتاب «الفتنة»: المقصود: علي ومعاوية وعمرو بن العاص.

فتقدم أشقى الآخرين وقال: أنا أكفيكم علي بن أبي طالب، وأشقى الآخرين هو رجل يقال له عبدالرحمن بن ملجم التميمي.

أما أشقى الأولين، فهو عاقر ناقة نبي الله صالح صلوات الله وسلامه عليه.

وكان ابن ملجم من أهل مصر.

وقال:البرك بن عبدالله: أنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان.

وقال: عمرو بن بكر التميمي أنا أكفيكم عمرو بن العاص.

ثم تعاهدوا وتواثقوا بالله لا ينكص رجل منا عن صاحبه الذي توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه.

وأخذوا أسيافهم فسقوها السم وتواعدوا لسبع عشرة تخلو من رمضان أن يثب كل واحد منهم على صاحبه المكلف بقتله، ثم تحرك كل واحد من هؤلاء الثلاثة إلى البلد الذي فيه صاحبه الذي يطلب.

أما عبدالرحمن بن ملجم المرادي التميمي، فكان في عداد كنده، فسار متجهاً إلى الكوفة حيث يوجد علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصل الكوفة والتقى بأصحابه بالكوفة وكاتمهم أمره كراهة أن يظهروا شيئاً منه، وكان خلال وجوده بالكوفة يأتي علياً يسأله ويَستحملُه فيحمله..

وذات يوم وقع بصره على امرأة من الخوارج اسمها قطام من قبيلة (تيم الرباب) كان علي قد قتل في معركة النهروان عشرة منهم كما قتل لقطام هذه وهي: قطام ابنة الشجنة أباً وأخاً يوم النهر، وكانت كما قال الطبري: فائقة الجمال، فلما رآها التبست بعقله، ونسي حاجته التي جاء من أجلها إلى الكوفة.

ثم تقدم لخطبتها، فقالت له البنت: لا أتزوجك حتى تشفي لي، قال: وما يشفيك؟ قالت: ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل علي بن أبي طالب.

قال: وما يُغنيك أو يغنيني منك قتل علي وأنا أعلم أني إن قتلته لم أفلت؟

فقالت: إن قتلته ونجوت فهو الذي أردتُ، ويَهنكَ العيشُ معي، وشفيت نفسك ونفسي، وإن قُتلت فما عند الله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها، فقال – مصرحاً لها -: فوالله ما جاء بي إلى هذا المصر – الكوفة – إلا قتل علي، ولكني لما رأيتك آثرت الزواج بك.. لكن لك ما سألت.

فقالت له: سألتمس لك من يشد ظهرك – يعاونك – فبعث إلى رجل من قومها (تيم الرباب) يقال له: وردان فكلمته فأجابها، والتقى ابن ملجم رجلاً من (أشجع) يقال له: شبيب بن بجرة، فقال له يا شبيب: هل لك في شرف الدنيا والآخرة؟

قال شبيب: وما ذاك؟

قال ابن ملجم: تساعدني في قتل علي..

قال شبيب: ثكلتك أمك! لقد جئت شيئاً إدّا – المنكر العظيم – كيف تقدر على علي؟

قال ابن ملجم: إنه رجل لا حرس له، ويخرج إلى المسجد منفرداً، فنكمن له في المسجد، فإذا خرج إلى الصلاة قتلناه، فإن نجونا شفينا أنفسنا وأدركنا ثأرنا، وإن قتلنا فما عند الله خير من الدنيا وما فيها.

قال شبيب: ويحك! لو كان غير علي لكان أهون عليّ، قد عرفت بلاءَهُ في الإسلام، وسابقته في النبي ﷺ، وما أجدني أنشرح لقتله.

قال ابن ملجم: أما تعلم أنه قتل أهل النهروان العُبَّاد الصالحين!

قال الرجل: بلى، قال ابن ملجم: فنقتله بمن قتل من إخواننا، فأجابه شبيب ورضي. ثم

أتوا إلى قطام وهي في المسجد الأعظم معتكفة – فقالوا لها -: قد أجمع رأيُنا على قتل علي؛ قالت: فإذا أردتم ذلك فأْتوني، ثم عاد إليها ابن ملجم في ليلة الجمعة التي قتل في صبيحتها علي سنة ٤٠ هـ.

فقال لقطام: هذه الليلة التي واعدتُ فيها صاحبيَّ على قتل علي وأن يقتل كل منا صاحبه، فدعت لهم بالحرير فعصبتْهم به، وأخذوا أسيافهم وجلسوا مقابل السدة – الباب – التي يخرج منها علي، فلما خرج علي ضربه شبيب بالسيف، فوقع سيفه بعضاضة الباب أو ألطاق وضربه ابن ملجم في قرنه بالسيف، وهرب وردان حتى دخل منزله، فدخل عليه رجل من بني أبيه وهو ينزع الحرير عن صدره، فقال لوردان: ما هذا الحرير والسيف؟ فأخبره بما كان وانصرف، فجاء الرجل بسيفه فَصَلا به وردان حتى قتله، وخرج شبيب نحو أبواب كندة في الغَلَس –لأن الصلاة صلاة الفجر – وصاح الناس، فلحقه رجل من حضرموت يقال له: عويمر، وفي يد شبيب السيف، فأخذه الحضرمي وجثم عليه، فلما رأى الحضرمي الناس قد أقبلوا في طلبه وسيف شبيب في يده، خشي على نفسه، فتركه ونجا شبيب في غمار الناس. فشدوا على ابن ملجم فأخذوه، إلا أنَّ رجلاً من همدان يكنى (أبا أدماء) أخذ سيفه فضرب به رجله فصرعه، وتأخر علي ورفع في ظهره (جعدة بن هبيرة بن أبي وهب)، وصلى بالناس الغداة، ثم قال علي: عليَّ بالرجل، فأدخل عليه.ثم قال له علي: أي عدو الله، ألم أُحسِنْ إليك؟ قال: بلى. قال علي: ما حملك على هذا؟ فقال: شحذته أربعين صباحاً، وسألت الله أن يقتل به شر خلقه، فقال علي: ما أراك إلا مقتولاً به، ولا أراك إلا من شر خلقه.

قال محمد بن الحنفية: كنت والله لأُصلي تلك الليلة التي ضرب فيها علي في المسجد الأعظم، في رجال كثير من أهل البلد، يصلون قريباً من السدة، ما هم إلا قيامٌ وركوع وسجود، وما يسأمون من أول الليل إلى آخره، إذ خرج علي لصلاة الغداة، فجعل ينادي: أيها الناس، الصلاةَ الصلاة! فما أدري أخرج من السدة فتكلم بهذه الكلمات أم لا! فنظرت إلى بريق، وسمعتُ: (الحكمُ لله يا علي لا لكَ ولا لأصحابك). فرأيت سيفاً ثم رأيت ثانياً، ثم سمعت علي يقول: لا يَفوتنكُم الرجلُ، وشدَّ عليه الناس من كل جانب، قال ابن الحنفية: فلم أبرح حتى أُخِذَ ابن ملجم وأُدخل على علي، فدخلت فيمن دخل من الناس، فسمعت علياً يقول: النفس بالنفس، إن أنا مت فاقتلوه كما قتلني، وإن بقيت رأيت فيه رأيي.

وذكر الطبري في «تاريخه»: إن الناس دخلوا على الحسن بن علي فَزِعين لما حدث من أمر علي، فبينما هم عنده وابن ملجم مكتوفٌ بين يديه، إذ نادته أم كلثوم بنت علي وهي تبكي: أي عدو الله لا بأس على أبي والله مخزيك! فقال ابن ملجم: فعلى مَنْ تبكين؟ والله لقد اشتريته بألف، وسَمَّمته بألف، ولو كانت هذه الضربة على جميع أهل المصر – البلد – ما بقي منهم أحد.

وقد روى عبدالله بن مالك كما ذكر ابن عبد البر في كتاب «الاستيعاب» قال: جمع الأطباء لعلي يوم جُرح على رأسهم أثير بن عمرو السكوني، وكان أبصرهم بالطب، حيث كان يطبب كسرى صاحبه، فأخذ أثير هذا رئة شاة حارة، فتتبع عرقاً منها، فاستخرجه فأدخله في جرح علي ثم نفخ العرق فاستخرجه فإذا عليه بياض الدماغ، وإذا الضربة قد وصلت إلى أم رأسه، فقال لعلي: يا أمير المؤمنين: اعهد عهدك فإنك ميت.

وذكر بعض المؤرخين – كما عند الطبري – أن جندب بن عبدالله دخل على علي عندما أصيب فسأله، فقال: يا أمير المؤمنين، إن فقدناك – ولا نفقدك – فنبايع الحسن؟ فقال ﷺ: ما آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر.

ثم دعا حسناً وحسيناً فقال: أوصيكما بتقوى الله، ولا تبغيا الدنيا وإن بَغتْكما، ولا تبكيا على شيء زُويَ عنكما، وقولا الحق، وارحما اليتيم، وأغيثا الملهوف، واصنعا للآخرة، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم ناصراً، واعملا بما في الكتاب ولا تأخذكما في الله لومة لائم. ثم نظر إلى محمد بن الحنفية (ولده المسمى بمحمد الأكبر من غير فاطمة، أمه خولة بنت إياس الحنفية) وقال له: هل حفظت ما أوصيتُ به أخويك؟ قال محمد: نعم. قال علي: فإني أوصيك بمثله وأوصيك بتوقير أخويك لِعظَمِ حقهما عليك، فاتبع أمرهما، ولا تقطع أمراً دونهما، ثم التفت ﷺ إلى الحسن والحسين، ثم قال: أوصيكما به – محمد بن الحنفية –، فإنه ابن أبيكما، وقد علمتما أن أباكما كان يحبه. ثم قال للحسن: أوصيك أي بني بتقوى الله، وإقام الصلاة لوقتها، وإيتاء الزكاة عند محلها، وحسن الوضوء، فإنه لا صلاة إلا بطهور، ولا تُقبلُ صلاة من مانع زكاة، وأوصيك بغَفْرِ الذنب، وكظم الغيظ، وصِلةِ الرحم، والحلم عند الجهل، والتفقه في الدين، والتثبث في الأمر، والتعهد للقرآن، وحسن الجوار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واجتناب الفواحش.

أما وصيته حين حضرته الوفاة فكانت كما رواها المؤرخون شاملةً نأخذ بعض عبارات منها، حيث في وصيته الأولى ما يغني عن هذه، قال مخاطباً أبناءه:

اللهَ اللهَ في القرآن لا يسبقنَّكُم إلى العمل سابق، لا تغتروا بأنكم أبناء علي، وأنكم أبناء بنت رسول الله ﷺ، الله الله في الفقراء والمساكين أشركوهم في معاشكم..

أوصيكم بتقوى الله ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٢﴾[1].

ثم أمرهم أن ينصرفوا بعد أن دعا لهم فقال: حفظكم الله من أهلِ بيتٍ وحفظ فيكم نبيكم، أستودعكم الله، وأقرأ عليكم السلام ورحمةَ الله، ثم لم ينطق بعدها إلا بـلا إله إلا الله حتى قُبِضَ في فجر يوم السبت، أي في فجر اليوم التالي لطعنه في رمضان سنة ٤٠ هـ كما روى الطبري.

وعند البخاري في «التاريخ الكبير» أن وفاته كانت صبيحة إحدى وعشرين من رمضان حيث بقي ثلاثة أيام بعد طعنه.

نهيه عن المُثْلة بقاتله: قال الطبري وغيره من المؤرخين: وكان علي نهى عن المثلة وقال للحسن: يا بني عبدالمطلب لا أُلفينَّكُم تخوضون في دماء المسلمين، تقولون: قتل أميرالمؤمنين قتل أمير المؤمنين، ألا لا يُقتلنَّ إلا قاتلي، انظر يا حسن: إن أنا مت من ضربته هذه فاضربه ضربةً بضربةٍ، ولا تمثل بالرجل فإني سمعت رسول لله ﷺ يقول: «إياكم والمثلة ولو أنها بالكلب العقور».

مدة خلافته:

الظاهر كما في «التاريخ الكبير» للبخاري، أن مدة خلافته أربع سنين وتسعة أشهر وثلاثة أيام.

وتولى غسله الحسن والحسين وعبدالله بن جعفر رضي الله عنهم، وكفن في ثلاثة أثواب، وصلى عليه الحسن ولده وكبر عليه أربع تكبيرات.

أما موضع قبره فقد دفن بالكوفة في قصر الإمارة ليلاً عند المسجد الجامع، وعُمِّيَ موضعُ قبره، وتولى الحسن ولده دفنه.

أما ما يسمى مشهد علي بالنجف فهو من ابتداع بني بُويه في عهد الدولة العباسية وكانوا شيعة روافض صنعوا ذلك في القرن الرابع للهجرة وأهل المعرفة متفقون على أنه ليس بقبر علي

---

(١) آل عمران: ١٠٢.

بل قيل هو قبر المغيرة بن شعبة.

قال ابن تيمية في الفتاوى ج ٢٧ ص٤٤٦: وأما المشهد الذي بالنجف، فأهل المعرفة متفقون على أنه ليس بقبر علي، ولم يكن يذكر أحد أكثر من ثلاثمائة سنة مع كثرة المسلمين من أهل البيت والشيعة وغيرهم بالكوفة، وإنما اتخذ ذلك مشهداً في ملك بني بويه – العجم – بعد موت علي بأكثر من ثلاثمائة سنة.

سنه رضي الله عنه يوم قتل: أرجح الأقوال ما ذكره الطبري عن جعفر بن محمد أنه قتل وهو ابن ثلاث وستين سنة.

خطبة الحسن بن علي بعد مقتل أبيه: قال: لقد فارقكم رجل أمس ما سبقه الأولون بعلم ولا أدركه الآخرون، إن كان رسول الله ليبعثه ويعطيه الراية فلا ينصرف حتى يفتح الله له، ما ترك من صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم من عطائه، كان يرصدها لخادم أهله.

كيف استقبل معاوية خبر استشهاد علي:

ذكر ابن عبد البر في كتاب «الاستيعاب»، وابن كثير في تاريخه «البداية والنهاية»: أنه لما جاء خبر مقتل علي إلى معاوية جعل يبكي، فقالت له زوجه: أتبكيه وقد قاتلته؟ قال معاوية: ويحكِ إنك لا تدرين ما فقد الناس من الفضل والفقه والعلم، وكان معاوية يكتب لعلي في ما ينزل به من المسائل يسأله عنها، فلما بلغه قتله قال: ذهب الفقه والعلم بموت ابن أبي طالب، فقال له أخوه عتبة: لا يسمع منك ذلك أهل الشام، فقال له معاوية: دعني عنك «الاستيعاب».

وذكر ابن عساكر في «تاريخ دمشق»، أن رجلاً جاء إلى أبي زرعة الرازي فقال له: إني أبغض معاوية، قال له أبو زرعة: لم؟ قال لأنه قاتل علياً بغير حق، فقال له أبو زرعة الرازي: رَبُّ معاوية رَبٌّ رحيم، وخصم معاوية خصم كريم، فما دخولك أنت بين رب رحيم، وخصم كريم.

ومن أقوال معاوية في علي حين تكلم عقيل بن أبي طالب يوماً في ورع علي، فقال معاوية: ذكرتَ ما لا يُنكر، رحم الله أبا الحسن فلقد سبق من كان قبله، وأعجز من يأتي بعده.

ووصف معاوية مرة زهد علي فقال: هو الذي يكنس بيوت المال ويصلي فيها، وهو الذي قال: يا صفراء ويا بيضاء غري غيري.

وقال مرة في علي: هيهات هيهات عقمت النساء أن يَلِدْنَ مثله.

وقال سعد بن أبي وقاص لمعاوية، كما روى ذلك ابن عساكر: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «علي مع الحق، أو الحق مع علي حيث كان».

قال معاوية: من سمع ذلك؟ قال سعد: قاله ﷺ في بيت أم سلمة.

قال: فأرسل معاوية إلى أم سلمة فسألها فقال: قد قاله رسول الله ﷺ في بيتي، فقال معاوية عندها لسعد: ما كنت عندي قط ألوم منك الآن، فقال سعد: ولمَ؟ قال معاوية: لو سمعت هذا من النبي ﷺ لم أزل خادماً لعلي حتى أموت. ابن عساكر ٥٩ – ١٤٢ كما في «الإنصاف».

وروي عن عمر بن عبدالعزيز قال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام وأبو بكر وعمر جالسان عنده، فسلمت عليه وجلست، فبينما أنا جالس إذ أُتيَ بعلي ومعاوية فأُدخلا بيتاً وأُجيف – رُدَّ وأغلق – البابُ وأنا أنظر، فما كان بأسرع من أن خرج علي وهو يقول: قضي لي وربِّ الكعبة، ثم فما كان بأسرع من أن خرج معاوية وهو يقول: غُفرَ لي ورب الكعبة. «البداية والنهاية».

وسئل الحسن البصري عن علي فقال: كان علي والله سهماً صائباً من مرامي الله على عدوه. وربانيَّ هذه الأمة، وذا فضلها، وذا سابقتها، وذا قرابتها من رسول الله ﷺ، لم يكن بالنوَّامة عن أمر الله ولا بالملومة في دين الله، ولا بالسروقة لمال الله، أعطى القرآن عزائمه، ففاز منه برياض مونقة، ذلك علي بن أبي طالب.

وذكر عبدالله بن الإمام أحمد بن حنبل قال: كنت بين يدي أبي جالساً ذات يوم، فجاءت طائفة من الكرخيين فذكروا خلافة أبي بكر، وخلافة عمر، وخلافة عثمان فأكثروا، وذكروا خلافة علي فزادوا وأطالوا، فرفع أبي – الإمام أحمد – رأسه إليهم، فقال: يا هؤلاء، قد أكثرتم القول في الخلافة وعلي، وفي علي والخلافة، أتحسبون أن الخلافة تُزيِّنُ علياً؟ بل زَيَّنها علي.

والآن تعالى معي إلى وصف دقيق لعلي من رجل على علم تام بعلي، هذا الرجل هو (ضرار بن ضمرة الكناني)، طلب معاوية من ضرار أن يصف له علياً فقال ضرار: اعفني يا أمير المؤمنين، وكان هذا الوصف بعد وفاة علي وتمام الصلح بين معاوية والحسن واستقرار الخلافة لمعاوية.

لما قال ضرار: اعفني يا أمير المؤمنين من وصفه.. أصرَّ معاوية وقال: لَتصِفنَّهُ. فقال ضرار: أما إذ لا بد من وصفه فكان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً،

يتفجر العلم من جوانبه، وتنطلق الحكمة من لسانه، يستوحش من الدنيا وزهوتها، ويأنس بالليل ووحشته، كان غزير الدمعة، طويل الفكرة، يقلب كفيه، ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما خَشُنَ، ومن الطعام ما جَشُبَ، وكان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، ويأتينا إذا دعوناه، وكنا – والله – مع قُربه منا لا نكاد نكلمه هيبة له، ولا نبتدئه لعظمته، وكان إذا تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يُعظِّمُ أهلَ الدين ويقرب المساكين، لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله. وأشهد أني قد رأيته في بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، وقد مَثِلَ في محرابه، قابضاً على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين ويقول: يا دنيا غُرِّي غيري، يا دنيا إلي تَعرضتِ، أم إلي تشوَّفتِ، هيهات هيهات غري غيري قد أَبنتُكِ ثلاثاً لا رجعة فيها: فعمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك كبير، آهٍ من قلة الزاد، وبُعْدِ السفر، ووحشة الطريق.

فبكى معاوية وقال: رحم الله أبا الحسن، كان والله كذلك، فكيف حُزنُكَ عليه ياضرار؟ قال ضرار: حُزنُ من ذُبِحَ ولدها وهو في حِجْرها.

وقد رثاه أبو الأسود الدؤلي في قصيدة جميلة، وقيل هي لأم الهيثم النخعية.

ومن أبياتها:

ألا يا عينُ وَيْحَـــكِ أسعدينـــا ... ألا تبكـــــي أميرَ المؤمنينا
ألا قل للخـــوارج حيث كانوا ... فلا قَرَّتْ عيـــونُ الشامتينا
أفي شهر الصيـــام فَجَعتمونـــا ... بخير الناس طُـــراً أجمعينا
قتلتم خيرَ مَنْ ركب المطايـــا ... وذَلَّلَهَا ومَنْ ركـب السفينا
ومَن لبس النعال ومن حَذاها(١) ... ومن قرأ المثـــــاني والمِئينا
فكلُّ مناقبِ الخيـــــرات فيه ... وحُبِّ رسـول ربِّ العالمينا
لقد علمت قريش حيث كانت ... بأنك خيرهـــا حَسَباً ودينا

ومن شعر إسماعيل بن محمد الحميري في رثاء علي:

سائل قريشاً به إنْ كنـــت ذا عَمَهٍ ... من كان أثبتهـــا في الدين أوتادا

---

(١) حذاها: ألبسها.

من كان أقدم إسلاماً وأكثــــرها — علماً وأطهرها أهـــــلاً وأولادا
من وَحَّدَ الله إذ كانـــــت مكذبةً — تدعو مع الله أوثاناً وأنـــــدادا
مَن كان يقدم في الهيجاء إن نَكلُوا — عنها وإنْ يبخلوا في أزمة جـادا
من كان أعدلها حكمــــاً وأبسطها — علماً وأصدقها وعداً وإيعــــادا
إنْ يصدقوك فلن يعدوا أبا حسنٍ — إنْ أنت لم تلقَ للأبرار حســادا

ومن شعر بكر بن حماد التاهرتي يوبخ قاتل علي فيقول:

قُلْ لابن ملجم والأقدار غالبــة — هــدمتَ ويلك للإسلام أركانا
قتلتَ أفضلَ من يمشي على قدم — وأول النــــاس إسلاماً وإيمـانا
وأعلمَ الناس بالقرآن ثـــم بما — سَنَّ الرسول لنـا شرعاً وتبيـانـا
صهر النبي ومولاه وناصـــره — أضحت مناقبـه نوراً وبرهانـــا
ذكــرتُ قاتله والدمعُ منحدر — فقلتُ سبحان رب الناس سبحانا
إني لأحسبـــــه ما كان من بشر — يخشى المعادَ ولكن كان شيطانـــا
أشقى مرادٍ إذا عُــــدَّتْ قبائلها — وأخسرُ الناس عند الله ميزانـــــا
كعاقرِ الناقة الأولى التي جَلبتْ — على ثمود بأرض الحِجْرِ خُسرانـــا

قال الذهبي في - عبدالرحمن بن ملجم - قاتل علي:

خارجي مُفْترٍ، وهو عند أهل السنة ممن نرجو له النار، ونجوز أن الله يتجاوز عنه، وحكمه حكم قاتل عثمان والزبير وسعيد بن جبير.

فكل هؤلاء نبغضهم في الله، ونبرأ منهم، ونكِلُ أمرهم إلى الله. (وابن ملجم عند الروافض): أشقى الخلق في الآخرة، وهو عند الخوارج من أفضل الأمة، وقد عبر عن رأي الخوارج فيه شــاعرهم عمران بن حِطان، حيث قــال في ابـن ملجم:

يا ضربةً من تَقِيٍّ ما أراد بها — إلا ليبلغَ من ذي العرش رضوانا
إني لأذكره يوماً فأحسبـــه — أَوْفى البـــــريةِ عند الله ميزانا

قال المؤرخون: وكان علي يعلم أنه سيستشهد، فقد ورد عنه كما ورد (في كتاب خصائص أمير المؤمنين علي): أنه قال: سمعتُ الصادق المصدوق ﷺ يقول: (إنك ستُضربُ ضربةً هاهنا –

وأشار ﷺ إلى صدغيه - فيسيل دمها حتى يَخضبَ لِحْيتك، ويكون صاحبها أشقاها، كما كان عاقر الناقة أشقى ثمود).

وقد روى عبيدة السلماني أن علياً كان يعرف هذا الشقي الذي سيقتله، حيث يقول عبيدة بسند صحيح إليه: كان علي إذا رأى ابن ملجم قال:

أُريدُ حيـــــاتَهُ ويريد قتلي   عذيرُك من خليلك من مرادي

صحيح الطبقات.

وقد قدم هذا الشقي أغلى مهر دُفعَ في زواج امرأة حتى قال الشاعر ابن مياس المرادي:

فلم أر مهراً ساقه ذو سمـاحةٍ   كمهر قطام من فصيح وأعجـم
ثلاثة ألاف، وعبد، وقينـــــة   وضرب عليٍّ بالحسام المصمـــم
فلا مهر أغلى من علي وإن غلا   ولا قتل إلا دون قتل ابن ملجَم

هذا بالنسبة لعبدالرحمن بن ملجم، فما مصير صاحبيه المكلفين بقتل معاوية وعمرو بن العاص؟

والجواب:

أن صاحب معاوية المكلف بقتله وهو البرك بن عبدالله التميمي.

ففي الليلة التي قتل فيها علي قعد البرك لمعاوية، فلما خرج معاوية لصلاة الغداة شدَّ عليه بسيفه، فوقع السيف في إليته فأخذ البركُ للقتل، فقال لمعاوية: إن عندي خبراً أقوله لك يَسَرُّك فهل ينفعني عندك؟ قال معاوية: ماهو؟ قال البرك: إن صاحباً لي قتل علياً الليلة.. فأمر معاوية به فقُتلَ.. وبعث معاوية إلى الساعدي - وكان طبيباً - فلما نظر إلى جرحه قال لمعاوية: اختر إحدى خصلتين: إما أن أحمي حديدة فأضعها موضع السيف، وإما أن أسقيك شربة تذهب السم عنك لأن جرحك مسموم ولكن في هذه الشربة انقطاع النسل منك؟

فقال معاوية: أما النار فلا صبرَ لي عليها وأما انقطاع الولد، فإن في يزيد وعبدالله ما تَقرُّ به عيني، فسقاه شربة فبرأ من جراحه وألمه ولم يولد له بعدها، ومنذ تلك اللحظة بُنيت المقصورة في

المسجد الجامع، وجُعلَ الحرسُ حولها يقوم على رأس الخليفة إذا سجد، وكان أول من اتخذها معاوية بسبب هذه الحادثة.

وأما صاحب (عمرو بن العاص) وهو عمرو بن بكيل، فإنه كَمَنَ لعمرو بن العاص ليخرج إلى الصلاة، فاتفق أن عرض له مَغْصٌ شديد في ذلك اليوم فلم يخرج، فخرج نائبه ليؤم الناس، وهو (خارجة بن حذافة) وكان صاحب شرطته، فلما خرج خارجة ليصلي شدَّ عليه الخارجي بالسيف فقتله وهو يظن أنه عمرو بن العاص، فأخذه الناس وانطلقوا به إلى عمرو بن العاص يُسلِّمون عليه بالإمرة، فقال الخارجي: مَنْ هذا؟ قالوا: عمرو، قال: فمن قتلتُ؟ قالوا: خارجة بن حذامة، فقال الخارجي: أردتُ عمراً، وأراد الله خارجة، فذهبت مثلاً، ثم قتل.

ونختم قصة استشهاد علي بعبارة جميلة يقولها صاحب كتاب «الفتنة» في علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال:

وهكذا – أيها الأحبة – رحل الإمام، ووالله ما رحل؛ إنْ رحل بجسده؛ فلقد بقيت مناقبه، وفضائله، فهو الراحل المقيم الذي خط على جبين الزمان خلوداً بأخلاقه واتباعه لحبيبه محمد ﷺ..

ولنذكر له الآن بعض القصص من سيرته ومواعظه:

كان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ متقللاً زاهداً، يروي عبدالله بن رزين الغافقي قال: دخلنا على عليٍّ يوم الأضحى فقرَّبَ إلينا خزيرة – مرق عليه نخالة – فقلنا: أصلحك الله لو أطعمتنا هذا البط والإوزَّ؟ فإن الله أكثر الخير. فقال علي: يا ابن رزين إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحلُّ للخليفة من مال الله إلا قصعتان، قصعة يأكلها هو وأهله، وقصعة يضعها بين يدي الناس».

وذكر صاحب تاريخ «البداية والنهاية»: أن علياً خطب الناس فقال: أيها الناس! والله ما زَويتُ من مالكم قليلاً ولا كثيراً، إلا هذه – وأخرج من جيبه قارورة فيها طِيب – فقال: أهداها إلي الدهقان، ثم آثر بيت المال فقال: خذوا.. وقال:

أفلح مَنْ كانت له قوصرة   يأكـــل منها كل يوم ثمرة

ويروي المؤرخون عن أبي مطر قال: خرجت من المسجد فإذا رجل ينادي من خلفي: ارفع إزارك فإنه أبقى لثوبك، وأتقى لربك، وخذ من رأسك إذا كنت مسلماً، فمشيتُ خلفه وهو مؤتزر بإزار ومرتدٍ برداءٍ ومعه الدرة كأنه أعرابي بدوي، فقلت: من هذا؟ فقال لي رجل: أراك

غريباً بهذا البلد. فقلت: أجل. أنا من اهل البصرة. فقال: هذا أمير المؤمنين علي.. فمشى حتى انتهى إلى سوق الإبل، فقال: بيعوا ولا تحلفوا فإن اليمين تُنفقُ السلعة وتَمحقُ البركة.

ثم أتى أصحاب التمر فإذا خادم تبكي فقال: ما يُبكيك؟ فقالت: باعني هذا الرجل تمراً بدرهم فردَّهُ مولاي، فأبى البائع رده، فقال علي: خذ تمرك وأعطها درهماً فإنها ليس لها أمر، فرده ودفعه، قال أبو مطر للبائع: أتدري من هذا؟ فقال: لا. فقلت: هذا أمير المؤمنين..فأسرع فأعطاها الدرهم وصَبَّتْ له التمر، ثم قال الرجل: أحب ان ترضى عني يا أمير المؤمنين، قال علي: ما أرضاني عنك إذا وفيتَ للناس حقوقهم، ثم خاطب أصحاب التمر فقال: يا أصحاب التمر، أطعموا المساكين يَرْبُ كسبُكُم، ثم أتى أصحاب السمك فقال: لا يباع في سوقنا طافي، ثم أتى سوق الكرابيس، وكانت تسمى (دار الفرات)، فأتى شيخاً فقال له: يا شيخ أحسن بيعي في قميص بثلاثة دراهم، فلما عرفه لم يشترِ منه شيئاً، ثم أتى بائعاً آخر، فعرفه فلم يشتر منه شيئاً، ثم أتى غلاماً حَدَثاً فاشترى منه قميصاً بثلاثة دراهم، فجاء أبو الغلام صاحب الثوب فقيل له: يا فلان قد باع ولدك اليوم من أمير المؤمنين قميصاً بثلاثة دراهم، فقال الرجل لولده: أفلا أخذتَ منه درهمين؟ ثم ذهب الوالد إلى علي ومعه درهم، وكان علي قد جلس مع المسلمين على باب الرحبة فقال له: أمسك هذا الدرهم، فقال علي: ما شأنه؟ فقال الرجل: إنما ثمن القميص درهمان، فقال علي: (باعني رِضايَ، وأخذ رضاه).

وروى الطبري (عن يزيد بن عدي) قال:

رأيت علياً خرج من همدان، فرأى فئتين تختصمان ففرَّقَ بينهما. ثم مضى، فسمع صوتاً: يا غوثاً بالله، وأسرع نحوه حتى سمعت خفق نعله ثم قال: أتاك الغوث، فإذا رجل يلازم رجلاً، فقال لعلي: يا أميرالمؤمنين، بعت هذا ثوباً بتسعة دراهم وشرطتُ عليه ألا يعطيني مغموزاً ولا مقطوعاً – وكان هذا من شروطهم في البيوع – فأعطانيها مَعيبةً، فأتيته بها ليبدلها لي فأبى فلزمته فلطمني. فقال علي: أبدله، فقال الرجل: أريد البينة على اللطمة، فأتى الرجل بالبينة، فأقعده علي – وفي رواية أن علياً قال: يا معشر المسلمين خذوه، فحُملَ على ظهر رجل كما يحمل صبي الكتاب – ثم قال لصاحب الحق: دونك فاقتص. فقال: قد عفوتُ يا أمير المؤمنين، ثم ضرب الرجل تسع درات، وقيل خمس عشرة درةً وقال علي: هذا حق السلطان.

ولعلي رضي الله عنه شعر جميل في الرقائق والمواعظ، فمن ذلك ما ذكره الخطيب البغدادي:

وإذا اشـــتملت عـــلى اليـــأس القلـــوب … وضـــاق بـــما بـــه الـــصدر الرحيـــبُ

وأوطـــــأت المكـــــارهُ واطمأنـــــت … وأرســـــت في أماكنهـــــا الخطـــــوب

ولم تـــــر لانكـــــشاف الـــــضر وجهـــــاً … و لا أغنـــــى بحيلتـــــه الأريـــــب

أتـــاكَ عـــلى قنـــوطٍ منـــك غـــوثٌ … يمـــــن بـــــه القريـــــب المـــــستجيب

وكـــلُّ الحادثـــاتِ إذا تناهـــت … فموصـــولٌ بهـــا الفَـــرَجُ القريـــب

ومن جميل شعره:

حقيـــقٌ بالتواضـــع مَـــنْ يمـــوت … ويكفـــي المـــرء مـــن دنيـــاه قـــوتُ

فـــما للمـــرء يـــصبح ذا همـــومٍ … وحـــرص لـــيس تُدركـــه النعـــوت

صـــنيعُ مليكنـــا حـــسنٌ جميـــل … ومـــا أرزاقـــه عنـــا تفـــوت

فياهـــذا ســـترحلُ عـــن قليـــلٍ … إلى قـــوم كلامهـــم الـــسكوت

قال المؤرخون، (كما عند الحاكم في المستدرك بسندٍ صحيح) أنه لما أصيب علي قيل له:

ألا تستخلف علينا؟ قال: ما استخلفَ رسولُ الله ﷺ فأستخلف، ولكن إن يُرِدِ اللهُ بالناس خيراً فسيجمعهم بعدي على خيرهم كما جمعهم بعد نبيهم على خيرهم.

قال المحققون: وهذا نص صريح صحيح في بُطلان ادعاء أهل الأهواء أن رسول الله ﷺ أوصى بالخلافة لعلي.

وقد بايع الصحابة علياً باجتهاد منهم، لا بوصية من رسول الله ﷺ وكذلك لما فرغ الصحابة من دفن علي قام أهل الكوفة وبايعوا الحسن باجتهاد منهم.(وانتبه ياعبد الله إلى هذه الملاحظة عند البيعة للحسن) فإنها ترشدك إلى أمر جميل.

قال المؤرخون: إن أول من تقدم لبيعة الحسن قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري حيث قال للحسن: ابسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنة رسوله، وقتال المحلِّين. فقال له الحسن: على كتاب الله وسنة رسوله فإن ذلك يأتي من وراء كل شرط، فبايعه قيس وسكت، ثم بايعه الناس.

قال صاحب كتاب «الإنصاف»:

وهذا يدل على رغبة الحسن وميله للصلح من أول يوم بويع فيه، حيث كان يقول للمبايعين له كما روى ابن حجر في «المطالب العلية»، وابن الجوزي في «المنتظم»، وصاحب «الإمامة والسياسة»، كان الحسن يقول لمن بايعوه: تبايعون لي على السمع والطاعة، وتحاربون من حاربت، وتسالمون من سالمت، هذا هو الحسن، ابن بنت رسول الله ﷺ وريحانة رسول الله الذي طالما حمله النبي ﷺ يشمه، بل ويمتص لسانه، ويخرج رسول الله ﷺ لسانه له ليمتص الحسن لعابه. كما روى الإمام أحمد.

وكان ﷺ يحمله على عاتقه ويقول: «اللهم إني أحبه فأحبه، اللهم إني أحبه فأحبه».

وجلس ﷺ مرة بفناء بيت فاطمة فقال: «أثم لعكع»؟ أي الصغير ويعني الحسن.

وجاء الحسن يشتد حتى عانقه النبي ﷺ وقبله وقال: «اللهم أحبه وأحب من يحبه».

وعلى يده تم الصلح بين المسلمين، وتحققت البشارة النبوية فيه بقوله ﷺ عن الحسن: «إن ابني هذا سيدٌ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين».

فقد كان معاوية في قلق من استمرار القتال، فشاور عمرو بن العاص فأشار إليه بإرسال قرشيين ليفاوضا الحسن ويعرضا عليه ما يريد..فذهبا فقال الحسن: إنه لا حاجة لنا بالمال، ولكن الأمة عاشت دمائها. فقالا للحسن: إن معاوية يعرض عليك كذا وكذا، وهكذا تم الصلح في إيلياء، وخطب الحسن فقال: الحمد لله الذي هدى بنا أولكم، وحقن بنا دماء آخركم ألا إنَّ أكيس الكيس التقى، وأعجز العجز الفجور، وقد تركنا هذا الأمر لله ولصلاح الأمة وحقن دمائهم، ثم التفت إلى معاوية وقال: ولا أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ثم نزل.

ولقيه رجل: فقال له يا مُذِلَّ المؤمنين السلام عليك، فأجابه الحسن بأدب: لا تقل ذلك يا أبا عامر فوالله لم أذلّ المؤمنين، ولكني كرهتُ أن أقتلهم في طلب المُلْك..

ثم تواصلت الفتوح.

الخاتمة

إلى هنا، وانتهت هذه الدروس في سيرة الخلفاء الراشدين العطرة السيرة الذهبية التي كان همي فيها إبراز أهم المواقف في سيرتهم الراشدة رضي الله تعالى عنهم .

ومن كان متأسياً منكم، فليتأسَّ بأصحاب النبي ﷺ، فإنهم أبر هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً، قوم اختارهم الله لصحبة رسوله ﷺ، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرتهم، فإنهم كانوا على الهدي المستقيم .

أسأل أن يدخر لي أجر عملي عنده وقد بذلت ما بوسعي ، فإن أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمني ومن الشيطان والله عز وجل يأخذ بأيدينا إلى كل ما فيه رضاه ..

والسلام عليكم ورحمة الله ..

المراجع

١. القرآن الكريم .

٢. صحيح البخاري – محمد بن إسماعيل البخاري .

٣. صحيح مسلم – مسلم بن الحجاج .

٤. المستدرك على الصحيحين – أبو عبدالله الحاكم النيسابوري.

٥. مسند أحمد – أحمد بن حنبل .

٦. رياض الصالحين - الإمام النووي .

٧. المعجم الأوسط – الطبراني .

٨. سنن الترمذي – الترمذي .

٩. سنن أبي داوود – أبو داوود .

١٠. شرح المشكاة – شرف الدين الطيبي .

١١. كنز العمال – المتقي الهندي .

١٢. تهذيب الآثار – الطبري .

١٣. مصنف عبد الرزاق – عبدالرزاق الصنعاني .

١٤. مسند أبي داوود – يونس بن حبيب .

١٥. المحبر الفصيح في شرح البخاري الصحيح – ابن التين .

١٦. المصنف – ابن أبي شيبة .

١٧. مسند البزار – أبوبكر البزار .

١٨. مسند الإمام الدارمي – الدارمي .

١٩. شرح نهج البلاغة – كمال الدين البحراني .

٢٠. المعجم الكبير – سليمان بن أحمد الطبراني .

٢١. تفسيرالتحرير والتنوير – محمد الطاهر بن عاشور .

٢٢. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - ابن عطية .

٢٣. في ظلال القرآن – سيد قطب .

٢٤. تفسير الخازن – علي بن محمد الخازن .
٢٥. تفسير الزمخشري - الزمخشري .
٢٦. روح البيان في تفسير القرآن - البروسوي .
٢٧. تفسير القاسمي – محمد جمال الدين القاسمي .
٢٨. تفسير الطبري - ابن جرير الطبري .
٢٩. تفسيرابن المنذر – ابن المنذر .
٣٠. تفسير الشعراوي – الشعراوي .
٣١. تفسيرابن كثير – ابن كثير .
٣٢. تفسيرالبغوي – للبغوي .
٣٣. تفسير النسفي – النسفي .
٣٤. تفسير السعدي – السعدي .
٣٥. فتح الباري - ابن حجرالعسقلاني .
٣٦. زاد المسير في علم التفسير - ابن الجوزي .
٣٧. هذا الحبيب يا محب – أبو بكر الجزائري .
٣٨. زاد المعاد في هدى خير العباد - ابن القيم الجوزية .
٣٩. الرحيق المختوم – الماركفوري .
٤٠. السيرة النبويه على ضوء القرآن والسنة – أبو شهبة .
٤١. عيون الأخبار – عبدالله بن مسلم الدينوري .
٤٢. شرح المواهب – للزرقاني .
٤٣. السيرة النبوية لابن هشام – ابن هشام .
٤٤. كتاب رحمة للعالمين – القاضي محمد سلمان المنصورفوري .
٤٥. السيرة النبوية – للندوي .
٤٦. محمد رسول الله – الصادق عرجون .
٤٧. الروض الأنف – السهيلي .
٤٨. الاكتفاء – الكلاعي .

٤٩. سيرة الخلفاء – الخضري .
٥٠. سيرة أمير المؤمنين علي – الصلابي .
٥١. سيرة الفاروق عمر – الصلابي .
٥٢. سيرة أعلام النبلاء – الذهبي .
٥٣. تهذيب ابن عساكر .
٥٤. البداية والنهاية – ابن كثير .
٥٥. تاريخ الخلفاء – للسيوطي .
٥٦. تاريخ الإسلام – الذهبي .
٥٧. التاريخ الإسلامي مواقف وعبر– الحميدي .
٥٨. مروج الذهب – المسعودي .
٥٩. معجم البلدان – شهاب الدين بن ياقوت الحموي .
٦٠. تاريخ الطبري – الطبري .
٦١. بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب – الألوسي .
٦٢. نهاية الأرب في فنون الأدب – شهاب الدين النويري .
٦٣. تاريخ دمشق - ابن عساكر .
٦٤. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء – أبي نعيم الأصبهاني .
٦٥. تاريخ الخلفاء – السيوطي .
٦٦. تاريخ ابي الفداء – أبو الفداء.
٦٧. دول الاسلام – الذهبي .
٦٨. الاستيعاب في معرفة الأصحاب - ابن عبد البر .
٦٩. قادة الفتح الإسلامي في أرمينية – محمود شيث خطاب .
٧٠. ذو النورين عثمان – العقاد .
٧١. تاريخ المدينة – ابن شبة .
٧٢. التاريخ الصغير – البخاري .
٧٣. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم – ابن الجوزي .

٧٤. الكامل في التاريخ – ابن الاثير .
٧٥. التاريخ - الفسوي .
٧٦. التاريخ الكبير – البخاري .
٧٧. الموافقة بين أهل البيت والصحابة – ابن السمان .
٧٨. لطائف المعارف – ابن رجب الحنبلي .
٧٩. تهذيب الأسماء واللغات – النووي يحيى بن شرف .
٨٢. نور اليقين في سيرة سيد المرسلين – الخضري .
٨٣. كتاب أبوبكر الصديق – علي الطنطاوي .
٨٤. المعارف – لابن قتيبة الدينوري .
٨٥. المحاسن المجتمعة في الخلفاء الأربعة – الصفوي .
٨٦. الإصابة في تمييز الصحابة – ابن حجر العسقلاني .
٨٧. حدائق ذات بهجة – عائض القرني .
٨٨. منهاج السنه النبوية – ابن تيمية .
٨٩. أشهر مشاهير الإسلام – رفيق العظم .
٩٠. الخليفة الأول أبوبكر الصديق – الصلابي .
٩١. الكامل في اللغة والأدب – للمبرد .
٩٢. كتاب محمد – جان بورد .
٩٣. فتوح البلدان – البلاذري .
٩٤. الطبقات الكبير - ابن سعد .
٩٥. الرياض النضرة في مناقب العشرة – المحب الطبري .
٩٦. الفتنة بين الصحابة – محمد حسان .
٩٧. تذكرة الحفاظ – الحافظ الذهبي .
٩٨. أنباء نجباء الأبناء – ابن ظفر .
٩٩. أخبار عمر – الطنطاوي وأخيه ناجي الطنطاوي .
١٠٠. سنن الدارمي – الدارمي .

١٠١. الخراج – أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم .
١٠٢. الأموال – أبو عبيد القاسم البغدادي .
١٠٣. الفائق – الزمخشري .
١٠٤. تاج الملوك – ابن الحاج المغربي الكبير .
١٠٥. مكائد يهودية عبر التاريخ – عبدالرحمن حسن حبنكه .
١٠٦. الكاتب الإيطالي – جيوفاني بابين .
١٠٧. أسد الغابة في معرفة الصحابة – ابن الأثير .
١٠٨. الخلافة – موير .
١٠٩. محمد وخلفاؤه – ايرفنج .
١١٠. دائرة المعارف البريطانية .
١١١. جولة في عصر الخلفاء الراشدين – محمد السيد الوكيل .
١١٢. عثمان – الصلابي .
١١٣. العقد الفريد – ابن عبد ربه .
١١٤. أنساب الأشراف – البلاذري .
١١٥. عثمان – الصادق عرجون .
١١٦. تحقيق مواقف الصحابة من الفتنة – محمد أمحزون .
١١٧. الفَرق بين الفِرق – عبدالقادر بن طاهر البغدادي .
١١٨. الفصل – علي بن حزم الظاهري .
١١٩. العواصم من القواصم – أبو بكر بن العربي .
١٢٠. المقريزي في خططه – المقريزي .
١٢١. الإنصاف – حامد خليفة .
١٢٢. الخلفاء الراشدون – الذهبي .
١٢٣. الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف – للمرداوي .
١٢٤. الجهاد – البخاري .
١٢٥. الثقات – ابن حبان .

١٢٦. العقيدة الإسلامية – الطحاوي .
١٢٧. التمهيد – الباقلاني .
١٢٨. مصنف عبدالرزاق – عبدالرزاق الصنعاني .
١٢٩. الإمامة والسياسة – ابن قتيبة الدينوري .
١٣٠. خصائص أمير المؤمنين علي – النسائي .
١٣١. المطالب العلية – ابن حجر العسقلاني .
١٣٢. الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة – محمد حميد الله.
١٣٣. البيان والتبيين – الجاحظ .
١٣٤. مناقب عمر – ابن الجوزي .
١٣٥. كتاب العقاد – العقاد .
١٣٦. أعلام الموقعين – ابن القيم الجوزية .
١٣٧. الجامع الصغير – البخاري .
١٣٨. المعجم الكبير – الطبراني .
١٣٩. تراجم أصحاب النبي ﷺ - محمد خالد ثابت .
١٤٠. صفحات من صبر العلماء – الشيخ عبدالفتاح أبو غدة .
١٤١. السنة – عبدالله بن أحمد .
١٤٢. الفاروق – محمد حسان .
١٤٣. الجهاد – ابن حبان .
١٤٤. الإيمان – ابن تيمية .
١٤٥. عبد الحميد طهماز .
١٤٦. الإمام الشافعي .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
١. **أبوبكر الصديق رضي الله تعالى عنه**	٥
٢. المقدمة	٧
٣. حياة الصديق هي الصفحة الأولى في التاريخ الإسلامي	٨
٤. نظام الحكم في الإسلام	١٢
٥. اسمه –لقبه – كنيته	١٩
٦. خبره وحالته قبل الإسلام ورصيده الخلقي في الجاهلية	٢٧
٧. صحبته رسول الله ﷺ قبل الإسلام	٢٩
٨. إسلامه	٣١
٩. مواقفه قبل الهجرة إلى المدينة	٣٨
١٠. هجرة الصديق رضي الله تعالى عنه إلى المدينة	٤٣
١١. قصة تحرك النبي ﷺ نحو الهجرة	٤٣
١٢. حديث سراقة	٤٥
١٣. الأحداث بعد الهجرة وأخبار الصديق	٤٩
١٤. ماذا بعد الوصول إلى المدينة	٥٠
١٥. أبوبكر في المدينة	٥٢
١٦. موقفه يوم بدر	٥٢
١٧. الصديق في أحد	٥٧
١٨. حديث الإفك	٦٠
١٩. بعض مواقف الصديق التاريخية قبل وفاة النبي ﷺ	٧٢
٢٠. موقفه من صلح الحديبية	٧٢
٢١. مشاهد من مشاهد الصديق ومواقفه رضي الله تعالى عنه	٧٨
٢٢. غزوة خيبر	٧٨
٢٣. سرية ذات السلاسل	٧٩

٢٤. فتح مكة ٨١
٢٥. يوم حنين ٨٥
٢٦. غزوة الطائف ٩٠
٢٧. وفد ثقيف على رسول الله ﷺ وإسلامهم ٩١
٢٨. غزوة تبوك ٩٤
٢٩. الصديق أمير الحج سنة ٩ هـ ٩٧
٣٠. في حجة الوداع سنة ١٠هـ ٩٨
٣١. صلاة الصديق بالناس ٩٩
٣٢. خطبة الوداع وفهم الصديق لمغزاها ١٠٠
٣٣. موقف الصديق يوم قبض الرسول ﷺ ١٠١
٣٤. في سقيفة بنس ساعدة ١٠٤
٣٥. بيعة علي للصديق ١٠٦
٣٦. من كلام علي في الصديق رضي الله تعالى عنهم ١٠٨
٣٧. كيف كان احترام أهل البيت للصديق ولأصحابه رضي الله تعالى عنهم ١٠٩
٣٨. مناقب الصديق ١١٢
٣٩. مكانة الصديق عند رسول الله ﷺ ١١٤
٤٠. الصديق صاحب رسول الله ﷺ وأرحم أمة محمد بأمته ١١٥
٤١. عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ١١٩
٤٢. المقدمة ١٢١
٤٣. عمر في الجاهلية ١٢٢
٤٤. إعلان إسلامه ١٣٠
٤٥. هجرة عمر ١٣١
٤٦. صحبته للنبي ﷺ ١٣٤
٤٧. مواقف له أيده الوحي الكريم ١٣٥
٤٨. بعض مواقف عمر في حياة النبي ﷺ وصحبته له ١٤١

٤٩. موافقته في ترك الصلاة على المنافقين ١٤٧
٥٠. موقفه من صلح الحديبية ١٤٩
٥١. موقف عمر من أبي جندل بن سهيل بن عمرو ١٥٠
٥٢. مكانته من رسول الله ﷺ ١٥٢
٥٣. بشارته بالجنة ١٥٢
٥٤. من فضائله خوف الشيطان منه ١٥٤
٥٥. من فضائله رجحانه بالأمة ١٥٤
٥٦. قول الرسول ﷺ في دينه ١٥٥
٥٧. علمه ١٥٥
٥٨. موقفه يوم قبض رسول الله ﷺ ١٥٦
٥٩. كيف كان عمر مع أبي بكر رضي الله تعالى عنهما ١٥٨
٦٠. موقف عمر يوم السقيفة ١٥٨
٦١. موقف عمر رضي الله تعالى عنه من إرسال جيش أسامة ١٦٠
٦٢. موقفه من مانعي الزكاة ١٦١
٦٣. موقفه من إقطاع الصديق أرضاً سبخة للأقرع بن حابس وعيينة ١٦٢
٦٤. خطبة الفاروق بعد ولايته ١٦٧
٦٥. من أين جاء لقبه أمير المؤمنين ١٦٧
٦٦. عمر والفتوح ١٦٩
٦٧. اختياره للقادة ١٧١
٦٨. سياسة عمر في الأموال العامة ١٧٦
٦٩. موقف عمر من أخماس جلولاء ١٧٨
٧٠. أنواع من فرض لهم من العطاء ١٨٥
٧١. أنواع الأموال التي تدخل على بيت المال ١٨٦
٧٢. تعميم العطاء ١٨٧
٧٣. سياسة عمر في العشور ١٨٨

٧٤. كان عمر يعمل بنفسه في عام الرمادة ١٩٠
٧٥. سياسة عمر رضي الله تعالى عنه في تطوير العمران وتمصير الأمصار ١٩٥
٧٦. بناء الكوفة ١٩٧
٧٧. توسيعه للمسجد النبوي ١٩٨
٧٨. سياسة عمر في التعامل مع الولاة ١٩٩
٧٩. سياسة عمر مع غير المسلمين ٢٠٤
٨٠. تصرفات عمر مع الرعية وحرصه على المسلمين ومصالحهم ٢١٠
٨١. مكانة عمر العلمية ٢١٦
٨٢. نصيب عمر من الفراسة والكرامات ٢١٦
٨٣. شخصيته ٢٢١
٨٤. تصرفاته التربوية والتأديبية ٢٢٣
٨٥. عمر مع نفسه وأهله ٢٢٦
٨٦. عمر الرجل: اسمه، وكنيته، ونسبه، ولقبه، ومولده، وصفته، وأموره الخاصة ٢٣٢
٨٧. الأيام الأخيرة في حياته ٢٣٧
٨٨. حادثة قتل عمر ٢٤٢
٨٩. ساعات عمر رضي الله تعالى عنه الأخيرة ٢٤٦
٩٠. اللحظات الأخية في حياته ٢٥٢
٩١. تاريخ وفاته ومدة خلافته وسنه ٢٥٣
٩٢. غسله والصلاة عليه ودفنه ٢٥٣
٩٣. ما قيل في رثائه ٢٥٤
٩٤. هل كان قتل عمر مؤامرة ٢٥٦
٩٥. عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه ٢٦١
٩٦. المقدمة ٢٦٢
٩٧. اسمه ونسبه، وأمه، وكنيته، ولقبه ٢٧٠
٩٨. مولده وصفته وخلائقه ٢٧١

٩٩. مكانته في الجاهلية ٢٧١
١٠٠. إسلامه ٢٧٢
١٠١. ابتلاؤه وهجرته ٢٧٤
١٠٢. اختصاصه بأن الملائكة تستحي منه ٢٧٦
١٠٣. اختصاصه بقول النبي ﷺ (ادعوا إليَّ أخي) ٢٧٦
١٠٤. مساررة النبي ﷺ له في مرضه ٢٧٦
١٠٥. اختصاصه بتجهيز جيش العسرة ٢٧٨
١٠٦. اختصاصه بصلاة الملائكة عليه يوم يموت ٢٨٠
١٠٧. اختصاصه ببعض أدعية رسول الله ﷺ ٢٨١
١٠٨. منهجه في الحكم ٢٨٢
١٠٩. كتابه لقادة الجند ٢٨٥
١١٠. كتابه إلى عمال الخراج ٢٨٦
١١١. فتوحاته ٢٨٧
١١٢. فتوحات عثمان في الجبهة الشرقية ٢٩١
١١٣. جبهة الترك ٢٩٣
١١٤. جبهة الشام ٢٩٨
١١٥. ما أهون الخلق على الله إذا هم عصوه ٣٠٢
١١٦. الفتوحات على الجبهة المصرية ٣٠٣
١١٧. الفتنة على عثمان ٣١٠
١١٨. السبئية وأثرها في أحداث الفتنة ٣٢٣
١١٩. ابن سبأ يشعل نار الفتنة ٣٣١
١٢٠. آخر لقاء بالمسلمين، وآخر خطبة له رضي الله تعالى عنه ٣٤٤
١٢١. آخر أيام الحصار ٣٤٥
١٢٢. استشهاده رضي الله تعالى عنه ٣٤٧
١٢٣. **علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه** ٣٥٣

١٢٤. المقدمة ٣٥٥
١٢٥. بيعة علي رضي الله تعالى عنه ٣٥٦
١٢٦. كيفية البيعة لعلي رضي الله تعالى عنه ٣٥٨
١٢٧. من هو علي رضي الله تعالى عنه ٣٦١
١٢٨. فضائله، ومولده، وكنيته ٣٦٥
١٢٩. إسلامه ٣٦٦
١٣٠. خصائصه رضي الله تعالى عنه ٣٦٧
١٣١. شجاعته، وكرمه ٣٧٢
١٣٢. الفتنة الثانية وأثر السبئية فيها ٣٧٥
١٣٣. معركة الجمل ٣٧٨
١٣٤. موقعة صفين ٣٨٧
١٣٥. المعتزلون في الفتنة من الصحابة ٣٨٩
١٣٦. تجهيز أمير المؤمنين علي لغزو الشام ٣٩١
١٣٧. خروج علي إلى صفين ٣٩٥
١٣٨. استشهاد عمار بن ياسر ٣٩٨
١٣٩. موقف معاوية من ملك الروم ٤٠١
١٤٠. الدعوة إلى التحكيم ٤٠٢
١٤١. قضية التحكيم ٤٠٥
١٤٢. قضية التحكيم وأهل الحق وأهل الضلال ٤٠٧
١٤٣. أبوموسى الأشعري ٤٠٨
١٤٤. عمرو بن العاص ٤١٢
١٤٥. فتنة ظهور الخوارج ٤١٨
١٤٦. معركة النهروان ٤٢٥
١٤٧. معاملة علي للخوارج ٤٢٨
١٤٨. من هم الخوارح ؟ ٤٢٩

١٤٩.	استشهاد علي رضي الله تعالى عنه	٤٢٩
١٥٠.	وصيته	٤٣٤
١٥١.	مدة خلافته	٤٣٥
١٥٢.	خطبة الحسن بن علي بعد مقتل أبيه	٤٣٦
١٥٣.	كيف استقبل معاوية خبر استشهاد علي	٤٣٦
١٥٤.	بعض القصص من سيرته ومواعظه	٤٤١
١٥٥.	الخاتمة	٤٤٥
١٥٦.	المراجع	٤٤٦